ماتياس إينار

زون

zone

رواية

المكتبة الشرقية

ماتياس إينار

زون

Zone

رواية



ترجمة

ماري طوق

المكتبة الشرقية

© المكتبة الشرقية ش.م.ل.
الجسر الواطي – سنّ الفيل
ص.ب. 55206 – بيروت، لبنان
تلفون: 485793 (01) – فاكس: 485796 (01)
E-mail: libor@cyberia.net.lb
www.librairieorientale.com

الطبعة الأولى 2010
ISBN: 978-9953-17-047-3



Cet ouvrage, publié dans le cadre du programme d'aide à la publication Georges Shéhadé, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires Etrangères et Européennes et du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France au Liban.

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الخارجية الفرنسية والأوروبية والسفارة الفرنسية في لبنان، قسم التعاون والعمل الثقافي وذلك في إطار برنامج جورج شحادة للمساعدة على النشر.

Ouvrage publié avec le concours du Ministère français chargé de la culture - Centre national du livre.

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة الفرنسية – المركز الوطني للكتاب.

ثم دلفنا إلى السفينة

فأرخينا القلوس متّجهين شطر البحر الإلهي

ونصبنا الصواري والأشرعة ماخرين عباب اليمّ

على متن تلك السفينة الداكنة، وضعنا خرافنا وأجسادنا أيضًا

عزرا باوند

أنا وأورشليم أشبه بأعمى يقود كسيحًا،

تبصر بدلا منّي

حتى البحر الميت، حتى آخر الأزمنة.

أحملها على كتفيّ.

وتحت جناحها، أسير في الظلمات.

يهودا أميشاي


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

الفصل الأول

كلّ شيء يغدو أصعب في سنّ النضج، كلّ شيء يصدر رنينًا مخادعًا بازدياد شبه معدني وكأنّه تضارب سلاحين من البرونز، يحيلاننا إلى ذواتنا ولا يتركان لنا منفذًا نخرج منه، هو سجن جميل، نسافر بمعيّة أشياء كثيرة، طفل لم نحمله، نجمة صغيرة من كريستال بوهيميا، طلسم بقرب الثلوج التي نراها تذوب، بعد انعكاس مجرى تيّار الخليج الحارّ مستهلًّا عصرًا جليديًّا، وظهور رواسب متجلّدة في روما أو جبال جليد في مصر، لا يتوقّف المطر عن الهطول على ميلانو، تخلّفت عن موعد إقلاع الطائرة، وتوجّب عليّ اجتياز ألف وخمسمائة كيلومتر في القطار تبقّى لي منها خمسمائة، هذا الصباح سطعت جبال الألب كنصال السكاكين، وكنت أرتجف من شدّة الإرهاق على مقعدي عاجزًا عن إغماض عينيّ كمدمن خائر القوى، تحدّثت إلى نفسي في القطار بصوت عالٍ، أو بصوت خفيض، أشعر أنّي عجوز طاعن في السنّ، أودّ لو يتابع القطار سيره باتّجاه اسطنبول أو سيراكوز حتى يبلغ منتهى طريقه ليكن عارفًا هو على الأقلّ طريقه حتى منتهاها، فكّرت آه حالتي يرثى لها أشفقت على نفسي في هذا القطار الذي ينفذ إيقاعه إلى أعماق النفس كمبضع جرّاح لا يخطىء هدفه، أدع الأشياء تفرّ من أمامي، كلّ شيء يتوارى ويغدو أصعب في هذه الأزمنة

المتسارعة على طول سكك الحديد، وددت لو أنقاد ببساطة من مكان لآخر كما يُفترض بالمسافر عادة، كمثل أعمى يُمسك أحدهم بيده لدى اجتيازه طريقًا محفوفًا بالأخطار لكنّي أتيت لتوّي من باريس متّجهًا إلى روما، والآن في محطة ميلانو المركزيّة، في معبد أخناتون هذا للقاطرات الذي لا تزال ندف الثلج عالقة عليه رغم المطر أدور في مكاني، أنظر إلى الأعمدة المصريّة الهائلة التي يستند إليها السقف، أحتسي كأسًا أعلّل بها نفسي على الرصيف المطلّ على خطوط الحديد كما أرصفة أخرى على البحر، لكنّ الشرب لا يريحني إطلاقًا، ليس الوقت وقت الإفراط في تناول الكحول، ما أكثر الأشياء التي تصرفك عن الدرب المرسوم وتضلّلك والكحول إحداها تزيد جراحك عمقًا، وتجد نفسك وحيدًا داخل محطّة هائلة متجلّدة لا يشغل بالك إلا وجهة هي أمامك وخلفك في آن: إلّا أنّ حركة القطار ليست دائريّة، فهو ينتقل من مكان لآخر أمّا أنا فأدور في فلكي مثل حصاة وأشعر أنّني حجر عديم الوزن، عندما واجهتُ الرجل على الرصيف، أدركت أنّني أجتذب المجانين والمختلّين في هذه الأيّام يخترقون هشاشتي يجدون فيَّ مرآة لهم أو رفيق سلاح وذاك الرجل مجنون فعلاً كاهن لدى إله مجهول يرتدي قلنسوة كالعفاريت ويحمل جرسًا صغيرًا في يده اليسرى، يمدّ لي اليمنى هاتفًا بالإيطاليّة: «أيّها الرفيق صافحني مرّة أخيرة قبل نهاية العالم» لا أجرؤ على مصافحته لخشيتي من أن يكون مصيبًا، يبدو في الأربعين من عمره، ليس أكثر، يتفحّصني بتلك النظرة الحادّة المتفرّسة التي تميّز المجانين حين يكتشفون فيك فجأة أخًا ظرفيًّا لهم، أتردّد أمام الذراع الممدودة مرتعبًا من هذه الابتسامة البلهاء أجيبه «لا شكرًا»، وكأنّه كان يريد أن يبيعني جريدة أو يقدّم لي سيجارة، عندئذٍ حرّك المجنون جريسه وأخذ في الضحك بصوت مرتفع مشؤوم مشيرًا

إليّ بالبنان باليد التي مدّها لمصافحتي، ثم بصق أرضًا، وابتعد، اجتاحت الرصيف وحشة مشوبة باليأس في هذه اللحظة ما الذي لا أعطيه لأجل ذراعين تضمّانني أو كتفين أستند إليهما، حتى أنّني قد أتخلّى عن القطار الذي يقودني إلى روما، أتخلّى عن كلّ شيء، إذا ما ظهر أحد ما واقفًا هنا وسط المحطّة، وسط الظلال، وبين الناس الذين لا يرافقهم أحد، المسافرين المتشبّثين بهواتفهم وحقائبهم، جميع هؤلاء الذين سيتوارون عن الأنظار ساهين عن أجسادهم أثناء الغفلة القصيرة التي ستقودهم من محطّة ميلانو المركزيّة إلى فوسولي وبولتسانو أو ترييستا، منذ زمن بعيد كنت متّجهًا من محطّة ليون إلى باريس، تقدّم منّي أحد المتزهّدين البلهاء وأنذرني أيضًا بنهاية العالم وكان على حق، انفلقت آنذاك إلى نصفين في الحرب وتحطّمت مثل نيزك صغير، أشبه بتلك الشهب الخامدة في السماء، قذيفة طبيعيّة يقول علماء الفلك إنّ وزنها يكاد لا يُذكر، يذكّرني الأبله في محطة ميلانو بالمختلّ الظريف في محطّة ليون، ربَّما كان قديسًا، من يدري، ربّما كان الرجل نفسه، ربما كبرنا وفق الايقاع نفسه كلٌّ من جهته وكبر معنا جنوننا المتبادل إلى أن التقينا على الرصيف رقم 14 في محطة ميلانو، المدينة الحاملة اسم الطائر الكاسر أبي الخطاف واسم الجنرال الإسباني ميلان أستراي، المتّكئة إلى كتف السهل مثل بقعة من الثلج الحبيبيّ تقيّأتها جبال الألب ببطء، رأيت قممها أشبه بأنصال من الصوّان تمزّق السماء منذرة بنهاية العالم كما أكدّ لي العفريت حامل الجرس في محراب الحداثة هذا محطة ميلانو الرئيسيّة الضائعة في الزمن مثلي أنا الضائع هنا في هذه المدينة الأنيقة، مع عصبة على العين كميلان أستراي[1]

(1) ميلان أستراي، جنرال إسباني تكلّف بقيادة اللفيف الأجنبي عام 1920 =

الجنرال الأعور، الطير الكاسر، المحموم، المتأهّب للانقضاض على فرائسه النابضة حياة وتمزيقها ما أن يستعيد طيرانه المضيء المحفوف بالخطر: كان ميلان أستراي يودّ أن تصبح مدريد روما جديدة، كان يعمل تحت إمرة الجنرال فرانكو دوتشي إسبانيا معبوده الأصلع إبّان هذه المقدّمة الدامية المجلجلة التي سبقت حرب الأربعينيّات الكبرى، كان ذاك الأعور الشغوف بالقتال قائد المجنّدين يصرخ ملء حنجرته **ليحيَ الموت Viva la muerte**، ذاك النبيّ العسكريّ، وكان على حقّ، ستعزف فوجة الموت حتى بولونيا، وسترتفع أمواج الجثث عالية ثم يتدّفق زبدها ملامسًا ترييستا وكرواتيا، على ضفاف البحر الأدرياتيكي: أفكّر في ميلان أستراي، في مواجهته مع أونامونو[1] كاهن الثقافة الصارم فيما المسافرون يحثّون الخطى على الرصيف قاصدين آخر العالم في القطار الذي يقودهم إليه قدمًا، كان أونامونو من المثاليّة والنبل بمكان بحيث لم يتوقّع وشوك حدوث المجزرة، لم يستطع أن يسلّم بأنّ الجنرال الأعور كان على حقّ حين هتف «يحيَ الموت» أمام أتباعه مستشعرًا (البهائم ترتجف قبل العاصفة) أنّ الأرض ستنبت جيفًا، وأنّ الموت سيحصد لبضع سنوات أوفر الغلال، مختتمًا مواسمه هو أيضًا في قطار، قطار بين بولتسانو وبيركينو،

= في شمال المغرب وكان آنذاك محتلًا من القوّات الإسبانيّة، ثم عمل تحت إمرة الجنرال فرانكو.

(1) أونامونو: Unamuno (1864-1936) كاتب وشاعر وفيلسوف إسباني يعتبر رائدًا من روّاد الفلسفة الوجوديّة من آثاره «حسّ الحياة المأسويّ» و«محنة المسيحيّة». يشير الراوي إلى المواجهة التي حصلت بين أستراي وأونامونو فقال عن أستراي: «إنّ معاقًا لا يملك الكبر الروحي لسرفانتس لهو يفتّش عن عزاء له في التشوّهات التي يمكن أن يتسبّب بها لمن حوله».

بين تريستا وكلاغنفورت أو بين زغرب وروما، حيث توقّف الزمن، كما توقّف بالنسبة لي على هذا الرصيف المحفوف بالحافلات والقطارات المسعورة النفّاخة، وقفة بين موتين، بين الجنرال الإسبانيّ والمحطّة سميّته، وقفة ساحقة مثل آريس إله الحرب نفسه- أُشعل سيجارة أخيرة سهوًا، يجب التحضّر للسفر، للرحيل كجميع أولئك الذين يذرعون محطّة ميلانو الرئيسية بحثًا عن حبيب، عن نظرة، عن حدث يقتلعهم من هذه الحلقات اللامتناهية، من عجلة الوقت الطاحنة، عن لقاء، أيّ شيء يخرجهم من ذواتهم، وينسيهم ذكرى الانفعالات الممضّة والجرائم، غريب، ما من امرأة على الرصيف في هذه اللحظة بالذات، مدفوعًا بذكرى ميلان أستراي وعينه المعصوبة أصعد بدوري في القطار السريع العابر إيطاليا الذي كان في ذورة التطوّر والتكنولوجيا لعشر سنوات خلت بأبوابه الأوتوماتيكيّة وسرعته التي تتجاوز المئتي كيلومتر في الساعة على خطّ مستقيم إذا كان الطقس جيدًا، واليوم، والعالم يشارف على نهايته، بات قطارًا كغيره من القطارات وهذا ينطبق على جميع الأمور، على القطارات والسيّارات والعناقات، والوجوه والأجساد سرعتها أو جمالها أو بشاعتها فتبدو مضحكة فعلاً بعد انقضاء بضع سنوات، حين تفسد أو تصدأ، أجتاز المرقاة فأدخل عالمًا آخر، المخمل يجعل كلّ شيء كثيفًا، ويزيد من دفء المكان، أغادر الشتاء نفسه لدى صعودي إلى هذه الحافلة، مدشّنًا رحلة في الزمن، في يوم ليس كالأيّام الأخرى، يوم مميّز، الثامن من كانون الأوّل عيد الحبل بلا دنس، أفوّت عليَّ عظة البابا في ساحة إسبانيا فيما يتقدّم منّي أحد البلهاء ويبشّرني بنهاية العالم، كان بإمكاني أن أرى الحبر الأعظم لمرّة أخيرة، أن أرى الحفيد الروحي للقائد الفلسطيني الأوّل، الوحيد الذي توصّل إلى نتيجة ما، ومع ذلك لم يكن الأمر رابحًا سلفًا بالنسبة لهذا المشرقيّ

الناحل المعدم والمتباكي الذي لم يكتب سطرًا في حياته، في الخارج على السكّة المتاخمة قطار متوقّف في داخله فتاة جميلة خلف النافذة نظراتها مغلّفة بسحر ما، أظنّ أنّها تتحدّث إلى أحد لا أراه، إنّها قريبة جدًّا منّي، على مسافة متر على الأكثر بيننا نافذتان متّسختان عليّ أن أكون قويًّا، لا يمكنني التريّث وتأمّل وجوه النساء الشابّات، عليّ أن أستعيد كامل عزيمتي وأكون في كامل الأهبة والاستعداد لاجتياز الكيلومترات المتبقّية لي ومواجهة الفراغ الآتي بعدها والرعب الذي يخبّئه لي العالم أبدّل حياة ومهنة يحسن لي عدم التفكير بها، وضعت الحقيبة الصغيرة فوق مقعدي وأوثقتها خفية بحاملة الأمتعة، من الأفضل لي أن أغمض عينيّ لبرهة لكنّي أرى على الرصيف رجلَيْ شرطة يركبان عربتين كهربائيّتين ذات عجلتين كالعربة التي كان يركبها آخيل أو هكتور دون حصان مطاردين شابًا أسود هاربًا باتّجاه السكك ما أثار الدهشة والاضطراب بين المسافرين، كان الملاكان الأزرقان، وربّما هما أيضًا نذيرا نهاية العالم، يمتطيان كرّاجة غريبة بلون الأثير الهادىء، ينزل الجميع من القطار مغتنمين الفرصة لرؤية المشهد، ابن تيديه[1] وبالاس أثينا[2] ينقضّان على الطرواديّين، على بعد عشرات الأمتار منّي باتّجاه القاطرة يدرك أحد الدركيين الرجل الفار، وبحركة منه تنمّ عن عنف نادر تؤازره سرعة مركبته المدفوعة إلى أقصاها يقذف الرجلَ التعس فيتهاوى أرضًا صادمًا رأسه بأحد أعمدة الإسمنت ثم يستقرّ على بطنه وسط محطّة ميلانو الرئيسيّة تمامًا في الوقت الملائم الذي

---

(1) ابن تيديه أو ديوميد أمير أرغوس، أحد أبطال حرب طروادة اشتهر بشجاعته وبحماية الإلهة أثينا له.

(2) أثينا إلهة الحكمة عند اليونان، وبالاس لقبها وهو لصيق بالمعبودة الإغريقيّة ويعني العذراء باعتقاد البعض.

يأتي فيه الملاك الثاني ويقفز على حقويه فيسمّره في مكانه ثم يعتلي ظهره كمروّض أو كمزارع يقيّد حيوانًا جموحًا، ثم يمتطي مركبته ويجرّ جسد المجرم المتعثّر بسلاسله خلفه وسط دمدمات الإعجاب الصادرة عن الحشد، مشهد انتصار يذكّر بالعصور القديمة، عندما كانوا يجولون بالمهزومين المقيّدين بالسلاسل خلف مركبات الظافرين، يجتذبونهم إلى السفن الشراعيّة المقعّرة، وجه الأسود متورّم وأنفه نازف ورأسه مرفوع وكأنّه لا يصدّق ما حصل له، يعاود الجميع صعودهم إلى الحافلة طويت صفحة الحادث وانتصرت العدالة قبل انطلاق القطار ببضع دقائق، أرنو إلى حقيبتي، أخاف ألا أتمكّن من النوم، أن يطاردوني، ما أن أتناعس أو أسهو قليلاً حتى يتغلغلوا إلى نومي ويفتحوا أجفاني المغمضة كما يُفتح مصراع نافذة أكورديوني أو ستارة بندقيّة، منذ زمن طويل لم أفكّر في البندقيّة، بالمياه الخضراء عند رأس «لا دوان»، بضباب زاتيري والبرد الشديد لدى تأمّل المدافن ابتداءً من «فوندامنتي نووفي»، منذ عودتي من الحرب، لم أفكّر في «الظلال» وهي، في البندقيّة، تعني الخمرة وتُشرب في الشتاء مساءً منذ الساعة الخامسة، أرى من جديد عازفي الكمان السلافيّين الذين كانوا يعزفون لليابانيّين، وفرنسيّين في موكب الكرنفال المقنّع، ومزّين الشعر الثري من ميونخ الذي اشترى قصرًا على القنال الكبير، وينطلق القطار فجأة، أرجع رأسي إلى الخلف، ينطلق القطار ولم يبق إلا خمسمائة كيلومتر ليجتازها قبل نهاية العالم

الفصل الثاني

أستسلم لإيقاع القطار المنتظم الرتيب مجتازًا ضواحي المدينة حاملة اسمَي الجنرال الإسباني والطير الكاسر، ضواحي مدينة في الشمال كما يوجد منها الكثير، المباني أشبه بمعتقلات عموديّة يُحشد فيها العمّال، ومهاجرو الستينيات، أستسلم لإيقاع العوارض الغريب- أراني في البندقيّة في تلك الشقّة الصغيرة الرطبة حيث النور لا ينفذ إلا من المطبخ، أرضيّتها منحدرة، أنام فيها وساقاي مرفوعتان إلى فوق، هذا جيّد للدورة الدمويّة على ما يبدو، كانت الشقّة تقع عند مدخل الغيتو قبالة الفرن على مسافة قريبة من الكنيس الكبير حيث تتناهى إليّ تلاوات المزامير والأناشيد أحيانًا، وأحيانًا أخرى كان اسم الحي يثير الخوف في قلبي، الغيتو القديم، وخصوصًا في الليل حين يكون كلّ شيء موحشًا وساكنًا، عندما تعصف البورة الريح الشماليّة الباردة التي تبدو آتية للتو من أوكرانيا بعد أن تكون قد جلّدت في طريقها التشيكيّين والمجريّين والنمساويّين، في الغيتو القديم حيث كنت أقيم، مستحيل عدم التفكير في لودز وسالونيك وفي غيتوات أخرى لم يتبقّ منها شيء، ومستحيل ألا يتعقّبك شتاء 1942، وألا تتخيّل القطارات الذاهبة إلى تريبلينكا وبلتزيك وسوبيبور[1]،

(1) في عام 1942، انشأ النازيّون في جنرال غوفرنمنت (إقليم يقع داخل =

في 1993 بعد أشهر قليلة من حربي أنا بالذات ومرور خمسين سنة بالضبط على إبادة اليهود، في الغيتو البندقيّ الغارق في الضباب والبرد رحت أتمثّل آلة الموت الإلمانيّة ولم أكن أدري أنّ إحدى رحاها الكبرى دارت قريبًا من هنا، على مسافة بضعة كيلومترات، لكن إذا خطرت على بالي البندقيّة من جديد في هذه اللحظة وسط الخدر الذي يثيره فيّ سير القطار الرتيب فهذا على شرف تلك التي وافتني إليها، وجسدها الذي كانت تحجبه عني غالبًا كان يرغمني على القيام بنزهات طويلة على قدميّ حتى الفجر أحيانًا، معتمرًا قلنسوتي السوداء، عابرًا الساحة حيث المغربيّان في برج الساعة، محيّيًا تمثال القديس كريستوف الذي يعلو قبّة واجهة كنيسة مادونا دولورتو، هائمًا بين المباني القليلة العصريّة الموجودة في الأعلى والتي كأنّها أقيمت هناك عن سابق تصميم لحجبها عن الأنظار، وكأنّها لم تكن محجوبة أصلاً بالبحيرة الشاطئيّة، كم من المرّات وجدتني أحتسي القهوة عند طلوع النهار مع سائقي حافلات الفابوريتي الذين كانوا لا يكترثون لوجودي بينهم، لأنّ للبندقيّين هذه القدرة المتأصّلة على تجاهل كلّ من هو ليس منهم، على عدم النظر إلى الأجنبي وكأنّه غائب عن الوجود، هذا الاحتقار المطلق الذي يبادرك به البندقيّ المنتفع وارث تلك النبالة الغريبة الغابرة فيتجاهل كليًّا اليد التي أطعمته لم يكن مستكرهًا، بل خلافًا لذلك يتيح لك التصرّف بصراحة وحريّة كبيرتين، بعيدًا عن التودّد الذي يسم عادة العلاقات التجاريّة والذي اجتاح العالم بأسره، العالم بأسره ما عدا البندقيّة، هنا يمعنون في تجاهلك واحتقارك وكأنّهم

= بولندا المحتلّة)، معتقلات تريبلينكا وبلتزيك وسوبيبور في إطار عمليّة رينهارد للقتل المنظّم ليهود بولندا حيث قتلت قوات الأمن الخاصة ومتعاونوها حوالي 1,526,500 يهودي في الفترة ما بين مارس / آذار 1942 ونوفمبر / تشرين الثاني 1944.

لا يحتاجون إليك، وكأنّ صاحب المطعم لا يحتاج إلى زبائن جدد، مكتفيًا بالمدينة كلها وواثقًا، وأكيدًا، أنّ ندماء أقلّ مكرًا لن يلبثوا، كيفما دارت الظروف، أن يأتوا للجلوس إلى طاولات مطعمه، وكان هذا يمنحه تعاليًا مخيفًا، أشبه بتفوّق الصقر على الجيفة، وفي جميع الحالات سينتهي الأمر بالمسافر منتوفًا، مقطّع الأوصال مع ابتسامة أو دونها، فماذا يجدي الكذب عليه، كان الفرّان قبالتي يتقبّل بكل طيبة خاطر ودون أن يرفّ له جفن، أن يكون خبزه سائغ الطعم وحلوياته باهظة الثمن، كان يراني كلّ يوم وطيلة أشهر دون أن يبتسم لي، ولا مرّة، وقوّته نابعة من يقينه بأنّني سأختفي من أمام عينيه ذات يوم، وسأغادر البندقيّة وبحيرتها الشاطئيّة، بعد سنة أو سنتين أو ثلاث عشرة سنة، هو ابن تلك الجزيرة أمّا أنا فعابر سبيل، كان يذكّرني بهذا كلّ صباح وكان هذا التصرّف ملائمًا ويغنيك عن الأوهام التي لا طائل منها، لم أختلط إلا بالأجانب، من سلافيّين وفلسطينيّين ولبنانيّين، غسان، نايف، خليل، لا بل وبسوريّ من دمشق كان يدير بارًا يلتقي فيه الطلاب والمنفيّون، عمل سابقًا بحّارًا وفرَّ خلال إحدى محطات الرسوّ، شخص غليظ تظنّ لدى رؤيته أنّ لا صلة له بالبحر ولا بالمراكب لا من قريب ولا من بعيد، كان يبدو عليه أنّه ابن بادية حقيقيّ أذناه كبيرتان أزبّتان في ذاكرتي، كان ورعًا جدًّا، يصلّي، ويصوم ولا يتعاطى أبدًا الكحول التي يقدّمها لزبائنه، لكنّ نقطة ضعفه الحقيقيّة الفتيات، العاهرات خصوصًا، وكان يبرّر شهوته بقوله إنّ النبي ﷺ تزوّج العديد من النساء وأحبّ الكثيرات منهنّ، وإنّ الفسق خطيئة جميلة بعد كلّ حساب، أمّا في البندقيّة فلم أمارس الفسق كثيرًا، بدا الشتاء لا متناهيًا ورطبًا وباردًا، وقلّما يلائم في الحقيقة أجواء الفجور، أذكر ليلتي الأولى في الغيتو، لم يكن لديّ غطاء وكانت أوصالي متجلّدة ما دفعني للتدثّر في سجادة عجميّة مليئة بالغبار، بكامل ثيابي ومنتعلاً حذائي لأنّ السجّادة،

القاسية، التفّت على شكل أنبوب وبقيت قدماي مكشوفتين، قرأت قصصًا عن المراكب الأشباح لوليم هوغدسون[1] قبل الخلود إلى النوم كدرويش معدم أو كبحّار على أهبة أن يعاد إلى البحر ملفوفًا بأرجوحة نومه، وهذا أبعد ما يكون عن الإيروسيّة التي ينسبها البعض للبندقيّة، تجمّعت على نفسي مثل سيجار مغبر مفتّت، على سريري بالذات من دون أن اخلع حذائي وقلنسوتي، لماذا لم يكن جهاز التدفئة شغالاً، لم أعد أذكر في جميع الأحوال، لا بدَّ أنّ الحرارة في هذه الحافلة بلغت خمسًا وعشرين درجة، خلعت كنزتي الصوف تمامًا في الوقت الذي خلع الراكب الجالس قبالتي كنزته، رأسه كرأس مغني راب أبيض من نيويورك، يقرأ مجلة *Pronto* بهيئة متعاظمة، أتساءل بمَ سينذرني، بالطبع لن ينذرني، هو، بنهاية العالم بل بالأحرى بنهاية العلاقة بين ممثّليْن هوليوديّين أو بالجرعة الزائدة من الكوكايين التي تناولها رجل أعمال إيطالي في الثلاثين من عمره، اسمه على الغلاف، لوبو، غريب، لا بدّ أنّني مخطىء، كيف يمكن لرجل أعمال أن يدعى لوبو، أي ذئب، أتخيّله جميلاً، شعره برّاق، أسنانه بيضاء، نظراته متوقّدة يشوبها شيء من الاحمرار، لا شكّ أنّهم عثروا عليه فاقد الوعي داخل شقّته الفخمة في تورينو، ربّما كان بصحبة إحدى العاهرات، سيارته اللامبورغيني مركونة في الأسفل في مرآب خاص، وقميصه الأرماني المفكوكة الأزرار ملطّخة ببقع دم قليلة أو بالقيء الأصفر، أتخيّل اضطراب النسوة ربّات البيوت اللواتي يقرأن معظمهنّ هذه المجلات، يا إلهي هذا الذئب في منتهى الجمال والثراء، ونجابة الأصل، أيّ خبر محزن، كان

---

(1) وليم هوغدسون: كاتب إنكليزي ولد في بلاكمور عام 1877 وتوفي عام 1918 إثر إصابته بقذيفة في الحرب العالميّة الأولى، اشتهر برواياته وقصصه القصيرة المرعبة.

بإمكانه أن يكون أكثر فطنة فيصطدم بحاجز الطريق وهو يقود سيّارته بسرعة ثلاثمئة كيلومتر في الساعة، أو يقضي بحادثة تحطّم هيليوكوبتر أو «جت- سكي»، أو يلقى حتفه مفرومًا تحت محرّكات يخته بالذات، أو بالأحرى مقتولاً برصاصة أطلقها في وجهه زوج غيور أو قاتل مأجور من رجال المافيا، لكن أن يشاع أنّه ضحيّة المخدّارت، المخدّرات، فهذا كما لو أنه أصيب بالزهري، هذا عار، مستحيل، ظلم، أكاد أكون متعاطفًا مع هذا الذئب الشاب من تورينو الذي لطّخ شرف عائلته النبيلة في العار، آمل أن يخرج من المستشفى قبل نهاية العالم، لجاري ملامح هادئة يشوبها التعجرف والملامة، يهزّ رأسه مُحدثًا قرقعة خافتة بلسانه فيما الليل يهبط في الخارج، وصلنا إلى السهل، سهل لومبارديا الحزين، وقد خيّم عليه الظلام، شكرًا للرب لن يطول الغسق، والأشجار الجرداء المتجلّدة المنتصبة بالقرب من الخطوط الكهربائية لن تلبث أن تختفي ولن يُلحظ عندئذٍ إلا ظلالها وقد يخرج القمر بين الفينة والأخرى من بين الغيوم مضيئًا التلال قبل بولونيا، بعدئذٍ سينساب بنا القطار باتّجاه الجنوب الغربي ونهنأ في لدونة توسكانة وصولاً حتى فلورنسا باتّجاه روما أخيرًا، خمس ساعات قبل الوصول إلى محطّة ترميني، إلى الكنائس، والبابا، وكلّ ما تبقّى، كلّ المتاع الروماني: أدوات العبادة وربطات العنق، المباخر والمظلات، والكلّ غارق في نوافير برنيني والسيّارات، هنالك حيث على الأرصفة المتعفّنة ونهر التيبر النتن، تعوم تماثيل العذراء والطفل، والقديس متّى، والأم الحزينة، والمسيح منزلاً عن الصليب، والمسلات والأعمدة، ورجال الدرك، والوزراء والأباطرة، وصخب مدينة بُعثت من موتها ألف مرّة، تتآكلها الغرغرينا والجمال والمطر، وأكثر من امرأة جميلة تذكّر بعلّامة عجوز لا حدّ لمعرفته يجلس ساهمًا في كنبته، يودّع الحياة في كلّ حركة من حركاته، يرتجف،

ويسعل، ويتلو الجورجيات الرعويّة[1] أو قصائد هوراسيوس الغزليّة وهو يبول في سرواله، بالطريقة نفسها يفرغ وسط روما ما في أحشائه، مزيدًا من البشر والمآكل والمطاعم والملابس، أمّا الملابس فيطير صوابك حين تشاهد مليارات القمصان ومئات الآلاف من الأخفاف وملايين ربطات العنق والمناديل وهو ما يكفي لإلباس كنيسة القديس بطرس، وتطويق الكوليزيه وتورية كل شيء تحت هذا الكمّ من الثياب إلى الأبد، دع السيّاح يجدّون وينقّبون وسط سقط المتاع الديني الهائل هذا، دع نظراتهم النهمة للاكتشاف تلتمع، انظر، وجدت كنيسة بديعة لبورومينى تحت معطف الفرو هذا، وسقفًا رسمه الأخوة كاراتشي خلف سترة الصيد هذه، وفي هذا الحذاء الجلدي الأسود قرني موسى لميكال آنجلو، ليتهم لا ينتظرونني هنا فلما عدت أبدًا، لو كان كلّ شيء في سن النضج أكثر بساطة لما قمت بهذه الرحلة ولا حملت هذه الحقيبة الأخيرة **مياه اللوار الغاليّ ولا مياه التيبر الرومانيّ**، كما يقول دوبيليه في قصيدته التي حفظتها عن ظهر قلب في المدرسة: سعيد من قام مثل أوليس بسفر طويل وإلخ.، أنا أيضًا لديّ حسراتي[2]، كان أونغاريتي[3] يقول إنّ التيبر نهر محتوم، أونغاريتي الذي ولد في الإسكندريّة بمصر وعاش فيها حتى

---

(1) القصائد الرعويّة أو Géorgiques كتبها فيرجيل نحو 29 ق.م. وهي تتغنّى بمباهج الحياة الريفيّة.

(2) إشارة الى ديوان الشعر **الحسرات** الذي منه أخذت منه هذه القصيدة وكتبه جواكيم دو بيليه Joachim du Bellay (1522- 1560) شاعر فرنسي من شعراء البلياد (جماعة الثريا).

(3) غويسيبي أونغاريتي (1888-1970) شاعر إيطالي ينحدر من أسرة توسكانيّة مهاجرة ولد في الإسكندريّة بمصر وتوفي في ميلانو بإيطاليا. من دووواينه **غبطة الغرقى**، **الألم**، **والأرض الموعودة**، له قصيدة شهيرة: «الأنهار».

العشرين وبعدئذٍ أبحر إلى روما ثم أقام في فرنسا، نعم الإسكندريّة، هناك إسكندرية بيامونتي وهي ليست بعيدة من هنا، لم أذهب إليها قط، أذكر في البندقيّة حين سألت الموظفة في وكالة سفريّات إذا كانت هناك مراكب مبحرة إلى الإسكندريّة نظرت إليّ (شقراء من البندقية، تضع في فمها مشبك شعر كما قد يضع آخرون مسواكًا) حائرة ولكن هناك القطار إذا أردت السفر إلى الإسكندريّة، وبهذه الثقة التلقائيّة التي نوليها للموظّفين، وفي لمحة بصر خطر لي قطار ينطلق من البندقيّة إلى الإسكندريّة بمصر في خط مستقيم عبر ترييستا زغرب بلغراد سالونيك اسطنبول أنطاكية حلب بيروت عكا بور سعيد، على سبيل التحدي للجيوسياسة والواقع، وصولا حتى ألسندريا بيامونتي نفسها، الآن وقد فهمت ارتباك الموظّفة، حدا بي الأمر لأحلم بقطار يوحّد بين كلّ هذه الإسكندريّات، ألسندريا بيامونتي وإسكندرون تركيا وإسكندريّة مصر وإسكندريّة أراخوزي، الأكثر غموضًا ربّما والضائعة في أفغانستان بعيدًا عن سكك الحديد، حلمت بقطار يدعى الإسكندر - إكسبرس ويذهب من إسكندريّة إسخاط في طاجيكستان وصولاً حتى بيامونتي عبر ثغور إفريقيا في ثلاثة عشر يومًا وقدرها ليالٍ، إسكندريّة مصر مدينة أخرى آفلة لا ينقصها السحر عندما تمطر السماء أو تظلم، أذكر أنّه كان لدينا فندقنا على الكورنيش، في المرّة الأولى أمضينا ساعات في الغرفة قبالة المتوسّط إلى أن سقطت كتلة كبيرة من الإسمنت وأوشكت أن تقتل شخصًا جالسًا على الشرفة في الأسفل، لكنّه بالكاد رفع بصره، من هؤلاء المصريّين المعتادين على فكرة أنّ السماء قد تهبط فوق رأسه في أيّة لحظة، في هذه الغرفة المزدوجة كنت أضاجع ماريان، تخلع ثيابها في غرفة الاستحمام، كان لديها جسد ووجه يمزّقان لك روحك، وروحي لم تكن تطلب إلا ذلك، في عطر الشتاء وبحر الإسكندريّة، كنت أسكر من عطور مريان،

لم يكن فندقًا فخمًا مثل فندق سيسيل، ولم تكن إقامتنا في ذلك الفندق شبيهة بإقامة دوريل[1]، حينها كنت أجهل كلّ شيء عن الكتب، عن أونغاريتي أو كافافي الموظّف البسيط التعس في أحد المصارف الكبيرة الموجودة في الرملة، أو في بورصة القطن، أراه خارجًا من العمل، متردّدًا إلى محال الحلويات الهائلة حيث كان يحلم بأنطونيوس مرقس المهزوم في أكسيوم وهو يرمق خادمًا عربيًا يتخلّع في مشيته والشمس غاربة على القلعة المملوكيّة، في الليل كلّ شيء يتشابه، بإمكاني أن أكون في الإسكندرية، في فندق الكورنيش ذاك الذي تصطدم به أمواج البحر، كما يصطدم المطر بزجاج نافذتي الآن، كان الطقس متجهّما آنذاك وكانت السماء تمطر، ذات ليلة، تمطر بعذوبة الآن، على إيقاع الحافلة الايطالية تقريبًا، أوافي مريان في ذاك الفندق المتجلّد حيث كنّا نرتجف بردًا، أغمض عينيّ أتذكّر هذا الاتّصال، هذا الجماع المبتذل والسريع، هل تمّ فعلاً أم تركتني فقط أقبّلها، لا أعتقد، احتفظت بكنزتها ومنديلها وسط الغرفة التي تعبرها تيّارات الهواء لكن عند الصباح أشرقت الشمس ساطعة وبدا البحر أزرق صافيًا، وغادرت مريان إلى القاهرة من جديد على وجه السرعة، بقيت لأيام أجول في المدينة وأشرب «بستيس ريكاردو الإسكندرانيّ العريق» شراب مصري كحولي مريع، معطّر بروح اليانسون كنت أحتسيه دون ثلج في كوب من البلاستيك ناظرًا إلى البحر، يا للوحدة المجيدة، عند الصباح أتناول فنجان شاي في أحد المحلات القريبة من محطّة الرّملة مع كرواسان يزن 500 غرام على الأقل وكأنّه مصنوع من الجصّ الخالص، أنظر إلى عربات الترام جالسًا على كنبة جلديّة عرفت ربّما المؤخّرات المتبطّلة

---

(1) لورنس دوريل (1912- 1990) أديب انكليزي ولد في الهند، أحبّ شواطىء المتوسّط، من رواياته، **يوستينس ورباعيّة الإسكندريّة**

لتسيركاس[1]، وكافافي، وأونغاريتي، أشباح هذه المدينة التي يتآكلها الفقر، المديرة ظهرها للمتوسّط كمن يدير ظهره للحائط، الوسخة الموبوءة، ما أن تترك أحياء وسط المدينة التي هي أيضًا وسخة مع ذلك، إنّها مكان جميل لمراقبة نهاية العالم وتناول السمك المقلي تحت شمس الشتاء المشرقة في كبد السماء التي جلتها الريح، الجو حارّ في هذا القطار، سأنام، أكاد أغفو مهدهدًا بذراعي مريان البيضاوين، وجهها يتبدّل مع الغسق الممغوط في ظلّ الأشجار المتوالية، عدت إلى الإسكندريّة، عدت إليها غالبًا وليس فقط في الحلم، لكي أعقد صفقات شبه سرّية مع جنرالات مصريّين تقاس أهميّتهم ليس فقط بعدد الأنجم فوق أكتافهم بل بسيّارات المرسيدس التي يستخدمونها، جنرالات يحاربون الأصوليّين المسلمين وهم يواظبون كلّ ليلة على مسح جبينهم بورق الزجاج لتبدو وكأنّ ندبة قد ارتسمت فوقها لكثرة احتكاكها بسجّادة الصلاة، بازّين أعداءهم ورعًا وتقوى، في مصر كلّ شيء يقارب الشطط، كنت أدوّن أسماء الشبكات وعناوينها وأتعقّب آثار الناشطين الآتين من أفغانستان أو من السودان، أمّا الضبّاط وكلّ واحد فيهم أعلى رتبة من الآخر فيرفقون جملهم بعبارات إن شاء الله، الله أعلم، لا حول، ولا قوّة، هم الذين كانوا يظهرون الورع نفسه في تعذيب الملتحين وإعدامهم بالرصاص بخفّة ومهارة في الباحات الخلفيّة للسجون المزدحمة بالمساجين على طول وادي النيل، كنت آنذاك في الإسكندريّة، ولمرّتين نجحت في الوصول إليها بحرًا في الصيف، كان هناك مركب يؤمّن الخطّ البحري من قبرص، بالإمكان إذًا

(1) ولد ستراتيس تسيركاس في القاهرة عام 1911 وتوفّي في أثينا عام 1980، كاتب يساري ناضل ضد الإمبرياليّة، من أعماله المشهورة **ثلاثية المدن التائهة**.

الإبحار من بيروت إلى الإسكندريّة عن طريق لارنكا وهذا لم يكن من أسوأ الأسكلات ويبقى أكثر عمليّة، لمن ينقل موادًا حسّاسة مثلي، من مطار بيروت العاجّ بالسوريّين، بالطبع غادرت مريان الإسكندريّة منذ وقت طويل حين كان رأس التين ينبثق من الضباب الصباحيّ، فيمنحنا الانطباع بأنّنا نسترق النظر إلى المدينة سرًّا من الخلف، عن غير قصد كمن يباغت عند الفجر امرأة عارية في غرفة الحمّام، والبحر كان صافيًا لدرجة أنّه من على ظهر السفينة، بالإمكان تعداد قناديل البحر في المياه الدافئة: كنت أتخيّل مريان في كلّ رحلة، إشعاع ملابسها الداخليّة في الغرفة المتجلّدة، الصمت لثانيتين قبالة ساقيها العاريتين عند حافة السرير والتي سرعان ما تخفيهما تحت الشراشف، في الخارج العاصفة تشتدّ، والهواء يصفر من الواجهة الزجاجيّة بدون مصاريع، ماذا كنّا نفعل في السرير نفسه، أمّا هي فكانت تستجيب ولا شكّ لدواعي الحياة العصريّة، وتجد في تقاسم السرير هذا براءة محفوفة بالمخاطر، أمّا أنا فلا أجد فيه إلا فرصة رائعة لإشباع شهوتي المتأجّجة، ويبقى النبيذ الورديّ المسمّى **Rubis d'Egypte** الذي كنت أسقيها منه مع مشروب الريكاردو مجدليّة[1] الإسكندريّة بالنسبة لي: أمام الطاولة وعلى مرأى من الجنود أو ضبّاط الشرطة الذين يحتسون جوني ووكر على الغداء من دون أن يخلعوا نظّاراتهم الشمسيّة، كنت أجرع من **Rubis d'Egypte** و«عمر الخيّام» جرعات كبيرة احتفالاً منّي بذكرى مريان المبهجة على مرأى من أعينهم المرتاعة، من رآهم خال أنّ الدين حلّل فقط الويسكي البريطانيّة

(1) مجدليّة **madeleine** إشارة هنا إلى الحلوى التي تحدّث عنها بروست في رواية *A la Recherche du temps perdu* **بحثًا عن الزمن الضائع**، حين يجعله طعم هذه الحلوى يتذكّر أيام طفولته في كومبراي عند عمّته ليوني.

وحرّم عداها، تعرّفت إلى أحد أقرباء رئيس الجمهوريّة، كان يلتهم سمك السلطان ابراهيم المقلي مع كميّات من ويسكي Single malt، رمز التميّز الطبقيّ والنفوذ، راويًا لي أثناء ذلك بالتفاصيل عن غير معتقلين توفّوا تحت التعذيب أو جرّاء تباريح لم أعد أعرف أيّها- لماذا لم أكن أذهب إلى القاهرة إلا فيما ندر، لم أعد أذكر، كانوا يواعدوننا في الإسكندريّة أو في أغامي عند تخوم الصحراء الليبيّة، ربّما لأنّ الفصل كان صيفًا، في الشتاء كان كلّ شيء مختلفًا، في شتاء 1998 حصلت مناقشات حادّة حول مسألة هامّة في العاصمة، قبالة النيل على ضفّة الغاردن سيتي مع رجال أعمال كانوا يشبهون المناضلين الشيوعيّين اليونانيّين في روايات تسيركاس، رجال على درجة عالية من التذاكي والتفاصح من أصناف هؤلاء الذين يجعلونك تنام كالقطار في هذا المساء، إنّهم شديدو الحذر ومع ذلك مراؤون كالأفاعي، أبعد ما يكونون عن البساطة الذميمة التي تسم الضبّاط ورجال الشرطة في العادة، كانوا ينتزعون نظّاراتهم الأنيقة السوداء لينظروا إليك مباشرة في عينيك، ويروزوك، ويسبروا أغوارك فيما القطار يهدهدني ويخدّرني كما في الإسكندريّة حين كنت أنام مرتجفًا أحصي أنفاس مريان التي لا يمكن اللحاق بها، أعدّ الآن رغمًا عنّي ارتجاج عجلات القطار عند عبور العوارض، واحدة واحدة، أعي وجود جسدي على المقعد، كانوا رجال أعمال مصريّين، ولبنانيّين، وسعوديين وقد حصّلوا جميعهم علومهم في أفضل المدارس البريطانيّة، أنيقين بتحفّظ ولا يمتّون بصلة للكليشهات التي يصوّر من خلالها المشرقيّون كهواة زركشة وصياح، لم يكونوا سمينين أو متنكّرين بزي البدو، بل راحوا يتكلّمون بتهذيب عن ضمان استثماراتهم المقبلة، على حدّ قولهم، ويتحدّثون عن أعمالنا التجاريّة، عن القطر الذي يسمّونه **المنطقة The area** وعن أمنهم، دون أن يتفوّهوا أبدًا بكلمة «سلاح» أو «نفط» أو أيّة كلمة

أخرى، فقط كلمتي «Investment» استثمار وSafety أمن، كنت أتساءل، الآن وقد شعرت أنّ المنظر المتهالك يدفعني إلى النوم، بين الكلاب والذئاب، من هم الكلاب ومن هم الذئاب، كنت برفقة هؤلاء الناس المتمدّنين جًّدا، وكنت أراقبهم، وأستمع إلى رئيسي، هكذا كنت أدعوه، أستمع إلى رئيسي وهو يقنع هؤلاء المخاتلين الظرفاء، بعضهم باعوا أسلحة إلى كرواتيّي البوسنة، وبعضهم إلى المسلمين، وبعضهم إلى الأفارقة قبل أن ينصرفوا إلى تهريب الأسلحة داخل العراق- كان أسياد **المنطقة** في هذا الفندق الضخم في القاهرة تداعوا إلى اجتماع غير رسمي وسعينا خلاله إلى إقناعهم بالانخراط في اللعبة معنا، أطلعناهم على الوضع، وأبلغناهم بالمساعدة التي يمكن أن نمدّهم بها لتصدير النفط العراقي بسعر أفضل وكانوا يملكون منه ناقلات نفط بحالها، الذهب الأسود وفير ويعوم، وكان السوريّون يتقاضون مبالغ هائلة لقاء تصديره وكأنّه آتٍ للتو من آبارهم الضحلة في الفرات فيما كان يتمّ نقله عبر اللاذقيّة، وهي طريق غير مألوفة، كان لدى الجميع أطنان وأطنان من النفط الخام يجب تصريفها، حتى لتخال أنّه بانقضاء بضع سنوات سترى الدبلوماسيين الفرنسيّين الآتين من بغداد يجولون باريس في وضح النهار وفي حوزتهم آلاف البراميل للبيع وكأنّها مراطبين مربّى، كانوا يذكّرونني بالصفقات غير المشروعة التي قام بها جنود **القبّعات الزرق**[1] في البوسنة، عندما كانوا يبيعون حصصهم، ووقودهم، ويستخدمون مركباتهم المصفحّة كسيّارات تاكسي إلى سبليت أو زغرب، بأبسط ما يكون، مرتاحي الضمير مسرورين لحصولهم على مال الجيب الذي تدّره عليهم هذه الخدمات، متذمّرين مع ذلك من الخطر المحدق بهم، لكأنَّ رجال الأعمال هؤلاء في

---

(1) القبّعات الزرق: لقب يُطلق على القوات الدوليّة التابعة للأمم المتحدّة.

المنطقة لم يتنبّهوا إلى الخطر الكامن خلف اليد الممدودة لهم، ولا إلى الألعاب القاتلة التي ستمارس في السنوات المقبلة، وبالطبع، كنت أجهل أنّ كلّ ذلك سيدفعني في نهاية المطاف إلى روما بسرعة مئة وخمسين كيلومترًا في الساعة وسط السهل المتجلّد كرصاصة قذفت من الأستون المخدّد بأشجار المنظر، المنظر الذي يتآكله الغسق اللومبارديّ وقد أضاءته فجأة محطّة لودي: جسر لودي على نهر أدّا لا يفترض به أن يكون بعيدًا، هناك حيث جرت المعركة التي حارب فيها نابوليون خلال حملته الأولى على إيطاليا قبل وقت قصير من حملته على مصر - ربَّما كان بونابرت أعظم قائد حربي في المتوسّط إلى جانب هنيبعل وقيصر، واجه الكورسيكي الغامض المحبوب من زوس آنذاك أجدادي الكرواتيّين الذين كانوا يخدمون في صفوف النمساويّين وقد اصطفوا متراصّين أمام الجسر على الضفّة الأخرى من أدّا، اثنا عشر ألف جندي، أربعة آلاف من الخيّالة مع مدافعهم، وبنادقهم الثقيلة ذات الحراب اللامتناهية وموسيقاهم العسكريّة، باشر نابوليون بالإشراف على قيادة المعركة بنفسه مساعدًا في تصويب المدافع نحو الأهداف المحدّدة، وباعثًا في جنوده الشجاعة والحزم كما كانت أثينا تفعل بالإغريق، واجتازوا الجسر خلافًا لكلّ ما هو متوقّع، قليلا وينقضّون على الجسر الخشبيّ تحت وابل من طلقات الرصاص والشظايا والخردة، شارك رتل من ستّة آلاف رامي قنابل في الهجوم عابرين على جثث الجنود التي غطّت الأرض بُعيد سقوطها على إيقاع طلقات المدافع النمساويّة، تردّدوا وسط الجسر، لكن جان لان[1] الدبّاغ البسيط من جيرس سينقضّ زاعقًا والسيف الساطع في يده، متقدّمًا رجاله إلى الضفّة الأخرى إزاء الطبجيّين الأعداء وقد تولاهم الذّعر، شقَّ

(1) جان لان: **Jean Lannes** أحد أهم جنرالات نابوليون.

الفرنسيون بحرابهم طريقًا بين الأرتال المعادية، فيما عبرت فرقة الخيّالة مخاضة النهر صعدًا موقعة في صفوف الكرواتيّين أبشع المجازر بحيث تفرّقوا في كلّ اتّجاه، ألفا قتيل وجريح سقطوا، ألفا هابسبورغي سقطوا في ظرف بضع ساعات وغطّت جثثهم ضفّة النهر، ألفا جثّة جرّدها المزارعون اللومبارديّون من الأغراض الثمينة التي كانت في حوزتها، ميداليّات العماد، علب التبغ الفضيّة أو العاجيّة، وسط حشرجات المحتضرين والجرحى في تلك الليلة الواقعة فيه الواحد والعشرين من شهر فلوريال[1] 1796 العام الرابع من تاريخ روزنامة الثورة، ألفا شبح، ألفا ظلّ كالظلال الكثيرة خلف نافذتي، أرى أشجار الحور، ومداخن المعامل، يتوجّه القطار إلى سهل البو والريف يزداد قتامة، الجيش الكبير الذي لم يكن يُدعى هكذا آنذاك يدخل إلى ميلانو غداة معركة جسر لودي، ها قد ولد العريف الصغير، والأسطورة في طور التحقّق، وسيتابع بونابرت مغامرته حتى رو-يا، مرورًا بمصر - بعد سنتين، سيحطّ رحاله في الإسكندريّة، عاقدًا العزم على أن يصنع لفرنسا إمبراطوريّة على قياس إمبراطوريّة الهند البريطانيّة، لن تغطي الجثث ضفاف أدّا بعد الآن بل مشارف الأهرام: خمسة عشر ألف جثّة بشريّة وبضعة آلاف من خيول المماليك ستهترىء عند تخوم الصحراء، الديدان الزاحفة ستخلي المكان لجحافل الذباب الأسود تحوم فوق مستنقعات الدم التي امتصّتها الرمال، هناك حيث اليوم يرزح السياح تحت ضربات باعة البطاقات البريدية والتذكارات من كل نوع، في مصر الذباب لا يحصى عديده، على مسافة بضعة قلوس من الوادي الخصيب، يتحوّم على الأبقار المذبوحة المعلّقة في الأسواق المسقوفة، المرويّة بالقنوات النتنة التي يسيل إليها دم البهائم المذبوحة

(1) فلوريال الشهر الثامن في التقويم الثوري في فرنسا.

باطمئنان، لا بدَّ أنّ رائحة اللحم الميت هي نفسها بعد المعركة، الذباب ينتصر دومًا، أُسند رأسي برفق إلى النافذة محنيّ الظهر بفعل السرعة في العتمة، مخدّرًا بذكرى حرّ القاهرة الثقيل، وأشجار المانغا المغبرة، وأشجار الأثأب المترهّلة، والمباني البالية، وعمامات البوّابين الفاتحة، والفول المطبوخ الذي تملأ رائحته النتنة أرجاء الفجر أشبه برائحة البهائم المعلّقة في الشمس، على بعد خطوتين من سفارة بريطانيا العظمى التي كانت في أربعينيّات القرن المنصرم تعجّ بالجواسيس كما تعجّ اليوم بالصراصير، في نزل لا اسم له في الطابق الأخير من المبنى حيث استعمل قفص الدرج مستوعبًا تكوّمت فيه النفايات، وبينها الفرشات المبقورة والدّراجات الصدئة، حتى مستوى سفرة الطابق الثاني، تقع غرفتي وكانت مزوّدة بشرفة بفعل معجزة، وفي الليل، في الهدأة النسبيّة للمدينة التي لا تنام أبدًا، أراقب شريط النيل الأسود ورائحة سمك البحري تفوح منه، مخطّطًا بالأضواء الموجّهة إلى الأسفل في دار الأوبرا الجديدة على الجزيرة، وكأنّها سمك صلّور بديع ذو شوارب طويلة مضيئة، كنت اقرأ **المدن التائهة**[1]، من دون أن أفهم جيّدًا ما أقرأه، ومن دون أن أستشفّ الروابط بين الدسائس الخفيّة التي تنطوي عليها الصفحات وبين دوري أنا بالذات كجاسوس دولي، كمثل حالي اليوم، جالسًا وفوقي حقيبتي، جامدًا مستسلمًا لقطار يسير بي بسرعة أكثر من مئة كيلومتر في الساعة عبر الغسق ولا أعي حقًا اللعبة التي أشارك فيها، ولا الخيوط التي تحرّكني بطريقة أكيدة أيضًا كهذا القطار الذي يقلّني إلى روما، هما التعب والأرق تدفعك إليهما هذه الحتميّة العذبة، تتوه عيناي في حنايا مساء كانون الأول وحباحب الجليد التي يضيئها القطار بين الفينة

(1) **المدن التائهة**: ثلاثيّة الروائي اليوناني ستراتيس تسيركاس.

والأخرى على الأشجار المجرّدة من أوراقها، يمكن للحياة أن تشبه كرّاسًا غير متقن لوكالة سفريات، باريس زغرب البندقيّة الإسكندريّة ترييستا القاهرة بيروت برشلونه الجزائر روما، أو كتيّب تاريخ عسكري يسرد النزاعات والحروب، وحربي أنا بالذات، وحرب الدوتشي، وحرب ميلان أستراي قائد المجنّدين الإسبان، أو حرب 1914 وهكذا دواليك رجوعًا إلى الأزمنة الأولى إلى حرب سرقة النار، أنا الجنديّ الصالح وصلت هذا الصباح إلى محطّة ليون في الوقت المحدّد بالضبط، يا للفكرة الغريبة قال لي صوت عبر الهاتف، فكرة المجيء في القطار، أفترض أنّ لديك أسبابك، لا سبب لديّ، على حدّ علمي، الأمر بسيط، تخلّفت عن موعد إقلاع الطائرة، وفي القطار الذي أقلّني إلى ميلانو كنت أحلم وأنا بين النوم واليقظة - منذ كم من الوقت لم أستقلّ قطارًا- بحرب إسبانيا والغيتوات البولونيّة متأثّرًا ولا شكّ بالوثائق الموجودة في حقيبتي، التي يسيل حبرها المعلوماتيّ على مقعدي مخترقًا أبواب نومي، هذا إذا لم تخترقه أصابع مريان الشفيفة بعروقها الزرقاء، في هذا المنعطف من حياتي، اليوم في الثامن من كانون الأول أحلم وأنا جالس بين مدينتين ميتتين كسائح يراقب، من على متن الباخرة التي تجول به على هواها، ضفاف المتوسّط تتوالى تحت عينيه، لا متناهية، محفوفة بالصخور والجبال هذه التُرب المركومة فوق المقابر الجماعيّة ومستودعات الجثث وكأنّها خريطة ترسم الطرق وسكك الحديد والأنهر التي تواصل جحف الموتى والبقايا والنتف والصرخات والعظام المنسيّة أو المبجّلة أو المجهولة أو المحتجزة في سجلّ التاريخ الكبير، مثل رقّ معيب يحاكي عبثًا الرخام ويشبه المجلّة الرخيصة التي طواها جاري ليتمكّن من قراءتها دون جهد، وفيها عن الجرعة الزائدة للمخدّرات التي تناولها رجل الأعمال الإيطالي، وفضائح الممثّلات والعاهرات التي قلّما تتسم بفضائحيّتها،

وحركات المجهولين وسكناتهم، كلّ هذه الأخبار القريبة في الواقع من محتوى الحقيبة، ومن الأسرار التي سأتقاضى ثمنها من مالكيها الشرعيّين في مقابل التحقيقات الدؤوبة التي قمت بها أثناء تحرّكاتي كجاسوس دولي: عام 1998 اغتنمت الفرصة التي تفصل بين اجتماعين لكي أتجوّل في القاهرة، شتاء المدينة مشرق دومًا، الغبار أقلّ كثافة والحرارة معتدلة حتى لو كان المصريّون يدّعون قائلين إنّ الطقس بارد، وهذا أمر كنت أستغربه في مدينة لا تنخفض درجة الحرارة فيها عن العشرين درجة، في جادة قصر العيني على تخوم الغاردن سيتي الحي البريطاني الآفل زهوه المتهالك حيث يوجد الفندق الذي نزلت فيه كان هناك حانوت لبيع الكحول بإدارة يونانيّين، وكنت أذهب إليه بين الفينة والأخرى لأتزوّد بمشروب بستيس ريكاردو الإسكندرانيّ الأصليّ، لا تعثر في الواجهات، حرصًا منهم على عدم المسّ بمشاعر المسلمين، إلا على أكداس من علب المحارم الورقيّة الزرقاء والزهريّة والخضراء فيما ترزح الرفوف الخشبيّة من الجهة الخلفيّة تحت ثقل زجاجات «ميتاكسا[1]» و«جين بوردنز» و«ويسكي جي أند سي» المصنّعة في جمهورية مصر العربيّة، وجميعها تعتمد الأساليب نفسها في إعداد الكحول ومعظمها يُستخدم فيما بعد لإنتاج المساحيق المستعملة في تنظيف المعادن أو تلميع الزجاج، لم يكن المصريّون يجازفون باحتسائها، فالضبّاط الذين كنت أقابلهم لا يحتسون إلا المشروبات المستوردة المشتراة من الأسواق الحرّة، لم تكن تجارة السمّامين اليونانيّين مربحة، وكانوا يبيعون في الواقع البيرة، لأهل الحيّ خصوصًا، وقليلاً من مشروب اليانسون لمغامرين بلهاء أو لمن تستهويهم الماركات، يغلّفون الزجاجات بصفحات من أعداد قديمة من جريدة Ta nea الصادرة

(1) براندي يوناني.

في أثينا، ثم يضعونها في كيس بلاستيكي زهريّ اللون وهم يحرصون على أن يوضحوا لك بفرنسيّة مزوّقة بأنّه «من الأفضل عدم الإمساك بمقبض هذه الزجاجات» وهم يرمقونك من غير مبالاة ودون أن تفترّ ثغورهم عن أيّة ابتسامة، الشيء الذي ذكّرني على الفور بأهل البلقان وبنادرة قديمة تقول إنّك بحاجة إلى كمّاشة لكي تجعل صربيًّا يكشف عن أسنانه، والهلينيّون هم بلقانيّون دون شك، ولو تعلّق الأمر فقط بالتقتير في الابتسام - في حانوت قصر العيني كان هناك رجل يواظب على الجلوس في إحدى الزوايا على كرسي خشبي مصنوع على صورة كيلوباترا، متحدّثًا إلى الحانوتيّين بفرنسيّة ذات لكنة غريبة، كان يمسك ربعيّة من الميتاكسا أو كونياك «Ami Martin» مغلّفة بورق جريدة ويسكر خفية وعلى الأصول محاورًا زوّاره، حين استعمت إليه في المرّة الأولى، أخذ يكيل الشتائم لعبد الناصر وأنصار العروبة، بعد أن انقضى على غيابه عشرون عامًا، فعبد الناصر توفي منذ زمن طويل وماتت معه الوحدة العربية أو كادت تموت، كان مدهشًا فعلاً الاستماع إلى هذا السكّير العجوز بوجهه الذي لوّحته شمس القاهرة، النحيل الغارق في بذلة رماديّة غامقة فضفاضة، وهو يضمر مثل هذا الحقد على رائد القوميّة العربيّة، كان يذّكرني بجد فلاهو، صديقي في السلاح، وهو كرّام عجوز من دلماتيا كان يمضي وقته في ذكر مثالب تودجمان[1] ويصفه بالمتعصّب الفاشي، جدّه كان من الأنصار وحارب مع تيتو على نهر نيريتفا، كان يكيل الشتائم لنا واصفًا إيّانا بالنازيّين الجدد وبنعوت لطيفة أخرى، لا بدّ أنه ينتمي إلى فئة السبعة أو التسعة بالمئة من نسبة السكان الذين يدّعون أنّهم «يوغسلافيّون» لكنّه دون شك المزارع

(1) فرانيو تودجمان 1922- 1999: أول رئيس لكرواتيا بعد استقلالها عن يوغوسلافيا عام 1991.

الوحيد من هذه الفصيلة، المزارع الوحيد والدلماتيّ الوحيد، في مخزن الكحول اليوناني في القاهرة تذكّرت الجدّ العجوز لدى رؤيتي هذا الرجل الغريب الذي ينعت عبد الناصر بالسارق والقوّاد هكذا بصراحة تامّة ودون مواربة مرتشفًا كحوله التي لم تفلح بعد في التسبّب له بالعمى، وإن كانت تسبّبت له على الأرجح بالجنون، كان هولنديًا يدعى هرمان جيربنز، في السابعة والسبعين من عمره مقيمًا في مصر منذ عام 1947، استمدّ من بنيته القويّة هذه القدرة المدهشة على الصمود طيلة هذا الوقت أمام الكحول المغشوشة، ولد عام 1921 في غرونينغ - ربَّما كان توفي الآن وندف الثلج الذائب تتساقط فوق أرياف ميلانو فتخدّد المشاهد المتوالية خلف الزجاج، ربّما قضى نحبه في سريره، فجأة، أو بعد صراع مع مرض في الكبد أو توقّف قلبه عن الخفقان، ربّما صدمته سيّارة تاكسي وهو يجتاز جادة قصر العيني متوجّهًا إلى أصدقائه اليونانيّين، من يدري، ربّما كان لا يزال على قيد الحياة في أحد مآوي العجزة أو ملازمًا شقّته الفسيحة الموحشة في الغاردن سيتي، ممَّ كان يعتاش، كان يتقاضى معاش تقاعد بسيط من الحكومة المصريّة بصفته «مهندسًا ميكانيكيًّا» ولعلّ هذه الكلمة فضفاضة على ذلك الرجل الذي جرى توظيفه عام 1943 بصفته عاملاً ميكانيكيًّا في لواء المدرّعات الرابع في القوّات الخاصّة النازيّة «نيدرلند» وقد استسلم آخر أعضائه للأميركيّين في أيّار 1945 بعد سنتين من الحرب على جبهات مختلفة، جيربنز رجل ثرثار، ذات يوم بعد الظهر سرد لي قصّة حياته، في عرينه القاتم والفارغ في الطابق الأول من المبنى القديم، بداية سعى لأن يشرح لي عن سبب اعتباره عبد الناصر سافلاً، لماذا خطر على بالي ذاك الهولندي العجوز الفظّ الطباع وأنا أجتاز ضواحي مدينة لودي، آنذاك كنت أجهل أنّ لواء نيدرلند استُدعي لبضعة أشهر إلى كرواتيا لمحاربة مناصري الحزب الشيوعي بعد الانكفاء الإيطالي

في خريف 1943، ربّما حارب جيربنز جد فلاهو، ربّما فكّرت به في هذا الظرف الذي يدعوني إلى الاختيار، فيما أنطلق بدوري إلى حياة جديدة كما فعل هو بعدما أمضى سنة من الحرمان والضيق في بلاد مدمرّة عاثت فيها الحرب فسادًا فسعى للبحث عن الثروة في مكان آخر بواسطة قريب له كان يعمل قبل اندلاع الحرب في مرفأ الإسكندريّة، غريب هذا الأمر فيما تبدو مصر اليوم صورة حيّة عن البلدان الفقيرة، غريب أن يهاجر إليها المرء بصفته رئيس عمّال ساعيًا إلى تحسين وضعه، سألت هرمان عمّا إذا كان ماضيه في وحدات النخبة النازية[1] دفعه إلى اتّخاذ قراره بالرحيل، فأجابني لا، ثم نعم، ثم ربّما، بعد الهزيمة، أمضى عدّة أشهر في أحد المعتقلات العسكريّة، بعد كلّ حساب لم أكن سوى ميكانيكي، قال لي، لست نازيًا، كنت أصلّح المجنزرات والشاحنات المعطلّة، لكن ليس هذا ما يجعلك تحظى بوسام «صليب الفارس[2]» أليس كذلك؟ لم أعد أذكر، جعلونا نرحل بسرعة، كانت المرّة الأولى التي أُعتَقل فيها – عمل لمدّة ثلاث سنوات في مرفأ الإسكندريّة في تصليح الرافعات وصيانتها وأيضًا عربات الشحن وكلّ آلات التجهيز المرفئيّة، له ابنتان، وزوجته من غرونينغ، في البداية أحبّت مصر فعلاً، على حدّ قوله، في البداية فقط، أفكّر بوالدتي التي هُجّرت هي أيضًا من بلادها وكبرت بعيدًا عنها ولا تعرفها كثيرًا، جاري قارىء **برونتو** طوى مجلّته، نهض ثم ابتعد باتّجاه البار أو المرحاض، من يعرف أين وُلد أهله، ربّما هاجرا من نابولي أو من ليكو في مقتبل عمرهما ليجنيا ثروة في الشمال المزدهر، أمّا هرمان جيربنز فقد رحل

(1) وحدات النخبة النازية **Waffen-ss**

(2) وسام صليب الفارس أو **Ritterkreuz** : هذا الوسام يأتي في المرتبة الثانية للتميّز العسكري في الرايخ الثالث.

باتّجاه الجنوب المزدهر- ثم غادر بعد ذلك الإسكندريّة حيث وجد مركزًا أفضل في حلوان بالقرب من القاهرة في معمل السلاح المنشأ حديثًا الذي كان يصنّع بنادق «حكيم» الثقيلة من عيار 8 ملم المقتبسة عن موديل سويدي، كان العتاد والآلات آتية مباشرة من مالمُو، بالإضافة إلى المهندسين كنت أتفاهم جيّدًا معهم، حسب ما يروي هرمان، كُلّفت بالصيانة، وكانت بندقيّة «حكيم» بندقيّة رائعة، أفضل من الأصليّة ولا تحدث صدمة على كتف من يستخدمها على الرغم من القوّة التي لا حدّ لها لخرطوش ماوزر، وكانت تظلّ تعمل بشكل طبيعي حتى لو تسرّب الرمل إلى جهاز التذخير وكنت فخورًا بصنعها- بعد ثورة عبد الناصر بدأ كل شيء يسير «بالمقلوب»، قال لي هرمان، كنت الأجنبيّ الوحيد الذي بقي في المعمل، غادر الجميع، اليونانيّون، والإيطاليّون، والبريطانيّون، وذات يوم اندلعت حرب السويس فهاجم الإنكليز والفرنسيّون والإسرائيليّون مصر- اعتقلوني بتهمة التجسّس في 31 تشرين الأول 1956 غداة قصف المطار، وكنت في سجن القناطر في «حارة الأجانب»، لم يعرف هرمان لا من قريب ولا من بعيد سبب اعتقاله، ولا لصالح أيّ جهة اتُّهم بالخيانة، كان هرمان جيربنز متعتعًا من السكر عندما روى لي هذه القصة، سال لعابه وعلق الشاي بشاربيه النازلين وانحدر إلى زوايا شفتيه، وأصبحت لهجته ثقيلة حادّة واهتزّ ذقنه كيديه فيما الشمس الغاربة تغرق الشقّة الفارغة في الظلام، الفارغة من المرأة والابنتين اللواتي رُحّلن إلى هولندا بعد وقت قصير من اعتقاله، هرمان جيربنز السكّير الهولنديّ بقي في القناطر ثماني سنوات، منسيًّا من الآلهة ومن قنصليّته، عرفت فيما بعد السبب، ثماني سنوات في «حارة الأجانب» بالقرب من السجن الذي سيتعفّن فيه الأصوليّون الإسلاميّون أعدائي بعد أربعين سنة من ذلك التاريخ، كان الميكانيكيّ الرسميّ لمدير السجن، يبصق جيربنز أرضًا لدى ذكر

اسمه، يسكب قليلاً من الكحول في قرارة فنجان الشاي متلفّظًا بشتائم هولنديّة بذيئة وأتساءل هل القصّة التي يسردها حقيقيّة، أيعقل أن يمضي هذا الرجل ثماني سنوات في السجن لسبب غامض، ألم يكن مجرّد شخص ضائع، مجنون، عجوز تتآكله الوحدة والكحول - لماذا لم تعد إلى هولندا، لا أستطيع، لا أستطيع وهذا أمر لا يعنيك، لم أعلّق بشيء على جوابه، ألقيت التحيّة على السكّير العجوز الذي رافقني حتى الباب دامع العينين- بئر المصعد مليء بالنفايات، أنزل الأدراج من جديد لأوافي الغسق المنازع يخضّب مساءات القاهرة التي تفوح منها رائحة الجثث المحنّطة

الفصل الثالث

هرمان جيربنز الهولندي المقيم في القاهرة يستريح الآن في الصندوق الصغير فوق مقعدي، إنّه اسم وتاريخ، زمنيًا هو الأوّل في اللائحة، وإن كنت أنا نفسي آنذاك أجهل أنّ اللائحة بدأ إعدادها وأنّه سيؤول بي الأمر إلى تسليمها في روما بعد خمس سنوات مرتجفًا متخشّب الفم إلى حدّ مريع منهكًا محمومًا عاجزًا عن النوم، هل كنت سأختار الفاتيكان لو أنّ ألكسندرا لا تنتظرني في ترانستيفير[1] في هذه الشقّة الصغيرة من الطابق الأرضي المطلّة على باحة جميلة، ألكسندرا، أو ساشكا رسّامة روسيّة وجهها كالأيقونة، المرحلة الشاقّة من مهمّتي أُنجزت، والأشدّ مشقّة أن أتخلّى عن كلّ شيء وأستقيل وأتخلّص من مستخدمي الغريب، مذ كنت في البندقيّة بعد سنتي الحرب اللتين شاركت فيهما، لم يسبق لي أن شعرت بهذه الحريّة، لم أعد أملك شيئًا ولا حتى اسمي الحقيقي - أحمل جواز سفر أنتحل فيه صفة رجل اسمه إيفان دوروا مولود في الوقت نفسه الذي ولدت فيه في باريس ومحتجز في مؤسّسة للمرضى العقليّين في ضواحي العاصمة، لم يسبق له أن اقتنى جواز سفر، كم ستكون دهشة أطبائه كبيرة عندما سيعلمون أنّه

(1) حيّ في روما سكّانه في معظمهم من المهاجرين.

يتنزّه اليوم في إيطاليا، حصلت على هذه الوثيقة بالطريقة الأكثر قانونيّة مرفقة بسجلّ عن الحالة الشخصيّة وفاتورة من شركة كهرباء فرنسا محصّلة من دار البلديّة في الدائرة رقم 18: انتحلت أسماء كثيرة شتّى هذه السنوات الأخيرة، وحزت على أوراق ثبوتيّة من كلّ الألوان، سأتشبّث بهويّة إيفان دوروا، هذا المساء، المريض العقليّ الأبكم سينام في فندق بلازا في روما، وقد حجز غرفة عبر الأنترنت من أحد المقاهي في الشانزيليزيه، لن يذهب إيفان دورورا لرؤية عشيقته الرومانيّة في الحال، سيسلّم حقيبته الأخيرة لمن يهمّه الأمر، كما يُقال، سيأتي أحدهم لزيارته في غرفته وستجري عملية التبادل قبل أن يختفي إيفان دورورا بشكل شبه نهائي، بدأ ايفان حياته الجديدة منذ الشهر الماضي لا بل أصبح لديه حساب مفتوح في أحد الفروع المصرفيّة الكبيرة، ما يجعله يتخلّى عن بطاقة الحساب البريديّة التي كان أهله يدفعون عبرها بانتظام ثمن النفقات الإضافيّة المترتّبة عليه في «نزله»، ها هو اليوم يمتلك بطاقة اعتماد دولية - وقد اشترى بنطالين وقميصين من أحد المخازن الكبرى وسحب مبالغ نقديّة ودفع سلفًا ثمن ليلته في فندق بلازا وبطاقة طيران لم يستعملها، وها هو الآن يلهو بمراقبة حلول الظلام واستكشاف مشاهد الليل النازل، بعيدًا جدًّا عن البندقيّة والإسكندريّة والقاهرة ومريان ذات النهدين الأبيضين على قاب قوسين من نهاية العالم على مسافة ثلاثين كيلومترًا من ميلانو حيث استراح نابوليون بضعة أيّام في خضمّ حملته الإيطاليّة، داخل قصر بديع لا أعرف كيف صادره، ميلانو التي تشبه محطّتها معابد الفراعنة التي احتلّها أيضًا نابوليون قبل أن يواصل حملته على بلاد الشام ويواجه نكبة حصار عكّا، إيفان دوروا المنفصم الهاذي الإغمائي التخشّبي المحتجز في مؤسّسة خاصة في هاي - لي - روز، أو في المصحّ كما كان يقال فيما

مضى- إيفان لن يخرج من سباته إلا لكي يزعق وينقضّ كالوحش على الموظّفين والمرضى الآخرين، محاولاً قتلهم لأنّهم أعداؤه، يصرخ عاليًا ويقول إنّهم يريدون أذيّته، وهو يدافع عن نفسه بكلّ بساطة، ما من شطحات روحانيّة يستغرق فيها ولا هلوسات، إيفان لا يترك حالة نصف الغيبوبة إلا ليسترسل في عنف خالص عنف حيوان متوحّش على هوى مراحل القمر أو أطوار علاجه وهذا منذ ما يقارب العشرين سنة على الرّغم من كمّيات الأدوية التي يبتلعها فإنّ مرضه لا يستجيب لشتّى أنواع العلاج، أنا الآن إيفان، كانت جمجمته حليقة آنذاك وكان يرفع ذراعه اليمنى متوعّدًا بالقضاء على النتانة الديمقراطيّة وخدّام البولشفيّة وأتباع اللوبي اليهوديّ العالميّ، يذهب أيّام الآحاد إلى الكنيسة لكي يوزّع مناشير على بورجوازيّات يثير مظهره فيهن الذعر أكثر من أيّ شيء آخر، يقرأ برازيياك[1] وفي السادس من كلّ شباط يذهب إلى قبره مع مناضلين آخرين لتكريم ذكرى الشهيد متوعّدًا بالانتقام لضحيّة الظلم الديغوليّ والحقد اليهوديّ، إيفان وأنا قمنا بزيارة موريس بارديش[2] الفاشي المعروف الذي قدّم لنا مؤلّفه عن تاريخ حرب إسبانيا ويظهر فيه ولاءه لفرانكو والمكتوب

---

(1) ولد روبير برازيياك عام 1909 وتوفّي رميًا بالرصاص عام 1945، كاتب فرنسي وصحفي وناقد سينمائي اشتهر بنشاطه التعاوني مع النازيّين إبّان الحرب العالميّة الثانية. تدخّل أدباء كثيرون أمثال ألبير كامو وجان كوكتو وجان أنوي لدى الجنرال ديغول للحؤول دون إعدامه لكنّ هذا الأخير رفض العفو عنه، وفي كلّ سنة في 6 شباط يتحلّق الموالون للجنرال فرانكو حول قبره للاحتفال بذكراه.

(2) موريس بارديش (1907-1998) أديب فرنسي وأستاذ جامعي وصهر برازيياك أيضًا، مؤسّس حركة إنكار المجازر المرتكبة بحقّ اليهود خلال الحرب العالميّة الثانية.

بالتعاون مع برازيياك - أصبح إيفان دوروا مجنونًا، نسيت أمره عندما كنت أحضّر لتدريبي العسكري العادي ثم بدأت بتدريبي العسكري كمظلي وأنجزت جميع التدريبات العسكريّة الممكنة قبل تطوّعي لخدمة فرنسا، خدمة طويلة الأمد، أمضيت أشهرًا بصفتي جنديًا متطوّعًا، كما كان يقال آنذاك، وتنقّلت في الجبال الوعرة، وتدّربت على الروح التعاونيّة، وأنشدت الأغاني العسكريّة، وخضت المسيرات الطويلة، وتمّرنت على عمليّات الكومندوس الليليّة وإطلاق القنابل المدفعيّة الخفيفة، إنّها أيّام من السعادة الشقيّة متقاسمة مع الرفاق، كنت مليئًا بالفخر عندما عدت لقضاء مأذونيّتي وأخذت أروي مآثر حربيّة ساذجة، حفيد آريس لم يكن آنذاك سوى جرو كلب في التمرين والتدريب، والمناورات في جنوب فرنسا وغيرها في جبال الألب، كنت مبتهجًا دومًا لأنّ حياتي حافلة إلى هذا الحدّ باستخدام الأسلحة، والتضحية، والوطنيّة، متعرّقًا في الجبال عند ممر سان برنار الأكبر[1] على خطى القائدين هنيبعل وبونابرت، اللذين لم يصابا بفقّاعات في القدمين، فهما صعدا على الفيلة أو على الأحصنة، كاد هنيبعل التونسي أن ينتصر على روما ويهزّ عرشها، وأحرز بونابرت النصر، فالنمسا استسلمت - إيفان دوروا يتذكّر هنا في هذا القطار أنّ أهله الكاثوليك الورعين كانوا فخورين به ويرون جيشه على أنّه مخيّم كشّافة يهذّب النفس ويقوّي الجسد، كانت أمّه تهمس في أذنه بلهجة نبويّة، **لا تنس كرواتيا وطنك أيضًا**، عند نهاية

(1) ممرّ سان برنار الأكبر: ممرّ في جبال الألب بين منطقة فاليه السويسريّة ووادي أوستا في إيطاليا 2,473م. يخترقه نفق طوله 5,826م وعلى ارتفاع 1,915م دير شهير لإيواء المسافرين تعمل كلابه على إرشاد التائهين في الثلوج. أسّسه القديس برنار في القرن العاشر.

خدمتي العسكريّة كنت أريد العمل في السياسة والتخصّص في العلوم السياسيّة، وكنت شديد الإلمام بالتاريخ المعاصر، شديد الصلابة كثير المواظبة، وكان كلّ شيء يبتسم لي حتى ماريان التي لا تشاطرني آرائي اليمينيّة وإن كانت متحدّرة من عائلة مسيحيّة ورعة، والآن إيفان دوروا يجتاز الألب مرّة أخرى فيما جسده الحقيقي يتعفّن منتظرًا نهاية العالم خائر القوى في كرسيه النقال- الآن أسافر متخفّيًا باسم مستعار وأبقى «شرعيًّا» ساعيًا صالحًا ينقل حقيبة لا مرئيّة وسط حشد من أصحاب الهويّات والمعاملات المصرفيّة الصغيرة، إيفان دوروا مستحيل النوم تحت تأثير نصف حبّة الانفيتامين التي تناولتها هذا الصباح لكي أتمكّن من الصمود بعد أن شخرت لساعتين سكران مثل أبله متخلّفًا عن موعد الطائرة وهرولت ببلاهة أشدّ إلى القطار بدل أن أنتظر الطائرة التالية، أنا جائع الآن، قليلاً، ربّما كان علي الذهاب لأتناول الطعام أو لأشرب شيئًا بالأحرى، نسير بسرعة كبيرة والسماء تمطر رذاذًا، هذا المساء من كانون الأوّل يذكّرني بالليالي الطويلة لخريف كرواتيا، حقول الذرة متشابهة والمطر أيضًا في سلافونيا في ضواحي أوسييك كنّا نتجلّد في سترات الصيد التي نرتديها وبالرغم من كلّ استعداداتي العسكريّة وتجلّياتي في جبال الألب، خفت، كنت الأكثر خبرة بين رفاقي وخفت، تبًّا لأخيل ولفافات ساقه[1] الجميلة كانت فرائصي ترتعد خوفًا وأنا أتشبّث برشّاشي الكلاشينكوف، وكان أفضل سلاح في

---

(1) لفافات الساق Cnémides: لفافات من الجلد أو المعدن كان الجنود اليونان القدامى يحيطون بها سوقهم وكانت أحيانًا تزيّن بشكل مرهف وبديع وترد العبارة كثيرًا في الإلياذة لهوميروس: الآخيّون ذوو اللفافات الجميلة، في معرض وصفه لأبطال الإغريق.

حوزة زمرتنا عهدوا لي به نظرًا لتجربتي العسكريّة، أمّا لغتي الكراوتيّة فكانت بدائيّة كنت أقول «مدفع صغير» بدلا من «هاون» و«رصاص» بدلاً من «مشط» و«مجموعة» بدلاً من «فصيلة» هذا عدا الخلط بين «فيالق» و«كتائب» و«وحدات»، لحسن الحظّ كان هناك أندريا، أندريا الأسد وكان لديه من الشجاعة الشيء الكثير، كان مزارعًا من ضواحي أوسييك يصطاد أسماك الزنجور والشبوط في نهري درافا والدانوب وكانت أمّه تطبخ يخنة لاذعة قارصة بشكل مرعب برائحة البول- لا بدَّ أنّني جائع كثيرًا لكي أفكّر بها الآن من جديد، لكنّ أفضل وجبة تناولتها على الإطلاق أدين بها على أيّة حال لأندريا، ذات مساء عند اقتراب عيد الميلاد، كنّا منهكين نرتجف بردًا في المزرعة التي تهدّم ثلاثة أرباعها وكانت بمثابة مركز القيادة العامّة بدأنا نشرب السليبفا[1] وعلى بعد 400 متر من هنا كان التشيتنيك[2] يلزمون هم أيضًا ملاجئهم اذ لا شيء مستجدّ على الجبهة، قذائف قليلة وبعض الانفجارات المتفرّقة وكأنّها لتدفئة الجو- لا أحد يرغب في استخدام مدافع الهاون في البرد وفي المطر تنزلق المواسير من الأيادي المغطّاة بالقفازات ويتخبّط الجنود في الوحل وينحني أستون المدفع قليلاً على الدوام فيشوّش على التصويب، من الأفضل البقاء بين أربعة جدران بالرغم من الميازيب وتيّارات الهواء، رحنا

---

(1) سليبفا Sljiva مشروب مسكر مصنوع من الخوخ.

(2) تشيتنيك: القوميّون الصرب أعداء الكرواتيّين خلال الحروب التي نشبت في البلقان عقب تفكّك يوغوسلافيا وكلمة تشيتنيك كانت تشير خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر إلى القوميّين الصرب الأرثوذكس الذين تصدّوا للهيمنة العثمانيّة ثم خلال الحرب العالميّة الثانية قاوموا في البداية الجيش النازي ثم حاربهم تيتو.

نشرب الخمرة وبعد ساعتين سكرنا وكدنا نموت جوعًا، لم تكن لدينا رغبة في تناول المعلّبات، رغبنا في الاحتفال، أمسكني أندريا من يدي وقال لي تعال تعال أعرف أين نستطيع أن نجد أطيب وأشهى عشاء فانطلقنا تحت المطر نجتاز أرضًا وعرة بين الألغام وسط الحقول في الظلام يمسك كلّ واحد منّا بندقيّته الهجوميّة، اجتذبني إلى الطرف الغربي من المنطقة التي كانت تقريبًا أمام خطوطنا- توقَّفْ سيظنّوننا صربًا، سنقتل، صه، أجابني، ودلّني على مزرعة متهدّمة في الجانب الآخر، حيث التشيتنيك: هناك يوجد خنازير جيّدة، ماذا تريد أن تفعل بالخنزير، قلت، نأكله أيّها الغبي المسكين، دوّى الرصاص وأضاء الليل مطلقًا صفيرًا، أضاء الليل بلونٍ أزرق، غرقنا في الوحل- لحظ رفاقنا وجودنا، الله أعلم كيف، وظنّوا أنّنا من الصرب وهم منطقيّون في ظنّهم، خالوا أنّنا صرب مختلّون أتوا ليتنزّهوا تحت المطر وسط ألغام الأعداء، سيصوّبون باتّجاهنا قذيفة أو قذيفتين على سبيل الاحتياط، بدأ أندريا يزحف قدمًا ناحية الخنازير والتشيتنيك ووجبة العشاء، لحسن الحظ فإنّ حقل الألغام هذا كان يعود لنا حتى الطريق، كنّا موجودين تقريبًا في أرض نعرفها، الأرض مبلّلة والتصقت ببطوننا، انفجرت قذيفة هاون عيار 40 ملم في مكان ما خلفنا، كيف بالإمكان أن يكون هناك خنازير في مزرعة معرّضة للقصف على قارعة الطريق التي تفصلنا عن العدو، سمعت نخير الخنازير عندما وضعنا الألغام، أجاب أندريا، وإذ وصلنا إلى الزفت تريّثنا بضع دقائق، صمت مطبق، رحنا نجتاز المسافة، في الجهة الأخرى على بعد مئتي متر تقريبًا توجد المدافع الصربيّة- لمحنا بعض الأنوار المبثوثة بين الحواجز، احتسينا جرعة كحول لندفىء بطوننا التي انتفخت حتى التخمة بمشروب سلييفا غير آبهين بالأفخاخ المتفجّرة التي وضعها العدو هناك،

اقتربنا من المزرعة المتهدّمة، أخذت البهائم تنخر وتزمجر إذ شعرت بحضورنا، سمعناها طويلاً، والآن كيف سنجد خنزيرًا لعينًا أسود وسط هذا السواد؟ أخذ أندريا يضحك ضحكة جنونيّة واضعًا يده أمام فمه ولم يستطع التوقّف، حاول أن يلجم نفسه وكان فواقه المتكرّر أشبه بنخير الخنازير، ما زاد في ضحكه المسعور، لا بدَّ أنّهم سمعوا قهقهاته الحيوانيّة «هيك هيك» على بعد كيلومترات في هذا الصمت- توقّفْ عن الضحك الضجّة التي تحدثها ستثير جوع التشيتنيك، قلت، أوشك أندريا أن يبول في سرواله من شدّة الضحك، كنّا هناك في العتمة سكارى كالخنازير، تحديدًا في المنطقة الفاصلة بين الجيشين ممدّدين في الوحل تحت المطر أمام مزرعة دمّرها الصرب الموجودون على بعد مئتي متر على الأكثر، كنّا متعتعين من السكر فلم نسمع انطلاقة القذيفة من جهة الكرواتيّين التي سقطت على مقربة عشرين مترًا منّا، تطاير الوحل جرّاء الانفجار ولطّخنا، توقّف أندريا عن الضّحك فجأة، هيّا تعال، قال لي، سنأتي بهذه البهيمة اللعينة ونعود أدراجنا، بدأ الصربيون بالردّ على مصادر النيران، لمحنا قذائق الهاون تنطلق بالضبط أمامنا من عيار 80 ملم، سينتهي بنا الأمر عالقين بين خطّي الجبهة دون عشاء، لا بدّ أنّ الساعة قاربت منتصف الليل، درنا حول التخشيبة بحذر وفي الضوء الذي أحدثه انفجار قريب رأينا خنزيرة هائلة الحجم محتبسة في ما يشبه الحظيرة، روّعتها القذائف فراحت تدوّم كالإوز في الماء وراح أندريا يضحك من جديد، وباطّراد، كيف سنحمل هذا الماستودون[1] يجب تقطيع الخنزيرة في مكانها، اقتربْ من الحيوانة شاهرًا حربته حاولت عضّه وأخذت تضغب،

---

(1) الماستودون: حيوان بائد أشبه بالفيل.

عندما شجّ السكين شحمها، وتولّاني الضحك المسعور أنا نفسي، بالرغم من القصف، بالرغم من التشيتنيك ومن هجومهم المحتمل رأيت أمامي جنديًا سوّده الوحل والمطر حاملاً خنجرًا في يده راكضًا خلف حيوان مسعور وسط قرقعة الانفجارات، بدأ رشّاش يطلق نيرانه من جهة الصرب، استغلّ أندريا الموقف لكي يفرغ رصاصة كلاشينكوف في البهيمة من عيار 7,62 أي عيار صغير جدًّا لا يمكنه القضاء على الخنزيرة كان ينبغي إفراغها في رأسها مباشرة، واصلت زعيقها بجنون وهي تعرج فقفز أندريا الدمويّ المسعور على حقويها واضعًا السكين بين فكيها أشبه بالبلاشفة في الصور الدعائيّة للنازيين اعتلى أندريا خنزيرته وكأنّها حصان صغير، لفرط الضحك شعرت بألم في بطني، وقطع أندريا بنصله أوداجها فتداعت الخنزيرة مهمهمة وسط بركة مبقبقة من الدم الأسود، حولنا ازدادت المعركة احتدامًا، قذائف مدفعيّة متبادلة ورشقات رشاشات - أنهينا قربة السليفا وانقضضنا على البهيمة المحتضرة والحربات في يدنا لكي نقتطع فخذًا لكلّ منّا الأمر الذي تطلّب ساعة من الجهود المتواصلة لكي نجرد الذبيحة من العظام، خلال هذا الوقت توقّف انطلاق القذائف المدفعيّة تمامًا بنتيجة صفر، ولم يتبقَ أمامنا إلا العودة، زحفنا طويلاً مجتازين نصف الطريق ومجرجرين خلفنا قوائم الحيوان وكلّ شقّة تزن خمسة عشر كيلوغرامًا - وصلنا مبلّلين تفوح منّا رائحة الخراء ومغمورين بوحل البوالة والدم فظنّ رفاقنا أنّنا أصبنا إصابة مميتة، وأخيرًا سقطنا من شدّة التعب والإنهاك واستسلمنا لنوم عميق، كان أندريا لا يزال يشدّ في يده على أذن الخنزيرة كما يحتضن طفل خشخيشته - وفي اليوم التالي أمطرت مدرارًا، شوينا الفخذين على الأحطاب المبلّلة وكانت الآلهة سعيدة مهلّلة لهذه المحرقة الخنزيريّة وحمتنا من القذائف

التي أمطرنا بها الصرب طيلة النهار بعد أن جذبتهم رائحة الشواء: كانت رائحة الشواء المنتشرة تجعلهم يتذكّرون بحسرة أننا سلبنا بروكتهم من قائمتيها الخلفيّتين، احتفظ أندريا طيلة الحرب بـ «أذن التشيتنيك» المتيبّسة والوبرة، أظهر المتطوّعون الجدد ارتياعهم لمرآها ظنًّا منهم أنّه كان يملك فعلاً ذخيرة بشريّة مرعبة انتزعها من العدو، أندريا أفتقدك، سنتان عشناهما سوية من سلافونيا إلى البوسنة، ومن أوسييك إلى فيتاز مرورًا بموستار الهرسك، أندريا الضحوك جدًّا والعنيف جدًّا، والجندي الكبير والهدّاف السيء للغاية، لم يكن القوّاس أبولون[1] يوجّه سهامك، بل كان شفيعك آريس[2] الغضوب، تحلّيت بالقوّة والجرأة: كان أبولون حامي الصرب والبوسنيّين، وكانت حاميتنا أثينا ذات العينين الزرقاوين تحرسنا على قدر ما تستطيع - في هذه المعركة الكبيرة بين الشرق والغرب ظهرت الإلهة في سيبنيك، وفي ميديغوريه، العذراء الواقفة عند حدود الغرب الكاثوليكي، وقد روى لي غسّان في البندقيّة بأنّ تمثال العذراء في حريصا، الجاثم على تلّة يبلغ ارتفاعها ستمائة متر فوق البحر استدار ملتفتًا إلى بيروت التي كانت تُقصف، وانعطفت بنظرها مشفقة على المقاتلين المسيحيّين ومشدّدة عزائمهم، بيروت التي هي أيضًا عند حدود العالم الغربي، وهكذا فإنّ عذراء ميديغوريه أشفقت

---

(1) أبولون Apollon: أوسع آلهة الأساطير اليونانيّة نفوذًا وأسماهم منزلة بعد أبيه زوس. له ألقاب ووظائف عدّة، هو إله الشمس والجمال والفن لكنّه أيضًا إله مخيف يعاقب الخارجين على الأنظمة والقوانين الدينيّة فيرميهم بسهامه، ناصر الطرواديين.

(2) آريس: إله الحرب ابن زوس من ألقابه آريس الدمويّ، مخرّب المدن، يمثّل قوّة الحرب العمياء والتعطّش للدم.

على أولادها المتحاربين مع المسلمين ودوّنت رسائل في سماء الهرسك تدعو للسلام، لا ظهورات على نافذتي التي يجتاحها الظلام، مغارب الشمس صيفًا على البحر بالقرب من طروادة كانت أكثر جمالاً بكثير- أبولون قوّاس الشرق وجّه أيضًا المدفعيّين الأتراك في الدردنيل المحروس، على ضفّة سكاماندر قبالة رأس هيليس حيث يوجد أبيض كمنارة نصب الجنود الذين لم تسمح ظروف الحرب بدفنهم في القبور إثر معركة غاليبولي[1]، وبالامكان أن يقرأ عليه أسماء أكثر من ألفي جندي بريطاني تبعثرت جثثهم في شبه الجزيرة ممتزجة مع العظام المتفتّتة لألف ومئتي فرنسي استحال التعرّف على هويّاتهم في سنتي 1915 -1916، ومن بعدها، بعد فشل قوّات الحملة العسكريّة على الشرق في غاليبولي اتّجهت إلى سالونيك لتجرّب حظها وتدعم الصُرب ضد البلغاريّين، لم تستطع انتهاك مضيقي الدردنيل والفوسفور بعد عشرة أشهر من المعارك وسقوط مئة وخمسين ألف جثّة من فرنسيّين وجزائريّين وسنغاليّين وإنكليز وأوستراليّين ونيوزيلنديّين وسيخ وهندوس وأتراك وألبانيّين، كما تواجه فيما مضى البيوتيّون والميقينيّون والأركاديّون الشجعان والسيفالونيّون الشهمون ضد أبناء الدردنيل والتراقيّين والبلاسك[2] ذوي الرماح المسعورة أو

---

(1) دارت معركة غاليبولي في شبه الجزيرة التركيّة عام 1915 خلال الحرب العالميّة الأولى حيث قامت القوّات البريطانيّة والفرنسيّة وبعض القوى من مستعمراتها مشتركة بمحاولة احتلال اسطنبول لكنّ المحاولة باءت بالفشل. تعرف هذه المعركة في تركيا باسم شنق قلعة سافا شلاري كونها وقعت في منطقة شنق. انتصر العثمانيون فيها وظهر مصطفى كمال أتاتورك كقائد لتركيا ما بعد الحرب. ويدعوها الانكليز معركة الدردنيل.

(2) البلاسك أوّل ساكني اليونان الذين عمّروا في العصور قبل مجيء الشعوب الهندو-أوروبيّة.

الليقيّين الآتين من بعيد، يهديهم رمح ساربيدون[1] الذي لا عيب فيه، لكنّ الحلفاء لم يتسنّ لهم الصبر لكي ينتظروا عشر سنوات، كانت معركة الدردنيل أوغاليبولي طاحنة وسريعة، بدأت بمحاولة بحريّة لاحتلال المضائق في 18 آذار 1915، عند الساعة العاشرة والنصف صباحًا شرعت السفن البريطانيّة والفرنسيّة في التقدّم على ثلاثة خطوط قاصفة الحصون العثمانيّة يسارًا ويمينًا وبشكل عشوائيّ، سعيًا لتعطيل بطاريّات مدافعهم المتحرّكة، كانت القذائف الهائلة للأسطول البحري - عيار 305 ملم وزنة مئتي كيلوغرام من المتفجّرات -من الجبروت بحيث تداعت منازل القرى المجاورة لا لشيء إلا للاهتزازات التي أحدثتها، كان هيفايستس[2] نفسه ينفخ في بوقه فتهتزّ الأرض وكان سيّت شابوك من هافران المدفعيّ التركي ينظر من أعلى حصن رملي ميسيدييه إلى العمارات البحريّة العملاقة تجمد عند كلّ رشقة فوق البحر المنيع، بالأمس رأى البارجة *Bouvet* تصطدم بلغم بحريّ وتغرق بكليّتها بجنودها وعتادها في أقلّ من ست دقائق، خمسمائة وخمسون رجلاً حملوا على متن نعش مصفّح على عمق ثمانين مترًا وسط قناديل البحر، أمطر المدفعّي سيّت ورفاقه البحر بالقذائف المتواصلة إلى أن أسكتت مدفعه قذيفة كانت تستهدف السفينة الحربيّة *HMS Ocean*: الشاحنة ذات المحرّك الحراري التي كانت تنقل المؤن والذخائر إلى خزّان المدفع أُصيبت، وبات من المستحيل نقل حشوات القذائف

(1) ساربيدون ابن زوس ولاوداميا وكان أمير ليقيا وأحد أبطال حرب طروادة إلى جانب الطرواديّين.

(2) هيفايستس Héphaistos إله الصناعة والحدادة عند اليونان هو فولكانوس الرومان.

المدفعيّة لكنّ المدفعيّ سيّت الحطّاب النازل من سفوح جبل إيدا، سليل ميسيّي[1] طروادي حمل المئتي كيلو من المعادن والمتفجّرات على ظهره وهو يئنّ تحت وطأة حمله، زوس نفسه ساعده وشدّد عزيمته فنقل سيّت حمله إلى جوف المدفع الذي لا يزال متوقّدًا ولقّم الجهاز فوجّهه ضابط التصويب ناحية ***HMS Ocean*** الرابضة وسط المضيق والتي اصطدمت هي أيضًا بلغم: وجّه أبولون السهم التركي إلى المدمّرة البريطانيّة، وانفجرت القذيفة بزنة أربعمئة ليبرة عند مؤخّرة العمارة الإنكليزيّة التي جنحت وكشفت عن فجوة كبيرة دخلت منها المياه، غرقت مؤخّرتها في ظرف ثوان معدودات منساقة على غير هدى ومعرّضة في أيّة لحظة للاصطدام بأحد الألغام المزروعة بكثافة في المنطقة، غرقت السفينة الحربيّة ***Ocean*** في ظرف ساعات قليلة، وجعلت من كوشا سيّت من هافران حطّاب جبل إيدا بطلاً، كوشا العملاق كان يخدم منذ 1912 كجندي عادي، حارب الصرب والبلغاريّين في البلقان، صلعته حليقة، شارباه شامخان، رقّاه الجيش التركي المتشوّق إلى أمجاده الغابرة إلى رتبة أنباشي، أتساءل ماذا كان يفكّر عملاق ميسيا عندما توافد صحافيّو اسطنبول كي يأخذوا له صورًا، بدا منزعجًا في الصورة السالبة آنذاك، متواضعًا، قامته أقرب إلى الاعتدال، أراد مروّجو الحملات الدعائيّة أن يخلّدوه حاملاً قذيفة بين ذراعيه، حاولوا أن ينسبوا إليه المآثر التي حقّقها لكنّ سيّت لم يفلح في إعادة تمثيلها، لم يكن زوس هنا لمساعدته، كانت القذيفة ثقيلة جدًّا، لذا صنعوا شبيهتها لكن من الخشب وحملها العريف الصغير فوق ظهره، شغّل المصوّر عندئذٍ آلة

(1) نسبة إلى ميسيا وهي إقليم قديم يقع في شرق الأناضول على ساحل بحر مرمرة، ذكرهم هوميروس بأنهم أتباع بدائيّون لملك طروادة.

التصوير مهينًا إلى الأبد سيّت من هافران ومحوّلاً إيّاه إلى كاذب أمام الأجيال المقبلة، وإلى هرقل هزليّ: سُرّح سيّت عام 1918 وعاد إلى غابته ومنذ ذلك الحين أخذوا يلقّبونه «شابوك» أي «صاحب القدمين السريعتين»- عمل بعدئذٍ في مناجم فحم قاتمة حيث أصيب، على وجه الاحتمال، بمرض الرئتين ولاقى حتفه بسبب هذا المرض عن عمر الخمسين، وطوي ذكره، إلى أن رُفع له نصب برونزي جميل تكريمًا لذكراه، بالقرب من قلعة كيليت باهير، وحمله فوق ظهره، مئتا كيلوغرام من المتفجرّات دمّرت سفن الأرغوسيّين - كان الطقس جميلاً والبحر بديعًا، في شبه جزيرة غاليبولي حيث بالإمكان، في أيام الصحو رؤية التلال قرب طرواده، وآسيا، والجرح البحري الضيّق للدردنيل المشرّع على بحر مرمرة على بعد بضعة أميال من القسطنطينيّة، كنت برفقة مريان في إجازة ونزلنا في فندق - نادي في تموز 1991، لم أكن أنقطع لحظة واحدة عن مشاهدة التلفزيون متتبّعًا أخبار كرواتيا على جميع المحطّات، كانت تلك الرحلة بمثابة هديّة الخطوبة قدّمها لها والداها حسبما أذكر، وفي النهاية لم نكن مخطوبين، لم ألبث أن رحلت أصطاد الخنزير وألتقي أندريا في أوسييك، خطبت الموت كما تقول أغنية السير التي كان ينشدها المجنّدون الإسبان: *soy el novio de la muerte* لكنّ ماريان كانت تضع خاتمًا وفيه حبّة إلماس وأقراطًا أهديتها إيّاها ربّما كانت هي ذاتها التي كانت ترتديها هيلانة الإسبارطيّة فوق مشمالها، في هذا النادي الذي يبعث على الملل كان بالإمكان الإفادة من الرحلات المنظّمة، إحداها في الدردنيل والأخرى في طروادة، لم تستطع مريان إقناعي إلا بالقيام بهما، كان لا يزال تمثال سيّت حمّال العتاد البحري حديث العهد وأخبرنا الدليل قصّته والتأثّر بادٍ في صوته، ثم قادنا إلى البيت الذي

أقام فيه مصطفى كمال أبو الأتراك عندما أصدر أوامره بالدفاع عن شبه الجزيرة، أذكر أنّ عضوي انتصب في الأوتوكار ومددت يدي تحت تنورة مريان رحت أداعبها، احمرّت لكنّها استسلمت للمساتي، السائح الإيطالي في صفّ المقاعد المجاور لم يدع شيئًا من المناظر يعتب عليه، ظلّ يصوّر العريف والقذيفة ومتحف أتاتورك، وتساءلت عمّا إذا كان سيخرج آلته مخلّدًا مشهد فخذي ماريان المتشنّجتين التي راحت تنظر من النافذة وكأنّ شيئًا لم يكن، رحلة العودة في المركب بدت لنا طويلة جدًّا، ما إن وصلنا إلى الغرفة حتى ارتمينا واحدنا على الآخر كنت أرى البحر وغروب الشمس عبر الستائر البيضاء وماريان المنحنية فوق السرير بصدرها العارم ربّما قالت ما أجمل هذا المشهد، كان هذا جميلاً ولا شك، حملتنا اللذّة على متنها، ولمع شعاعٍ على المتوسّط المتوهّج - الرحلة إلى طروادة كانت جلجلة من الغبار والحرّ، ليس هنالك إلا الجدران والطرقات، لم نقم بزيارة مع دليل إلى قبر أخيل، إلى محرقة هكتور أو كنز بريام، والسيّاح كثر، لا ركن ظليلاً واحدًا لكي أنفرد فيه مع مريان، أذكر حصانًا عملاقًا من الخشب قبيحًا جدًّا لو رآه أوليس لشعر بالخجل، تذّكرت مغامرات هنريش شليمان[1] المفعم بالشغف، أرسين لوبان الأثريّ المغرم بالنساء واللغات الأجنبيّة والقصص الأسطوريّة، كان فقيرًا وعصاميًا وابن قس من دوقيّة مكلمبورغ على البلطيق، ربّما لأنّه كان من الشمال شغف بالمال والمتوسّط- البائع البسيط لأسماك الرنكة أبحر إلى كاليفورنيا ليثرى من بيع العتاد لعمّال المناجم لقاء بودرة الذهب، ثم، بعد أن سئم من أميركا عمل مهرّبًا وتاجرًا غير شرعي للسلاح

(1) عالم آثار إلماني اكتشف مدينة طروادة المدفونة في تركيا.

خلال حرب القرم مستعينًا بزوجته الروسيّة لكي يحظى بالاتّصالات اللازمة، ثم بعد أن جمع ثروة، شغف بعلم الآثار وتزوّج مرّة ثانية بيونانيّة فائقة الجمال، كما يقال، اشترى قصرًا في أثينا وجال العالم القديم بحثًا عن المدن المفقودة: إيثاق، ميقينية، ومن ثم طروادة: في عام 1868، تملّك تلة هيسارليك حيث دفعه إيمانه بالشاعر المنشد الأعمى لأن يحدّد موقع إيليون بين الأسوار القديمة وشرع بأعمال التنقيب فيها بمساعدة مئة عامل تركي، وعثر على آثار مدن عدّة مدفونة فوق بعضها وعلى كنز هائل من الأواني والحلى، كنز بريام وحلى هيلانة فسارع لسرقتها وإعادتها إلى أثينا معتقدًا أنّه بذلك يختتم الحلقة التي بدأت منذ ثلاثة آلاف سنة عندما اختطف باريس المرأة ذات الجمال الفتّان من هناءة عيشها في اسبارطة، أعاد إلى الأتيك ومينيلاس هذه الجواهر التي لم يكن يعرف العثمانيّون، بحسب قوله، ماذا يفعلون بها، ومن ثم أهداها إلى ألمانيا التي كانت توحّدت حديثًا للحصول على المزيد من النفوذ والمغانم، خصوصًا وأنّ شليمان كان قد أدرك تمامًا أنّ هذه التحف مهما بلغ جمالها كانت لاحقة على حرب طروادة وأن «قناع أغاممنون[1]» لم يلامس البشرة المحبحبة لملك الآخيين، وأنّ هيلانة ذات المشمال[2] لم تضع العقود الخرافيّة على صدرها البديع، الأمر الذي أحدث فضيحة كبرى عندما اتّضحت الحقيقة، توفي شليمان في نابولي بعد ذلك بفترة قصيرة، بالقرب من بومبيي التي أعجب برسومها، أمّنت له

---

(1) قناع أغاممنون: قناع جنائزي مصنوع من الذهب عثر عليه شليمان في أحد مقابر مدينة ميقينية عام 1867، ظنّ أنّه يعود لأغاممنون ملك الآخيّين، لكنّ علماء الآثار يشكّون بصحّة هذا القول.

(2) مشمال: ملحفة كانت تشتمل بها نساء الإغريق.

الآلهة الخلود كما فعلت مع المدفعي التركي على بعد بضعة أميال أكثر إلى جهة الشرق وبقي اسمه مقرونًا بأبواب طروادة إلى جانب اسم هوميروس وكلاهما ألهمتهما الإلهة التي تحرس قطّاعي الطرق والشعراء الأيوديّين[1] ومحترفي الليل والمحاربين، أسترجع من جديد جميع الأسماء في الحقيبة، والصور، والوثائق، وآلاف الصفحات التي تحتويها الأسطوانات المعلوماتيّة الموضّبة جيدًا في أغلفتها المصنّفة والمرفقة بالتواريخ، أسترجع سنوات التحرّي والاستقصاء، وسرقة الأرشيفات السريّة تقريبًا ونهبها، على هامش عملي كجاسوس، أو كمأمور ارتباط كما يقال، مهنة الموظّف البيروقراطي السريّ، شاعر القصّ الصامت، **غنّي أيّتها الإلهة ذكريات الهائمين بين الظلال في غياهب هاديس**[2]- كازالبوسترلنغو[3]، اسم غريب، نجتاز بسرعة المحطّة المشعشعة بأضواء النيون البيضاء، يراقب المسافرون المتدثّرون بأغطيتهم القطار السريع عابرًا المناطق، ينظر جاري عبر النافذة نظرات ساهمة ثم يعود إلى قراءة مجلّته، أنا أيضًا أستطيع القراءة، لديّ كتاب صغير في حقيبتي، ثلاث قصص كتبها أديب لبناني يدعى رفائيل كحلة نصحتني بقراءتها أمينة المكتبة في ساحة «أبيس[4]»، كتاب جميل من الورق المسلّك الذي يميل إلى اللون الأمغر، يكاد لا يبلغ مئة

---

(1) الشعراء اليونانيّون في العصور القديمة.

(2) هاديس ابن كرونوس ملك العالم السفلي عالم الموتى، مانح الثروة التي هي كناية عما يحمله باطن الارض من كنوز. اشتهر بخوذته التي تخفيه عن الأنظار، من هنا معنى اسمه هاديس أي الخفي.

(3) مقاطعة إيطاليّة في إقليم لودي والاسم مشتقّ من الماركيز بوسترلو.

(4) ساحة Abbesses ساحة في الدائرة رقم 18 من باريس.

صفحة، كم من الوقت سيلزمني لقراءته، لِنقُل صفحة واحدة في الكيلومتر الأمر الذي يستغرق فترة طويلة من مسافة الخمسمائة كيلومتر التي تبقّى عليّ اجتيازها، الكتاب الصغير يتحدّث عن لبنان والصفحة الرابعة التي تلي الغلاف تموضع القصة عند مفاصل ثلاثة من الحرب الأهليّة، كتاب آخر «مبهج» جدًّا، غريب أنّ أمينة المكتبة أوصتني بقراءته، كيف لها أن تعرف مدى العلاقة الوثيقة التي تربطني بالمنطقة والنزاعات المسلّحة، ربّما كانت نذيرًا، نصف إلهة أخرى ظهرت لي هناك في مونمارتر لتُشير لي إلى معنى خفيّ، أضع الكتيّب على طاولتي المفتوحة، لا أملك الشجاعة، أشعر بأنّني محموم منهك بفعل المخدّرات والسهر، أشعر بألم في صدغي الأيمن، وتعرّق وارتجاف خفيف في اليدين- أغمض عينيّ، الأفضل الرجوع إلى الدردنيل أو إلى البندقيّة، إلى القاهرة أو الإسكندريّة، أتساءل ماذا صار بحال ماريان أين هي الآن أتخيّلها أمًّا لخمسة أطفال ما حدا بها إلى التخلّي عن مهنة التعليم، بعد عشر سنوات تقريبًا من انفصالنا أتّجه إلى ساشكا، من الأفضل عدم التفكير الآن بالفاصل الأليم بين الأولى والثانية، بستيفاني وألم ستيفاني، ألم الرأس هذا يشتدّ هذا طبيعيّ، تقدّم، تقدّم مع القطار الذي يقلّك وعيناك مغمضتان ومعصوبتان مثل رهينة مختطفة، إيفان دوروا محتجز في حافلة على سكّة الحديد داخل نفسه الأخرى يضنيه فمه المخشّب فم العصر، البارحة احتفلت ببداية حياة ونهاية أخرى، أودّ فعلاً لو أنّ هذا الفاصل ينتهي، لو أنّني تجاوزت هذه الكيلومترات التي تفصلني عن حياتي الجديدة، كلّ شيء يأتي في حينه، لمن يعرف الانتظار، حسب قول المثل، جسد مريان أهجس به بالرّغم من السنوات التي انقضت والأجساد التي تلته، حين سأرى ساشكا سأقول لها قبل تقبيلها صه،

اسمي إيفان الآن، سوف تتساءل لماذا يغيّر باحث متخصّص في علم سلوك الحشرات اسمه فجأة، ربّما كان جسد ساشكا يشبه جسد مريان ملابسها الداخليّة البيضاء العذراوية المتباينة مع جسدها الداكن، النهدان الثقيلان قليلاً، أعلى الرقبة المحفور مثل فرجها بشعره الرقيق كوبر الوليد، كانت ماريان **جديّة في الحب**، على حدّ قولها، استغرقت وقتًا طويلاً قبل أن تضاجعني وآنذاك رأيت في ذلك برهانًا على الالتزام وحقيقة وشغفًا، في تركيا تفجّرت الرغبة واختُبرت اللذّة، كان المنبسط البحريّ باعثًا على الشهوة شديد الملوحة تنبعث منه رائحة دافئة عند هبوط المساء، وفي نادي العطلة هذا جرت ألعاب منظّمة للنزلاء، بعد مائدة العشاء المفتوحة، هناك البينغو المتعدّد اللغات، أعلن المراقبون بدايةً الرقم بالتركيّة ثم أعادوه بالإنكليزيّة والألمانيّة والفرنسيّة والإيطاليّة: yirmi dort, twenty-four, vier und zwanzig, vingt-quatre, venti Quattro، هذا الغناء الرتيب العبثي والمنتظم انزلق على البحر لساعات طوال، قصيدة لا تنتهي لها مفعول التنويم المغناطيسي، لم أفوّت عليّ شيئًا من شرفة الغرفة، نظرت إلى بحر إيجيه الذي ردّد صدى التعزيمة الدولية: on yedi, seventeen, siebzehn, dix-sept, diciasette كنت أكرّر الأرقام كلّها فاغتاظت ماريان كثيرًا لذلك، مرّة واحدة وهذا لا يُحتمل، قالت، أغلق هذه النافذة، سأشغّل المكيّف الكهربائي، لم تكن تحبّ قضاء الليل، بين البينغو، والحرّ، والبراغيث، أذكر أنّها كانت تقرأ كثيرًا، أنا لا ألوي على شيء إطلاقًا، رحت أتأمّل وألعب ذهنيًّا بالبينغو وأحتسي بيرة كالسبرغ التركيّة وأنا أفكّر في مصير كرواتيا، أعلنت سلوفينيا لتوّها استقلالها في 25 حزيران 1991- عندنا الصرب في ضواحي الكرايينا أعلنوا انفصالهم منذ منتصف شباط، لم يبدُ

أنّ الجيش اليوغسلافي مستعدّ للانسحاب بالرغم من إعلان تودجمان الاستقلال، وبدت الأمور وكأنّها تذهب من سيّء إلى أسوأ، كنت أودّ لو أصطحب ماريان إلى أوباتيا وسيبنيك أو دوبروفنيك لكنّ أهلها آثروا أن يستبقوا الأمر ويرسلونا بعيدًا عن الأدرياتيك، في الجهة الأخرى لجزر البلقان التي كنّا نلمح طرفها، تراقيا، عندما يكون الجو صافيًا- كان الكتيّب عن طروادة يشرح في فرنسيّة تقريبيّة أنّ الطروادييّن كانوا في الحقيقة قبيلة تعود في أصلها إلى كوسوفو، **إقليم في يوغسلافيا** حسبما يذكر الكتيّب، ولم لا، أن يكون أهل الدردانيل ذوو الأفراس الأصيلة الجميلة ألبانيّين فهذا ليس أمرًا مشكوكًا فيه إذا فكّرنا بإسكندر بك[1]، بمماليك مصر، بالمحاربين الأشاوس الآخرين ذوي السيوف القاطعة كالبرق وشعار النسر ذي الرأسين، على ضفّة بحر مرمرة شعرتني أقرب إلى يوغوسلافيا ممّا كنت أتصوّر بفضل الإليريّين[2] المقاتلين: مستمعًا إلى مقدّمي البرامج الأتراك يتلون بصوت رتيب نتائج البينغو بخمس لغات، لم أكن أتخيّل انني سأرحل للنضال من أجل كرواتيا الحرّة المستقلّة ثم من أجل الهرسك الحرّ والمستقلّ وأخيرًا من أجل البوسنة الكرواتيّة الحرّة والمستقلّة

---

(1) اسكندر بك: هو جيرج كاستريوني (1405-1468) نشأ في بلاط السلطان العثماني مراد الثاني واعتنق الإسلام ومنح لقب بك بعد أن أظهر شجاعة كبيرة في المعارك وقد وُلي سنة 1438، لمدّة قصيرة قضاء كروية وكان الموقع ضمن أملاك أبيه سابقًا فحرّضه ذلك على العودة إليه والاستقلال ببلاده عن العثمانيين. يعتبر اليوم البطل القومي لألبانيا وكوسوفو.

(2) الإليريّون هم من أقدم الشعوب التي سكنت البلقان، ثمة باحثون يتبنّون الأصل الإليري للألبانيّين، ويرون أنّ الإليريّين يُعدّون صلة الوصل بين السكان القدماء في حوض المتوسّط.

«لأجل الوطن دومًا مستعدّون» *Za dom spremni*، يقول شعار حكومة الأوستاشي التي كانت موالية للنازيّة خلال الحرب العالميّة الثانية، وعلى غير علم منّي كنت مستعدًّا، يانعًا، وكانت بالاس أثينا تهمس لي في أذني، وها أنا بعد عشر سنوات، أجدني في حافلة فائقة التدفئة واضعًا رأسي بين يدي وعيناي مغمضتان حاملاً اسمًا مستعارًا، هل في الإمكان أن تنهي شيئًا ما، أن تغيّر حياتك فعلاً، أندريا يتحلّل على مهل في تراب البوسنة، وآلاف الديدان البيضاء من قراديّات البكتيريا تضطلع بمهمّة الإجهاز على جسده، نجوت من الحرب ومن مخاطر عملي في المنطقة التي استتبعتها، ومع ذلك أوشكت ألا أترك مدينة البندقيّة، أوشكت أن أضع حدًّا لأيّامي كما يقال قبل أن تنسحب مريان من حياتي بشكل مفاجىء، سرت على غير هدى على ضفاف الهور حتى حدود الموت في الضباب وانتهى بي الأمر إلى السقوط ثملا في قناة متجلّدة، في الماء القاتمة كانت تنتظرني أعضاء مقطّعة وجماجم لا وجه لها، ابتسامة هائلة لمشوّه حرب عضّني في بطني ويد مقطوعة تشبّثت بشعري ونتف من الجلد الممزّق قطع من اللحم المتحلّل تغلغلت في فمي وتعفّنت حالاً في السائل الأجاج مدفوعًا إلى الطين الأسود والكثيف إلى أن توقّف كلّ شيء أخيرًا، لم أعد أتخبّط، لم تعد هناك دوائر على صفحة المياه، ما عدا هجمات الجراذين التي انقضّت بالعشرات على جسدي الجامد في هور البندقية، مدينة التعفّن النبيل والقصور المهتزّة، لم أعد إلى هناك قط، حتى عندما كنت أملأ حقيبتي بالمعلومات السريّة في تريستا أو في أودينا، تحاشيتها عمدًا، بدّلت القطار في مسترا لكي لا يغريني الخروج من محطّة سانتا لوتشيا بالعودة إلى الغيتو، العودة إلى ساحة المغربيّيْن أو إلى «رصيف النسيان» الاسم على مسمّى حيث سكرنا أنا وغسّان حتى الإغماء، لا

يمكن النسيان في نهاية المطاف: يدا هرمان جيربنز المجعّدتان، شارباه المرتجفان، وجوه الأصوليّين المعذّبين في سجن القناطر، صورة الرؤوس المقطوعة لرهبان تبحرين، التماعات قبب القدس، مريان العارية قبالة البحر، صرخات خنزير أندريا، الجثث المتكدّسة في شاحنات الغاز في شلمنو[1]، ستيفاني المتألّمة أمام كنيسة آيا صوفيا، ساشكا بريشتها وألوانها في روما، أمّي أمام البيانو في مدريد عازفة فوجة لباخ بحضور حشد من الكرواتيّين والإسبان، صور كثيرة مرتبطة بخيط لا ينقطع ويتلوّى مع ذلك كما يتحاشى خط سكك الحديد المرور وسط مدينة أو التقاطع مع قطارات أخرى تلافيًا لمخاطر الاصطدام، لدى رجوعي من تحقيق قمت به في براغ منذ فترة قصيرة، استقللت القطار الليلي إلى باريس، عبر فرانكفورت، آخر وسيلة نقل، آخر قاطرة، كان رجل في الخمسين من عمره جالسًا في مكانه يلتهم سندويشًا، الساعة الثامنة مساءً، رأسه مستدير وأصلع، بذلته رماديّة ومظهره يشبه المحاسبين، حيّاني بتهذيب باللغة التشيكيّة قبل أن يعود من جديد إلى التهام سندويشه فرددت التحيّة بالتهذيب نفسه، أستوي في مقعدي، يغادر القطار محطة براغ في الوقت المحدّد، ألهو بطريقة آليّة بنجمة صغيرة من الكريستال مغلّفة بإتقان بورق من الحرير الأحمر، وهي ذكرى من بوهيميا – ما أن أنهى سندويشه، أخرج مرافقي من أمتعته كتابًا مضبرًا ضخمًا، أشبه بكاتالوغ، وبدأ يتصفحّه بحميّة وحماس، متنقّلاً من صفحة إلى أخرى، واضعًا اصبعه على جداول أرقام، مستعيدًا الصفحة السابقة، ناظرًا إلى ساعته ومن ثم متفرّسًا من النافذة، السماء أظلمت، لا يستطيع أن يرى شيئًا، يمسك كتيّبه

---

(1) معسكر إبادة أنشأه النازيون في بولونيا.

من جديد ويتفحّصني بنظراته متحرّقًا لطرح سؤال عليّ، سألني هل أعرف إذا كان القطار سيتوقّف في تيتشين؟ أو على الأقل هذا ما اعتقدتني فهمته، فرحت أرطن بالإلمانيّة أنّني لا أعرف شيئًا على الإطلاق لكن الأمر محتمل جدًّا، إنّها آخر مدينة تشيكيّة قبل الحدود، على نهر لابه، الرجل يجيد الإلمانيّة، إنّه متّفق معي، ينبغي على القطار أن يتوقّف في تيتشين، حتى لو لم ينقل معه ركّابًا *wissen sie*، كما تعرف، لو كنا نزلنا في تيتشين لاستطعنا ركوب قطار شحن البضائع الذي انطلق من برنو بعد الظهر قبيل الساعة الخامسة وسينزلنا في دريسد حوالي الثانية صباحًا ولأمكننا اللحاق بهذا القطار بالذات الذي لن ينطلق قبل الساعة الثالثة إلا ربعًا، هذا غير معقول، كما ترى- أوافق على ذلك، يتابع الرجل تصفّح كاتالوغه الذي هو في الواقع فهرس يعرض مواعيد الرحلات لخطوط السكك الحديديّة، تجد هنا **جميع** أنواع القطارات، **جميعها** هل تسمعني، استعمال الكاتالوغ معقّد قليلاً لكن عندما تعتاد عليه تجده عمليًا، إنّه مخصّص لموظفي سكك الحديد، لو التقينا لتوّنا مثلاً قطارًا في الاتّجاه المعاكس، والساعة تشير إلى التاسعة والدقيقة الثالثة والعشرين، حسنًا، أستطيع أن أقول لك من أين أتى وإلى أين يذهب، هل هو قطار لنقل الركاب أو لنقل البضائع، إذا سافرت في القطار ومعك هذا الكتاب فلن تضجر أبدًا، قال هذا وقد انفرجت أساريره، كيف يُعقل ألا يعرف أنّ القطار يتوقّف في تيتشين، حسنًا الأمر بسيط للغاية، بسيط للغاية، اسمعني، موعد التوقّف موضوع بين هلالين، يعني أنّه اختياري، لكن ساعة مرور القطار محدّدة، هناك إذا إمكانيّة التوقّف في تيتشين، كانت لدينا إمكانيّة توقّف أخرى لبضع دقائق خلت، لكنّك لم تنتبه لشيء، ولم تلحظ حتى أنه كان **بإمكاننا** التوقّف هنا *wir hatten die Gelenheit*، كما ترى

هذا الكتيّب رائع ويسمح بمعرفة ما يمكننا فعله في غضون دقائق أو في الساعات الآتية، لا بل وأكثر، ثم بدت من جديد علامات الإرتياح على وجه الرجل التشيكي الساذج، جميع الاحتمالات موجودة في كاتالوغ المواعيد هذا، وهي كلّها هنا- سائق الحافلة لا يستطيع إلا أن يلتزم بالمواعيد المحدّدة في هذا الكتيّب، سأعطيك مثلاً، أعرف أنّك ذاهب إلى باريس وبالتالي ستغيّر القطار في فرانكفورت لتستقل «الأنترسيتي» في الثامنة صباحًا، وفي هذه الأثناء تكون قد أكلت بروتشن[1] ومقانق في المحطّة، ثم عند وصولك، تذهب بالتأكيد إلى بيتك رقم 27 شارع أوجين كاريير الدائرة الثامنة عشرة في باريس، ستصل إليه منهكًا في الثالثة والدقيقة الثالثة والعشرين، ستضع حقائبك، تأخذ حمّامًا سريعًا وعندئذٍ أمامك حلّان: إمّا الذهاب إلى المكتب في الحال أو الانتظار حتى صباح الغد، لكلّ حلّ حسناته وسيّئاته، إذا قصدت جادة مورتييه لن تكون موجودًا في البيت عندما سيقرع أحدهم بابك في الخامسة وأربعين دقيقة، لكن إذا لازمت البيت فإنّ مجيء هذا الشخص والخبر الذي سيحمله إليك سينسيانك جزءًا من المعلومات التي يفترض بك إدراجها في هذا الملف السرّي، قائمة الأموات هذه التي تُعدّها منذ بعض الوقت وأنت تستخدم بطريقة غير شرعيّة تقريبًا الوسائل التي تضعها دوائر الأمن في الخارج تحت تصرّفك، كما ترى، كلّ شيء مكتوب هنا في الصفحتين 27 و120 وما يليهما وفي جميع الأحوال، سواء كنت حاضرًا أم لا، فإنّ القطار المقبل سيكون مذكورًا في الصفحة 293 من جدول مواعيد الرّحلات، قطار البندقيّة - بودابست السريع، حيث ستثمل وأنت تغنّي *Trois jeunes tambours*، ثم في الصفحة 294 ستصعد في

(1) بروتشن: خبز ألماني.

حافلة للبضائع ذاهبة باتّجاه معسكر الإبادة في يازنوفاك، على نهر سافا ثم ستستقلّ في الصفحة 377 قطار بنغازي- طرابلس الغرب، أمّا القطار طنجة -كازابلانكا السريع فموجود في الصفحة 404، وكل ذلك سيؤول بك إلى الصفحة 533 حيث ستفقد الخلف الذي كان بإمكانك إنجابه إلى الوجود وهكذا دواليك، كلّ حياتك هنا، قطارات عديدة سوف تقودك، على مهل، على غير معرفة منك تقريبًا، إلى قطار باندولينو[1] أخير من ميلانو إلى روما مباشرة وسيحملك إلى نهاية العالم المرتقبة في محطّة ترميني عند الساعة الثامنة وعشرين دقيقة، أستمع إلى اللائحة الطويلة المملّة الخاصة بالقطارات يتلوها الرجل الساذج بانتباه، معه حقّ، هذا الكاتالوغ وسيلة بديعة، فكرّت، وموظّفو الخطوط الحديدية محظوظون فعلاً، يضع الرجل الكتيّب جانبًا ويتناول سندويشًا آخر يلتهمه بشهيّة عالية وهو يحدّق مباشرة في عينيّ، أشعر بالجوع فجأة، - يبتسم التشيكي لي ويعرض عليّ أن أتقاسم معه وجبته، أشعر بخطر محدق، فجأة يبدو لي وجهه مرعبًا وقد شوّهته ابتسامته المتزلّفة، يصرّ، ويناولني نصف سندويشة، ربّما كان يريد تسميمي، هذا الرجل بهيئته التي تشبه المحاسبين خطير، الموت يتجسّد لي في صورة تشيكيّ يتكلّم اللغة الألمانيّة وفي حوزته كتالوغ عن مواعيد الرحلات في القطار، القطار الأخير يأتي دومًا على حين غرّة وسأموت، أنا خائف، أنا خائف أستيقظ مذعورًا وقلبي يدقّ بسرعة مئة وأربعين في الدقيقة، إنّه حلم عبثيّ، لا بدَّ أنّني انتفضت بقوّة حتى أنّني صرخت ربّما لأنّ جاري شخص إليّ، كان وجه المحاسب التشيكي شبيهًا بمجنون المحطّة في ميلانو، لكني أوقن الآن أنّه كابوس مقيت ونذير فأل سيء، لو أنّني رأيت حلمًا إيروتيكيًّا

---

(1) باندولينو: نوع من القطارات السريعة التي صنعتها شركة فيات.

رائعًا مع امرأة مجهولة بدل أن أحلم برفيق سفر في القطار، في براغ اشتريت فعلاً هذه النجمة التي نحتت داخل كتلة الكريستال في معتقل تيريزينشتات[1]، أطفال يهود محتبسون في ذاك الغيتو استغرقوا أيّامًا عدّة في صقلها في أحد المشاغل النازيّة، بائع التحف الذي باعني إيّاها كان ذا وجه ماكر، قال لي تخيّل الأيدي الصغيرة للصبية الصغار الذين صنعوا هذه النجمة، لا أعرف لماذا لكني صدّقته، الليل يسدل ستاره تمامًا الآن، ولا تلمع إلا أضواء قليلة في البعيد، من يقود الحافلة في أحد أحلام جوني في فيلم «جوني يشارك في الحرب[2]»، إنّه المسيح على ما أعتقد يؤدّي دوره دونالد ساذرلند، وما أدراك من هو نصف الإله هذا الذي يقودني بهدوء إلى روما، بحسب جدول مواعيد البارك[3]، سأذهب لاحتساء كأس في البار، أشعر بالظمأ، لا

---

(1) تيريزينشتات: معسكر اعتقال وغيتو يهودي أُنشىء لمدة ثلاث سنوات ونصف 1941 - 1945 كان محتشدًا انتقاليًا لليهود التشيكيّين الذين كان الإلمان يقومون بترحيلهم إلى مراكز القتل. على الرغم من الحياة المرعبة اتّسم معتقل تيريزينشتات بحياة ثقافيّة عالية فكان الفنّانون اليهود البارزون يقومون برسم اللوحات وكان الكتّاب والأساتذة والموسيقيّون يلقون المحاضرات والحفلات واحتفظ الغيتو بمكتبة تعليمية.

(2) *Johnny Got his gun* رواية كتبها وأخرجها كاتب السيناريو الشهير دالتون ترامبو Dalton Trumbo (1905– 1976) (الفيلم الوحيد الذي أخرجه) كان أحد الفنّانين العشرة الممنوعين من العمل في هوليوود بسبب ميوله اليساريّة. جوني هو بطل رواية دالتون ترامبو أصيب بجروح بالغة خلال الحرب العالميّة الأولى فبُترت أطرافه وتشوّه وجهه تمامًا لكن دماغه لا يزال يعمل، ممدّدًا على سريره في المستشفى يتذكّر ماضيه عاجزًا عن الكلام والسمع، يعتبر الفيلم أحد أهمّ الافلام التي تدين عبثيّة الحرب.

(3) البارك: ثلاث إلهات عند الرومان يشرفن على قدر الإنسان ويتحكّمن بمصيره من الولادة إلى الحياة إلى الموت.

يزال الوقت مبكرًا جدًّا، وعلى هذه الحالة إذا بدأت بالشرب فسأصل ثملاً إلى روما، جسدي يزعجني أحرّكه فوق المقعد وأنهض، أتردّد قليلاً، ثم أتّجه إلى المراحيض جيّد أن يحرّك الانسان جسده قليلاً وأن يغسل وجهه بالمياه الفاترة غير الصالحة للشرب، المرحاض على صورة القطار، عصريّ، من الفولاذ المطلّي باللون الرصاصّي والبلاستيك الأسود، أنيق كبعض الأسلحة اليدويّة، مزيدًا من المياه على الوجه وها أنا أستعيد نشاطي، أعود إلى مقعدي وأنا أشاهد غلاف مجلة **برونتو** تخطر لي فكرة بشأن الذئب الشاب مدمن الكوكايين الذي يتقيّأ دمًا في إحدى عيادات تورينو، فلترفق به الآلهة- في المستشفى التي تسرّبت إليها أشعّة الشمس تداعب ممرّضة جميلة جوني في الفيلم، جوني الذي لا يساعده أحد في وضع حدّ لحياته بالرغم من توسّلاته بواسطة إشارة المورس، جوني الجندي الراجل البسيط الذي دمّرته قذيفة يحلم بمنظر الميدوست[1] وبالمسيح السائق، الكتيّب اللبناني يناديني على الطاولة الصغيرة، لماذا لا أنصرف إلى قراءته بعد كلّ حساب وأخرج من ذاتي لبرهة من الوقت لأدخل إلى خيال رافائيل كحلة وقصصه، ما دام دالتون ترامبو ليس متوفرّا ولا فيلمه «جوني يشارك في الحرب»، الورق المسلّك قليلاً لذيذ الملمس، لنرَ ما إذا كانت أمينة المكتبة في ساحة Abbesses قد سخرت منّي أم لا؟

---

(1) ميدوست: منطقة فسيحة في الولايات المتّحدة بين جبال الأبالاش والروكي مونتنز (الجبال الصخريّة).

الفصل الرابع

رفعت انتصار قبضتها اليمنى. صرخت وبكت ثم مسحت دموعها بغضب متشبّثة ببندقيّتها كأنّها تتشبّث بعصا.

الهزيمة تبدأ من القدمين.

تتغلغل أوّلاً في فردتي الحذاء اللتين كان يُفترض بهما أن تقودا إلى طريق النصر، فردتي الحذاء اللتين حُضّرتا طيلة سنوات استعدادًا للعرض الأخير. الهزيمة تبدأ من فردتي الحذاء اللتين نمسحهما كلّ صباح، فردتي الحذاء اللتين يتغيّر شكلهما، تتلطّخان بالغبار، تينك اللتين تستران على أفضل نحو ممكن دم الأصابع، اللتين تسحقان الحشرات، تحميان من الأفاعي، تقاومان الحجارة المسنّنة التي تغطّي الطرقات. تبدأ الهزيمة جسديّة، أشبه بتشنّج يتسبّب لك بالعرج. الهزيمة مفاجأة مضنية، تأخذ في التعثّر، تترنّح في الحرب على قدميك الواهيتين. تشعر فجأة بما لم تشعر به قطّ من قبل، لا يعود بوسع القدمين أن تهرولا، بل تمتنعان عن الانقضاض والهجوم وقد أصيبتا فجأة بالشلل وتجلّدتا بالرغم من الحر، تنعدم فيهما الرغبة في تلبية حاجات الجسد الذي تنتميان إليه. أمّا البندقيّة عكّازة انتصار الباردة، هذه العصا الهشّة، فلم تعد تدفعها إلى الأمام بل تعطّلت فجأة واعتراها الصدأ في مخيّلة الجندي، يتردّد في استخدامها لئلا يحطّمها تمامًا ويجد نفسه دون سند

في هذا العالم الذي بدا يترنّح على شفا الانهيار لأنّ القدمين داخل الحذاء العسكري الضخم تشكوان كللهما وارتيابهما. وفجأة يتحاشى الرفاق النظر إلى بعضهم، أعينهم لا تعود تحدّق أمامها في البعيد، بل تُخفض باتّجاه الأرض، ورؤوسهم تنحني باتّجاه أقدامهم الغامضة والشعور الأصمّ بالهزيمة يملأ احشاءهم صعودًا من الأسفل، من الساقين، وعندئذٍ يرون أنّ الكثيرين ماتوا تعساء، ميتةً عبثيّةً، فيما كانوا فيما مضى يلقون حتفهم بأبهى وأنعم صورة، لامعين في الشمس، يعرف المقاتل ويستشعر أنّ كلّ شيء بات من الآن فصاعدًا عبثًا، لن يكون بإمكانه أبدًا اجتياز الجبل، ولا بلوغ قمّة هذه الأكمة إذا كانت القدمان، والساقان، والأحشاء، والبندقيّة قد استسلمت جميعها للهزيمة التي تغلغلت إلى كلّ مكان وأصبحت البديل المتوحّش لصدقيّة القضيّة، للأغاني والأناشيد، لتقاسم الطعام والمداعبات، يصبح الجرحى مرايا لا تُحتمل، والموتى غرباء ويتساءل الرفاق عن مصيرهم يومًا بعد يوم، وهزيمة تلو الهزيمة، ماذا صار بحالهم فهم لم يعودا أبطالاً، ولا إخوة بل ضحايا بل مهزومين وسيمحو التاريخ ذكرهم ويرميهم في غياهب النسيان الشريرة، في هذه الأرض التي تدوسها الآن أقدام الفرار الثقيلة، وأحذية التخلّي والخوف. ثم لا يلبث أن يتسلسل كلّ شيء بسرعة مخيفة: بعد أن مشيت متباطئًا على طريق الجبهة، تجد نفسك تمشي بصمت في المدينة، على مرأى من أنظار المدنيّين الشامتين الذين يتّهمونك بأنّك سبب حزنهم المتوحّش، هؤلاء النسوة أمام منازلهن الفارغة، هؤلاء الرجال، لوقت قليل خلا، كانوا يكبرون شجاعتك، أمّا الآن فيستعدّون لإطلاق الهتافات والزغاريد التي تعبّر عن غبطتهم في استقبال المنتصرين الجدد متتبّعين بنظراتهم ظلّ الطائرات المغيرة التي تبذر بتهتّكها

الموت وتجهز على كلّ أمل في النصر. هذه الليلة، توفّي مروان، وهو لا يزال مرتديًا حذاءه، في ضواحي المطار. لا بدّ أنّه اشتمّ رائحة البحر لدى مصرعه الحرّ لا يطاق. يبدو أنّ عرفات يفاوض العدو. في شارع الحمراء الاضطراب في أوجّه، لا أحد يفهم شيئًا ممّا يحدث. هؤلاء الذين يفترض بهم أن يقاتلوا توقّفوا عن القتال. لا يزال اليسار اللبناني يدافع عن بيروت الغربيّة. مروان توفي. لو أنّه توفي أوّل من أمس أو في شهر أيّار لانهارت انتصار. لكنّ قدميها اليوم متورّمتان، وقد أنهكها الحرّ والعطش والقنابل المتساقطة. المدينة معلّقة في الهواء، ولا أحد يعرف من أي جهة ستحلّ الكارثة. هذا الصباح، في مركز القيادة العامّة هيجان واضطراب يرافقهما قطع أنفاس. دمّرت الطائرات مجموعة مبانٍ في الشيّاح. هذا ظلم ولا يمكن فعل شيء حياله، والحذاء العسكري الروسي ثقيل لدرجة تشعر معها انتصار وكأنّها ملتصقة بالأرض. أخذت تتلّهى بتجهيز بندقيّتها وإفراغها وهي تفكّر بمروان. البندقيّة المشحّمة جيّدًا تطمئن، وهي بذلك تعمل على أفضل وجه. الساعة تشير إلى انقضاء فترة الظهيرة بقليل. عند الفجر لا تفوح من بيروت رائحة الزعتر بل النفايات المحترقة. البارحة أيضًا، نامت تحت درج البناية. أيقظها أبو ناصر برفق عند الساعة السادسة صباحًا. قال لها: مروان استشهد. الآن إنّه الشهيد مروان. سيطبعون ملصقات مرفقة بصورته ويلصقونها على جدران المدينة. في حال بقيت هنالك مدينة. وفي حال بقيت هنالك مطابع لطبع الملصقات. هذا إذا تيسّر لهم الوقت، أو إذا كان الوقت لا يزال موجودًا. البحر في كلّ مكان. بيروت جزيرة أين بإمكانهم الذّهاب؟ لم تغادر انتصار بيروت قط. لم تنم قط إلا في بيروت. لا، هذا غير صحيح، ذات مرّة نامت في طرابلس وفي الجبل بضعة أيّام في صغرها، بيروت جزيرتها.

الهزيمة جليّة واضحة لدرجة أنّ لا أحد يريد الاعتراف بها. المنفى المحتمل يدور الحديث عنه وكأنّه نصر. قاوم الفلسطينيّون بروعة الجيش الاسرائيلي. والمقاومة مستمرّة. المعركة المجيدة لتحرير فلسطينِ مستمرّة. وسط النتانة التي يشيعها القصف، تتساءل انتصار ما إذا كانت فلسطين موجودة حقًّا. هل يوجد فعلاً شيء (أرض، وطن) غير الفلسطينيّين الذين يطرحون موتاهم في أرجاء الشرق الأوسط وكأنّهم بذور قمح. المقابر الفلسطينيّة في كلّ مكان من العالم في الوقت الحاضر. ومروان طريح الموت في مكان ما. تغمض انتصار عينيها لكي تحبس دمعة غضب عاجزة وترى من جديد رغمًا عنها الجثّة الأكثر رعبًا التي شاهدتها خلال الحصار - في خلدة سحقت دبّابة مقاتلا على الطريق، كما يُسحق جرذ أو عصفور. كان رأسه المنزوع الوجه بركة مسطّحة من الشعر الدامي. لا بدَّ أنّ مسعفي الهلال الأحمر اضطروا إلى انتزاعه عن الإسفلت بالرفش. حول الجسد مغيض دائري من الأحشاء والدم وكأنّ الدبّابة سحقت رأس بندورة. لا يزال الفلسطينيّون يتشبّثون بالأرض. تابعت انتصار التلّهي بطريقة آليّة ببندقيّتها. توفّي مروان. عندما سألت «أبو ناصر» كيف توفّي لم يعرف بماذا يجيبها. قال: لم أكن هناك يا انتصار. أبو ناصر والد لأربعة صبيان. وُلد في القدس. له لحية جميلة اعتراها بعض الشيب ويقيم في شقة واسعة في منطقة الروشة. كانت تودّ أن تعرف كيف قُتل. يا انتصار يا انتصار استشهد مروان. هذا كل ما تعرفه. تصغي إلى القصف، إنّه موسيقى مألوفة كقرعات الطبل أو دقّات القلب، الطائرات تمزّق أديم السماء، تتمنّى لمروان أن يكون قد مات ميتة هادئة، دون نزاع، دون كرب، مثل طيران سريع يختفي وراء البحر أو في وهج الشمس، ترى من جديد يدي مروان، ابتسامة مروان، تشعر بغياب فم مروان

وصدره. تخرج للذهاب إلى مركز الخدمة محاربون يهرولون ويصيحون ويتنادون، المعركة لا تزال محتدمة، هكذا قالوا لها. عند مدخل المدينة الجنوبي. في الجبل. في كلّ مكان. الإسرائيليّون يطلقون تصريحاتهم من الراديو وعلى التلفزيون. في الجنوب استقبلهم الشيعة بصفتهم محرّرين. القرى تعبت من تحمّل عبء المقاتلين الفلسطينيّين. تعبت من الفقر والقصف والمهانة. إنّهم جبناء، خونة. يتردّد أبو ناصر في إرسال انتصار إلى الجبهة لكنّها تُصرّ. أريد أن أعرف ماذ حصل لمروان، قالت. هل هل أتوا بجثّته؟ لا يعرف أبو ناصر شيئًا عن الموضوع. الشهقة في صوته. كلّ شيء يسير بشكل سيّء يا صغيرتي. كلّ شيء يسير بشكل سيّء. ابحثي عن حبيب برغوثي والآخرين، كانوا معه البارحة. احتاطي لنفسك. سآتي بعد قليل. لولا مروان لما انضّمت إلى صفوف المقاتلين ولكان للهزيمة طعم آخر. ولكانت الآن تفتّش يائسة عن الماء بين الأنقاض. أو ميّتة داخل شقّتها في برج البراجنة، في الحرّ الذي لا يطاق وحمم القنابل الحارقة. إلى متى ستستمرّ تلك الحال؟ عمّا قريب لن يتبقّى شيء من المدينة. لن يبقى إلا البحر، هذا كلّ شيء، البحر الذي لا يفنى. تنبّهت لمرور جيب من الرفاق المتوجّهين إلى الجبهة، «الجبهة» كلمة غريبة. المسألة هي دفاع عن النّفس وسط هذا الحصار. وفي النهاية، أن يكون المرء أقرب قدر ممكن من الدبّابات الإسرائيليّة فهذا موقع يُحسد عليه، لا يجازف اذ ذاك بالموت جرّاء قنبلة نابالم أو قذيفة فوسفوريّة. جنوبي المدينة، الشوارع مغطّاة بالأنقاض والسيّارات المحترقة. أحدثت الإنفجارات أخاديد في الإسفلت فبات كسجّادة سوداء متموّجة. المدنيّون يلازمون منازلهم وملاجئهم. شرقًا الإسرائيليّون على المتحف حيث يدور القتال منذ أسابيع، حسب ظنّها. أو ربّما فقط منذ بضعة

أيّام. وفي جهة المطار أيضًا. البارحة شربت نصف قنينة ماء طيلة النهار. الخبز موزّع على حصص. ورائحة معلّبات التونا والسردين تشعرها بالغثيان، لا لشيء إلا لمجرّد التفكير بها. الإسرائيلي الوحيد الذي رأته كان جثّة أحد الجنود الذين سقطوا في إحدى المناوشات. كان أسمر اللون يافعًا، أشياء قليلة تميّزه عن المقاتلين الفلسطينيّين، عندما توفّي. فقط عندما توفّي. في الجهة الأخرى لديهم ما يشربونه ويأكلونه، لديهم أسلحة وذخائر ودبّابات وطائرات. هنا، مجرّد مدينة محاصرة بين السماء والبحر، جافّة، محترقة، سبق لهم واستولوا على فلسطين وبيروت آخر نجمة في سماء فلسطين تومض بخفوت. عمّا قريب ستختفي، ستصبح نيزكًا برّاقًا لا يلبث أن يسقط في المتوسّط.

* * *

– انتصار؟ مروان.

– أعرف. أخبرني أبو ناصر.

في إحدى الطبقات الأرضيّة من أحد المباني شبه المدمّرة، والمحصّنة بالأنقاض وبركام الطوابق العليا، وسط الصواريخ المضادة للدبّابات ورشاشين من عيار 30، يتعاطى مقاتلو فتح الأربعة المخدّرات، وهم عراة الجذوع. الدخان يزيد من الشعور بالظمأ. ورائحة الحشيش تلطّف قليلاً رائحة العرق. من وقت لآخر، يراقب أحدهم الشارع من فتحة في الجدار. تجلس انتصار أرضًا. يتظاهر حبيب بتمرير السيجارة لها، فترفض بحركة من رأسها.

– كلّ ما نفعله الانتظار. لا أحد يعرف ماذا سيحصل.

– كيف   كيف تو...؟

حبيب عملاق لطيف جدًّا، ووجهه طفولي.

- البارحة مساءً. على مسافة قريبة قليلاً من هنا. هناك، مع أحمد. وقبل الفجر بالضبط. أحمد في المستشفى مصاب بشكل خفيف. قال لنا إنّه رأى مروان يسقط، وقد أصابته عدّة رصاصات من الرشّاش في ظهره. لم يستطع نقل جثّته. إمكانيّة أن يكون مروان لا يزال على قيد لحياة تدمي قلبها.

- لكن كيف بالإمكان التأكّد من ذلك؟

- تعرفين الأمر يا انتصار. لقد توفّي. هذا أكيد.

- ربّما كان بإمكاننا استدعاء الهلال الأحمر للذّهاب والإتيان به؟

- لن يأتي المسعفون إلى هنا يا انتصار، على الأقلّ في الحال عليهم التريّث ليكونوا بأمان ويحصلوا من الاسرائيليّين على الإذن بالمرور. لا ليس هناك ما يمكن فعله.

ينفث حبيب دخان سيجارته والحزن بادٍ عليه لكنّه مقتنع، تعرف أنّه على حقّ. الجبهة هادئة الآن، متفكّكة. تتخيّل جثمان مروان متحلّلاً في الشمس بين خطوط التّماس. انحدرت دمعة حارقة من عينها اليسرى. ستذهب للجلوس قليلاً على انفراد، مسندة ظهرها إلى الجدار. هنا رائحة البول تحلّ مكان رائحة الحشيش. يتركها الرفاق لألمها. الصمت مخيف. ما من طائرة، ما من انفجار، ما من محرّك دبّابة، ولا كلمة. شمس منتصف النهار حارقة. مروان على مسافة أمتار. ربّما كان الإسرائيليّون قد انتشلوا جثّته. لا أحد يحبّ منظر الجثث تتحلّل في معسكره. أحمد. لا بدَّ أنّه سقط في صحبة أحمد الجبان. أحمد الماكر والخبيث والدنيء. لعلّه كذب لكي يحمي نفسه وربما تعمّد تصويب رصاصة على قدمه. ربّما هو من قتل مروان. لقّمت

رشّاشها الكلاشينكوف بطريقة آليّة فالتفت إليها جميع المقاتلين مندهشين. أحدثت الفرقعة المعدنيّة لمشط البندقيّة صدى وكأنّه سكين على الإسمنت. تمنّت أن تستعيد المعارك وتيرتها في الحال. رغبت في التصويب. في القتال. في الانتقام لمروان الممدّد هناك. في هذه اللحظة عرفات والآخرون يفاوضون بشأن خطّة جلاء المقاتلين مع الموفدين الأميركيّين للذهاب أين؟ عشرة آلاف فدائي. وكم من المدنيّين؟ خمسمائة ألف ربّما. الذّهاب إلى قبرص؟ إلى الجزائر؟ لمحاربة من؟ ومن سيحمي هؤلاء الذين سيبقون؟ اللبنانيّون؟ هذا الصمت لا يطاق، ربّما كان أشدّ وطأة من الحرّ. انصرف حبيب والآخرون إلى اللعب بالورق دون حماس كبير. إنّها وطأة الهزيمة. أغلبيّة المقاتلين هم ممّن ألفوا حياة الترحال الدائم. بعضهم نجوا من أيلول الأسود في الأردن وأقاموا في بيروت في أواخر السبعينيّات، والآخرون شاركوا في عمليّات قتاليّة في الجنوب، ومنهم أيضًا من انضمّوا إلى صفوف منظّمة التحرير الفلسطينيّة بعد 1975. وجميعهم رُحَّل، سواء كانوا سكّان المخيّمات أم لاجئين جرّاء نكبة 1948 أو 1967، فاجأتهم الحرب بعيدًا عن منازلهم، ولم يستطيعوا العودة إليها قطّ. أبو ناصر عبر الحدود اللبنانيّة مشيًا على القدمين ولم يعد إلى الجليل إطلاقًا. ولا مروان أيضًا.انتصار ولدت في لبنان عام 1951، أهلها من حيفا في الأصل وأقاموا في بيروت قبل إنشاء دولة إسرائيل، وغالبًا ما خطر لها وهي تراقب السكك الحديديّة القديمة في حيّ مار مخائيل، أنّ القطارات كانت فيما مضى تجتاز بخفّة الخطّ الساحلي وصولاً حتى فلسطين، مرورًا ببعبدا وصور وعكّا. أمّا اليوم فتضاءلت المسافة كثيرًا من حولها. وبات مستحيلاً بالنسبة لها الذّهاب إلى فرن الشبّاك أو إلى جونيه. الطائرات الإسرائيليّة هي الوحيدة التي تستطيع

اجتياز المنطقة دون صعوبة. والبحر أصبح ممتنعًا علينا أيضًا. البحريّة الإسرائيليّة ترسل زوارقها الحربيّة المزوّدة بالصواريخ. حبيب والشباب من سكّان المخيمات أو أبناء لاجئي 1948. فلسطينيّو الخارج. الفلسطينيّون. من بعث هذه الكلمة التوراتيّة؟ ومتى؟ لا شكّ أنّهم الإنكليز. في ظلّ العثمانيّين لم يكن هناك ما يسمّى بفلسطين. كانت هناك ولاية القدس ومقاطعة حيفا أو الصفد. الفلسطينيّون لم يمضِ على وجودهم أكثر من ثلاثين سنة ومنذ أن فقدوا أرضهم أرسلوا مليون لاجىء على الطرقات. نشأ مروان مناضلاً منذ نعومة أظفاره. وكان مروان يعتقد بصدق أنّ الحرب وحدها بإمكانها أن تعيد فلسطين للفلسطينيّين. أو على الأقلّ أن تعيد شيئًا ما إلى الفلسطينيّين. هذا الظلم لا يُحتمل. كان مروان معجبًا بليلى خالد وبأعضاء الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين الذين قاموا بعمليّات خطف للطائرات والسياسيّين. وكانت انتصار تعتقد أنّه يتوجّب على الفلسطينيّين الدفاع عن أنفسهم، وأنّه لا يمكن أن نترك الفاشيّين وطائرات أف 16 والدبّابات تنكّل بنا دون أن نحرّك ساكنًا. الآن توفّي مروان، وجسده يسودّ تحت الشمس في بيروت بالقرب من المطار، على بعد مئة كيلومتر بالكاد من المكان الذي ولد فيه أحمد. وجود أحمد إلى جانب مروان يثير الاضطراب في نفس انتصار. أحمد القاسي القلب. أحمد الجبان. ماذا كانا يفعلان سويّة؟ منذ سنة فيما كان بعض المقاتلين عائدين من الجنوب كان أحمد محمولاً على الأكتاف. كان جميلاً، تحيط به هالة النصر. تسلّل فريق من الفدائيّين إلى المنطقة الأمنيّة وتصدّى لوحدة من الجيش الإسرائيليّ ودمّر إحدى الشاحنات. حتى مروان كان معجبًا بشجاعتهم. صافحت انتصار أحمد وهنّأته. الناس يتغيّرون، السلاح يغيّرهم. السلاح والهمّ الذي يخلقه السلاح. السلطة

التي يخلقها السلاح والإنجاز الذي نعتقد أنّنا سنحقّقه بفضله. بمَ يفيد الآن الكلاشينكوف الممدّد على فخذيها وكأنّه وليد جديد؟ أي إنجاز ستحقّقه بفضل بندقيّتها؟ ثلاث شجرات زيتون أو بضعة أحجار، أم كيلو برتقال من يافا؟ ستفوز بالانتقام. وراحة النفس. الانتقام للرجل الذي أحبّته ثم تُستنفد الهزيمة، تتلاشى المدينة في البحر، ويختفي كلّ شيء.

الفصل الخامس

ما أعجب هؤلاء الفلسطينيّين الفقراء الجائعين المعدمين ذوي النعال الثقيلة، أتساءل عن هذه القصّة هل هي حقيقيّة، انتصار اسم جميل أتخيّلها جميلة وقويّة البنية، أنا محظوظ أكثر منها، ذهبت إلى فلسطين، إلى القدس، ورأيت حجّاجًا ومشلولين وكتعاء ومبتوري الساق ومقعدين وكسحاء، وفضوليّين ومدّعي تقوى وسوّاحًا ومتصوّفين ورائين وعورًا وعميانًا وكهنة أرثوذكس وقساوسة ورهبانًا وراهبات في أزياء مختلفة ومن جمعيّات شتّى ويونانيّين وأرمنًا ولاتين وإيرلنديّين وملكيّين وسريان وأثيوبيّين وألمانًا وروسًا، وعندما لا يكونون منصرفين إلى القتال لأجل أسباب تافهة، فإنّ كلّ هذا الحشد اللافت يبكي موت المسيح على الصليب، يبكي اليهود على هيكلهم، والمسلمون على شهدائهم الذين سقطوا بالأمس وكلّ هذا النحيب يصعد في سماء القدس برّاقًا ذهبيًّا عند المغيب، ترافق الأجراس غناء المؤذّنين وصفّارات سيّارات الإسعاف تزعق بأقصى قوّتها وتطغى على الأجراس والجنود المتعالين الذين يصرخون «بو، بو» في وجه المشبوهين ويلقّمون بنادقهم الهجوميّة واضعين اصبعهم على زناد البندقيّة مستعدّين لإطلاق النار على صبية في العاشرة من أعمارهم إذا استوجب الأمر ذلك، الغريب أنّ الشعور بالخوف كان في معسكر الإسرائيلي،

الجنود الإسرائيليّون يرتعدون من شدّة خوفهم، عند الحواجز هنالك دومًا قنّاص مستعدّ لإفراغ رصاصة في رؤوس الإرهابيّين، متمترسًا خلف أكياس الرمل، كان مجنّد في العشرين من عمره يمضي نهاره مصوّبًا بندقيّته إلى الفلسطينيّين متفحّصًا وجوههم من منظار بندقيّته الإسرائيليّون عارفون تمامًا أنّ شيئًا ما سيحدث بين يوم وآخر، المهم معرفة أين ومن ومتى، الاسرائيليّون ينتظرون الكارثة التي لا بدّ أن تحصل في وقت غير معلوم، في باص أو مطعم أو مقهى، كان ناثان يقول إنّ هذا هو الجانب الأكثر إثباطًا للعزيمة في عملهم، ناثان ستراسبرغ المسؤول عن «العلاقات الخارجيّة» في الموساد اصطحبني إلى القدس وأتخمني بالفلافل، لا تصدّق اللبنانيين أو السوريّين، قال لي، أفضل الفلافل هي الإسرائيليّة، ولد ناثان في تلّ أبيب في الخمسينيّات، وقد نجا والداه من معتقل لودز ولا يزالان على قيد الحياة، هذا كلّ ما أعرفه بخصوصه كان ضابطًا جيّدًا والموساد جهاز مخابرات ممتاز، لا يحيد أبدًا عن أهدافه، كان التعامل تسوده المودّة دومًا، وفعّالاً أحيانًا فهُم يملكون عشرات المخبرين الفلسطينيّين، واللبنانيّين، والأميركيّين، وهم الأفضل في تقصّي أحوال الإرهاب الإسلامي الدولي، والنشاطات السوريّة والعراقيّة، وكلّ ما يمكن أن يموّل من قريب ومن بعيد وكالات أو أحزابًا أخرى عربيّة، لا بل وكانوا يراقبون أيضًا السياسة الأميركيّة والأوروبيّة، كانت تلك قواعد اللعبة، يتعاونون طوعًا معنا في بعض الملفّات ويسعون في الوقت نفسه إلى التمايز عنّا في ملفات أخرى- لبنان تحديدًا، حيث كانوا يعتبرون أنّ كل مساندة سياسيّة لحزب الله تشكّل خطرًا على إسرائيل، كان حزب الله صعب الاختراق بالنسبة إليهم خلافًا للأمر مع الفلسطينيّين المنقمسين والطمّاعين، كانت المصادر عن

حزب الله هشّة قلّما يمكن الإرتكان إليها وباهظة جدًّا وقابلة دومًا لأن تكون معلومات مضلّلة، بالطبع لم أكن أتكلّم مع ناثان عن ذلك، اصطحبني إلى أورشليم المثلّثة القداسة بسرور عظيم، في المدينة المقدّسة، كانت عشرات اللغات ترطن على مسمعك، اليديّة[1] والعربيّة، هذا بالإضافة إلى اللغات الليتورجيّة واللهجات المعاصرة التي ينطق بها السيّاح والأجانب والحجّاج الوافدون من العالم أجمع، المدينة المقدّسة تعرف كيف تنتج جميع المسرّات وجميع النزاعات، وأيضًا العديد من أصناف المآكل والروائح والطعمات من البورتش[2] والكربلاتش[3] اللذين هما من اختصاص أوروبا الشرقيّة إلى البسترما والسجق العثمانيّيْن في مزيج من الورع الديني والفوران التجاري والأضواء الباهرة والأغاني والصرخات والحقد الذي يبدو أن تاريخ أوروبا والعالم المسلم يفضي إليه رغمًا عن التاريخ: هيرودوس، روما، الخلفاء، الصليبيّون، صلاح الدين، سليمان القانوني، البريطانيّون، إسرائيل، الفلسطينيّون تواجهوا هنا وتنازعوا على المكان المطوّق بالأسوار الضيّقة التي شاهدناها تلتحف بقرمزيّ المغيب، عندما كنّا جالسين أنا وناثان نحتسي كأسًا في فندق كينغ دايفيد الفندق الفخم الذي يبدو هو أيضًا في قلب العالم: اشتهر إثر اعتداء قام به الإرهابيّون الصهاينة في منظّمة الإيرغون الذين قتلوا مئة شخص عام 1946، استقبل الفندق منفيّين وملوكًا قست عليهم الظروف وأزيحوا عن عروشهم جرّاء انقلاب مسلّح أو غيره، هيلا سيلاسي إمبراطور أثيوبيا

---

(1) اليديّة: اللغة العبّرية الألمانيّة ينطق بها يهود أوروبا الوسطى والشرقيّة.

(2) بورتش: حساء روسي يغلب فيه الملفوف والشمندر.

(3) كرابلاتش: رقاقات بولنديّة قريبة من الرافيولي.

الورع الذي طرده الإيطاليّون عام 1936، أو ألفونس الثالث عشر ملك إسبانيا المنكوب الذي فرّ هاربًا في أعقاب تسلّم الجمهوريّين الحكم عام 1931 وأنهى أيّامه في روما في «الفندق الكبير» في ساحة إيزيدرا، أقام ألفونس الثالث عشر لبضعة أسابيع في شقّة فاخرة في الطابق الخامس من فندق كينغ دايفيد في القدس المطلّ على حدائق المدينة القديمة، أتساءل بماذا كان الملك الإيبيري يفكّر لدى تأمّل المنظر أمامه، بالمسيح ولا شكّ، بالملكيّة الإسبانيّة التي رآها تنطفىء، في آخر انعكاس ذهبي فوق مسجد قبّة الصخرة والتي كان يأمل برؤيتها تُبعث من جديد يُروى عن ألفونس الثالث عشر ولعه بتجميع الأخفاف وامتلاكه العشرات منها، البسيطة والمطرّزة والمترفة، وكلّ هذه الأصواف وهذه الفروات كلّ هذه الراخيات حول قدميه كانت بمثابة بيته في المنفى، اشترى ألفونس الثالث عشر من القدس الصندل الذي كان ينتعله وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة في فندقه الروماني الفخم دون أن تتسنى له رؤية مدريد مجدّدًا، محكومًا عليه بريادة الفنادق الفخمة، قصور الفقراء هذه - في حانة كينغ دايفيد وهي جوهرة بريطانيّة، أحتسي الويسكي برفقة ناثان ولم أكن أعلم أنّ القدس ستشتعل عمّا قريب، كنا نتكلّم عن نهاية النزاع الاسرائيلي الفلسطيني وغاب عن بالنا أنّ دورة العنف ستستعاد عمّا قريب على جبل الهيكل هذا الذي يُلمح من البعيد، هنا بالضبط بدأت في تجميع المعلومات في القدس، وأنا أتجادل مع ناثان في الغسق الأسمر الذهبّي، رجل الموساد شريكي رغمًا عنه زوّدني ببعض المعلومات أوّلها بخصوص هرمان جيربنز الهولنديّ الكحوليّ في القاهرة، على سبيل اللطف، دون أن يتحرّى عن سبب اهتمامي بهذه القضيّة التي ترقى إلى أربعين عامًا، رغبة منه في إرضائي، تمامًا كما كان يقدّم لي

الفلافل في المدينة القديمة وكؤوس الويسكي في الكينغ دايفيد، أبلغني أنّ هرمان جيربنز لم يعمل بطبيعة الحال لصالح إسرائيل أبدًا ومع ذلك فاسمه يظهر على صفحة أحد الملّفات القديمة عن العدوان الثلاثي على قناة السويس سنة 1956 التي حصلت عليها شين بت[1] بعيدًا عن التقارير العسكريّة التي لا تزال محيّرة رغم مرور أربعة عقود من الزمن- لماذا هذا الاهتمام بالهولنديّ العجوز، وبالأجانب الذين أغارت عليهم الشرطة في مصر بين 1956 و1967، وبسجن القناطر، أيكون هذا الاهتمام نابعًا من التأثير الذي تثيره القدس، أهو رغبة في التوبة أم في السير على درب الصليب، وما أدرانا ماذا تخبّىء لنا الآلهة دومًا، وماذا نخبّىء لأنفسنا، هذه الخطّة التي بدأت ملامحها ترتسم من القدس إلى روما، من مدينة أبديّة إلى أخرى، ربّما كان الرسول الذي أنكر ثلاث مرّات صديقه عند الفجر الباهت إثر ليلة عاصفة اقتادني من يدي، من يدري، هنالك الكثير من المصادفات، من الطرقات التي تتلاقى مجدّدًا في هذه التكسّرات البحريّة الشاسعة التي تجزّعني على غير علم منّي، منذ أمد بعيد، منذ زمن أجدادي وأسلافي وأهلي وزمني أنا وأمواتي وذنوبي، ألفونس الثالث عشر الذي طرده التاريخ من بلاده والشعب الثائر، إنّه الفرد إزاء الجماهير، أخفاف الملك بدلاً عن تاجه، جسده بدلاً عن وظيفة جسده أن تكون في الوقت نفسه فردًا في أحد القطارات العابرة إيطاليا وحاملاً على كاهلك عبئًا من ماضيك الحزين داخل حقيبة عاديّة من البلاستيك حيث يُكتب مصير مئات الناس الذين توفّوا أو على وشك أن يُتوفّوا، أن تعمل بصفتك كويتبًا عميلاً سريًّا جاسوسًا مخبرًا بعد أن كنت طفلاً ثم طالبًا ثم جنديًا مدافعًا عن قضيّة

---

(1) جهاز الأمن الداخلي في إسرائيل خاضع مباشرة لرئاسة الحكومة.

بدت لك عادلة وما زالت بالطبع، أن تكون خيطًا في مكبّ الغزل الذي تنسجه إلهة القدر متقدّمًا على خط مستقيم بين مسافرين كلٌّ داخل جسده، مدفوعين باتّجاه المحطّة النهائيّة، فيما لو لم ينزلوا أثناء الطريق، في بولونيا، أو فلورانسا، لكيما تلتقي أحد هؤلاء المجانين الذين يرتادون أرصفة المحطّات وهم يعلنون نهاية العالم: يشغّل جاري مسجّلته النقّالة، أسمع أصواتًا ولا أستطيع تمييز ما يستمع إليه، أتبيّن إيقاعًا حادًّا ينضاف إلى إيقاع السكك، ساشكا أيضًا لم تكن تستطيع العيش دون موسيقى، لديها من الأسطوانات قدر ما تشاء من الألحان العبريّة والروسيّة والميلودّيات القديمة أو المعاصرة، عندما التقيتها في الليلة الظلماء، كانت نظرتها الحادّة أشدّ رسوخًا من مرساة سفينة، كما يقول مثل دلماتي ومع ذلك فهي تجذبنا إلى البحر الواسع- في أزقّة روما المطليّة باللبلاب، المعطرّة بالمطر، المصابة هي أيضًا بمرض التاريخ والموت كالقدس والإسكندريّة والجزائر أو البندقيّة، أتشبّث بالكذب وبذراع ساشكا، أتظاهر بنسيان باريس وجادة مورتييه والعنف والحروب، كما كنت أفعل وأنا طفل، كان هناك خيط من النور ينسلّ دومًا من تحت الباب لطمأنتي، وأحاديث الناضجين البعيدة تتناهى إلى مسامعي وتهدهدني بدمدمتها غير المفهومة، وتدفعني تدريجًا إلى عالم الأحلام، ساشكا جسد قريب لكائن بعيد، ما دمنا محاطين بكلّ هذه الأشباح، بموتاي وموتاها الذين نقاومهم ونحن نطوّق واحدنا كتف الآخر بالقرب من نهر التيبر الحزين وهو يجرف في طريقه كلّ النفايات، الأمر محسوم، تركت باريس، الستوديو خاصّتي كموظّف، تركت كتبي ذكرياتي عاداتي إفطاراتي عند والديّ، ملأت حقائب كثيرة وتخلّيت عن الكثير منها أو تقريبًا وسكرت للمرة الأخيرة عرضًا في الحي متلبّسًا جلد إيفان دوروا، ووداعًا، ها أنا في

طريقي إلى نهاية العالم والحياة الجديدة، ها هم جميعًا يطفون خلف الزجاج في السهل المسودّ، ناثان ستراسبرغ، وهرمان جيربنز، وأشباح الحقيبة، وسيّافو الجزائر، وجلّادو تريبستا، كلّ هذا الزبد فوق البحر رغوة بيضاء نتنة بعض الشيء ثمرة تحلّل حفنة من الجثث، استلزم الأمر صبرًا لتجميعها، صبرًا ووقتًا ودسائس ودلائل وحرصًا على عدم فقدان الخيوط، وتكديس آلاف الأرشيفات ورشوة المخبرين وإقناعهم وفق قوانين جمع المعلومات الملقّنة على مرّ السنوات من غير مصدر، ومراجعة الأخبار وتمحيصها، وتكديسها، وتنظيمها وفق فهرس تسهل استشارته، بالأسماء والتواريخ والأمكنة وهلمّ جرًا، القصص الشخصيّة وسير الحياة الجديرة بأفضل دوائر التجسّس الشيوعيّة الهوسيّة، أرشيفات كما الملايين مثيلاتها وبطاقات وإثباتات- ربّما بدأت عملي قبل ذهابي إلى القدس في لاهاي، في 1998، أخذت بضعة أيّام عطلة كي أذهب إلى محكمة الجزاء الدوليّة حيث كانت تقام محاكمة الجنرال بلاسكيتش[1] قائد جيش كرواتيّي البوسنة في فيتاز، في بداية الجلسة تعرّف إليّ تيهومير بلاسكيتش، من قفص الاتّهام أومأ إليّ برأسه، وُجّهت إلى الجنرال عشرين تهمة قصوى من بينها ستّة انتهاكات لشرعات جنيف، أحد عشر انتهاكًا لقوانين الحرب وعاداتها وثلاث جرائم بحقّ الانسانيّة، مرتكبة بصفتها انتهاكات خطيرة للقانون الدوليّ بحقّ مسلمي البوسنة بين أيّار 1992 وكانون الثاني 1994، تركت البوسنة في 25 شباط 1993 ووصلت إليها آتيًا من كرواتيا في نيسان 1992، وبعد أن أمضيت بضعة أشهر على الجبهة بالقرب من موستار وافيت تيهومير بلاسكيتش والبوسنة الوسطى، كان مقرّ

---

(1) جنرال كرواتي سابق في البوسنة والهرسك.

القيادة العامة موجودًا منذ تشرين الأول 1992 في فندق فيتاز، كان بلاسكيتش رجلاً عسكريًّا فعّالا ومحترمًا، شقّ عليّ أن أراه وسط هذا السيرك الإداري المتعدّد اللغات لمحكمة الجزاء الدوليّة حيث كان معظم الوقت يُهدر في مناقشة الإجراءات ومغالطات المدّعي العام الأميركيّ ومماحكاته الفارغة، ومئات الشهود على الفظائع المرتكبة التي كنت أعرف معرفة حصيفة من ارتكبها، كنت أستعيد الأمكنة، والحرائق، والمعارك، والحملات التأديبيّة إلى حين رحيلي بعد وفاة أندريا في الواقع لم أكن ملزمًا بشيء، كنت مرتبطًا نظريًّا بالجيش الكرواتي لكن كان يفترض بنا الاستقالة لدى الرحيل إلى البوسنة لكي لا نورّط كرواتيا رسميًّا، ذهبت لرؤية الكابتن ثمّ المقدّم قلت أنا **راحل لم أعد أستطيع البقاء** فأجابني **لكنّنا بحاجة إليك** قلت **اعتبر أنّني سقطت في المعركة** فنظر إليَّ بلاسكيتش نظرة غريبة وسألني: **ماشي الحال!؟** فأجبته: «**نمشّيه**»، ثم أصدر الأمر بأن تُعطى لي إجازة مرور لإخلاء سبيلي ثم رحلت واجتزت الخطوط مارًّا من جديد بموستار ثم سبليت ومن هناك وصلت إلى زغرب، نزلت في بنسيون حقير واشتريت حذاء رياضيًّا خفيفًا جدًّا، أذكر لم يكن لديّ سوى الرينجر ولا أعرف أين بإمكاني الذهاب، أذكر أنّني اتّصلت بماريان وأنا أبكي كطفل، لم أعد أعرف ما إذا كنت سكران حينئذ، شعرتني مذنبًا كوني تركت الرفاق، مذنبًا بما ساهمت في تدميره، في قتله، كنت أحلم ساعات وساعات دون أن أنام فعلاً، حلمت بطقوس جنائزيّة يلومني فيها أندريا على تخلّيه عن جثّته فمشيت كيلومترات في الجبال للعثور عليه ووضعه على محرقة عالية من الأحطاب وإحراقه، كان وجهه يرتسم حينئذٍ في الدخان الذي يصعد إلى قلب سماء الربيع،

استعدت هذه الأحداث دفعة واحدة حين رأيت بلاسكيتش في قفص الاتّهام في لاهاي وسط المحامين والمترجمين الفوريّين والمدّعين العامّين والشهود والصحافيّين والفضوليّين وقوات حفظ السلام الدوليّة الذين كانوا يفسّرون الخرائط للقضاة ويعلّقون على المصادر المحتملة للقذائف تبعًا لحجم الفوهة ويحدّدون طاقة الآليّة من خلال العيار الأمر الذي أفسح في المجال لمعاينات مضادة وكلّ شيء كان يترجم إلى ثلاث لغات ويسجّل وينسخ ويدوّن آليًّا بالصورة والصوت على مسافة أربعة آلاف كيلومتر من فندق فيتاز ومن نهر لاتسفا ومياهه المزرقّة، واستلزم الأمر تفسير كلّ شيء من البداية، كان هناك مؤرّخون يشهدون لتاريخ البوسنة وكراوتيا وصربيا منذ العصر الحجريّ الحديث مظهرين كيف تكوّنت يوغوسلافيا، ثم عقّب جغرافيّون على إحصاءات ديموغرافيّة، وإحصاء النفوس، وخطط مَسح عقاريّة، وأوضح علماء في السياسة مختلف القوى السياسيّة الفاعلة في التسعينيّات، كان الأمر بديعًا، كلّ هذا العلم، والحكمة، والمعارف أصبح في خدمة العدالة، اعتمد المراقبون الدوليّون على كلّ الإفادات آنذاك، وشهدوا على فظاعات المجازر باحترافيّة عالية، كانت السجالات مهذّبة، وشيئًا فشيئًا كنت سأتقدّم بنفي للشهادة أمام المحكمة، لكن لا الاتّهام ولا الدفاع كان من مصلحتهما أن يجعلاني أمثل أمامهما، خصوصًا أنّ مشاغلي الجديدة كانت تفرض عليّ التكتّم، فكّرت طويلاً بما كان بإمكاني أن أقوله لو أنّي سُئلت، كيف بإمكاني أن أفسّر ما لا يُفسّر، لا شكّ أنّه كان سيتوجّب عليّ أنا أيضًا أن أرقى إلى أوّل الأزمنة إلى انسان ما قبل التاريخ المذعور الذي كان يرسم على جدران كهفه لكي يطمئنّ، إلى باريس مختطفًا هيلانه، إلى موت

هكتور، ونهب طروادة، إلى إيناس[1] الذي بلغ شواطىء لاتيوم، إلى الرومان الذين اختطفوا السابينات، إلى الوضع العسكريّ لكرواتيّي البوسنة الوسطى مطلع 1993، إلى معمل التسلّح في فيتاز، إلى محكمتي نورمبرغ وطوكيو اللتين هما عرّابتا محكمة لاهاي - بلاسكيتش في قفص الاتّهام رجل يواجه منفردًا التّهمة التي تحمّله جرائمنا كلّها، بحسب هذا المبدأ للمسؤوليّة الجزائيّة الفرديّة التي تربط الفرد بالتاريخ، كان مجرّد جسد جالس في كنبة واضعًا خوذة على أذنيه، وهو يُقاضى نيابة عن كلّ هؤلاء الذين حملوا سلاحًا وسيُحكم عليه بالسجن لخمس وأربعين سنة ومن ثم تسع سنوات استئناف واليوم لا بدّ أنّه يفيد من تقاعده المبتسر في كيزلياك، على مسافة لا تبعد كثيرًا عن القرى التي ترقد فيها الجثث المتفحّمة للمدنيّين الذين اتُّهم بقتلهم، هؤلاء الناس الذين لا يزالون في انتظار عدالة لن تأتي أبدًا، في لاهاي الهولنديّة بامتياز، كان هنالك جمهور من اليوغوسلافيّين سابقًا وكان مرهقًا تنظيم الشهود الذين سيمثلون أمام المحكمة من دون أن يتلاقى هذا العالم الصغير في الطائرات والقطارات والسيّارات ومن ثمَّ في الزنزانات الفخمة التابعة للمبنى الذي تمّ احتجازهم فيه أو في مدخل قاعات المحكمة، البلد الضائع أعيد تركيبه من جديد لمرّة أخيرة على يد العدالة الدوليّة، كان الصرب والكرواتيّون والبوسنيّون على جميع فئاتهم والمونتينيغريّون يتعانقون أو يتجاهلون بعضهم البعض، جاؤوا إلى هنا ليتحدّثوا عن حربهم وينشروا غسيلهم الوسخ أمام قضاة لا يستطيعون أن يكونوا

---

(1) إيناس بطل الإنياذة التي ألّفها فيرجيل، وهو بطل طروادي هرب بعد خراب طروادة إلى قرطاجة فشغفت به ملكتها ديدون فتركها إلى إيطاليا حيث أسّس أحفاده روما.

بالطبع لا صربًا ولا كرواتيّين ولا بوسنيّين ولا مونتينيغريّين ولا حتى سلوفينيّين أو مقدونيّين أو ألبانًا، وحدهم المدافعون عنهم كانوا كذلك، وهذا المجتمع الدولي الذي كان يقاضيهم بطريقة غير مباشرة ينظر بلا مبالاة إلى كلّ هؤلاء البرابرة الذين أسماؤهم لا تلفظ، ومئات الآلاف من تلك الصفحات المتعلقّة بالإجراءات أصبحت محيطًا كئيبًا، مغيضًا من العدالة يتخبّط فيه الضحايا الذين أتوا ليشهدوا، المهجرّون والمعذبون والمعنفون والمغتصبات والمسلوبات، كانت الأرامل يبكين أغلب الأحيان خلف الأبواب المغلقة في غرفة مخفضة المصاريع، وكانت قصصهنّ تخرج من الأقفاص الزجاجيّة للمترجمين الفوريّين واردة بالإنكليزيّة والفرنسيّة في تقارير المحكمة لأجل الأجيال المقبلة، ولم يتسنّى للقضاة الاستماع إلى نبرات هؤلاء النسوة ولهجاتهنّ وتعابير أصواتهنّ التي ترسم خارطة حقيقيّة للألم - ثم يستقلّ الجميع الطائرات من جديد وطعم المرارة في أفواههم ويعودون للاختلاط بأعدائهم وجلاديهم ويستعيدون ذكرياتهم من دون أن يلقى حقدهم أو حبّهم أو صراحتهم أو عذابهم آذانًا مصغية، إنّهم مجرّد شخوص في المحاكمة الكبرى التي ينظّمها القضاة الدوليّون المتمرّسون في السوابق وإطلاق الأحكام في الفظاعات المرتكبة، الموكل إليهم تنظيم قانون الجريمة ومعرفة متى حكم الإعدام عن طريق إطلاق الرصاص على الرأس يمثّل شرعيّة من الناحية القانونيّة ومتى يشكّل انتهاكًا خطيرًا لقانون الحرب وأعرافها بالاحتكام الدائم إلى القرارات الصادرة عن نورمبرغ والقدس ورووندا، إنّها سوابق تاريخيّة، معترف بها على أنّها كذلك من قبل هيئة المحكمة تماشيًا مع أحكام القانون الدولي ووفقًا لبنود اتّفاقات جنيف، من خلال تعزيز الأسباب الموجبة بالتعابير اللاتينية المزدانة بالمحسّنات اللفظيّة الملائمة، أجل

كلّ هؤلاء الناس كانوا حريصين على تحقيق العدالة ومثابرين كثيرًا على التمييز بين مختلف أنماط الجرائم المرتكبة ضد الإنسانيّة، ثم يعلن أحدهم: **أيّها السادة أعتقد أنّنا سنعلّق الجلسة لبعد الغداء وبسبب الأعمال الجارية في القاعة رقم 2 تطلب المحكمة من كافّة الأطراف تأجيل استنطاق الشهود الذي كان مقرّرًا بعد الظهر إلى تاريخ لاحق قد يمتدّ إلى شهرين،** إنّ الوقت بالنسبة للعدالة مماثل للوقت بالنسبة للكنيسة، كلاهما يعمل لأجل غير محدود قد يمتدّ إلى الأبديّة، على أيّة حال، كانت هذه الخطب توفّر على الأقل تسلية للمتّهمين فيستمعون لأشهر طوال إلى تاريخ بلادهم وحربهم باهتمام وكأنّهم يشاهدون فيلمًا ناجحًا أو ربّما كانوا يسأمون لسماع الكلام المكرّر على الدوام، بقيت ثلاثة أيّام في لاهاي، كنت أتساءل عمّا إذا كان أحد سيتعرّف إليّ وسيصرخ لدى رؤيتي الشرطة! الشرطة ! لكن لا- يُفترض أن يكون اسمي واردًا في مكان ما في محضر التحقيق، محشورًا مع أسماء أخرى، مسجّلاً بالأبيض والأسود بين أموات زمرتنا والناجين منها وقبالته ربّما وضعت لائحة ضحايانا المدنيّين، الذين قُتلوا عمدًا أو عرضًا، هذا إذا كان بالإمكان أن يقال عن قذيفة هاون إنّها عرضيّة عندما تدفن عائلة بأكملها تحت الأنقاض، شعرت فجأة بأنّني أطفو في الهواء، يجتاز القطار محطّات تحويل متتابعة وكأنّه يرقص، الأضواء في الريف تدورعلى نفسها من حولنا مؤدّية رقصة باليه مدوّخة تشعرني بالغثيان أو ربّما هذا الشعور يعود لذكرى الحرب، اغتنمت فرصة وجودي في لاهاي لأذهب إلى غرونينغ، وأرى المنازل المتعدّدة الألوان على ضفّة القناة المحيطة بوسط المدينة، والساحة الكبيرة ببرجها البديع، والبحر والجزر القريبة، ألمانيا على بعد بضعة كيلومترات شرقًا، غرونينغ مدينة عاديّة وهادئة

ذات ماضٍ مجيد، تجوّلت كيفما اتّفق في شوارع وسط المدينة ثم اهتديت إلى فندق جميل جدًّا قرب القناة في مبنى يعود إلى القرن السابع عشر ذي اسم موحٍ «نزل مركز الحراسة» مكتوب بالفرنسيّة، ما دفعني للاعتقاد أنّهم كانوا يتكلّمون هنا هذه اللغة، بعدما وجدت لنفسي مكانًا يؤويني، أوّل شيء فعلته هو انكبابي على دليل الهاتف، كان هنالك شخصان من عائلة جيربنز، اسماهما يبدآن بحرف أ.ج. وت.، الأوّل يسكن في الضواحي القريبة من المدينة والثاني بالقرب من الجامعة العريقة جنوبي وسط المدينة بحسب الخريطة، إذا كان هرمان جيربنز عجوز القاهرة قد أنجب ابنتين فلا شكّ أنّهما تزوّجتا واتّخذتا اسمي زوجيهما، كانت موظفة الاستقبال في«مركز الحراسة» ودودة ولكن مرتابة بي، ما شأني بهؤلاء الناس من عائلة جيربنز، سألتها إذا كان الاسم شائعًا فأجابتني بلا، ليس حقًّا، عندئذٍ قرّرت أن أشرح لها القصّة، صادفت في القاهرة عجوزًا من غرونينغ يدعى هرمان جيربنز وكلّفني أن أحمل سلامه إلى عائلته، تلك كذبة مقبولة لأنّ السكّير العجوز لو عرف لبصق أرضًا، وفجأة تأثّرت الموظّفة وقرّرت مساعدتي، أمسكت السمّاعة بدلاً منّي وسألت بالنيابة عنّي إذا كان اسم جيربنز الموجود في دليل الهاتف يعرف شخصًا باسم هرمان مقيمًا في القاهرة، لم أفهم كلمة من الحوار لكنّ المرأة الشابّة ابتسمت لي وهي تهزّ برأسها فيما تتكلّم وقبل أن تمسك السمّاعة من جديد شرحت لي - إنه ابن أخيه، لديه فعلاً عم يدعى هرمان هاجر إلى مصر بعد الحرب، بدت الموظّفة مستثارة كليًّا، اسأليه إذا كان بمستطاعي رؤيته من فضلك، فأمسكت السمّاعة من جديد واستأنفت حديثها باللغة الهولنديّة - جيربنز هذا كان طبيبًا ويستقبل عائديه بعد الظهر، أخذت موعدًا في الساعة الخامسة وإلى حينها ذهبت لأتناول سمك

الرنكة في مطعم متوسّط على ضفّة المياه، لحسن الحظّ كان الطقس مشرقًا، والضوء الخريفيّ الشاحب والنسيم البحري يعطّران أجواء المكان، تُرى أيّة اسئلة يمكن لي أن أطرحها على هذا الطبيب، ما الذي كان يجذبني في قصة هرمان، في هذا الحيّز من الظلّ الذي خلتني أتبيّن فيه شيئًا، امتلأ رأسي بذكريات الحرب وقد أجّجتها لاهاي، يطاردني وجه بلاسكيتش الغامض داخل قفص الاتّهام، وأفكّر بالأبطال، والمحاربين، والموتى، والأعمال البطوليّة، أقتل الوقت وأنا أسير على طول القناة، بعض القوارب على الأرصفة ذكّرتني أنّه انطلاقًا من هنا يمكن بلوغ الرين، والرون ومن ثم الوصول إلى المتوسّط ومنه إلى الإسكندريّة، كان تجّار البندقيّة يجلبون من هولندا الفرو ويبادلونه بالأفاويه والديباج، وبحسب الدليل المصوّر لمدينة غرونينغ كانت التجارة مزدهرة في هذه المدينة حيث يُجلب إليها التبغ من المستعمرات، الموعد يقترب، موظّفة الاستقبال الظريفة أرشدتني إلى كيفيّة الوصول إلى عيادة الطبيب في الساعة الخامسة تمامًا كنت أقف قبالة رجل خمسينيّ يرتدي قميصًا أبيض، يجيد اللغة الانكليزيّة، مهذّب، كان مندهشًا بالأحرى لدى سماعه أخبارًا عن قريب لم يلتقِ به قطّ، من الأرجح أنّه تُوفي، قال، إذا كنت لا أزال اذكر جيّدًا، أخبرتني زوجته أنّه تُوفّي، وهي أيضًا تُوفّيت منذ بضع سنوات وقريبتاي تزوّجتا وتقيمان في أمستردام- ووالدي أيضًا مات من شدّة إدمانه على الدخان والكحول، منذ الحرب لم يكن إطلاقًا، على حدّ علمي، مقرّبًا من أخيه، لم يكونا في المعسكر نفسه، كما تعلم، أبي كان مقاومًا وعمّي، احم، ليس كثيرًا *Not so much*، أعتقد أنّهما تخاصما عند التحرير، أُرغم عمّي على الهرب ليتجنّب عقوبة الإعدام، هرب من السجن العسكريّ قبل فترة قصيرة من تنفيذ حكم الإعدام فيه،

ما الذي فعله ليستحقّ مثل هذه العقوبة؟ لا أعرف، كان نازيًّا على ما أعتقد، وأعترف أنّني لم أسعَ إلى استجلاء الأمر كثيرًا، غريب التفكير في أنّه لا يزال على قيد الحياة هناك في مصر، غريب أيضًا أنّ البريطانيّين لم يعتقلوه لدى وصوله عام 1947، شكرت الطبيب وخرجت من جديد وأنا أتخيّل مصير ابنتي جيربنز، هما ابنتا الخائن وهو ابن البطل، وربّما كان كلاهما قاتلين في سبيل قضيّتين مختلفتين، لا شكّ أنّ ابنتي هرمان النازي كانتا تحملان وسمة غياب والد منبوذ من الوطن ولم تسعيا إطلاقًا إلى رؤيته من جديد مثلما لم تسعيا أيضًا لرؤية عائلة والدهما مجدّدًا، فغيّرتا مكان إقامتهما واسمهما بالزواج وتركتا لذرّيتهما هذا الثغرة في شجرة العائلة، ولدى عودتهنّ إلى هولندا لا بدّ أنّ زوجة جيربنز صرّحت أنّ زوجها الذي بقي في مصر تُوفّي، حكمت عليه بالموت وحيدًا وبعيدًا في منفى الغاردن سيتي والكحول التي كانت أحد سجونه الكثيرة، والأكثر مناعة بالطبع بالإضافة إلى سجن الماضي، هرمان جيربنز النازيّ العجوز المحتبس لمرات عدّة في هولندا، وفي القناطر، وفي منزله في الغاردن سيتي، في الميتاكسا والكونياك المصري، المحكوم عليه بأن يرى نفسه يموت وهو يتذكّر شعار الجمجمة على قبّة قميصه حيث كتب SS، الذي لم ينِ يرافقه طيلة حياته كوشم غير مرئي- هل كان يتذكّر هؤلاء الذين حمّلهم في قطارات باتّجاه الشرق، هاتيك النساء اللواتي اغتصبهنّ في معتقل وستربورك، إلى أيّ مدى ترقى ذكرياته، هرمان جيربنز اتّخذ مكانه في قائمة الحقيبة، - عدت إلى فندق «مركز الحراسة» بدأت السماء تمطر، شكرت موظّفة الاستقبال بحرارة وقلت لها: المهمّة انتهت، ابتسمت لي وهي تناولني مفتاح غرفتي، وهذا المساء في فندق البلازا سيأتي المجهول لكي يستلم الحقيبة ويسلّمني المال المتوجّب

دفعه لي، حينها سأشرب كأسًا في صحّة موظّفة الاستقبال وطبيب غرونينغ، وابنتي جيربنز وناثان سترسبرغ يهوديّ لودز الذي كان يترجم لي في القدس الملحق الذي أضيف إلى تقرير شين بيت، كان يرى أنّ عاقبة التدخّل الإسرائيلي المتمثّلة في إرسال نازي قديم إلى أحد سجون القاهرة، أمر مثير للسخرية فهذا بمثابة نزهة بالنسبة له، كان ناثان يجهّز هو أيضًا لوائح أسماء وقوائم لا تنتهي تستهدف قيادات وأشخاصًا يتوجّب اغتيالهم من الفلسطينيّين المعارضين لاتّفاقات أوسلو، من الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين، والجبهة الديمقراطيّة لتحرير فلسطين، وحماس، والجهاد الإسلامي، وجبهة الرفض الجديدة التي راحت تشكّل للموساد خطرًا متعاظمًا، وكان ناثان يجمّع معلومات عن تحرّكاتهم ولم يكن يعرف أنّه قريبًا جدًّا بعد انطلاقة الانتفاضة الثانية سيستلزم الأمر اغتيال معظم هؤلاء الناس حسب العقيدة المعتبرة للقتل الاستباقي بواسطة صواريخ أرض - جو على غزة، أو توغل دبّابات الميركافا في أزقة مخيّمات الضفّة الشرقيّة، كان ناثان ممتلىء الجسم قليلاً بشوش الوجه على الدوام ومفعمًا بحسّ الدعابة، أتساءل أين مكانه الآن، وأنا على شفير نهاية العالم، فيما القطار يجتاز سهل البو دونما إبطاء تقريبًا، على امتداد حافلات القطار ينساب معمل وسط أضواء النيون البيضاء خلف جدران من الآجر، بناء كبير عالٍ، قائم فوق دعامات معدنيّة مضاءة بالمصابيح الحمراء هنا وهنالك وكأنّه مركب - في البندقيّة كان غسّان أنطون يعمل في مرفأ مارغيرا في معمل بتروكيميائيّات مشابه لهذا، مجمّع هائل من القساطل والخزّانات وكانت تضيئه هو أيضًا ليلاً مصابيح حمراء يخترق ضوؤها الضباب الكثيف، كان يعود إلى منزله عند الصباح الطالع في الباص عبر الجسر الذي يُقال له «جسر الحريّة» الذي يصل البندقيّة

بالأرض اليابسة ويكرّس نهاية الهيمنة النسماويّة، تنبعث من غسّان رائحة غريبة على الدوام، تشبه رائحة الفول السوداني أو الذرة المشويّة، عبثًا يغتسل فهذه الرائحة الكيميائيّة الغريبة تلازمه لكنّها تتضاءل على قدر ابتعاده عن المعمل دون أن تختفي تمامًا، كان العمل الليليّ يسلبه جسده، دون أن يعيده إليه تمامًا، ملوّثًا بالروائح الأليفة والمريبة، كما تنبعث من جنديّ في الريف رائحة العرق والشحم، التقيته عند الفجر في أحد البارات حين كان النهار الطالع يحرّرني من أرق جوّال، كنّا نعود كلانا مثل مصاصي دماء منهوكي القوى ومتجلّدين، هو بالأنوراك التي يرتديها فوق بزّته الزرقاء الخاصّة بالعمل وأنا في قبّعتي الأبديّة الغارقة حتى حاجبيّ، ذكّرني تلقائيًّا بأندريا السلافوني، وما أدراني لماذا، لم يكن هناك شيء مُشترك في ملامحهما، ما عدا، ربّما، عدم تلاؤم بين الجسم واللباس، كان أندريا دومًا زريّ اللباس - لم تكن الثياب تناسبه إطلاقًا، إمّا فضفاضة جدًّا عليه وإمّا أضيق من اللازم، كان لباس الميدان لديه مبقّعًا وكانت عدّته تتدلّى منه بطريقة غريبة، يبدو دومًا مربكًا بجسده، تعيق حركته الحقيبة والذخائر والأسلحة، وكذلك غسّان في لباسه الأزرق متدثّرًا بأنوراكه كانت لديه المشية الخرقاء نفسها التي تتناسب مع ابتسامته الأبديّة والشارب الصغير الذي كان شديد الاعتزاز به، أندريا لقي مصرعه في البوسنة الوسطى بالقرب من فيتاز، وها هو يتقمّص من جديد في الفجر الرطيب البارد في أحد مقاهي البندقيّة، مقهى بروليتاري على ضفّة الهور على مسافة مئتي متر من مدافن جزيرة سان ميكيليه الرومانطيقيّة للغاية - حيث دُفن سترافينسكي، ودياغيليف، وعزرا باوند المجنون العجوز- لم أجد فكرة زيارتها صائبة، أندريا الذي كان غيابه يبحث عن بديل، عن من يحلّ مكانه وسط هذا السأم الكبير الموحش

الذي تشيعه صاحبة السمو البندقيّة: كان غسّان يسكن على مرمى حجر من هناك في شقّة رطبة وقاتمة يتقاسمها مع قريبه وهو رئيس خدم في فندق فخم ريفا ديللي شيّافوني، في ذلك الصباح، تناولنا القهوة جنبًا إلى جنب ولم ننبس بكلمة، هذا على الأقلّ ما أذكره، ربّما كانت إفطاراتنا التي لا تحصى عند الفجر خلال الأشهر الأولى تتطابق مع هذا اللقاء الأوّل، لا أعرف متى تحديدًا توجّهت بالكلام لأول مرة إلى غسّان، لا أعتقد أنّ صداقتنا كانت تلقائيّة كما يقال، في الإنارة الصفراء في محطّة بياتشنتا وهواء القطار المكيّف الذي يمنعني من تنشّق الرائحة العالقة بثيابه، الصداقة أو الرفقة تتطلّب وقتًا، وتجارب، وإذا كان تقارب الأجساد في الحبّ يوهم بالمعرفة العميقة للآخر، مثلما توطّد روائح المقاتلين وعرقهم ودمهم أواصر الألفة فيما بينهم، أنا وغسّان راقبنا بعضنا طويلاً دون أن نتقاسم شيئًا بالرغم من (أو ربّما بسبب) تشابه قصصنا الشخصيّة، والنقاط المشتركة الغريبة التي حدسنا بها تلقائيًّا وهذه الندرة الفطريّة على تفهّم أحدنا للآخر، والتشابه الحقيقيّ أو المتخيّل مع أندريا، وشاربه، وهذا ما يحصل معي تمامًا في هذا القطار المدفأ بشكل مبالغ فيه، هاأنذا لا أتوجّه بالكلام إلى جاري، على الرغم من نقاط الاتّصال التي يمكنها أن تقارب بين حياتينا وهذه الرحلة الهادئة مثال عليه، من سيلاقي، أين سينزل، في بولونيا أو في فلورنسا أو روما، يبدو عليه السأم الشديد، ينظر هو أيضًا، ومجلة **برونتو** في يده، عبر النافذة إلى بياتشينتا تنطفىء والمنطقة الصناعيّة ترسل أنوارها المتقطّعة، التي يحجبها عنّا الليل في هذه الأرياف المسطّحة الخصيبة على حدود إميليا حيث يرمي القطار عليها بظلاله مخدّدًا إيّاها - عمّا قريب سيبلغ غسّان الأربعين من عمره، هذا فيما لو كان على قيد الحياة على الرّغم من ركام الجثث الحالي

في بيروت: هل يعمل كأحد حرّاس إيلي حبيقة أم لأحد معاوني الزعماء المسيحيّين المغمورين، هل آل به الأمر للعودة إلى القتال وحمل السلاح الذي كان تخلّى عنه عام 1991، هاربًا من وصول الشقيقة الكبرى سوريا إلى المنطقة الجبليّة التي يسكنها، من يدري، تركت غسان عندما تركت البندقيّة وفيما بعد، في تريستا أو خلال مروري المتكرّر ببيروت من أجل الأعمال، كما يقال، لم أسعَ إلى رؤيته مجدّدًا، إلا أنّه قال لي مع ذلك أين تسكن عائلته في وسط تلّة الأشرفيّة المطلّة على الجهة الشرقيّة من بيروت، قال لي إنّه يمكن من سطح بنايته رؤية البحر، أكثر زرقة ممّا هو في البندقيّة، وأقرب إلى مشهد البحر من هذه البحيرة ذات الامتداد اللامتناهي: المتوسّط الشرقيّ المتلوّن كالأشجار في الفصول منتقّلاً من الرماديّ إلى الفيروزي، تحت سماء لبنان الشاسعة التي تسوّرها الجبال فتزيدها اتّساعًا، وفي انعكاسات القمم، غسّان الذي اختفى كأندريا، والذي تلاشى أخيرًا بدوره ولم أسعَ، ربّما بسبب الحرّ إلى استبداله، أو إلى ملء الفراغ الذي خلّفته نهاية هذه الصداقة الباردة المستهلّة في أحد البارات فجرًا قبالة جزيرة سان ميكيليه مدفن البندقية العام مع مربّعه المخصّص للأجانب، كنّا نتقابل كلّ صباح أو تقريبًا عند طلوع النهار، غسّان يخرج للتو من معمل المواد المخصّبة المستخرجة، الله أعلم، من أيّة نفايات نتنة، وأنا أخرج من توهاني الليلي، طريقة أتوّسلها لأهرب من هذه التي وافتني إلى البندقيّة والتي لم أعد أريد رؤيتها، على حدّ علمي، إلا إذا كان العكس هو الصحيح، كانت ترفض بإصرار مضاجعتي متذرّعة بأنّ البندقيّة تجعلها منهكة الأعصاب، وهذا كان صحيحًا بالطبع، تشعر بالبرد على الدوام، تأكل قليلاً، لكنّي أكتشف اليوم أنّها كانت مرآتي، أنّني أنا من كانت أعصابه مرهقة، على وجه

الاحتمال، جامدًا في البندقيّة كما أنا الآن في هذا القطار، على طريق الشفاء، والنسيان، بعد سنتي الحرب اللتين ضيّعتهما وأنا أجول كرواتيا والبوسنة، تمنّيت أن توافيني ماريان لكنّي كنت أفضّل الوحدة ورفقة غسان، ونايف والآخرين، كنّا نتقابل قليلاً، تنام هي في الليل، وأنا عند الصباح بعد أن يكون الأرق قد هدّني - ربّما كانت تلك تبعات سنوات من الأنفيتامين وسنتين من التعبّد للجسد وسنتين من الخوف من الموت في الوحل، والفم المتخشّب الهائل إثر سنتين من الرصاص والقذائف والكحول والمخدّرات، كنت أعتقد أنّها لمعجزة أن تكون مريان قد انتظرتني وأن تأتي لموافاتي إلى البندقيّة التي لم تكن خيارًا منطقيًّا بل وسيلة للاختفاء، جزيرة خارج الزمان والمكان، قبرًا لي ولأندريا الذي كان يتحلّل في ذاكرتي كما يتحلّل في التراب، في نهاية الأسبوع كنت أثمل مع غسّان - غالبًا ما يروي لي قصصًا عن الحرب الأهليّة في لبنان، حربه هو، كان إلى جانب القوّات اللبنانية ولا شكّ، إلى جانب العلم اللبناني والصليب، الذي كان يشبه صليبنا كثيرًا نحن الكرواتيّين، عندما سقطت بيروت عام 1982 كان في السادسة عشر من عمره وعندما غادرت انتصار وغادر المقاتلون الفلسطينيّون لبنان، ظنّ غسان حينئذٍ أن الحرب انتهت، لكن بعد بضعة أشهر ما لبث أن التحق بصفوف المقاتلين وقد حثّه على ذلك من يكبرونه في السن راوين له عن سنوات السبيعينيّات المجيدة عندما كان المعسكر الآخر يساريًّا وملتحيًا ويظهر علامة مرسيدس بالمقلوب على سبيل الشعار، فيما بعد غدا العدو درزيًّا ثم سوريًّا، ثم مسيحيًّا خلال المواجهة الكبيرة الأخيرة التي أحرقت الجبل وأسالت الدماء لأجل لا شيء، تصاعدت ألسنة النيران من المدينة كما روى لي وازداد القصف حدّة أكثر من أيّ وقت مضى،

واشتبكت القوّات اللبنانيّة بقيادة جعجع مع الجنرال عون لأسباب شخصيّة اختلطت فيها الكبرياء بشهوة السلطة والمال، هذا المزيج الذي يمثّل لبنان أفضل تمثيل، كان بإمكان غسّان أن يحارب مروان وأحمد وانتصار، وربّما رفائيل كحلة، كاتب القصّة من يدري، في كلّ مرّة كنت أزور فيها بيروت يعاودني التفكير في قصص غسّان، ثم إنّ الزملاء الجدد الذين فرضتهم عليّ مهنتي الجديدة رووا لي قصصًا أخرى عن الحرب والتجسّس، **لبنان كشك على شاطئ البحر**، كما يقول كمال جنبلاط وكلّ شيء فيه للبيع، كلّ شيء للبيع وخاصة المعلومات المخابراتيّة وحياة الشخصيّات غير المرغوب فيهم، كمال والد وليد جنبلاط أمير الدروز الأكثر غرابة ومكرًا وتوحّشًا بين زعماء الحرب اللبنانيّين المنكفىء في دارته في المختارة اتّقاء للقنابل السوريّة والسيّارات المفخّخة، وليد جزّار المسيحيّين في الشوف رجل مفعم ذكاء ومثقّف وصاحب ثروة طائلة، كان مقاتلوه الأكثر عتوًّا وجرأة وجنونًا ودمويّة، أثاروا غضب زعيمهم لأنّهم كانوا عاجزين عن تحقيق طموحاته، لكن لم يكن لهم مثيل في القضاء على مئتي قتيل في إحدى ساحات القرى بلمحة بصر، وفي هذا البلد الصغير حيث كلّ شيء يُعرف وحيث كلّ شيء يجري وكأنّه داخل جدران البيت الواحد يروى عن الزعيم وليد قصصًا لا تُصدّق، تُضحك وتُلقي الذعر في الوقت نفسه على شاكلة لبنان كلّه، لبنان وطن الضحكة المدويّة وموطن الرعب والذعر في آن. الغيلان تريد كلّ شيء، تأخذ كلّ شيء، تلتهم كلّ شيء، السلطة، والمال، والأسلحة، والنساء، بحسب الأولويّة، وقصص الوحوش هذه ذكّرتني بغيلان بلدي بالذات، هؤلاء الصرب والكرواتيّين الذين عرفوا كيف يصبّون جام غضبهم ويروون عطشهم البشريّ الخرافيّ عن طريق العنف وإشباع

الغرائز، هذه القصص مصدر متعة وبهجة لناس الشارع العاديّين، البسطاء المسرورين لرؤية الجبابرة مهانين بدورهم، أمام من هم أكثر جبروتًا منهم، ويخسرون نساءهم كما خسروا هم منازلهم وأولادهم، أو فقدوا ساقًا من سيقانهم في إحدى جولات القصف، الأمر الذي يبدو بعد كلّ حساب أقلّ خطورة من فقدان الشرف والمهانة، هزيمة الجبّار مدويّة، جميلة وصاخبة، سقوط البطل وانهياره يحدث دويًّا، حينئذٍ، تصطدم مئة كيلو من العضلات بالأرض محدثة دويًّا هائلاً أصمّ، أمّا الجماهير فتقف هناك لمشاهدة هكتور مجحوفًا على الأرض، لرؤية رأسه مترنّحًا والدم ينبجس منه، ها إنّ الغول قد هزمه غول آخر أشدّ نهمًا: لم يكن غسّان يستطيع إلا أن يُعجب بهؤلاء الأبطال من أمثال جنبلاط وغازي كنعان أو جعجع، وبأعمالهم البطوليّة ومجانّاتهم التي كان يرويها وكأنّها نوادر مضحكة، وهو يلطم ساقيه بيديه مبتسمًا ابتسامة عريضة أمام كأس «سبريتز» أو «كامباري صودا» في إحدى ساحات البندقيّة التي كانت تبدو مع ذلك على نقيض كلّ عنف، في الجهة الأخرى ممّا يحدث في سائر أنحاء العالم، فلذة تاريخ عائمة على صفحة بحيرة شاطئيّة هادئة، أحد هذه المراكز السياسيّة والاقتصاديّة في المتوسّط، مدينة منقطعة عن الأحداث الراهنة يتآكلها السوّاح كما يتآكلها الدود والخزّ، على مهل، ولكن حتمًا، لقد احتلّ جيش المأمورين البسطاء المدينة، متجوّلا بين قصورها الميتة، مجتاحًا الكنائس الباذخة وجزيل السرور بادٍ عليه وهو يتأمّل عن كثب جثّة العملاق، صدفة الحلزون المتيبّس الفارغة، أنا وغسّان كنّا عديمي الإحساس تمامًا تجاه روائع البندقيّة، هو المهاجر العامل، وأنا المكتئب المكتئب الذي لم يكن معجبًا بصاحبة السموّ، فقط بصمت شوارعها المقفرة عندما يجتاحها الليل والضباب، ضالّ الوجهة، غير

قادر على القيام بخطوة واحدة على أرض اليابسة، إلى أن تركتني ماريان ذات صباح على جسر دلي غوغليي، فاستيقظت من غفوتي، كنّا عائدين ثملين أنا وغسان من ليلة تحدّثنا فيها حتى الفجر، كانت الساعة السادسة أو السابعة صباحًا، لم أكن قد رأيت ماريان في اليومين أو الثلاثة أيّام الأخيرة، هي المقيمة في ضياء النّهار وأنا في ظلمة الليل، ها هي تظهر على الجسر، في الفجر الرمادي، مرتدية لباس النوم تحت معطفها، شعرها مسترسل، شاحبة الوجه تطوّق الهالات عينيها، وعندما اقتربت منها مشغول البال رفستني رفسة على خصيتيّ جعلتني أترنّح إلى الجانبين وأنوء تحت وطأة الألم واختفت، اختفت على مرأى من غسان الذي بقي منذهلاً ولم يجرؤ على الضحك، لبضع دقائق تسمّر في مكانه فيما كنت أمسك بأسفل بطني مسندًا رأسي إلى الحاجز دون أن أفهم ما الذي حصل للتو ومن دون أن أوقن أنّ خصيتيّ المتوجّعتين كانتا تدقّان ساعة الاستيقاظ، وأنّ الرفسة غير المتوقّعة من ماريان قذفتني خارج البندقيّة، لن أراها مجدّدًا، استقلّت أوّل قطار، رحلت، وأنا أيضًا، وقد هزّني يأسها في العمق وجعلني الألم أعي مداه، عند طلوع النهار، صعق غسّان عندما رأى مريان تبتعد دون أن يصدّق ما تراه عيناه، ماذا كانت تفعل خارج المنزل في هذه الساعة وهي لا تزال في ملابس نومها، أعتقد أنّها كانت تبحث عنّي، كانت تبحث عنّي لكي تبلغني أنّها راحلة، وأنّ كلّ ما بيننا انتهى، لم أستطع أن أتفوّه بحرفٍ عندما وجهّت ضربة إلى عضوي بحذائها وتألّمت حتى زهقت أنفاسي، اغرورقت عيناي بالدموع، أخذت علمًا بالأمر: أخذت علمًا بالأمر، انتفضت، أفقت من سكرتي وأزلت عنّي برقع الانتظار والترقّب، حزمت حقائبي في ظلّ عطر مريان المتلاشي، جمّع أخيل المكابر غنائمه ولفافات ساقيه وأسلحته البرونزيّة في

سفنه المقعّرة، قلت وداعًا لغسّان وأنا عارف أنّني لن أراه، وبعد ثلاثة أيّام، أي أكثر من ستّة أشهر على وصولي، استقللت قطارًا كهذا تقريبًا في اتّجاه الشمال مرورًا بميلانو: ثمّة مواقع جغرافية تعي، بعد اجتيازك لها، أنّها كانت منعطفًا في حياتك، وربّما مفترق طرق، وتحويلات، ومعابر إلزاميّة دون أن تحدس تأثيرها في حينه -القطارات تقودك إليها دومًا بسيرها الأعمى - فهي تشغل حيّزًا هامًّا من الرحلة، وتحدّدها بقدر ما تحتويها، إنّها على شيء من الدّعة تلك المحطّات التي نعبرها دون أن نخرج إليها- هذا ما شكّلته بالنسبة لي محطة ميلانو، وهي مدينة أجهلها في الواقع لكن عند كلّ منعطف في حياتي عبرت فيها لكي أستقلّ قطارًا جديدًا، من باريس إلى زغرب، من البندقيّة إلى باريس، واليوم من باريس إلى روما متّجهًا لأسلّم -كما تسلّم أيّة بضاعة، فطائر البيتزا أو الأزهار- أسرارًا ترقى إلى خمسين عامًا، وأخرى أقرب عهدًا، إلى كهنة مترعّشين، لقاء المسكوكات، حدّدت السعر بثلاثمائة ألف دولار وثلاثين دنيرًا[1] ظنًّا منّي أنّ رجال الكنيسة لا ينقصهم حسّ الدّعابة، لم يتفوّهوا بكلمة ووافقوا دون أن ينبسوا ببنت شفة، ولم يجرؤوا على مساومة الخاطىء على سعر الخيانة، روما تبقى روما، أيًّا يكن سيّدها، أتقلّب في مقعدي وأغمض عينيّ، ميلانو، عند كلّ منعطف حياة، ولا أتوقّف فيها فعلاً، لم أرَ قط «القبّة» ولا «العشاء السرّي» لدافنتشي ولا ممرّ فيكتور- إيمانويل المسقوف ولا مكان المشنقة حيث عُلّق موسيليني من كاحليه كخنزير رخيص، وقد استعاد وجهه بهيئته الشبيهة بهيئة الخنازير التكريم الذي يستحقّه، هذا الوجه ذو

(1) فلس روماني قديم،تلميح إلى المبلغ الذي قبضه يهوذا لقاء وشايته بالمسيح.

الجبين الهائل الذي يزيّن اليوم معظم المبتكرات الحديثة في كافة أسواق إيطاليا، من تيشرتات ومراويل مطبخ وورق لعب وسكاكين منحوتة المقابض وتشكيلة من علب أعواد الثقاب، وقوارير كحول مفلطحة وكرات قدم، يبدو الاقتصاد الفاشي مزدهرًا، رأيت من فترة قصيرة، بعد أن التقيت بأحدهم في الفاتيكان على الضفّة الأخرى من النّهر، في ساحة الشعب، احتفالا موسوليني الطابع وفق الأصول الموجبة، لا أعرف إن كان قد أقيم لأجل انتخابات تشريعيّة أم لا، كان الفاشيّون الجدد هناك بقمصانهم السمراء، والسوداء، منشدين أغانيهم وملوّحين بأعلامهم، كانوا هناك بأذرعتهم المرفوعة ونسورهم الباسطة جناحيها والكتابات اللاتينيّة والصرخات المحتدمة في الميكروفونات الصادحة ومكبّرات الصوت، كانوا هناك بعنفهم وسيّاراتهم الملتفّة بأقصى سرعتها حول الساحة، وتلقائيًا فكّرت بكرواتيا وخصوصًا بالأيّام الأخيرة من «جمهورية إيطاليا الإشتراكيّة» في سالو[1] التي تآكلها شيئًا فشيئًا المقاومون الشيوعيّون الذين تمّت إبادتهم مع ذلك بالجملة من بولتسانو[2] إلى ماوتهاوسن[3] والذين كانوا يُرسلون في القطار إلى ما بعد برينير ليلقوا حتفهم في الأرض الجرمانيّة، هذا حين لا تأخذ الشرطة النازيّة الخاصّة على عاتقها القضاء عليهم بضربات الهروات في زنزانات لاريزييرا في تريستا- القطارات تنقل الجنود والمعتقلين والجلّادين والضحايا

---

(1) جمهوريّة سالو أو جمهوريّة إيطاليا الإشتراكيّة 1943 - 1945 نظام سياسي أنشأه موسوليني بعد تحريره على يد الإلمان وكان مركزه مدينة سالو على الضفّة الغربيّة لبحيرة غارد.

(2) مدينة في شمالي إيطاليا.

(3) منطقة في النمسا، أنشىء فيها معسكر اعتقال إبّان الحرب العالميّة الثانية.

والأسلحة والذخائر والآن رغم الظلام السائد أستطيع أن أستشفّ المناظر خلف عينيّ المغمضتين على هوى تحرّكات الحافلة، يمكنني رؤية صحراء المعامل وأضواءها مثل حباحب منذرة بنهاية العالم في غبار المنطقة الصناعيّة الهائلة التي تحجب، عند الغرب، حصون بيامونته، تهدهدني الذكريات وأيضًا تأرجحات القطار فوق سكك الحديد، تركت البندقيّة عندما تركتني مريان وغفوت، غفوت في قطار «أنترسيتي» الذاهب من ميلانو باتّجاه باريس، كلّ شيء يمتزج ويختلط وأعود شابًّا في نومي الذي تعكّره ذكرى مريان، أرى من جديد ملابسها الداخليّة البيضاء على الدوام والمزدانة أحيانًا بالدانتيل وثدييها المكتنزين ووركيها أيضًا، أستعيد بساطة ابتسامتها، سخاءها الذي يشوبه بعض السذاجة أو السذاجة التي ننسبها اليوم للسخاء، الهاوية التي تفصل بيننا وقد حفرها رفش رحيلي لأحارب في كرواتيا، تعودني الليلة الأولى في الإسكندريّة دائمًا مرفقة ببريق منارتها، في هذه الغرفة قبالة المتوسّط، كانت السماء تمطر، وكان فانوس أصفر يضيء سهام المطر مشكّلا الضوء الوحيد، تعرّت في الظلام، كانت تمضي عطلتها برفقة والديها في نادي القاهرة على شاطىء المتوسّط واختارت لنفسها رحلة إلى الإسكندريّة وحيدة، على غير هدى، التقيتها صدفة في القطار الذاهب من القاهرة إلى الإسكندريّة، في حافلة مترفة من الدرجة الأولى بطيئة بشكل غير معقول، وكأنّها تجسيد حقيقيّ للكسل الشرقيّ وعلى مرّ دلتا النيل، الداكنة الاخضرار، كنت أرنو إلى أبيض قميصها القطنيّ الشفاف، تحدوني منذ ذلك الحين شهوة جسدها أكثر مما يحثّني اهتمام فعلي بروحها، منجذبًا إلى استدارات فينوس الغابرة، باحثًا، في الأشكال اللدنة عن ملجأ ألوذ إليه، مثل طفل يمصّ اصبعه، عن زجاجة حليب في ثدييها الأموميّين اللذين عجزت

عن إشاحة بصري عنهما، اكتشفنا أنّنا نسكن في الحيّ نفسه من باريس، نذهب إلى الفرن نفسه ومع ذلك لم نلتق قط، وهكذا فإنّ هذه المصادفة اتّخذت، في قطار مصريّ، يسير مترجرجًا على بعد أربعة آلاف كيلومتر من شارع «لاكونفونسيون»، طابع الإشارة الإلهيّة وأطلقت عنان هذا الشعور بالتواطؤ الحميم، والصداقة التلقائيّة بين هؤلاء الذين تحدوهم الغربة للتلاقي ويعزّز التجاور من انجذابهم المتبادل في كنف المجهول والرغبة في اكتشاف الآخر: كانت في عطلة، وأنا أيضًا، وكنت أبحث عبر هروبي المراهق عن معنى لحياتي اعتقدتني وجدته في سطوة ثديي ماريان، في ملابسها الداخليّة البيضاء، في هذا الوهم هدية أفروديت المرائية، التي تحجب عن الشهوة نفسها طبيعتها الجسديّة، وعاديّتها، ملابس ماريان شفافية مواربة أشبه بلعبة استغماء، ونائمًا حالمًا وسط ما أتخيّله بياتشنتسا أراها مرّة أخرى تتعرّى في جوف العتمة الرطيبة، أغادرها تغادرني موجهّة إليّ رفسة قاضية في الخصيتين في هذين العضوين اللذين كانا ذريعة لقائنا، انتهت القصّة، خصيتاي مصدر شغفي نالتا في النهاية ما تستحقّانه، انسحقتا تحت حذاء ماريان صعدتا وغارتا في عمق بلعومي، عاقبت ماريان العضو المسؤول عن الغلطة الأوليّة واستقلّ كلّ منا قطارًا مختلفًا، قطارًا أسرع بكثير من ذلك الذي يقفز في الريف المصريّ بين تلك البقرات النحيلة والوبرة التي ندعوها «جاموسة» وسط أبراج الحمام والفلاحين الذين لم تتغيّر محاريثهم البسيطة ومجارفهم منذ عهد رعمسيس، ركبت قطارًا آخر، في البندقيّة أخذت أقرأ، أقرأ بشغف وأنفصل عن العالم لأغرق في الصفحات، فيما خلال سنتي الحرب لم أمسك كتابًا بين يدي، ولا حتى الكتاب المقدّس، في الخدر البندقيّ هذا رحت ألتهم روايات المغامرات، والروايات البحريّة،

وقصص القراصنة ولصوص البحار والمعارك البحريّة كل ما كان السوّاح الفرنكوفونيّون يتركونه في فنادق البحيرة الشاطئيّة فيصبّ عند بائع الكتب الصغير خلف كامبو سانتا مارغاريتا، وروايات بوليسيّة وتجسّس، وروايات تاريخيّة، وفيما عدا تجوّلاتي الليليّة وحواراتي مع غسّان كنت أمضي معظم وقتي ممدّدًا على الكنبة أقرأ، كانت مريان مهووسة بالحرب، أكثر منّي ربّما وتريد أن تعرف كلّ شيء عنها وتسألني دون توقّف، مسترسلة في قراءة دراسات عن يوغوسلافيا سابقًا، لا بل إنّها شرعت في تعلّم الكرواتيّة، وهذا جعلني أخرج عن طوري ولا أعرف السبب، كانت نبرتها ولفظها يغيظانني، شعرتني محتاجًا إلى الصمت، محتاجًا، محتاجًا إلى جسدها وإلى الصمت، وكان غسّان الشخص الوحيد الذي أستطيع التحدّث معه عن الحرب: بطريقة غير مباشرة وتدريجيًّا، من خلال التعقيب على ميّزات هذه البندقيّة، أو قاذفة الصواريخ تلك، أفضى بنا الأمر، مثل عشّاق يبنون شيئًا فشيئًا أواصر الألفة الحميمة بينهم، إلى تبادل النوادر، وقصص الحرب ومقارنة أوجه الشبه بين حياتينا كجنديّين على رغم نقاط الاختلاف- غسّان في الصورة محارب شرس، يرتدي نظّارات شمسيّة ولباس ميدان جديد، حاملاً في يده بندقيّة أم 16 معتليًا قمة إحدى الصخور، أو برفقة أصدقائه على أحد شواطىء جونيه، كانت المواجهات عنيفة وسريعة، كانت الحرب تدور منذ عشر سنوات وقد رُوّضت محرّكاتها جيّدًا، على حدّ قوله، المعركة الوحيدة الحقيقيّة التي شارك فيها كانت ضد الجيش اللبناني في شباط 1990 في المتن ونهر الكلب، مجزرة أخيرة دامية، من تلّة لأخرى، كانت المدفعيّة تبيد المدنيّين الهاربين وكان المتقاتلون ينقضّون أحدهم على الآخر ويلتحمون وجهًا لوجه مستخدمين السلاح الأبيض وأعقاب البنادق، أخبرني

كيف أنه قتل قريبه بالذات، وهو عريف في الجيش، بقنبلة رماها على السيّارة العسكريّة التي تنقل الذخائر، تطاير الركّاب الثلاثة في الجيب وسط حزمة من الأشلاء الممزّقة، والشظايا المعدنيّة وألسنة النار، هناك لا أحد يعرف أنّني أنا من رمى تلك القنبلة، يقول غسّان، كيف تريدني أن أتحدّث إلى خالتي بشكل طبيعيّ بعد الذي حصل، يتذكّر أنّه انحدر التلال وهو يزعق بكل قواه لكيما يشدّد عزيمته، وأنّه بال على أستون رشّاشه لتبريده، ولم ينجح في ذلك، وأنّه عطّل دبّابة بواسطة قاذفة صواريخ law على بعد مئتي متر ورأى سائق الدبّابة ينجح في الخروج من هيكلها ثم يحترق مثل نعلٍ قديم تفحّم وانثنى إلى قسمين فوق فوهة المدفع، وأنّه بكى ساعات دون توقّف (كان يروي ذلك وهو يضحك) إثر وفاة حصان، أصابه عرضًا رشق رصاص، وخاصة، خاصة يروي كيف جُرح، كيف خال نفسه ميتًا وقد اخترقت جسده فجأة عشرات الشظايا عقب انفجار قذيفة، رأى سترة بدلته تنتفخ وتمتلىء بقطع الحديد، غمره الدّم فجأة وقد اخترقت الشظايا من كعبيه حتى كتفيه ونهشت جسده نهشًا، وغمرت مادة كريهة لزجة كلّ جانبه الأيمن وتداعى غسان فريسة اختلاجات الألم والذعر، كان مقتنعًا أنّ نهايته دنت، القذيفة سقطت على مسافة أمتار قليلة منه وانتزع الأطباء من جسده ثماني عشرة سنًّا غريبة وسبع عشرة نثرة عظام محفورة في لحمه، وهي من بقايا الشخص المسكين أمامه الذي تبخّر جرّاء الانفجار وتحوّل إلى قنبلة بشريّة، وتناثرت جمجمته متحوّلة إلى قنزعة من الشظايا المحترقة الممزوجة بالدم والشظيّة المعدنيّة الوحيدة فيها كانت ضرسًا أماميًّا من ذهب، نجا غسّان من الانفجار وحين يتذكّر الحادثة لا تزال تسري في ظهره رعشات الخوف ومشاعر الغثيان والقرف، **كان يقول إنّه لا لشيء إلا لمجرّد التفكير**

يقشعرّ بدني لذلك، لم أكن أعرف ما إذا كان يجدر بي أن أضحك أو أن أبكي لهذه القصّة، غسان المتحوّل إلى قبرٍ حيّ مستقبلاً ذخائر الشهيد التي رصّعت جلده، محققًا بذلك انصهار المتقاتلين بفضل سحر المتفجّرات، لم تكن قصة غسان حالة فريدة، مهما بدت غير مسبوقة، في سوريا، يروي لاري وهو جرّاح تابع لـ«الجيش الكبير» أنّه انتزع من بطن أحد الجنود قطعة عظام مغروزة كسكين، حادّة كحربة، ارتعبنا، حسبما يروي، وظننا للوهلة الأولى، أنّ مدافع الساحة كانت ملقّمة بالعظام، ومن ثمَّ علمنا من فم الجريح نفسه أنّ هذه الشظيّة آتية من جثة جمل متيبّسة أصابتها كلّة مدفع فتطايرت - مرسيل ماريشال عازف الفيولونسيل يروي أيضًا في مذكّراته عن الحرب العالميّة الأولى، أنّ ساعة جيب من بزنسون وميداليّة عماد وإصبعين (الإبهام والطولى وكانتا لا تزالان ملتصقتين إحداهما بالأخرى) انغرزت في ركبتيه عند انفجار طوربيد موضوع تحت الردم، لم يعرف ما الذي أحزنه أكثر، الاصبعان أم الساعة والميدالية اللتان كانتا، وسط هذه المجزرة أكثر انسانية بكثير من السلاميّتين الداميتين - انغرزت في جلد غسان وفي عنقه خصوصًا شظايا من العظم تدقّ على النظر، وتكاد لا تُرى بواسطة الأشعة X، وبعد مرور بضع سنوات ومن دون أن يُعرف السبب، أخذت تظهر من وقت لآخر تحت شكل دمامل وتكلكلات استلزمت استئصالها، لكنّ الأمر الذي أزعجه أكثر من استئصالها هو وجوب أن يروي قصّته للطبيب ويشرح له لماذا كان جسده يتقيّأ عظامًا صغيرة كما يتقيّأ آخرون شظايا زجاج واقية الريح: يا لأجساد المحاربين التعيسة، كنت محظوظًا في هذا الميدان، نجوت بجلدي ما خلا بضع خدوش وحروق سطحيّة والتواء مفاصل، لم يكن جسدي بذاته يذكّرني بالحرب طيلة الوقت، لديّ

جرحان صغيران لكنّهما في الظهر وفي مؤخّرة الكتف، ولا أراهما أبدًا، تلزمني مرآتان لكي أتفحّصهما كما ينبغي، ساشكا تداعبهما بإصبعها، أعرف عندما أكون ممدّدًا على بطني، لم تسألني قطّ عن مصدرهما، بخلاف ماريان وستيفاني اللتين كانتا تسألانني غالبًا عنهما، ذكّرتني جروح غسان بالروايات البحريّة التي قرأتها، فوق ظهر السفن، كان الجرحى يتلقّون الشظايا ووابلاً من الإبر السامّة التي تثخن طاقم السفينة بالجراح، كتلك الإبرة التي إخترقت ميغيل دوسرفنتس سافدرا، حامل القربينة[1]، في يده اليسرى وفي صدره، في 7 تشرين الأول 1571، على متن السفينة *Marquise*، وقد وضعت على سبيل الاحتياط في مؤخرّة الأسطول المسيحي وأنزلت إلى المعركة حوالي الظهيرة بغية التصدي لهجوم أولوج باشا الشجاع، الذي سعى إلى تشتيت السفن المحتشدة في وسط الأسطول المهاجم وكان يتولّى قيادته دون خوان النمساوي[2]، قائد العصبة المقدّسة، استيقظ ذاك النهار عند الفجر حوالي الساعة السادسة رائق المزاج، كان صباحًا خريفيًّا جميلاً، وهذا بالرغم من تقدّم فصل الخريف، انبعثت رائحة النتانة المقزّزة من أرجاء السفينة الشراعيّة حيث كان يعيش ثلاثمئة شخص تكدّس أحدهم فوق الآخر، ارتدى دون خوان النمساوي درعه الواقية ولأمته عندما لمحت في الساعة السابعة صباحًا أولى المراكب التركيّة التي ستلتحم بأسطوله في غضون ساعتين على أبعد تقدير، الأمر

(1) القربينة: بندقية قديمة جدًّا.

(2) دون خوان النمساوي: 1547-1587 ابن كارل الخامس أمير الأسطول المسيحي في معركة ليبانت 1571 التي انتصر فيها على الأتراك وفتح تونس وحكم هولندا.

الذي أتاح لابن الزنا[1] البالغ الخامسة والعشرين ربيعًا أن ينظّم صفوف قوّاته، سيكون النهار طويلاً، منفذ خليج بتراس يلتمع في الشمس الطالعة، وبات فخًّا مميتًا احتبست فيه السفن الشراعيّة التركيّة التي يبلغ عددها مئتي وثماني سفينة بالإضافة إلى العشرين مركبًا من المراكب الخفيفة المرافقة لها، كانت تحمل على متنها خمسين ألف بحّار وسبعة وعشرين ألف جندي من الانكشاريّة وفرسان السباهي المتطوّعين، وفي خلال اثنتي عشرة ساعة سقط ثلاثون ألف قتيل أي ما يعادل أكثر من ألف وثمانمئة طنّ من اللحم والعظام التي تحوّلت إلى طعام للأسماك في المياه الساخنة الزرقاء، كنت أروي لغسّان معركة ليبانت أثناء زيارتنا ترسانة البندقيّة المدينة المحاربة في ما مضى المستكينة الآن، وكيف أنّها ستفاوض ببرودة سلامًا منفصلاً مع العثمانيّين بعد سنوات واضعة على هذا النحو حدًّا لهذا التحالف المقدّس الشهير الذي ترأّسه دون خوان النمسّاوي أوّل الأبناء غير الشرعيّين لكارل الخامس[2]، من الصعوبة بمكان تخيّل النتانة التي تعيشها خمسمائة سفينة شراعيّة حربيّة مع جذّافيها، هذا عدا الأمراض والطفيليّات والحشرات التي تنقلها، دوّت المدافع الأولى نحو التاسعة صباحًا، بسرعة متوسّطة تبلغ خمس عقد[3] بحريّة، دعونا لا نسرع، لنحاول الاحتفاظ بالنظام الذي اتّبعته السفن، في الجهة الخلفيّة من سفينة الماركيز، سرفنتس مصاب بالحمى، ويطالب بالمشاركة في المعركة من على ظهر السفينة - من الأفضل الموت وقوفًا في الهواء الطلق بدلاً من الموت غرقًا أو

(1) هو دون خوان النمساوي لأنه كان ابنًا غير شرعي لكارل الخامس.
(2) كارل الخامس أو شارلكان 1500-1558 ملك إسبانيا حارب الأتراك.
(3) العقدة البحريّة: سرعة ميل بحري واحد في الساعة.

محترقًا حيًّا في جوف سفينة نتنة، أمسك سرفانتس قربينته، سفن الأعداء على مسافة بضعة أميال أمامه، خلف سفن المعسكر المسيحي حيث تتبّوأ البارجة الأميراليّة لدون خوان النساوي الذي أطلق قنبلة من مدفعه ورفع رايته ليبرز نفسه، وكذلك فعلت السفينة **سلطانة** حاملة العلم التركي وعلى متنها علي باشا، العادات تراعي قواعد الفروسيّة أمّا الناس فقلّما يأبهون لهذا الأمر، بعد قليل، سيقتتلون فيما بينهم متجاهلين كلّ أدبيات الحرب، الغليونيّات[1] البندقيّة وهي مدرعّات حقيقيّة آنذاك، الأكثر ارتفاعًا والأفضل تسلّحًا، حطّمت الخطوط المتوسّطة التركيّة متسبّبة بأضرار بالغة، إنّها الساعة الحادية عشر والربع صباحًا، الميسرة المسيحيّة عرضة للنار وتبدو على وشك الانقلاب، أصيب بارباريغو قائدها بسهم في عينه، ابن اخيه الضابط كونتاريني تُوفي منذ قليل غارقًا مع *la Sainte Madeleine*- إلى اليمين قبالة أندريا دوريا[2] قائد المرتزقة الماكر، اتّجه أولوج باشا إلى الجنوب، فتبعه دوريا مبقيًا مسافة فاصلة بمثابة خطّ دفاع فتقدّمت السفن الشراعيّة في المؤخّرة لكي تملأه، لمح سرفنتس من منظار بندقيّته دون ألفارو دو بازان يوجّه الأوامر يشقّ الجذّافون المنبسط البحرّي، تزداد السرعة بحدود عشر عقد، ما انقضت بضع دقائق حتى حصلت المواجهة مع السفن التركيّة التي انفصلت عن أسطول أولوج باشا، بدأت الأسهم تتطاير، والشظايا أيضًا، في اللحظة نفسها التي أطلق فيها سرفانتس النار من بندقيّته على الجنود الأتراك المتساقطين في البحر أفرغ كأسي

---

(1) غليونيّة: سفينة شراعيّة حربيّة قديمة تشبه الغليون.

(2) أندريا دوريا رجل عسكري إيطالي (1466-1560) قائد أساطيل فرنسوا الأوّل وشارلكان ثم أسّس في جنوى جمهوريّة أرستقراطيّة.

النبيذ، كما فعل الكابتن هادوك في خضمّ مغامرات الفارس فرنسوا سلفه، توسّل إليّ غسّان لكي أكمل قصتي، أراد أن يعرف كيف جُرح سرفانتس، وكيف انتهت المعركة، كان غسان مسيحيًّا، لكنّ هذا لم يمنعه من أن يكون إلى جانب العثمانيّين، وهذا أمر مفهوم بعد كلّ حساب، لكن الوسط التركي سينهار لاحقًا، وسيزيّن رأس علي باشا سفينة دون خوان النمساوي ثمّ سيلحق به رأس مراد دراغوت، أصبح جناح الأتراك الأيمن في خبر كان، استولى أسطول البندقيّة على السفن واحدة واحدة، كان يقترب من السفن التركيّة فيلتحم المقاتلون في قتال شرس، وتُدفع السفن إلى الشاطىء وتُقصف من الضفّة، واجه القواسّون الأتراك بنادق الفتيلة[1] ومدافع صاحبة السموّ، ودون خوان النمساوي، ينظر بمتعة، من علياء سنواته الخمس والعشرين ونسبه النبيل، إلى النيران والمعركة الدائرة كيف دمّرت غليونيّاته **سلطانة** وموكب عماراتها العمارة تلو العمارة، العبيد المسيحيّون وقد أُعتقوا فجأة التقطوا فؤوس المقاتلين المتلاحمين وقتلوا أسيادهم القدامى بغضب مسعور، أولوج باشا الكافر استولى على بارجة راية فرسان مالطة، فسارع أسطول دون ألفارو دو بازان لتخليصها، على سفينة ***Marquise*** يلقّم المدفعي سرفنتس جهازه بمعونة خمسة جنود ويوجهّها على قادس سعيد علي ريّس قرصان الجزائر، دون أن يعلم أنّه بعد سنوات قليلة سيجعلهما القدر يلتقيان من جديد، وستنقلب الأدوار وسيسجن سرفانتس ويصبح تحت رحمة القرصان النبيل، منذ ذلك الوقت بدأت تدوّي في خضمّ المعركة صرخات النصر، سعت السفن التركية الناجية للهرب، وفتحت إحداها النار على

---

(1) بندقيّة الفتيلة بندقيّة من نوع قديم كانت تطلق بفتيلة ملتهبة.

سفينة ماركيز لكي تعتق سعيد علي، كنّست رشقة القذائف المشظّاة أعلى الجسر حيث بطاريات المدافع، واخترقت شظية من خشب رسغ سرفانتس فقطعت عصبًا فيها وحرمته إلى الأبد من استعمال يده اليسرى، لأجل الشرف العظيم ليده اليمنى- فما الذي كان حصل لو أنّ المدفعيّ المسلم لم تسطع الشمس في عينه، ولو أنّ سرفانتس قضى نحبه، مجهولاً على متن سفينة منسيّة محتجبًا خلف مجد دون خوان النمساوي، كان سيستبدل دون شك، وإذا كان سيؤتى بأحد لتشغيل المدفع، فسيكون هناك دومًا أحد ليمسك بالريشة وفارس ذو وجه حزين، أخوه رودريغ، من يدري، أخوه الذي محته حظوة كاتب دون كيشوت اللاحقة من التاريخ، أظنّ أنّه كان سيروي قصة أخيه الذي يكبره سنًّا بأبّهة وفخر، واليوم، على المراكب الذاهبة إلى باتراس انطلاقًا من إيطاليا أو من باري أو من برانديزي، كانت مكبّرات الصوت ستعلم المسافرين بوجود نصب الأخ البكر، لذلك الذي تخيّل البحّار العجوز المولع بأخبار القراصنة **على متن سفينة أفضّل أن أنسى اسمها**، وهكذا دواليك، الجنود في معظمهم مجهولون، أين هي أسماء الثلاثين ألفًا الذين غرقوا، واحترقوا وقطعت رؤوسهم في ليبانت، أين اسم ذاك الذي أوشكت أسنانه وجمجمته أن تقتل غسّان، من يعرف اسم الجندي التركي الذي كاد من غير علم منه أن يغيّر مجرى الأدب الغربي، ربّما توفي في إزمير أو في القسطنطينيّة وهو لا يزال يرتجف غضبًا لذكرى كارثة معركة ليبانت والحساء يقطر من شاربيه، في الساعة السابعة من 7 أكتوبر 1571، كانت الغنائم التركيّة والأسطول المسيحي في مأمن داخل خليج بورتابيتالا، أمر دون خوان النمساوي بعزف لحن صلاة Te Deum المهيبة في الليل المزدان بالنجوم، لقد دُحر المسلمون، وهُزم الأتراك، وحلفاء العصبة المقدّسة

ينشدون مجد الله ومجد القائد ابن الزنا الامبراطوريّ الذي انتصر في الخامسة والعشرين من عمره في أهمّ معركة بحريّة منذ وقعة أكسيوم[1] سنة 31 ق.م على بعد بضعة أميال شمالي ليبانت، في هذه المياه نفسها التي يحكمها بوسيدون، لُعب مصير العالم مرّةً من قبل، واجه أنطونيوس الإلهي وكيلوبترا المصريّة أوكتافيانس الريفيّ، وهكذا أقحم القائدان اللذان شاركا في حكم المثلّث الثاني بدورهما أساطليهما وآلهتهما في المعركة، إيزيس وأنوبيس في مواجهة فينوس ونبتون، معركة أخرى بين الشرق والغرب، بين الشمال والجنوب، من دون أن يعرف أحد بوضوح أين كان البرابرة الذين يدّعي كل من الجيشين أنّه يحاربهم: كانت كلّ هذه القصص تبهر غسان وكان يتبنّى طوعًا ما يروّج له المسيحيّون قائلين إنّ اللبنانيّين من أصل فينيقي، وإنّهم أحفاد عبّاد عشتروت وبعل، وبما أنّ أصله من جبيل، كان يتخيّل أسلافه على صورته، مثقّفتين وكوسموبوليتيّين وتجّارًا وبناة مدن كبارًا، بنوا قرطاجة ولبتيس ماغنا ولارنكا ومالقة، وكانوا تجّارًا عظامًا ومحاربين مرهوبي الجانب، عبرت أفيالهم جبال الألب: هنيبعل ابن هملقار مروّض المحاربين انتصر على الرومان للمرّة الأولى في تيسين وجرح سقيبون الإفريقي الفارس عدوّه - عبر النافذة فيما ينبسط سهل البو متطاولاً في عرض بياتشنتسا، على مسافة مئة كيلومتر من ميلانو، أتساءل عمّا إذا كنت سأرى أحد فيلة هنيبعل، التي قضت بردًا، وأُثخنت بالجراح بعدما سحقت جحافل الرومان على مسافة بضعة كيلومترات من هنا، في تريبيا، خلال معركة تريبيا قُتل عشرون

(1) أكسيوم مدينة قديمة في اليونان اشتهرت بمعركة بحريّة انتصر فيها أُوكتافيانس وأغريبا على أنطونيونوس عام 31 ق. م.

ألف مجنّد ومعاون، عشرون ألف جثة نهبها سكان البلد الأصليّون- تحت ترسبّات النهر، تحت الموتى الذين قضوا في إحدى معارك بونابرت في إيطاليا، تحت أطنان الغبار التي كدّسها الزمن ترقد هياكل الجسيئات التي هزمت الرومان ولكن عاد الثلج فهزمها، الثلج كثيف هذه السنة أيضًا، أرغب في أن أسأل جاري عمّا إذا كان يعرف أنّ هنالك بعض العظام المدفونة بالقرب منّا، لا ينظر أبدًا عبر النافذة، يكتفي بالإسترخاء منصرفًا إلى قراءةِ صحيفة محليّة، ذات يوم في كانون الأوّل، شبيه بهذا، في عام 218 ق.م.، في يوم انقلاب الشمس الشتائي، يقول العلّامة تيتوس ليفيوس[1] تواجه ثمانون ألف رجل وعشرون ألف حصان وثلاثون فيلاً يدرج تيتوس ليفيوس الدقيق في إحصاءاته الجحافل، ووحدات المئة وكتائب الخيّالة، ويسمّي القادة في كل مكان، هؤلاء الذين ظفروا بالمجد وهؤلاء الذين استحقّوا الخزي والعار، وصف هنيبعل المعاند الذي لم يستطع، بعد خمس عشرة سنة من الحرب على الأرض الرومانيّة، أن يرغم مجلس الشيوخ وشعب روما على الاستسلام، بالرغم من حصول سلسلة مجازر فريدة في التاريخ القديم، في العاصمة تونس التي تقع بالقرب من مدينة قرطاجة كنت جالسًا عند بوّابة فرنسا وطلبت أن يُؤتى لي بفنجان قهوة إكسبرس يقال له هنا *direct* وأنا أقرأ الجريدة، في العام 1996 توقّفت لبضعة أيّام في تونس لألتقي فيها بجزائريّين في المنفى، وذلك في إطار المهام الجديدة المسندة إليّ، كما يقال، فقصدت مدينة قرطاجة المزدحمة بالدارات الفخمة ومراكز الاستحمام، في ميغارا، حدائق

---

(1) تيتوس ليفيوس (59 ق.م-. 17 ب.م.) مؤرّخ لاتيني له تاريخ روما غير المنجز ولكنه يعدّ تحفة في هذا المجال.

هملقار لا تزال مزروعة بالجمّيز، والكرمة، والأوكاليبتوس وخصوصًا الياسمين، برفقة مخبري، وهو ملتح تائب وودود، تنزّهنا على الشاطىء، فكّرت بالبوارج القرطاجيّة الآتية من صقلية، من إسبانيا أو من المشرق التي كانت ترسو هنا، قبل، أن يتّخذ القرار بإعلان الحرب في مجلس الشيوخ الذي أجّجت غضبه ذكرى القتلى في معركة كانا، وتصدر الأوامر بجعل قرطاجة رمادًا، *ceterum censeo carthaginem esse delendam* ولا شيء أكثر، كان كاتون القديم[1]، هادم قرطاجة، ملتحيًا بالتأكيد كصديقي الجزائري الأصولي المرتدّ الذي كان يضاعف ثروته من خلال عمله في التجسّس، باسم أعمال البرّ، على رفاقه القدامى التائهين على طريق الله، على درب الضلال، ثمّة قرطاجة يجب تدميرها دومًا، على الجهة الأخرى من البحر بدءًا من إيليون[2] المحروسة، هناك دومًا هذا التجاذب المستمرّ كحركة المدّ والجزر وغزاة يسعون من حين لآخر إلى الاستيلاء على القسطنطينيّة، أو قرطاجة أو روما على شاطىء ميغارا، لا نزال نعثر على مكعبّات فسيفساء تقذفها الأمواج مقتلعة من قصور قرطاجة الهاجعة في أعماق البحار، مثل حطام سفن ليبانت، مثل البوارج الغارقة في الدردنيل، أو رماد الجثث الذي وضعته الشرطة النازيّة في أكياس الإسمنت ورمته على طول الرصيف رقم 7 في مرفأ تريستا، ألتقط هذه الحصى المربّعة المتعدّدة الألوان، أضعها في جيبي مثلما سأجمّع فيما بعد لائحة من الأسماء والوقائع

---

(1) كاتون: رجل دولة روماني، 195 ق.م. قنصل وخطيب مشهور دعا إلى القضاء على قرطاجة، ومن كبار المؤلفين. وهذه العبارة اللاتينيّة التي تفوّه بها تعني: أجزم بأنّ على قرطاجة أن تدمّر.

(2) إيليون: طروادة قديمًا.

التاريخيّة وأضعها في حقيبتي، ومن ثمَّ أعيد بناء الفسيفساء كاملة، أعيد تركيب اللوحة، محضر الكشف هذا عن الموت الوحشي الذي ابتدأ صدفة مع هرمان جيربنز عضو الشرطة النازيّة المقيم في القاهرة، المعتقل في سجن القناطر مع يهود مصر الذين اشتبه بتعاونهم مع إسرائيل، الأمر الذي أضحك ناثان كثيرًا في بار فندق كينغ دايفيد في أورشليم، قال لي أتساءل ما الذي خطر ببال المصريّين، ما هي المدّة التي تعتقد أنّهم اعتقلوه فيها؟ ثماني سنوات؟ إلى أن أدركوا أخيرًا هويّته الحقيقيّة، على ما أظنّ، فلم يعرفوا ماذا يفعلون به فأطلقوا سراحه قبل فترة قصيرة من حرب 67، عملاً بالحكمة القائلة أعداء أعدائي هم أصدقائي، ومنحوه الجنسيّة المصريّة باسمه الحقيقي دون أن يهتمّ أحد لمعرفة ما إذا كانوا سيجدونه يومًا، مدفونًا تحت أشجار المانغا المغبرة في الغاردن سيتي، السجين الكحولي لمصر الأبديّة، مثل ما كان أنطونيوس بعد أن خسر معركة أكسيوم لو أنّه لم يفضّل الموت على السجن وودّع الإسكندريّة التي لم تفارقه قط بضربة من سيفه، في عامي 1956 و1967، أُرغمت الجالية اليهوديّة في مصر على سلوك طريق المنفى، اليوم عددهم أقلّ من خمسين شخصًا في مصر- الكنيس الضخم في شارع النبي دانيال في الإسكندريّة بات صدفة فارغة ليس إلا، الناطور العجوز الذي يتقاضى الرشوة للسماح بزيارة المعبد يقلّد الصلوات والاحتفالات متظاهرًا بإخراج المدارج، والقراءة والإنشاد، جاعلاً بتصنّعه وزيفه غياب اليهود أمرًا حقيقيًا أكثر وملموسًا أكثر، لم يعد أحد يصلّي في معابد مصر اليهوديّة، فقط بعض الآتين من فرنسا أو من إسرائيل أو من الولايات المتّحدة، لينظّموا احتفالات الأعياد، مع ذلك فإنّ ايليا المصري، مدير مصرف مصر، أحد أغنى المصرفيّين في القاهرة وصاحب قصر بديع على طراز

Art déco[1] في الغاردن سيتي، استثمر عام 1931 مع أخيه وبعص الاصدقاء في القدس أرضًا كائنة على الطريق اليوليوسيّة القديمة، وبنى فندقًا هائلاً وفخمًا سيصبح لاحقًا فندق كينغ دافيد، غريب التفكير بأنّ شقّة هرمان جيربنز موجودة على مسافة بضعة أمتار من الدارة القديمة لباني الفندق حيث نتكلّم أنا وناثان عن عضو الشرطة النازيّة الهولندي الذي أسكنه المصريّون من جديد لدى خروجه من السجن شقّة هجرتها عائلة يهودية، كما حصل مع أهل ناثان الذن نزلوا في حيفا عام 1949 بعد معاناة وآلام لا تُعدّ، فاحتلّوا منزل عائلة فلسطينيّة رُحّلت إلى الأردن أو لبنان وكلّ هذا وفق دوران عجيب لعجلة الأقدار حيث الآلهة يعطون ويستردّون ما أعطوه- إيزابيل ملكة قشتالة أقرّت مرسوم الحمراء[2] عام 1492 وطردت يهود إسبانيا، هذا المرسوم عاد وألغاه مانويل فراغا ذو الوجه الشاحب وزير السياحة في عهد فرانكو دوتشي إسبانيا عام 1967 عندما قدّم لليهود المرّحلين عن مصر جوازات مرور متذرّعًا بأنّهم من السفرديّين[3] وبالتالي من أصل إسباني، مفسحًا في المجال من خلال هذه الاندفاعة القوميّة المجنونة في استعادة العلاقات الدبلوماسيّة مع إسرائيل: في خريف 1967، لم يكن اليهود المصريّون على علاقة وثيقة بالدول

---

(1) Art déco أسلوب فني ساد في العشرينيات والثلاثينيات يتميّز بسعي للأسلبة ونقاء الأشكال واستخدام الخطوط الصارمة والهندسيّة، أثبت وجوده في عام 1925 في باريس إبّان المعرض العالمي للفنون التزينيّة.

(2) أصدره الملوك الكاثوليكيّون لإسبانيا ويقضي بنفي اليهود وترحيلهم. كان يفترض على اليهود إمّا الارتداد إلى الكاثوليكيّة أو الرحيل عن البلاد وحظّر عليهم أن يحملوا الذهب معهم.

(3) السفرديون: يهود إسبانيا والبرتغال في القرون الوسطى.

العظمى كفرنسا أو بريطانيا أو إيطاليا، حطّت بهم مراكبهم في بلنسية، المرفأ المثقل بأشجار البرتقال، الذي أبحر منه أسلافهم، ربّما منذ خمسمئة سنة مخلّفين وراءهم المنازل، والذهب، والجواهر، وعلى وجه أخص أسطورة الثقافة الأندلسيّة التي سعت إلى توحيد الديانات السماويّة الثلاث، مشتّتين من المغرب إلى اسطنبول، على ضفاف هذا البحر التي أجوبها برفقة الأصولي الجزائري مجمّعًا مكعّبات الفسيفساء القرطاجيّة عام 1996، كان ليبيان رئيسي آنذاك يرسلني غالبًا أنا بالذات لكي أستقي المعلومات من مصاردها، كان يقول لي إنّني أوحي بالثقة وأستطيع الحصول على كلّ الأسرار دون أن أضطرّ لاستجواب أحد، بهذا المظهر الصريح الذي تملكه من الأفضل أن تذهب أنت، وهذا أيضًا لأنّه يشمئزّ من الطعام العربي، وخصوصًا أنّه يهوى لحم العجل بالصلصة البيضاء والمحار والمستكيّة[1] والكرفس الخردلي، وفوق ذلك لم يكن يتحمّل الفلفل، كانت تونس بالنسبة له كارثة لجهاز الهضم والدورة الدمويّة، إنّها حرقة بعل - إذا وُضعت الاعتبارات المتعلّقة بالمأكل جانبًا في النشاط المخابراتي المعتمد على المخبرين، يصبح الاتّصال بالمخبر أساسيًّا وكذلك الثقة خصوصًا عندما لا يبادر من تلقاء ذاته للتعاون، عندئذٍ يجب مقاربته والإحاطة به ومطاوعته وفق لعبة شبيهة بالأمير الصغير والثعلب، يعرف الثعلب أنّه يجب أن يُدَجّن، يستسلم ثم يتراجع دومًا إلى الوراء مرّة أو مرّتين مثل عذراء جفلة، يجب الإحاطة جيدًا بدوافعه الإيديولوجيّة والعائليّة، وإمكان رشوته واستغلال ميوله الداعرة أو الثأريّة، وادّخار الوسائل الناجعة في التصدّي لمواجهة أي هجوم طارىء، فشعار «خدمة الوطن»

---

(1) المستكية: عنب أو نبيذ أبيض من بلاد اللوار في فرنسا.

مثلا فعّال جدًّا مع بعض الفرنسيّين، خصوصًا في مجالي العلم والاقتصاد، حيث المخاطر أقل، أمّا شعار «النضال ضد الشيوعيّين» فلم يعد يجدي نفعًا، وبات مثارًا للشك، واستبدل بـ«التصدّي للإرهاب ومحاربة الأصوليّة الإسلاميّة»، والأمران متشابهان على أيّة حال، لكن، من خلال تجربتي أستطيع القول إنّ دوافع المخبرين هي في معظم الأحيان ماليّة، المال والجنس والسلطة هي الثالوث المقدّس لمأمور الارتباط، من الأفضل امتلاك دفتر شيكات بدل السلاح، حتى لوكان المخبرون، ولأسباب سيكولوجيّة بديهيّة، يؤثرون الاعتقاد أنّهم يعملون لخدمة «قضيّة محقّة» فهذا الأمر يعيد الاعتبار إلى الشخص وينزع عنه صفة العميل أو المأجور: كان الأصولي الملتحي الودود يخدم الآن قضيّة الله من خلال اللاعنف، كما كان يقول، رأيت الكثير من المجازر والفظائع، يجب أن يتوقّف كلّ هذا، كان عضوًا سابقًا في التنظيم المسلّح لجبهة الخلاص الإسلاميّة، مقرّبًا من مفاوضي روما تحت رعاية أخويّة سانت إيجيديو[1] في ترانستيفير على بعد خطوتين من ساشكا - في شتاء 1995 - 1996 وفيما كنت لا أزال جاسوسًا مبتدئًا كانت مختلف الأحزاب السياسيّة في الجزائر قد وقّعت بفضل وساطة كاثوليكيّة اتّفاقًا مبدئيًا، يتضمّن سلسلة من المطالب التي يفترض بها أن تضع حلاً للحرب الأهليّة، كانوا جميعًا هنا باستثناء الجيش بالطبع، من أحمد بن بلا التاريخي إلى الأصوليّين، مرورًا بزعماء القبائل والديموقراطيّين الليبراليّين وحتى لويزا حنون الشيوعيّة من حزب العمّال وهي المرأة الوحيدة في الاجتماع، كانوا ينادون جميعًا بالديمقراطيّة واحترام الدستور، وبوضع حدّ لأعمال

---

(1) منظمة دينيّة تأسّست عام 1958، ناشطة جدًّا وأهدافها سلميّة.

التعذيب والممارسات العسكريّة، وبالطبع كانت عاقبة كلّ ذلك الفشل لكنّه يشكّل منطلقًا سليمًا للتفاوض بشأن السلام العتيد، وفي الوقت نفسه، في الجزائر، كان أعضاء جبهة الخلاص الإسلاميّة والجماعة الإسلاميّة المسلّحة يقاتلون الكفّار فيما الجنود يعذّبون ويعدمون كلّ من يقع تحت أيديهم، أدلى لي مخبري بمعلومات واقعيّة، مخبري الأجنبي الأوّل، خلال سفري الأوّل إلى منطقتي، وأيضًا بأسماء ومبادىء التنظيمات والفصائل والنزاعات الداخليّة، أخذت أقارنها في مكتبي بمعلومات أخرى ومصادر أخرى لأخرج منها بمذكرّة موثّقة مدرجة ضمن تقرير أسبوعي أرسله إلى الوزارات المختصّة، إلى ديوان رئيس الوزراء ورئاسة الجمهوريّة، ويتضمّن نشرة أحوال جويّة عن الأخطار المحدقة، هذا الأسبوع مطر غزير محتمل على إفريقيا الشماليّة، الطقس جميل في البلقان، منذر بالخطر في الشرق الأوسط، وعاصف في روسيا، إلخ. كان هناك مكتب خاص يهتّم بتجميع المعلومات من الأقسام المختلفة للقيام بهذه النشرة السريّة المنظّمة، بالإضافة إلى المذكّرات الخاصّة أو المطالب المحدّدة التي يرفعها فلان أو علتان، تتعلّق بالمخاوف الإقتصاديّة أو الجيوسياسيّة أو الدنيويّة أو العلميّة، ها قد انتهى إلى غير رجعة زمن الظل الذي كنت أحيا فيه، إنّها الحقيبة الأخيرة وسأوافي ساشكا بنظراتها الشفيفة، سأتمدّد قربها بصمت وأدفن شفتيّ في شعرها القصير، انتهت اللوائح ومعها الضحايا والجلادون والاستطلاعات سواء كانت رسميّة أم لا، سأغيّر حياتي وجسدي وذكرياتي ومستقبلي وماضيّ، سأرمي بكلّ شيء من عينيّ عبر النافذة المغلقة بإحكام في الامتداد القاتم الشاسع للمناظر أمامي، سأتطّهر، وأغرق، ذات مساء من كانون الأول في البندقيّة صاحبة السمو، كنت عائدًا يتعتعني السكر ناحية

«رصيف النسيان» شمالي كاناريجبو، وأمامي ثلاثمئة متر أجتازها حتى أصل إلى الغيتو القديم مكان سكني، لكأنّها مئة كيلومتر لا بل قل ألف كيلومتر، كنت أترنّح سائرًا في الاتّجاه الخطأ، انعطفت إلى «ساحة المغربيْين» وتمرّغت على البئر المحفورة وسط الساحة الصغيرة ثم رفعت ركبتيّ اللتين تؤلمانني كمن يخرج بصعوبة من خندق في الحرب، رأيتني من جديد والبندقيّة في يدي منقصفًا إلى قمسين، قمت بثلاث خطوات إضافيّة باتّجاه جسر مادونا دلورتو، خطوتين إلى اليسار، وخطوة إلى اليمين، مدفوعًا إلى الأمام بثقل جسدي، ثقل قبّعتي السوداء أو ذكرياتي وسط رائحة الطين المتجلّد المنبعث من الضباب الفينيسي وأنا أتنفّس بكلّ قواي لكي أستعيد رشدي، فمي مفتوح على شدقيه، رئتاي متجلّدتان، تقدّمْ، تقدّمْ مستقيمًا إذا سقطت فلن تنهض وسينتهي أمرك مقتولاً على يد التشتينك خلفك على يد الأتراك على يد الطروادييّن ذوي الفراس الأصيلة أتنفّس أتنفّس أتقدّم أتشبّث بحاجز الجسر إنّه شجرة في الجبال البوسنيّة أتسلّق، أتسلّق في الليل أنزل من جديد أرى واجهة الآجرّ العالية للكنيسة ماذا أفعل هنا أسكن في الجانب الآخر، في الجانب الآخر أستدير نصف استدارة، متعثّرًا أخطىء الجسر ويصطدم رأسي بالقناة الداكنة، يد تتشبّث بي، أختنق، إنّه المدقّق يوقظني، يهزّني، يطلب منّي بطاقتي فأقدّمها له بطريقة آليّة، يبتسم لي، يبدو لطيفًا، في الخارج لا تزال الظلمة نفسها، ألصق عينيّ بالزجاج، إنّه الرّيف المسطّح، لم تعد تمطر

الفصل السادس

مسافة الطريق يمكن توقّعها مسبقًا، بالرغم من العتمة ستكون هنالك رجيونل إميليا ثم مودينا بولونيا فلورنسا وهكذا دواليك وصولاً حتى روما، العذبة كثمرة يانعة، روما، المدينة المتعفّنة اللامعة والمتجثّثة بسحرها المحيّر الذي تمارسه على البعض، روما والحقيبة التي سأسلّمها فيها والوقت الذي سأمضيه فيها، ربّما اتُخذ الخيار الخيار اتُخذ منذ أن غنّت الإلهة غضب أخيل ابن بيليه، وخياره الحربي وشرفه والحبّ الذي تكنّه له أمه تيتيس والشهوة التي تمثّلها بريزييس أسيرة أغاممنون كما كانت هيلانة أسيرة باريس، وتلك التي تنتظرني في روما مرتدية أبهى مشمال، ربّما، الآن يبطىء القطار لدى اقترابه من إحدى المحطّات، والسأم يأخذ منّي مأخذًا، في الجانب الآخر من الرواق، رجل في الخمسين من عمره يحلّ كلمات متقاطعة بمعيّة زوجته في مجلة عنوانها *La settimana enigmistica* أي الأسبوع اللغزي، أو ما شابه، تبدو زوجته أكثر فتوّة منه بكثير، في عمر النضج، يغدو كلّ شيء أكثر صعوبة، في دوّامة العدم هذه، دوّامة الحيرة التي يرسمها عالم الطرق وتحويلات القطار، تنتظرني ساشكا، يحلو لي الاعتقاد أنّها تنتظرني، أنّ جسدها ينتظرني، أفكّر في الحياة التي نتخلّى عنها، في تلك التي نختارها فجأة، في الملابس التي نخلعها، لفافات الساق

المتقنة، والدرع، وسير الجلد الذي يثبّت الدّرع، ورمح الزان المرميّ في النار، والتّرس، كلّ هذه اللحظات التي نخلع فيها ملابسنا، ونظهر عراة دون شيء يسترنا سوى ارتجاف الجسد نفسه، كلّ هؤلاء الناس العراة الذين نزلوا من القطارات العمياء وملابسهم مكدّسة في زاوية من الباحة وقد تجلّد الهواء فجأة فشبكوا أذرعتهم فوق صدورهم وسندوا أكواعهم بأيديهم وكأنّهم يريدون أن يكسوا بجلودهم لحمهم العاري الموسوم في وسطه ببقعة منبت العانات ينقضّ العدوّ دومًا على المهزومين ليجرّدهم، ونحن أيضًا نجرّد أعداءنا طمعًا بالمال أو بذكرى أو بسلاح نادر ونأمر مساجيننا، قبل إعدامهم، على سبيل المبدأ، بأن يخلعوا ملابسهم رغم البرد لكي لا تُلطّخ أو تتمزّق، فيتمكّن آخرون من استعمالها مجدّدًا، لكن ليس لهذا السبب فقط يجرّد المهزوم من ملابسه بل لكي يتمتّع الإنسان أيضًا بقدرته على البهيمة العارية، بوقوفه منتصبًا إزاء البهيمة الجرداء المرتجفة، وهكذا إذ يذلّ أسرانا ويُهانون، يصبح من الأسهل وضع حدّ لحياتهم الحقيرة، الرجل الساذج الذي يحمل مجلة *Settimana enigmistica* يتصرّف بطريقة أبويّة جدًّا، يشرح الكلمات، والأحرف المناسبة، ورفيقته تبحث في قاموس صغير للجيب عن معاني الكلمات، رفيقته سمراء، شعرها طويل ومرفوع، في سنّ النضج ينشد المرء تغيّرًا في حياته، يتشبّث بفتوّة الآخرين، ولأجل ذلك نجرّد نساءنا ونعرّيهن من ملابسهنّ، منذ عشر سنوات تقريبًا غادرْتُ البندقيّة ورحلَتْ مريان، والحياة الأخرى التي بدأت دون علم منّي في قطار ميلانو بألم أصمّ في الخصيتين تنتهي اليوم، قُدّمت الاستقالة واستُنفدت الخيانة، وها هو رعب العالم يحيط بي الآن، أعهد بنفسي بكليّتها إلى قطار جديد، قطار بالزائد، لم أعد مجرّد مخبر سري أو ناقل معلومات مغمور أو باحث تافه، صرت رجلاً حرًّا، وهذه

الحريّة المربكة ثمرة خيانتي سأهدرها برفقة ساشكا التي تنتظرني ربّما، أشعر الآن بحضور مريان حضورها الطاغي، أختتم حياة فينفتح الباب أمام الماضي، بعد عشر سنوات، ها هي ذكرى مريان حيّة أكثر من أيّ وقت مضى، تُرى ماذا صار بحالها، أتخيّلها أستاذة في أحد المعاهد الباريسيّة، وأمّا، بالطبع هي التي جسدها وتربيتها يدفعانها نحو التعليم والأمومة، كما كنت مجتذبًا أنا نفسي باتّجاه الحرب، كان طبيعيًّا بالنسبة لي، في منتهى الطبيعيّة بالنسبة لولد نشأ على العنف واعتاد على فكرة الأسلحة منذ طفولته في المدرسة وانصرف إلى مراقبة الشرائط المصوّرة، وتربّى على فكرة الله والأمّة المضطّهدة ونواح أمّه، أن يجد نفسه ذات يوم وبندقيّة الهجوم في يده بالقرب من أوسييك، مدفوعًا ببكاء تلك التي وهبته الحياة، فيهبّ لتلبية نداء فرانيو تودجمان، المخلّص، ربّما كان وجه هاوي الكلمات المتقاطعة الخالي من التعبير والظريف في آن هو الذي يجعلني أفكّر بذلك، ينتهبني الأرق بسبب الصخب الذي تحدثه عجلات القطار، تودجمان الذي سرعان ما جاورت صورته صورة أنتي بافليتش[1] مرتديًا بزّته العسكريّة على مذبح أمي الوطنيّ، إلى جانب صور المسيح والعذراء الباكية، وصل تودجمان إلى زغرب بصفته ملك الملوك لكي يغيّر حياتي بشكل جذري فينقذني أو يهلكني، ومن جهاز تلفزيوننا في الدائرة الخامسة عشرة، في الظلمة، كنا نستمع بخشوع إلى خطاباته الرثائيّة التي لم أكن أفهم إلا نصفها والتي كانت أمّي تترجمها لي بورع، كان المذيع في التلفزيون يزعق قائلاً: **في ذلك اليوم، حين وصل المسيح إلى أورشليم، استقبل استقبال الأنبياء، واليوم العاصمة**

---

(1) رجل سياسي كرواتي (1889-1959) رئيس دولة كرواتيا المستقلّة التي أنشئت عام 1941 في ظلّ الإشراف الألماني والإيطالي.

الكرواتيّة هي أورشليم الجديدة وتستقبل فرانجو تودجمان وقد جاء إليها لنصرة أهله، كانت كرواتيا تولد من جديد، وتُبعث مدجّجة بالسلاح من خوذة تودجمان، تستيقظ أخيرًا وإن يكن ببطء وصعوبة من سباتها الطويل الذي أغرقها فيه تيتو، مستمدّة من مآسي الحرب وجراحها قوّة وشجاعة وشبابًا، ومن تصدّيها لأعدائها إرادة وجبروتًا وآلامًا مجيدة انكتبت بفضلها أسماء المدن بأحرف من نار على شاشات التلفزيون: كنين، أوسييك، فوكوفار، كان الصربيّون مدمنو الكحول بشعورهم المشعّثة يسيرون في الدرب النقيض للبراءة والجمال، كانوا يقتلوننا، ويقتلوننا بازدراء، وكلّ حياتي الباريسية كطالب هادىء، هذه الرحلات في المترو، وهذه الدروس التي استعصى عليَّ فهمهما عن الحق العام والتاريخ والسياسة، بالإضافة إلى المواعيد اليوميّة مع ماريان انزلقت إلى الفراغ الذي كنت أكتشفه فيَّ، الفراغ الصامت الذي يحدثه نداء الوطن الذي بات في خطر، وبدا لي الجوع، والرغبة، وشهوة الحواس والنضال والمعركة والحياة الأخرى، بدا لي كلّ ذلك حقيقيًا، وواقعيًا، كان يجب محاربة الظلم الذي يحلّ بالدولة الفتيّة وينزل بها كلّ صواعق القوّاس أبولون حامي الشرق، وكلّما كانت الصور والخطب تفعل فعلها في نفسي، بكت أمّي فرحًا وألمًا في آن معًا وكلّما كنت أنزلق باتّجاه كراوتيا، اختفيت من باريس ومن الجامعة، وتهرّبت من مريان ومن الحاضر واستغرقت في قراءة التقارير الواردة عن مناطق كرايينا ودوبروفنيك المحاصرة واستفزازات الجيش اليوغوسلافي والأناشيد الوطنيّة التي لم أتعلّمها حقًّا واحتقرتها في الواقع طيلة سنوات، حتى اللغة عادت إليّ حقيقية أكثر وأقوى من أي وقت مضى، رغمًا عن أبي بدأت أتكلّم الكرواتيّة في المنزل أمامه هو الذي لا يفهم حرفًا واحدًا منها أخذ يشعر أنّه منبوذ من هذا الجنون القومي كما كان يقول بحق

ولا شك، تشبه جدك، تقول أمّي، تشبه جدّك، كان هذا فخًا وقعت فيه كما يغرق قطار في الليل، تتبّعت آثار جدّي دون أن أعرف من كان فعلاً، أمضيت سنتين في الحرب، سنتين كاملتين، ما عدا ثلاث مرّات هربت فيها مؤقّتًا، مرّة إلى تريستا مع أندريا وفلاهو، ومرّتين إلى باريس لرؤية ماريان خصوصًا، أحسست ما كان يرويه شعرانيّو[1] عام 1914، عن عدم تفهّم من كانوا في الصفوف الخلفيّة، وعن استحالة التعبير والتحدّث عن أحوالهم كمثل هؤلاء الأطفال الذين لا يعرفون لدى خروجهم من المدرسة ماذا فعلوا خلال نهاراتهم، عندما كانت ماريان تسألني عن الحرب، ونحن متمدّدان كلينا في العتمة في غرفة خادمتها كنت أجيبها لا شيء، لم أفعل شيئًا، لم أرَ شيئًا لم أتعلّم شيئًا، لم أكن أعرف ماذا أقول، كان هذا مستحيلاً، كنت أروي لأمّي أنّنا نحارب لأجل مجد الوطن، هذا كلّ شيء، لم أرَ شيئًا من الحرب ومن ثم أرحل من جديد، أستقلّ القطار الليلي إلى إيطاليا أو النمسا وفي مساء اليوم التالي أصل إلى زغرب، كنت أفكّر في الشعرانيّين الذين كانوا يغادرون باريس، رحت أتخيّل، في هذا القطار الفخم للغاية، المريح جدًّا أنّني كنت جنديًّا مأذونًا هابسبورغيًا راجعًا إلى الجبهة، لكي يحارب الإيطاليّين هناك على نهر إيسونتزو في مرتفعات جبال الألب عام 1917 فيما حلّ الكلمات المتقاطعة في الجانب الآخر من الرواق يبلغ أوجّه، يتحدّث الرجل الأكبر سنًّا من زوجته إليها وكأنّه استاذها، مثل همنغواي وممرّضته، همنغواي الذي مرّ من هنا قبل أن يذهب إلى الجبال ويتظاهر بأنّه عامل في مستشفى ميدان، هل أحسّ هو أيضًا الفارق، هذه

(1) الشعرانيّون: الشعرانيّ هو لقب الجندي الفرنسي في الحرب العالمية الأولى.

الهوّة المستحيلة التي تحفرها الحرب بين الصفوف الخلفيّة والجنود، هؤلاء الذين رأوا، وعلموا، وتعذّبوا، هؤلاء الذين جعلوا منهم جلادين أو ضحايا، وفي هذا الريف المنبسط في الليل أفكّر بهؤلاء الذين كانوا يصعدون إلى الجبهة على نهر السوم بعد قضاء اثنتي وسبعين ساعة في باريس، بعد أن تجرّعوا كؤوسهم الصغيرة على وجه السرعة وحزنوا ومارسوا الفسق بتعاسة عادوا للجلوس في حافلاتهم صامتين دون أن يتبادلوا أيّة كلمة، في البعيد بعض الشرارات المتوثّبة تعلن عن بداية المنطقة العسكريّة، أصبحت المنطقة قريبة حتى لو لم يكن يُسمع حتى الساعة صوت المدفع لكنّهم يشعرون به يقتربون فتجفّ حلوقهم ويشعرون بغصّة، ينزلون من القطار ويجتازون فريقًا من الجرحى الذي ينتظرون إجلاءهم منتحبين، ثم يصعدون في شاحنة يقودها شخص صلف، وخشن الطباع يغار من المأذونين، ثم يكمل المأذون السير على قدميه يحيّي رجال المدفعيّة الذين يحسدهم على كونهم محتمين بقذّافهم حتى لو انتهى الأمر بهم جميعًا نصف طرشان، هذا ليس بالأمر الخطير، يتقدّم بين الخطوط في الشبكات شبه المدفونة في التراب متتبّعًا التعليمات المكتوبة على لوحات خشبيّة أو على خوذات ألمانيّة مغروزة في الصلصال، يأمل أن تكون أوّل ليلة هادئة، لحدّ الآن إنّهم الإنكليز الذين يتلقّون الضربات هناك ناحية إيبر[1]، من المحظور التفكير بتلك التي تركها للتو، بالمضاجعة الأخيرة التي حصلت في شقة مفروشة، في آخر كأس شربها بمفرده في ساحة كليشي لأنّ كلّ الرفاق في الجبهة

(1) إيبر: مدينة بلجيكيّة في فلامند الغربية، موقع حربي هامّ، صمدت أمام هجمات الألمان المتكرّرة والشرسة وقد استخدموا فيها الغازات السامّة لأول مرّة. فيها 140 مقبرة تضم رفات 50,000 جندي.

أو أنّهم منصرفون إلى أعمالهم حتى الخادم، الذي يعمل في المقهى ولا يزال فتيًا جدًّا على الالتحاق بالجبهة كان يشعر باحترام للشعرانيّ ويحسده، لكن دوره سيأتي، متى سيموت، هل سيسقط صريعًا خلال بضعة أشهر على طريق «شومان دي دام»[1] منشطرًا إلى قسمين برصاص رشّاش، أو مقطوع الرأس بسلك شائك، أو مقطّع الأوصال بلغم في خندق، هل سيصرخ لامًّا أحشاءه الفاترة بين يديه والرائحة الكريهة تنبعث منها، هل سينادي على أمّه هل سيبحث مثل شبح عن يده المغروزة في مكان ما من الوحل، يتوغّل الجنديّ في الخطوط الأولى للجبهة حيث تجمّع التراب كتلا بفعل القذائف، يصل إلى الفرقة 329 للمشاة التي هي بأمرة ضابط لم يرهَ من قبل، هاك فلان، هاك فلان، الجميع يعرفون أنّه من الأفضل أن يُترك المأذون لصمته، الجميع معفّرون، مقمّلون، جائعون، منذ اثنتي وسبعين ساعة لم يرهم ويبحث لا شعوريًّا عن هؤلاء الذين غابوا، يرى أنّ عددهم نقص وعندئذٍ لا يقول شيئًا، يقوم الضابط بإشارة وجيزة من رأسه، فيضع الجندي عدّته ويبحث عن مكان يتمركز فيه، يقبض على بندقيّة اللوبيل ويربض وكأنّه في قطار، يعود إلى الجبهة لكنّ جزءًا منه، وهو الأفضل بقي في الصفوف الخلفيّة، في الصفوف الخلفيّة حيث يتمتّعون بمشهد نهاية العالم، طلقة المسدّس التي انطلقت من مسدس غافريلو برينسيب في سارايفو أعلنت بداية سباق الرعب في 28 حزيران 1914، غافريلو البالغ من العمر تسعة عشر عامًا، النحيل والمسلول، السلاح في يده والسيانور في جيبه يعيد تركيب العالم مدمّرًا

---

(1) Chemin des Dames طريق على القمم بين الـAilette والـAisne في فرنسا وقد شهدت معارك عنيفة جدًّا عام 1917 هزم فيها الفرنسيون وانتهت بمجزرة.

ثلاث إمبراطوريات ويرميني على غير معرفة منه في هذا القطار بعد تسعين سنة، بالقرب من بارما هذا إذا احتكمنا إلى أضواء الضواحي، غافريلو الصربي من البوسنة يؤمن بصربيا الكبرى التي سأساهم في تفكيكها، الناشط اليافع محظوظ، تمامًا مثل قاتل جوريس في شارع مونمارتر، إنّه في المقهى، الخطّة فشلت، القنبلة التي يفترض بها أن تنهي حياة فرانسوا فرديناند لم تنفجر تحت السيارة المستهدفة، لا يزال الأرشيدوق حيًّا يرزق، لسوء طالعه غافريلو برنسيب محبوب من هيرا، الإلهة الماكرة ستعمي بصيرة السائق النمساوي وسيأتي الموكب إلى عند برنسيب، إلى عند مقهاه، مقهى موريتز شيلر عند زاوية الزقاق قبالة الجسر الصغير، إنّه يوم جميل ليس عليه إلا الخروج، ترك فنجانه نصف فارغ، تناول كبسولة السمّ في يده اليسرى والسلاح في اليد اليمنى وصوّب، هل تسنّى له الوقت لمراقبة الشاربين المندهشين للأرشيدوق الهابسبورغي، الشفتين المرتعشتين لصوفي الجميلة زوجته التي قتلت على الفور، هل استشفّ ملايين القتلى الذين انبجس دمهم ممتزجًا بالدم النمساوي المجري، هل كان مسرورًا بفعلته هذه، هل أرشد ابن ليتو سهامه، هل كان فخورًا برصاصاته الأربع، هل تردّد، هل فكّر الطقس جميل اليوم أنا في المقهى سأرجىء القتل ليوم آخر، لا شكّ أنّ الوقت لم يتسنّ له للتفكير بكلّ ذلك، خرج من المقهى، وبحسب تقارير الشرطة أطلق النار على مسافة متر وخمسين سنتمترًا، عيناه في عيني القتيل، سيموت غافريلو برنسيب بدوره في سجن تريزينشتات في المدينة التشيكيّة، السجن نفسه الذي سينشىء فيه الرايخ لاحقًا عام 1941 غيتوًا نموذجًا، بمثابة تحيّة غريبة للرجل الذي أتاح بشكل غير مباشر وصوله إلى الحكم، مضيفًا الموت إلى الموت، غيتوًا للفنّانين والمثقّفين، أحد أسوأ معسكرات الاعتقال حيث ستمتزج

المهزلة بالرعب، توفي غافريلو برنسيب في زنزانته في قصر تريزينشتات عام 1918 دون أن تتسنّى له رؤية ولادة مملكة الصقالبة في الجنوب التي ناضل من أجل تحقيقها بطريقة غير مباشرة، أمّا كبسولة السيانور فلم تفده بشيء، توفّي ببطء جرّاء السلّ، لأجل ذلك، جُنّد منذ البداية ضمن جماعة من الإرهابيّين المسلولين، المرضى الذين لا أمل في شفائهم، وكان وضعهم مثاليًّا لإرسالهم إلى المسلخ دون كبير ندم- في المرّة الأولى التي ذهبت فيها إلى سارايفو مررت أمام مقهى موريتز شيلر القديم عند زاوية الجسر، على الرصيف، هناك لوحة تذكاريّة تنمّ عن زهو واضعيها، ماذا تعني اليوم، ماذا كانت تعني آنذاك، في خضمّ الحصار حين كانت تسقط بين الفينة والأخرى قذائف من مدافع هاون صربيّة أو بوسنيّة لكيما تذكّر المجتمع الدولي بأنَّ الأزمنة كانت صعبة، لم يكن المجندّون يتردّدون طويلاً في إطلاق الرصاص على أنفسهم كما حصل عام 1917، أو ربّما كما أطلق الخادم في ساحة كليشي الذي ذهب إلى الحرب النار على نفسه في «شومان دي دام» لينجو من المذبحة، أو كما أطلق الجنود المسلمون الرّصاص على أقدامهم لمرّة أو مرّتين، في المدينة المحتضرة حيث كان غافريلو برينسيب قاتل أخ الإمبراطور يسعل ويبصق دمًا، القذيفة تشبه القذيفة ولا تعود تخصّ جهة معيّنة ما أن تطلق، كثيرة هي الحالات التي عمد فيها الجنود إلى تشويه أنفسهم خلال حرب 1914، منهم من أطلق الرصاص على يده، ومنهم في شحم بطنه، وأتفهّم موقف هؤلاء المدفعيّين البوسنيين الذين أغاظتهم اللامبالاة الدوليّة فاستخدموا تكتيك الشعرانيّ المنهك آملين أن يعطّل الطيران الأميركي المحلّق من حولهم بطاريّات المدافع الصربيّة وأتخيل أنّهم، كما صوّب الجندي لوبيلته إلى حذائه وضغط على الزناد، تردّدوا طويلاً قبل أن يطلقوا الرصاص على

أحذيتهم، أو ربّما لم يكونوا متردّدين بل حازمين مثل غافريلو برينسيب في عمر التاسعة عشرة وكان يقينهم بأنّ الموت لن يخطئهم بل يشدّد من عزيمة قرارهم، الموت الذي اكتنف جوّ ساراييفو خلال الحرب الأخيرة - كان طابور المسلولين الصربيّين في اليد السوداء[1] يجسّد مقدّمًا عددًا من اليائسين الانتحاريّين المضحّين بأنفسهم وهم جنود الظل للعصر أو التاريخ كلّه، ربّما كان هناك شيء ريادي في مسدس برينسيب عيار 32، هل كان هو فعلاً من صوّب المسدّس، كان منذ ذلك الحين محتضرًا، محكومًا عليه بالموت، شبحًا، لعبة بين أيدي الآلهة الغاضبة، بلغ ذروة المجد لبرهة كما بلغه ديوميد[2] ابن تيديه، أو البطلان أجاكس[3] أو كوشا سيّت شابوك مدفعي الدردنيل، تذوّق غافريلو طعم المجد قبل أن يذهب ويتعفّن في سجن تيريزينشتات، قرع بيده طبول الحرب ثم اعُتقل في سجن تيريزين حيث قضى نحبه خنقًا لكنّ السجن سيعيش من بعده وسيؤوي معتقلين آخرين كثرًا، يهودًا وشيوعيّين تشيكيّين ومعارضين من كلّ نوع، وسيعدمون رميًا بالرّصاص أو شنقًا في الباحة الخلفيّة على يد الغستابو أشقّاء الشرطة النازيّة الذين كانوا يديرون على الضفة الأخرى من النهر، غيتوًا من أكثر الغيتوات رعبًا، يضم قرابة خمسين ألف معتقل، يهود من براغ وألمانيا والنمسا وغير مكان، في إطار الجغرافيا المعقدّة

---

(1) اليد السوداء: تنظيم أنشيء عام 1911 في صربيا ويهدف إلى توحيد الدول التي يعيش فيها الصرب.

(2) أمير ارغوس، أحد أبطال حرب طروادة عُرف بوحشيته، جعله هيراكلس يلقى حتفه ملتهمًا بأحصنته بالذات التي كان يغذّيها من لحم البشر.

(3) أجاكس اسم يعود لبطلين إغريقيين في حرب طروادة، أجاكس ملك سالامين الذي جُنّ لأنه لم يُسلّم أسلحة أخيل، وأجاكس ملك اللوكريين الذي خطف كاسندرا في معبد أثينا فجعلته الإلهة يقضي غرقًا.

لمعسكرات الاعتقال، حيث كان الناس يموتون على أنغام الموسيقى، ويمارسون إبداعاتهم ويستطيعون التفكير قدر ما يحلو لهم بشواهد قبورهم، المكتوبة بغيوم سمراء في سماء أوشفيتز، في أغلب الأحيان، في المسافة الرحبة للسماء بعدما تحمّلوا القذارة، وآلام الاعتقال، معتقل تيريزين المعروض كنموذج للضمير الحيّ أمام العالم أجمع، لكأنّ الألمان يقولون انظروا كيف نزرب بهائمنا جيّدًا، انظروا كم هي سليمة ماشيتنا ونظيفة، لن يجد الصليب الأحمر الذي كان يزور هذه المزرعة النموذجيّة ما يقال، صورها المختومة بختم «صنع الرايخ الثالث لألمانيا» وُزّعت في أوروبا كلّها لتشير دون أن تشير إلى كلّ ما كان العالم يعرفه دون أن يعرف، وهو أنّ الاعتقال كان تمهيدًا للموت، تمامًا كما كان الوسم - وسم العجول المتروكة طليقة في الحظيرة - بداية النهاية، تُعاين الماشية لتذبح، تُدمغ ليفصل صالحها عن سيّئها، النفس عن الآخر لبناء النفس لخلق ذات جوفاء مفرغة من كلّ ما هو مغاير، من اليهودي والأرثوذكسي والبربري، ليقضي الجبابرة موطّدو النظام على الفوضى، كما كان غافريلو برينسيب يبني مملكته السلافيّة بقتله الوريث الهابسبورغي: عاشرتُ من أمثاله العشرات، وطيلة سنوات، في ملفاتي، شهداء ومرشّحون للشهادة وجلادون وراؤون ويائسون ومقتنعون بالقضيّة أو بالله دون أن يعرفوا جيّدًا أيّ إله يخدمون، هل كانوا في خدمة آريس أو زوس حامل الدرع أو بالاس أثينا أم متشبّثين بإله واحد هو كلّ ذلك في الوقت نفسه، هو النظام والفوضى، البداية والنهاية، يبعثر أجسادهم بلذّة أولمبيّة بحتة، عاشرتُ جزائريين وفلسطينيّين وأفغانًا وعراقيّين ضمن مناطق نشاطي بين 1996 واليوم كم توفّي منهم ليست لديَّ أيّة فكرة، هؤلاء الذين لا يكترث أحد لرحيلهم هؤلاء الضحايا الذين يتسبّبون بضحايا

آخرين أحفاد غافريلو برينسيب، مشعل الحرب العظيم - هاوي الكلمات المتقاطعة الذي يشبه همنغواي شبهًا غامضًا بسبب لحيته أصيب بنوبة سعال في هذه اللحظة بالذات ولا أستطيع تمالك نفسي عن الابتسام، للتاريخ إيماءات خاطفة على الدوام، أتقلّب في مقعدي أغمض عينيّ ليس بعيدًا عن بارما وهي مدينة لديها ذكرى طيّبة في نفسي، توقّفت فيها مرّة في طريقي إلى اليونان إبّان أولى عطلاتي كعميل سريّ عازب في مقتبل العمر بعد أن وضعتني رفسة مريان على الطريق الصحيح من جديد، عدت إلى دراسة العلوم السياسيّة ونلت أخيرًا الشهادة، كانت الحرب التي شاركت فيها بمثابة تدرّج طويل الأمد في القانون الدولي لدى وزارة الدفاع الكرواتيّة وأكسبتني نقاطًا إضافيّة على ما أعتقد، من أين استمدّيت القوّة للجلوس من جديد على مقاعد الدراسة، ربّما حفّزني على ذلك الألم في خصيتيّ، أو الجمود الطويل في البندقيّة، ونصيبي من الدنيا بكلّ بساطة - كان بإمكاني أن أعتني بكرومي كيفما اتّفق مثل فلاهو المعاق بالقرب من دوبرفنيك أو أتحلّل في التراب مثل أندريا، أو ألتحق بالمصنع مثل غسّان المنفيّ، أو أبقى جالسًا أمام التلفزيون في منزل أهلي، فلا أخرج أبدًا من الدائرة الخامسة عشرة، أضافت أمّي صورتي بالبذلة العسكرية على المذبح الوطنيّ إلى جانب صورة بافليتش وصورتها عندما كانت صبيّة مع أنتي بافليتش في إسبانيا، والبابا، والجلاد تودجمان والعلم الكرواتي وأنا، هذا هو عالمها، لكنّي لم أكن مستعجلاً للعودة إليه، على العكس، كنت أريد الرحيل من جديد، وحضّرت للمسابقات المختصّة بالدوائر على اختلافها والأكثر إكزوتيكيّة، كنت أرى خلاصي في الصالات الجميلة في مقرّ وزارة الخارجيّة الفرنسيّة تحت الثريّات الجميلة، في ربطات العنق السمراء الذهبية للمفوّضين المطلقي الصلاحية، في الأزرق الداكن

لجوازات السفر الدبلوماسيّة والعبارات التي عفا عليها الزمن لأوراق الاعتماد، دون ان أعرف عن السلك الخارجي شيئًا إلا ما قُدّرت لي معرفته عنه عبر كتاب *Belle du Seigneur*[1] والذي بدا لي قدرًا يشتهى في النهاية، لا بل جذّابًا، ولامعًا، يجعلك، إذا أمكن القول، في قلب العالم متبوّئًا أعلى المناصب العامّة ومتقاضيًا أعلى الأجور، بالإضافة إلى السائقين وحفلات الاستقبال والبلدان التي لم تفكّر قطّ بالذهاب إليها والإقامة فيها، موريتانيا، غينيا بيساو، كونغو، بوتان[2]، وهكذا بذلت جهدي للتعلّم والتدرّب على هذه المسابقات العسيرة الفهم – القانون، علم التحليل، التاريخ وغيرها دون إحراز أيّ نجاح بالطبع – إمّا بسبب ماضيّ المريب والحربي، وإمّا لأنّ نتائجي لم تكن على مستوى هذه الوزارة المهيبة، كانت السياسة ترفضني خلال المسابقتين المختلفتين اللتين أجريتهما، بالرغم، وهذا ما عرفته لاحقًا، من أداء **لائق في الامتحان الشفهي** وتبدو لي خيبتي اليوم بعد مرور عشر سنوات، وقد بلغت سن النضج في هذا القطار المتّجه إلى الفاتيكان صعبة الفهم لم أكن أستطيع أن أكتشف ماذا يخبّىء لي زوس الرعّاد، قدرًا أكثر غموضًا بكثير من دائرة الشؤون الخارجيّة، قدرًا كائنًا في بولفار مورتييه، مورتييه ماريشال الإمبراطوريّة الذي نجا من كل الحملات النابوليونيّة، وهناك استخدموني، خلافًا لكلّ التوقّعات، بصفتي «مفوّضًا لدى وزارة الدفاع»، كما أوضح ذلك ببرودة عنوان المسابقة الإداريّة، وأظنّ أنّ المرشّحين المئة المشاركين في قاعة الامتحانات هذه العديمة الفاعلية قطعًا كانوا يعلمون جميعًا ماذا تعنيه عبارة «مفوّض لدى

---

(1) Belle du Seigneur رواية للكاتب السويسري الفرنكفوني ألبير كوهين.
(2) مملكة في آسيا بسفوح هملايا الشرقيّة جنوبي التيبت.

وزارة الدّفاع»، أو يخالون معرفته على الأقلّ، وهي تعني مخبرًا سريًّا، أو بالأحرى مخبرًا يتقصّى معلومات عن الغير، لأنّ التنفيذ لم يكن مدرجًا في برنامجنا الإداريّ واللغويّ البحت، كانت مسابقة مماثلة تقريبًا لمسابقة مفوضيّة الشرطة أو مركز الشؤون الاجتماعيّة أو مفوضيّة البحريّة، وفيما بارما تتوالى أمامي خلف النافذة، أستعيد من جديد أيّامي في البولفار، الفضول الذي اعتراني إبّان فترة التأهيل، المبنى الغريب المحصّن الخالي من جهاز لإعداد القهوة بغية الحدّ من تبادل الأحاديث العفويّة بين الموظّفين، المراحيض المصفّحة، المكاتب ذات الجدران العازلة للصوت، الملفّات اللامتناهية، عشرات الملّفات التي يجب معالجتها واحدًا واحدًا، وتوليفها وتصنيفها، ومقارنتها مع المصادر، وملء البطاقات لتدوين المعلومات التي جرى جمعها في هذا الاتّجاه أو ذاك، والتحرّي عن اسم هذه الأسرة أو تلك في التقارير الواردة من «المراكز» أو «المراسلين» ذوي الأسماء المرمّزة، تدوينها وإحالتها إلى الرئيس الأعلى، كتابة المذكّرات، العمل في سبيل الدفاع عن الأمّة، في الخفاء، في ظلّ كدسة من الحافظات الكرتونيّة، أمّا خبراتي الجغرافيّة الوحيدة فقد تمّ تجاهلها بالطبع انسجامًا مع المنطق العسكري البحت، لن تكون لي لا علاقة بالبلقان أو بالسلافيّين لا من قريب ولا من بعيد، انتُدبت للعمل في العالم العربي الذي كنت أجهل كلّ شيء عنه تمامًا، ما عدا قصص غسّان ومساجد البوسنة وما تتحدّث كتب التاريخ عنه عن سابق تصميم، بدأت خدمتي في الجحيم الجزائري بصفتي مسؤولاً عن تنظيم الملفّات من الدرجة الثالثة، في عالم ذابحي الأطفال والجزّارين الظرفاء، أسماؤهم كلّها مماثلة بالنسبة لي، في جنون التسعينيّات كانت ممارسات الحروب القروسطيّة تُلقي بظلالها : بقر البطون، وبتر الأعضاء، وبعثرة الجثث، والمنازل

المحروقة، والنساء المختطفات، والقرويّون المذعورون، واللصوص الدمويّون والله، الله في كل مكان لدوزنة رقصة الموت، كنت أتعلّم شيئًا فشيئًا أسماء المدن والبلدات البليدة، المدية، على سبيل المثال، بدأت عملي بالتحقيق في جريمة وحشيّة فُصلت فيها سبعة رؤوس رهبان عن أجسادهم، سبع وردات حمراء والأعين نصف مفتوحة على سنّهم المتقدّمة، إنّها جريمة تبحرين التي حصلت في 21 أيّار 1996 وافتتحت بها السنتين الجزائريّتين في جادة مورتييه، الماريشال ذي السيف الطويل- هو أيضًا استعمل سيفه بدءًا من جماب[1] وصولاً حتى روسيا، ربّما هو أيضًا قطع رؤوس رجال دين في ثياب الرهبنة، ونساء وأطفالا، في خضم الأعاصير الإمبراطوريّة، كلّ صباح كنت أفكّر به، بثيابه، بكتفيّتيه وأنا أذهب إلى جحري المحصّن لأعالج ملفّاتي، ضمن الجوّ الرمادي والثقيل لهذا العالم من الأسرار حيث كنت أقرأ تقاريري عن المجازر والدسائس العسكريّة دون أن أفهم منها حرفًا، ودون أن أحدّث عنها أحدًا، كنت أغوص في أوضاع **المنطقة** دون شغف لكن من غير قرف، بفضول متعاظم حيال التصرّفات السيّئة للآلهة الغاضبين، بصبر داخل خيمتي المحصنّة أحرس السفن المقعّرة، أدافع في الظلام عن الجزائر نفسها، ثم حين أنتهي منها، أستقلّ المترو: وفي اللحظة التي أعود فيها إلى منزلي الجديد في شارع كولانكور، كنت أحييّ دومًا مورتييه على اللوحة التذكاريّة للبولفار، ملاكي الحارس، علمًا أنّني على يقين أنّ هناك احتمالاً كبيرًا بأن أكون ملاحقًا ومراقبًا من زملائي بالذات الذين يتوجّب عليهم أن يتأكّدوا خلال سنتي الأولى من عملي كموظّف مبتدئ وعميل

---

(1) جماب **Jemappes** معركة جماب في 6 تشرين الثاني 1792.

مخابرات متدرّج، من أنّني لم أكن أعمل لصالح الأجنبيّ أو أيّة حركة أصوليّة أخرى، استطعت التحقّق من ذلك مؤخّرًا عندما قرأت، بعد عشر سنوات التقرير الأوليّ المقدّم من رؤسائي الخاص بي، رأيت فيه مرآة غريبة لذاتي، حياة متيبّسة، ورقة مطويّة في معشبة معلوماتيّة، وفيه التواريخ والأمكنة والأسماء والشبهات وملاحظات سيكولوجيّة أوليّة وعلاقات محظورة وغير محظورة وأمور عائليّة وتقرير الطبيب المعالج وهكذا دواليك وصولاً حتى الشيفرات والمراجع والملاحق والتصنيفات والتعديلات المختلفة والمذكّرات وأيّام الغياب والعطلات كتلك التي ذهبت خلالها إلى أثينا مرورًا ببارما لكي أهرب بضعة أيّام من الأهوال الجزائريّة والرهبان المذبوحين الذين حمّلوني وزرهم فتوجّب عليّ أن أوثّق المجزرة وأقدّم رواية مقبولة عن الفوضى التي لا تصدّق في مركز الجزائر، بارما أتذكّر أنني تناولت العشاء فيها ليس بعيدًا عن بيت العماد والكاتدرائيّة مفكّرًا بأسرة فارينزي[1]، بدوقات بارما وبياتشنتسا وبماري لويز الإمبراطورة[2] لم تخطر ببالي الجزائر إطلاقًا ولا كرواتيا ولا أيّ شيء يتعلّق بالقتال ما خلا المحرقة التي تعرّض لها راهب غريب يدعى جيراردو سيغاريلي الذي أمرت محاكم التفتيش بإعدامه حرقًا عام 1300، كان يبشّر بالفقر الإنجيلي، ولم يكن يعتبر أنّ التمدّد عاريًا بالقرب من امرأة أو ملامستها دون زواج خطيئة، كان سيغاريلي يريد استعادة جمال الحبّ

---

(1) فارينزي أسرة ايطالية حكمت دوقيّتي بارما وبياتشنتسا 1545-1731 اشتهر منها البابا بولس الثالث، وألكسندر فارينزي دوق بارما وحاكم هولندا.

(2) ماري لويز ابنة الامبراطور فرانسوا الثاني وزوجة نابوليون الأوّل الثانية، منها رُزق بابنه ملك روما.

الرسولي والفقر والسخاء وملامسة الأجساد النسائيّة، كان يجول بارما مع أتباعه وهو يعظ ويبشّر إلى أن ألقى محقّق ديني القبض عليه واستجوبه وقرّر إعدامه حرقًا، لم يكن سيغاريلي يخشى الموت، كان يعتقد أنّ انحطاط الكنيسة يشكّل إحدى علامات نهاية الأزمنة، وأنّ جميعهم سيلقون حتفهم، جميع الكهنة الأساقفة ستكون نهايتهم في الجحيم، عندما تمكّنت منه النيران، زعق سيغاريلي ليبعث اللذّة القصوى في نفوس المشاهدين، سقط رأسه فوق صدره وظلّ جسده يحترق لوقت طويل موثقًا إلى العمود، ثم حطّم جلّادوه عظامه في الحطبات التي لا تزال مشتعلة ورموا أعضاءه شبه المتفحّمة الواحد فوق الآخر ووضعوها من جديد تحت الأحطاب المشتعلة، وعنوا باستئصال قلب الراهب المغرم الذي كان لا يزال في حالة جيدّة ورفعوه فوق النار ليتأكّدوا بذلك من حرقه تمامًا، وإذ جرى التأكّد من أنّ جيراردو سيغاريلي لن يستطيع من الآن فصاعدًا المشاركة في انبعاث الأجساد يوم الدينونة، رمى قوّاسا الكنيسة اللذان يتولّيان شؤون تنفيذ أحكام الإعدام بقاياه الرماديّة المغبرة في نهر بارما وهما يقهقهان - جلست على الرصيف بالقرب من الساحة حيث خضع الراهب الذي يبحث عن الكمال عبر تقارب الأجساد لأشدّ أنواع التعذيب على يد الكنيسة الأبديّة بعد أن ركنت سيّارتي في موقف قريب، كنت أجتاز إيطاليا، البلاد الأكثر تمدّنًا في العالم ظاهريًا، استقللت معدّية إلى باري وزرت الأكروبول ثم ذهبت لأهيم في الجزر، متناولاً سلطة الأخطبوط وسفود لحم الحمل وأشاهد انعكاسات مصابيح الصيّادين على بحر إيجه، بودّي لو أذهب الآن وأنسى نفسي وسط الشتاء العاصف المولول لجزر السيكلاد، أبدّل القطار في بولونيا وأعود إلى باري لأبحر من هناك في عرض ألبانيا أو أذهب إلى صقلية الجزيرة الواقعة في آخر العالم أجلس في

مسرح تاورمينا الإغريقي وأنظر إلى خليج ناكسوس يغمر التلال، لكن عليّ قبل كلّ شيء أن أنهي الصفقة وأسلّم الحقيبة، عليّ أن أبقى في روما من أجل ساشكا ذات الابتسامة الملائكيّة وأعيد ترتيب حياتي كما يقال بثمن الخيانة التي هي ليست بالأمر العظيم، المال المتكدّس على حسابي كجاسوس وأمحو كلّ شيء، أفرغ نفسي من حياتي البشريّة وأكمل نصيبي من الوجود، أتخلّى عن القطارات، الأسفار، التنقّل بشكل عام أستمع إلى نشرات الطقس البحريّة وأنا بعيد في أرض نائية وسط كنبة مريحة، انتهت المغامرة التي ليس فيها شيء من المغامرة انتهت الملفّات ومعها المخبرون والتحقيقات التي لا تنتهي في شبكات العالم التي تتلاقى وتتلاقى من جديد، تتلاقى في السكك، وحزم الرماح، والبنادق ذات الحراب المتلاصقة، **وحزم العصي** التي يحملها معلنو الأحكام ويُجلد بها المحكومون وفيها الفأس التي تقطع رؤوسهم، هذه العصي نفسها التي استخدمها موسوليني شعارًا له ولإمبراطوريّته، العالم تطوّقه حزم القضبان وفي وسطها الفؤوس، في كلّ مكان: ألتقي بنفسي في ميلانو أو في بارما، أتقاطع كما يتقاطع المخبرون في بولفار مورتييه، والبارحة حين وضّبت مكتبي للمرّة الأخيرة ومن ثم ذهبت للتسكّع وحيدًا في باريس المقفرة وتخلّفت على موعد الطائرة، مكتبي الفارغ لأنّه يجب الحرص على عدم ترك شيء فيه ما عدا كتاب تصريف الأفعال وقاموس **لو روبير** وعلبة شكلات لجمع الأوراق، فكّرت بجميع الأسماء التي صادفتها في كلّ الأمكنة، جميع القضايا والملّفات الميدانيّة والخارجيّة، وبالقائمة الطويلة لهؤلاء الذين راقبتهم لوهلة كما أراقب الآن المسافرين في هذا القطار الذي يبعث على الاختناق جرّاء حرارته المرتفعة، أمّا هاوي الكلمات المتقاطعة وزوجته، فكان بإمكاني أن أهديهما قاموسي لمساعدتهما في حلّ الشبكات لو

لم يكونا إيطاليّين، وجاري قارىء مجلة **برونتو** والرؤوس التي أراها أمامي، الفتاة الشابّة الشقراء، والرجل الأصلع، وعلى مسافة أبعد الكشّافة أو ما شابه الذين يلبسون منديلاً معقودًا ويضعون صفّارة معلّقة بسلسلة، أراهم أيضًا وأنا مغمض العينين، وهذه عادة اكتسبتها خلال احترافي المهنة، فالشيء الأوّل الذي يعلّمونك إياه خلال إعدادك كجاسوس هو فنّ ألا يلحظك أحد، ألا يفوتك شيء، نظرية اقتناص الفراشات، كما كان يقول معلّمي، يجب أن تكون شفّافًا غير مرئي متكتّمًا وأن تكون عيون شبكتك ضيّقة فلا يفلت منك شيء، وكالالات الاستخبارات هي مؤسّسات تدرّب صيّادي فراشات هزليّين وفي أغلب الأحيان ريفيّين، استمتعت ساشا كثيرًا عندما سألتني عن مهنتي لأوّل مرّة وأجبتها بأنّني عالم حشرات، ومؤرّخ طبيعيّ، وصيّاد حشرات، فقالت لي وهي تضحك أنّ مظهري لا يوحي بذلك وبأنّني أكثر جديّة من أن أقوم بنشاط مماثل، فقلت لها، لكنّه علمٌ رصين وجديّ كلّ الجدية مضيفًا أنّني كنت أوزّع وقتي بين المكتب والأسفار للدراسة، كما يفعل كلّ عالم حديث العهد في المهنة، وأنّني موظّف، على غرار كلّ عالم فرنسيّ صالح- فأسرّت لي أنّها ترتعب من الحشرات وأنّها تسبّب لها الخوف، هذا الخوف المجافي للحقيقة أو للواقع، كالكثير من الناس، قلت، الكثير من الناس يخافون من الحشرات لأنّهم لا يعرفون عنها إلا القليل، كان بإمكاني أن أحدّثها عن العصويّة النائمة التي تشبه غصن الشجرة الذي تعيش عليه وتنتظر سنوات قبل أن تتحرّك، أو عن مغمدات الأجنحة التي يجب الاستدلال عليها عندما تكون يراقة قبل أن تطير ويصبح من الصعب جدًّا الإمساك بها، وعن خنافس الروث الحاملة كرات الزبل، والذباب الصغير الطنّان، والذباب الكبير الأزرق الحائم فوق الجثث، والنمل الطائر أو الزاحف، أو عن جيش الصراصير

المتغلغل في العالم اللامرئي لمكتبي، لكنّي صمتت، والآن في هذا القطار الذي يجتاز عرض بارما انتهى أمر الحشرات لكن بقيت ارتكاسات الاختصاصي، بقي تكتّم المراقب المحترف، رجل المخابرات، ملحق الدفاع، فابر[1] الظلّ الذي كان يهوى حمل مصيدته وعدسته المكبّرة، لا حاجة لك لتفحّص وجوه مرافقيك في السفر، ولا لملاحظة بقعة النبيذ على قميص همنغواي هاوي الكلمات المتقاطعة أو الهيئة المستسلمة الخاضعة لرفيقته الشابّة، أنا مستعجل للوصول، متحرّق للوصول الآن وأنا أفكّر بساشا، هي لا تنتظرني حقًّا ثم ماذا يسعني أن أقول لها وأنا لا أزال دبقًا من الليلة الماضية، أرتجف جرّاء الكحول التي احتسيتها، محمومًا قليلاً، مساء البارحة يعودني غامرًا إيّاي بمشاعر العار كموجة عاتية، الباب مقفل على المجهول على الإله هاديس ملتهم المحاربين وحياتي بين هلالين في قطار يقودني إلى روما، إلى نظرة ساشكا الصافية- ستنظر إليّ بغرابة لدى رؤيتي، لدى رؤيتي في هذه الحالة شفّافًا مشرّعًا على أسراري بفعل الكحول والليل، ولقاءات الليل، البارحة عندما خرجت للمرّة الأخيرة من جادة مورتييه تسكّعت من حانة لحانة في مونمارتر حتى صرت في آخر الأمر متعتعًا من السكر أثيريًّا ككاهن كعرّافٍ، رائيًا نهاية العالم، وكلّ ما يستتبع ذلك، اللقاءات وأسباب التردّد والحروب وازدياد حرارة الكوكب والبرد الأكثر برودة والحرّ الأشدّ حرارة والإسبان الهاربون من الصحراء ليلجؤوا إلى دونكيرك وأشجار النخيل في ستراسبورغ لكنّ الطقس متجلّد الآن، تمطر في الخارج، كانت جبال الألب تفيض ثلجًا هذا الصباح لم أرَ تقريبًا شيئًا نمت

(1) Jean Henri Fabre: فابر، عالم حشرات فرنسي تُوفّي عام 1915، مؤلّف مذكّرات لافتة عن علم الحشرات طارت شهرته بين أوساط الشعب.

مخدّرًا على إيقاع القطار منذ محطّة ليون بعد ساعتين من النوم كان الاستيقاظ مرعبًا، تناولت حبّة أسبيرين ونصف حبّة أنفيتامين لجعل السفر أكثر إيلامًا- لكنّي كنت أجهل أنّني سأتأخّر على موعد الطائرة، وأنّني سأهرول لأستطيع اللحاق بالقطار المنطلق عند الساعة التاسعة، عند موعد انطلاقه بالضبط ودون بطاقة، لا بدّ أنّ لهاثي روّع مدقّق البطاقات، دومًا أجد الرحيل صعبًا، بعد الرفسة التي وجّهتها لي مريان منذ عشر سنوات ثمّة نوع آخر من الألم في الخصيتين اليوم، الشعور بالعار يجعلني أرتجف، أغمض أجفاني بقوّة لأسحق دمعة غضب وأسى على مساء البارحة، في تلك الليلة حصل اللقاء العبثي بين الكحول والمخدّرات والشهوة في بار la pomponette في شارع لوبيك، البار الوحيد المفتوح في الحي حتى الرابعة، البارحة، ما عدا روّاد المكان المألوفين، كانت هنالك امرأة في الستين من عمرها نحيلة جدًّا طويلة الوجه ما الذي دهاني، كانت متفاجئة جدًّا من اهتمامي بها، مرتابة، أقحمت نفسي في وحدتها بطريقة جبانة، ابتسمت وتساءلت هل أنا صادق النيّة أم أنّني أهزأ بها، وكنت أشتهيها، كانت تُدعى فرانسواز، وتسرف في احتساء الشراب هي أيضًا، لا أعرف لماذا تقرّبت منها، أفضّل عدم التفكير بالأمر، بصفتي اختصاصي حشرات ليليّ، نخست هذه الحشرة، كنت أستطيع أن أقول لها سأنخسك بعنف لو أنّني فكّرت بشيء من هذا القبيل لكنّي قبّلتها فقط بدافع المكر في الواقع أو على سبيل التحدّي أو الابتهاج لأنّها آخر سهرة باريسيّة لي، كان لسانها سميكًا جدًّا ومرًّا كانت تشرب La suze[1]، أشيح بنظري عن النافذة وأراقب مرافقة همنغواي هاوي الكلمات المتقاطعة

(1) La suze: مَشروب كحوليّ مرّ مستخرج من نبات الجنطيانية.

التي اعتراها وهن أنيق في الملامح، أسندت رأسها إلى كتف الرجل شعرها مُسدل الآن ويغطي قليلاً مجلّة الكلمات المتقاطعة- فرانسواز لم تتحدّث عن النخس كانت تقول أودّ فعلاً أن «تتخلّلني»، لأنّني أرغب في ذلك، اعتقدتها تورية، وهذا ما حدث، «مجرّد حراثة» ولا شيء أكثر، حملقت عيناها في الفراغ مثل عمياء، أصبحت تجاعيدها أثلامًا في العتمة الخفيفة، في النور الضئيل المنبعث من الشارع، كانت ترغب في البقاء في الظلمة، في الطابق الأرضي مقصورة قديمة للناطور شارع ماركاديه كان إيلاج دون تمهيد انطلقَت بعده سريعًا إلى غرفة الحمّام دون أن تنبس بكلمة ولا أن تلتفت حتى، وحين صحوت من خبل الانتعاظ فهمت أنّها لن تخرج قبل رحيلي، وأنّها كانت تشعر بالخزي مثلي بعد أن أشبعت شهوتي، ارتديت ثيابي من جديد بدقيقة واحدة وصفقت الباب خلفي ثم خرجت لأتنشّق الهواء الطلق تحت المطر الذي لم يكف عن الهطول، كنت كلبًا مبللاً يحمل زائدة ذيليّة ملتصقة بالبنطال، الليل كثيف، عدت إلى طاولة الشرب يملؤني الشعور بالعار البهيميّ والقذر، فأردت طرده بكأس شراب أخرى، مفتّشًا عن نقودي جرحت قليلا أنملة سبابتي بغلاف الواقي الذي وضعته بطريقة آليّة في جيبي والآن بعد خمس عشرة ساعة لا يزال هنالك جرح عمودي على اصبعي أسحقه على الزجاج البارد: أندم لا أعرف لماذا يساورني هذا الشعور بالندم، أندم على أشياء كثيرة في الحياة، على ذكريات تعودني أحيانًا حارقة ويعودني الإحساس بالذنب والتحسّر والعار وهو تبعة الثقافة الغربيّة، لو أنّني أدركت الطائرة لكنت في روما منذ ساعات تقريبًا، أتقلّب مرّةً أخرى على مقعدي ورأسي إلى اليمين نحو الفراغ الكبير في الخارج، قهقرى، أذهب قهقرى ظهري عكس الاتّجاه ظهري عكس التاريخ الذاهب في اتّجاه المسير، التاريخ

يقود مباشرة إلى الفاتيكان، وبمعيّتي حقيبة مليئة بالأسماء والأسرار: سأذهب للقاء شاسكا في روما، وهرّتها السمينة، سأستعيد شقّتها وشعرها القصير بين يديّ وهذا الصمت الغريب الذي يرين بيننا، لكأنّني أستطيع أن أمحو بغفلتها ثقل الندامات، والنساء، والحشرات، والآثار، والحرب، ولاهاي، وأشباح ملفّاتي في مكتب الاستخبارات، الجزائر أوّلاً، والشرق الأوسط تاليًا، وحديثًا كنت أحلم بتعييني في أميركا الجنوبيّة لكي أغيّر الهواء الفاسد، والأسماء واللغات، ذاك هو ربّما سبب هذا السفر، السفر في الفونيمات الجديدة كأنّني أنتقل إلى عالم جديد، بعيدًا عن لغة أبي ولغة أمي، إلى لغة ثالثة، مختلفة، وعلى إيقاع هذا القطار الأحادي الرتيب، ينكتب مصيري من جديد لأولد ثانية عند نزولي منه- المسافر المتعب يختلق ألعابًا بلهاء، وذكريات، وأحلامًا وصداقات لتمضية الوقت لأنّ المنظر بات محجوبًا تمامًا في الليل، غير قادر على النوم، أستعيد رغمًا عنّي صور رهبان بتحرين، وجوههم المقطوعة عن أجسادهم ولديّ منها نسخة في ملفيّ وقد خلّدتهم السفارة الجزائريّة، الصدمة الأولى في حياتي الجديدة كعميل استخبارات أعادتني دفعة واحدة إلى الجراح والمجازر وأعمال الانتقام وغضب الانتقام البارد، إلى الرؤوس الشاحبة المسودّة، كنت أدخل رحاب منطقة الأرض الجزائريّة التي كانت تغلّ أعضاء وجثثًا أكثر مما تغلّ البوسنة، وبدأت القائمة الطويلة المسجلّة بعناية تكبر، سيدي موسى، بن طلحة، غليزان، الواحدة تلو الأخرى، قصص الفؤوس والسكاكين في العتمة أم في ألسنة النيران متشابهة جميعًا وسيناريوهاتها أيضًا على مسافة مئات الأمتار من مركز للجيش الجزائري اقتحمت عصابة إرهابيّين الحي وبدأت المجزرة بشكل فظيع مودية بالساكنين من النساء والرجال

والرجال والنساء والأطفال والمواليد الجدد ذبحوا وبقروا ومُزّقت أجسادهم بالرصاص وأوقفوا إلى الجدران وشُجّت رؤوسهم وانتزعت المجوهرات من الأصابع والأرساغ واقتيدت العذارى الجميلات إلى الجبال كغنائم حرب ودنّست الأعراض تلبية لشهوة المنتصرين الذين لا أعداء يتصدّون لهم في الليل والمقاتلون يقتلون ويقتلون ويمعنون في القتل، يقتلون سكّان الضواحي أو المزارعين الأكثر فقرًا منهم، لم يكن هناك شيء في ملاحظاتنا وتقاريرنا، لا شيء عدا أنهار الدم المسفوكة لسبب غامض وأسماء القرى وأمراء الأدغال الذين مسّهم غضب آريس المسعور، والملتحون ذوو الخطابات المستعصية على الفهم، كانوا يتحدّثون عن الشيطان وعن الله وانتقام الله من كل هؤلاء المزارعين هؤلاء الجزائريّين الذي كانوا كفرة ويستحقّون الموت، كان المترجمون ينقلون إلى الفرنسيّة الكرّاسات والتصريحات الداعية إلى الجهاد واللعنات والشتائم التي ينزلونها بالغرب والجيش والحكومة والمزارعين والنساء والكحول والماشية والحياة والله نفسه الذي نبذوه في آخر المطاف لأنّه رحوم جدًّا في نظرهم، كانوا يقدّسون سيوفهم وبندقيّتهم وزعيمهم وعندما لا يقتتلون فيما بينهم يذهبون مبتهجين للقتل والسلب والنهب تحت ظلام الليل، على مرأى منّي كموظّف، لماذا لا يتمّ تزويد الجيش الجزائري بمناظير للرؤية الليليّة، كان هذا هو عذرهم الوحيد للحؤول دون تدخّل أحد لردعهم عن هذه الانتهاكات، كانوا عميانًا، الليل كان الليل وهو ستار المحاربين وكنت أعرف أنا نفسي أكثر من أيّ انسان آخر كم هو مرعب القتال في الظلام، وسط المدنيّين بين البيوت لم يكن باستطاعة الجيش القيام بأيّ شيء- لكن الرعب وإن كانوا لا يثيرونه فهو يلائمهم، والاضطرابات تصبّ في مصلحتهم، ولم يكن لأوروبا من خيار آخر إلا دعم نظامهم

المحتضر في مواجهة البربريّة والأصوليّة لحماية البترول والمناجم والقرويّين والعمّال والعلمانيّين والكفّار والليبراليين والمنطقة والتونسيّيين والمغاربة الذين كان وضعهم مقلقًا، لا بدّ من الصمود، الطرواديّون إلى جانب السور يوشكون أن يغزوا المعسكر ويدفعونا إلى البحر في سفننا المقعّرة، الإسلاميّون كانوا العدو المشترك وهذا قبل 2001، قبل **التفاهم الكبير** الذي سيجعلنا نتبادل إرهابيين بوفرة، **والتطهير الكبير**، كان المشبوهون والناشطون على اختلاف فئاتهم وتيّاراتهم يُرسلون إلى غوانتانامو، أو يقذفون من الطائرات في المحيط الهندي، أو يعذّبون في الأقبية الباكستانيّة أو المصريّة، قوائم وقوائم، تزداد اتّساعًا حتى رُميت «تفّاحة الشقاق» العراقيّة، استغرق سقوط طروادة عشر سنوات، وفي مكتبي المحروس بدأت وظيفتي بإحصاء الضحايا، كمثل ذلك الذي يصبح حَكَمًا بعد أن كان ملاكمًا، لم يعد يلمس بنفسه الوجوه المتفجّرة تحت وقع اللكمات، بل يعدّ الضربات، كنت أعلن عن هزيمة الجزائر عدّة مرّات بالضربة القاضية، وأرفع ذراع المتنصرين في تقاريري اللامتناهية: وليبيان رئيسي يهنّئني بلا انقطاع ويقول لي نركن إلى ما تقوله نتخيّل أنفسنا هناك، أنت المراسل رقم واحد بلا منازع، لكن ألا يمكنك أن تجعل أسلوبك أكثر تجرّدًا وجفافًا، وتدخل في صميم الموضوع، تخيّل، لو أنّ الجميع يفعلون مثلك لاحترنا في أمرنا وما عدنا نميّز الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ولكن عافاك يا عزيزي، عافاك - مسكين ليبيان، كان يصاب دومًا بانتكاسات صحيّة، لا تتّسم بالخطورة مطوّلاً، ولكنّها مزعجة، من شرى وطفح جلدي وثعلبة وفطريات من كلّ الأنواع، كان شخصًا ودودًا بالنسبة لي يتكلّم معي بصيغة الجمع، لا أعرف شيئًا عنه، سوى أنّه كان من مدينة ليل كما لا يدلّ اسمه على ذلك (فيما لو كان ذلك اسمه

الحقيقي) وأنّه كان يضع في اصبعه خاتمًا- كان متخصّصًا في جبهة الخلاص الإسلاميّة وفي الجماعة الإسلاميّة المسلّحة وفي كلّ أنواع الجماعات المتطرّفة التي كانت أسماؤها وأسماء أعضائها مبعثرة لسنوات طوال في أربعة أقطار الكوكب، وأحيانًا واردة بكتابة مختلفة أو بلقب، وأحيانًا أخرى في قوائم «المتوّفين المفترضين» وهذا بسبب مشاكل الترجمة من العربيّة، ثمّة أشخاص في قوائمنا يملكون ثلاث أو أربع بطاقات ويجدر جمعها، بعضهم ماتوا ثلاث مرّات متتالية في ثلاثة أمكنة مختلفة والعثور على رجل ما لم يكن سهلاً دومًا، إن لم يكن ذلك هدفنا الأساسي، وكما أشار ليبيان موجّهًا إليّ ملاحظته بلطف، فالأخطار التي تهدّد الأمن الداخلي من شأن جهاز المراقبة الإقليمي، ورجال الشرطة لم يتورّعوا عن وضع العصي في الدواليب أمام مسيرتنا ما أن يقدروا على ذلك، لاقتناعهم أنّنا نحذو حذوهم، الأمر الذي كان صحيحًا- ضمن المعمعة غير المعقولة التي أثارتها مذبحة رهبان بتحرين راح كلّ منا يستأثر بتغطية الحدث وكأنه هو المعنيّ به مباشرة، فدائرة الشؤون الخارجيّة وشعبة الاستخبارات والجميع، أقول الجميع، إذا مرّ ضابط جزائري بفرنسا سرًّا، أو إسلاميّ يطلب حق اللجوء السياسي وعلم أعضاء الجهاز الإقليمي بأمره، كانوا يحتفظون بالمعلومات لأنفسهم، ويقطّرون لنا المعلومات التي تفيدنا تقطيرًا مثلما نفعل نحن تقريبًا بالمعلومات التي يستحصل عليها المركز، هؤلاء الدبلوماسيّون المزيّفون المنزوون، المحتبسون داخل سفاراتهم والذين يتمثّل احتكاكهم الوحيد بالخارج بـ «مخبريهم» الوازنين ذهبت ذات مرّة إلى الجزائر بجواز سفر مزيّف واسم مستعار، لمدّة ثمانين وأربعين ساعة بالضبط لألتقي الشخصين اللذين كانا يعملان لحسابنا هناك وعسكريًّا من أهل البلد نسيت اسمه، كانت الجزائر البيضاء رماديّة، مائتة مع

مغيب الشمس، تغصّ بالعاطلين عن العمل وبالغبار، هنا أمضى سرفانتس الناجي من معركة ليبانت خمس سنوات في الأسر يبحث عن وسيلة للهرب مماثلة لخطط الإسلاميّين في السجون الحكوميّة، كنّا على موعد مع«المخبر» في دارة رائعة على مرتفعات المدينة، وكان من المفترض أن أستأجرها، دارة هائلة الاتّساع ومفروشة، وفيها بركة للسباحة، وهي ملك لأحد التجّار الذين لجؤوا إلى نيس، كان الاتّصال بالمخبر مختصرًا، أذكر سيماءه المدّعية، المشوبة بالاحتقار، والخوف الهائل الذي يبين في صوته: كانت الصفقة واضحة، يريد الذهاب إلى باريس، والحصول على بطاقة إقامة والمال لقاء معلومات حسّاسة، وكان الجميع يحلمون بالشيء نفسه، ويظنّون أنّهم يُشرون بسعر باهظ فيما لم يكونوا يعلمون أنّه بالنسبة لنا كان السعر بخسًا، فأيّ مهندس في الصيدلة أو التقانة الإحيائيّة يساوي عشرًا أو خمس عشرة مرّة أكثر منهم، العالم الثالث يبقى العالم الثالث حتى في المساومات الأكثر تخصّصًا وغالبًا ما كان أجر هؤلاء الكفاف الذي يبقيهم على قيد الحياة، حتى أنا نفسي عندما أمعن بالتفكير في المسألة أرى أنّه كان بإمكاني أن أحصل على راتب أعلى، من يدري لو أنّي عرضت وثائقي في مكان آخر، إنّه سرّ المهنة، البائع هو الذي يحدّد السعر، كان بإمكاني أن أضيف إلى بنود الصفقة تكاليف الإقامة في فندق البلازا وذخيرة من الصليب الحقيقي، لو فعلت لكانوا قبلوا فما أهميّة قليل من المال في نظر الأبديّة -سرفانتس افتدته أخويّة دينيّة بخمسمائة اسكودة[1] فيما كان على وشك ترحيله إلى استانبول، وفي عام 1996 كانت الجزائر البيضاء تنبعث منها رائحة العرق والدواليب المحترقة والزيت المقلي والكمّون،

---

(1) وحدة نقدية برتغالية.

تحدّثت عن أمكنة ومشاهد في مذكّراتي وعن وجوه، وعن عطور في تقاريري، والخوف، الخوف المتعفّن الذي ذكّرتني روائحه بروائح موستار وفيتاز، كان الإسلاميّون يخافون من الجيش والجيش يخاف من الإسلاميّين، والمدنيّون يخافون خوفًا مميتًا من الجميع، محاصرين بين سيف الإيمان الحنيف وعجلات الدبابات التابعة لطغاة النظام، الجزائر البيضاء حيث خدم والدي بين 1958 و1960، أراني أتبادل معه انطباعات وذكريات- منتهكًا بالطبع كلّ قوانين الأمن حدّثته عن سفري، كان متفاجئًا، بالعمر الذي يركض ركضًا، قال، منذ رجوعي إلى كرواتيا كان ينظر إليّ نظرات مرتابة متعمّدًا دومًا التحديق إلى عينيّ باحثًا فيهما ربّما عن آثار تركتها الحرب على وجهي، لم أكن أفهم السبب آنذاك، لاحقًا فهمت، آنذاك رحت أتعلّم تدريجيًا التمييز بين الأحزاب والأمراء أو الفصائل والجماعات، كان هناك الكثير من الأمور التي يفترض بي أن أعمل عليها، كما يقال، لكي أهيّء نفسي لمواجهة **منطقتي** فأتعمّق في مسائلها دون أن أنتبه، والآن صرت خبيرًا، متخصّصًا بالجنون السياسي-الديني وهو مرض متفشٍّ باطّراد وممتدّ كما يمتدّ الفطر أو البثور على جسم ليبيان رئيسي آنذاك، لم يعد هناك بلد لا يملك إرهابيّيه العتيدين، ومتطرّفيه وسلفيّيه وجهادييه من كلّ جنس وبارما التي تفرّ مني في الليل بنبالتها النابوليونية تسبّب لي ألمًا في الرأس، أو ربّما كان ذلك الخوف، الخوف المهول من الظلمة والألم

الفصل السابع

كلّ شيء، يزداد صعوبة عند بلوغ الرجل سنّ الرشد، يعيش محتبسًا في ذاته، في تصادم داخلي بائسًا مفعمًا بالذكريات، لم أقم بهذه الرحلة عبثًا، لم أتقوقع في هذه الكنبة لأجل لا شيء، أريد أن أنقذ شيئًا ما، أريد أن أنقذ نفسي رغمًا عن العالم الذي يتقدّم معاندًا لكن بشقّ النفس، بسرعة شاحنة بمحرّك يقودها سائق أكتع، مثل قطار أعمى يسير ليلاً في نفق يزداد سواده كثافة، لا بدّ أنّني غفوت لبرهة، لو أنّ لديّ ساعة، معي هاتف فقط، وهو في سترتي المعلّقة إلى المشجب، لكن إذا حملته فسأقع في التجربة، وأعمد إلى التحقّق ما إذا كان أحدهم قد بعث لي برسالة فأردّ عليه بأخرى، لديّ دومًا هذا الشغف بالبرقيّات، أرسل الإشارات عبر الأثير وكأنّها علائم دخان أرسلها تائهون أو إيماءات لا طائل منها، أشبه بأذرع وأيدٍ ممدودة باتّجاه العدم، لمن بإمكاني أن أبعث برسالة، من هذا الهاتف المزوّد ببطاقة الذي أرسلت أحد المتشرّدين لكي يشتريه لي وأنقدته عمولة لا بأس بها، لحسن الحظّ كان يملك في حوزته بطاقة هويّة ولم يكن مظهره مزريًا تمامًا، لذا لم يكن البائع متصلّبا في موقفه، تركت شقّتي وأبقيت بعض الأغراض عند أمّي، بعثت بكتبي كما هي بلا توضيب إلى أحد تجّار الكتب في باب كلينيانكور محتفظًا بثلاثة أو أربعة كتب منها،

بالطبع عثرت وأنا أوضّب أغراضي، على الصور، رأيت من جديد أندريا في بزّته العسكريّة الفضفاضة، مريان في البندقيّة، ساشا بعمر العشرين في لينينغراد، معتقل ريزييرا في ترييستا، ذقن غلوبوتسنيك المربّعة، شاربي جيربنز، أخذتها كلّها وأستطيع القول إنّ كلّ ما أملك موجود فوقي في حقيبة صغيرة نسبيًّا، بالإضافة إلى الصندوق الصغير العائد إلى الفاتيكان والذي أفكّر في تسليمه لدى وصولي إلى روما، ثمَّ سأمضي هذا المساء في غرفتي في فندق بلازا فيا دل كورسو وسأشرب في بار الفندق حتى موعد إقفاله وغدًا صباحًا سأستحمّ وأشتري بذلة جديدة وأكون رجلاً آخر وسأتّصل بساشكا أو سأذهب مباشرة إليها دون اتّصال وأقرع على الباب والله أعلم ماذا سيحصل، زوس سيقرّر المصير الملائم لي والمورات سينشطن لأجلي في قبوهنّ وليحدث ما يحدث، سنرى ما إذا كانت الحرب ستحتجزني من جديد، أو ما إذا كنت سأعيش حتى سنّ الشيخوخة وأرى أولادي يكبرون وكذلك أولاد أولادي، معزولا في إحدى الجزر أو في شقّة من الضواحي ولديَّ ما يكفل لي العيش، لديّ ما يكفي لأروي، على مثال إدواردو روسا، حياتي وأؤلّف كتبًا وسيناريوهات أفلام عن سيرتي الذاتيّة - كان روسا، المولود في سانتا كروز لا سييرا في بوليفيا من أب يهودي شيوعي مقاوم من بودابست، مراسلاً خاصًّا لجريدة إسبانيّة تصدر في زغرب قبل أن يصبح قائدًا في الجيش الكرواتي، التقيته مرّة أو مرّتين على الجبهة ولاحقًا في العراق، كان مفتونًا بتشي غيفارا وبالحرب التي تكوّنت على أثرها فرقتنا العالميّة، وهي كناية عن جماعة من المتطوّعين الذين كانوا يتحدّثون الإنكليزيّة فيما بينهم، وكلّهم هبّوا للمساعدة مثلي عقب الصور الأولى التي عمّمت وأظهرت الجنون اليوغوسلافي، وصل إدواردو قبلي بشهر، ألقى رحاله

في كرواتيا في آب 1991 إبّان اشتعال الحرب في أوسييك وحصول المواجهات الأولى، وافدًا من ألبانيا وقبل ذلك من بودابست وقبلها من روسيا حيث تمّ تدريبه على التجسّس وحرب العصابات والأدب المقارن والفلسفة، كان شاعرًا - وينكبّ حاليًا على تأليف الكتب ونظم الاشعار وتمثيل قصّة حياته بالذات في الأفلام، لو أنّ تشي غيفارا لم يأخذ خيار أخيل، لو أنّهم أبقوه على قيد الحياة لانتهى مثله ولأصبح هو أيضًا، بعد إلقاء السلاح والانصراف إلى الحياة العاديّة - ممثّلاً، فلديه وجه نجم سينمائي كان إدواردو روسا مثل همنغواي يكتب بسرعة، أتخيّله في ليل آب على شرفة فندق أنتركونتيننتال في زغرب حيث كان يقيم كلّ الصحافيين الأجانب، كانت جريدة **فانغوارديا** في برشلونه تنتقده على تركيزه على وصف المعارك وعدم الخوض عميقًا في السياسة، كان يحتسي كوؤسًا صغيرة راويًا المعارك الأولى للدبّابات اليوغوسلافيّة في مواجهة الكرواتيّين العُزّل، تحوّلت غرفته في الفندق إلى متحف حرب حقيقيّ، شظايا القذائف والذخائر وأعقاب الصواريخ والخرائط وبقايا شتّى، إدواردو شخص غريب مثاليّ مقاتل ارتدّ إلى الإسلام بعد أن حارب لأجل الصليب الكاثوليكي، نائب رئيس الجالية المسلمة في هنغاريا، ناطق إعلاميّ سابق لدى أوّل حكومة عراقيّة حرّة، ينشد الناس القضايا الكبيرة، يريدون آلهة تلهمهم، وفي ذاك الشهر من آب اللهّاب عام 1991، أمام بركة السباحة في فندق الأنتركونتيننتال ركن سيارته الرينو المنخورة بالرصاص والقلم في يده يفكّر في السييرا البوليفيّة في الإشتراكيّة وتشي غيفارا وبزّته القديمة المثقوبة، لقد أطلق الصرب الرصاص عليه على طريق بلغراد الرئيسيّة، كان يحرّر مقالته مستعرضًا فيها الأحداث بالتسلسل، إنّها المرّة الأولى التي يتواجد فيها

تحت نيران القصف، تطاير الزجاج نصف المخفض إلى شظايا وانفتح المقعد بجانب السائق فجأة قاذفًا اسفنجه وسط الصفير والقرقعة المعدنيّة، نظرًا للسرعة والمسافة لم يسمع روسا دويّ الانفجارات، انحرف بالسيّارة وأطفأ المصابيح بشكل ارتكاسيّ متابعًا المسير على خطّ مستقيم أمامه يداه رطبتان ومشدودتان إلى المقود والعرق يرشح من عينيه إلى أن وصل إلى ضواحي زغرب، حتى الفندق، حتى الزميلين الأجنبيّين المصوّرين الفرنسيّين اللذين يتقاسمان معه الغرفة، شاهدا إدواردو يصل غارقًا في عرقه خارجًا عن طوره، هذان الصحافيّان في الخامسة والعشرين من عمريهما أتيا هما أيضًا إلى كرواتيا فأُطلق الرصاص عليهما وهرولا في الريف والدبّابات اليوغوسلافية تتعقّبهما، كان إدواردو بالنسبة لهما معلّمًا، ورجل خبرة ومراس وها هو يصل مرتجفًا ومتعرّقًا، لم يقل شيئًا، أخذ مفكّرته وذهب بهدوء ليتناول حتى السكر شراب الخوخ على حافة بركة السباحة ناظرًا إلى المراسلين الأميركيّين يضحكون في الماء من النكات التي يرويها لهم المصوّر في فريقهم، هنا بالذات اتّخذ القرار، مسّه زوس فاختار إدواردو تشي روسا المعسكر الذي سيحارب في صفوفه، في صباح اليوم التالي ذهب إلى أوسييك للقاء الضبّاط الكرواتيّين، وتجنّد ملتحقًا بصفوف الآخيّين والثورة والغضب يعتملان في نفسه إزاء الصرب: رآه الصحافيّون ذات يوم مرتديًا بذلة كاكيّة، متمنطقًا بندقيّته، ولدى وصولي في نهاية أيلول كان قد تخلّى عن الكتابة مكرّسًا حياته للحرب، وسيعود منها حاملاً وسامًا وميداليّة مواطن شرف من كرواتيا الجديدة، وبطلاً، وعرّابًا لعدد هائل من الأولاد، وسيكتب بنفسه مآثره ويلعب دوره بالذات في السينما- حين رأيته للمرّة الأولى لم يكن على الشاشة بل كان جالسًا في حفرة زحفت عبرها إلى

أوسييك، مرتعدًا خوفًا، محتارًا حيرة ممضّة، والقذائف تتساقط علينا وأمامنا الجيش اليوغوسلافي ودبّاباته ونخبة قوّاته، لم أكن أعرف أين يجدر بي الذهاب، اجتزت الخندق من جديد وأنفي مشبع بعطر الخريف، وبرائحة التربة العضويّة، حاولت الهرب، العودة إلى دياري، لقاء مريان في غرفة الخادمة ومداعبتها، ما عدت أسمع ولا أرى شيئًا يُذكر، رأيت أوّل جريح، أطلقت رصاصاتي الأولى صوب غابة صغيرة، لم تكن بذلة الحرس القومي إلا عبارة عن سترة صيد خفيفة تكاد لا تقي من البرد رحت أرتجف وأرتعش مثل شجرة في مهبّ الانفجارات وكان روسا جالسًا هناك وأنا أزحف على خطّ مستقيم باتّجاهه، نظر إليّ مبتسمًا، أزاح أستون سلاحي بقدمه بهدوء، أجلسني، قال لي شيئًا ما لم أعد أذكره وعندما بدأ جنودنا بإطلاق النار، دعمني لصق الحاجز بتربيتة من يده على ظهري وهو يحثّني على إطلاق النار أنا أيضًا، ثم اختفى، أتت أثينا تبعث في نفوس الفانين الشجاعة والحماسة في المعركة وأطلقتُ النار بهدوء، أفرغت رصاصاتي جيّدًا ثم قفزت خارج الخندق مع الآخرين، وقد تلاشى الخوف، وتطاير مع القذائف الموجّهة إلى العدو، وإلى المزرعة التي يتوجّب علينا احتلالها، بعيدًا عن زغرب، بعيدًا عن فندق الأنتركونتيننتال وبركة السباحة المسقوفة أمام مصطبته وغرفة السونا التي لم أرها قطّ، بعيدًا عن باريس، سيواصل تشي روسا مهمّته، سمعت اسمه عدّة مرّات خلال الحرب، وتحدّث الناس عن أعمال بطوليّة قام بها وقضايا أخرى أكثر غموضًا، عن مقتل صحافي سويسري اتّهم بالتجسّس لا أعرف لصالح أيّة جهّة، اعتقد بعضهم أنّه جاء ليتسّلل إلى فرقتنا: وجدوه مقتولاً خنقًا أثناء دوريّة قاموا بها، قبل عشرة أيّام من مصرع المصوّر البريطاني بول جنكز الذي أصابته رصاصة في رقبته فيما كان

يتحرّى عن موت المصوّر السابق، غالبًا ما يكون الأبطال مكلّلين بالظلمة، موسومين بهاديس ملتهم المحاربين الأعظم، إدواردو والآخرين على حدّ سواء، ولم يوفّر آنذاك الصحافيّين الذين كانوا يسقطون كالذباب، في كرواتيا على الأقلّ أو فيما بعد بالقرب من سارايفو المحاصرة، في البوسنة الوسطى، بين فيتاز وترافينيك، تنادر وجودهم، ما خلا بعض المراسلين لقناة الاتّحاد الكرواتي الديموقراطي، والحزب الكرواتي في البوسنة، الذين كانت لديهم العادة الغريبة بالخروج من المآزق كما يخرج الشياطين من علبة، معلنين ظهورهم في لحظة غير متوقّعة إطلاقًا بالإضافة إلى بعض المراسلين البريطانيّين الذين يحتمون بالمدرّعات البيضاء التابعة لجنود القوّات البريطانيّة المزعجين - هؤلاء المصوّرون والصحافيّون كانوا يقومون فعلاً بمهنة غريبة، أقرب لأن يكونوا جواسيس علنيّين، نمّامين محترفين في توجيه الرأي العام، والجماهير الغفيرة، كنّا نراهم على هذه الشاكلة، جواسيس مترفين يكرهوننا قدر ما يكرهنا جنود جلالة الملكة الذين أعيتهم البطالة عن العمل وكلّ ما يفعلونه هو الجلوس عند المدخل العلوي للسيّارات المدرّعة المطليّة بالأبيض ووضع أيديهم على جهاز التوجيه في مدافعهم من عيار 30 مللمتر، كانوا يدعونهم في كرواتيا ببائعي البوظة، ماذا عن الخدمات التي بوسعهم تقديمها، كانوا يجمعون جثث القتلى ويفاوضون بشأن وقف إطلاق النار لكي يذهبوا في مأذونيّة إلى سبليت، فيستحمّون، ويرقصون، ويشربون الويسكي ثم يعودون إلى ترافينيك كيما يحصوا عدد القذائف، عبر مناظيرهم أمام النوافذ أو يمارسوا الجوغينغ حول الستاد - إدواردو تشي روسا العميل السابق السرّي الصحافي السابق القائد السابق لإحدى المجموعات الأكثر تنظيمًا في سلافونيا الشرقيّة

الكاتب والشاعر ومؤلف السيناريو المرتدّ إلى الإسلام المناضل في سبيل العراق وفلسطين، أتُراه يفكّر مجدّدًا، في بيته القائم في ضواحي بودابست، بالتشيتنيك الذين صرعهم، بأوّل قتيلين صرعهما بالقنبلة في أحد الأهراءات على ضفّة نهر دارفا، هل يفكّر برفاقه الذين سقطوا كما سقط رفاقي، هل لا يزال يفكّر بالحرب، بكرواتيا هو الكاثوليكي لجهة أمّه، الشيوعي لجهة أبيه، القاتل بنعمة ربّه، هل يتذكّر المطر الجليدي لشتاء 1991 في ضواحي أوسييك، إدواردو الذي ترعرع وكبر في التشيلي حتى الانقلاب الذي أطاح بألليندي، المنفيّ إلى بودابست على متن طائرة شارتر محمّلة بـ الأجانب«الحمر» الذين لم يكن سائغًا إعدامهم بالرّصاص أو تعذيبهم من خلال خنقهم في الماء، إدواردو السائر عكس المسار الذي اتّخذته بدأ مخبرًا قبل أن يصبح صحافيًّا ثم تطوّع ليقاتل إلى جانب الكرواتيّين إلى جانبنا وعاد، مفعمًا حكمة وتعقلاً، ليعيش في هنغاريا بقيّة حياته، في كنف الشعر والسيناريوهات والكتب والمهمّات الغريبة، إضافة إلى كلّ ما أجهله عنه ولا شكّ، إدواردو تشي روسا الذي لم يعرفني عندما التقينا في بغداد على ضفاف نهر دجلة بعيد الاجتياح الأميركي، بين مطعم متواضع وبائع للفول السوداني إبّان الغبطة العابرة للنّصر، والديكتاتوريّة المندحرة، والعدالة المستعادة - لم تكن كنوز طروادة قد أخمد حريقها بعد، تصاعدت ألسنة النار من المخطوطات والتحف الفنيّة والشيوخ والأطفال حين سارع الحلفاء لتهنئة بعضهم بعضًا على ضفاف النهر من دون أن تُشغل بالهم الاعتداءات الأولى، وهي مؤشّرات كارثة مماثلة لكارثة العشرينيّات، لا بل وأسوأ، كان إدواردو يتنزّه برفقة بعض الشخصيّات الرسميّة على ضفاف دجلة الأبدية، كنت ألتهم عرنوس ذرة اشتريته من بائع متجوّل

برفقة موظّف في السفارة، التقيت لتوّي ساشكا ولم أكن راغبًا لا بالحرب ولا بالسلم ولا بالمنطقة ولا بتذكّر كرواتيا أو البوسنة بل أردت العودة إلى روما ولو لأربع وعشرين ساعة لأكون إلى جانبها، وها هو القائد روسا يمرّ دون أن يراني، مثل شبح، هل كنت أنا الشبح أم هو، بدأت منذ ذلك الحين أختفي وأتغلغل شيئًا فشيئًا في محتوى الحقيبة، في ساشكا التي تخيّلت أنّني التقيتها في أورشليم قبل ذلك بسنوات، في العراق كان الحرّ لا مثيل له، والبخار الرطيب يتصاعد من نهر دجلة المتثاقل والمحفوف بنبات القصب حيث تطفو على وجه الماء بين الحين والآخر جثث وجيف كما حصل على نهر السافا عام 1942، ولا يثير مرآها أيّ انفعال في الجنود الأميركيّين الذين يقومون بدوريّاتهم ويتنزّهون أشبه بسامر وتامر وسيماء السذاجة على وجوههم وهم ينظرون من حولهم إلى البلاد التي احتلّوها للتو ولا يعلمون ما هي الخطوات اللاحقة الواجب القيام بها، كانت العراق تنساق على غير هدى، لا يمكن التحكّم بها، كالقدس أو الجزائر، تتفكك كما تتفكك النيترونات داخل الذرّة الواحدة وتتسبب بالانفجار، الجوع والأمراض والجهل والموت والألم واليأس تُعيثُ فيها خرابًا، ولم تكن تفهم لماذا كانت الآلهة تنقضّ عليها بهذه الضراوة، وتدمّرها، وترجعها إلى اليمبس، إلى ما قبل التاريخ كما فعل المغول بها عام 1258، دمّرت مكاتبها ومتاحفها وجامعاتها ووزاراتها ومستشفياتها، وأتينا أنا وروسا المحاربين السابقين لتقاسم غنائمها ونقل رفاتها، بصفتنا اختصاصيّين في الهزائم، والنّصر، والنظام العالمي الجديد، وسلام الشجعان، وأسلحة الدمار الشامل التي كانت تسلّي الجنود كثيرًا، كانوا يربّتون على ظهور بعضهم البعض ويشربون بيرة بودويزر وكأنّهم يعلّقون على نادرة وردت على لسان أحد منهم، في البصرة كان

البريطانيّون مشابهين لأنفسهم في البوسنة، في منتهى اللياقة البدنيّة، محترفين، لا مبالين، ويفرغون شاحنات المساعدات الإنسانيّة كما رأيتهم يفعلون ذلك من قبل في ترافينيك، كما رآهم روسا يفعلون ذلك في أوسييك، لكن مع الفارق هذه المرّة أنّهم كانوا مخوّلين باستخدام أسلحتهم، وهذا ما لم يتخلّوا عنه: راحوا يصطادون البعثيّين القدامى كما يصطاد آخرون الأيّل أو الخنزير البريّ في منطقة الأردين، عاد الجنود الإنكليز إلى البصرة، إلى المكان الذي أقام فيه أجدادهم عام 1919، بعد الدردنيل، بعد الحجاز وسوريا، حطّ الجنود البريطانيّون رحالهم في بلاد النخيل والليمون الحامض المجفف، على ضفاف المستنقعات ومنعطفات شطّ العرب، وكانوا يأكلون حتى التخمة التمر والخراف المصادرة من الرعاة المحليّين متسائلين إلى متى ستستمرّ الحرب، لكنّها مستمرّة على الدوام منذ ما يقارب العصر بعد الرصاصة البلقانيّة التي أطلقها غافريلو برينسيب من مسدّسه، الأشبه بمسدّس الحكم في مباراة الركض الأفقي السريع حيث جميع المشاركين موجودون أصلاً، مصطفّون على خطّ الانطلاق، متأهبّون للانقضاض على عالم آريس ملتهم المحاربين الذي لا يرتوي، آملين أن يعودوا محمّلين بالغنائم ومكلّلين بتاج النّصر تشي روسا القائد المشنشل بميداليّات الحرب الوطنيّة الكرواتيّة العظيمة، فلاهو أو أنا المزيّنين بوسام الشكر والامتنان من أبناء الأمّة، أندريا بقبره الجميل من الرخام الأسود الخالي من جثمانه «إلى أخينا البطل»، أندريا، دون جثّته، لا عظام تحت حجر ضريحه، ما من دبّوس ذهبيّ معلّق على سترته، صار اسمًا وتعبيرًا على الشفاه وأخًا بطلاً، فكرّت به في بغداد المحتلّة المهانة الخاضعة المنهوبة وأنا ألتقي روسا هنغاريّ بوليفيا المرتدّ إلى الإسلام والمساعد الدولي لرئيس الجالية

المسلمة في بودابست، أو شيء ما من هذا القبيل، بعد أن كان مدافعًا عنيدًا عن الـ Opus dei[1]، هل كان مخبرًا لصالح الهنغاريّين أم الروس، أم الإنكليز، هل كنا لا نزال دومًا زميلين، زميلي الظلال - في ليل الحرب والمنطقة، والذكريات والأموات، كنا نسكن معًا دون أن نتقابل ونتقاسم الحياة نفسها، ونحن نلتقي على ضفّة دجلة هذا الستيكس[2] الآخر مثله مثل أنهار التيبر والأردن والنيل أو الدانوب، ككلّ هذه الأنهار القاتلة، دجلة المنزلق نحو البحر، يبدو للناظر وكأنّه جدول من البول على طوال جدار، الطرقات النهريّة تتقاطع كطرقات السكك الحديديّة وتنسج خيوط عنكبوتها حول الفراغ، وفي وسط النسيج الجوف البحري المجرّد والمتحرّك، الأسود كالحبر ليلاً الأخضر المائي نهارًا والأزرق الفولاذي فجرًا، تساءلت لماذا التحق إدواردو روسا بالكرواتيّين، لماذا هؤلاء المتطوّعون، لماذا هذه الفرقة العالميّة التي كان بإمكاني الإنتماء إليها، يروي في كتبه أنّه كان يحارب لتحقيق العدالة ومؤازرة الضعيف في مواجهة القوي، إلا أنّ الصرب كان لديهم هم أيضًا الانطباع بأنّهم يحاربون من أجل استعادة حقوقهم المسلوبة، هم أيضًا كانوا يدافعون عن أرضهم، أرضهم التي شيّدوا عليها منازلهم والقبور التي تحتضن رفات موتاهم، وقد جاء أيضًا متطوّعون لمساعدتهم، تمامًا كما ساعد روسا وأنصاره الكرواتيّين وكما ساند المجاهدون البوسنيّين، كان الجميع يحاربون من أجل قضيّة عادلة، إنّها حرب العادل ضد الظالم، ما خلا رفاق روسا الذين لم يكونوا مسيّسين تقريبًا، كان هنالك في كرواتيا جماعة

---

(1) أو عمل الرب، جمعيّة دينيّة أسّسها كاهن إسباني عام 1928 Opus die.

(2) ستيكس: أحد أنهار الجحيم في الميتولوجيا الإغريقيّة.

من المحاربين الأجانب في صفوف قوّات الدفاع عن كرواتيا، وهم يمثّلون اليمين الكرواتي المتطرّف، جماعة من الفاشيّين الجدد الذين كانوا يحفظون عن ظهر قلب الأغاني الأوستاشيّة، وكانوا فرنسيّين في معظمهم، أعرف بعضهم من وجوههم، لمحتهم خلال مؤتمر في باريس، هذه الدنيا صغيرة، رأيتهم من جديد مسلّحين في ضواحي أوكوتساني ثم التقيتهم في زغرب، كانوا جنودًا سعداء ومعدمين، سعداء لوجودهم هنا- كما يقول لوبان الأعور القوميّ المزاحم العيان لميلان أستراي **التجربة العسكرية مفيدة دومًا للأحداث**، وقد كانت له تجربته في الجزائر، كانت شبكات التضامن العالمي ترسل المجنّدين لكي يطلوا وجوههم بالأخضر ويتعلّموا اللغة عبر أغاني الأربعينيّات القديمة، كان بإمكاني أن أكون منهم، بإمكاني أن أكون منهم هذا أكيد لو أنني لم أنحُ ناحية منفذ آخر، في الواقع كنّا جميعًا متطوّعين بمن فينا فلاهو الذي فرّ من الجيش اليوغوسلافي إبّان خدمته العسكريّة التي تبعد مسافة سبعمائة كيلومتر من منزله لكي يلتحق بصفوف الحرس الوطني، بالقرب من أوسييك، وظلّ فلاهو الدلماتي، يعمل معنا بالرغم من البرد والمطر الذي كان يجلّد عظامه، ومع ذلك ما شاء الله كم كان سمينًا لدى وصوله، عذبًا ومضحكًا بوجهه المستدير كالقمر، الملائكي، كان فلاهو متطوّعًا مثل أندي مثلي مثل فرنسيّي قوّات الدّفاع عن كرواتيا، مثل إدواردو روسا، وأورويل خلال حرب إسبانيا، مثل ساندرار في شامبانيا عام 1914، مثل الأخ غير الشقيق لساشكا، كوليا، الذي حارب في صفوف الصرب، مجسّدًا التضامن السلافي الأرثوذكسي ضد السلاف الكاثوليك، ها هم الشيوعيّون السابقون في مواجهة الفاشيّين السابقين، أخبرتني ساشكا أنّها لم تره منذ أعوام، كوليا النحيل الزاهد العائد من أفغانستان

جال في روسيا التي ضاقت به في نهاية الثمانينيّات ثم ما لبث أن خاض مغامرته العسكريّة مع التشيتنيك، مرتديًا البيريه على جمجمته، مردّدًا ولا شك لحن «المسيرة السلافية» لتشايكوفسكي، أرى من جديد ساشكا ممدّدة على ديوانها الأزرق في حي ترانستيفير، عندما علمت أنّني كنت جنديًّا في كرواتيا هتفت، يا للمصادفة، أخي كان يحارب مع الصرب لقد شارك في الحرب، إنّ طرق السلافيّة تتلاقى على خطوط النّار، أين كان أخوك أسألها، ربّما لمحته، ربّما عاين أحدنا الآخر في الكلاشينكوف، ربّما قتل أحد رفاقي، ربّما رمتنا إحدى قذائفه في الوحل اللدن داخل حقول الذرة، رأسًا على عقب، أجابت باللغة الصربيّة: ***Konjechno***، لم تفهم، لم تفهم العينان الفاتحتان لساشكا الجالسة فوق ديوانها السؤال، لا تستطيع ساشكا تمثّل الحرب، لا تستطيع أن تفهم، أودّ أن أوضح لها، لكنّي أعرف أنّ الأمر لا طائل منه- في هذا الصبير[1] السلافي- اللاتيني الذي كنّا نحكيه، لم يكن هناك من مكان للفوارق الحربيّة الدقيقة، لدينا القليل من الكلمات المشتركة، كلمات سلافيّة قديمة وألفاظ إيطاليّة قريبة من الفرنسيّة، كلمات قليلة أعجز من أن توضح الدوافع التي حدت بالمتطوّعين الدوليّين سواء الروس أم الفرنسيّين أم العرب للمشاركة في الحرب، وهذا أفضل، أدرك أنّ عدم الدقّة هذه واستحالة الدخول في التفاصيل كانت لصالحنا، كلّ شيء بقي خارجًا عندما أذهب للقائها، الحرب والمنطقة، والحقيبة التي أملؤها، المعنى يمرّ عبر يدي ساشكا وشعرها ونظرتها الهائلة والمصادفات التي جمعتنا واحدنا بالآخر وطرقات سكك الماضي التي تلاقت، في أورشليم، في روما، كما تلاقت

(1) صبير: مزيج لغوي.

طرقنا أنا وإدواردو روسا، صنوي الهنغاري، المرتدّ إلى الشعر والسياسة الدوليّة، ماذا بإمكاني أن اشرح لها عن التزامي - الانطلاق للدفاع عن قضيّة نبيلة، قضيّة أجدادي الهابسبورغيّين الذين دافعوا عن فيينا في مواجهة الأتراك، قضيّة عائلة أمي، بورجوازية زغرب المتّصلة بالنمسا وإيطاليا، بكت أمّي حزنًا ونواحًا إبّان رحيلي، أعرف أنّها كانت تذهب كلّ يوم إلى الكنيسة لكي تصلّي لأجلي، وأبي من دون أن يوافق على الصلاة قدرها، كان يفكّر بحربه بالذات بالسنتين اللتين قضاهما في الجزائر، مسرورًا للغاية بأنّ حربي لها ما يبرّرها، كما كان يقول، حتى ولو كان هذا التبرير غامضًا في ذهنه بعض الشيء، لم يكن يعرف كرواتيا، ما خلا بضعة أقارب لزوجته، لكنّه كان يحترم الشغف بالوطن، هو نفسه قومّي متكتّم فرنسي كاثوليكي، مهندس لا يحدوه فضول كبير إزاء العالم ممحوّ قليلاً، ومع ذلك حنون ومتنبّه- أذكر القطار الكهربائي الهائل الذي بناه لنا، شبكة كاملة على لوحة من الخشب الهائلة، صنعه بصبر، صنع عشرات الأشجار، والطرقات، والتحويلات، والأضواء، والمحطّات والقرى، وجهاز المراقبة بفضل محوّلات التيار، ومقاييس الجهد المعقدّة التي كانت تنظّم سرعة القاطرات التي تتلاقى، أو تنتظر بعضها بعضًا وتضيء فوانيسها الحمراء في عتمة الميلاد، تائهة في الأنفاق تحت جبال من البلاستيك المغطّاة بالعشب الأخضر الداكن المخشوشن الذي تفوح منه رائحة الغراء الممتزجة برائحة الأوزون المنبعثة من كلّ هذه المحرّكات الكهربائيّة المشتعلة، من محطة الفرز إلى المزلقان، أمتار وأمتار من الأسلاك الحمراء والزرقاء العابرة على طول الخطوط المثبتة على اللوحة من أجل الإنارة العامّة، والحواجز، والمنازل، أذكر كان هناك أيضًا قطار للبضائع مع حافلة تسير على البخار،

وناقلة جند عسكريّة ألمانيّة رماديّة اللون، وحافلات للمسافرين الفرنسيّين، لسنوات طوال قبع القطار في قبو منزلنا في أورليان، وأضفنا طرقات وأشجارًا وزينة وقطارات إلى هذه المجموعة الرائعة على مقياس مصغّر، أتخيّل الثروة التي أنفقت شيئًا فشيئًا لصنع هذه المجموعة التي تهجع اليوم داخل الكراتين منذ انتقلنا إلى باريس، وضع التفكيك الأليم للتجهيزات حدًّا واضحًا لمرحلة الطفولة، ووداعًا للنماذج المصغّرة وأهلاً بالقطارات الحقيقيّة كهذا القطار، السائر في مكان ما بين بارما ورجيونل إميليا- إدواردو يروي في أحد مؤلّفاته عن غضب أبيه الشيوعي عندما علم أنّ ابنه كان يقاتل إلى جانب الكرواتيّين، والفاشيّين، أحفاد أوستاشيي دولة كرواتيا المستقلّة التي أنشئت عام 1941: في الحقيقة ما أكثرهم هؤلاء النازيّين الجدد، المتشبّثين بأسطورة الانتصار على الصرب، بأسطورة الدولة الكرواتيّة الوحيدة «المستقلّة»، التي شتّتها الشيوعيّون، كان لدينا جميعنا الإيمان، نشارك جميعًا في صنع التاريخ والبندقيّة في يدنا وأقدامنا في الجوارب المتّسخة وأنفاسنا مشحونة ونظراتنا مفاخرة بالله والوطن من أجل الثأر لأمواتنا ولأجل أطفالنا العتيدين لأجل الأرض لأجل أجدادنا المدفونين في الأرض، متصدّين للظلم الصربي، وكذلك لأجل رفاقنا لأجل اللذة ربّما وأيضًا لأجل طعم النحاس ولذّة الحرب والمجد والشرف والخطر والضحك والنفوذ وأجسادنا المسنونة وجراحنا، كان يستحيل عليَّ داخل الشقة الصغيرة في ترانستيفير أن أشرح كلّ ذلك لساشكا، تمامًا كما لا تقدر من ناحيتها أن تشرح لي مشاعر أخيها غير الشقيق التي كانت لا تهمّها، لم تره ثانية مذ غادرت بترسبورغ عام 1993، عندما عاد كوليا بالضبط من الحرب، كانت قد رحلت آنذاك وهربت إلى أورشليم، مدينة السلام

والنور والعنف الأبدي، حيث يحلو لي الاعتقاد أنّني التقيتها هناك فيما كانت ترسم أيقونات مزيّفة للسيّاح الأميركيّين بالقرب من بوّابة دمشق، وعلى كتفها ملاك، التقيتها هذا أكيد كما تلاقت رصاصاتي مع رصاصات أخيها غير الشقيق في ضواحي فوكوفار، كما تتلاقى القاطرات السائرة على خطّين منفصلين على لوحة أبي، كما التقيت بإدواردو روسا بعد عشر سنوات في بغداد دون أن يلحظني على ضفّة النهر- كذلك فإنّ آلاف الوثائق في الصندوق الصغير الذي يجول به القطار عبر الريف الايطالي هي أيضًا من هذا القبيل، إنّها خطوط متقاطعة، لقاءات بأناس في القاهرة أو في تريستا أو روما، كان الأمر بسيطًا توجّب عليّ فقط تفكيك الخيوط، اجتياز سكك الحديد بانتظار لقائهم في الليل، ليلي أنا بالذات الذي يقضم المناظر والمعامل التصنيعيّة الزراعيّة في منطقة البارمزان والنوي: نهض هاوي الكلمات المتقاطعة متّجهًا إلى المرحاض، جاري ينام بهدوء، القطار ساكن، يشخر أو يصفر لا أعرف، على هوى حركة القطار، أغمض عينيّ، أين عليّ الذهاب الآن، إلى بيروت الزرقاء للقاء الفلسطينيّين وانتصار في الكتيّب الصغير الذي بلون القشدة، ليس بعد، أو إلى العراق بلد الجوع والموت وبابل، أو ربّما إلى طروادة مع مريان، إلى دردنيل هوميروس، إلى ميقينية مدينة أغاممنون راعي المحاربين، التي تشرف على السهل ذي الأفراس الأصيلة الجميلة، بعيدًا عن الجبال والتلال بالقرب من هيسارليك، بعيدًا عن الحفر ومجاري السيول التي تكدّست فيها الجثث المتيبّسة للجنود الإنكليز والأوستراليّين عام 1915، استلزم إرسال الماء إليها عبر المراكب في أحواض معدنيّة هائلة، أشعر بالعطش فجأة، ربّما كان هاوي الكلمات المتقاطعة ذهب إلى البار وليس إلى المراحيض، من الدردنيل

إلى العراق، من طروادة إلى بابل، من أخيل إلى الإسكندر، معيدًا التفكير بهنريش شليمان مكتشف إيليون المحروسة، من ميقينية المزيّنة بالذهب، إلى آرثر إيفانز[1] فارس إمبراطورية جلالتها الذي تابع في سنّه التسعين مغامرته في كريت وكنوسوس[2] والغليون في فمه، مقتنعًا أنّه اكتشف المتاهة والمذبح حيث الثيران الجبّارة، أنا أيضًا عالم آثار بشكل من الأشكال، أحمل الريشة والفرشاة في يدي وأنقّب وأسبر أشياء مختفية ومدفونة لكي أستخرج منها جثثًا وهياكل عظميّة وأجزاء وفلذات قصص مكتوبة على لويحات مشفّرة، **اللويحات المينويّة خاصّتي** التي بدأت بالتنقيب عن هرمان جيربنز، مغتصب النساء العنيف الكحولي في غاردن سيتي، وتبعتها آلاف الأسماء لجلّادين وضحايا، المدوّنة بكل أمانة المرسومة مثل الخزفيّات المحترقة في طروادة السابعة المدينة الفاضلة المحروقة، وآلاف الأسماء المفهرسة، والمصنّفة دون أن أفهم سبب شغفي بها على غرار شليمان أو إيفانز، المندفعين قدمًا في أبحاث لامتناهية، الواقفين أمام حفرة التاريخ الكبيرة وأقدامهما في الفراغ، لدى وصولي إلى جادة مورتييه بعد أن جرى توظيفي خلافًا لما هو متوقّع بالرغم من ماضيّ الحربيّ وأصولي الغريبة، غارقًا في «منطقتي» الموحشة المسكونة بالأشباح والأطياف الحيّة أو الميّتة وسط الأرشيفات التي تحتوي على الأسرار اللامتناهية في هذه الأروقة المخمدة الطنين، هذه الأنفاق تحت البولفار، كلّ مساء كنت أجتاز

(1) آرثر ايفانز، برطاني، اكتشافاته التي انجزها في كنوسوس ابتداءً من 1900 كشفت الحضارة المينوية.

(2) كنوسوس: المدينة الرئسية في كريت القديمة، مسكن مينوس، ملك كريت الاسطوري ديّان الجحيم، مشهورة بالجداريات المرسومة.

باريس حتى الدائرة الثامنة عشرة وصولاً إلى شقّتي المؤلّفة من غرفتين ومطبخ، شقّة الموظّف الجديد، البالغة مساحتها ثلاثون مترًا مربّعًا من الفوضى في الطابق السادس، دون مصعد كما كان متوقّعًا، رأسي تحت ألواح توتياء السقف الباريسي، وكوعي على توتياء الحانة في الأسفل، كلّ صباح ومساء، قبل استقلال المترو وبعده، قهوة قبيل الذهاب، وبيرة مضغوطة عند الأياب، وشيئًا فشيئًا أصبح زبائن الحانة العائلة المجهولة لشيخ «القهوجيّة»، والجنود تحت إمرة الضابط بائع الجعة، جوجو ومومو وبيار وجيل والآخرين المجانين والأقل جنونًا، الكحوليّين والمتعفّفين، المتوحّدين وآباء العائلة، بعضهم كانوا كالصراصير، يستحيل استئصالهم، وآخرون يختفون بين ليلة وضحاها، وكان مومو وبيار وجيل وإخوتهم في الشراب يراهنون عندئذٍ على اختفاء جوجو، هل بسبب السرطان أم تشمّع الكبد، أو هذا الجرح الثاني للسكير بعد الأطبّاء، المرأة، الزوجة التي تمنعك من لعب جولة 421[1] واحتساء العنبري الخفيف، كان من البديهي لكلّ أعمدة المشرب هؤلاء أنّه لا يمكن للمرء أن يتخلّى عن حانة جيّدة عندما يعثر على إحداها، وكان أيضًا من غير الجائز في نظرهم التخلّي عن شقّة مريحة بخسة الثمن والذهاب للعيش في مساكن **جيش الخلاص**[2]، كان ميشال صاحب الحانة يطمئن رعاياه عن مصير هذا السكير أو ذاك، **التقيته في الحي، إنّه بخير**، - كان يكذب بالطبع لكي لا يلقي الذّعر في نفوس الرعيّة، أو بدافع الكرم فمار ميشال شفيع الحانة يخصّ روّاده من السكارى المتأصّلين بحنان كبير، وكان يرى في حانته ليس فقط حانوتًا

---

(1) لعبة في زهر النرد.

(2) منظمة بروتستاتينية تعنى بالإحسان.

للكسب التجاري بل جمعيّة للخلاص العام، وموئلاً للروابط الاجتماعيّة التي يقدّم خدماته لها طوعًا مشاركًا زبائنه بجرعة صغيرة من الويسكي من وقت لآخر، دافعًا بطيبة خاطر ثمن النوبة عندما يخسر في زهر النرد، كان يغدق على روّاد المكان حنانه ونصائحه ويزوّدهم بالنصائح العاطفيّة والمهنيّة والماليّة، على قياس حانة متواضعة في الجوار، حيث نادرًا ما كان الزبائن يحصلون على حساب مدين (**الدين ولىّ إلى غير رجعة، المتخلّفون عن الدفع أعلنوا وفاته**) وذلك على سبيل الحسّ التربوي والاخلاقي أكثر ممّا على سبيل الارتياب أو البخل، الحانة في الدائرة الثامنة عشرة، وهي حانة لا اسم لها، ودون أيّ شيء يميّزها لجهة الديكور أو مقاعد السكاي[1] البنيّة اللون، تشكّل جزءًا من حياتي، كلّ مساء أتناول فيها كأسًا أو كأسي بيرة على طاولة الشرب ثم أرتقي أدراج الطوابق الملمّعة جيدًا حتى شقّتي التي لا امرأة فيها ولا تلفزيون، وخلال ارتقائي لجبلي الأولمب الباريسي، أتحرّر شيئًا فشيئًا من أقذار عالم البولفار، والمنطقة، لكي أدخل إلى عالم أقذار أخرى - صوري عن معتقل الريزييرا دي سان سابا معلّقة على الجدار، وقربها بورتريه غلوبوتسينك[2] وبورتريه شتانغل[3] في أودينا، والآن صورة ساشكا في بترسبورغ، بدل صورة ستيفاني على البوسفور الموضوعة في إطار جميل، عثرت عليها في إحدى الخزائن ورميتها البارحة صباحًا في سلّة المهملات، فتكسّر الزجاج على الفور محدثًا دويًا عظيمًا، منذ سنوات كلّ مساء

---

(1) مادة صنعيّة مقلّدة للجلد.

(2) غلوبوتسنيك: أحد أطراف الحرب العالميّة الثانية، ولد في تريستا، نازي نمساوي.

(3) شتانغل: ضابط نازي نمساوي في الشرطة النازيّة.

الطقس نفسه: صعود الأدراج، إخراج المفتاح البرونزي الطويل، إدخاله في القفل العتيق، فتح الباب، تنشّق رائحة بقايا السجائر وأحيانًا رائحة سلّة المهملات أو الكحول، الاتّجاه إلى النافذة، فتح المصاريع والنظر لثوانٍ إلى السيّارات العابرة في الشارع، رمي الزجاجات الفارغة المبعثرة على الأرض ولملمة الثياب المتناثرة ثم أخذ كتاب والجلوس في الكنبة بصحبة كأس من النبيذ أو البيرة، حسب المزاج وحسب الظروف الماليّة - أمر غريب هذا الشغف بالقراءة، من مخلّفات أيّامي في البندقيّة، وتأثّري بمريان الملتهمة النهمة للكتب، كانت طريقة ما لأنسى نفسي وأحتجب تمامًا خلف الصفحات، وتدريجيًا استبدلت روايات المغامرات بالروايات بكلّ بساطة، والخطأ يقع على كونراد[1] ورواياته **نوسترومو**، **وقلب الظلمات**، العنوان يجرّ الآخر، وربّما من دون أن أفهم شيئًا أستسلم للصفحات، لتحملني على متنها الواحدة تلو الأخرى، مع أنّني أمضيت قسمًا من يومي بصفتي موظّفًا غامضًا في القراءة - قراءة المذكّرات، والتقارير، والبطاقات، على شاشتي المحروسة - لا شيء عندئذٍ أشتهيه كما أشتهي رواية حيث هناك فقط شخصيّات تمارس لعبة الأقنعة، وتنساق وراء شهواتها، وشيئًا فشيئًا أنسى نفسي، أنسى جسدي المستلقي على الكنبة، أنسى المبنى الذي أسكن فيه وباريس، والحياة نفسها، مقتفيًا أثر المقاطع، والحوارات، والمغامرات والعوالم الغريبة، هذا ما يتوجّب عليَّ فعله الآن، مواصلة قراءة قصّة رافائيل كحلة وموافاة انتصار الفلسطينيّة ومروان الميت عند مفترق الطرق في بيروت، السفر ضمن السفر،

(1) كونراد: روائي إنكليزي بولندي المولد، زوّدته خدمته في الأسطول التجاري البريطاني في الشرق بمادة غزيرة لرواياته ذات الأطر البحريّة.

لتبديد التعب، والأفكار وترنّحات القطار والذكريات - أنا المحارب، الجاسوس، أثريّ الجنون الضائع الآن تحت اسم مستعار بين ميلانو وروما برفقة الأشباح الحيّة مثل إدواردو روسا الهنغاري الداعي إلى العدالة المرتدي الأسود الذي كان يذهب إلى القدّاس بكلّ طيبة خاطر، كلّ ما سعيت لنسيانه وأنا اقرأ على الكنبة في باريس، وأنا أغوص في **المنطقة** في جزائر الذابحين والمذبوحين، **المنطقة** أرض الآلهة الغاضبين المتوحّشين المتواجهين إلى ما لا نهاية، منذ عصر البرونز على الأقلّ لا بل وقبله منذ عهد السكن في الكهوف، واستخدام الفؤوس الحجريّة، والصوانيّة التي كانت تمزّق الجسد وتشرمه محدثة جراحًا مبرّحة، هذا إذا لم نحتسب الهراوات والعصي المحدّدة الرأس والدبابيس[1] والبيازر[2]، اللواتي أنجبن مطرقة معسكر ستارا غراديشكا[3] التي كان أقاربي الأوستاشيّين يحطّمون بها جماجم الصرب اليهود والغجريّين لأنّهم سئموا من استخدام السكاكين، وفي اللحظة نفسها، في ترييستا في معسكر الريزييرا كان الحرّاس الأوكرانيّون يجهزون على المقاومين الكرواتيّين والسلوفينيّين بسلاح مدهش أقرب إلى أن يكون مطرقة ضخمة قروسطيّة كناية عن مكعب من المعدن الحاد البتّار المثبت إلى سلك سميك من الفولاذ ومقبضه من الخشب سهل الاستعمال، من الذي صنع هذه الآلة، أهو مهندس أم ميكانيكي من يدري، ربّما كان اسمه في مكان ما من الحقيبة، في الملف المتعلّق بترييستا، المدينة المشرّعة للريح والهراوات، ذات المعبد اليهودي والكنيستين الأورثوذكسيتين،

---

(1) الدبابيس: عصي من خشب أو من حديد لها رأس كالكرة.

(2) البيازر: مطارق خشبيّة ذات رأسين.

(3) ستارا غراديشكا: قرية في سلافونيا أنشىء فيها معسكر اعتقال.

الصربيّة، واليونانيّة، ترييستا، مرفأ آل هابسبورغ منذ القرن الثالث عشر حيث نُقلت جثّتا فرانسوا فرديناند وصوفي زوجته الجميلة قادمتين من سارايفو، أدّت المدينة لهما التحيّة الأخيرة، تحيّة وداع الإمبراطوريّة، ثم أرسلتهما عبر القطار إلى فيينّا مرورًا بكلاغنفور، ولاحقًا سينتقل المرفأ الأدرياتيكي إلى مالكين آخرين ويتبع أمّة أخرى، ستحتلّه إيطاليا ثم يستعيد النفوذ الجرماني سيطرته عليه نهاية 1943: أربعة بلدان هيمنت عليه في غضون ثلاثين عامًا، ترييستا مدينة نمساويّة -هنغاريّة ثم إيطاليّة ثم ملحقة بالرايخ ثم بجمهوريّة سلوفيينا اليوغوسلافيّة وأخيرًا تحت حكم الانكليز والأميركيّين إلى أن استعادتها إيطاليا وهجعت طويلاً في أحضان أوروبا الديموقراطيّة، المنهكة الخالية من اليهود واليونان والألمان والهنغاريّين والسلوفينيّين، المطوّقة عند أقصاها بفينيسا اليولوسيّة، على حدود السلافيّة الحمراء، على ضفة الكارست[1] القاتل، على مقربة من الخليج المحروس من قصر دوينو المتهدّم حيث أفاد ريلكه عام 1912[2] من الهبات السخيّة التي سيفيد منها ضبّاط البحريّة الألمان الذين أقاموا هناك بعد ثلاثين سنة، *hiersein ist immer herrlich*: **أن تكون هناك بديع على الدوام**، ريلكه الذي استقبلته الأميرة ثورن أند تاكسيس كان يزدري من مسافة بعيدة جيمس جويس الغامض، الذي استقبله في الوقت نفسه الأساتذة المتصلبّون في البرليتز سكول، وكانت زوجته الشابة تؤنّبه في كل مرّة يرجع فيها

---

(1) كارست: منطقة في سلوفيينا من مؤلّفة من نجود كلسيّة رسم أشكالها التآكل الذي تحدثه المياه الجوفيّة.

(2) أقام الشاعر الألماني راينرماريا ريلكه لدى الأميرة ماري فون ثورن أند تاكسيس في قصر دوينو ومن هذه الإقامة استوحى أروع دواوينه الشعريّة: **مراثي دوينو**.

سكران، جويس الإيرلندي الفظّ المترنح مع الريح، أحد الزوّار العديدين لتربيستا، قاطرات عديدة التقت هنا، على الأرصفة اللامتناهية للمرفأ الذي بات اليوم شبه مقفر، ذهبت إلى تربيستا للمرّة الأولى في مأذونيّة بين جولتين من القتال برفقة أندريا وفلاهو، اقتدتهما إلى تربيستا من زغرب مرورًا بربيكا الرماديّة وأوباتيا، وهي من بين محطّات الاستجمام النمساويّة - المجريّة الأكثر شهرة، بقينا هناك زهاء ساعة تقريبًا، وهو الوقت الكافي لندرك أنّ معدّل أعمار الذين يسعون إلى الإستشفاء عن طريق المياه الحارّة من معدّل عمر فيشي وإيفيان أو بالأحرى من عمر كارلوفي فاري، كان ذلك في نهاية شتاء 1992، لم يكن الربيع قد حلّ بعد، وكان فلاهو المريض يتعالج بمشروب Rakija، كان غاضبًا لأنّ عاهرة رفضت مضاجعته بحجّة أنّه كان مصابًا بزكام فظيع وقد أثار فضيحة في تلك الحانة القذرة من نوفي زغرب، وضحك الجميع، **لكن في النهاية إنّه أنفي الذي يرشح قليلاً وليس الباقي، لست مصابًا بتعقيبة الأنف** - ومنذ ذلك الحين بدأ يتذمّر ويتأفّف، اقترحنا عليه بمكر أن يفيد من مياه أوباتيا الكبريتيّة ونسائها المسنّات، وهنّ بالطبع أقلّ تطلّبًا من العاهرات المحترفات لجهة الانتباه لصحّتهن، ثمّ إنّ كلّ هؤلاء الألمانيّات المسنّات المحترمات كن يأتين إلى هنا للعلاج هنّ أيضًا، وسيكنَّ بالتالي متفهّمات، هزَّ فلاهو كتفيه وهو يقول **آه كم أنتما ماكران، كم أنتما ماكران، حسنًا، إلى أين تريدان الوصول**، وشيئًا فشيئًا وصلنا إلى إيطاليا ومن ثم رحلنا من جديد إلى الهرسك ومررنا بدلماتيا، استرحنا هناك يومين كاملين عند فلاهو الذي كان تماثل للشفاء تقريبًا، وكان جدّه يشتمنا طيلة النهار وكان سابقًا مقاومًا شيوعيًّا، يرفع كؤوسه وهو يصرخ *Smrt fasizmu* الموت للفاشيّة فيجيبه فلاهو «هايل هتلر» مفرغًا كأسه إمعانًا

في إغاظته على مسافة بضعة كيلومترات من سبليت حيث كان يرقص جنود القوّات الدوليّة، كانت طائرات الهيليكوبتر التابعة لهم تحلّق فوقنا وكان لا بدّ لنا أن نوقف شاحنات الجنود العابرة لكي نذهب إلى موستار- اليوم تبدو هذه الذكريات أشبه بفيلم يوغوسلافي قديم، الصور تبدو فيه عتيقة، بائدة، لم تعد صوري، وحدها الأحاسيس بقيت الخزي، والخوف، واللذّة، والخطر، بقيت الروائح أيضًا، واللمسات، ووجه أندريا، ويد فلاهو مطوّقة لكأس أو لبندقيّة، كان فلاهو بطلنا في تفكيك الأسلحة وتشحيمها حتى الأسلحة الأكثر غرابة والأكثر تعقيدًا كان بإمكانه تفكيكها، وهو مغمض العينين تقريبًا، كان قادرًا على زرع لغم أو فخ بالخيط بسهولة وكأنّه يحكّ مؤخّرته أو يتمخّط دون أن يعير انتباهًا لما تعالجه يداه، هكذا يخيّل للناظر، بمهارة حيوان قارض سريع، دقيق وكان يأكل بالطريقة نفسها، بسرعة، راحتا يديه مضمومتان إلى الأمام ووجهه الساذج يفترّ عن ابتسامة هائلة لدى رؤية الشراب أو الأكل أو السلاح الجيّد: فلاهو فأرة حرج، قرقدن، جرذ، طفل ذكوريّ خصوصًا، كانت الحرب بيئته الطبيعيّة لأنّها بسيطة ومضحكة وذكوريّة، في عالم حيث لكي تصبح رجلاً، فهذا لا يعني أن تكبر بل أن تصبح مشحوذ الهمّة، متقلّصًا، مقلّمًا مثل كرمة أو شجرة منزوعة الأغصان، مشذّبة من الجزء الأنثوي، أو الجزء الانساني وما أدراك، أن تكون قبسًا منحوتًا بشكل كلاسيكي على هيئة محارب، على شكل قضيب منتصب أو بندقيّة، على شاكلة الذكر الذي كنّا نسعى كلّنا لكي نشبهه القوي، اللبق، الصيّاد الغابر، المنزوع الرأس، القادر على كلّ أنواع التبجّح، المتعنتر، المغرور ولكن الخاضع لمن هو أقوى وأعلى منه هرميًّا، المحتقر الضعفاء، والنساء، واللوطيّين، وكلّ ما لا يشبهه، في الواقع تحوّلنا أنا وفلاهو وأندريا

تدريجيًّا إلى جنود محترفين، بالطبع كنّا نتحامل على دمعة بين الفينة والأخرى لكنّنا سرعان ما نخفيها ونمسحها ونتظاهر بأنّها عرق أو حريق في العين من الدخان وهذا كلّ شيء، أو على ضمّة، هذا على الأقل ما كنّا نتمنّاه، وأحيانًا، كان كلّ شيء ينهار، درع أخيل يُثقب، ولفافات الساق الجميلة تنتزع، والرمح يتكسّر، وكلّ ما يتبقّى طفل عارٍ متقوقع ينادي أمّه أو إخوته منتحبًا باكيًا داخل كيس نومه أو على محمله، أذكر اليوم الذي انهار فيه أندريا الذي لا يُقهر لأوّل مرّة، أندريا سيّد المحاربين، الذي لم نره قط إلا بلباسه العسكري على مقربة من فيتاز، ذات صباح شبيه بالصباحات الأخرى، في قرية ككلّ القرى الأخرى، كان التوتّر على أشدّه مع المسلمين، ذات صباح دافىء خفيف الضباب كنّا ننقل ذخائر صوب الشمال، على بعد بضعة كيلومترات من ترافنيك القاتلة الجميلة، ذات صباح يفوح منه أريج الربيع، برفقة الرقيب ميليه وفلاهو السائق المجنون أمام مقود السيّارة، لم أعد أذكر لماذا توقّفنا أمام ذاك المنزل، ربّما لأننا رأينا جثّة عند عتبته، جثّة رجل مسنّ وقد أُفرغ مشط كامل في رأسه وصدره، كان مدروزًا بالرّصاص من مسافة قريبة جدًّا وكلبه أيضًا، المنزل كرواتي، الباب كان مفتوحًا، وتنبعث من المكان رائحة بخور وكأنّه كنيسة، الجو في داخله قاتم، الأثاث خشبي والمصاريع مغلقة، لا بدّ أنّهما لقيا مصرعهما في الليل، الرجل وكلبه، لماذا فتح الرجل الباب، لماذا خرج، أشار لنا ميليه إلى وجود نور برتقالي مرتعش يخرج من الغرفة، أشبه بلهب حريق مصفّر، شيء ما يشتعل، اقتربنا نحن الثلاثة وبقي فلاهو وراءنا لكي يراقب المدخل، الغرفة فسيحة والشموع في كلّ مكان، عشرات الشموع المشتعلة وفي السرير العريض امرأة عجوز ممدّدة ويداها مضمومتان فوق صدرها، ثوبها طويل أسود أو

رماديّ داكن، عيناها مغمضتان ولم أستطع أن أخلص إلى نتيجة، انتزع أندريا خوذته على سبيل الاحترام، تنهدّ وتمتم بعض الكلمات، حذونا حذوه أنا وميليه دون أن نفهم، كنّا ثلاثتنا نسهر على امرأة ميتة تجهل أنّها أصبحت أرملة، وأنّ زوجها الذي أشعل كلّ هذه الشموع لأجلها رُمي بالرصاص هو وكلبه عند عتبة بيته على يد مجهولين أو ربّما كانوا جيرانه، لم تسمع شيئًا، على سرير موتها، لا الطلقات في الخارج ولا الخطوات في بيتها ولا ضحكات هؤلاء الذين غرسوا هذا الصليب الكبير في بطنها وظلّه العبثي يتراقص على الجدار إلى جانب ظلال وجهي أندريا وميليه المخفضين، المحسوري الرأس، ثم أيقظنا صوت فلاهو، دخل لتوّه إلى الغرفة، **اللعنة ماذا دهاكم ألن تذهبوا**، ألقى نظرة ساهمة على الجدّة التي دُنّس جسدها، وضعت خوذتي من جديد، وضع ميليه خوذته من جديد وخرجنا مثل رجال آليّين دون أن نقول شيئًا، صعدنا في الجيب، جلس أندريا قربي، بقي صامتًا وعيناه ساهمتان، أخذت الدموع تنهمر على خديه فكفكفها برفق بكمّه، لم يشهق، نظر إلى الخارج إلى البيوت والأشجار رأيته يبكي مثل ينبوع صامت ولم يحاول إخفاء ذلك، لكن لماذا، فهو رأى من الجثث أعدادًا لا تحصى، جثث شباب، وعجائز، وذكور، وإناث، جثثًا محروقة متفحمّة مقطّعة الأوصال مدروزة بالرصاص، عاديّة، في ثيابها أو عرّاها الانفجار، فلمَ هذا التأثّر أمام هذه الجثّة بالذات، لاحقًا بمضيّ أسابيع قليلة سيلقى أندريا حتفه، سيتسنّى له الوقت ليثأر لدموعه، ليكويها بألسنة النار، ويدمّر بدوره أجساد الأعداء، وبيوتًا، وعائلات، مبتهجًا مع أجاكس ابن تيلامون، مع أوليس وسط أنقاض طروادة، أندريا المسعور انتقم لهذه الجدّة المجهولة التي لم يأت على ذكرها ثانية، لا زلت أرى ظلّ المسيح المصلوب

على سجّادة الحائط المزدانة بالأزهار، في ضوء الشموع، كلّ شيء كان لا يزال على حاله من حولها، لا كتابة ثأريّة على الجدران، لا فوضى، كان عجيبًا هذا الصليب المغروز الله يعرف كيف في جسد هذه المرأة العجوز، أندريا الذي أثارت هذه العلامة اضطرابه وحاول كتمانه، الرقيب ميليه لم يقل شيئًا، إدواردو روسا أيضًا انفجر باكيًا ذات يوم وميلان استراي، وأخيل ابن بيليه، ذات يوم، ذات يوم حيث لا شيء يدعو لذلك وأنا أيضًا تجزّعت، وتفسّخت على شاكلة حائط من التراب المدكوك ثم تجفّفت على مهل، في البندقيّة كان ذلك الانهيار متبوعًا بالتجوال الشبحي في أروقة **المنطقة**، يموت المرء مرّات عدة واليوم في هذا القطار جميع الأسماء الموجودة في هذه الحقيبة السريّة تجذبني إلى القاع مثل حجر الرحى الموثوق إلى ساقي مسجون رُمي في نهر التيبر أو الدانوب، وسط إميليا البورجوازيّة، في هذا القطار حيث يجلس مسافروه بارتياح ويتظاهرون بتجاهل بعضهم البعض، بأنّهم لا يتقاسمون القدر نفسه هذه الكيلومترات المشتركة التي يُعهد مصيرها إلى **السائق الأكبر** صديق النماذج المصغّرة للطبور التي توحي بنهاية العالم، وجوه البعض منهم في اتّجاه سير القطار وآخرون يديرون ظهرهم للطريق، مثلي، أنظر إلى الوراء، في الليل المعتم مستديرًا باتجاه ميلانو محطّة الانطلاق: ميلان أستراي صديق فرانكو، الجنرال النحيل والأعور والأكتع الجنرال المسؤول عن المجازر المريعة في المغرب كان شغوفًا شغفًا آثمًا بقطع الرؤوس، كان يهوى ذبح «البونيول[1]» بالحربة، كان ذلك أثمه الصغير، لكي لا نقول هوايته، في عام 1920 أسّس الفرقة الأجنبيّة الإسبانيّة، بعد

(1) بونيول اسم محقّر يدعو به أوروبيو أفريقيا الشماليّة الاستعماريون الأفارقة الشماليّين.

إقامته في سيدي بلعباس عند الفرنسيين الفخورين دومًا بخبرتهم العسكريّة، وهذا من ضمن التعاون الطبيعي بين الإستعماريين، أثّر المجنّدون الفرنسيون في ميلان تأثيرًا عظيمًا ولم يكن آنذاك لا أعور ولا أكتع، بل كان فقط مسكونًا بالموت ومنبهرًا به، وأسّس ميلان في المغرب لحساب إسبانيا فرقته الأجنبيّة من المجنّدين التي توافد إليها الفقراء والصعاليك ومنبوذو أوروبا كلّها، استقبلهم وهو يغنّي لهم الأناشيد - على أيّة حال المجنّدون الإسبان الذين التقيتهم في العراق كانوا أشبه بعرسان جدد تأنّقوا لأجل زفافهم، كانوا يغنّون خطبت الموت *soy el novio de la muerte* وهم يمشون بخطى سريعة إلى عرسهم كما ذهب أسلافهم إلى زفافهم في أفريقيا، كان ميلان يقول لهم **قضيتم نحبكم مقمّلين، فاحشين، قضيتم نحبكم لكن هذه الحياة الجديدة إنّما تدينون بها للموت**، ستحيون من جديد بمنحكم حياتكم أنتم الخطّاب الأوفياء ستغازلون المنيّة وتخدمونها بشغف وتحملون لها المنجل، تسنّونه وتصقلونه، وتلمّعونه وتشهرونه بدلاً منها في المغرب أوّلاً ثم على أرض الوطن بالذات، بعد بداية الحملة الصليبيّة على الشيوعيّين التي قام بها فرنكو في الأندلس، ومدريد، ثم على ضفاف الإيبر ضمن آخر أكبر هجوم، ثم في المغرب ضد البربر الدمويّين مرّوضي الأفراس الأصيلة، في إطار الكوارث العسكريّة التي تسبّب بها نظام الحماية الإسباني وأتاحت لأوّل جمهوريّة مستقلّة في أفريقيا أن تبصر النور، جمهوريّة الريف التي أنشأها السكّان الأصليّون، جمهوريّة عبد الكريم الخطّابي[1] التي لا نزال نعثر على أوراق نقديّة أصدرتها يوم تأسيسها مدعوكة ومصفّرة عند بائعي البالة في تطوان، عبد الكريم البطل، حافر

---

(1) عبد الكريم الخطّابي (1882-1963) زعيم عربي مغربي أعلن الثورة على =

قبر الإسبان كان على وشك أن يستولي على مليلة بعد كارثة الأنوال في تموز 1921 حيث قضى عشرة آلاف جندي إسباني يفتقرون إلى السلاح والغذاء، في غياب قادتهم وبعيدًا عن الانضباط العسكري، إنّها أحد أفدح الأخطاء الحربيّة بعد خطأي معركة «السوم» و«لوشومان دي دام»، كارثة هزّت عرش الملكيّة الليبراليّة لألفونس الثالث عشر المنفيّ إلى روما: هل كان يعرف، وهو في غرفته في فندق بيازا إيزدرا الكبير، محاطًا بمجموعة الأخفاف المفضّلة لديه وزوّاره من الأمراء، أنّ عدوّه آنذاك القاضي البربري صاحب الخيول الصغيرة قد لجأ إلى القاهرة، إلى بلاط الملك فاروق حليف الإنكليز أتخيّله يدخّن النارجيلة على ضفاف النيل، لسنوات طوال، إلى أن عرض عليه الملك الجديد للمغرب المستقلّ ذات يوم من أيام 1956 أن يعود إلى دياره فرفض، ربّما لأنّه كان يحبّ كثيرًا عبد الناصر وأم كلثوم، أو ربّما لأنّه كان يفضّل أن تمتصّ براغيث القاهرة دمه بدلاً من ملك ينتمي إلى العائلة الشريفيّة، وتوفّي عبد الكريم الخطّابي دون أن يعود إلى بلاده ثانية أو يمسك سلاحًا ما عدا مسدّس كامبوجير عيار 9 ملم انتزعه من جثّة الجنرال سيلفستر المشوّهة، قائد جيش الريف، وكان مقبض المسدّس مصنوعًا من قرن الجاموس الأملس ولا أخاديد فيه، ويحمل شعار النّسب لألفونس الثالث عشر الذي أُرسل إلى المنفى عقب هزيمة جنراله ومسدّسه الذي لا يزال يلمع كأنّه خارج للتوّ من المصنع، سيلفستر القتيل تناثرت أشلاؤه بحيث لم يُعثر على جثّته، اسُتبدل بالإخوان فرانكو

= محتلّي بلاده الإسبان عام 1919 فانتصر وأسّس جمهوريّة عُرفت بجمهوريّة الريف. أدّت انتصاراته المتتالية إلى تعاون الفرنسيّين والإسبان فهزمته قوّاتهم المشتركة عام 1926.

باهاموند وخوان ياغويه، الصقرين الحاملين اسمين شاعريّين، وكبيرهم ميلان أستراي الأعور، الذي كان يهديه مجنّدوه سلالاً جميلة من القشّ مزيّنة برؤوس البربر المقطوعة، وهذه الهديّة كانت تبعث السرور في نفسه، كذلك كان لوسيان دومونتانياك في حدود سنة 1840 وهو كولونيل أكتع مثله، مخمد الفتن في الجزائر، يتلهّى في تمضية وقته الرتيب الذي قضاه في فترة الاستعمار بقطع رؤوس العرب كما تقطع أعناق الأرضي شوكي - فجاة أرى من جديد صورة هنريك روس في غيتو لودز، صندوق مليء برؤوس بشريّة وإلى جانبه صندوق آخر تكدّست فيه الأجساد المقطوعة الرؤوس، هاكم ما كان ليبعث السرور في نفس أستراي الأعور، أو مونتانياك الشرس، اللذين أبديا إعجابهما بالمحاربين الساموراي بسيوفهم الرشيقة وبالقدّيسين حملة الرؤوس المقطوعة، بعد حروبه بوقت طويل، ترجم ميلان أستراي الضاري إلى الإسبانيّة كتاب البوشيدو[1] الياباني، قانون الشرف والموت المشرّف، وقطع رأس الجندي المهزوم، قانون الصديق الذي يقطع لك عنقك ليجنّبك الألم على هذا النّحو، كما فعل الثوّار الفرنسيّون باعتمادهم المقصلة لجانبها الديموقراطي، يستطيع الجميع أن يموتوا ميتة الملوك وتتدحرج رؤوسهم في السلال، فيما كانت ميتة قطع الرأس، قبل الثورة، حكرًا فقط على النبلاء، كان الحثالة يموتون جرّاء عذابات مشهديّة مثيرة للشفقة، كتقطيع الأوصال أو الحريق في معظم الأحيان إذا صدف ونجوا من الموت- في دمشق، منذ زمن ليس ببعيد شُنق المعارضون معلّقين إلى المصابيح الضخمة في ساحة العباسيّين، بواسطة رافعة متحرّكة تُستعمل في باريس لتشذيب الأشجار خصوصًا،

---

(1) البوشيدو: القانون الأخلاقي للفرسان والمحاربين الساموراي.

أذكر أنّه ذات يوم بقي أحد المشنوقين معلّقًا لوقت طويل في الهواء فانقطع رأسه في نهاية المطاف وتدحرج بين السيارات متسبّبًا بحادث سير وبمقتل فتاة صغيرة بريئة، بريئة ولا شكّ براءة الرجل المقطوع الرأس الذي أثار الرعب في قلب السائق الذي هو أيضًا بريء، وكم من الأبرياء بين المجرمين في الحقيبة، وبين الضحايا، وكم من القتلة المسعورين السفّاحين قاطعي الرؤوس الاحتفاليّين الذين تعلّموا فنّ الذّبح بالسكين من خلال ذبح الحملان أو الخراف وتكفّل زوس بالباقي، كان إسلاميّو الجزائر الأصوليّون الذين أجمع المعلومات عنهم أبطال الذّبح بلا منازع، وفي البوسنة قضى المجاهدون على مساجينهم بالطريقة نفسها كما يُذبح الحيوان، وأنا أيضًا كان دخولي إلى بولفار مورتييه على إيقاع سبعة رؤوس تابعة لرهبان تمّ رميهم في إحدى الحفر، لا يغيب عن ناظري مشهد قطع الرؤوس، هذه الصور تطاردني حتى روما حتى كارافاجيو في لوحته حيث يمسك داوود برأس جليات من شعره المدمّى، أو حتى قصر بربيريني الراقي جدًّا حيث تغرز جوديت اليهوديّة سيفها في عنق هولوفرن والدم يقطر منه بغزارة، تبدو الأرملة الجميلة مستاءة وراضية في آن معًا وهي تقطع للقائد الأشوري شريانه السباتي، والخادمة تمسك بالكيس الذي سيحتوي الذخيرة الرطبة، يبدو الرأس بعينيه المحملقتين، بشعره المشعثّ الدبق صورة قاتمة بين المشاهد الدينيّة، وسط صور القدّيس إيرينيموس وبورتريهات الأساقفة الذين أصبحوا بابوات، والفتيات اليافعات البريئات، جوديت تقطع بلطف رأس الجنرال البابلي لكي تنقذ شعبها، تمامًا كما حصلت سالومه على رأس يوحنا المعمدان الذي قُطع رأسه في زنزانته على يد حارس صلف بساطور ضخم، كما رسمه كارافاجيو أيضًا في اللوحة الهائلة التي تزيّن كاتدرائية سان- جان -دي

شوفالييه في مالطة في صيف 1608، إبّان استتباب الأمن، بعد سنة من وصوله إلى الجزيرة المنيعة، بعد أربعين سنة من الحصار العثماني حين كان جان دوفاليت يحشو مدافعه برؤوس الأتراك ويقذفها لكي يروّع العدو، كان بودّ ميكال أنجلو ميريزي دي كارافاجيو الميلانويّ أن يموت مقطوع الرأس، لكنّه توفي مريضًا على أحد شواطىء أرجنتاريو، قبالة البحر الرماديّ الذي لم يرسمه قطّ أو الذي رسمه دومًا، في المساحات الهائلة السوداء التي تنبثق منها أجساد المراهقين والقدّيسين والقتلة والعاهرات والجنود المتنكّرين بزيّ القديسين، كارافاجيو سيّد العتمة العظيم وقطع الرؤوس

الفصل الثامن

منظر السهل البادوفي يظلم هو أيضًا، حباحب المزارع الصغيرة والمعامل أشباح مقلقة، في البندقيّة تردّدت لبرهة في محطّة سانتا لوتشيا في العودة إلى باريس، كان قطار ليليّ آخر ينطلق جنوبًا في الوقت نفسه تقريبًا باتّجاه صقلية وآخر محطة له سيراكوزا، رحلة تستغرق أربعًا وعشرين ساعة، كان يجدر بي أن أستقلّه، لو أنّ أحدًا على الرصيف أرشدني، نصف إله أو عرّافًا، لكنت استقللت القطار إلى سيراكوزا وأقمت في الجزيرة المحصبة على منحدرات إثنا[1] موطن هيفايستس الأعرج الذي يروي تكرارًا بحممه الفلاحين ورجال المافيا المختبئين في الرّيف، ربّما أقام مالكولم لوري في تاورمينا[2] عام 1954 بسبب هذا البركان في هذه البلدة التي هي من الجمال بحيث تبدو مصطنعة وكان لوري ألّف قبل عشر سنوات روايته «تحت البركان»، ربّما كانت زوجته مرجيري هي التي اختارت وجهة السفر، لتغيير الجو والترويح عن النفس، كان لوري السكّير يحتاج فعلاً إلى تنّشق هواء مغاير، والاتّصال بطائفة الكتّاب الأنكلوساكسونيّين الذين تعجّ بهم **المنطقة**،

---

(1) إثنا: أعلى بركان مشتعل في صقلية، جعلته الميتولوجيا وطن هيفايستس إله النار والحدادة.

(2) تاورمينا: مدينة في صقلية عند سفح الإثنا.

همنغواي، وباوند الفاشي، وبوروز[1] الهاذي، لا يتخلّى مالكولم عن زجاجة الكحول لحظة واحدة مراقبًا أسماك السيف تبرق في خليج ناكسوس، يسكر من الصباح حتى المساء عن سابق تصوّر وتصميم، بيتهما الصغير المزدان بالأزهار أجمل من أن يستطيع احتماله، كان يقول، كلّ هذا فائق الجمال واللمعان والإشراق، لا يستطيع الكتابة، ولا حتّى كتابة رسالة واحدة، عيناه مبهورتان بالمتوسّط الموغل في الزرقة، مرجيري سعيدة، تتنزّه طيلة النهار، ترتاد الأماكن الأثريّة، الخلجان الوعرة، ثم تعود إلى البيت لكي تجد مالكولم سكران، سكران ويائسًا، وفي يده رواية «أوليس» أو «فينغانز وايك[2]» ولا يتوصّل إلى قراءة أيّ منهما، لم يعد يعزّيه شيء ولا حتّى الشرب، بقيت صفحات مفكّرته بيضاء تبعث على اليأس، بقيت الحياة فارغة، مرجيري التي سئمت منه تقرّر أن تقفل بالمفتاح على جميع زجاجات الكحول في المنزل، عندئذٍ يخرج لوري ليتسكّع في الأزقّة، يصعد إلى خرائب المسرح الإغريقي ويراقب مشهد النجوم فوق البحر وراء جدار حلبة المسرح، ويستشعر حقدًا عارمًا، يريد أن يشرب، يريد أن يشرب، كلّ شيء مقفل، يهمّ بأن يقرع على أوّل منزل يصادفه ويستجدي كأسًا من الغرابّا، أيّ كأس، احتساء كأس ما، من أيّ نوع كانت، ثم ينحدر إلى الطريق حتى بيته، سيحاول خلع الصوان الذي أودعت فيه زوجته

(1) William Burroughs : وليم بوروز كاتب أميركي، ولد عام 1914، مقرّب من ألن غينسبرغ. قصصه تروي تجارب اختلال الحواس وتشوّشها في أسلوب طليعي من مؤلّفاته الوليمة العارية 1959، نوفا إكسبرس 1964.

(2) روايتان كتبهما جيمس جويس.

المشروبات وأقفلت عليها بالمفتاح، ينقضّ على الباب الخشبي الصغير، دون جدوى، خصوصًا وأنّ السكر قد تعتعه أصلا، لا يتوصّل إلى فتح الصوان، إنّها غلطتها، المسؤوليّة تقع على زوجته، مرجيري النائمة بعد أن خبّلتها حفنة الحبوب المنوّمة التي تناولتها، ستعطيه المفتاح، ستدفع الثمن، مرجيري التي تمتصّ موهبته، وتمنعه من الكتابة، يتّجه لوري إلى غرفة النوم، زوجته ممدّدة على ظهرها، عيناها مغمضتان، يقترب مالكولم منها إلى حدّ لمسها، يقف أمامها، ظمآن، ظمأ لامتناهيًا، غاضبًا غضبًا لامتناهيًا، متمتمًا بعض الشتائم، لا تستيقظ، علمًا أنّ صوت نداءه تحوّل إلى صراخٍ عال، هكذا بدا له، العاهرة نائمة وهو يموت من شدّة الظَمأ، سيلقّنها درسًا، يضع يديه حول عنقها، وإبهاميه على تفاحة آدم ويضغط تفتح مرجيري عينيها تلقائيًا، وتتخبّط، يواصل لوري ضغطه بقوّة أكبر، ويشدّ، يشدّ على الشريان السباتي، وقصبة الرئة، سيقتلها، كلّما ضغط ازداد احساسه بالوهن ينظر إلى عيني مرجيري وقد ارتجفت حدقتاهما، ذعرًا، وإلى ذراعيها تكيلان له اللطمات العشوائيّة، يخنق مرجيري لكنه هو الذي يختنق، كلّما طوّق عنق زوجته ورأى وجهها مزرقًّا ازداد شعوره بالسوء، لا يرخي قبضته بالرغم من اللكمات التي يتلقّاها من قبضتيها والرفسات من ركبتيها، هو من يقتل نفسه، لا يشدّ بين يديه على عنق مرجيري بل على عنقه هو بالذات، وجهه هو بالذات وكأنّها مرآته، يختنق، يخنق نفسه ترخي أصابعه قبضتها، ترخي أصابعه قبضتها تدريجيًا وينهار على الأرضيّة، فاقد الوعي، فيما تحاول مرجيري البكاء مستعيدة أنفاسها في الفجر الزعفراني الذي يضيء الستائر المعدنيّة في صقلية الجزيرة المميتة عاش مالكولم وزوجته ثماني سنوات من الجحيم في كنف بركانهما الثاني، مرّة كل يومين، كان

القرويّون يضطرّون إلى حمل مالكولم على ظهورهم حتى منزله، عندما كان الصيّادون يعثرون عليه عند الفجر، منهارًا في أحد الأزقّة، وقد هزمه السير في الطلعة والنوم، قد أكون أحسنت بعدم ذهابي من القطار إلى سيراكوزا، فمن كنت سأخنق يا ترى في ليل صقلية تحت تأثير الشراب وتوحّشي - كان أبي، في صغري، عندما أكسر شيئًا أو أعنّف شقيقتي ليدا، يقول لي دومًا أنت متوحّش وكانت أمّي تتدخّل في كل مرّة لتردّ عليه لا! ابنك ليس متوحّشًا، بل يفيض حياة فقط، ليس متوحّشًا، إنّه ابنك، واليوم ونهاية العالم تقترب أتساءل عمّا إذا كان الرجل الطويل القامة النحيل أبي على صواب، فيما القطار يقترب من ريجيو عاصمة إميليا ذات الاسم الفائق العذوبة، أنا متوحّش وعنيف وصلف بالرغم من كلّ الأسمال الأنيقة التي ألبسوني إيّاها وجميع الكتب التي قرأتها بقيت بدائيًا متوحّشًا قادرًا على ذبح بريء وخنق امرأة والأكل بيديّ مباشرة، كان أبي ينظر إليّ بغرابة في غضون السنوات الأخيرة، يرى البهيمة التي لم يجر ترويضها كما يجب خلف الموّظف في وزارة الدفاع، كان يحدس، منذ ما يقارب العشر سنوات إلى أيّ حدّ يمكن أن يبلغ بي توحّشي وفي ساعات نزاعه لم يستطع رغم مرضه وشحوبه الامتناع عن التحديق بي من على فراش الموت وتفحّصني بنظراته التي تريد أن تنتزع لي سترتي وقميصي وترس الرجل المهذّب الذي يغلّفني معرّيًا جذعي الوبر وشطوبي الطقوسيّة، وآثار المزاج الصلف والعنيف، أشحت عنه بنظري، وتحاشيت أسئلته الواخزة والصامتة حتّى النهاية حتّى الساعة الحادية عشرة صباحًا بالضبط في مقبرة إيفري، ذات صباح ربيعي لا هو بالرماديّ ولا بالأزرق، حيث دُفنت تحت التراب تساؤلات أبي في سرداب «عائلي» كما يقال، حيث يُفترض

بالمتوفى أن يجد القليل من الدفء بالقرب من أفراد عائلته الذين سبقوه ترافقه دموع المحبّة وتسلّمه إلى أذرع الأموات التي تلقاه بالترّحاب، تحت حجر ضريح انتعش بكتابة اسم جديد عليه، في مدفن إيفري بحثت عن المدخل في ذاك الصباح الربيعي من الألفيّة الجديدة، وصلت متأخّرًا، لمحت جماعة منشغلة حول أحد القبور برفقة قوّاس كنيسة يرتدي ثوبه الرسمي، هرعت، شبه مهرول بين الممرّات وأوشكت أن أتعثّر بأحد حجارة الأضرحة وأنا أسلك دربًا مختصرة بين الحقول، بالطبع، لم تكن مراسم الدفن الخاصّة بأبي، أدركت للتو الخطأ المشؤوم الذي ارتكبته، شاهدت موظّفًا طويل الوجه يليق بالمناسبة، فسألته كي يرشدني في سعيي: القسم 43، أجابني، يوجد في الجانب الآخر من الشارع في المدفن الصغير، لم أستطع ردع نفسي عن الضحك في داخلي وأنا أفكّر بأنّ لهذا الرجل صوتًا منبعثًا من وراء القبر، ثخينًا ويكاد ألا يُسمع، الجميع هنا يتكلّمون بالوشوشة، وبالطبع بلغت المكان المنشود وأنا على هذه الحال من التوتّر الذي أثاره وصولي المتأخّر على دفن أبي بالذات، كنت تأخّرت على القدّاس ولم أوافِ العائلة إلى المدافن توًا، شعرت بالخجل عيناي مطوّقتان بالدوائر السوداء، نفسي كريه بالطبع، الرعام في زوايا عينيّ المحمّرتين ليس جرّاء الدموع بل الكحول، وقلّة النوم خجلاً، شعرتني مذنبًا لكوني نسيت موقع السرداب العائلي نفسه حيث يرقد أصلاً أجدادي، خرجت من باب صغير واجتزت شارعًا مسدودًا وأنا ألهث استعدادًا لمواجهة نظرات الأم والابنة المحزونتين، الابنة تتأبّط ذارع الصهر الذي طغت عليه رهبة الموقف هو أيضًا، ها أنا أصل متأخّرًا وأدخل من الجانب الآخر لمدفن إيفري، وهناك تذكّرت أبعاد المكان، والممرّات، إلى يميني مقاومو

جبل فاليريان[1] ومن ثم مقاومو جماعة مانوشيان ذوو اللحى الذين تظهر صورهم في «الملصق الأحمر»، إلى يساري ألمح عائلتي وأصدقاء عائلتي، أختي باللباس الأسود، وصهري الذي لا يمكن تجاهله لكن لا أثر لوالدتي، ها هم ينزلون النّعش من السيارة، جسد ساربيدون، ابن زوس، منقولاً إلى جوار أهله مغسولاً جيّدًا، مسرّح الشعر، تفوح من جسمه رائحة الطيوب، يشقّ عليهم إنزاله في الحفرة- أصل، تتفرّس شقيقتي فيَّ، يشيح زوجها بنظره عني، لقوّاس الكنيسة لطخة على وجهه بالخلقة، يحتفل بالرتبة بوقار: **الآن باستطاعتكم توجيه تحيّة الوداع الأخيرة له، بإمكانكم لمس النعش أو رميه بحفنة من التراب، كما تشاؤون**، وصلت متـأخّرًا، لذا يصعب عليَّ أن أصدّق أنّ الرجل داخل النعش المصنوع من خشب السنديان اللامع هو أبي، رجل القطارات الكهربائيّة، والبازلات المؤلّفة من ألف وخمسمئة قطعة، انبثقت أمّي فجأة وصرخت لي فرنسيس فرنسيس، ثم تشبّثت بذراعي، كانت شاحبة، منهارة، تمالكت نفسها، نهضت، ثم حدّقت إلى عينيّ فأخفضتهما، وكأنّني طفل في حضرتها، **ودّعْ والدك**، فجأة أصبحت جديّة متصلّبة عاتية *oprostite se od oca*، عندئذٍ التفتُّ إلى النّعش الجديد اللمّاع، كيف بالإمكان أن أقول له وداعًا، وبطريقة آليّة رحت أتلو «أبانا الذي في السماوات» وهكذا دواليك، إلى أين يأخذك إيبنوس[2] وتاناتوس[3]، مغسولاً في السكاماندر، محتبسًا في النعش ملتهِم الجسد،

---

(1) جبل فاليريان: تلّة في الضاحية الغربية من باريس، بين 1941 و1945 أكثر من ألف فرنسي أعدموا فيها بالرصاص.نصب تذكاري للمقاومة.

(2) إيبنوس: تجسيد النوم في الميتولوجيا الإغريقيّة، ابن الليل وأخ الموت.

(3) تاناتوس: إله الموت في الميتولوجيا الإغريقيّة.

أنت أيضًا كنت محاربًا، على طريقتك، ليدا تشهق بالبكاء بين ذراعي زوجها المصرفي الباريسي، أنا جفّت الدموع في مآقيّ، على ما يبدو، قلت الوداع لأبي البارحة بمفردي خلال مأدبة جنائزيّة في بيتي وقد أطفأت الأنوار متذكّرًا القطار الكهربائي والجزائر البيضاء وطفولتي المتوحّشة وانهرت متعتعًا من السكر بكامل ملابسي تحت دقّة الساعة الخامسة صباحًا، والآن بين أهلي، مربكًا بحضورهم، لا يسعني إلا أن أتلو صلاة أبانا الذي في السماوات بصوت متلجلج والعرق يتصبّب من جبيني بدل الدموع- من يشغل هذا النعش، من يكون، من هو المجنّد في الجزائر، المهندس الكاثوليكي، زوج أمي، هاوي ألعاب الصبر[1] ابن صانع الأقفال حدّاد غاردان بالقرب من مرسيليا، أب أختي، هل هو نفسه، في مدفن إيفري على مسافة خطوتين من «الإرهابيّين» المرتسمة صورهم الجميلة على الملصق الأحمر، على مئات الأمتار من الجنود الذين قضوا في المستشفيات العسكريّة خلال الحرب العالميّة الأولى، لا بل إنّ بعض اللوحات الضريحيّة تشير إلى جنود صربيّين، كيف يُعقل أن يكونوا قد دفنوا هنا، ربّما جرت معالجتهم في محجر صحّي قريب، ربّما تشوّهت وجوههم، وأصيبوا بالسلّ وبكلّ أنواع الالتهابات، بعيدًا جدًّا عن نيس[2] أو بلغراد، بعيدًا جدًّا، راقدين تحت صليب في الضواحي، في القبر نفسه حيث ترقد جثامين هؤلاء الذين قطعت رؤوسهم، المدفونين في إحدى الزوايا، والذين لم يسع أحد إلى الكشف عن مصيرهم، بين 1864 و1972، هل دُفنوا رؤوسهم بين أيديهم كما دُفن سان دنيس شفيع باريس، أم وُضعت رؤوسهم إلى جانب أجسادهم،

---

(1) لعبة الصبر: نوع من لعبة الورق.

(2) مدينة في صربيا.

أم بين الساقين لأنّ النعش قد ضاق بهم - ربّما أُحرقت جثثهم هؤلاء الهالكون ضحايا الثأر العام، القتلة الفولكلوريّون الراقدون اليوم تحت أحجارهم الضريحيّة الرخاميّة بالقرب من أبي معاون قاضي التحقيق في إحدى الدارات في الجزائر، المهندس المسيحي المتخصّص في القتل إغراقًا في الماء، أو بواسطة القضيب الفولاذي، أو الكهرباء، لم يتحدّث عن الموضوع إطلاقًا هذا بديهي، ولم يأتِ على سيرته قطّ، لكنّه كان يعرف عندما ينظر إليَّ، يرى ويعاين فيَّ عوارض يعرفها، يعرف الجراح والآثار التي تظهر على أيدي الجلّادين- بقيت أمّي متشبّثة بكتفي بصمت، أُنزل أبي في السرداب، تبكي أختي وتزيد في البكاء وفمي المتخشب أصبح رهيبًا، الصلبان، الملائكة فوق القبور الضخمة ترقص، القوّاس يرفع مرشّته يائسًا، ويرسم مدّعو التقوى إشارة الصليب، يخيّل لي أنّني أسمع أجراسًا لا متناهية، طنينًا، عصفورًا يغنّي أو أوتوبيسًا يصفر عند بوّابة شوازي، أو أنّه هدير قطار في الريف الإيطالي المزيّن بالمزارع والمعامل، المسطّح إلى ما لا نهاية، عند مشارف ريجيو الجميلة البورجوازيّة، حين وُوري أبي الثرى توالى الأصدقاء وأفراد العائلة، والزملاء أمامنا لكي يؤكّدوا لنا تعازيهم الحارّة، وقدامى الجزائر أيضًا، كنت أعرف بعضًا منهم، رفاق السلاح المحزونين، المندهشين، المذعورين حيال الفقيد الذي ما يزال في عزّ شبابه، كانوا يضغطون بحرارة على يدي، **آه فرنسيس آه فرنسيس إنّه والدك**، ولا يضيفون شيئًا، يحيّون والدتي بوقار وأختي، ثم أتى دور الكرواتيين، خالي أتى من كندا خصّيصًا ليكون بالقرب من والدتي في هذه المحنة يقبّلني على خديّ الاثنين، ذئب كالغاري[1]، مخليًا مكانه للأقارب الذين لا

---

(1) كالغاري: مدينة في كندا.

يحصى عديدهم، ثم للمجهولين الذين كانت أمّي تحيّيهم وتشكرهم والتأثّر بادٍ على وجهها باللغة الكرواتيّة بلا تمييز، اللغة التي يفهمها فقط الجنود الصرب والمونتينيغريّون المدفونون على مسافة أمتار قليلة من هناك، لم أعد أطيق البقاء في مكاني، رأسي يؤلمني، عيناي تحرقانني، أشعر بالرغبة في التبوّل أشعر بالعطش، وصورة أبي المحتشم، في المستشفى، تظهر الآن على زجاج القطار حاجبة المنظر إلا من بعض المصابيح الصغيرة التي تومض في الظلام، رأس جاري قارىء مجلّة **برونتو** يشبه رؤوس الجلّادين، أتخيّله يدخل بسهولة أشياء راضّة في مهبل إحدى المسلمات ويثير عضوها الحليق الضحك في صفوف فرقة بأكملها، على أعالي الجزائر البيضاء التي سبقني إليها والدي، ضمن **منطقتي**، حطّ رحاله في 22 آب 1956 من على سفينة نقل عسكرية آتية من مرسيليا، بصفته مؤهّلا في سلاح الإشارة، لا شيء كان يؤهّله مسبقًا ليصير بطلاً، كان طالب هندسة ثم طالب ضابط متخصّصًا في البثّ الإذاعي، جاء يطلب عملاً بعد ستّة أشهر من التدريب خلال «الأحداث» التي لم تكن تأخذ منحى جيّدًا، ثم عُيّن في شعبة المخابرات العسكريّة، ويجدر القول في حملات الاعتقال المنظّمة، التي يقوم بها الجيش من حين إلى آخر، هل كان يتذكّر، وهو على سرير نزاعه الأخير الرجال والنساء والنساء والرجال الذين استجوبهم الواحد تلو الآخر في تلك السنة قبل أن يطلب نقله إلى دوار غامض[1] ليشارك بطريقة ناشطة أكثر في إخماد الفتنة ورأب الصدع، كما أشار إلى ذلك في الرسالة التي وجّهها إلى رئيسه، ويجد نفسه مسؤولاً عن البثّ الإذاعي في جبل هُجّر من ساكنيه الذين «جرى نقلهم إلى

---

(1) قرى في شمال أفريقيا.

منطقة في الأسفل»، أشكّ في أنّه ألحّ على رؤسائه للسماح له بمغادرة الجزائر، بعد أن قرف واشمأزّ من أعمال الاغتصاب واللكم والضرب، ملفّه العسكري الذي استطعت الاستحصال على نسخة منه من الشبكة العنكبوتيّة الموجودة في بولفار مورتييه، يشهد على التنويه بدوره البارز من جانب قيادة الفيلق في نيسان 1958 في إطار عمليّة تكلّلت بالنجاح وسُمّيت «حب» بإيعاز وجداني: وكانت نتيجتها إحراق بعض القرى، ودحر الفلّاحين - لم يكن هناك أسرى، لسوء الحظّ، ما من شخص يمكن إخضاعه لأعمال التعذيب، ما خلا مدنيّين عُثر عليهم في مغارة قاتمة سرعان ما أبيدوا كالجراذين عن بكرة أبيهم، هل عرف أبي اللذّة الجنسيّة لأوّل مرّة في الجزائر، في أحد الأقبية عندما هتف أحد أصدقائه: إنّه بكر ! إنّه بكر! فيما كان يدخل عضوّه بشكل أخرق في فرج عذراء تبكي خجلاً وألمًا، لم ينظر إليها، كانت عيناه شاخصتين إلى النهدين اليافعين بحلمتيهما السوداوين وإذ استعجلته صرخات الرفاق قذف بسرعة بعد أن أخرج عضوه الملطّخ بالدم وسط صيحات التشجيع والتعييش، كانت عذراء، عذراء، وهو بكر، بكر! انبعثت من القبو رائحة الكحول الزنخة والعرق والرعب والدم وشحم الأسلحة المستعمل لتسهيل إدخال قنينة شراب اليانسون في المؤخّرات واغتصابها، وقنابل التمرين، أو لإيصال الكهرباء ومنع الأجساد من أن تحترق بسرعة، حين لم تعد الآلة المستخدمة يدويّة بالطبع، بل باتت محوّلا للتيّار من النوعيّة نفسها (مع توشيعات ومجسّمات حراريّة) للمحوّل الذي كان يسحرني وأنا طفل عندما أغيّر من سرعة القطارات، كما كان أبي، في زمانه، يغيّر من حدّة الصرخات والتقلّصات والعضلات المشدودة حتى القطع لمن يخضعهم للتعذيب- أذكر أنّني عندما كنت في الليسيه، أخبرت والدتي عن الاختبار

الذي أجريناه في العلوم الطبيعيّة، كنّا نسلّط تيارًا متّصلاً على أطراف ضفدعة مشرّحة فتتحرك قوائمها، وتتقلّص مطاوعة مزاج المختبِر وبطاريّته التي تبلغ قوتها 4,5 فلط، شرحت لها هذا الاختبار بالتفصيل فقالت: «يا للوحشيّة، مسكين هذا الحيوان»، أذكر أنّ أبي لم يضف شيئًا وأنّه لاذ بالصمت مشيحًا بنظره دون أن يعقّب شيئًا على مصير الضفدعة أو البربريّة الكهربائيّة، صمت، مرّة أخرى، كما صمت ذاك اليوم إلى الأبد في قبره، ضحيّة سرطان الندامة أو الذّنب، وصلت إلى مأتمه بعد أن أمضيت ساعات أدقّق في الملفّات والأوراق التي تخصّه، وعلمت أنّه بقي لعام معيّنًا في فرع «التحقيقات الخاصّة» التابعة لشعبة المعلومات العسكريّة التي تتطرّق إليها التقارير السريّة للمكتب الثاني بعد استعراض مغامراته المجيدة في الدوار والضيع التائهة، لحق الابن بظلّ أبيه وجدّه وآخرين كثر دون أن يدري، وانا أدفن مكوّني فكرّت بالأموات الذين هو في صحبتهم في مثواه، المعذّبين، المغتصبين، المضروبين، العزّل، الذين سقطوا في المعارك، ها هم يرفرفون في مدفن إيفري، من حولنا، هل تراهم أمّي، هل تعرف، بالطبع، **قام بما طلب منه أن يقوم به** هذه جملتها، كما أنا **فعلت ما يتوحّب عليّ فعله** لأجل الوطن، لأجل الربّ، لأجل المقابر التي تنادي - أرى من جديد مقبرة فوكوفار الضخمة، صلبانها البيضاء من جهة وشواهد ضرائحها السوداء من جهة أخرى، مقبرة توقّفت في الزمن، تجلّدت، تجمّدت في تشرين الثاني 1991، في فوكوفار بدا الموت وكأنّه أخذ إجازة في 21 تشرين الثاني تحديدًا، بعد ثلاثة أشهر من الجهد المضني، بعد أن تعب وشبع: عدت بعيد دفن والدي في إيفري لأزور مجدّدًا سلافونيا الشرقيّة، وأوسييك، وفنكوفتشي، وخصوصًا فوكوفار التي أعيدت إلى أحضان الوطن، فوكوفار

التي لم أزرها والتي كنت آمل أن تحرّر لدى وصولي في تشرين الأوّل 1991 وسقطت بعد شهر بين يدي الجيش اليوغسلافي وجنود الاحتياط الصرب، أذكر طعم المرارة لسقوط فوكوفار، كان هكتور وإنياس، في صفوفنا، احتلّ المعسكر، والسفن المقعّرة مهدّدة، والخوف، الخوف من الخسارة، من الهزيمة، من الإختفاء والعودة إلى خواء الأشياء، أسلحتنا اللامجدية التي تحطّمت على برونز دبابات ت55، اعتمرت من جديد قلنسوتي السوداء، وبعد أن وّوري أبي الثرى انطلقت للقيام بجولة في كرواتيا، وحيدًا، أردت أن يرافقني فلاهو لكنّه كان منشغلاً جدًّا بتعبئة القناني والبراميل الكبيرة خمرًا وما أدراني، ومن ثم لم تكن لديه رغبة في العودة هناك إلى الأعالي والتشبّع برطوبة الخريف البانوني[1]، ورؤية فوكوفار، معقل الذئاب، الاسم على مسمّى- الميليشاويّون الآتون من فويفودين وصربيا الوسطى قاتلوا فيها بفرح عظيم، هؤلاء الذئاب المشوربين وكأنّهم طالعون من إحدى قصائد نييغوس قتلوا بلطف كلّ من وجدوا في طريقهم، عند سقوط فوكوفار اعترانا جنون، صار أندريا مجنونًا، متشنّجًا، جنّ من الألم، أصبح مسعورًا، خطرًا، غاضبًا، حاقدًا، جسورًا، جامحًا مطلقًا العنان لجموحه، كانت المدينة بالنسبة لنا رمزًا حزينًا أمّا بالنسبة له فكانت أكثر من ذلك بكثير، كانت أسماك الفرخ النهريّ والزنجور، والأصدقاء، والحانات، والمنازل الأليفة والقبلة الأولى عند ضفّة الدانوب، وكلّ ما يجعلك تتعلّق بمدينة من المدن، مررت بقريته التي أراها للمرّة الأولى، لم يعد أهله الذين هُجّروا إلى ضواحي زغرب إلى ديارهم من جديد- كان

---

(1) نسبة إلى بانونيا، إقليم روماني في أوروبا الوسطى ويمثّل حاليًا هنغاريا وقسمًا من كرواتيا.

منزلهم لا يزال مدمّرًا بحديقته الصغيرة وسوره والفجوة الكبيرة التي أحدثتها قذيفة في واجهته وكأنّها عين فاحشة، اتّجهت بعد ذلك إلى فينكوفتشي، ثم انعطفت شمالاً إلى فوكوفار، في الطريق بين أوسييك وفينكوفتشي لم أستطع تذكّر أيّ شيء، ولا أيّة ساحة من ساحات المعارك التي شاركت فيها، لا ذئاب تُرى في المدى المنظور رغم الوقت المتأخّر، كان لفينكوفتشي هيئة ساكنة وهاجعة، الضواحي مفترشة بالبيوت المدمّرة الملاصقة للأرض، معامل غيّرت وجهة استعمالها محروقة، ومقصوفة، كنت أسير وسط الخطوط القديمة خلف مقود سيّارتي الغولف الجديدة التي اشتريتها من عند **آفي** في المساء المتعفّن تحت الرذاذ المتجلّد، ورأيت المدفن، على مسافة بضعة كيلومترات من فوكوفار، وقد مالت خيوط الشمس الأخيرة نحو المغيب، توقّفت، أمامي سهل كبير مسطّح وموقف معدّ لاستقبال ثلاثين أوتوبيسًا، ورايات، وكتلة متراصّة من القبور، قلت في نفسي إنّ الذاكرة لم تلبث أن استقرّت داخل الضرائح، واستعادت الأمّة حقوقها على شهدائها، المدفن الجديد على أرض استُعيدت للتو حيث كان الموت يحصد أبناءها منذ عشر سنوات، شواهد القبور جميعها شاهدة على ذلك، توفّي في 20 تشرين الأوّل 1991، توفّي في 21 تشرين الأول 1991، توفّي في 2 تشرين الثاني 1991، وهذه العائلة المؤلّفة من الزوج والزوجة والابن الذين فاجأتهم قذيفة بالطبع توفّوا كلّهم معًا في 5 تشرين الثاني 1991، وهكذا دواليك حتى 19 تشرين الثاني حين بلغ الموت والمجزرة ذروتيهما - على مسافة لا تبعد كثيرًا، مقبرة هؤلاء الذين لم يسقطوا في الحرب تبدو غير منظّمة، حيّة، لكن هناك، في حقل الرخام الأسود، تهيّأ لي أنّني أتجوّل في مدينة أموات مغلوطة، حيث جميع الجنود مدنيّون لكن ألبسوا على

عجل لباس الشهداء، كان العلم الكرواتي يخفق موحّدًا نفوس أولاده الجدد كما كان في تلك الحقبة حين كان التفّ حول زنود المقاتلين، كان الشعار المشطرج بمربّعاته الحمراء والفضيّة يلامس 938 صليبًا أبيض، هبط الليل على مهل، كنت وحدي وسط كلّ هؤلاء الموتى متصلّبًا وممتلئًا بحزن أصمّ، ركبت سيارتي الغولف من جديد سائرًا حتى فوكوفار، حتى فندق الدانوب حيث كان برج أحمر يفرقع على ضفّة النهر، مشيت على طول الضفّة، وشاهدت صرحًا آخر، صليبًا ضخمًا عند ضفّة الماء، تصاعدت من وسط المدينة رائحة الأشباح والموت والطين، دخلت من باب إحدى الحانات في الشارع الشهير بقناطره الباروكيّة التي أعيد بناؤها بشكل كامل، كان هناك شبّان حليقو الرأس ينظرون إليّ بغرابة، أفرغت كأسين أو ثلاثًا من *Rakija* في جوفي جرعة واحدة فأنعم البارمان النظر إليّ، كنت أشعر أنّني خاوٍ من الداخل خواء مريعًا، خسرت لتوي معركة فوكوفار للمرّة الثانية، المعركة ضد الحزن واليأس، مررت بالقرب من السوق القديمة المسقوفة المحروقة المقصوفة التي بُدّلت وجهة استعمالها، اشتريت زجاجة من شراب الخوخ المحليّ من محل سمانة وكيسًا صغيرًا من الفول السوداني ثم عدت إلى فندق الدانوب وارتميت على السرير وعيناي على نوفي ساد وبلغراد على مجرى النّهر المهيب وشربت، شربت وأنا أفكّر بغضب بأندريا ودموعه بعد سقوط المدينة، أندي هذه الكأس على شرفك، على شرف غضبك، في ذاك النهار أو في اليوم التالي، لم أعد أذكر متى أوقع القدر بين أيدينا أسيرين على أحد الكمائن، كان أحدهما جريحًا والآخر سليمًا يرتجف خوفًا ويقول لي **أبي ثري، أبي ثري، إذا تركتموني سيعطيكم الكثير من المال**، كان على درجة من الخوف بحيث لا يكذب، أمسكنا بهما فيما كانا

يحاولان الفرار، كنت أميل إلى تخلية سبيلهما وعلى شك أن أعهد بهما إلى الجنود لكي يصطحبوهما إلى أوسييك، لكنّ أندريا وصل وقال **هل جننت أم ماذا؟ هل نسيت فوكوفار؟ لا تدعوا أحدًا منهما يفلت من قبضتنا**، ودرزهما برصاص رشّاشه طويلاً، وعلى الفور، دون تردّد، ناظرًا إليهما مباشرة، خمس عشرة رصاصة في صدر كل واحد منهما، على سريري في فندق الدانوب أرفع كأسي لأندي مترعة، أندي راعي المحاربين الكبير، أرفع كأسًا ثانية للنظرة المندهشة للصربيّيْن اليافعيْن عندما اخترقهما الرصاص وثالثة لمدفن فوكوفار في الليل النازل، ورابعة لمقبرة إيفري ذات صباح ربيعيّ، ولجنود 1914، وللمقاومين المحكوم عليهم بالإعدام، وخامسة لأبي الذي كان بالطبع قاتلاً لا مقاومًا ولا محكومًا بالإعدام وهو بصحبتهم اليوم، فيما القطار يبطىء في الدخول إلى ريجيو العذبة والجميلة في إمِيليا، ريجيو المضيئة للآتين من العتمة، المدينة الإيطاليّة حيث الكنائس والساحات والقناطر لم تدمّر تحت قصف مدافع الهاون، المحطّة صغيرة، ذاهبة في الطول، مفترشة بأضواء النيون الباهرة، بعض المسافرين ينتظرون على الرصيف متدثّرين بمعاطفهم، ملتفعين بمناديلهم، في الجهة المقابلة قطار بضائع، ذاهب في اتّجاه مودينا، محمّلاً بخزانات من الحليب- لم يكن الأمر يحتاج بالطبع إلى قطار لنقل اليهود العشرة الذين جرت مداهمتهم في نهاية عام 1943 لا بدَّ أنّهم نقلوا في شاحنة إلى معتقل فوسولي الواقع على مسافة قريبة تبلغ عشرين كيلومترًا، وهو بمثابة غرفة انتظار قبل الدخول إلى بولونيا، ومع ذلك فهناك لوحة تذكاريّة، في المدينة، بالقرب من الكنيس الكبير في قلب الغيتو القديم، تشير إلى أسماء هؤلاء الأشخاص العشرة الذين أعدموا على مسافة ألفي كيلومتر من بيوتهم، فيما كانت عشر رصاصات

يطلقها رجال الدرك من بنادقهم كافية لقتلهم وتجنيبهم عذابات السفر، ودفنهم في ضريح سريّ ولا شكّ، لكنّه في جميع الأحوال مكان في الأرض حيث بإمكانهم، على غرار القتلى الذين سقطوا في فوكوفار، أن ينتظروا فيه على أمل أن يعثر عليهم أحد، لكنّهم لم يحظوا بهذه الفرصة، قدّموا إليهم زاوية في إحدى الغيوم الثقيلة من سماء غاليسيا- فوسولي معتقل الترانزيت حيث مرّ، من خريف 1943 إلى آب 1944، معظم اليهود المرّحلين من إيطاليا، ومن ثمّ انتقل المعتقل إلى بولتسانو، عند الحدود مع النمسا، أيّ إمعان غريب هذا في الضراوة، كانت الحرب شبه خاسرة، وجمهوريّة موسوليني الاشتراكيّة الإيطاليّة في سالو تنهار على كلّ المستويات، ومع ذلك كانت الإدارة الألمانيّة تعيا في تنظيم المواكب التي تنقل المقاومين وآخر يهود بولونيا أو ميلانو إلى فوسولي ثم بولتسانو وأخيرًا إلى بيركينو، باذلة كل ما في وسعها لجعل إيطاليا مفرغة من اليهود بحسب المصطلحات الدقيقة لتلك المرحلة، يهود ريجيو العشرة الذين لم يهاجروا اعتقلوا داخل بيوتهم ربما، بالقرب من الكنيس في دلا أغيويلا، أو ربّما شُهّر بهم، وربّما لا، وانضمّوا إلى المقاومين وراء الأسلاك الشائكة، ثم رُحّلوا في قطار إلى المحطّة الأخيرة البولونيّة حيث كان يصل إليها في تلك السنة 1944، يهود المجر وآخر ستين ألف نسمة منهم في غيتو لودز، ومن بينهم أقارب ناثان سترسبرغ الضابط في الموساد، وأجداده، هؤلاء الذين على الأقلّ لم يجر تسميمهم بالغاز في شلمنو عام 1942 - بيركينو التي تلتقي فيها جميع طرقات سكك الحديد، من سالونيك إلى مرسيليا مرورًا بميلانو وريجيو وروما، ومن ثمّ تذهب هباءً منثورًا، في قطاري نوافذ، بعضهم رُحلّوا في حافلات المسافرين كيهود براغ، ويهود اليونان الذين كانوا يدفعون ثمن بطاقتهم إلى بولونيا، كانوا

يبيعونهم بطاقة تفضي بهم إلى الموت، وكان مشايخ الطائفة يفاوضون بشراسة ثمن الرحلة مع السلطات الألمانية، أيّ تخابث غريب كان يميّز الموظّفين النازيّين، إيشمان، وهوس، وشتانغل، الذين كانوا رجالاً هادئين، آباء عائلة هادئين يتناقض هدوؤهم مع الهستيريا الذكوريّة القتاليّة التي وسمت هيملر أو هيدريش، كان فرنز شتانغل يهوى الأزهار والحدائق المنسّقة والحيوانات، وخلال مروره بإيطاليا وأودينا وتريستا، أعجبته مناظر فينيسيا العذبة، والبحر، ثم أعجبته مدينة دمشق القديمة وعطور الهال المنبعثة منها، وأحبَّ زوجته وأولاده، هو الشرطي النمساوي البسيط الذي لم يكن ذا شهرة تذكر، قاتلُ عدة مئات الآلاف من اليهود، أنكر حتّى النهاية واقعة قتله يهوديًّا واحدًا لا بل كان مقتنعًا أنّ موتهم لهو رحيم وهم يُحشدون هكذا بين أربعة جدران من الإسمنت ويُخنقون بالغاز المنبعث من محرّك ديزل، لا يستغرق الأمر أكثر من عشرين دقيقة حتى يكون الأسرى قد لقوا حتفهم **حينئذٍ كلّ شيء يسير على ما يرام**، وما دام كلّ شيء، على حدّ قوله، يسير على ما يرام في غضون عشرين دقيقة فالمسألة لا تحتاج إلى مراجعة إذًا، لكن بالطبع كانت بلزيك وسوبيبور وتريبلينكا مجرّد محترفات مقارنة مع أوشفيتز، فالزميل هوس كان شديد الإتقان لعمله، كانت معتقلات التعذيب الموزّعة التي جهزّها تعمل بشكل رائع وظلَّ العاملون فيها يحسّنونها حتى النّهاية، لا بل أنّهم كانوا يخطّطون لتوسيعها بشكل يمكنها معه استيعاب أوروبا كلّها إذا استلزم الأمر، استقبال جميع السلاف الأوباش وكلّ المخرّبين، دون حقد ولا غضب، فقط على سبيل إيجاد حلول للمشاكل، لأنّ كلّ مشكلة تستلزم حلًّا كما يستوجب كلّ سؤال جوابًا- أبي ابن المقاوم شارك بنشاط في إيجاد حلّ للمسألة الجزائريّة، حاملاً رشاشه في يده، وها هو يرقد اليوم

في مقبرة إيفري، بالقرب من الذين أعدموا بالرصاص في جبل فاليريان، كان جلّادًا رغمًا عنه، مغتصبًا رغمًا عنه منفّذ عقوبات الإعدام رغمًا عنه، بالطبع لا علاقة له بهوس أو شتانغل والآخرين، ولد أبي عام 1934 بالقرب من مرسيليا وكان يؤمن بالله والتقنيّة والتطوّر، وبالإنسان والتربية والأخلاق، اندفع القطار من جديد، تاركًا رجيودل إميليا بهدوء محدثًا صريرًا، يا لبطئه، يا لبطئه المشؤوم، يتهيّأ لي فجأة أنّ الأسماء الموجودة في الصندوق الصغير تسيل عليَّ دبقة كالإفرازات المنبعثة من جثّة متحلّلة منسيّة في إحدى القاطرات، يغريني أن أفتحها لكنّها لا تحتوي على شيء يمكن معاينته، ليس فيها إلا وثائق مرمّزة داخل أسطوانات من زجاج، خمس سنوات من الهواجس التي تقضّ مضجعي منذ هرمان جيربنز حارس المعتقل الهولندي، خمس سنوات وأنا أمارس دور مؤرّخي الظلّ أو جواسيس الذاكرة، ها قد انتهى كلّ شيء الآن، إنّها طريقة في الكلام ليس أكثر، كان بإمكاني أن أستمّر عشر سنوات إضافيّة على هذا المنوال، لكن هناك روما في انتظاري ومعها الحياة الجديدة، هناك مال الفاتيكان، البدء من جديد، بدء كلّ شيء من جديد تحت اسم إيفان دوروا، وداعًا يا فرنسيس المحارب السابق والمفوّض لدى وزارة الدفاع، منذ وفاة أبي سجنت امي نفسها في ترمّلها، إنّها أرملة في غاية الوقار، محترفة حداد، ترافقها صديقاتها وأختي إلى القدّاس مرّتين في الأسبوع وإلى المقبرة الأحد صباحًا بعد القدّاس، تعيش من أجل زوجها الميت كما عاشت من أجله عندما كان حيًّا، وحين لا تكون في الكنيسة أو في إيفري تعزف مقطوعات بتهوفن وشومان على البيانو حتى تتشنّج أصابعها، **كم تعزفين بشكل رائع يا أمّي**، تمضي ليدا نهاراتها في بيت والدتي مستمعة إليها، وتعود إلى بيتها فقط في الوقت الملائم

لتحضّر لزوجها العشاء، تقيم على مسافة مئتي مترٍ من منزل والدتي، وتلحّ على أمّي من الصباح حتى الغروب لكي تعود إلى تعليم التلاميذ دروس البيانو فتجيبها **في مثل سنّي، في مثل سنّي** ومع ذلك فأمّي لم تكد تتجاوز الستين، لم أعد أذكر بالضبط متى توقّفت عن إعطاء الدروس للتلاميذ، لا أذكر متى تحديدًا توقّفت المراهقات من بنات العائلات الراقية عن المجيء إلى البيت، أذكر واحدة منهنّ خصوصًا، كانت تكبرني بثلاث سنوات على الأرجح وتأتي مرّتين في الأسبوع، حوالي الساعة الخامسة أو السادسة مساءً حين أعود من المدرسة، كانت ترتدي تنورة تغطّي جسدها الممتلىء، وجهها مستدير وشعرها أشقر طويل مرفوع، كانت تحيّيني بلطف عندما أهرع لأفتح لها الباب، أستلم معطفها من الدفيل[1] فيما أراقب نهديها اللذين كانا يبدوان لي هائلين، أتنشّق عطر معطفها وأنا أعلّقه وأتأملّها تمشي إلى غرفة الدّرس، هكذا كنّا نسمّي الغرفة التي تعطى فيها دروس البيانو، كانت تحمل المقطوعات الموسيقيّة ودفاترها في يدها، أتجسّس عليها عبر الباب المنفرج قليلاً، تصل الفتاة اليافعة بالقرب من أمّي تجلس أمام البيانو وترفع أحيانًا تنّورتها لكي تسوّي جلستها على المنضدة في حركة آليّة منها- لكنّها كانت بالنسبة لي لحظة إيروتيكيّة راعبة، كنت أخالني أرى ثيابها الداخليّة عبر كولوناتها الصوفيّة، أشعر باحتكاك ردفيها على نسيج اللبّاد النبيذي، حركة فخذها وهي تضغط على الدوّاسة، فينتابني انتصاب فظيع، تجتاحني رغبة لا حدود لها فأهرول إلى المرحاض فيما تعزف- (كانت موهوبة) مقطوعات ليزت أو البولونيز لشوبان، كان إيقاع أناملها على الملامس، هكذا كان يُخيّل إليَّ، موازيًا

---

(1) الدفيل: دثار من نسيج صوفي كتيم للماء مع غطاء للرأس.

لإيقاعي على آلة عضوي، محمولاً على جناحي الشهوة والموسيقى، مع أنّي كنت أمقت ليزت وشوبان وكلّ هذه النوتات الأموميّة المريعة، إلا أنّني أبلغ ذروة النشوة بسرعة كبيرة، تعيد التلميذة المشتهاة عزف المقطوعة لضبط درجة سرعتها ولأكثر من مرّة يقطع عليّ صوت أمّي لذّتي وهي تقول **لا، لا، لا، خفّفي السرعة، خفّفي السرعة**، تقولها بلهجة عسكريّة قادرة على إغاظتي بشكل لا مثيل له إلى حدّ الغضب المسعور، الممزوج بالخجل وكأنّها تباغتني على حين غفلة وعضوي في يدي، وكأنّها لا تستطيع أن تتركني وحدي مع هذه التلميذة، وتنتزعها من أحضاني، وترحل الصبيّة ثانية بعد انتهاء الدرس فأعيد لها معطفها، عمومًا كانت أمّي تناديني على الفور: **فروضك، إنهِ فروضك، كف عن الشرود كالأبله وإنهِ فروضك، لن يتأخّر والدك في العودة**، وبالطبع كانت شقيقتي قد جلست للدرس حاملة القلم في يدها، عندئذٍ أجد لذّة ماكرة في أن أصدمها من مرفقها لكي أتسبّب بشطب كبير على صفحة دفترها الخالية من أيّة شائبة، فتبدأ في البكاء حزنًا، أو وفقًا لمزاجها، قد يتسبّب لها ذلك بغضب مكبوت مشابه لغضبي ونبدأ بالعراك إلى أن أتفوّق عليها مستعينًا بقوّتي وأخضعها لمشيئتي، أجمّد ذراعيها بركبتي وأهدّدها بأنّني سأدع ريقي يسيل على وجهها فتتلوّى قرفًا واشمئزازًا، وأردع نفسي عن إنزال خيط الريق في آخر لحظة، كانت تشهق بالبكاء، مهزومة، ذاك كان انتقامي من نساء العائلة اللواتي يحظّرن عليّ الاتّصال بنساء الخارج الجميلات، عادة في مثل هذه اللحظة بالذات يصل والدي، تستفزّه صرخات ليدا ما أن يتجاوز عتبة الشقّة ويقول لي **أنت متوحّش دع أختك وشأنها** فتتدخّل أمّي تلقائيًا **لا ابنك ليس بمتوحّش**، إلخ، كنت من حصّة أمّي على الدوام، ابنها الذي تدافع عنه إزاء تدخّل الذّكر في شؤونه،

بعدئذٍ كان يتوجّب عليَّ الاعتذار من الفتاة المزعجة الواشية ومحو بقعة الحبر عن دفترها والانصراف إلى فروضي وأنا أحلم بنهدي عازفة البيانو الشابة وردفيها حتى العشاء- ضمن سيميائنا العائليّة، كان أبي يسيطر على البيت بصمته وتحفظّه وكانت أمي أستاذة متسلّطة تنظر إلى العالم كأنّه مقطوعة موسيقيّة صعب أداؤها بالطبع، ولكن بالنظام والجهد والمثابرة بالإمكان قراءتها، وبهذه الطريقة ربّتنا، بالنظام والجهد والعلم هي المنفيّة التي لم تعرف بلادها وبنت نفسها عبر التمارين، ومقطوعات سكريابين[1] وهي من أصعب المعزوفات في العالم، صحيح أنّها تخلّت عن عملها كعازفة منفردة عندما قابلت زوجها إلا أنّها احتفظت بهذا الجبروت وهذه القدرة العاتية على الأستذة والتوجيه والاجتهاد، بالطريقة نفسها التي كانت تجهد بها للتحكّم بأناملها على البيانو بانضباط حديدي، كان بإمكان والدتي أن تكون جنديًّا ممتازًا، على غرار انتصار الفلسطينيّة، جنديًّا مثابرًا مطيعًا مبتدعًا الوسائل لتأدية مهمّته على أكمل وجه، على غرار أبي على أقلّ تقدير كان هو أيضًا بطبعه المتقشّف لا بل الصارم مهيّئًا لحياة الثكنة أو الدّير لا فرق، وكان يسيرًا بالنسبة له سواء التحق بدير بور-رويال[2] أو بالمدرسة الحربيّة، كان كاثوليكيًّا، محترمًا للقانون أكثر منه محبًّا للنّظام، لديه فكرة متأصّلة في نفسه عن الوطن والجمهوريّة أورثته إياها عائلته المتواضعة التي لم يحصل

---

(1) ألكسندر سكريابين (1872- 1915): مؤلّف موسيقى روسيّ، زعيم التيّار الواقعي في بداية القرن العشرين من أعماله «بروميتيوس» أو «قصيدة النار» (1910).

(2) الدير الذي كان موئل الجانسنيّة وهي حركة دينيّة شديدة التزمّت في القرن السابع عشر.

فيها أحد على شهادة أعلى من شهادة الدروس الإبتدائيّة، بالنسبة له تمثّل أمّي الثقافة، الثقافة والبورجوازيّة، بورجوازيّة تراجعت مرتبتها جرّاء المنفى بالطبع، لكن بسبب من هذا سهلة المنال، وبالمقابل أتساءل كيف استطاعت أمّي، وكان الأصل الاجتماعيّ «والعرق» يرتديان بالنسبة لها أهمّيّة كبرى، أن تقع في غرامه بحيث تحدّت مفاهيم عائلتها السابقة وتزوّجته - ربّما رأت فيه الفضائل المسيحيّة وحدست صبره وخضوعه، ربّما استشفّت أيضًا هذا الصدع خلف صمته، وجرح الجزائر الثخين الذي كان يشبه كثيرًا جرح أبيها بالذات، ثمّ أنّه كان مهندسًا بعد كلّ حساب تنتظره مهنة محترمة وبالتالي لن يكون شريكًا سيّئًا، حتى لو كانت لديه سيّئة فظيعة وهي أنّه ليس كرواتيًا، لكنّه في نهاية المطاف صهر لائق، لا بأس به سوف يتعلّم رقصة الكولو، حسبه أنّه ليس أرثوذكسيًّا ولا يهوديًّا ولا شيوعيًّا، هذا هو المهمّ، على أيّة حال فإنّ خالي، ذئب كالغاري، ألم يتزوّج فتاة من زغرب تنتمي إلى عائلة ممتازة، ألا يمكن والحالة هذه السماح للابنة الصغيرة في العائلة أن تتزوّج وفقًا لرغبتها متجاوزة المفاهيم السائدة لدى العائلة - هذا ما تخيّلته، لكنّي أظنّ أنّ والدتي لم تذعن لهم بل اتّخذت قرارها، سئمت من تسميتها الطفلة المعجزة، والمراهقة المعجزة، ثم العازفة المنفردة المتوسّطة، اختارت حياتها بالحزم نفسه الذي اختارت فيه بعمر السابعة أن تحفظ عن ظهر قلب سوناتات سكارلاتي وتعزفها معصوبة العينين أمام جماهير من العجزة، أكبر عازفة يوغوسلافيّة في كلّ الأزمنة، هكذا عنونت جريدة فرانس - سوار، الأمر الذي أثار غضبًا مسعورًا لدى جدي، **يوغوسلافيّة، يقولون يوغوسلافيّة، ولمّ لا يقولون صربية طالما أنّ الأمر كذلك!** اتّخذت أمّي قرارها، لم تقبل برهان أخيل، فضّلت منزلاً متواضعًا على مجد احتمالي،

اختارت قدرها الذي أعدّت له طيلة سنوات وهو أن تصبح زوجة، وأمًّا، لا بل أمًّا لأحد المقاتلين الذين سيحرّرون الوطن من نير تيتو، كان البيانو هواية ظريفة بالنسبة لآنسة مثلها، وتقديم الحفلات شيء رائع لكنّه ليس إنجازًا، لم يكن هذا مكانها، مكانها في البيت مع عائلتها، اتّخذت أمّي قرارها هذا دون ندم، وازنت بين السيّئات والحسنات، واختارت أبي الصامت العظيم- كم كنت أودّ لو أقدمت أنا على اتّخاذ مثل هذا القرار، ليتهم خيّروني كأخيل، بدل أن يتركوني أتنقل في العتمة من قبو إلى آخر، ومن مخبأ إلى آخر، ومن منطقة لأخرى انتهاءً بهذا القطار السائر على مهل في الخط المستقيم اللامتناهي لسهل البو، بين ريجيو ومودينا، وبرفقتي آلاف الأسماء في الحقيبة وفتى إيطالي جميل أمرد لا جليس لي غيره ويهوى الدحاديح، هل كان هذا الرحيل ثمرة قراري فعلاً؟ تُرى هل يكون مؤامرة مدبّرة في البولفار، في مركز الاستخبارات، مؤامرة حيكت منذ توظيفي المشبوه منذ البداية، ماذا دهاني لأصبح مصابًا بالذّهان الهذيانيّ[1]، تحت تأثير المخدّرات وسنوات التجسّس، لنسمّ الأشياء بأسمائها، في 1995 استبدلت الكلاشينكوف بآلات موت أكثر رهافة ولكنّها تملك الفعاليّة نفسها، المطاردات، والمخابىء، والاستجوابات، والتشهير، والترحيل، والابتزاز، والمساومات، والمناورات للسيطرة على الأفراد، والأكاذيب، كلّها أفضت إلى أعمال اغتيال ووضع حدّ لحياة آخرين أو تمريغ جباههم في الأوحال والعبث بمصائر البعض وهتك أسرار البعض الآخر، هل يمكنني أن أترك كلّ

---

(1) الذّهان الهذياني أو البارانويا: ذهان من أعراضه الهذاء الثابت مع نزعة للشكّ والارتياب.

هذا ورائي، أن أترك ورائي الحرب والبولفار كمن ينسى قبّعة في إحدى الحانات، إلى أين ألجأ، هل أحذو حذو أمّي في خيارها الصّعب، هل ألوذ بصمت أبي، بقبر أندريا الذي لا يؤوي جثمانه، بحقيبتي بالذات، بصندوق الفاتيكان الصغير نور العالم، أفسح مكانًا صغيرًا لأبي هاوي القطارات الكهربائيّة، مكانًا صغيرًا في الحقيبة لأبي الشرس والصامت في آن معًا

الفصل التاسع

ما الذي لديّ لأفعله سوى أن أقتل جاري أو أخنقه كما خنق لوري زوجته، عدا ذلك ألتزم جانب الصمت، أغمض عينيَّ، أفتحهما محاولاً النوم، اليوم 8 كانون الأوّل، في هذه اللحظة يلقي البابا الأقدس المحتضر خطبته في روما في ساحة إسبانيا، لا يكفّ هذا البابا عن الموت مرّة بعد مرّة، ربّما كان أبديًّا لا يقهر وهذا يتجاوز الحدّ، فجأة يمتنع هذا الرجل عن الموت، لا يلقى حتفه مثل أقرانه، بل يستمرّ على قيد الحياة، رغمًا عن كلّ شيء، يتشبّث بالحياة رغم كونه عليلاً، مرتعشًا، خرفًا لكنّه معاند، سيبلغ المئة، ثم المئة وعشر سنوات، ثم المئة وعشرين سنة، الجميع يجرون رهانات على موته لكن لا، سيتمكّن من بلوغ المئة والثلاثين، وذات يوم سيدرك الجميع أنّه لن يموت، وسيبقى معلّقًا بين الحياة والموت، عالقًا هنا في مكانه رغم الباركنسون، ورغم الألزهايمر، كالمومياء لكنّه حيّ، حيّ لقرون وقرون، وهذه الحقيقة تحزن خلفاءه المحتملين حزنًا لا يوصف إلى أن يتّخذوا القرار بتسميمه، تسميم حساء الساعة الحادية عشرة الذي يتناوله العجوز المربك، لكن لا أمل بذلك فهو كالشهداء المسيحيّين الأوائل سينجو من السمّ، يفقد بصره لكنّ قلبه لا يزال يخفق، يتلّفظ من وقت لآخر بكلمات في آذان زوّاره، باللاتينيّة،

يصطفّ آلاف الحجّاج لكي يروه، يبيعون شعره شعرةً شعرةً وكأنّها ذخائر أبديّة، وكأنّها آخر عرف أبديّ للرجل المبارك الذي لا يكفّ عن النزاع، شبيهًا بنهاية العالم التي لا تحين، شعرة غير قابلة للفساد مثل جثّة هؤلاء القدّيسين الذين لا يتحلّلون أبدًا، ومن ثمَّ بعد أن تعيي الحيلة الجميع، ينسونه في إحدى زوايا القصر، برفقة خدّام يدفنهم جميعًا، الغبار يكسوه شيئًا فشيئًا ويختفي من الذاكرة، من الحاضر، إنّه لوحة حيّة، تمثال نصفي، نصب ما عاد أحد يحفل له - ومع ذلك ليس بوسعي أن أتذمّر من الكرسي البابويّ فله أدين بحياتي الجديدة، المال مقابل الحقيبة، أسلّمها لهذا القاصد الرسول الرسولي من دمشق الذي عرّفني إلى أمين سرّ المديريّة البابويّة ليعنى بقضيّتي، بسريّة فائقة طبعًا، دمشق مدينة الغبار مثلها مثل القاهرة تقريبًا، مدينة الغبار والوشاية، مدينة الخوف والمتعاونين مع الشرطة، حيث يدفنونك حيًّا في سجن رمادي وسط الصحراء، الزنزانات السوريّة عميقة، لا يمكن الخروج منها إلا نادرًا، كم من السوريّين واللبنانيّين يتخلّفون عن تلبية النداء هناك، أُلقي القبض عليهم على أحد الحواجز أو اعتقلوا في منازلهم، ولا أحد يعرف شيئًا عن مصيرهم، هل لا يزالون يتعفنّون في جوف سجونهم أم صُرعوا برصاصة في الرأس في سجن المزّة أم شنقوا في تدمر على بعد خطوتين من آثار مدينة الملكة زنوبيا ومعبد بعل والمقابر الخرافيّة، تحت أشجار النخيل تلتقي أحيانًا بشاحنة مكشوفة مليئة بأشخاص حليقي الرأس، يشيح الجميع بنظراتهم عنهم كي لا يروهم، إنّهم معتقلون يجري نقلهم من دمشق أو من حمص ليرموا في سراديب تدمر إلى الأبد: مجرّد النظر إليهم يجلب النّحس، كالنّظر إلى المحكومين بالإعدام، السّجن يقع على مسافة بضعة كيلومترات من غابة النخيل عند مشارف سهوب الحجارة التي

لا تنتهي، ذهبت لرؤيتها بدافع الفضول، على مسافة لا يستهان بها، يبدو السجن ثكنة عسكريّة فرنسيّة قديمة محاطة بسور رمادي من الأسلاك الشائكة، لا يرى المساجين ضوء النهار ولا يسمح لهم بالنزهات ولا يتنشّقون الهواء ولا يبصرون لون السماء، يمضون معظم وقتهم معصوبي الأعين، فكّرت بربيعة، أحد مخبرينا في وزارة الدفاع السوريّة، ابن عائلة مرموقة كان يحبّ المال كثيرًا وسيّارات السباق والمخدّرات وركوب المغامرات، اختفى ذات صباح وأعلمنا الوسيط بيننا وبينه بلهجة مازحة «أنّه في سويسرا»، هذه تورية مستخدمة في سوريا ويُقصد منها تلك الإصلاحيّة الموجودة وسط الصخور على مسافة خطوتين من أحد المواقع الأثريّة الأكثر شهرة في الشرق الأوسط، الفائقة الجمال حين يلوّن الفجر الزعفراني الأعمدة البيضاء بألوان قوس قزح والقصر العربي راعيها فوق التلّة، إنّها بالميرا- تدمر مدينة القوافل المملوءة اليوم بقوافل السوّاح والمساجين، مدينة الحملان المذبوحة وسط الشارع على مرأى من الأنظار المرتاعة للمارّة الأوروبيّين، عاصمة السهوب السوريّة حيث ربيعة هذا الذي لم أره قطّ لا يزال يتعفّن هذا إذا كان لا يزال على قيد الحياة في سويسرا، أي في تدمر أو صيدنايا أو حمص أو في المزّة سابقًا في أحد هذه السجون العسكرية الأمكنة المثلى للتعذيب والإعدامات الخاطفة حيث شنق على مدى الثمانينات والتسعينيّات الأخوان المسلمون السوريّون بالعشرات والمئات وجثثهم مدفونة في مقابر جماعيّة في جوف الأودية الصحراويّة إلى جانب هؤلاء الذين قضوا تحت التعذيب أوالمرض، أو السلّ، أو الخرّاجات على أنواعها، أو تسمّم الدم، أو من سوء التغذية، حيث المتكدّسون بالمئات في التخشيبة الواحدة، المحرومون من زيارة ذويهم، الناشطون المسلمون الذين

اعتقلوا في حماة وحلب واللاذقيّة وأُرسلوا معصوبي الأعين إلى تدمر، الاسم على مسمى، حيث كانوا يتأسّنون لعشر أو خمس عشرة سنة ثم يطلق سراحهم مصابين بالبارانويا، هاذين، سقيمي الأجسام عاجزين، التقيت أحدهم في الأردن، مخبرًا آخر في منطقتي، أمضى أربع عشرة سنة في السجن السوري، بين 1982 إلى 1996، من عمر السادسة عشرة إلى الثلاثين، وهناك نُكّل بشبابه، وفقد عينه، وأصبحت قدمه عرجاء، أخبرني أنّ هوايته الرئيسيّة في السجن كانت تتمثّل في إحصاء الضحايا، كان يحصي المتوفّين في الباحة، وهؤلاء الذين يختفون وسط الصراخ والزعيق في منتصف الليل، في البداية حاولت تذكّر أسمائهم على حدّ قوله، لكن بدا لي هذا مستحيلا، فاحتفظت فقط بالعدد، وتشبّثت به كما أتشبّث بحياتي، أردت أن أعرف ماذا سيكون رقمي عندما تحين ساعة موتي، يوما بعد يوم، على مدى أربعة عشر عاما أحصيت 827 ميتًا، أكثر من نصفهم قضوا شنقًا، وفي معظم الأحيان بالتسلسل، أثناء الليل، اعُتقلت من أمام منزلي في حماه خلال أحداث 1982، لم أكن أعرف شيئا عن الإسلام ولا عن القرآن، كنت أجهل كلّ شيء عمّا يدور حولي، تمّ توقيفي لأنَّ أحد جيراننا كان مناصرًا للإخوان المسلمين، كنت بلغت لتوّي السادسة عشرة، عصبوا لي عينيّ وضربوني ضربًا مبرّحًا، حتّى غبت عن الوعي، في ثكنة على ما أظنّ أمضيت نهاري دون أن أشرب قطرة ماء، ثمَ نُقلت إلى تدمر في شاحنة ولا أحد كان يعرف أين يأخذوننا، وصلنا ليلاً، أنزلونا من شاحنة وهم ينهالون علينا بالضرب بالهراوات - عذّبنا الجنود حتى الفجر، كانت تلك العادة المألوفة مع الوافدين الجدد، يجب تحطيم معنوياتنا وإفهامنا أنّنا قيد الإعتقال، حطّموا لي ساقي بقضيب من حديد، فقدت وعيي، استيقظت في مخيّم يشبه بيت منامة

فسيحًا، كانت ساقي مزرقّة، متورّمة كلّها وكنت عطشان، لا أعرف ما الذي آلمني أكثر، العطش أم الكسر في ساقي، لم أكن أستطيع الكلام، أعطاني أحد المساجين ماءً لأشرب ووضع لي ما يشبه جبيرة من قفص عتيق، هذه هي العناية الطبيّة الوحيدة التي تلقّيتها لكنّ عظمي لم يستو في مكانه كما ينبغي، ومنذ ذلك الحين وأنا أعرج، بتُّ عاجزًا عن الرّكض وفقدت كلّ أمل بالعودة إلى ممارسة رياضة كرة القدم، لكن في السجن لم نكن نفكّر في كرة القدم، كانت الباحة مخصّصة لشنق المساجين ولقد نجوت بجلدي والحمد لله، حفظت القرآن غيبًا، كانت الكتب ممنوعة، والأقلام أيضًا، لكنّ القرآن كان يتداول سرًّا، همسًا ووشوشة، تعلّمت السّورة تلوَ السّورة بدءًا بالأقصر بينها، تلقّنتها من فم المعتقلين الأكبر سنًّا، في الظلمة، سيلاً متواصلاً من الكلمات الخافتة ونحن ملتصقون أحدنا بالآخر، كنّا نصلّي جميعًا سويّة، ولكي لا يلاحظ الحرّاس شيئًا، كنا نسجد أمام الله بثنينا فقط الاصبع الصغرى، كما هو مسموح للمرضى، شاء الله أن أستمرّ على قيد الحياة، وحين وصلت إلى الميت رقم 492، التهبت إحدى عينيّ، أصبحت كرة ضخمة متقيّحة ومؤلمة وظلّت مطبقة دومًا، كنت قويّ البنية فتيًّا ومرّ الوقت في تدمر لا يناديك الحرّاس إلا لإبلاغكَ بأنّ المشنقة بانتظارك، وكانوا لا ينادوننا إلا فيما ندر، أحيانًا بعد منتصف اللّيل يتلون لائحة بأسماء المعتقلين الذين سيشنقون نهارًا، وكنّا نودّعهم، اعتاد الجميع على أحكام الإعدام، أوّل شيء فعلته لدى وصولي إلى الأردن هو الذهاب إلى الجامع لأصلّي وقوفًا، قبل أن أنتقل إلى مرحلة السجود حتى لو كانت ساقي تؤلمني شاكرًا الله لأنّه أخرجني من هذا الجحيم، أنهى قصّته وفكّرت أنّه كان يجدر به أن يشكر الله لأنّه وضعه في هذا الجحيم، بالنسبة له، العلويّون البعثيّون

الذين يستلمون السلطة في سوريا هم من الكفّار وينفّذون تعاليم الشيطان، وكان حسن (لندعُه حسن) يخبرني بطيبة خاطر عن المعارضة السوريّة ونشاطاتها السريّة التي يتابعها عن كثب، لكنّه كان أكثر تحفّظًا لدى كلامه عن الأردنيّين أو الفلسطينيّين، وانتهى أمره في عمليّة اغتيال نفّذها رجال الموساد عام 2002 إبّان حملة التّطهير الكبيرة، عندما أرسلت وكالة الإستخبارات الأميركيّة إلى العالم أجمع لوائح لا تنتهي عن «الأفراد المشبوهين»، والأكثر حظًّا بينهم أرسلوا إلى غوانتانامو وأعينهم معصوبة من جديد وقد جرى تعذيبهم مرّة أخرى لأنّ الكثيرين منهم سبق لهم وخضعوا لعمليّات تعذيب على أيدي الأردنيّين والسوريّين والمصريّين والجزائريّين أو الباكستانيّين لأسباب شتى ولكنّ النتائج هي ذاتها، وانتهى بهم الأمر في جزيرة الروم والسيجار والخلاسيّات اللواتي نحتتهنّ الشمس والدكتاتوريّة، وكان المساجين يتعرّقون في بزّاتهم البرتقاليّة، وسط الإجراءات الأمنيّة المشدّدة، ليسهل تمييزها من قبل الحراس وتمتّع أنظارهم أكثر من البيجامات المقلّمة أو الموحّدة اللون في تدمر الرائعة: لم يحظ حسن بهذه الفرصة، يمكن القول، مات مصابًا بصاروخ إسرائيلي صغير موجّه لاسلكيًا دمّر كلّيًا السيّارة التي كان يسافر فيها مع زوجته الشابة وابنتهما في الثانية من عمرها، قُتل بناء على تعليماتي، أنا الذي بعثه إلى ناتان ستراسبرغ لقاء الحصول على معلومات تتيح لي إبرام صفقات مربحة مع شركات أميركيّة في العراق، إثباتًا منّي على حسن نواياي، ضحّيت بأحد المخبرين الذين يعملون لديّ وباتوا موضة بائدة في آخر المطاف، حسن الأعرج شارك في تنظيم إعتداءين ضد إسرائيليين في الأردن أصبح أشدّ كتمانًا وأخذ يكذب من وقت لآخر، وداعًا يا حسن الناجي من تدمر، وداعًا يا ربيعة ابن الموظّف الكبير الذي

خسر منزلته بعد وفاة حافظ الأسد، أسد دمشق العجوز، الذي استطاع، خلافًا لما هو متوقّع، أن يموت على فراشه، أو بالأحرى وهو يتكلّم على الهاتف، يوم وفاته فُقدت زجاجات الشمبانيا كلّها من سوريا وبيروت والقدس، «شيخ الجبل» الذي لعب لمدّة ثلاثين سنة البوكر الشرق أوسطي ولم يُقهر، لعب مع كيسنجر وتاتشر وميتران وعرفات والملك حسين وآخرين كثيرين، وكان الرابح دومًا دومًا، وظلّ النصر حليفه على الدوام، لأنّه كان ماكرًا ربّما أو لأنّه كان خصوصًا عديم الذمّة، مستعدًّا للتضحية ببعض أوراقه ليربح الجولة كلّها، قلب تحالفاته وكان لا يتورّع عن اغتيال نصف أبناء وطنه إذا اقتضى الأمر ذلك، حسن الأعرج يدين له بأربعة عشر عامًا في السجن، وهو محظوظ مقارنة مع العشرين ألف الذين لقوا حتفهم عقب أعمال القمع في الثمانينات، محظوظ ربيعة، الذي كان والده صاحب المقام الرفيع وزيرًا علويًّا، أتاح له الفرصة بأن يغتني على حساب المواطنين وأن يعيش بضع سنوات في الوفرة قبل أن ينتهي سجينًا بين أربعة جدران لبعض الوقت: عندما كنت أذهب إلى دمشق أو حلب أو اللاذقيّة كان لديّ دومًا الإنطباع بأنّي أضع رأسي بين أنياب الذئب، في بلد ينتشر فيه رجال المخابرات في كلّ مكان حيث نصف السكّان يراقبون النصف الآخر، يجب مضاعفة الحذر، الحسنة الوحيدة هي أنّ النصف الآخر مستعدّ بالأحرى للعمل لصالح الأجنبي، مقابل المال، كنت أذهب إلى دمشق «بصفتي سائحًا» ولكي **لا تنفضح نشاطاتي السريّة بسرعة**، توجّب عليّ التنزّه في تدمر، وأفاميا وزيارة متحف حلب، ومشاهدة كنيسة مار سمعان العمودي، القدّيس المرابط في أعلى عموده الذي لا تزال قاعدته موجودة، واستكشاف مدينة دمشق القديمة، وتأمّل الباحة الداخليّة لمسجد الأمويّين حيث يوجد، كما

يشاع، أحد الرؤوس المقطوعة العائدة ليوحنا المعمدان، وتوجّب عليّ خصوصًا الأكل، والأكل، والشرب، والضجر وأنا أنظر إلى حبّات البرد الصغيرة تتساقط على مدينة الحزن والغبار، بالطبع كانت سفارة فرنسا بالنسبة لي منطقة محظورة، وهذا مؤسف، وددت أن أرى البيت العربيّ الجميل الذي أقام فيه عام 1918 فيصل شريف مكّة الذي نادى به لورنس العرب ملكًا عن العرب قبل أن يخلعه الفرنسيّون والجنرال غورو عن عرش عاصمته الجديدة فيتلقّفه البريطانيّون وينصّبونه على عرش العراق على قاعدة الشرعيّة الهاشميّة في هذا البلد الذي تأسّس حديثًا عقب توحّد ثلاثة أقاليم عثمانيّة لم تكن لديها أيّة نيّة في التعايش معًا بسلام وتكوين دولة صُوريّة تابعة لهم، إرضاءً لتشرشل أو جرترود بل عالمة الآثار الجاسوسة، في هذا الشرق الأدنى أو الأوسط اللذين تقاسمهما الإنكليز والفرنسيّون ظلمًا وبهتانًا منذ 1916، تُرى ماذا تبقّى من الملك فيصل في مقرّ سفير فرنسا الجبّار في سوريا، ربّما الكنبة المخمليّة التي جلس عليها الملك البدويّ، والنوابض المرتخية للسرير حيث نام، هل كان شبحه يعكّر صفو سفيرة جميلة، هل كان يثير فيها أحلام الأحصنة التي تعدو في الصحراء اللاهبة أم كوابيس العطش والأحلام الإيروتيكيّة لليالي العربيّة الجنونيّة المتوقّدة شهوة - لم تكن ليالي دمشق أو حلب ملائمة للعشق أو لملذات كابوا[1]، كانت الديكتاتوريّة السوريّة المتحشّمة تفضّل السيطرة على الوضع بقبضة حديديّة، لم تكن أفروديت تمرّ إلا نادرًا فوق قمم جبال لبنان، على ضفاف بردى وهو نهر

---

(1) كابوا: مدينة إيطاليّة في كامبانيا احتلّها هنيبعل وأقام فيها معسكر استراحة شتويّة. كانت مرتع الملذّات ورمز الترف لدرجة أنّ هنيبعل فقد بسببها رغبته في القتال.

ضحل تقريبًا أقيمت بعض الكاباريهات حيث كان السعوديّون الثملون ينثرون أوراقًا نقديّة على راقصات بطونهنّ منتفخة ومترهّلة ترافقهنّ موسيقى صاخبة، وكان رجل قصير القامة في غاية القبح يجمع النقود عن السجّادة في دلو بلاستيكيّ أحمر فيما تواصل هؤلاء السيدات تمريغ صدورهنّ بين شوارب الأمراء الذين يأمرون على الفور بإحضار زجاجة أخرى من ويسكي جوني ووكر قبل أن يتوجّهوا إلى قضاء مآربهم منهنّ، في حلب، في شارع مشبوه بين مخزنين يبيعان قطع السيّارات يوجد مبنى من الطّراز نفسه مسكون بالأوكرانيّات يلبسن المايوهات ويرفعن سيقانهنّ على طريقة الكنكان[1] أمام بضعة جنود مشوربين يحتسون البيرة، وبعد كلّ عرض كنّ يذهبن للجلوس على ركاب الزبائن، أذكر واحدة منهن أقامت فترة في سكوبيا[2] وتتحدّث الّلغة الصربيّة قليلاً، اقترحت عليّ أن تلحق بي بعد العرض في الفندق الذي أنزل فيه لقاء مبلغ زهيد قيمته مئتي دولار، بهذه التعرفة يصعب على السوريين إرواء ملذّاتهم الجنسيّة غالبًا، أخبرتني كيف وصلت إلى حلب بعدما وافقت على عرض تعمل بموجبه راقصة في إحدى الفرق السوريّة، كانت تعشق الرقص، فكّرت أنّ الرقص ضمن الفرقة سيكون مجرّد بداية، لا أعرف ما إذا كان عليّ أن أصدّقها، ومن ثمّ فالمعاش المترتّب على الوظيفة كان مغريًا، لم يكن الأمر دعارة، قالت، كان هذا رقصًا، لكأنّها تريد أن تقنع نفسها بذلك، أتمّت العشرين للتوّ، مشرقة الوجه، شقراء كسنابل القمح، على غرار معظم الراقصات، صعدت إلى الحلبة لأجل العرض التالي، كانت تنظر إليّ وهي تنتفض

(1) الكنكان: رقصة استعراضيّة فرنسيّة.

(2) سكوبيا: مدينة يوغوسلافيّة عاصمة مقدونيا.

وتتحرّك بسرعة، واتّخذت الفتيات الخمس أوضاعًا مثيرة على أنغام أغنية *My way*، رحن يتظاهرن بالتقبيل وهنّ يزممن أفواههنّ بشكل يبعث على الإحباط، غادرت باتّجاه فندقي حيث أسكن وحيدًا في غرفتي وبي سرور غامر لأنّي لم أستسلم لمفاتن الراقصات اللواتي يرتدين المايوهات، أذكر في اليوم التالي كان لديّ موعد مع رجل أجهل كلّ شيء عنه عند شرفة أحد المقاهي أمام قلعة حلب الخياليّة، كان يفترض بي أن أجلس عند الرصيف مرتديًا كنزة حمراء وواضعًا منديلاً صوفيًا على مسند الكرسيّ أمامي - أحيانًا يصبح الواقع أشبه بفيلم تجسّس من حقبة الستينيّات، لا شكّ أنّ هذا العميل المحترم قرأ الكثير من الروايات الجاسوسيّة عن الحرب الباردة، في **المنطقة** كانت الأمور مختلفة كليًا، كنت قلقًا مع ذلك، لم أكن متشوّقًا للجلوس مع رجلين من رجال الأمن السوري على طاولة واحدة يقولان لي: «حسنًا، كنزة حمراء ومنديل صوفي، وماذا بعد؟» ويطردانني من سوريا رفسًا على مؤخّرتي ويوسعانني ضربًا، لا بل وأسوأ من ذلك، أن يبقياني سرًّا في مكان ما بانتظار مقايضتي بأحد أو بشيء وهذا الأمر الأكثر احتمالاً، كان هناك دومًا حيّز من المخاطرة في مهنتي لكنّ الخطر يبدو دومًا بعيدًا، وعندما تُسند إليّ إحدى المهمّات، لا أحمل أبدًا سلاحًا في حوزتي ولا أيّ شيء من هذا النوع، (لديّ في بيتي مسدّس صغير زاستافا من عيار 7,65 لكنّه كان تذكارًا حربيًّا معطّلاً) ومع ذلك، ففي ذلك الصباح، حين ذهبت على الموعد إلى القلعة، لم أكن مطمئنًّا تمامًا، لأنّني كنت في سوريا بلد الجواسيس ولأنّه في سوريا لا يوجد إلا القليل من السوّاح وليس من السهل الاندساس بين الحشود كما كان يحدث في القاهرة، أو في تونس، صعدت الطريق إلى السوق اللامتناهية مشيًا على القدمين، اشتريت ثلاثة أشياء

تافهة لستيفاني السمراء (لتذهب إلى الشيطان الأسفار السريّة) وصابون غار ومنديل حرير ونرجيلة صغيرة من النحاس يستحيل التدخين فيها لكن على الاقل كانت هذه الاشياء كافية للاستدلال على أنّني سائح عندما وصلت إلى السوق المسقوف في ساحة القلعة، جلست على أحد الأرصفة، حيث طلبت **«كوفي»**، **«كافيه»**، قهوة لو سمحت وألقيت منديلي على مسند الكرسي أمامي، جلست أنتظر متأمّلاً المنحدر العسير الذي يحول دون الوصول إلى حصن القلعة المنيعة، وهي تحفة فنّية للهندسة المعماريّة العربيّة الحربيّة حسبما يقول الدليل *Lonely planet* الذي فتحته على طاولتي لكي يضفي عليَّ مظهر مغامر متوحّد، كدت أنهي قهوتي عندما اقترب منّي رجل في الستّين من عمره، طويل القامة تقريبًا، أشيب الشعر وسألني هل أتكلّم الفرنسيّة فأجبت نعم بالطبع، قال لي **لقاؤك من دواعي سروري** ثمّ أضاف **تعال، سنذهب لزيارة القلعة**، دفع لي ثمن القهوة قبل أن يترك لي فرصة الاعتراض ثمّ أمسكني من ذراعي كما لو أنّي كنت آنسة وظلّ يتأبّط ذراعي طيلة الزيارة، أعترف أنّ هذا الحنان غير المألوف أضفى على منظرنا الغريب مظهرًا طبيعيًّا، على أفضل ما يكون، ألحّ عليّ لكي يدفع ثمن بطاقة الدخول ودلّني على نوافذ الاستحكامات والأروقة الملتوية التي تساعد على صدّ هجمات الغزاة والفتحات المشبّكة في السقف لقصف المهاجمين، وفقط عندما خرجنا من البرج الرئيسي المحصّن على التّلة الهائلة وسط الأسوار، عندها فقط بدأ يتكلّم فعلاً، لم أقل شيئًا، أردت في بادىء الأمر أن أسمع، وأشعر، وأسعى لأحزر إذا كان التعامل معه يناسبني أم لا، كان الرئيس ليبيان يقول لي **أنت موهوب في العلاقات العامة**، تحدّث الوسيط بيننا عن مخبر يتّسم بأهمّيّة استثنائيّة، الأمر الذي يستوجب حضوري شخصيًّا، شعرت بالاستياء حين علمت أنّه

يستحيل إدارة هذه المسألة عبر صناديق البريد، المخبر الإستثنائي لا يخاطر، وعادةً لا يتلاقى المخبرون أبدًا، هناك شبكة سوريّة توصل لنا المعلومات، على أيّة حال، كان المخبر الودود يمسك بذراعي وكأنّه أبي، في العتمة المشرّعة للريح في قلعة حلب الرماديّة التي تشرف على المدينة بأكملها، الجامع الكبير في الأسفل، الحمام الذي لا عديد له يدور حول المئذنة، سقوف السوق السوداء، حيث الخانات الصغيرة، المباني الحديثة في الضاحية، وحتّى الريف الذي بدا ترابه أحمر لعينيّ في شمس الشتاء، **اسمي إحم** اسمي هاروط، لم يكن تردّده ينمّ عن احترافيّة كبيرة بدأت أشعر أن الهجوم مخاتل، وبأنّ الوسيط بيننا كان على خطأ، تنهّدت في داخلي، أفّ، كل هذا العناء لهذا الشخص، فأجبته هاروط، عظيم، كما تشاء، على جواز سفري الآنيّ أدعى جيروم غونتران، قلت فقط جيروم، وصبرت، يجب إتقان الإنتظار والهدوء، كانت مصيدة الفراشات بين يديّ وانتظرت أن يسترخي هاروط قليلاً لكي أمسك به وأضيفه إلى فصيلة حرشفيّات الأجنحة، لكنّه كان هو من أمسكني على غير علم منّي بالطبع، وهو من سيرميني في هذا القطار بعد خمس سنوات، هاكم مدينة أخرى لا شكّ أنها مودينا، أكثر من أربعين كيلومترًا قبل بولونيا، قطار باندولينو هذا بطيء، في الليل جميع الضواحي الإيطاليّة تتشابه، وفي النهار أيضًا، إنّها مودينا فعلاً، رأيت لتوّي اللوحة التي تعلن اسم المحطة، مودينا المدينة الصغيرة، الهانئة، الجميلة، شقيقة ريجيو، وهناك شيئان من اختصاصها، لحوم الخنازير والسيّارات الفخمة كسيّارات المازاراتي، تلك فعلاً صورة مصغّرة جدًّا عن إيطاليا، لا شكّ أنّ جاري قارىء البرونتو يحبّ الاثنين، حريّ به أن يقف أمام النافذة ويلوّح بقلنسوته الفيرّاري، مررنا للتوّ

بالقرب من معامل سكويديريا، أذكر وسط مودينا التاريخي، البديع، الساحات، الكنائس، الديومو، منذ سنة بالتّمام يوم الخميس في 11 كانون الأوّل فجّر محمد الخطيب نفسه في الساعة الخامسة صباحًا عند زاوية ساحة مازيني على مسافة أمتار قليلة من الكنيس، أحد أجمل معابد إيطاليا اليهوديّة، أشعل الفلسطيني المولود في الكويت وحامل جواز سفر أردني النار في سيارته البيجو البيضاء 205 التي ركنها قرب الكنيس، حاول رجال الشرطة في الحراسة التدخّل معالجين النار بمطفىء الحرائق لكنّهم لم يفلحوا، انتظر محمد جالسًا أمام المقود أن تشتعل السيارة المقفلة الأبواب والنوافذ، انتظر أن ينفجر الغاز GPL ويبقر السيّارة ناشرًا جسده في كلّ مكان، ربما مات احتراقًا عندما انفجر كلّ شيىء، أصابت الكنيس أضرار طفيفة، ولم يسقط أيّ قتيل ما عدا محمد وكلبة يوركشاير مسنّة جدًّا ومصابة بداء القلب ماتت خوفًا بعد أن بالت تحتها في الطابق الثاني من المبنى المقابل، تحطّمت بعض ألواح الزجاج ولا شيىء أكثر، كان الكلب يدعى *peace* مصادفة غريبة لم تأت أيّة جريدة على ذكرها - ومن دون أن يدري استنفر محمّد الخطيب جميع أجهزة الإنذار المضادّة للإرهاب في العالم، بحثنا جميعًا عمّا إذا كان هذا الشخص التعيس مرتبطًا بخليّة معروفة، أو ما إذا كان اسمه مدرجًا في مكان ما، في أحد الملفّات أو التقارير، وهكذا دواليك إلى أن أكّدت أجهزة الإستخبارات الإيطاليّة تقرير الشرطة، الأمر يتعلّق بانتحار، ليس عملاً انتحاريًّا استشهاديًّا، بل مجرّد انتحار بكل بساطة: محمّد الخطيب المجهول، المحبط، الذهانيّ، العنيف، الواقع تحت تأثير مهدّئات الأعصاب قتل نفسه حرقًا وربّما لم يفكّر بالإنفجار الذي تبعه، أراد أن يموت أمام الكنيس، أن يموت كالشهداء الفلسطينيّين في القدس أو

تلّ أبيب تحت راية المجد وألسنة النيران، أو بالأحرى أن يضحّي بنفسه استنكارًا للاحتلال، أن يموت بكلّ بساطة، في ليلة رماديّة من كانون الأول، وقد ناداه هاديس إله الموت - ليس هناك يهود في مودينا لقتلهم، لا يفتح الكنيس إلا بمناسبة الأعياد الكبيرة، ثمّ إنّها الخامسة صباحًا ويندر مرور الناس في شوارع المدينة، جمع رجال الشرطة بحضور ممثّل النيابة العامّة بعناية الأشلاء القرمزيّة لجثّة محمّد وجمّعوها في أكياس سوداء من البلاستيك، وسارعت أجهزة البلديّة لإخفاء كلّ آثار عمليّة الاستشهاد، فنظّفوا الإسفلت، وأصلحوا شبكات الإنارة العامة، واستبدلوا الزجاج المحطّم وأحرقوا، في أحد مكبّات النفايات، جثّة الكلب القتيل التي لم تعد تعرف صاحبته ماذا تفعل بها، فكّرت بالشاعر الهنغاري أتيلا يوسف[1] الذي تمدّد فوق سكك الحديد بالقرب من بحيرة بالاتون لكي يقطع نفسه إلى ثلاثة أجزاء لدى مرور أوّل قطار أو إلى جزئين في اتجاه الطول تحت العجلات المسنونة، كان لأتيلا تأثير مزدوج في هنغاريا، شاعريّ وانتحاري، إذا أمكنني القول، عشرات من الشعراء الملاعين أو المراهقين النافذي البصيرة أكثر ممّا ينبغي جاؤوا يموتون على السكك في المكان نفسه حيث قتل الشاعر، أو، على مسافة قريبة من الخطّ نفسه بعد أن أصيبت إدارة سكك الحديد بالذعر وقرّرت إحاطة المكان بسور حديدي، كذلك كان محمّد يحذو حذو الشهداء الفلسطينيّين وكل واحد منهم مسيح شمسيّ يقطع جسده إلى قسمين عند الخصر بحزام المتفجّرات، كان ناثان ستراسبرغ يروي لي عن رؤوسهم التي تتطاير في الهواء على علوّ عشرات الأمتار، كما

(1) أتيلا يوسف: (1905-1937) أحد أكبر الشعراء الوجدانيين في هنغاريا الحديثة.

تتطاير قنينة بلاستيك حُشيت بمفرقعة، أتخيّل لحظاتهم الأخيرة وهم يرنون إلى القدس لآخر مرّة، من علٍ، ويشاهدون في طرفة جفن أخيرة قبّة الصخرة الملتمعة، من شاهق تحليقهم الوداعيّ، عند نقطة التوازن، كما تُرمى كرة في الهواء، كانت رؤوسهم الدامية تتجمّد لربع ثانية في السماء، ثمّ تسقط من جديد، ثمّة تقاليد في الانتحار، وجماعات منتحرة وأخويّات منتحرة، هنالك الشنق، وهذا تقليد ريفيّ بالأحرى، والانتحار بإطلاق أعيرة ناريّة على الدماغ أو بالأسلحة البيضاء وهو أكثر حربيّة ورجوليّة، أو سحقًا تحت عجلات العربات، وهذا تقليد عصري تمامًا، أو بالسّم، أو قطع الشرايين في المغطس على الطريقة القديمة، أو خنقًا بالغاز مع انفجار أو دونه، أو حرقًا في النار أو في الوقود، من جهتي أنتمي إلى فئة المنتحرين غرقًا، إلى الأبراج المائيّة التي يغويها الاختفاء الكامل لأجسادها في المياه القاتمة، كان محمّد الخطيب يعبّر بموته عن قمّة الاحتجاج، يقوم بحركة أخيرة، ربّما الحركة الوحيدة التي تتّسم بالأهمية بالنسبة له، في ذاك الصباح من كانون الأول على مسافة بضع مئات الأمتار في المحطة التي اجتزناها كالإعصار، كان يسطّر اسمه في قافلة الشهداء الأكثر شهرة بين قومه وينضمّ إليهم رغم منفاه الإيطالي، لم يمنع انتحاره لوتشيانو بافاروتي من عقد قرانه اليوم التالي في تياترو دي مودينا (المسرح كنيسة الفنانين كما سيقول بافاروتي) على مسافة أمتار قليلة من هنا، وكان هناك سبعمائة مدعو ومن بينهم مونو مغني فريق U2، وزوتشيرو اللذان أنشدا *Stand by me* وسط أثواب أرماني، ورجال الشرطة الممتطين أحصنتهم، والمجوهرات وأسياد المجتمع وسيّداته، والمغنيّن التينور بلاسيو وخوسيه كاريراس، وجوقة للغناء الإنجيلي، ومجموعة من الآلات الوتريّة كيما تساعد محمد الخطيب والكلب

المتوفّى على الصعود إلى السماء، ثمّة طرق كثيرة للتعبير عن التضامن مع المعذّبين والمظلومين، وضع بافاروتي جدولاً من الجمعيّات الإنسانيّة على لائحة الهدايا، فلسطينيّ مودينا أحرق نفسه بالنار أمام كنيس يهودي فارغ، وهاروط في حلب كان يمسكني من ذراعي وهو يحاول أن يشرح لي شيئًا لم أفهمه، في أعلى القلعة، على التراب المركوم المترامي الذي تذروه الريح، شيئًا على علاقة بمذابح ترقى إلى أكثر من ثمانين عامًا، عن قوافل الشهداء وسط الصحراء، ولم أكن أفهم ما دخل هذا بمفاوضاتنا، وبعد مضي نصف ساعة من شرحه آل بي الأمر إلى مقاطعته، كنت متجلّدًا ورغبت في الذهاب مباشرة إلى صميم الموضوع، فأجابني لا تقلق، لا تقلق، سأزوّدك بالمعلومات، ستعرف كلّ ما تريد معرفته لا بل وأكثر، وعلى أعلى المستويات، ستتمكن من معرفة لون ثياب حافظ الأسد الداخلية إذا شئت، ستحصل على معلومات مثيرة لمفاوضة السوريّين إذا دعت الحاجة، تجعلهم يعيرونك آذانًا مصغية في موقع الرئاسة، ستعرف كلّ ما تريد عن سوريا ولبنان لكن بشرط: أن تعترف فرنسا رسميًّا بالمجزرة التي تعرّض لها الأرمن - كنت مصعوقًا لا أصدّق ما تسمعه أذناي، هذا الرجل الساذج أبله صراحةً، ماذا بإمكاني أن أفعل لتعترف فرنسا بمجزرة الأرمن، ابتسم لي بهدوءٍ كليّ، قلت له اسمع، يفترض بك من باب أولى أن تتحدّث مع أحدهم في السفارة، أنت بحاجة إلى إقامة علاقة وثيقة مع دبلوماسي حسب ظنّي، وفي النهاية سأرى ما يمكنني فعله، قاطعني هاروط قائلاً لا تقلق ليس الأمر مستعجلاً كما ترى، حصلت المجزرة منذ وقت طويل وبإمكانها الإنتظار لبضع سنوات أخرى، لم يكن هاروط في الواقع إلّا مندوبًا عن «العملاء المحترمين» الذين يفترض بهم أن يكونوا مفيدين جدًّا لفرنسا، لأجهزة الاستخبارات وفرع المعلومات على الرغم من الأضرار

المترتّبة على العلاقات الفرنسيّة التركيّة، اعتمد مجلس النواب في 18 كانون الثاني 2001 القانون الذي يعترف بالمجزرة الأرمنيّة، فيما لم تسفر مبادرة مماثلة عن نجاحٍ كبير عام 1998، «ضاع» النصّ في أدراج مجلس الشيوخ، ولم ير النور، وأجهل اليوم ما إذا كان الرجل أو بالأحرى الرجال الذين يمثّلهم هاروط على علاقة أم لا بهذه القصّة، في حلب عام 1997 بدا اعتراف فرنسا الرسميّ بالمجزرة عمومًا بعيد المنال ولاحقًا بعد سنة، صوّت المجلس للمرّة الأولى على النصّ بالإجماع، وفوق ذلك عُقدت ندوة تاريخيّة كبيرة في السوربون، اعترى الأتراك غضب مسعور وأحرقوا الأعلام الثلاثيّة الألوان في أنقره، قدّم الفرنسيون أنفسهم مرّة أخرى بصفتهم المدافعين عن القضايا العادلة والمؤتمنون على حقوق الإنسان، تعانق النواب بالإجماع لدى الخروج من قاعة جلسات البرلمان، وبعضهم شقّ عليهم تدارك دموعهم وكأنّهم أنقذوا بأنفسهم للتو آلاف الناس من المجزرة، ناسين أنّ الجثث ترقد منذ ما يقارب المئة سنة في دير الزور في الصحراء السورية، وفي ضواحي حلب أو شرقي أنطاليا، هذه الأرمينيا الصغيرة التاريخيّة شبه الخالية اليوم من الأرمن أفضل شاهد على الدمار الذي تعرّضت له، أين ذهبوا إذًا، اختفوا من فان، وديار بكر، وأرزوروم - منذ أيار 1915، اشتكى عمدة الجزيرة من الجثث التي يجرفها الفرات، وكانت موثقة اثنين اثنين، مقتولة برصاصة في الظهر أو مذبوحة بالسكاكين الطويلة على يد الجراكسة أو الشيشان الذين جنّدهم العثمانيون بصفتهم جلّادين محترمين، كان هاروط يخبرني كل ذلك في حلب، في حانة فندق بارون حيث أمضى أعضاء تركيا الفتاة[1] القادمون من اسطنبول ليلتهم

(1) تركيا الفتاة: منظمة تضمّ المثقّفين والضبّاط العثمانيين الليبراليّين =

للإشراف على المذبحة عن كثب، كانت قوافل المرحّلين الآتية من الشمال تمرّ لبعض الوقت في معتقل «باب» على مسافة بضعة كيلومترات من المدينة، الجميع نسوا، قال هاروط، **الجميع نسوا أنّ معتقلات الموت كانت هنا، بالقرب من حلب، في الرقّة على الفرات وفي دير الزور وحماه وحمص وجبل الدروز نفسه**، أكثر من مليون أرمنيّ مرّوا من هنا في مسيرتهم الطويلة نحو الموت، والذين نجوا بعد اعتقالهم أرسلوا إلى أمكنة أبعد، مشيًا على الأقدام أو في العربات، لكي يتضاءل عددهم ويسهل قتلهم باليد أو إحراقهم أحياء، أو تفجيرهم بالديناميت أو إغراقهم في النهر، يتحدّث شهود عن أكل لحوم بشرية سبّبته المجاعة، عن الأطفال الذين اقتاتوا من براز الحيوانات، عن البدويّين الأعراب الذين كانوا يغيرون على جماعات المرحّلين ويختطفون النساء الشابات اللواتي بلغن سن الزواج، مشهد وجيز جدير بسفر الرؤيا دام لبضعة أشهر بين 1915 و1916 حين كان الجنود البريطانيّون والفرنسيّون يسقطون كالذباب على ضفاف الدردنيل المحروسة في مواجهة الجنود الذين كانوا تحت إمرة مصطفى كمال ولم يكن يدعى آنذاك أتاتورك، أخبرني هاروط ونحن جالسان أمام كأس عرق في مقاعد من الجلد بلون البرونز في فندق بارون، عن مذبحة الأرمن، وكيف أنّ الجالية الحلبيّة الموجودة في المدينة منذ أيّام الصليبيّين دفعت أثمانًا باهظة مقابل حمايتها، لكنّها جُنّبت المجزرة على الأقلّ، وحدّثني عن نهاية السلطنة

= والإصلاحيّين الذين تجمّعوا بادئ الأمر في منظّمات سريّة وأرغموا السلطان عبد المجيد الثاني على إصلاح الدستور عام 1908 وعلى الإستقالة عام 1909 وهيمنوا على الحياة السياسيّة العثمانيّة حتى عام 1918.

العثمانيّة، أبهى وأجمل سلطنة في المتوسّط، من البلقان حتى ليبيا والتي حمت مع ذلك الأقليّات المسيحيّة لعصور طوال، متوسّلة فرض الضرائب - ولد هاروط بدروسيان عام 1931، وأراني صورة لعائلته تعود لعام 1900، وفيها يبدو الرجال لابسين الطربوش والنساء في الثياب السوداء، اصطحبني لأتذوّق **أفضل سجق وبسطرما في حلب**، كانت فرنسيّته مميّزة لا تشوبها شائبة، كولونياليّة، مشوبة بنبرة غريبة، لم نكن نتحدّث في العمل بالطبع، فهو وسيط مثلي، وكلانا نحمل حقائب، ونهتمّ بمسائل مشبوهة، على وفاق تام، ولا شيء وأكثر، كان الرجل أو الرجال الذين يمثّلهم من رجال الأعمال المحترمين المقرّبين من الوزراء، وكانوا يرشونهم ليتمتّعوا عن طريق القانون بمفاوضة الأجنبي، إنّهم مقرّبون من العلويين البارزين في حزب البعث والوجهاء الذين يسيطرون على قسم من رجال الشرطة، وما أكثرهم، وأجهزة الإستخبارات في بلاد الرتابة الرماديّة والسجون التي لا مخرج منها، والتي صحراؤها مفترشة بعظام الأرمن، ويعنّ للحكومة السوريّة إثارة القضيّة فقط لإزعاج الأتراك أعدائهم التليدين، الأتراك رأس الحربة في الصراع ضد محور الشرّ، كان التعاون العسكري الفرنسي معهم في ذروته، فرنسا تعدّ ضبّاطًا أتراكًا في المدرسة الحربيّة والضبّاط الفرنسيون ينطلقون إلى تركيا ليجروا فترة تدريب ويتبادلوا العتاد والخبرات وكذلك المعلومات عن إيران خصوصًا والقوفاز الروسيّة، بالرغم من المظاهر، كانت العلاقات بين الجانبين وديّة تمامًا ولن يعكّر صفوها بضع مئات الآلاف من الأرمنيّين الموتى المنسيّين ولن يكون بوسعها الإساءة إلى التوازن الجغراستراتيجي لمرحلة ما بعد الحرب الباردة، أمّا نحن، فنواصل العمل، لا شيء يوقفنا حتّى حين كان النواب يسنون القوانين **لأجل صالح تركيّا**، كي يرغموها،

حسب قولهم، على **قراءة تاريخها مواجهة** أو شيء من هذا القبيل، الأمر الذي كان يجعل العثمانيّين السابقين يفرطون في الضحك وراء الكواليس، حريّ بفرنسا أن تكنّس الجثث المتراكمة أمام بابها، فرنسا التي رحّلت آخر من تبقّى من الأرمن حين تمّ ضمّ لواء الإسكندرون إلى تركيّا بالتخابث الذي يميّز سياسة الجمهوريّة، فبعد أن قمعت الثورات السوريّة وأراقت دماء الثوار باعت العدو جزءًا من أرض سوريا، فرنسا بغضبها المسعور وعنفها قصفت مدينة دمشق عام 1945، قبيل الجلاء، عملاً بسياسة الأرض المحروقة، وفقًا لمقولة أسحب مدافعي لكنّي سأستخدمها قبل ذلك لمرّة أخيرة تاركة وراءها بضع مئات من الموتى المجهولين، لا شيء خطير إلى هذا الحدّ، إنهم مجرّد عرب مشرقيّون ومنافقون وعصيّون على الفهم، هكذا كان يراهم الجنرال أوليفا - روجيه قائد سلاح المدفعية، مدّعيًا أنّ العملاء البريطانيون المستنفرين هم وراء الفتن التي تؤدّي إلى إراقة المزيد من الدماء، ومن ثمّ رحل الجنرال مع أسلحته وأمتعته إلى باريس ليستعرض وقائع الأمور مع ديغول راعي المحاربين الأكبر، كانت فرنسا تحرج تركيا عام 1998 وهي ترمي في وجهها آلاف العظام الأرمنيّة، فيردّ عليها الأتراك بآلاف الجثث الجزائريّة، والبرلمان نفسه للجمهوريّة الخامسة الذي اقترع على قانون العفو الشامل عن الجرائم المرتكبة إبّان حرب الجزائر، يعترف رسميًّا بالمذبحة الأرمنيّة، والانفعال يمضّه لدرجة البكاء عام 2001 - مجازر الآخرين مربكة دومًا، والذاكرة انتقائيّة دومًا، والتاريخ رسميّ أبدًا، أذكر حين كنت في الدردنيل برفقة ماريانا، كان الدليل التركي ينشد لنا قصائد مدح لأتاتورك أبي الأمّة والقائد الأكبر للمقاومة في شبه الجزيرة، المعدّ لقدر نبيل: حفّار قبور السلطنة هذا أعاد الاعتبار لأعضاء تنظيم تركيّا الفتاة منذ

وصوله إلى سدّة الحكم عام 1923 فيما جرت محاكمتهم في استانبول عام 1919 وأدينوا لارتكابهم المجازر في 1915 - 1916، يبدو اليوم الاعتراف بالمجزرة وكأنّه خيانة للذكرى المقدّسة لأب الأتراك صاحب الشاربين، تمامًا كما يبدو نقض قانون العفو العام عن جرائم الجزائر عام 1968 مستحيلاً وعبثيًّا وخيانة لذكرى الجنرال المنتصر: وما الذكرى إلا محفظ جنائزيّ للنصوص والأنصاب، والقبور المسجّلة في الفهارس، والكتب المدرسية، والقوانين، والمدافن، وبضعة عسكريين متقاعدين أو متعفّنين في ضرائح فخمة، وصلبان صغيرة شبه مجهولة رفعت فوق قبور العامّة، بل هي ناووس رخاميّ، متوحّد كذلك الذي ضمّ رفات تشارلز مونتاغو دوتي -ويلي في كيليتباهير في الدردنيل لا شكّ أنّ الضابط البريطاني الذي سقط في نيسان 1915 كان الوحيد في مجموعته الذي يتكلّم التركيّة وبطلاقة، والوحيد الذي يعرف السلطنة التي يحاربها معرفة وثيقة، فقد أقام بصفته قنصلاً بين 1906 و1911، في كونيا وكيليكيا، تشارلز دوتي ذو الشاربين الغليظين هو أيضًا غمل فيما بعد ملحقًا عسكريًّا لدى الفرق العثمانيّة خلال حرب البلقان، جرى تكليفه بتنظيم إسعاف الجرحى، لا بل نال وسامًا لشجاعته وتضحياته، وعلّق له السلطان زهرة من الكريستال على قبّة سترته، ميداليّة تحمل في طيّاتها سخرية القدر، فتشارلز دوتي سيتلقّى رصاصة تركيّة في وجهه مباشرة على تلّة عالية في المتوسط، ولن يستطيع الإفادة من المنظر الرائع على بحر إيجيه، لن ينظر ناحية الشواطئ الطرواديّة التي كان يعرفها جيّدًا، والتي مزّقتها مدافع البحريّة - وكان يجهل بالطبع، لحظة موته، أنّ الأرمن الذين أنقذهم عام 1909 في كيليكيا قتلوا من جديد دون أن يتمكّن أحد هذه المرة من التدخّل، لا القنصل الأميركي ولا الشهود القلائل للمجزرة،

في 1909، حين كان في كونيا، استقبل تشارلز دوتي ويلي وزوجته الرحّالة البريطانية عالمة الآثار جرترود بلّ، التي التقطت لهما صورة في الحديقة برفقة خادمهما وكلبهما الكنيش الأسود الضخم، ترتدي السيدة ويلي فستانًا أبيض وقبّعة، وجهها متجهّم، وملامحها قاسية ربّما لغيرتها من حظوة عالمة الآثار المغامرة لدى زوجها، وبحقّ - كانت جرترود، وهي أوّل امرأة ضابطة استخبارات في حكومة جلالتها، مغرمة بتشارلز الجميل، العسكريّ الدبلوماسيّ الأنيق، وستذهب للصلاة على قبره سرًّا، في الدردنيل، بعد بضع سنوات، عندما كانت تحيك المؤامرات لتأسيس دولة العراق الحديثة مقترحة العرش على فيصل، ملك العرب، جرترود بلّ الجاسوسة وعالمة الآثار مسؤولة ولا شكّ عن الكثير من مآسي المنطقة، فكّرت بها عندما كنت في بغداد أمام المتحف الذي أسّسته ونهب للتو، باستطاعتك أن تعثر على الأختام الأسطوانيّة لبلاد ما بين النهرين في أميركا، كان الجميع هناك يقترح عليك تحفًا للبيع، وكان الجنود التابعون للأمم المتّحدة يرحلون من جديد وجيوبهم مليئة بالنقود، والتماثيل الصغيرة والمخطوطات القروسطية، وكان البلد يفرغ من ثرواته، وقبر جرترود المعشوشب والصامت، لا يزال في بغداد حيث لا أحد يتذكّرها ويتذكّر دورها في تأسيس البلاد، أو يتذكّر مؤامراتها أو صداقتها مع ت.إ. لورنس الملقّب بلورنس العرب، ولا موتها الغامض هل كان انتحارًا أم حادث سير أم جرعة زائدة من الحبوب المنوّمة في 12 تموز 1926: أمضيتُ ليلتي في غرفة جرترود بلّ في فندق بارون في حلب وأنا أفكر بتشارلز دوتي ويلي وبالأميركيّين، قبل أن أتابع جولتي، بصفتي سائحًا متنكّرًا، ذهبت إلى اللاذقيّة في القطار من محطّة حلب حيث كان يصل فيما مضى قطار إستانبول السريع بعد أن يقوم بدورته

في جبل طورس - كانت نوافذ القطار السوريّ الذي يجتاز الجبال دون زجاج، كنت أتجلّد في القاطرة، والآن في القطار الإيطالي أختنق، وريقي جاف إلى حدّ مرعب، أرتجف بكليّتي وأشعر أنّني مشوّش الذّهن، ودبق، في اللاذقيّة كانت السماء بنفسجيّة بعد المطر والبحر الهائل رماديّ مريب، استأجرت غرفة في فندق يحمل اسمًا غريبًا «الغندول» وتناولت العشاء في أحد المطاعم التي يديرها يونانيّون، سمكة لذيذة في ذاكرتي مع صلصة بالطحينة، ليس لديّ ما أفعله في اللاذقيّة سوى الشرب في حانة قذرة حيث كان طيّارون روس يتنقّلون من حانة إلى أخرى، ثملين كما يستطيع السلافيّون وحدهم أن يتناولوا الكحول، كان هناك عملاقان من الأورال في اللباس الرسميّ معتمرين الكاسكيت راحا يرقصان رقصة الفالس وكان مشهدهما مريعًا، متعانقين بحنان ومطوّقين أكتافهما بأيديهما الضخمة، ويتمايلان قافزين من قدم لأخرى وهما يردّدان لحنًا روسيًّا لا أعرفه، يشربان العرق من الزجاجة رأسًا، ما كان يثير اشمئزاز صاحب الحانة، وهو سوريّ لوّحته الشمس قليلاً وتجاوزته الأحداث، الدبّان الآتيان من الاتّحاد السوفياتي سابقًا تمدّدا على الطاولة مثيرين ضحك رفاقهما الذين قدّموا لي شرابًا، كان صاحب الحانة راغبًا جدًّا في طردهما لكنّه لا يجرؤ، عدت ثملاً إلى غرفتي بعد أن أمضيت سهرة مزعجة في الفندق، على الجدار صور للبندقيّة أغرقتني في الأسى، شعرتني أكثر وحدة من أيّ وقت مضى، تركتني ماريان وستيفاني على أهبة أن تتركني، ومهنتي السرّية من أكثر المهن دناءة نظرت إلى السقف أو إلى صور الغندولات وأنا أفكّر بأرمن هاروط بدروسيان القتلى، بالأكراد والعرب الذين خدعتهم جرترود بلّ، بالدردنيل وطروادة المحروسة، بالهور الغامض في ضباب الشتاء والموت المنتشر في كلّ مكان من

حولي وفكّرت بالسجون بالإسلاميّين المعذّبين بكلّ هذه الحيوات المأساويّة المرميّة في البحر كالشتاء الذي يلطم الزجاج بقوّة، والآن الرذاذ الإيطالي يخدّد الليل أفقيًّا عند ضواحي بولونيا، وبالرّغم من الحقيبة والقرار الذي اتّخذته والحياة الجديدة التي تنتظرني لست أفضل حالاً من حالي في تلك الغرفة في فندق اللاذقيّة على الساحل السوريّ، إنّها مهنة الوحدة بالرغم من تلامس الأجساد ومداعبات ساشكا يتهيّأ لي أنّه لا يمكن بلوغي، بأنّي رحلت أصلاً وأصبحت بعيدًا محتبسًا داخل حقيبتي المليئة بالموتى والجلّادين لا أمل لي بالخروج إلى ضوء النّهار، أبدًا، جلدي عديم الإحساس حيال الشمس وسيبقى أبيض إلى الأبد، أملس مثل الرخام على النّصب التذكاريّة فوق شواهد فوكوفار

الفصل العاشر

كان القاصد الرسولي سفير الكرسي البابويّ في سوريا رجلاً ظريفًا مثقّفًا من عائلة إيطاليّة مرموقة وهاروط بدروسيان الأرمنيّ الكاثوليكيّ هو الذي عرّفني عليه - ما أغرب الأطوار التي يمرّ بها المرء قبل أن يقف على قدميه من جديد، بعد أن مُلئت الحقيبة يتوجّب عليّ بيعها، إفراغ هذه الآلاف من الوثائق والأسماء والقصص المجمّعة بصبر من كلّ ناحية في منطقتي بدءًا بهرمان جيربنز الجلّاد الهولندي، وثائق مكدّسة وهي خلاصة جهد خمس سنوات من الإستقصاءات التي لا تنتهي، من سرقة الأوراق السرّية من الأرشيفات ومقارنة الشهادات فيما بينها، ما جدوى هذه الآلاف من الساعات المهدورة بهدف إعادة تركيب هذه اللائحة بصبر وعناية، وملء حياة البولفار وباريس الخاوية إلى حدّ راعب، ربّما أردت إعطاء معنى لوجودي لكيما أغيب عن هذه الحياة بشكل رائع وأنال المغفرة من موتاي، أو لأنال عبر هذا العمل أيضًا بركة الآب الأقدس، أو ببساطة، لأحصل على المال الذي يضاهي كلّ التضرّعات لمغفرة الخطايا، وأقيم في مكان ما تحت اسم إيفان دوروا صنوي المأسور بجنونه وعنفه، أوراق هويّتي شرعيّة لا شبهة فيها كتلك التي استخدمتها لأتجوّل في المنطقة بأسماء مستعارة، بيار مارتان، برتران دوبوي، اسمين شائعيْن

جدًّا بحيث يبدوان حقيقيّين تلقائيًا، أظنّ أنّني تخلّيت تدريجيًا عن هويّتي الحقيقيّة خلف هذه الأسماء المستعارة، كنت أجزّىء نفسي، كان فرنسيس سرفين ميركوفيتش يذوب شيئًا فشيئًا في الأوراق المزيّفة والشرعيّة في آن لكي يبني نفسه مثل ذرّة بين آلاف الأسماء في الحقيبة، المتجمّعة في اسم واحد، إيفان دوروا الأبله المسكين الذي لم يرَ في حياته البحر ولم يلامس امرأة، المحتبس منذ الأزل في جنونه، يسهل على المرء أن ينتحل لنفسه أيّة صفة، ويتلبّس وجه الآخر منتزعًا حياته، وُلد إيفان في نفس السّنة التي ولدت فيها، وعاش المراهقة نفسها المفتونة بالإيديولوجيّات العنيفة، متأرجحًا بين اليمين المتطرّف واليسار المتطرّف بسهولة يصعب نظيرها، لا يتبنّى رأيًا واضحًا ما خلا رأي أصدقائه، لو خرج إيفان دوروا من المستشفى لكان علّق الملصقات النازيّة الجديدة، ولكان، لشدّة انبهاره بالنّظام العسكري وتمرّسه بالحقد، انتقل في تدريباته العسكريّة من طور إلى آخر بغية التفوّق على منافسيه ليصير رجلاً بكلّ معنى الكلمة، رجلاً حقيقيًا، كما يقال، مثيرًا إعجاب أبويه تمهيدًا لبلوغ أعلى المراتب عن طريق الخدمة العسكريّة والتدرّب على الأسلحة وتقبّل الإهانة واكتساب حسّ التضامن مع رفاقه، هذا الحسّ الذي شغل كثيرًا بال ميلان أستراي، مؤسّس جيش المجنّدين الإسبان، خلال زيارته الفرنسيّين في سيدي بلعباس في الجزائر، القرية المحصّنة في السهل الوهراني ألهمت الجنرال الأعور أشدّ الإلهام، كان المجنّدون الآتون من أوروبا بأكملها يعيدون تأهيل نفوسهم داخل الثكنة، يجدون في جيش المجنّدين عائلةً وبلادًا ويخدمون هذا الجيش أكثر من فرنسا نفسها، كانت خدمتي العسكريّة بنّاءة: السير المتواصل في أرجاء الأرض الوعرة ونحن نغنّي، حقيبتي، وبندقيّتي وأصدقائي، والمخيّمات،

والمسيرات الليليّة، استهواني العيش على هذا الإيقاع، هذه الحياة الحافلة، هذا الوهم بأنّك على قدر من الأهميّة، وهذه المسؤوليّة التي تشعر بها وأنت تُمنح رتبة، أو شارة تُعلّق على صدرك، أو أمرًا تلقّيته من رئيسك، أو سلطة تسلّمتها عن جدارة- في مخيّم جوفر دو ريفسالت[1]، كنّا نخيّم في تخشيبات قذرة، منحدرين من نجد لارزاك دي كورببير[2] أو من نجد آخر لم أعد أذكره، حاملين أسلحتنا وعتادنا - كنا نجري تمارين الرماية والمناورات، وكنت أجهل بالطبع أيّ شيء عن المكان الذي خيّمنا فيه، ما هذه المباني الخربة، مَن استقبلت في شباط 1939 ثمّ في 1942 ثمّ في 1963، وباختصار أجهل كلّ الإستخدامات الممكنة لمخيّم عسكري حسن الموقع، قريب من خطوط السكك الحديديّة ومن البحر، هذا المخيّم رأيت صورًا قديمة عنه في فترة لاحقة بعد تدريبي بوقت طويل، كنت أنام في كيس للنوم كاكيّ اللون هناك حيث نام اللاجئون الإسبان الجمهوريّون، سواء كانوا جنودًا أو مدنيّين أو شيوعيّين، هؤلاء الذين كانوا يثيرون الذّعر في فرنسا دالادييه[3] فارتأى أنّه من الأفضل اعتقالهم ثمّ استخدامهم في معامل الأسلحة وتحصين الشواطىء قبل أن يرحّلهم الألمان إلى ماوتهاوزن، في معظمهم، ومن بينهم فرنسيسك بويكس، المصوّر الفوتوغرافيّ، المولود في برشلونة في حيّ بوبل سك في 31 آب 1920، الذي اعتقل في ريفسالت ثمّ في سيتفون، جرى توظيفه في شركات العمّال الأجانب ثمّ قبض عليه

---

(1) ريفسالت: بلدة في البيرينيه الشرقيّة.

(2) عند تخوم البيرينيه الفرنسيّة.

(3) إدوار دالادييه (1884-1970) سياسي فرنسي من الحزب الراديكالي الإشتراكي وزير في حكومة الجبهة الشعبيّة 1936.

الألمان، وصل إلى ماوتهاوزن في 27 كانون الثاني 1941 وظلّ هناك أربع سنوات، والمثلّث الأزرق معلّق على صدره[1]، سمحت الصور التي سرقها من قوات الشرطة النازيّة بتوثيق حياة المعتقل، والموت الموجود في كلّ مكان، أدلى فرنسيسك بويكس بشهادته في نورمبرغ وداشو، ثمّ توفّي في باريس في 4 تموز 1951، قبل شهرين من بلوغه سن الواحدة والثلاثين، توفّي فرنسيسك بويكس مريضًا في مستشفى روتشيلد ولم ير برشلونة مرّة ثانية، في باريس، كان يقيم في غرفة خادمة في شارع دوق عند قارعة الطريق في مون - سينيس، على مسافة خمس دقائق من شقّتي، تقابلنا في مخيّم ريفسالت وتقابلنا على منحدرات مونمارتر، كان يعمل مصوّرًا في جريدة **الأومانيتيه**، على عكس ما يدلّ عليه اسمها، ذهبتُ لرؤية منزله حيث وُلد في برشلونة، حي هادىء على سفح نجد تحيط به الأشجار في مبنى يعود إلى بداية القرن كائن في رقم 19 شارع مارغريت، كان والده خيّاطًا ويملك حانوتًا صغيرًا في زاوية المبنى، اليوم يوجد هناك حانة شربت فيها كأس نبيذ في صحّة الإشتراكي الإسباني الذي تجنّد في الجيش الجمهوري في أواخر 1938، فيما كانت الهزيمة مؤكّدة، ومعركة أيبر[2] خاسرة، وفيما كان فرنكو وميلان أستراي وياغويه والآخرون يشنّون هجومهم على برشلونة التي لا تقهر، داسرين خمسمائة ألف عسكري ومدني على طريق المنفى،

---

(1) كان يوضع لكل سجين شارة لتصنيفه: المثلّث الأحمر: معتقل سياسي، المثلّث الأخضر: مجرم بحقّ القانون العام؛ المثلّث الأزرق للإشارة إلى المعتقلين من الجمهوريّين الإسبان.

(2) معركة أيبر: آخر هجوم كبير شنّه الجمهوريّون خلال حرب إسبانيا في إقليم تيراغونا.

عبروا الحدود عند سربير وبرتوس وبور-مدام، وآل الأمر بالكثيرين منهم إمّا إلى العودة إلى إسبانيا أو اختيار المنفى في المكسيك، لم يكن فرنسيسك الملقّب بـ«فرانز» أو «باكو» يملك هذا الحظّ، ترك برشلونة نهائيًّا مع رفاق السلاح، الجمهوريّة حُلّت، لم يفتقد باكو الإبتسامة، كان في السابعة عشرة من عمره، يحدوه الأمل وحسّ الدعابة والبهجة والشغف بالتصوير، كانت لديه آلة تصوير صغيرة أهداه إيّاها ابن أحد الدبلوماسيّين السوفيات، ماركة ليتز موديل 1930، بفضلها نشر أول تحقيقاته في مجلّة *Juliol*، فيما كانت الجبهة صامدة والثورة سائرة قدمًا، سيكون فرنسيسك بويكس المحقّق المصوّر في معتقل ماوتهاوزن، أتخيّله في اللباس المرقّط، في برد النمسا الفظيع، أمضى أربعة شتاءات، أربعة شتاءات طويلة من العذاب والمرض والموت وقد شغل وقته بإخفاء الصور وتنظيم المقاومة حتّى التحرير - حرّر الإسبان المعتقل بأنفسهم ورفعوا الرايات المرحّبة بقدوم الأميركيّين، كانت ماوتهاوزن، وغوزن تغصّان بجثث الضحايا لكنّها قليلة جدًّا نسبةً إلى المئتي ألف قتيل في مجمّع المعتقلات من بينهم ضحايا كسّارة الغرانيت، والمخنوقين بالغاز في هارتيم، والمتوفّين بسبب انخفاض حرارة الجسم بعد أن غطّسوا في المياه المجلّدة لساعات، وضحايا التجارب الطبيّة، والمصعوقين بالكهرباء والمشنوقين، والمعدمين بالرصاص، والمرضى، والجائعين، والمنهكين من شدّة العمل، والمختنقين في شاحنات الغاز، والمضروبين حتّى الموت، وفقًا للائحة الطويلة للـ*modus operandi*[1] التي وضعها النازيون، كنت آنذاك في الثامنة عشرة وأجهل مصير فرنسيسك بويكس عندما كنت أمارس لعبة

(1) عبارة لاتينيّة تعني أسلوب أو نهج العمل.

الحرب في معسكر ريفسالت، لم أذكر أنّني تخيّلت الترحيل، ترحيل الإسبان أو اليهود الأجانب الذين توقّفوا فيها، في طريقهم نحو الموت، أو ترحيل الحركيّين[1] الذين أسكنتهم فرنسا هناك في 1963 وحيث بقي بعضهم أكثر من سبع سنوات قبل أن يجدوا لهم مسكنًا نهائيًا- في هذه المعسكرات المتعفّنة التي يتداعى واحدها تلو الآخر، ما من لوحة أو شاهدة أو ذكرى، فرنسيسك بويكس المصوّر في قسم التحرّي عن هويّة الأشخاص في ماوتهازن، الفتى الشاب الآتي من شارع مارغريت في برشلونة، الشاهد في محاكم نورمبرغ، بمَ كان يفكّر بعد أن أدلى بشهادته، حين كان عائدًا إلى الفندق الكبير، كان قد لمح سبير[2] وغورينغ[3] وكالتنبرونر[4] في أقفاص الاتّهام، وعقّب على الصور المسروقة من قوات الشرطة النازيّة التي التقطها الضابط الغريب الأطوار بول ريكن الذي أنجز بالإضافة إلى الصور الرسميّة للمعتقلات، مئة صورة ذاتيّة له مواجهة وبروفيلاً، في البذلة العسكريّة أو في اللباس المدنيّ، حاملاً السلاح أو ممتطيًا الحصان- ربما كان فرنسيسك يفكّر به، في ذاك اليوم من 27 كانون الثاني 1946، ممدّدًا على سريره في الغرفة 408 من الفندق الكبير في نورمبرغ، فكّر من جديد في إحدى صور ريكن، صورة تبعث على الحيرة أكثر من

---

(1) الحركيّ هو متطوّع في الجيش الفرنسي في شمالي إفريقيا.

(2) ألبرت سبير كان مهندسًا معماريًّا وسياسيًّا ألمانيًّا ومديرًا لإنتاج الأسلحة في ألمانيا النازيّة، عمل مستشارًا لهتلر وقام بتصميم النصب والديكورات للتعريف بالحكومة النازية، واستخدم عمالة الرق.

(3) غورينغ: (1868- 1946) ماريشال ألماني، خليفة هتلر. قائد قوات الجو، حُكم عليه بالاعدام في محاكم نورمبرغ. لكنّه انتحر.

(4) كالتنبرونر: (1903-1946) أحد المسؤولين الكبار في النظام البوليسي النازي.

أيّ شيء آخر، حيث النازيّ يلتقط صورة لنفسه وهو يرتدي بذلة رسميّة وينتعل حذاء أنيقًا وربطة عنق، ممدّدًا على العشب وقد أسبل يديه على طول جسده في نفس الوضعيّة التي كان يتّخذها المساجين المساكين حين يصرعهم الحرّاس لدى محاولتهم الفرار من المعتقل لقد أهدى ريكن نفسه صورة تحاكي الموت العنيف يؤدّي فيها دور الجثّة التي صوّرها البارحة، لكن لأيّ سبب؟ استنسخ فرنسيسك عدّة صور التقطها معه، ينظر إليها، ممدّدًا **على** سريره، كان يتحضّر للمرحلة الثانية من شهادته، ماذا سيسأله محامي الدفاع؟ ياه! سنرى لاحقًا، يفكّر بماري كلود فايان كوتورييه الجميلة جدًّا، اتخذ لها صورة لتعلّق على غلاف الصفحة الأولى لجريدة *Regards*، التقيا في الأروقة، تحدّثا عن إسبانيا، من يدري، كتبت فايان كوتورييه تحقيقًا عن فصائل المتطوّعين الدوليّة[1] وأدلت بشهادتها عن حياة المعسكرات، يقال إنّها اجتازت مدخل معتقل بيركينو المخيف وهي تنشد المارسيلياز، إنّها فعلاً رائعة، أتساءل عمّا إذا كان بويكس مغرمًا بها هل كان يشتهيها، لا شكّ أنّ أمورًا أخرى كانت تشغل باله، هل لا يزال يذكر التخشيبة في ريفسالت، تلك التي نمت فيها، بعد خمسين سنة تقريبًا أنا أيضًا في بزّتي العسكرية، وفي مثل سنّه اليافعة تقريبًا، ولكن ينتظرني مصير آخر: ربّما كانت فكرة الوثائق في الحقيبة تأتي من بويكس، مصوّر برشلونه، على أيّة حال المئتان والست وتسعون صورة التي التقطها بول ريكن محفوظة جيدًا ومرقّمة في حقيبتي، لا أقصد صور ماوتهاوزن بل صور غراتز، وهو معسكر اعتقال صغير نُقل إليه ريكن

(1) فصائل من المتطوّعين الذين أتوا من أكثر من خمسين بلدًا لكي يحاربوا إلى جانب الجمهوريّين في الحرب الإسبانيّة.

أواخر 1944، توّثق هذه الصور مسيرة الموت والجلاء باتّجاه إبنيزي، ومئات المحتضرين الذين أجهز عليهم بالرصاص عندما سقطوا إنهاكًا، صور ريكن الهادىء واضحة وفنيّة، كان يتأنّى على أخذها، ما من صورة واحدة مرتجفة أو يعتريها أيّ تشويش أو تعاني من خطأ في تركيبها، بل خلافًا لذلك يتميّز عمله المشؤوم بوعي ودقّة سعى من خلالهما إلى اختراق سرّ ما، ربّما حكم على ريكن الفنّان المجنون من الشرطة العسكريّة النازيّة بالسجن المؤبّد في محكمة داشو عام 1946 والمئتان والست وتسعون صورة بقيت سريّة - مئتان وست وتسعون صورة ملتقطة عن قرب ومضبوطة بالطريقة نفسها، حيث يُرى وجه الجلّاد في اللحظة نفسها التي يطلق فيها الرصاص باتّجاه الضحية، أحيانًا، يكون وجهه متشنّجًا وأحيانًا، مسترخيًا، ولكن في معظم الأحيان عديم الاحساس، ويُرى أيضًا ما آلت إليه الرماية في اللحظة نفسها، الغيمة السوداء المرتفعة من رأس الرجل الذي سقط أرضًا، مجموعة من الصور المتعلّقة بعمليّات تنفيذ الإعدام توثّق للمجزرة، كيف استطاع ريكن إقناع الشرطة العسكريّة النازيّة بالسماح له باتّخاذ هذه الصور الفوتوغرافيّة؟ لا أعرف كان بول ريكن غريب الأطوار، أستاذًا في تاريخ الفن وعضوًا في الحزب القوميّ الإشتراكيّ من اللحظة الأولى، يصفه فرنسيسك بويكس وزملاؤه الإسبان بأنّه شخص لطيف بالأحرى، غير فظّ، لم يكن يشي «بموظّفيه» المعتقلين إطلاقًا ولم يصدر عنه أيّ تصرّف عنيف، كان منزعجًا بعض الشيء، أظنّ أنّه كان يوثّق انحطاطه الأخلاقي بالذات في مئات الصور الذاتيّة التي اتّخذها، يرى نفسه يسقط كما العالم من حوله، يسقط في الليل الذي لا قرار له وهذا الليل ظلّ لأسبوع كامل يلتقط صوره خلال مسيرة الموت التي واكبها، كان ذلك مسارًا اجتازه كالمسار الذي اجتزته من

مخيّم ريفسالت إلى قطار روما، إنّه اضمحلال رجل في دوامة العنف المبهرة، عنفه بالذات وعنف الآخرين - فرنسيس سرفين ميركوفيتتش تفكّك هو أيضًا مثل بول ريكن، ربّما أردت كذلك توثيق الرحلة، والاختفاء، والولادة من جديد تحت سمات إيفان دوروا، فيما لو كان الأمر ممكنًا، القطار يتقدّم، عمّا قريب سيجتاز بولونيا ثم فلورنسا ليصل أخيرًا إلى روما، لديّ فجأة الشعور غير المسبوق بأنّ شيئًا ما سيحدث في القاطرة، شيئًا مأساويًا كما حدث خلال مسيرة بول ريكن الفنّان النازي صاحب النظارات، جاري في القطار خلد للنوم مرجعًا رأسه إلى الخلف وفمه منفرج، والرجل وزوجته اللذان يحلّان الكلمات المتقاطعة يتناقشان بصوت خافت، لا جديد تحت شمس القطار، الحرارة ثابتة والسرعة ثابتة تقريبًا إذا احتكمنا إلى شاشة النافذة السوداء حيث تنهض من رقادها، من وقت لآخر، بلدة كئيبة، في ريفسالت كنّا نتنقّل في الشاحنة، في شاحنات قديمة مغطّاة تئزّ وتنخر وتتأرجح فوق رادع الارتجاج التلف، كان السائقون هم أيضًا من المجنّدين الذين جرى تدريبهم ميدانيًا في باحة الثكنة، ومفهومهم للقيادة كان حربيًّا تمامًا وموجزًا، كنّا نقف في النزلات عندما يضغط السائق على مكابح السيارة ونتأرجح مثل أكياس عند المنعطفات، استعدت هذه الأحاسيس في شاحنات أخرى في سلافونيا أو في البوسنة مع الفارق هو أنّ فلاهو كان هو من يقود غالبًا، بالطريقة السيّئة نفسها ولكن مع ابتسامة، أوشك ذاك الشاب الجسور أكثر من مرّة أن يرمينا في نهر نيريتفا مع أسلحتنا وأمتعتنا، كان عنيدًا مثل بغل ويستحيل أيضًا علينا أن نجعله يفلت مقود السيارة أو أن نعلّمه استخدام كابح المحرّك، كان خفض معدّل السرعة بالنسبة له يعني السقوط والجبن، ولا زال حتى اليوم، رغم إعاقته، ينزل المنحدرات الدلماتيّة

بأقصى سرعته في عربة معدّلة خصيصًا لتناسب إعاقته، فلاهو السائق الكاثوليكي الذي يهتمّ بزراعة أشجار الكرمة، مضى زمن بعيد ولم أره، أعترف أنّني المخطىء في ذلك، لو سعيت إلى رؤيته لكان بإمكاننا، مع هذا الكمّ من الذكريات وطيف أندريا الجاثم فوق صدورنا، وممارساتنا السيّئة الفظّة حين كنا جنودًا، التحدّث عن الحرب، هذا أكيد، أتساءل عمّا إذا كانت لدى فرنسيسك رغبة في رؤية رفاقه المرحّلين من جديد، لا شكّ أنّه لا يتمنى أن يتذكّر بعض الأوقات، بعض الممارسات الجبانة الصغيرة التي كان يقوم بها يوميًّا داخل المعتقل، لا يستمرّ السجين أربع سنوات في ماوتهاوزن دون أن يقدّم بعض التنازلات أو يدخل في منطقة المميّزين الرماديّة، منطقة الـ*Prominenten* المميّزين الذين يتغذّون بشكل أفضل، ويتعرّضون للضرب أقلّ من زملائهم، هؤلاء المطيعين المنفّذين الأوامر، المحاسبين، الإداريّين أو المصوّرين في خدمة المعتقل، من ذا الذي يقدر على توجيه الملامة إليهم بحجّة أنّهم استطاعوا التملّص من صعود المئة وثمانين درجة المؤدّية إلى كسّارة الحجارة، أو النجاة من إغراقهم في مغاطس المياه المتجلّدة، أو من التعرّض للضرب بقبضة المعاول، من يلومهم على النجاة بجلدهم واجتياز المحنة بنجاح، كان المساجين المميّزون يُسمح لهم بالتنقّل بحريّة في حرم المعسكر، هل يجب أن يشعروا بالذنب لأنهم ظلّوا على قيد الحياة، ربّما كان هذا محتملاً، عندما كنت في البندقيّة عند ضفّة المياه القاتمة أفكّر بأندريا يعتصرني الخجل والألم، أفكّر بميتة أندريا الحزينة، أحمل جثّته المفقودة حيثما ذهبت، جثّته تثقل على كاهلي، أتقدّم حاملاً جسده على كتفي وفي يدي الحقيبة، ما أثقل هذا الحمل، من البداية وجد ليبيان رئيسي المليء بالقروح أنّ شغفي بالأرشيفات والأسرار طبيعي، كان

يقول لي، سوف ترى، ستتخطّى هذه المرحلة، المبتدئون هم دومًا متحمّسون وهذا طبيعي جدًّا وهذه حسنة من حسنات المهنة بعد كلّ حساب، كان يساعدني في الحصول على المعلومات ويدلّني على أقرب طريق للوصول إليها، فيشات قديمة لم تعد تهمّ أحدًا ومع ذلك لا يزال يُنظر إليها على أنّها «أسرار خاصّة بوزارة الدفاع»، تقارير قديمة مدرجة في أفلام، ملفّات شخصيّة، كان ليبيان يقول إنّ هذه الطريقة في العمل هي الأفضل لتعليمي الآليّة الحقيقيّة لسير جهاز الاستخبارات، ومعرفة كيفيّة الحصول على هذا الخبر أو ذاك، إلخ.، كانت حكمته تنصّ على أنّ «الأرشيفات هي التربة الخصبة لعمل أجهزة الاستخبارات»، إنّه رجل مخابرات من الطراز الأوّل كما يقال، معه كنت في صحبة الأكفّاء، عندما أحيل إلى التقاعد دعاني إلى تناول الغداء معه، المحار، لو سمحت، في مطعم Wepler، كان سعيدًا لتقاعده حتى لو كان يقول إنّه سيظلّ يحنّ إلى عمله، أتخيّله يقصقص الأخبار الواردة على أوراق الصحف في أحد الأرياف في ضواحي إيفرو أو فان، مقارنًا بين المصادر، مالئًا الإضبارات بالصور التي قصّها وألصقها بالغراء إلا اذا كان لم يستسلم لشغفه بالدرّاجات، كان ليبيان يروي لي، وهو يلتهم محاراته في ساحة كليشي، أنّه في بداياته كان يعمل لـ«جهاز آخر»، كان يعبد التقصّي في أوساط رياضة الدرّاجات، «لكلّ واحد منا هوسه، أضاف، فيما يتعلّق بي، كنت مهووسًا بالدرّاجات واليساريّين، والفوضويّين في عالم الدرّاجات- فكّرتُ، ليست هناك مهنة بلهاء، وهناك وجوه عديدة يمكن للأمن القوميّ أن يتّخذها – بالطبع لا نجد الكثير من اليساريّين في عالم الدرّاجات لكنّي كنت أستطيع العثور في كلّ مرّة على بعضهم، خصوصًا بين أوساط الصحافيّين الرياضيّين ها ها، كان رؤسائي آنذاك

يقولون لي لكن يا ليبيان لم لا تذهب إلى السوربون أو إلى نانتير، هناك تستطيع العثور عليهم، عندئذٍ كنت أتسكّع في الجامعة لبعض الوقت لإنهاك خصمي قبل أن أصرعه بالضربة الفصل، لكن ما أن تكون هناك إمكانية للاشتراك في دورة فرنسا أو باريس -روبيه، كنت أفعل - اليوم لا بدَّ أنه شغوف بالفضائح وبالرّهانات الماديّة بالنسبة لرياضته المفضّلة أو يتحدّث بالتفصيل عن شؤونه لزوجته الساهمة أو لرفاقه في الحانة، بالطبع لم أسمع شيئًا عن أخبار ليبيان مذ صافحته آخر مرّة بعد تناول الكونياك في مطعم ويبلير، كان يبدو عليه التأثّر، سائق الدرّاجات العجوز، هل هذا معقول، لقد درّبني، درّبني كما يجب مخفّفًا من إنشائيّة أسلوبي في المذكّرات والتقارير، وعلّمني جميع أسرار مهنة الخفاء، وكيفيّة ملء الفيشات والإفادة من الأرشيفات، ما يملأ حقيبة كاملة، بالطبع كان يرتاب في أمر ما، لكنّه كان على وشك أن يبلغ سنّ التقاعد، فلم يرد أن يشغل باله بأيّ شيء أو تحميل نفسه أعباء إضافيّة، قصّتي مع ستيفاني كانت على وشك أن تشيع في أرجاء المكتب، لا سيّما في مراحلها الأخيرة، ثمّ إنّ «العلاقات الحميمة» بين الموظّفين لم تكن مستحبّة، حتى لو كانت في العمق، تؤدّي إلى بعض النجاحات في توفير الأمن، فالتسريبات المحتملة تبقى، في أسوأ الحالات، داخليّة، والحوارات التي تجري في السرير، لا تتجاوز، إن أمكن القول، باب البولفار: نهاية العلاقة هي التي كلّفتني «ابتعادًا» استراتيجيًّا في عمق منطقتي لبعض الوقت، لكي لا ألتقي بها كلّ يوم، وهذا بفضل أحابيل ليبيان في إدارة الموظّفين، شكرًا للرئيس الأبويّ المولع بالدرّاجات، كان فرنسيسك بويكس المصوّر في ماوتهاوزن يعبد هو أيضًا الدرّاجة، وغطّى دورة فرنسا في عام 1947 إلى 1950 لصحيفتي **الأومانيته**

و*Regards*، ممتطيًا مؤخّرة درّاجة ناريّة، كما يفترض، ربّما كان ليبيان وضعه على لائحة الشيوعيّين في نهاية الستينيّات لو أنه لم يلقَ حتفه في عام 1951، مسكين فرنشيسك الذي توفي إثر مرض غريب انتقل اليه عن طريق العدوى من المعتقل، ضرب من البؤس أو الندم، أحد هذه الأمراض التي لا تُفسّر والتي لا مهرب منها إلا بالموت، تُرى، ما مصدر هذا المرض، ذات مساء من شتاء 1943، ربّما تلقى فرنسيسك بويكس، من يدري، بعض الماركات الإلمانيّة في معسكر ماوتهاوزن مقابل عمله في التصوير، كان بول ريكن يستلطفه، سمح له بالقيام بجولة في التخشيبة الأولى قرب المدخل، ماخور السجناء الذي فتح منذ ستّة أشهر بعد زيارة هيملر، كانت كلفة الممارسة الجنسيّة تبلغ ماركين اثنين في بيت البغاء حيث تعمل بعض المرحّلات من رافنسبروك اللواتي اختارتهن الشرطة العسكريّة النازيّة، وهنّ جميلات كما يقال، اجتاز بويكس الباحة الرئيسيّة في الليل، المرّة الأولى التي ذهب فيها إلى ماخور، كانت في برشلونه، بالقرب من فندق باراليل، في حيّ مريب، في الأزقّة النتنة، كان ماخورًا على الطريقة القديمة، أحمر، مفروش بالمخمل، الغرفة الصغيرة تفوح منها رائحة الفحش والمرهم الواقي للدكتور غاسبار، اضطجع بالقرب من أراغونيّة[1] مكتنزة، تكبره سنًّا بالطبع، انتهت المضاجعة بسرعة، لبس فرنسيسك سرواله من جديد في الحال ثم ذهب ليسكر مع رفاقه، كان بإمكانه أن يلتقط صورة للمرأة الشابّة، ليتذكّر فخذيها الحليبيّتين وشعر عانتها المنوفر الواصل حتى سرّتها، سيتذكّرها، ربما لن يستعيد المتعة تحديدًا، وعلى الأرجح لن تكون المتعة المؤقّتة باعثًا على الذكرى، اللذّة برق

(1) أراغون، منطقة في شمال شرق إسبانيا.

يومض ويختفي دون أن يترك أثرًا، يجتاز باحة ماوتهاوزن، مأوى المحتضرين، ويذهب ليلتقي بصديقه غارسيا في بيت البغاء، تلك هي المكافأة الكبرى التي تمنحها السلطة النازيّة لمن يخدمها بإخلاص، فكّر، ألمانيا تمسكنا من خصياتنا، ألمانيا تمسكنا من خصياتنا، هكذا قال ممازحًا نفسه، في هذا الصباح أعدم الغستابو خمسة عشر تشيكيًا ويوغسلافيًا بالرّصاص، بالقرب من مكتب التحرّي عن هويّة الأشخاص حيث يعمل، كان يظهّر أفلامًا، لدى سماعه الطلقات الناريّة، خرج من الغرفة السوداء ونظر عبر النافذة فرأى الجثث المتهاوية لصق الجدار، وبينها أربع نساء، الآن وقد هبط الليل، ها هو يذهب إلى الماخور حيث هناك مسجّل يصدح بأغانٍ ألمانيّة، «حرّاس» الماخور من مرتكبي الجرائم بحقّ القانون العام، أرسلوا إلى هناك بعد ارتكابهم أفظع الجرائم، هؤلاء القتلة، والمغتصبون، والمنحطّون هم الذين يديريون شؤون المعتقل، رعاياهم اليهود والبولونيّون والمثليّون الجنسيّون، نبلاؤهم المعارضون الألمان والجمهوريّون الإسبان، أي باختصار كلّ الهرميّة النازيّة متمثّلة هنا - يلتقي فرنسيسك بويكس بعض المساجين المتضوّرين جوعًا الراجعين من «الكوموندو[1]»، يحيّيهم باحترام، يدرك أنّه محظوظ، بأنّ الإسبان القلائل الموظّفين في مكاتب إدارة المعتقل هم من المحظوظين، وأنّ المعتقلين يسقطون الواحد تلو الآخر وقد أضناهم الإنهاك واستعباد الحراس وساديّتهم، يحيّي أيضًا جوهانس كورت عضو الشرطة العسكريّة النازيّة الذي يرافقهم، ليس هناك من هو أشدّ خبثًا ولؤمًا منه، وليس هناك من هو أعلى رتبة منه، بين المعتقلين هناك أيضًا أعضاء سابقون في

---

(1) معسكر أشغال إجباري مجاور للمعتقلات.

الشرطة النازيّة فرّوا من الجبهة الشرقيّة، هؤلاء يكابدون كل أعمال السخرة والأعمال الشاقّة الممكنة وسرعان ما يحكم عليهم بالموت، وصلوا إلى أحطّ الدركات ولا يستحقّون بالتالي الحياة، خانوا الوطن والفوهرر المحتدم غضبًا على الدوام، وصل فرنسيسك إلى باب الماخور، دخل، ثمّ انتزع البيريه عن رأسه، عند المدخل حارس كان في السابق سجينًا محكومًا عليه بالأعمال الشاقّة وها قد أصبح قوّادًا، يجلس في الكنبة خائر القوى، عيناه تبرقان، تفوح من الغرفة رائحة كحول قشور البطاطا، الموسيقى تصدح، قال له الرجل ***guten Abend, Spanier***[1]، وأشار له بالمرور، في القاعة نساء، نساء في اللباس المدني ورجال في لباس مخطّط، تتصاعد أصوات وأحاديث مرحة وضحكات وسط ضجّة قباقيب الخشب على الأرضيّة، عشر عاهرات، ضعف المعتقلين، لمح فرنشيسك صديقه غارسيا مستغرقًا في الحديث مع إحدى السيّدات، يقترب منه، ممسكًا قبعة الشرطي في يده مثل طفل خجول، النساء يتكلّمن الألمانيّة، يعرّف عنه غراسيا ثم يسارع للسؤال بألمانيّته المشوّشة ***Ich heisse Franz. Wir gehen***[2]، ذهب فرنشيسك مع الفتاة إلى إحدى الغرف المجاورة، نقدها الماركين فأخذتهما، خلعت ثيابها، جسدها ملطّخ بالكدمات الزرقاء والندوب، أشارت إليه كي يذهب إلى المغسلة، أخفضت بنطاله المخطّط وغسلت له عضوه متفحّصة إيّاه بعناية لتتحقّق من نظافته من القمل، الماء متجلّدة، شعر أنّ عضوه يتقلّص ويغور في عمق حوضه- يعتريه شيء من الخجل، يتذكّر برشلونه، ويخرس لسانه، يمسك أحد نهدي المرأة المترهّلين،

---

(1) أي: مساء الخير أيّها الإسباني.

(2) أي: أدعى فرانك. هل نذهب؟

تنظر إليه مذعورة، يغمض عينيه ويفكّر في عاهرته الأراغونيّة والصورة التي لم يلتقطها لها، تجذبه الإلمانيّة من عضوه حتى السرير ثم تتمدّد مفرجة ساقيها ويتمدّد فرنسيسك فوقها تفوح منها رائحة العرق والمعسكر، ربّما تدعى لولا أو غوردن، يتلوّى فوقها قدر ما يستطيع دون نتيجة وراحت تطلق صرخات استعراضيّة فيما تظاهر بأنّه تمتّع ثم نهض وابتسم لها يراها قبيحة، لا أحد منهما غافل عن الحقيقة- يعود فرنسيسك بويكس إلى القاعة الفسيحة والابتسامة على شفتيه، يربّت غارسيا على كتفه، ويقول له: تشعر بتحسّن أليس كذلك، ويجيبه فرنسيسك نعم دون كذب، أجل يشعر بتحسّن، أوضاعه أصلاً جيّدة وستتحسّن باستمرار، متى عرف بالتحديد أنّه سينجو وأنّه سيحيا، في أيّة لحظة اتّخذ القرار بإبقائه على قيد الحياة؟ يُروى أنّ المرحّلين كانوا يعرفون ويميّزون بين هؤلاء الذين لديهم حظّ بالنجاة وهؤلاء الذين سيلقون حتفهم، مانوس هاجيفاسيليس، أحد المقاومين اليونانيّين في الجيش الشعبي لتحرير اليونان وصل إلى ماوتهاوزن بعد رحلة بحريّة طويلة، هرب خلالها مرّتين، وألقي القبض عليه من جديد على مسافة ألف كيلومتر من سالونيك في ضواحي غوريزيا بصحبة مقاومين يوغسلاف، ما إن وصل إلى المعتقل وكان لا يزال في صفّ المنتظرين لكي يتمّ التحقّق من شخصيّاتهم، أحسَّ بأنّ كلّ ما يراه حوله مرعب، أيقن أنّ النهاية اقتربت فخرج مانوس فجأة من بين الصفوف وراح يركض باتّجاه الأسلاك الشائكة المكهربة وارتمى عليها، صعقته الكهرباء فتقلّصت عضلاته كلّها ونزف الدم من أنفه وفمه وتصاعدت رائحة الأوزون واللحم المشويّ، كان لا يزال حيًّا حين أجهز عليه الحراس رشقة رصاص الرحمة، خرج مانوس الشيوعيّ اليوناني من مقدونيا الذي جال أيبر واجتاز البلقان مشيًا على قدميه

والبندقيّة في يده، التقط بول ريكن صورة جثّته وظهّرها فرنسيسك بويكس في الحمّام الكاشف ثم علّقها على حبل الغسيل لكي تجفّ، في غضون ذلك أتت النار على جسد مانوس في فرن حرق الجثث، وتصاعد دخانه وسط سماء النمسا الدبقة، نأمل أن يكون زوس الصبور قد أمطر هذه الغيمة الرماديّة فوق جبل الأولمب، سيخرج بويكس من المعتقل، وسيذهب أيضًا إلى اليونان لكي يغطّي أحداث الحرب الأهليّة لصالح صحف شيوعيّة، كانت تلك فترة استراحة، حُكم عليه بالموت مع وقف التنفيذ قبل الدّخول إلى مستشفى روتشيلد وقبر تييه، لكن فرنشيسك سبق له ومات، مات في معتقل ماوتهاوزن الذي لا يخرج منه المرء حيًا، مات بين يدي العاهرة الألمانيّة، ذات مساء في ماخور التخشيبة رقم 1، بعد محاولة يائسة لمضاجعة هذه المدعوّة غودرن أو لا، سقطت روحه بين جسديهما، هناك التقط المرض، هناك، في استحالة العثور على شيء آخر غير اللحم المتعفّن، ما من ملامسة ممكنة، أو عزاء، بل وجد نفسه محتبسًا في وحدة أبديّة، هائمًا على وجهه في هذا العالم منفصلاً عن كلّ شيء، على غرار بول ريكن مؤرّخ الإنحطاط، المصاب بالعدوى نفسها - وإذا أمعنتُ التفكير في الأمر، فإنّ مساعيّ للهرب من **المنطقة** والذكريات نابعة من التناذر نفسه، ما الذي حصل في البندقيّة مع ماريان، أو في باريس مع ستيفاني السمراء، ما الذي حصل بين أذرع العاهرات في زغرب أو كاباريهات حلب القذرة، وفي البوسنة، ما الذي ينتظرني في نهاية هذه الرحلة، في روما، في حنان ساشكا الفاتر وشقّتها، ما الذي ينتظرني وأنا أنتحل اسم ايفان دوروا المجنون، هل سأتمكّن من التخلّص من نفسي كما تخلع كنزة من الصوف عن جسد مسافر في قطار مدفّأ أكثر ممّا ينبغي، في اليأس الأسود لليل البولوني

وهذه الضواحي اللامتناهية، أرتجف لدى ذكرى وجه ستيفاني، أرى من جديد صورتها المرميّة البارحة مع باقي الأغراض غير النافعة في الشقّة، ربّما سيلتقط أحد المشرّدين الصورة طمعًا بإطارها الجميل أو برؤية شعر ستيفاني الكستنائي الداكن المتوسّط الطول وبعض النمشات التي تزيّن أنفها وخدّيها، أذكر ابتسامتها الخافتة الوقورة، ثقتها بنفسها، القبّة العالية السوداء التي تحيط بعنقها، صورة تُظهر ثلاثة أرباع جسدها وخلفها كنيسة آيا صوفيا والبوسفور، عند نافذة آخر فندق أقمنا فيه سويّة، جمال هذا البورتريه مذهل، ربّما وقع المتشرّد الذي يفتّش في سلّة المهملات في غرامها هو أيضًا، ما إن يقع نظره عليها حتى يغمى عليه، سيحتفظ بالصورة كي تؤنسه في وحدته، سيتكلّم معها، ويخترع لها اسمًا وأسرة وحياة وقصّة حب شغفة، ليته يعلم، ليته يعرف ستيفاني مولر الألزاسيّة اللامعة الذكاء، القويّة، والخطيرة، التقيتها قبل أن تغادر في مهمة، قبل «أن تصبح تحت المزراب»، كما نقول في لغة الجاسوسيّة، «أن يصبح أحدنا تحت المزراب» يعني أن ينطلق في مهمّة إلى الخارج فيسقط على رأسه مبلغ من النقود الرنّانة يوازي ثلاث أو أربع مرّات معاشه الباريسي، ستيفاني الواعدة بمستقبل لامع لا بدَّ أنّها في موسكو الآن، يُفترض بي أن أجهل مكانها وألا أفكّر بها من جديد، لا بدَّ أن الطقس بارد في موسكو، قريب بعض الشيء من طقس الألزاس، وبعيد جدًّا عن طقس إيطاليا الدافىء المتوسطيّ، أتقلّب فوق مقعدي، أشعر برغبة في النّهوض، بالقيام ببعض خطوات لكي أطرد صورة ستيفاني ذات الجسد الكامل والذّكاء الحاد، ستيفاني التي كنت أروي لها قصّة فرانسيسك بويكس، مصوّر ماوتهاوزن، إبّان رحلتنا إلى برشلونه، كيف بإمكانك أن تتحمّس لقصص مشابهة، قالت لي، كانت تقرأ بروست

وسيلين، لا شيء إلا بروست وسيلين، الأمر الذي كان يجعلها تميل على ما أعتقد إلى التخابث والسخرية اللذين تتطلّبهما مهنتها، وتعيد قراءة روايتي **السفر والبحث**[1]، هكذا كانت تسمّيهما، مشيرة فقط إلى أوّل كلمة في العنوانين، **السفر والبحث**، الصادرتان في طبعة La pléiade، كما يستوجب الأمر، كان هذا يملؤني إعجابًا مشوبًا بالغيرة، لم أتوّصل إلى الانتهاء من قراءة رواية **البحث**، كانت قصص نبلاء المجتمع الباريسي وبورجوازيّيه تضجرني تمامًا قدر ما تضجرني شكاوي راويها، وكانت رواية **السفر** تحبطني بشكل فظيع مع أن تسكّع شخوصها التعساء يترك في النفس أثرًا، عندما كنّا نذهب في إجازة طويلة أنا وستيفاني أو في عطلة نهاية الأسبوع، كانت ستيفاني تضع في حقيبتها بالصدفة، أحد مؤلّفات بروست أو الجزء الأوّل من رواية سيلين، لا نغيّر ماركة عطرنا، ولم تكن ستيفاني تتخلّى عن كتابها، عطر شانيل وكتاب مارسيل بروست لا يتغيّران، وعندما كانت تستعدّ للرحيل، التنازلات الوحيدة التي أبدتها بخصوص تغيير قراءاتها كانت استبدالها بأعمال نقدية عن بروست وسيلين، كل واحد على حدة أو الاثنين معًا، وكانت تقرأها بعين ساهمة، ناقدة، وتزيدها هذه الأبحاث قناعة في ضرورة اقتصار شغفها الأدبي على شريك واحد وتدفعها إلى الرجوع «للنص المقدّس» بعد التعقيب عليه: اسمع، كانت تقول لي: اسمع، تأنف نفسي من المذكّرات والتقارير طيلة النهار، وكتابة التحاليل، لديّ الحقّ في القليل من الاسترخاء، الحقّ في قراءة أشياء مكتوبة بإتقان، هذا يبدّل مزاجي، ستيفاني اختصاصيّة في ما ندعوه الأخطار

---

(1) **السفر إلى أقصى الليل** رواية لوي فرديناند سيلين **والبحث عن الزمن الضائع** رواية مارسيل بروست.

المحدقة ببلدنا، عملت لبعض الوقت في مفوّضية الشؤون الاستراتيجيّة قبل أن تجري الامتحان الخاص بثكنة الظل البديعة ثكنتنا، أو بالأحرى، قبل ان يُقترح عليها إجراء تلك المسابقة الإدارية المتكتّمة - في برشلونه بلاد المصارف وأشجار النخيل، كنت أقتفي آثار فرنسيسك بويكس، والجمهوريّين، والفوضويّين، وميليشياويّي حزب الاتّحاد العمّالي الماركسي، وستالينيّي حزب الاتّحاد الاشتراكي القتلوني، أمّا هي فكانت تتحدّث عن المازات ومتحف بيكاسو وميرو، كانت تقول دومًا هذا لذيذ، هذا المطعم «لذيذ جدًّا»، هذا الحي «لذيذ» فعلاً، غودي، لذيذ جدًّا، كانت رائعة الجمال، بنظاراتها الشمسيّة وهي تنظر على المرفأ إلى القطارات الراحلة إلى مايوركا أو مينوركا، شعرها منسدل حتى كتفيها، يدها في يدي، فنسيت إذ ذاك شجوني في **المنطقة**، وحقيبتي، أصبحت سائحًا وهذا أجمل شيء، سائحًا برفقة حبيبته، سائحًا يملك المال ويرغب في ممارسة الحبّ طيلة الوقت، كانت تردّد على مسامعي، كفّ عن التفكير بقصص الحرب هذه، هل تريد أن نعود إلى الفندق؟ كنا نعود إلى الفندق ولا نخرج منه إلا عند هبوط الليل، فنغرق في كرنفال الأزقة في وسط برشلونة التي تترك في النفس انطباعًا بأنّ السائحين صنعوها بأنفسهم لكي يجعلوها «لذيذة» كمثل عاهرة عجوز تضع بروكة بنفسجيّة إذا اقتضى الأمر، مستعدّة للقيام بكل شيء لإرضائك، كانت برشلونه تهمس في أذن الآتي من الشمال المستعدّ لفعل ما يحلو له ليتسلّى بوقته قائلة: *fiesta, fiesta* ليتخم بأشعة شمسها وبالباييلا، ليغرق في ليترات وليترات من السنغريلا الحمراء الدسمة مثل دم الثيران في حلبة La Monumental في برشلونة التي كان موتها الطقسي يبعث في الفرنسيّين والإنكليز والألمان رعشة المحظور فينظرون عن

اقتناع للعرض الناجح البديع الطالع من إسبانيا المتوحشّة الغامضة التي لهم وحدهم أن يعرفوها، أمّا لمرضى الحنين الذي لا يشفون فهناك الأبسينت[1]، أذكر كانت هناك حانة اسمها «مرسيليا» عند قارعة زقاق متعرّج محتشد بالمومسات القبيحات جدًّا، بار يديره ألماني أصلع بدين ومنفّر، حانة تفوح منها رائحة القذارة والآنيسون والتبغ البارد، دخلت مع ستيفاني وقد أعماني الحب و«دليل المسافر»، قدّموا لنا مشروب الأبسينت، الذي كان ليكي فان غوغ نفسه، وقنينة ماء من البلاستيك مع قطع من السكّر المغلّف بالورق، التقاليد تستعاد من جديد، كان السيّاح والسكان المحليّون الشبّان يذوّبون سكّرهم في الأبسينت بملعقة وكأنّه القهوة بالحليب، كان ل «الجنيّة الخضراء» طعم محبط كطعم الشرتريّه[2]، صدحت الموسيقى وارتفعت الأصوات صاخبة، «للذيذة»، حيّة للغاية، أفكّر بفرنسيسك بويكس هذا التعيس وعاهرته الأراغونيّة، كان نجما الحي جان جنيه وبيار ماك أورلان، لا بل إنّ هناك مطعمًا فاخرًا يقدّم السمك يفتخر بكونه استقبلهما ويتباهى بشارات الأدلّاء السياحيين في العالم أجمع، ليس من المفترض أن يتعشّى اللوطيّ جنيه السارق المتضوّر جوعًا في مطعم من هذا المستوى الرفيع إلا فيما ندر، السلام على روحه وعلى زبائنه المومسين وغجريّيه ذوي السكاكين الطويلة اللامعة، آل الأمر بالألماني الأصلع النتن الرائحة إلى طردنا لأنّ استهلاكنا للكحول لم يكن بالسرعة التي تمنّاها، وقد حرّرنا في الواقع، من يدري ربّما كان حفيد أحد

---

(1) الأبسينت: شراب مسكر أخضر اللون يستخرج من الأفسنتين ومفعوله مضرّ.

(2) شرتريّه: مشروب رهبان شارتر.

حرّاس فرنسيسك في ماوتهاوزن هو من يقدّم الآن الأبسينت لأحفاد أخ المصوّر، كانت ستيفاني ثملة قليلاً وتستهويها التجربة، لم تكن تريد العودة في الحال، وذهبنا للقيام بجولة على المرفأ، حيث أبحر من هناك ميغال دو سرفانتس باتّجاه إيطاليا، قبل سنتين من معركة ليبانت، وكانوا آنذاك يستعدّون للمعركة بالعمل على صناعة السفن الشراعيّة الهائلة في أحواض المرفأ القريبة جدًّا وقد تحوّلت اليوم إلى متحف للملاحة البحريّة الحربيّة – على الشاطىء يرى سرفانتس المرتدي ياقة مجعّدة السفن الحربيّة مسحوبة إلى الأرض القاحلة ومجذفي الشراعيات الذين يحتفلون ولم يكن يدري أنّه عما قريب سيكون على متن إحدى هذه السفن مجهزًا قربينته على التركيّ المتوحّش، راقب لبرهة النيران فوق الرمال، إنّه المساء، توغّل في الأزقة المحاذية لكنيسة عذراء البحار لكي يهتدي إلى حانة ملائمة ليسكر فيها، حيث يقدّم النبيذ الدسم المنتج في القرى المجاورة، وإذ تصاعدت إليه نشوة الخمر بعض الشيء قبيل منتصف الليل، انخرط في نقاش حادّ مع أحد النبلاء المحليّين: لماذا وصل بهما الأمر إلى حدّ الاشتباك بالأيدي، أجهل السبب، قرّرا الخروج من الحانة وقد اهتاجا على إثر تناول الكحول وتبادل الشتائم، استلّا سيفيهما في الساحة الصغيرة المجاورة، سرفانتس يدّعي الشجاعة لكنّه ثمل، تقارعت السيوف مرّتين، مرّتين فقط وتطاير معها سيف سرفانتس الذي بات أعزل تحت رحمة القتلونيّ النبيل، لا بدّ أنّه كان شاعرًا، بكلّ تأكيد كان شاعرًا لأنه بدل أن ينفذ المدريديّ في الحال بسيفه، قرّر إهانته، أمره بأن يتعرّى، هنا، والسيف مغروز في صدره، قبل أن يلقّنه درسًا تأديبيًا على يد رجاله المسلّحين ويتركه شبه مُغمىً عليه فوق الأرصفة المتعرّجة، في الليل المتوحّش– خائر القوى،

متوجّعًا، جرّ سرفانتس نفسه حتى السور الذي يحيط بالمرفأ، لا يزال ثملاً، ومسترسلا في الضّحك، لا يستطيع تمالك نفسه عن القهقهة والضحك على سوء حظّه بالذات، وبالتأكيد لم يعد هناك فرسان ولا روح فروسيّة، الرجل عارٍ، الآن، في متاهات الحداثة، لبس كلسونه الطويل الذي تكرّم خصمه بتركه له بعد أن غطّسه في المستنقع، ارتداه وذهب يفتّش عن حانة تستقبله حيث بإمكانه متابعة الضحك ونسيان كدماته، دون قميص، مجرّدًا من ملابسه مثل دون كيشوت، الشخصيّة التي سيأتيه الإلهام لخلقها فيما بعد معيدًا التفكير بالشجار البرشلوني، شجار السكارى كما يُفترض أن يكون في الأدب- ذهبتُ مع ستيفاني إلى خمّارة مختلفة تمامًا، تظهر الجانب العصري المهذّب من العاصمة القتلونيّة، حانة بالأحمر والأبيض، متواضعة، يشرب فيها الزبائن واقفين تحت الظلال الفنيّة الشبحية التي يُحدثها مصباح عملاق، الكوكتيلات ذات ألوان منسجمة: كان هناك رجال في ملابس زاهية ونساء أنيقات وكان التناقض كبيرًا بين الخمّارتين بحيث تشعر أنّ المدينة أصبحت منفصمة، أو مخادعة، من جهة هناك البهتان القذر النوستالجي ومن جهة أخرى الصورة الأكثر طليعيّة للحداثة الهادئة والبورجوازيّة، بعيدًا جدًّا عن دون كيشوت، أي أنّ كلّ مظهر من المظهرين مصطنع كالآخر، وبحسب رأيي، ربّما كانت هوية برشلونه محتجبة في مكان ما بين هاتين الصورتين، تمامًا كما تتأرجح بيروت، في الجانب الآخر من **المنطقة**، تأرجحًا لا متناهيًا بين الحداثة البرّاقة والفقر العدوانيّ، برشلونه انعكاس لها، برشلونه المدينة الإسبانيّة المقابلة لمحور إيطاليا المركزي، تقسم المدينتان البحر المتوسّط إلى قسمين والمرفآن أحدهما من الشرق والآخر من الغرب وهما متقابلان تمامًا، عندما كانت تُسند إليّ

مهمّة في بيروت، كان عملاؤنا في السفارة يصحبوننا غالبًا إلى حانة ليليّة اسمها غريب B018 وهي أحد الإهراءات الواقعة خلف مرفأ بيروت في حي الكرنتينا، حيث جرت أولى مجازر الحرب الأهليّة في كانون الثاني 1976، أعدم الكتائب بالرصاص فلسطينيّي انتصار والأكراد الذين كانوا يسكنون المخيّم المتعفّن المنحشر من مستوعبات أرصفة الشحن والتفريغ ومكبّ النفايات البلدي، وفي هذا المكان بالضبط الذي حصلت فيه المذبحة، افتتح المالك حانته حيث كانت تصدح الموسيقى وهي مزيج لذيذ بين الألحان العالميّة والبوب العربي، كان الزبائن يتوافدون بكثافة والجو رائع، نساء شابات بديعات الجمال يرقصن واقفات على الطاولات المستطيلة، على البار اللامتناهي، وكان الديكور والإنارة بسيطين وظريفين، والجميع، وسط الجو المتفجّر للحانة الفائقة التدفئة يحتسون كوكتيلات B-52 يشعلها بارمان متخصّص بولّاعته، الجميع ينضح عرقًا، والجميع يرقص، أحيانًا تدوّي صفّارة إنذار صاخبة، كتلك التي تُستخدم حين يشنّ الطيران الحربي غاراته، وفجأة، بفعل معجزة، ينفتح سقف الهري المتحرّك، وتبدو نجوم بيروت وسماؤها فوق الراقصين والشاربين وتتصاعد الأغاني والصرخات والموسيقى إلى السموات كعمود دخان ناشرة أجواء العيد وأصوات المرح حتى خليج جونيه، حتى ساعات الصباح الأولى، كانت فتحة السقف مضبوطة أوتوماتيكيًّا على درجة حرارة الصالة وتحمي آخر الزبائن من برودة الفجر فتغلق على مهل كناووس مصّاص دماء، كنت ثملاً في B018 وكانت الساعة تقارب السابعة، طلع النهار واهنًا في إحدى الزوايا ورحت أراقب الموظّفين وقد باشروا بأعمال التنظيفات، في الصالة الكبيرة الفارغة نظرت إلى توزيع الطاولات، في صفوف متوازية، كتل خشبية

طول كلّ منها متران تقريبًا، وجميعها منتظمة وكأنّها توابيت في قبر، هكذا فكّرت أثناء سكري، لكأنّها قبور القتلى في الكرنتينا، نظرت عن قرب، كانت كلّ طاولة تحمل فعليًا على جانبها لوحة برونزيّة صغيرة، غير مرئيّة في العتمة، مع لائحة الأسماء بالعربيّة، كان الزبائن يرقصون على النعوش الرمزيّة لموتى الكرنتينا، وصفّارات الحرب تدوّي في الليل، وبيروت ترقص فوق الجثث، بيروت ترقص فوق الجثث وأجهل ما إذا كان الأمر تعبيرًا عن حزن على أرواح الضحايا أم ابتهاجًا بمقتلهم أم ثأرًا من الحرب التي تمنع الرقص الدائريّ، لكأنّه شكل من أشكال التذكار أيضًا، لكأنّها مقبرة موسيقيّة لهؤلاء الذين لا يملكون قبورًا، إراقة خمر في وليمة جنائزيّة ملتحفة بأبخرة الدخان، رقصات مأتميّة، كوكتيل أخير قبل النسيان– اللبنانيون بارعون في أعمال الديزاين والديكور الداخليّ في هذه الجهة من البحر، كما هم القتلانيّون في الجهة الموازية، يمسرحون المأساة: في بيروت، لا تجد إلا القليل من النصب المكرّسة للحرب الاهليّة، القليل من اللوحات التذكاريّة، والقليل من المذكّرات المدونّة، كلٌّ يحمل في وجدانه حصّته من الذكريات قدر ما يستطيع على غرار رفائيل كحلة الكاتب الذي يحمل ذكريات المقاتليْن الفلسطينيّين انتصار ومروان، الخرافات كثيرة، وكذلك أخبار غسان الخرافيّة التي رواها لي في مدينة البندقيّة، إنّ غيلان الحرب اللبنانيّة وفظاعاتهم وما فعله جيش أحد الزعماء في مواجهة جيش زعيم آخر، والموتى، والمفقودين، إنّ وزر كلّ ذلك يحمله الأفراد، ولكلّ قصّته الشخصيّة من الدموع والثأر، أمّا إذا قُلبت الصورة في الجهة الأخرى من البحر، في برشلونه، تبدو الديمقراطيّة المستعادة وقد ضاعفت مظاهر التبجيل ورفع الأنصاب، الشوارع أعطيت أسماء جديدة، حتّى أن جورج أورويل نفسه

الميليشياوي التروتسكي المتحرّر من الأوهام يملك ساحة باسمه في المدينة القديمة، لا شكّ أنّ رائحة البول تفوح منها، لكنّها ساحة صغيرة جميلة محاطة بالحانات القذرة بعض الشيء، المسكونة بالهيبّيين الجدد الإيطاليّين الذين يعزفون على الشبّابة *Belle ciao Bella ciao*، وهذا المكان وجَدته ستيفاني «لذيذًا» أيضًا، وكذلك شارع أفينيون على مقربة من هنا ويحلو لي الاعتقاد أنّ بيكاسو استوحى منه آنسات أفينيون في بيت للبغاء، آنسات أفينيون هنّ العاهرات النحيلات في أحد مواخير برشلونة، أصبح اليوم بنسيونًا للسوّاح - ستيفاني المتشبّثة بروايات بروست وسيلين كانت تحبّ كلّ شيء، الأحياء الجميلة ذات الجادات الواسعة حيث يتردّد رجال الطبقة الأرستقراطيّة في ضواحي سان جرمين أو الأوبيرا للنزهة، وأيضًا الوسط التاريخي البائس حيث كان زملاء باردامو[1] الإيبيريّين يمارسون عملهم، في الفترة الفاصلة، بين أوّل المساء ووقت العشاء كنّا نبقى في الفندق، وبعد ممارسة الحبّ كنّا نقرأ، أنا «تاريخ حرب إسبانيا» لبرازيياك وبارديش، وقد أهداني إياه بارديش الفاشي عندما كنت لا أزال تلميذًا في الليسيه، بدا لي هذا الكتاب، بالإضافة إلى مذكّرات أورويل، مؤاتيًا في فترة هروبي المؤقّت إلى قتلونيا ما أثار سخط ستيفاني فتقول لي، هذا يبعث فيَّ نوعًا من الغثيان، ما الجدوى من جرجرة هذه الفظاعات النازيّة إلى كلّ مكان تنتقل إليه وإلى هنا بالذات، حاولتُ أن أشرح لها أنّ هذا الكتاب التاريخي كان معتمدًا رسميًّا في إسبانيا حتّى نهاية عهد فرنكو، كان الشيوعيّون هم الأشرار، والآخرون هم الصالحون، ثمّ إنّه لا يزال هناك بعض «المؤرّخين» الذين يدافعون عن الفكرة القائلة

---

(1) بطل رواية سيلين وهو طبيب.

إنّ فرنكو أنقذ إسبانيا من براثن من هم أكثر سوءًا، أي الستالينيّين والفوضويّين، لكنّ ستيفاني لم تكن تتراجع عن موقفها وتقول لي: ليس هذا عذرًا مقنعًا لكي تعمد إلى قراءة كتابات الفاشّيين والنازيّين، عندئذ تذرَّعتُ بحجّة أخرى، ماكرة، قلت لها: وسيلين؟ سيلين ألم يكن فاشيًّا معاديًا للساميّة؟ فاغتاظت وأجابت أنّ الأمر مختلف، وأنّه ليس بهذه البساطة، وانتهى نقاشنا عند هذا الحدّ، نعم، لم يكن الأمر بهذه البساطة بل هو في غاية التعقيد، ستيفاني مولر المثقّفة الفرنسيّة الحادة الذكاء المتخصّصة في التحليل الجغراسياسي في جهاز استخباراتنا الغريب راحت تدغدغني على سبيل الانتقام، كان جدالنا السياسيّ ينتهي بنفش الريش وبعثرة الأغطية، أظنّ أنّه كان بإمكانها أن تغفر لبرازيياك لو أنّه ألّف كتابًا واحدًا مهمًّا، لكنّه كان بالنسبة لها كاتبًا وضيعًا لا يستحقّ أيّ عطف، دُرز الرصاص إبّان تحرير فرنسا، وتمّت تصفيته- كانت فرنسا تقوم بحملات التطهير، وستيفاني تدغدغني، وبرشلونة تلتمع بكلّ أضوائها القتلونيّة المعاصرة، الأوروبيّة، المبهجة، ولا ترغب في التذكّر أنّها أثرت في فترة الستّينيّات خصوصًا، في عزّ الفرنكويّة، وأنّ البورجوازيّة المحليّة سرعان ما تصالحت مع الدكتاتوريّة وزادت ثروتها وهي تستغلّ عشرات آلاف النازحين الآتين من جميع أنحاء إسبانيا: مسكين أورويل، في غرفة الفندق حيث كان يقيم بالقرب من ساحة قتلونيا، وهي اليوم على بعد خطوتين من مخازن الفناك ولافاييت المحليّة ومتجر لأدوات التجميل، آنذاك حين طارده الستالنيّيون بعد الحرب في حرب أيار 1937 وكانوا أعداء حزب الاتّحاد العمّالي الاشتراكي والفوضويّين، حين أرغم على الهرب لتجنّب أعمال القمع، أورويل الجميل أدرك من غرفته أنّ المعركة خاسرة، وهذا قبل سنتين تقريبًا من النهاية،

قبل بداية الطريق الطويلة التي أفضت بفرنسيسك بويكس إلى ماوتهاوزن، آخر محطّة في الشمال - كانت ستيفاني العذبة تحبّ الأساطير الثوريّة، والقبضات المرفوعة وصرخات *no pasaran*[1] وتفضّل مذكّرات أورويل على هذيانات بارديش وبرازيياك العقائديّة، برازيياك قتلونيّ بربينيان كان يهوى ممارسة صيد السمك في مركب قريبه على ضوء مصابيح الصيّادين في كوليور، صيد الأنشوفات اللامعة وأسماك السردين المكتنزة، هل كان معاديًا للساميّة آنذاك، هل سبق له وصادف يهوديًّا، هل سقط في الأشراك السهلة للبارانويا والتآمر، هو الذي كان يمرّ غالبًا بالقرب من معتقل جوفر في ريفسالت حيث اعتقل، بعد الجنود الإسبان، قسم كبير من اليهود الأجانب الذين تمّت مداهمتهم في المنطقة الحرّة، كان برازيياك يؤيّد أعمال الترحيل هذه، لأنّه بحسب رأيه يجب التخلّص من اليهود حتّى الأطفال، لم يعدمه ديغول رميًا بالرصاص لهذا السبب صباح السادس من شباط في الفجر المتجلّد عام 1945، في حصن مون روج، صرخ برازيياك «لتحيَ فرنسا» كما صرخ المقاومون الذين اعدموا قبله، رفض ديغول الشّهم التماس العفو عن برازيياك لأسباب غامضة، تتعلّق ربّما بمقت المثليّين الجنسيّين، أو ربّما بإرضاء الشيوعيّين، أو بدافع الكسل، أو، بحسب اعتقاد ستيفاني لأنّه لم يكن كاتبًا عظيمًا، لكن لم يكن سبب إعدامه بالتأكيد معاداته للساميّة، لو كان معاديًا للساميّة فقط لكان مُنح العفو، والشاهد على ذلك صهره بارديش الذي أطلق سراحه بعد بضعة أشهر من السجن أو سيلين نفسه، الذي أعيد إلى الوطن بعد أشهر من نفيه إلى أحد أكواخ الدانمارك بعد أن تجلّدت

---

(1) لن يمرّوا.

خصيتاه بردًا: كان الطبيب البسيط اللاذع من أنصار الصهيونيّة ومن دعاة قيام دولة إسرائيل، التي من شأنها إفراغ أوروبا من اليهود المربكين، اليهود الهجناء، المشرّدين القذرين، وكانت ستيفاني تفكّر في قرارة نفسها أنّه على حقّ وأنّ إبعاد اليهود هو الحلّ الوحيد للمسألة اليهوديّة وأنّ إسرائيل سجن عمليّ جدًّا لاحتواء هذه البقايا المزعجة المتواجدة في المتوسّط وأوروبا الوسطى وفرنسا، كانت هذه السجالات تحبطني، فكّرت في هرمان جيربنز الهولنديّ وفي شقّته، في يهود القاهرة أو الإسكندريّة الذين عبروا إلى إسبانيا عام 1967، لكنّ هذه الحركة في النزوح التي شهدتها **المنطقة**، هذا المدّ والجزر الدائمين حيث المنفيّون يطردون منفيّين آخرين، وفقًا للانتصارات والهزائم، أو وفقًا لموازين القوى التي يفرضها استخدام الأسلحة المتطوّرة وتنتج عنها تبدّلات في الحدود، هذه الرقصة الدائريّة الدامية، هذه الفانديتا الأبديّة التي لا تنتهي، سواء كانوا الجمهوريّين في إسبانيا أو الفاشيّين في فرنسا أو الفلسطينيّين في إسرائيل كلّهم يحلمون بأن يكون مصيرهم كمصير إيناس الطروادي ابن افروديت، المنهزمون في المدن المدمّرة يريدون تدمير مدن أخرى بدورهم، إعادة كتابة تاريخهم، وتحويل الهزائم إلى نصر، في مكان آخر وفي وقت لاحق، فكّرت بصفحة من مفكّرة فرنسيسك بويكس، المصوّر البرشلوني، بإحدى صفحات المخطوطة الضائعة لمذكّراته، **الدرب تغيّرت، امتلأت الأخاديد بالجثث حتّى التخمة وبظلال الجثث، الطريق لم تعد ترسم المنعطفات نفسها، السماء تبدو أشدّ وطأة كما لو أنّ الغيوم لا تنتهي من الطحن ومن اجترار أفكار مجهولة، أفكار لم تعد تأبه لأمرنا، كنت برفقة أستريلا منذ وقت طويل، أصابعها تطوّق معصمي وكأنّها قيود من لحم، الهواء المفعم بدخان القهوة لا يُدمع عينيها، ولا أيّة**

دمعة، لا شيء، فقط هذا الضياء الحاد - البحري الذي يعد أكثر مما يفي بوعوده، وتعرف ذلك، كان هنالك أيضًا ميغيل وإنياس في ذلك المساء، قرّرنا ليس إعادة صياغة العالم من جديد لكن إضافة بعض الإستحالات عليه، إنها بقع نافرة تضيف على هذه الصبغة الرصاصيّة المتوحّشة التي تكتنفه لونًا جديدًا، جيوبي مليئة بأوراق النقود التي لم تعد قيد التداول، رحت أجيل أصابعي فوق لهب الشمعات الصغيرة الصامدة في وجه الريح، كانت إستريلا تحدّثني عن المرض الذي كاد يحيلها جسدًا ضئيلاً متجلّدًا منزلقًا تحت الأرض، عن الطبيب الثمل الذي نجح، لا أحد يعرف بأيّة صدفة، أن يشخّص مرضها ويصف لها العلاج أو الدواء لتشفى منه، استمعت إليها ولم أستطع أن أردع نفسي عن الشعور بكلّ ألم من آلامها، معاينة انحناءة جسدها حين تستبدّ بها الأوجاع، صرت شاهدًا على كلّ نقطة من نقاط العرق التي تسرّبت على جلدها، كنت الحمى التي اعترتها، وكنت النار المغتذية ثلجًا من عينيها، كلّ ذلك قالته لي إستريلا تلميحًا، بين جرعتين، بين تنهيدتين خفيفتين كالريشة، كلّ ذلك حصل في فترة فاصلة بين عالمين، أشبه بمحاكاة غسق ساخرة، أدركت عندئذ أنّني سأمضي الليلة بين ذراعي إستريلا، وأنّ الأمر لا يتعلّق بخيار أو بشهوة، كانت المدينة مغمورة بهالة ثقيلة الوطء، تناهت أصوات محرّكات مزمجرة وعواء سكارى، لكأنّ المدينة تحلم بالرّيف، لكأنّ بعض الساحات ليلاً تتحوّل إلى حقول، وها انّ إستريلا تنهض، كشهب صاعد، كمعجزة، صوت تنفّسها يدلّني على الباب، تبعنا إنياس وميغيل لبرهة ثم اختفيا، كفّا عن الوجود أو عادا إلى حالة ما قبل الوجود، كلّ شيء بدا وكأنّه يذوب، ثمّ أصبح تنفّس إستريلا أكثر تقطّعًا وعلمت أنّنا كنّا نركض، لا نركض حقيقة، بل قلوبنا هي التي تخفق، أجسادنا هي التي

تتحرّك، امتدّ درج أمامنا وبعد عشر دقائق كانت ترميني على أحد الأسرّة وعندئذ تكرّمت المدينة بالاختفاء خلف مربّعات زجاج النافذة، وتقلّصت جميع الأصوات لتصبح دمدمات خافتة، رغبت في نسيان الثواني كلّما توالت أمام ناظري، لأحتمل تراكمها، ترسّبها، تآمرها عليّ، أردت أن أبقى هشًّا، متشظّيًا، لكنّ إستريلا كالزئبق تتدحرج فوقي وتطوّقني بذراعيها، ولا أتوصّل إلى نزع ملابسها، تتريّث أصابعي على أزرار صدريّتها التي لا تنتهي، عيناي مغمضتان، تولّد لديّ انطباع بأنّني أرى داخل جسدي، مشهدًا في تغيّر مستمر، مليئًا بالآلات المجهدة والأشباح المذعورة، ولا شكّ بأنّ المشهد ناتج عن تأثير الكحول، لكنّه أيضًا ناتج عن الجهد الذي يبذله المرء الذي قُدّر له أن يضيع في جمال الآخرين، ثمّة وقت شعرت فيه أنّها تجتذبني إليها، وكان دمي تحت صدغي يحدث صوتًا شبيهًا بقرع الطبول، أظافري انغرزت في جسدها، أسناني تبحث عن عظامها، في مكان ما في الغرفة صدح لحن أوبراليّ من الغراموفون، صوت امرأة مهزومة ولكن غاضبة راحت تتحدّث عنّا، عمّا سنؤول إليه إذا اخطأنا وحوّلنا هذه الحركات إلى عادة، وهذه الصرخات إلى وعود، والمكان إلى زمان، ثم تحطّم كلّ شيء، توقّف كلّ شيء، كنت على المرفأ أدخّن سيجارًا، كنت عجوزًا، طاعنًا في السنّ، والناس يمرّون من أمامي عائمين، رأيت شمسين في السماء، ضبطت لتوّي على ما أظنّ قنبلة جبّارة بحيث أنّها إذا انفجرت ستشعل البحار، أبلغتني برقيّة في اللحظة الأخيرة أنّ مشروعي الجهنميّ افتضح أمره، عليَّ تسليم نفسي للسلطات، وبدلاً من هذا، كنت أبذل ما في وسعي لكي أجعل محرّك سيارة مسروقة يعمل، رفض قضيب المدوّس أن يعمل، أخذ أطفال يسخرون منّي، إلى أن انتزعني قلقي من هذا الحلم المزعج، كانت

إستريلا تنام بقربي وتبتسم لي في نومها، يداها الاثنتان ترتاحان بين فخذيها، لا بدّ أنّها كانت الساعة الخامسة صباحًا، رحلت دون أن أترك كلمة، وختم شفتيها فوق رقبتي، أكثر امتلاء من البارحة، أقدم عهدًا بقليل، وكأنّه بقيت لي تجارب لم أختبرها تخليتّ عنها طوعًا للحياة، هكذا كان بويكس يقول بعد خمس سنوات من خروجه من ماوتهاوزن، متذكّرًا برشلونة اليوم لؤلؤة المتوسّط عاصمة قتلونيا الظافرة الممتلئة بالعجرفة، وصلف المنتصرين القوميّين، المتباهين بانتصارهم الاقتصادي على الاضطهاد القشتالي، حيث الصالحون «انتصروا أخيرًا» وأحرزوا الانتقام الذي يرافقهم إلى ما بعد الممات والذي كانوا يأملونه، كنت أمسك بيد ستيفاني ونتنزه على الشاطئ وجبهة البحر اللذين أعيد تجديدهما وفقًا للمقاييس العصريّة وتخلّيا عن مطاعمهما الحقيرة وزرعا بأشجار النخيل، انتُزعا من جورج أورويل وفرنسيسك بويكس ليرميا في احضان كانّ، أو جنوى، أو نيس وقد عهد باستثمار الشاطئ إلى شركات سياحيّة متخصّصة بحيث بات جاهزًا لاستقبال وفود الشماليّين الآتين ليعرّضوا أجسادهم لأشعّة الشمس الحارقة على الشواطئ الرمليّة، عند الساعة السابعة كان الشاطئ الرملي يغصّ بأفواج السائحات اللواتي يرتدين مايوهات البيكيني مع مناشف الاستحمام التي تطوّق الأجساد المحمّرة بعد أن لوّحتها أشعّة الشّمس، كانت هناك باصات تقذف من داخلها على وجه السرعة مجموعات المصوّرين الهواة أمام ساغرادا فاميليا، وبدأ أصحاب المطاعم يضعون أطنان البايلا في الأفران ليذوّبوا الثلج عنها، اشترت ستيفاني لنفسها أحذية وأثوابًا ومجوهرات غير ثمينة، نجحت في إقناعها بالذهاب إلى آخر جادة دياغونال حيث تلتقي بالبحر الغالي على قلوب متعهّدي البناء ومهندسي المدن المعاصرين،

أردت أن أريها ورشة الإعمار الهائلة، بحيث زرعت الأرض اليباب بالجرّافات وجبّالات الإسمنت في أسفل المباني الأنيقة التي تطلّ على البحر، من بين أفخم المباني وأكثرها عصريّة في المدينة، كانت هذه الأرض البور التي تضجّ بالعمال تدعى فيما مضى Campo de la Bota «معسكر الجزمة» وقد اختارتها الفرق العسكريّة مكانًا لتنفيذ حكم الإعدام رميًا بالرّصاص على المدانين، حيث قتل ألفا بريء من جماعات الفوضويّين والنقابيّين والعمّال والمثقّفين تحت نوافذ الشقق الفخمة اليوم، أصدرت المحاكم الميدانيّة المغفّلة أحكامها العرفيّة الفوريّة عليهم بلا محاكمة، ثم عهد بهم إلى فريق إعدام مغفّل ومنهك، قبل أن تدفن ذكراهم نهائيًّا على يد عمّال مهاجرين مغفّلين ومنهكين، في مكان المقبرة الجماعيّة التي تحتوي ألفي جثّة، شيّدت بلديّة برشلونة فوروم الثقافات، فوروم السلام والتعدّد الثقافي، في مكان وموقع المذبحة الفرنكويّة، شُيّد صرح عصريّ للترفيه واللهو، ورشة إعمار ضخمة يفترض بها أن تغلّ الملايين من خلال إيرادات غير مباشرة في ميادين السياحة والامتيازات ومواقف السيّارات، وهكذا دُفن من جديد وإلى الأبد مهزومو عام 1939 التعساء، هؤلاء الجنود البسطاء، الذين لا يملكون شيئًا يواجهون به الحفّارات والرفّاشات ما خلا لائحة أسمائهم وشهراتهم التي لا تنتهي، الشيء الذي أثار سخط ستيفاني المفاجئ، لكن أليس هناك نصب تذكاري أما من لوحة تشير إلى ما حصل؟ فأجبتها، لا تقلقي غدًا سيجد أحد المهندسين المعماريّين اللامعين وسيلة ليضمّن عمله تكريمًا خفيًّا مؤثّرًا للقتلى، كأن يضعوا بعض الآثار المزيّفة للرّصاصات في جدار اسمنتي، اليوم يُستخدم فوروم الثقافات للحفلات الموسيقيّة، يرقصون فيه على الجثث كما فعلوا في بيروت، كما في حانة Bo18 في الكرنتينا، لكن بدل رقصة

التذكّر، يرقصون رقصة النسيان التي تسمح بها فقط ذاكرة الدولة، التي يعود اليها وحدها أن تستعيد من أحداث التاريخ ما يخدم مصالحها وأن تحدّد أماكن إنشاء مواقف للسيارات، وهذا الإجراء افضل وأكثر إفادة لمدينة أوروبيّة من استرجاع ذكريات عائدة لأناس كانوا سيموتون في جميع الأحوال وهم ولا شكّ، سيموتون جرّاء الشيخوخة أو طريحي الفراش أو مجانين أو مرضى، أمّا أولادهم وأحفادهم فسعداء ولديهم درّاجات ناريّة ومحطّات ترام ودروب مخصّصة للدرّاجات، وشواطئ يحشرون فيها السياح، لن تغيّر بضع رصاصات أطلقها نظام فرنكو في مجرى الأمور، ليس في الإمكان الجلوس والتباكي على الجثث، هذه هي حركة الكون، فكّرت في المباني الرخيصة المزدحمة التي بُنيت اليوم على الموقع القديم لمعتقل بولتسانو، لم يعد الرجال يعاملون زوجاتهم بقسوة هنا ولا في أيّ مكان آخر، على حدّ ظنّي، الأشباح غير موجودة لسوء الحظ، لا تأتي الأشباح لتزعج مستأجري المساكن المعتدلة الإيجار في درانسي، لم يعد سكان الغيتوات الجديدة المفرغة من اليهود، أو السوّاح الذين يزورون طروادة يسمعون بكاء الأطفال الذين ماتوا حرقًا بين أنقاض المدينة: في الريزييرا في ترييستا التقيت بحشد من تلامذة الليسيه الذين يقومون بنزهة، وسط التخشيبات القريبة من محرقة الجثث، كانوا منشغلين بالمغازلة، بإيجاد مكان يلوذون به ليدخّنوا بحرية، بالتدافع من أكواعهم، على مرأى من أستاذة التاريخ المنفعلة بما تشاهده والتي رمقتهم بنظرات قاسية، كانت تقول لهم هنا تعذّب أناس كثر، وهذه الجملة لم يكن لديها أيّ معنى بالنسبة لهم، أو معنى متضائل، كما هي اليوم حال الأنصاب التذكاريّة التي تخلّد ضحايا حرب 1914 المنتشرة في أنحاء فرنسا فهي لم تعد تثير انفعال أحد، منتصبة وسط المستديرات

المزروعة بالأزهار أو داخل حدائق صغيرة قبالة الكنائس الفخمة أنصاب الجنود الفرنسيّين المتّكئين إلى بنادقهم الصغيرة الحجريّة وإلى جانبهم المزمار وعلى رأسهم الخوذة، أنصاب هي طُرف وديكور، كذلك لم يعد عمود الماراتون يهزّ مشاعر أيّ سائح، ولم يعد هناك ندّابات في ترموبوليس[1] أمام شاهدة ضريح سيمونيد دو سيوس: **أيّها العابر قل لاسبارطة إنّنا متنا كرمًى لشرائعها**، ليونيداس الإسبارطي هو اليوم ماركة **شوكولا** بلجيكيّة، سوف ألتهم بشراهة الشوكولا في صحّة الملك الذي قتله الفرس، حبّة سكاكر عذبة ذائبة في الفم والقطار يقترب من بولونيا

(1) ترموبوليس مضيق في اليونان اشتهر بالتضحية التي قام بها ليونيداس ملك إسبارطة حين افتدى نفسه وثلاثمئة من جنوده لدى مقاومته الفرس العام 840 ق.م.

الفصل الحادي عشر

مثل سكك حديديّة في الليل خطوط الشبكات اللامتناهية لمحطّات التبديل أمّا نحن، نحن الصامتين غالبًا، كالغرباء لا يكاشف أحدنا الآخر ولا نكاشف أنفسنا بالذات، نحن المتجهّمين، الخاملين، الضائعين بين السكك المتوالية إلى ما لا نهاية المحيطة بمحطّة بولونيا عقدة المواصلات الحديديّة المتشابكة إلى حد التيهان مع التحويلات والحلقات والخطوط الجانبيّة، المحطّة منقسمة إلى قسمين متوازيين حيث، خلافًا لمحطّة ميلانو، ضخامة البناء تنوب عنها وفرة الخطوط والأعمدة الأفقيّة وكثرة العوارض، وهي لا تحتاج لأيّة مبالغة معماريّة لأنَّ فيها شططًا بحدّ ذاتها، إنّه آخر مفترق كبير لأوروبا قبل الردب الإيطالي، كلّ شيء يمرّ من هنا، زجاجات «نيرو دافولا» الآتية من منحدرات إتنا التي كان يحتسيها مالكولم لوري في تاورمينا، رخام كسّارات كاراري، سيّارات الفيات ولانسيا، وأيضًا الخضار المجفّفة والرّمل والإسمنت والزيت وبيبيرونشيني بوغليا، والسيّاح، والعاملون، والمهاجرون، والألبان النازلون في مرفأ باري ليتّجهوا إلى ميلانو أو تورينو أو باريس: جميعهم مرّوا ببولونيا، ورأوا قطارهم ينزلق من طريق إلى أخرى على الخطوط المتعرّجة، لم ينزلوا من القطار ليزوروا البازيليكة، لم ينهلوا من مفاتن المدينة الظريفة

البورجوازيّة، الجميلة بمنظرها الغنيّة بثقافتها، إنّها من تلك المدن التي يحلو للانسان الاستقرار فيها، من تلك الحواضر التي تشعر فيها أنّك تقاعدت قبل الأوان وحيث تستيقظ دون أن يطالعك ما هو جدير بالذكر ويحلو لك العيش، في عمر يفصلك عن الموت ما يقارب الأربعين عامًا، في مدينة مثل بارما، تشعر بأنّ الموت شيء لذيذ وراقٍ، مع ما يلزم من وسائل التسلية فيصبح السأم كاللمسة الأليفة لأم تنيّم ولدها، مدينة حيث محطتها التائهة تحميك من عالم القطارات المشبوه والأمكنة الأخرى واصطفاق السرعة غير المنتظمة واللقاء بكل ما هو غريب عنّا، محطّة أدخل إليها الآن حيث الرصيف ينكشف تحت إضاءة برتقاليّة، الأقفال المضغوطة بالهواء تصفر، الأبواب تفتح، جاري الذي غفا قليلاً يستيقظ وقد اعتراه شيء من الذّهول ويمسك بحقيبة صغيرة ثم يأخذ مجلّته ويخرج: رافقتك السلامة أيّها الصديق ها أنا وحدي، هل سيجلس أحدهم قبالتي، أتساءل فيما مكبّر الصوت يعلن عن استراحة قصيرة لثلاث دقائق، أم أنّني سأعود إلى ذاتي لقرون وقرون، كمثل ذلك المسيح الصغير القروسطي من الخشب الناجي من القرن الثاني عشر لا أحد يعرف بأيّة طريقة، الضائع في مصلّى صغير قاتم في بازيليكة سان بترونيو البديعة، على بعد خطوات من هنا، وحيدًا بين صور وتماثيل يسوع المتوهّجة المألومة، أمّا هو فعلى وجهه ترتسم شبه ابتسامة، حين رأيته لأول مرّة كان المطر الغزير يتساقط على شكل حبال متّصلة فيحدث سيولا متدافعة أشبه بطوفان، وكانت الكنيسة مزدحمة بالناس الذين جاؤوا للاحتماء من المطر وبينهم جماعة من السنغاليين بائعي بضاعة مزيّفة ماركة فرساتشي، كانوا ينظرون عبر الباب إلى المطر النازل غير مكترثين إطلاقًا للأشياء الموجودة خلفهم، لا يثير اهتمامهم شيء لا روعة الكنيسة ولا

تاريخها المجيد وهم على حق، يبيعون الحقائب للسيّاح والتماثيل الأفريقية من صنع أندونيسيا، فماذا يعني لهم والحالة هذه هذا المعبد الوثني المثقل بالتماثيل سوى أنّه يؤويهم ريثما تنحسر العاصفة، كما فعلت أنا، من يدري، لا شكّ أنّني دخلت إلى المعبد هربًا من البلل، أو بدافع الفضول، أو ربّما البطالة، كنت عابرًا في المدينة متّجهًا منها إلى باري لكي أبحر من هناك على متن إحدى البواخر اليونانيّة القديمة الطراز التي تمخر عباب الأدرياتيك، عندما هبّت العاصفة لذت بالكاتدرائيّة قبالة المسيح الصغير المنحوت من الخشب المتعدّد الألوان، كان في غاية البساطة، ويبدو التواضع على وجهه كأنّه تمثال «الأذن المحطّمة»، كيف تدبّرت أمري لأراه، في هذا الركن القاتم الذي لا إمكانية لإضاءته حتى بقطعة نقود من خمسمائة لير إيطالي، لا بدّ أنّ علب الإنارة هذه التي تميّز الكنائس الإيطاليّة قد وضعت بهدف دفع فواتير الكهرباء المترتّبة على الكنائس كلّها بما فيها الفاتيكان، كانت آنذاك تعمل لفترة من الزمن ثم تنقطع لفترة مماثلة، وكان توقيف الإنارة متناسبًا عكسيًّا مع أهمّية العمل الفني، دقيقتان لكارافاجيو، خمس دقائق للوحة قاتمة للعذراء والطفل أو بدونه، لكنّ مسيحي الصغير بقي في الظلمة متّسمًا بجمال الأشياء البدائيّة، وجهه حازم، عيناه لوزيّتان، شعرت أنّ الفنان الذي نحته - قد يكون إسكافيًّا أو نجّارًا- قد أغرم بهذا الكائن الصغير السحريّ كما يُغرم طفل صغير بدميته غرامًا يتّسم بالتّقوى والحنان، وذكّرني ذلك بنادرة موسى والراعي التي رواها جلال الدين الرومي متصوّف قونية: كان هناك راعٍ صغير يوجّه ابتهاله لله، يريد أن يداعبه، ويسرّح شعره، ويغسل له قدميه، ويدلّله ليجعله على درجة عالية من الجمال، لكن النبيّ الصارم الملتحي صاحب القرنين المتشبّث بعظمته المفارقة

أنّب الراعي على قلّة احترامه للربّ لكنّ الرب عاد وأنّبه بدوره قائلاً **دع الودعاء يعبدوني ببساطة**، أتخيّل النحّات القروسطي يدعك مسيحه الصغير لكي يرسمه، يغنّي الأناشيد، يتنشّق عطر الخشب الأحمر وهو أكثر حيويّة من الرخام، كان الله آنذاك في كلّ مكان، في الأشجار، في إزميل النجّار، في السماء، في الغيوم، وخصوصًا في المصلّيات العميقة القاتمة وكأنّها أقبية يدخلون إليها باحترام متخشّع، كانوا يخترقون البخور الكثيف وكأنّه ستارة حقيقيّة من الدخان تحجب الماوراء، وحين يعودون إلى المنزل، كانوا لا يأبهون لملامة الشيطان ولو عضّهم بأقدامهم في السرير، كانوا على استعداد ليشفيهم قديس أو يبهرهم ظهور ملاك، في بازيليكة سان بترونيو في بولونيا ظنّ الإيطاليّون منذ فترة قصيرة أنّهم نجّوا كنيستهم من اعتداء كان يخطّط أصوليّون مسلمون لتنفيذه، كان الإرهابيّون، يودّون، على حدّ زعمهم، تدمير جداريّة رسمها جيوفاني من مودينا في مطلع القرن الخامس عشر وتمثّل الجحيم وفقًا لدانتي، حيث هناك شيطان مهول يلتهم الخطأة ويعذبهم لكنّ تقوى الدركيّين دفعتهم لاستجوابهم في البازيليكة الرفيعة، ظنًّا منهم بأنّهم يحبطون أحد أكثر الاعتداءات بشاعة بحقّ الفنّ والحضارة - مرّة أخرى كان الاستنفار غير مجدٍ، وتبيّن أن الإرهابيّين سيّاح بسطاء وقد أطلق سراحهم بعد أيّام قليلة، لم تنفجر الكنيسة والجدارية لا تزال في مكانها، وها إنّ القطار ينطلق مجدّدًا من بولونيا، ويتقدّم شيئًا فشيئًا على طول الرّصيف باتّجاه فلورنسا، القسم الأكبر من الرّحلة قد أنجز، القسم الأكبر من الطريق كان اجتيازك سهل البو كما كان عليك في الحرب أن تجتاز المسافة بين تلّتين مكشوفتين، يطاردك الملجأ الذي تركته للتو ويستعجلك الملجأ الذي ستأوي إليه، تركض خوفًا من الرّصاصة التي ستقطع عليك الطريق أو القذيفة التي

ستنفجر قربك وتحوّلك إلى أشلاء وتقذف بأوصالك وأمتعتك وأحشائك في الفضاء أو تشجّك إلى شطرين، في الأرض المقلوبة المجبولة بغضار أحمر حيث تبرز عين هنا، مثل كريّة ضائعة، جيلاتينيّة، لا جدوى منها دون جمجمتها، متّصلة بالوحل بالعدم بشعيرة، بقيّة عبثيّة من الدماغ، ويد هناك وفّرت لها مصادفة الانفجار ثلاث أصابع منفصلة عن الذراع، وعن الكتف وعن الرأس، وهذا الطرف الذي اختفى منه البنصر يرقد بالقرب من الجذع المبقبق، تواصل الركض وأنت تتساءل ببلاهة ما الفائدة من يد من دون عضو تداعبه أو وجه تحلقه، مدفوعًا بهذه التغيّرات المفاجئة لحسّ الدعابة الذكوري التي تجعلك مستمرًّا على قيد الحياة، ومع ذلك تواصل الركض وأنت تتغوّط في سروالك، القذائف في أعقابك والدبّابات تتزاحم كما يركض القطار الآن في الظلام على مسافة لا تتجاوز ألف كيلومتر من المنحدرات التي كنت أنزلها والصرب والبشناق يطاردونني: عمّا قريب تطالعك عذوبة توسكانا الراقية، عمّا قريب تطالعك فلورنسا التي يفصلها عن روما طريق مستقيم، ضواحي بولونيا تتمطّى، أحشاء رمادية طويلة تخترقها السكك الحديديّة والقطار كأنّها حربة، لقد أدرك دانتي طبيعة البشر جيدًا، طبيعة فاسدة منتنة، هكذا نراهم في الجحيم الأبديّ، مقطّعين، مبتوري الأوصال، مشجوجي الرؤوس في انفجار أثناء الحرب، وقد تحوّلت أجسادهم إلى أشلاء كما تمزّق قنبلة جنديًّا راجلاً - كتلك القنبلة التي استبدلتها في تريستا عام 1993 في إحدى الحانات بثلاث زجاجات من الفودكا، كانت لديّ قنبلة في حقيبتي، لم أعد أذكر السبب، جازفت بحملها عند اجتياز الحدود، أخذ الخمّار يحدّثنا عن «النزاع اليوغوسلافي»، ومن حديث لآخر، أجرينا هذه الصفقة، كان سعيدًا جدًّا بحيازته على الكرة الكاكيّة اللون

الصغيرة، الإجاصة القاتلة بلونها الأخضر الجميل، ونحن، نحن كنا ممتلئين حبورًا لحيازتنا على ثلاث زجاجات شفّافة، سنشرّع أرواحنا ونريقها بدل أحشائنا، مع أندي وفلاهو شربنا الزجاجات ما كانت في الحسبان من عنق الزجاجة مباشرة، كانت نشوتنا عارمة، أفقدتني الكحول توازني في الريح العاتية، في تريستا يمدّون حبالاً في الشوارع ليتشبّث بها الأطفال والشيوخ والسكارى عندما تعصف ريح البورا، تعصف الريح من فم الشيطان نفسه بسرعة مئة وعشرين كيلومترًا في الساعة، ريح شريرة، في ذلك المساء وبالرغم من الدرابزون المرتجل سقطتُ تحت تأثير قوّة التيار الهوائي سقطت سقطت وسقط معي فلاهو وأندريا وضحكنا كما لم نضحك من قبل عندما تقيّأ أندريا في الرّيح ولوّث أثوابنا، أنا وفلاهو وإحدى عابرات السبيل التي تساءلت لأقل من ثانية عمّا تكون هذه الفضلات الرطبة والنفّاذة الرائحة التي رقّشت البالطو الذي ترتديه، ومن ثمَّ تنبّهت وأدركت حقيقة الأمر وأصابها الغثيان وأطلقت ساقيها للريح وهي تتعثّر، لم يكن أندريا يحتاج إلى تجفيف نفسه فقد نظّفته الريح بهبّاتها، كانت هذه موجة من إله الموج تريتون، نافورة تقذف حزمة من القيء المتطاير إلى الخلف الذي يصطفق بالجدران وبنا نحن الضاحكين، بصداقتنا المختومة بكلّ أنواع السوائل، وببلاهة السوائل، بالروح والجسد اللذين مزّقتهما الكحول والحرب، بالدم وفضلات الحياة، بالموت كالتقيؤ على جدار، جدار من الرصاص وسكاكين الأرثوذكس الذين كانوا أعداءنا آنذاك، والآن أتّجه إلى روما الكاثوليكيّة، روما التي لم يرها قطّ لا أندريا ولا فلاهو، لم تريا أبدًا سلاسل القديس بطرس في مونتي أو نافورة الأنهر لبرنيني، لا أنت يا أندريا الفلاح من سلافونيا الشديد الإيمان مع ذلك، ولا أنت يا فلاهو من

سبليت، ولا المسلم اليافع الأمرد المعتوه الذي قتلته بيدي بالسلاح الأبيض مستمتعًا بقتله كمن يشرب كأسًا، أعترف بذلك، بهذا الغضب المسعور وبالظلم الذي لا يطاق، يتأرجح بي القطار زافرًا نفثاته، كانت حربة بندقيّتي سكّينًا مرتجلاً مغروزًا في عنقه الفتيّ البشناقي، شعرت بفرحة إراقة دمه البريء الذي لا يزال يغلي فوق يدي، ومثلما تقيّأ أندريا في ترييستا وسط الريح، تقيّأ دم الصرب ملتهمي الأطفال الذين لا رحمة في قلوبهم، سواء كانوا كذلك أو لا، أيّة أهمّيّة للذرائع التي تبرّر أعمال القتل، كلّها أعذار مقبولة في الحرب، بعد هذه السكرة العابرة الحدود بين جبهتين عدنا إلى كرواتيا متّجهين إلى البوسنة، ومررنا ثانية بالسلوفينيّين الذين أرهقوا كاهلنا في الذّهاب، أكثر من الإيطاليّين الذين استطعنا إرضاءهم بأوراق هويّتي الفرنسيّة وبعض النقود الإلمانيّة، في الأفق تبدو أوروبا القابعة على مخازن الأسلحة والمال كما تجلس جدتي على مدخّراتها، كانوا يدفعون لي أجرًا لأقاتل، نسيت مقدار المال، ثمّة أمور لا نفعلها لأجل المال ولا لدفع ثمن بطاقات القطار أو اجتياز المسافات الطويلة، أتلوّى على مقعدي، حان الوقت للذهاب إلى الحانة وحان الوقت لتنشيط ساقيَّ المنمّلتين، وللقيام باستراحة خلال هذه الرحلة، الحسنة الوحيدة للسفر في الدرجة الأولى هي أنّ عربة الطعام على مقربة منك غالبًا، أنهض، الريف لا يزال قاتمًا ولا يُرى أيّ شيء في الخارج وهذا أفضل لأنّ هذه المشاهد لا تعني لي شيئًا يذكر – المسلم الصغير المقطوع الرأس، أندريا المقتول على ضفة لاتسفا، فلاهو السمح بذراعه المشوّهة، جميعنا مصطفّون في قمصاننا المرعبة التي بإمكانها أن تكون سمراء[1]، العنق مقطوع دون وجل،

---

(1) إشارة إلى لون قمصان الشبيبة النازيّة.

المتعة التي شعرت بها وأنا أقطع اللحم النابض باليأس للمعتوه البريء، هذا القيء الذي أضحكنا حين لطّخ معطف السيدة المتشامخة في ترييستا، آخر أثر حمضيّ لرجل على طريق الإختفاء، هذا اللباس، هذا التمويه الذي يجمع الجنود ورجال الدين، سأشرب جميعهم نخبهم دفعة واحدة بين بولونيا وروما، على الطرقات المستقيمة جدًّا مهتديًا بالسكك ومرغمًا على البحث عن مصير آخر أو عن مصيري كسائق القطار الوحيد بين أقرانه الذي لا يستطيع أن يقرّر سرعة الآلة التي يقودها، خاضعًا للمعدن كاليد في الحرب لعنق الضحية، ليس بإمكانه أن يجنح، يعرف وظيفته، يعرف أين يتوجّب عليه الذهاب، أتعثّر في القطار، للنّصل تردّده غير المعروف حين ينهال على العقد الغضروفيّة لأنبوب التنفس، فيختنق الدم ويتدفّق منوفرًا مبقبقًا بفقاعات الهواء الزهريّة والحمراء، وهذه الارتكاسة التي يقوم بها الضحيّة، حركة يديه ليحمي عنقه يتبعها التواء الجسد كلّه، الالتواء الذي يخلق البهجة في نفس قاطع الشريان، الوريد الأجوف، متعة الجلاد الذي يتأمّل لاحقًا ببهجة البركة الهائلة تتّسع تحت الرأس الجامد، أجتاز حافلة أخرى من الدرجة الأولى، يبدو القطار وكأنّه فرغ في بولونيا، عربة الطعام تشبه ماخورًا ريفيًّا، بهذا المخمل الأحمر الدائم، في القرى المسلمة رأيت فتيانًا أبكارًا مشرقي الوجوه وقد تملّكهم فجأة عضب مسعور، غضب المغتصبين في نظراتهم القاتمة، كان بإمكانهم، بعد نيل مآربهم، أن يقتلوا كائنًا من كان يقترب من فريستهم وكأنّهم ضباع، يريدون أن يمتلكوا لأنفسهم تلك التي عذّبوها للتو، مستشعرين اللذّة في الألم، إنّه شعور توراتي طفوليّ ومتوحّد لا يوصف، بعضهم كانوا يبكون وهم يجهزون على ضحاياهم بالذات، وما أدراك أين تقبع جثث أمهاتهم وحبيباتهم اللواتي يرسلون إليهنّ برقيات

متّقدة عاطفة كبرقيّاتي، كانوا يكتبون رسائل لن يتوصّل أحد إلى فكّ رموزها، لأنّها تحمل في طيّاتها النظرات المفقودة لفتيات المزارع اللواتي اغتصبن على الوحول، أحيانًا كان الأمر مضحكًا، كان أندريا بطلاً في إضحاكنا ولم يكن له مثيل في زرع زهرة أقحوان في مؤخّرة ينساب منها المني الدبق، ويصرخ! *Za dom spremni* وهو يلج بتكشيرة ملهمة مهبلاً حرونًا أو داميًا أو أحيانًا جافًّا، ولكنّه في أغلب الأحيان نظيف كما يجب، على حدّ قوله، فالاشتراكيّة فعلت الكثير للحفاظ على القواعد الصحيّة للعلاقات العاطفيّة الحميمة، بئس الشيطان لأنَّ القمل رغم ذلك تغلغل في عانته، لكن من الصعوبة بمكان معرفة ما إذا كان القمل انتقل من أحد الأجساد أو من القش أو من القذارة المعمَّمة، مستحيل تحديد مصدره، القمل يأتي مع الجندي والأسير، إنّها طفيليّات أوليّة، أجسام حيّة تجسّد بداية التحلّل العتيد، الدويبات الحقيقيّة التي ستلتهمك فعلاً ولن يجدي معها أيّ مرهم: البكتيريّات، والفطريّات، والديدان، أو حتى الكلاب والثعالب والغربان إذا كنت عديم الحظّ وسقطت في ركن ولم يأتِ أحد ليدفنك أو ليحدّ من تكاثر الدمامل النزّازة التي تحدثها الحشرات المغتذية من جثث القتلى، وتشكّل الغالبية العظمى من الكائنات الحيّة، وكما الجنود يرتدي البارمان المتنقّل بذلته هو أيضًا، إنّه الوحيد خلف طاولة الشرب المتأرجحة الذي يجتاز إيطاليا بأقصى سرعة، ما المقدار الذي ينبغي عليَّ أن أشربه لأثمل، ما عدد الكؤوس الصغيرة الحجم التي يجب احتساؤها، للويسكي رائحة الصراصير المسحوقة، مراقد الجنود، سأختار شيئًا أكثر ريفيّة، الجن[1]، الأكثر قربًا إلى نقيع الأعشاب وبالتالي إلى

---

(1) الجن Gin مسكر قوي.

الطبيعة، والجنبات البريّة، والغابات الصغيرة، وضفاف لاتسفا، وفيتاز، والكحول المستخلصة من الخوخ والعنب التي كنّا نجرعها هناك، كمثل مشروب كزوريفر من مينوركا وهو عرق فظيع مستخرج من العرعر منشؤه بريطاني، أقدّم لنفسي كأس جن، صرفًا ودون ثلج، على ملصق القنينة طبر مستطيل، في كوب من البلاستيك الشفّاف، سأشرب نخب بريطانيا العظمى، ونخب ملكتها والأحصنة السوداء لمينوركا، ونخب مار يوحنّا شفيع مدينة كويتاديلا في مينوركا، شفيع النور والجزر الضائعة، مار يوحنّا الإنجيلي نسر بطمس[1] أول روائيّ عن نهاية العالم، البارمان يرمقني بنظراته، أي مجنون هذا الذي يستطيع اجتراع الجن الصرف من دون ثلج في قطار، أكاد أوافقه الرأي، وزد على ذلك أنّه جن رديء ويحرق البلعوم تاركًا في الفم طعمًا كطعم الجروح، كطعم الدواء الذي وصفه باردامو نفسه للشفاء من مرض يسبّبه البؤس لم أعد أذكر نوعه، ندخل الآن في نفق، أشعر بضغط في طبلة أذني، أنّني في قفص، أحتاج للهواء، لو استطعت لفتحت نافذة وأخرجت رأسي منها لكي تشعّث ريح كانون الأول المتجلّدة شعري – لو كانت ستيفاني السمراء هنا لكانت وعظتني متأبّطة كتاب سيلين، كانت لتقول لي، لن تشرب الآن، لن تنتشي، كانت تستعمل كلمة «تنتشي»، كلمة غريبة لا أعرف من أيّ كتاب اقتبستها، وكنت سأؤثر عدم الإجابة، وعدم التفوّه بأيّة كلمة، أطلب كأسي أو أسكبه بنفسي بهدوء ودون جدال، ستيفاني مولر متحدّرة من عائلة أساتذة في ستراسبورغ، من هؤلاء الذين يفعلون كلّ ما بوسعهم ويدفعون نفقات باهظة ليؤسّسوا مستقبلاً لأولادهم، كان والداها فخورين بها لأنها نجحت في مسابقة

---

(1) بطمس: جزيرة يونانيةٌ في بحر إيجه نفي إليها القدّيس يوحنّا الإنجيلي.

الدخول إلى العلوم السياسيّة، هناك التقينا ثم التقيت بها من جديد في منعطف أحد الأروقة القائمة في جادة مورتييه، حيث كنت أعمل تحت إمرة ليبيان هاوي المحار - كان والدا ستيفاني يعلمان أنّها تعمل كباحثة لصالح وزارة الدفاع لكنّهما يجهلان تحديدًا مكان عملها، لدينا جميعنا أسرارنا، والغريب في الأمر أنّ ستيفاني كانت تكره العنف كثيرًا والأسلحة والحرب (غريب إذا أخذنا بعين الاعتبار مستخدمها)، ولم أتطرّق فعلاً لنشاطاتي كجندي بلقانيّ، بدافع الجبن، كانت كلّ هذه الفترة من حياتي غامضة جدًّا بالنسبة لها، ضبابيّة، فقط بعض الصور لا شيء أكثر، لم تذهب قط إلى كرواتيا، دهشت كثيرًا حين علمت أنّني أمضيت بضعة أشهر في البندقيّة، حائرًا شديد الحيرة، عائمًا مثل جثّة في الهور النتن الرائحة، كانت ستيفاني الجميلة السمراء تتمنى الذهاب إليها، ولأكثر من مرة ردّدت على مسمعي: ولم لا تذهب إلى البندقيّة، اهتديت إلى أحد الفنادق الجميلة الرخيصة الكلفة، وقضاء العطلة هناك سيكون مؤاتيًا لنا، استوجب الأمر أن أشرح لها أنّني غير راغب في العودة إلى هناك، غير راغب في رؤية البندقيّة صاحبة السموّ ثانية ملكة الضباب والسياحة، ليس بعد، لا يزال الوقت مبكرًا، كانت تجد ذلك غريبًا، لماذا، لماذا، إلى أن وافقت أخيرًا على تغيير الوجهة، إلى برشلونة المتوسطيّة هي أيضًا والجذّابة، في البندقيّة كنت عليلاً جدًّا وتعسًا للغاية، شعرت بالبرد طيلة الوقت حتى عندما لففت نفسي بالسجّادة، لم أستطع الذهاب إلى فرنسا، لم أجد القوّة لذلك، ولا الشجاعة، اختبأت في وسط الهور وأنا أقرأ طيلة الليل ولا أخرج إلا مع طلوع الفجر، ذات مساء جمعت ملابس الميدان وبذلاتي وصنعت منها كرة ضخمة وشبّعتها بروم للطبخ، وأحرقتها كلّها في حوض الاستحمام، مع الشارات أيضًا، لم

أبقِ إلا الخنجر وغمده، وبعض الصلبان البلاستيكيّة، وهي هدايا وُزّعت علينا منها حفنات كاملة كما وُزّعت مفاتيح الجنة على المتطوّعين الإيرانيّين أيّام الخميني، يجب تجسيد البربريّة وإعطاؤها مظهرًا حقيقيًّا، كانت تلك بداية حياة جديدة، احترق القماش وتصاعد منه دخان جميل برائحة الكريب، لا يمكن للانسان أن يهرب من وطنه، وطني حرقته بالروم مع ثياب الجنديّة أمّا أمّي فأبقيتها في الصمت هي التي أعطتني دون أن تدري هذا الخنجر وهذه الصلبان، لا شكّ أنّني أردت الاحتفاظ بها مع الزينات الحربيّة الرخيصة، ألسنة اللهب المتصاعدة من الحمّام دمّرت وهم الوطن بالسهولة نفسها التي نشرب بها كأس كحول قويّة، تشعر في البداية أنّه مقزّز ينساب على طول بلعومك، ووحيدًا تمامًا في هذا البار الذي يخترق الريف، سأقدّم لنفسي كأسًا أخرى، كأس جن في صحّة أمّي الكرواتيّة التقيّة، كأس جن نخب *Za dom*، لكأنّ البارمان خمّن نواياي، فابتسم لي وأخرج كأسًا صغيرة أخرى، *spremni*، أرفع كأسي على صحّة إطفائيّي البندقيّة الذين حضروا بناء على دعوة الجيران وقد ظنّوا أنّ بي مسًّا من الجنون، كأس جن أخرى فاترة نخب الوطن، أحسن صنيعًا لو أعود إلى الجلوس أو النّوم لبعض الوقت، قبل الوصول إلى فلورنسا فالطريق لم يعد طويلاً، قليلاً وأصل إلى روما، لو أنّني نزلت من القطار في بولونيا لاستطعت العودة إلى البندقيّة، إلى حانة Paradis-Perdu أو Hollandais-Volant واحتساء بعض كؤوس spritz مع غسان اللبنانيّ، هو أيضًا كان يحمل وشم الصليب على عضلات ذراعه، أو أستقلّ مركبًا حتى بورانو وأتأمّل منازل الصيّادين الصغيرة تنحني بألوانها الزرقاء والمغراء فوق القنوات، أراقب الزاوية النابية لبرج الجرس وأدور في مكاني، أدوّم كما أدوّم في هذا القطار الذي أبطأ

فجأة، نعبر الليل المدلهمّ، حتى لو ألصقت عينيّ بالزجاج فلن أرى شيئًا، عدا الأعمدة المنتظمة لأسلاك القطار الكهربائي، ما عدا كتلة قاتمة تخترق المنظر، أو تموّج جبليّ قد يكون خياليًّا ربّما بسبب الجن، نلت نصيبي من الكحول وروعي يهدأ تدريجًا، سيجارة فقط وتتحسّن الحال، سأصل إلى روما لا محالة، أتكلّم وكأنّ لديّ الخيار، حتى لو متّ على هذا المقعد فسيوصلني القطار إلى الوجهة المنشودة، ثمّة معاندة في خطوط السكك الحديديّة شبيهة بمعاندة الحياة، ها أنا أصير أبله وفيلسوفًا، تحت تأثير الجن بالطّبع، سأذهب للتدخين بطريقة غير شرعيّة بين حافلتين، أو في المراحيض، على الأقلّ في القطارات لا يمطرونك بالتهديد والوعيد في حال دخّنت في المراحيض هذه إحدى الحسنات النادرة لمخالف للقوانين مثلي، يمكن مجّ سيجارة وأنت جالس، وهذا صار ترفًا في هذه الأيّام، إنّهم يهتمّون لصحّتنا، أيًّا كنّا، أبرياء، خطأة، ضحايا، جلّادين، عفيفين، زناة، لدينا جميعًا الحقّ في مراعاة قواعد الصحّة، إنهم يهتّمون برئتانا، وكبدنا، وأعضائنا التناسليّة ويراعونها مراعاة حقيقيّة، وهذا إجراء جيّد، لذيذ أن تشعر أنّك محبوب مشتهى محميّ من الدولة التي تشبه نسوة أيام زمان اللواتي كن يقلن لك لا تشرب كثيرًا، لا تدخّن كثيرًا، لا تنظر كثيرًا إلى الفتيات، لا شكّ أنّ الرجال يفعلون بعض الأشياء في السرّ، كان أبي وجدّي يختبئان لشرب كأس صغيرة من الكحول بالطريقة نفسها التي سأذهب بها للاختباء والتدخين، جدّي صانع الأقفال ابن صانع الأقفال كان يصنع المفاتيح ويصلح أيضًا أدوات زراعيّة وآلات من المستحيل تخيّلها اليوم سيّما وأنّ أحدًا لم ير كور الحدّادين، إلا البارمان ربّما، لديه رأس ريفي، مصبوب في المناجم تقريبًا، شبيه بحيزوم كبير، جبينه مخشوشن وشعره قصير بنيّ داكن مجعّد

بكثافة، لا بدَّ أنّه تجاوز الخمسين، أظنّه وُلد في بداية 1946 ووالده انخرط ولا شكّ في المغامرة الموسولينيّة رافعًا ذراعه من روما إلى أثينا مرورًا بتيرانا، قد يكون مزارعًا من كامبانيا أو من كالابريا شديد الفظاظة ولكن طيّب القلب كهؤلاء الذين يصبحون أفضل الجنود، وأفضل الفاشيّين، المعتادين على انتظام الوقت والله والعائلة والطبيعة، أتخيّله متجلّدًا في إيبير، يدفع قاذف مدفع من دون حشوة يجرّه حماران متضوّران جوعًا، منبهرًا بمجد الرجّالة المعتمرين القبّعات المزدانة بالريش وعبقريّة الدوتشي، واثقًا من النصر، وهذا قبل أن يولي بالفرار خوفًا من اليونانيّين المتضوّرين جوعًا حفاة الاقدام القادرين على أن يقطعوا له أذنه، هل عرف اللذّة مع زنجيّة طويلة القامة من إثيوبيا أو مع ألبانيّة خشنة البشرة مربّعة الوجه، هل ابتلع الرمل في ليبيا، هل عانى الأمرّين في دبّابة فيات تصل فيها الحرارة تحت الشمس الساطعة إلى سبعين درجة في الغالب، عندما يصبح العطش قاتلا أكثر من السيوف الإنكليزيّة المغروزة في الصحراء، وهي أشبه بالحصى المنتشرة فيها، أتساءل أين باغته خبر سقوط موسوليني، لقد انتهت مغامرة وبدأت أخرى، هل يعرف أنّ قريته تحرّرت منذ وقت طويل وأنّ زوجته لا ترنو إلا إلى اليانكيز البهيّي الطلعة، وهم مزارعون أيضًا، أتوا من أوريغون أو من داكوتا[1]، لكنّها مرغمة على انتظار رجل لا تعرف عن أخباره شيئًا منذ ثلاث سنوات تقريبًا، بحكم الارتباط العائليّ والدينيّ - ربّما كان هذا حبًّا كبيرًا، من قصص الحب العذري الغابرة التي تعاش في كنف الغياب والوهم، قاتل على الجبهات من اليونان إلى مصر وروسيا، مؤخّرته غائصة في الثلج وقدماه متجلّدتان فيما

---

(1) في الولايات المتحدة الأميركيّة.

هي تطرّز له قميص العرس، كدت أسأل البارمان عن اسم والده، أنطونيو، ربّما كان هذا اسمه، من يدري، ينظر إليّ أراقبه وأنا أرشف قعر كأس الجن، أبطأ القطار فجأة، كبح فرامله ليجتاز انعطافة، لا شك أنّ القطار الذي أوصل أنطونيو إلى دياره في حزيران 1945 توقّف هنا، عند لافتة كتب عليها طريق مقفل، على حدود عالمين، عالم محاه للتوّ وعالم في انتظار تدميره، ثمّة امرأة تنتظره عند نهاية الطريق، في سنّ النضج حيث يغدو كلّ شيء أكثر صعوبة، وأكثر مكرًا وتكتّمًا، وعنفًا، لطالما اشتهاها دون أن يعرفها، قلب أنطونيو مثقل بالحزن لأنَّ الحرب انتهت ويرغب في استعادة هذه الذكرى بحماسة تثبط همّته، آمل أن ينزل من القطار، أن يجوب الجبال حتى تبهر أنفاسه، أن يعطس من جراء انبعاث رائحة البذور النابتة، أن يستسلم لبرودة النّسيم المنبعثة تحت أشعّة القمر وهي تداعب كتفه فيتمتّع بوحدته المقلقة أيضًا، أن يتداعى على جذع زيتونة، آمل أن تكون الجرأة قد اعتملت في داخله للهرب أثناء هذا التوقّف المفاجئ للقطار، القطار المتجمّد وسط الطريق، أحيانًا تشعر أنّ حظّك يبتسم لك، ثمّة أبواب للهروب – أنطونيو عائدًا من جبهة الشرق يركض في أنحاء الرّيف ليفلت من قدر أوليس، من القرية والمرأة الحائكة وكلب الصيد الطيّب الذي سيشمشم بين فخذيه، من المستقبل الذي يستشفّه، من إجهاد النفس دون أن يتمكّن من تخليص عائلته الكثيرة العدد من براثن البؤس والهجرة، واستثمار مباني الضواحي والاسمنت الخام التي تبذرها الحاجة الملحّة حول مدن الشمال، حيث الكلب سيموت في الطليعة دون أن يكون قد تسنّى له مطاردة أرنب بريّ: أنطونيو العائد من الحرب يتمدّد بالقرب من شجرة تين توسكانيّة في الليل ويصغي إلى القطار يرحل من جديد، أحسن صنيعًا بالنزول، على ما يبدو،

حسنًا فعل، إنّها ليلة ربيعيّة جميلة جدًّا، أوّل ليلة تفوح منها رائحة التبن بعد أعوام لم يشمّ فيها إلا رائحة الشحم والكرديت، تمدّد هكذا بين حياتين، بين عالمين، أتخيّل أنّ رائحة زوجته الفلّاحة هي التي يستشعرها قبل كلّ شيء، هذا إذا كان اشتمّها من قبل، عند الخروج من القدّاس، أو خلال موسم الغلال، أو لدى اقتراب عيد الفصح، أو فيما كانت تضرب غصون الزيتون بعصا طويلة، هذا المزيج من رائحة العرق والأزهار، هذا الشعر الفوّاح العطر تحت أشعّة الشّمس، هل تحدّث إلى النّجوم، أشكّ في ذلك، ليس راعيًا من رعاة بيرانديللو[1]، إنّه رجل عائد من الحرب، متمدّد هنا في أحد الحقول لأنّ القطار توقّف لتوّه لسبب طارئ على السكّة، ربّما كانوا كثرًا هؤلاء الجنود الذين تساءلوا عن رغبتهم في العودة إلى بيوتهم وهم لا يزالون يرتعشون تحت وطأة الهزيمة الإلمانيّة والقمح النابت يداعب بشرتهم، كانوا مذعورين قليلاً، عُزّلاً، في لباس الميدان الممزّق أو في الثياب المدنيّة، أو في قميص من القماش الخشن، ينتعلون في أقدامهم أحذية عسكريّة ضخمة، توسكانة لم يرها قط من قبل، مرَّ بها في القطار وفي الشاحنة لكنّه لم يمتّع ناظريه قطّ بهذه المناظر الراقية للغاية، المدجّنة من زمن بعيد، المتأنّسة التي سبق للإتروسكيّين والرومان أن زرعوها، كان البرابرة ذوو اللحى الذهبيّة يلهون في كرومها كالأطفال، على هذه التلال حيث جنود نابوليون ركضوا ضاحكين مطاردين الفتيات، أتخيّل أنطونيو بين جبلين من الظلّ يحاول أن يتخلّص من الحرب وهو يتمرّغ في العشب مع هؤلاء الجنود الإيطاليّين

(1) بيرانديللو (1867-1936) أديب وكاتب مسرحي إيطالي، من المجدّدين في الدراما المعاصرة، جائزة نوبل 1934.

الذين أرغمتهم جمهوريّة إيطاليا الاشتراكيّة في سالو على القتال لأجل الألمان، في نهاية 1943 تمّ ترحيل كلّ هؤلاء الذين رفضوا الذهاب إلى روسيا، وانتهى أمرهم في قطارات أخرى، متّجهة إلى ماوتهاوزن بعد مرورهم بمعتقل بولتسانو، وبوزن النمساويّة حيث إيطاليا باتت بعيدة فهناك لا يتكلّمون إلا الألمانيّة - وآخرون هربوا من الشرطة النازيّة العسكريّة والتحقوا بالمقاومين، رجال العصابات، كما كانت تسمّيهم إذاعة ميلانو، سيتمّ توقيف الكثيرين منهم وترحيلهم بدورهم، أنطونيو يسير في المنطقة التي انهزمت فيها جبهة الشرق والمحدلة التابعة للراية الحمراء في أعقابه، فيما ترك جدّي المفاتيح وكور الحدّادين والقرية وأصبح من رجال العصابات، منجذبًا إلى الأسلحة والنفوذ، تعلّم كيف يفجّر سكك الحديد في ضواحي مرسيليا قبل أن تعتقله زمرة من رجال الغستابو الفرنسيّين عام 1943، وعندئذ خضع للتعذيب بالتغطيس في الماء الساخن ورُحّل إلى معتقل في ثورنغن تابع لبوشنفالد، كيف نجا من الإعدام بلا محاكمة في الباحة، ومن فريق الإعدام عند الصباح الباكر، أخمّن ذلك، أخمّن الطريقة، وشى جميع رفاقه لكي ينجو من الألم، شعر بالعار، انهار وتحت وطأة التعذيب وسلّم أصدقاءه، سيذهب للتكفير عن خيانته في ألمانيا ويعمل عبدًا في معمل **Reimahg** تحت الأرض وسيشارك في صنع طائرات مطاردة نفّاثة ME-262 حتى نيسان 1945- لن يعود أبدًا إلى مرسيليا، سيقيم في ضواحي باريس ويأتي بعائلته، سيعمل في محترف صغير للميكانيك حتى وفاته المبكرة عام 1963 جرّاء الذنب أو العذابات التي كابدها في المعتقل الديماسيّ حيث كان يتوافد آلاف المدنيّين الإيطاليّين المرحّلين من إقليم بولونيا، الذين أُغير عليهم خلال عمليّات «مناهضة للمقاومة»- في الجبال

التي نجتازها كالعميان نفقًا إثر نفق، كان الألمان، في منتصف 1944 يصيبون هدفين برمية واحدة، من جهة يجلون السكّان المدنيّين الذين كانوا يساندون المقاومة، ومن جهة أخرى يزوّدون معامل الأسلحة بعمّال احتياط من الرقيق، أكثر من عشرين ألف شخص رُحّلوا من كل أنحاء إميليا، رجالاً ونساءً، ولم يعد إلى إيطاليا منهم إلا الثلث، اليوم تمَّ تناسيهم بالكامل، لم يعد أحد يذكر الإيطاليّين الذين ماتوا إرهاقًا وجوعًا وقرعًا بالعصا أو غرقًا في الإسمنت وهم أحياء على مرأى من حرّاسهم الماكرين الضاحكين لبليّتهم حتى الدموع، جميع السكّان على ضفاف المتوسط، من إسبان وفرنسيّين وإيطاليّين ويوغوسلافيّين ويونانيّين سلكوا طريقهم باتّجاه الشمال ليلقوا حتفهم في الأرض الجرمانيّة المبذورة بكلّ هذه العظام الآتية من الجنوب، في البداية كانوا مجبرين ومرغمين ثم أخذوا يرحلون طوعًا لأسباب اقتصاديّة، الإسبان والإيطاليون والمغاربة والأتراك، كلّ هذا العالم الصغير سيذهب ويملأ الضواحي الناشئة حديثًا في باريس أو ميونخ، مثل أنطونيو والد صاحب الحانة البارد الطبع المنصرف إلى تنظيف آلة صنع القهوة، كلّ هؤلاء الرجال تلاقوا في بوشنفالد، في ماوتهاوزن، وداشو، في قوافل العودة، وفيالق المسيرات، بعضهم انتصروا وبعضهم هُزموا، في 1945، أبحرت من مرسيليا الفرق الكولونياليّة الفرنسيّة المسرّحة بعد النّصر وفيها خيّالة القوم[1] من المغرب، والطوابير، والقنّاصون الجزائريّون، ولاحقًا بعد عشر سنوات سيأتي دور الاحتياطي الفرنسي للإبحار من هناك والذهاب لقتال الفلاقة في الجزائر، إنّها حركة مستمرة من الحروب بين كرّ

---

(1) القوم: جماعة تقوم بحراسة منطقة في شمالي إفريقيا في عهد الاحتلال.

وفرّ، في مرسيليا المحروسة، في المرفأ السحريّ والسرّي رسا قبيل الساعة السادسة في 9 تشرين الأوّل 1934 الزورق «دوبروفنيك» التابع للطرّادة قبالة الشاطئ وعلى متنه ألكسندر الأوّل، كانت العمارة البحريّة الطويلة راسية في عرض البحر، كلّ شيء كان مهيّأ لاستقبال ملك يوغوسلافيا، المدينة مزيّنة بالأعلام، الموظّفون الرسميّون ينتظرون، أحصنة الموكب تهمر حول السيّارة المكشوفة التي تنتظر العاهل لتقلّه إلى مقرّ المحافظة، الطقس جميل، جدّي في الثانية والعشرين من عمره، أتى بصحبة زوجته الشابّة لرؤية الملك على جادة كانوبيار، كذلك فعل قسم لا يستهان به من سكّان مرسيليا، كان ألكسندر كاراجورجيفيتش الأنيق وحيدًا فالملكة ماريا ستوافيه في القطار الآتي مباشرة من باريس لأنّها تصاب بدوار البحر، جاء لوي بارتو وزير الشؤون الخارجيّة لاستقباله، بمظهره المميّز، ملتحيًا، واضعًا على عينيه نظارات، واتّخذ كلاهما مكانًا في العربة الصاعدة جادة كانوبيار، روت لي جدّتي أكثر من مرّة هذه القصّة، إلى جانب العربة الحارسان الممتطيان حصانيهما، في الأمام سريّة الدرك، وفي الخلف رجال الشرطة، وفجأة، من إحدى زوايا حديقة بوجيه بعد قصر البورصة اندفع رجل باتّجاه السيّارة الملكيّة، صعد على المرقاة اليسرى، حاملاً في يده مسدس ماوزر ثقيل، وأطلق الرّصاص على كاراجورجيفيتش المنذهل فأغمي عليه وعلى فمه ابتسامة رقيقة، عندئذٍ استدار الحارس على الحصان وانقضّ على المعتدي بسيفه، وما كان من رجال الشرطة إلا أن أطلقوا النّار بدورهم فسقط بعض العابرين بعد أن حصدتهم رصاصات المارشاليّة، قُطّع المعتدي بالسيف ودُرز بالرصاص وديس تحت أقدام الحشد المذعور وأحصنة الموكب ونُقل إلى مركز الشرطة القريب من هناك، أمّا الملك فإلى دار البلدية، والوزير

إلى المستشفى: والثلاثة ما لبثوا أن توفّوا بعد وقت قصير، ألكسندر من رصاصات الماوزر العملاق، وبارتو من رصاصة أحد الشرطيّين، وفيليشكو كيرين الرجل الذي يحمل ألف اسم مستعار من عشرات الجراح المختلفة التي أصيب بها- كان كيرين أو تشيرنوزمسكي المعروف بجورغييف أو كيليمن، الملقّب ب فلادو «السائق» مقدونيّ الأصل، هذا كلّ ما عرف عنه تقريبًا وقد اغتال الملك تنفيذًا لتوجيهات حركة ثوريّة في مقدونية وناشطين كرواتيّين من الأوستاشي الذين جعلوا قاعدتهم في هنغاريا وإيطاليا، أوقف ثلاثة عملاء منهم في فرنسا بعد أيّام قليلة من الاعتداء واعترفوا بالتخطيط له وهم ميو كرالج، وإيفور رابيك وزفونيمير يوسبيزيل، بأمر من القادة الأوستاشي ومنهم بوغلافنيك أنتي بافليتش نفسه الذي أمر موسوليني بسجنه بضعة أيّام لوضعه في منأى عن الخطر - توفّي كرالج ورابيك بمرض السل في سجن تولون عام 1939، على غرار غافريلو برينسيب زميلهم البوسنيّ قبل عشرين سنة، قبل عشرين سنة بالضبط من انتصار الثوّار الكرواتيّين عام 1941 ولن تتسنى لهما رؤية هذا الانتصار وإنشاؤهم جمهوريّة كرواتيا المستقلّة تحت سيطرة بافليتش: كرالج ورابيك توفيا قبل أن تتسنّى لهما مشاهدة الانتصار، لكنّ بوسبيزيل المحكوم بالسّجن المؤبّد ستسلّمه حكومة فيشي كهديّة إلى كرواتيا الجديدة النازيّة، يا لسخرية القدر، كان جدّي لأبي شاهدًا، في جادة الكانوبيار في مرسيليا على اغتيال الملك إسكندر الأوّل العدو الأوّل لجدّي لأمّي فرانيو ميركوفيتش، وهو من أبرز الناشطين في جمهوريّة كرواتيا المستقلّة وصفوف الأوستاشيّين، والذي لا يدين بنجاته إلا إلى سرعة هروبه إلى المنفى الفرنسي عبر النمسا عام 1945، تكوّنت نواة عائلتي في إطار هذا الموت الملكيّ على جادة كانوبيار، تبنّت

جدتي منذ ذلك الوقت قضية كنّتها فكانت تروي هذه القصّة على مسامع الراغبين، «كنت هناك، كنت هناك، كنت هناك»، وبسبب بلوغها سن الشيخوخة لا تجد حرجًا في التأكيد أنّها أطلقت النار هي نفسها على المونتينيغري ذي القرنين، أو أنّها طعنت المعتدي بالسيف وشجّته، تتردّد المارسيليّة اللطيفة ذات النبرة العذبة في سرد وقائع هذه القصّة بدقّة، كان الملك جميلاً جدًّا، يافعًا، ويبتسم للحشود المتجمّعة لدى مروره في ذاك النهار من 9 تشرين الاول 1934 الذي يصادف تاريخ ولادتي إلى حدّ ما، حاربت لأجل الوطن بعد ستين عامًا، هل كنت سأقتل بدم بارد الحاكم المقدّس الراكب في عربة بمحرّك، ربّما، لاقتناعي بضرورة قطع رأس الهدرة[1]، هدرة الاضطّهاد، وكنت سألتقي في لوزان بشريكيّ ميو كرالج الفظّ الضخم وإيفو رابيك الماكر لأطّلع منهما على تفاصيل الخطّة وأتزوّد بالتعليمات اللازمة، إذا فشلْتُ فسيحاولون اغتيال كاراجورجيفيتش بالقنبلة في باريس، كلّ شيء سيكون مدبّرًا وما على الدكتاتور إلا أن يلزم جانب الحذر والحيطة، جرعة أخرى من الجن نخب فلادو «السائق» الدمويّ بوجهه المشطوب بضربة سكين خلال شجار حصل معه في سكوبييه القاتمة، هل سأتحلّى برباطة جأشه وشجاعته، هل كنت سأتمكّن من مواجهة الأحصنة والسيوف والتنانين دون أن أستسلم، قبل الاعتداء بيوم كانت شابّة كرواتية شقراء ستسلّمني في أحد فنادق الكوت دازور مسدّسًا بديعًا ماركة ماوزر من عيار C 96، مسدّسًا جديدًا لم يستعمل من قبل استحصلت عليه في ترييستا من عملاء موسوليني مزوّدًا بعلبتي خرطوش ومسدّس احتياط في حال تعطل الماوزر رغم أنّ هذا

---

(1) أفعوان خرافي ذو سبعة رؤوس.

الأمر يكاد يكون مستبعدًا، فتاة جميلة ومغامرة تعرف تمامًا أنّ حظوظي قليلة في النّجاة بعد العمليّة، لا بل إنّ جميع الاحتمالات واردة في أن ألقى مصرعي في هذه المغامرة أو أقع في قبضة الشرطة الفرنسيّة، لأجل القضيّة، دفاعًا عن كرواتيا، فرانيو ميركوفيتش منجب أمي في المنفى منذ عام 1931، في هنغاريا أوّلاً، ثم في إيطاليا بمعونة بافليتش و«الثوّار» المرموقين، هؤلاء الأوستاشيين الذين شكّل اغتيال العاهل أوّل مفخرة لهم وتسبّب لبافليتش بأوّل حكم له بالإعدام غيابيًّا، في فرنسا، غريب أن يختار جدي بالضبط هذه البلاد منفى له، إنّها مصادفة بحتة، لم يقلق قط بشأن مصيره خارج يوغوسلافيا ولا حتى، على حدّ علمي، حين طارده عملاء تيتو الذين استطاعوا في النّهاية إطلاق ثلاث رصاصات على أنتي بافليتش في منفاه في الأرجنتين، كان جدّي مثقّفًا عاديًّا غير مضطلع بمسؤوليّات سياسيّة جسام، بخلاف صديقه ميليه بوداك الكاتب الريفيّ قاتل الصربيّين الأعظم، منظّر البطولة الرخيصة ووزير الخارجيّة في جمهوريّة كراوتيا المستقلّة - لن يفلت بوداك من قبضة المقاومين وسينتهي مقتولاً باثنتي عشرة رصاصة في جسده بعد محاكمة خاطفة، وستقتل عائلته أيضًا بالقرب من ماريبور، لم يكن للكاتب المشورب حظّ جدّي الذي رحل قبل ذلك بوقت قصير مع أمي وأخيها إلى النّمسا عبر الخطوط الكرواتيّة والألمانيّة في نهاية ذلك الشهر من نيسان 1945، شهر الغبار، والكذب والفرار، عند الحدود السلوفينيّة توجّب عليه الاختيار بين طريقين طريق إيطاليا وطريق كارينثيا التي يسيطر عليها البريطانيّون، أوقف الانكليز فرانيو ميركوفيتش مع زوجته وولديه ثم ما لبثوا أن أطلقوا سراحه في الحال، كان يملك المال ولديه أقارب في فرنسا، وصل إليها بالضبط حين عاد جدّي لأبي من المعتقل في قطار،

أخذت جميع القطارات تنطلق من جديد في الاتّجاه المعاكس، نحو الجنوب الآن، كان الجنود والمرحّلون والمهزومون والمنتصرون يسلكون الطريق في الاتّجاه المعاكس، مثلما عاد أنطونيو والد البارمان، المنشغل مع زبائنه، إلى كالابريا أو إلى كامبانيا متوقّفًا عند حافة الطريق وسط الحقول، هل يتوجّب عليَّ العودة إلى منزلي، ما الذي ينتظرني في فترة السّلم، أُوليس الخائف من زوجته وكلبه وابنه لا يريد العودة إلى إيثاق، لا يريد، أتجرّع الجن حتى آخر نقطة ثم ألقي القصعة على طاولة الشرب، أرغب في المزيد يبتسم لي البارمان ويسألني: «كأس أخرى؟»، أتردّد لأني سأثمل إذا تناولت كأسًا ثالثة، سأنتشي كما تقول ستيفاني الجميلة المتألّمة، يدخل رجل وامرأة إلى البار الذي يدور ويطلبان مياهًا غازيّة وبيرة ومن ثمّ يرجعان إلى مقاعد الصفّ الثاني، أتردّد أتردّد أتردّد أودّ لو أنزل من القطار وأتنشّق الهواء، مثل أنطونيو العائد من الحرب، هيّا لا يجوز أن تشرب كأسين فقط اجعلهما ثلاثًا أقول هيّا حسنًا كأسًا أخرى، أشعر بالضعف أمام هذا الإغراء، وأيّ ضعف، أتجرّع الجن الفاتر بستّة أورو للكأس الواحدة في حافلة القطار الذاهب إلى المحطّة الأخيرة، إنّها آخر كأس صغيرة لي سأشربها مهما حصل، عليّ ان أغيّر المشروب، وأتحوّل إلى الكامباري سودا، المرّة الأخيرة التي ثملت فيها وأنا مسافر في القطار كانت في قطار الليل السريع الذي كان يعيدنا إلى كرواتيا أنا وفلاهو وأندي، استقلّينا القطار السريع في تريستا وصولاً إلى بلدة على الحدود السلوفينيّة ليتسنّى لنا الالتحاق بقطار البندقيّة - بودابست والوصول إلى زغرب نحو الرابعة صباحًا، كما هو متوقّع، كان الموظّف في قطارنا مجريًّا ولديه أنواع مدهشة من المشروبات الروحية يضعها في كشك، أشياء عطريّة كماء الكولونيا،

كحول من كبش القرنفل وأشياء مجريّة غريبة أخرى وحده يعلم الله ما هي، لكنّ الموظّف كان مرحًا وسخيًّا، أشفق على حالنا لاضطّرارنا للعودة إلى الحرب، كان يتحدّث بلغة غريبة هي مزيج من اللاتينيّة والألمانيّة والمجريّة مطعّمة ببعض الكلمات السلافيّة، رجل ساذج ضخم الجثة يدخّن مثل قاطرة بخاريّة في حجيرته، أذكر جيّدًا وجهه كما أتذكّر الوجه المكتنز لبارمان البندولينو الذاهب من ميلانو إلى روما، ثلاثة طبالين شبّان عادوا من الحرب، *Trois jeunes tambours s'en revenaient de guerre/ trois jeunes tambours s'en revenaient de guerre/ et ri ran, ranpataplan,/ les bons/ s'en revenaient de gueeerre* ثلاثة طبّالين شبّان عادوا من الحرب، وري ران ران باتا بلان، عادوا من الحرب، علّمت هذه الأغنية لفلاهو وأندريا في تريستا فراحا يغنّيانها دون توقف حتى في قطار بودابست، حتى جبال البوسنة، أغنّي الآن بصوت خفيض أغنية ثلاثة طبالين شبان، الطبّال الأخير لا يزال صحيح الجسم لكنّه لم يعد بهذه الفتوّة، لم يأبه لابنة الملك بل تركها على الطريق «ثمّة من هي أجمل منها في بلادي»، هكذا تقول الأغنية، أُسندت إلى ستيفاني مهمّة في الخارج، أودّ لو ألتقي بها صدفة أو دعك من هذا، أو لو نعود سوية لكن هذا غير ممكن، فأنا ذاهب نحو حياةٍ جديدة أتخلّى فيها عن ذاتي، لم أعد فرنسيس سرفين الجاسوس أنا إيفان دوروا الذي يُعدّ نفسه لمستقبل زاهر جديد لامع دفع ثمنه موتى ومفقودين وأسرارًا في هذه الحقيبة التي تزداد ثقلاً، هذا الذنب لا يدعني أعيش في سلام مع ذاتي، مسكينة ستيفاني التي سحقتها رغمًا عنّي، أحتسي جرعة جن، لم تكن ترتاب بشيء، كانت تحبّ العروض المسرحيّة والسينما والكتب، وتحبّ أن تبقى لساعات في السرير تداعبني بلمساتها الناعمة، فيما كنت

منكبًّا على شؤوني في **المنطقة**، فيما كنت أختفي ليس تحت الشراشف والملاءات بل في الحقيبة وداخل ذكرياتي، بين مهمّتين، أو مخبريْن، أو تقريريْن، اصطحبت ستيفاني في جولة كنت أقوم فيها بتحقيق خاصّ، أمارس فيها «هوايتي»، كما كانت تقول دون أن تفهم جيّدًا طبيعة العمل أو خطورته، كانت تظنّ أنني أريد التحوّل إلى سيمون فيشنتال أو إلى سيرج كلارسفيلد[1] لم أكن أكذّبها أو أعترض، بدافع الكسل أو توخّيًا للسريّة، كلّما عرفَت أقلّ، كان هذا أفضل، بعد برشلونه رافقتني إلى بلنسيه بعطر البارود الأسود وزهر البرتقال، أصرّت على الإتيان برفقتي - دائمًا لديها هاجس العطلات، في كاركاجنت، على بعد أربعين كيلومترًا من هنا، أقام ماكس لوبورتيش حتى اغتياله عام 1969، لوبورتيش الجزّار في معتقل يازنوفاك كان هو أيضًا من أوائل المنضمّين إلى صفوف الأوستاشيّين، إنّه رفيق نضال جدّي، إذا أمكن القول، وكان معجبًا بشكل خاص، بالقتل بالهراوة وببخص العيون وتقطيع الأوصال، وقد مارس أنواع القتل هذه على عدد لم يُحدّد بعد من الصرب واليهود والغجر والمعارضين الكرواتيّين – ثمانون ألف ضحية تمّ التعرّف إليهم، وكم من الضحايا الأخرى بانتظار أن يتمّ الكشف عنهم وعددهم يفوق ولا شكّ أربع مرّات هذا العدد، قُتلوا بجميع الوسائل الممكنة رميًا بالرّصاص، شنقًا، غرقًا، تجويعًا، بقطع الرأس، بالفأس، بالهراوة، وجد لوبوريتش الهارب عبر روما ملجأ في إسبانيا حيث راح من هناك ينسّق «نشاطات» الأوستاشيّين لما بعد الحرب، في حوزتي رسالة منه أرسلها إلى جدّي يطلب منه فيها أن يقبل بأن يكون المسؤول عن الخليّة الفرنسيّة، لكن جدّي

(1) من كبار مطاردي مجرمي الحرب النازيّين.

عاجله بالرّفض ولا شكّ لأنّه لم يكن راغبًا في الوقوع في شرك رجال استخبارات تيتو ومطاردتهم له، عثر على جثّة لوبوريتش في نيسان 1969 في منزله في كاركاجنت وجمجمته مهمّشة وجذعه مخترق بطعنات سكين، الثأر، الثأر، في هذه القرية الواقعة في ضواحي بلنسية حيث اختار الإقامة، على طريق كزاتيفا وسط أشجار البرتقال ومعامل السيراميك، على مسافة بضعة كيلومترات من حقول أرزّ ألبوفيرا حيث توقّفنا والتهمنا طبقًا لذيذًا من البايلا والأنقليس المطبوخ بالسمن والبصل والخمر، كانت ستيفاني تقود سيّارة سيات مستأجرة ومناظر بواكير تشرين الأوّل أمامنا لا تشبه بشيء ما تخيّلته، السهل الخصب على ضفاف خوكار، الجبال التي تبدأ على مسافة أبعد، أسماء الأعلام التي كانت في غالبيّتها مغربيّة، الجميزي، بني مسلم، غواد أسوار، بلدات كثيرة مفرغة من سكّانها على يد فيليب الثالث ومحاكم التفتيش عام 1609 إبّان ترحيل الموريسك، المسلمين الإسبان المتنصّرين، هؤلاء الذين نقلوا في السفن الشراعيّة من جميع مرافئ المملكة باتّجاه السواحل الإفريقيّة، فلاحون ارتدّوا إلى المسيحيّة منذ أجيال عدّة لكنّهم أصرّوا على التحدّث والكتابة باللغة العربيّة في السرّ، هم المرحّلون الأوائل بكثافة في المتوسط، وذلك إرضاء للكنيسة والأساقفة الإسبان الصارمين: توفّي الكثير بينهم، حوالي خمسمائة ألف منفي في المسيرات الإجباريّة لبلوغ البحر، بعضهم رمي في الماء على يد ربابنة البحريّة ووفّروا على أنفسهم عناء السّفر إلى السواحل الهمجيّة، وبعضهم فتك بهم البربر الذين لم يكونوا لطفاء إطلاقًا مع الوافدين الجدد لدى وصولهم - وفقدت مملكة بلنسية على هذا النّحو ربع ساكنيها، وخلت بعض المناطق الريفيّة الزراعيّة تمامًا، ولم يتبقّ من أحفاد عرب الأندلس إلا اسم القرى،

وكذلك في ألسيرا التي كنّا نجتازها مع ستيفاني في طريقنا إلى كاركاجنت، ألسيرا[1] الجميلة بلد الشاعر العربي ابن خفاجة لم تعد إلا كتلة من المباني المنفرة التي تطوّق بقايا مدينة قديمة كانت تحيط بها الأسوار، توقّفنا لاحتساء زجاجة هورشاتا[2] شراب غير مسكر ساحة ظريفة مزروعة بالنخيل، ذات يوم جميل مطلع الخريف بعد الظهر، على مسافة بعيدة قليلاً ترى ما تبقى من السور العربيّ وأشجار النخيل أيضًا، والمكان يحمل اسمًا ساخرًا «مستديرة المملكة العربيّة السعوديّة»، وانطلقنا من جديد إلى كاركاجنت حيث كانت مفاجأة في انتظارنا: كانت القرية في عيد، مزيّنة بالأعلام ومزدحمة بالجماهير ذاك السبت، حجزنا في الفندق الوحيد عند تقاطع الشارعين واستفسرنا عن سبب هذه الزحمة، فكان موظّف الإستقبال متفاجئًا لسؤالنا ألم تكونوا على علم بالمهرجان؟ لكأنّ البلدة مسقط رأسه لا تستحقّ زيارتها خارج هذه التواريخ التذكاريّة، هذه الأعياد المرتبطة بشفاعة القدّيسين، في الساحة الكبرى أقيمت سوق «قروسطيّة» حيث كان هنالك بلنسيّون يقلّدون العرب متنكّرين في أزياء مرقّشة، وأيضًا فرسان السيّد كامبيادور[3] في دروعهم وخوذاتهم تحت نوافذنا، كنّا لا نزال في القرية عندما جمّدتني سلسلة من الانفجارات في مكاني والحقيبة التي تحتوي عدّة الحمّام في يدي، طلقات متواترة رهيبة جعلت النوافذ المفتوحة تهتزّ والقلب يخفق بسرعة، إنّه قصف، سيطر عليّ ذعر شامل لثانية، تشنّجت عضلاتي، طنّت

---

(1) ألسيرا مدينة في إسبانيا جنوبي بلنسية على خوكار، عرفها العرب في الأندلس باسم الجزيرة أو جزيرة.

(2) حليب اللوز يستهلكه الإسبان كثيرًا.

(3) بطل مسرحيّة كورناي.

أذناي، تهيّأت للاختباء تحت أرض الغرفة، لم أكن أعرف نوعيّة السلاح المستخدم ولم يقدر دماغي في الحال تحديد هويّة هذا الخطر، ليس رشّاشًا ولا مدفع هاون ولا قنبلة، كان الصوت أصم متوحّشًا مرتجًّا يتردّد صداه بسرعة، لامتناهيًا، تجمّدت ستيفاني قبالتي أدركْتُ أنّها مفرقعات ليس إلا، مفرقعات موصولة ببعضها تحت نوافذنا وكانت تجوب أرجاء السّاحة، مع كلّ نصف ثانية انفجار، كانت الغرفة صغيرة تمتلئ بالدخان الأزرق حتى كدنا نختنق، بدأت ستيفاني تضحك وضربات المطرقة لا تتوقّف بوم بوم بوم بانتظام، الرائحة مريعة وفي آخر الأمر انفجرت قذيفة بحريّة ضخمة محدثة دويًّا هائلاً قسم ظهورنا إلى قسمين لشدّة الخوف مخلّفًا صمتًا متكسّرًا حادًّا متبوعًا على الفور بصيحات الفرح والهتاف والتّشجيع، كنت متشنّجًا لدرجة أنّني شعرت بألم في عنقي وكتفي، كانت ستيفاني تدمع، ربّما من الدخان، وكان فمي جافًّا بطعم البارود الأسود، في الشارع لا تزال تتصاعد صيحات الجزل، ما يكون هذا الاحتفال الوحشيّ الذي ينظّمه أبناء البلدة، لأي إله رعد يضحّى بكلّ هذه الكميّة من المفرقعات، أنا وسيتفاني أخذنا نضحك من خوفنا باحثين عن قليل من الهواء عند النافذة، أخبرنا موظّف الإستقبال أنّ هذا الطّقس الاحتفالي يدعى mascleta في بلنسية، بلنسية موطن المفرقعات الناريّة والصخب والجنون، لا بدّ أنّ زوس نفسه يترأّس هذه الألعاب الوثنيّة، خرجنا للتنزّه قليلاً من يدري ربّما كان ماكس لوبوريتش الجزّار اختار هذه البقعة المنعزلة من إسبانيا بسبب هذا التقليد الحربي الذي كان يذكّره بالأطفال والعجزة والمرضى الذي كان يمدّدهم داخل الحفرة ثمّ يفجّرهم بالديناميت أو بالقنبلة في يازنوفاك على نهر السافا، في تلك القرية الكرواتيّة الهانئة حيث قدّم الأوستاشيّون الذين يحرصون

عن القيام بأعمال الخير اسهامهم الدؤوب في معتقلات الموت، في قتل الصرب والغجر واليهود وسط طيور اللقالق، على ضفّة الماء، في مصنع آجرّ قديم حيث ظهرت فعاليّة الأفران وقدرتها على التخلّص من الجثث، كان لوبوريتش قائد شبكة المعتقلات حول يازنوفاك، يتحدّث عنه الجنود بأنّه كان شخصًا سمينًا ساديًّا ومتوحّشًا، في كاركاجنت، اتّخذ اسم فيشنت بيريز وكان صاحب مطبعة صغيرة في شارع سانتا-آنا حيث كان يطبع فيها المنشورات لأجل الترويج لمناهضة التيتويّة، ونظرًا لممارسته الكاثوليكيّة الورعة، كان محطّ تقدير من أهالي القرية، تصغي إليّ ستيفاني في أحد البارات المزدحمة بالزبائن حاملة كأس النبيذ الأحمر في يدها وهي تأكل الكبيبات المصنوعة من سمك المورة، تصغي إليّ وهي تحملق بعينيها جيّدًا: ما الأمر! هل هذا معقول؟ يشقّ عليها أن تصدّق أنّ هذه البلدة الصغيرة أخفت طيلة أكثر من ثلاثين عامًا مجرمًا على هذا القدر، وسط أشجار البرتقال، حتّى أنّ لوبوريتش تزوّج إسبانيّة وأنجب ثلاثة أطفال في الخمسينيّات، هل ذهبوا للقتال مثلي لكي يحرّروا كرواتيا من النير اليوغوسلافي، هذا ممكن، من الأزقّة الظليلة في كاركاجنت تفوح رائحة الكبريت، عند الساعة الثامنة توجّه قسم كبير من الحشد إلى الكنيسة حيث صلّى ماكس لوبوريتش كثيرًا، كانوا يحتفلون فيها بالقدّاس ويتوسّلون شفاعة القدّيس بونيفاس، دخلنا أنا وستيفاني التي رسمت إشارة الصليب بالماء المقدّسة، كان بونيفاس بحسب السنكسار، الذي قُدّم لنا، وكيلاً عند سيّدة من الأشراف تدعى آغلاييه، وقد ارتبطا معًا بعلاقة زنا، لكن وإذ مسّتهما كلاهما نعمة الله قرّرا أن يذهب بونيفاس لكي يفتّش عن ذخائر الشهداء آملاً أن يستحقّ بواسطة شفاعتهم نعمة الخلاص الأبديّ - بعد بضعة أيّام من المسير،

وصل بونيفاس إلى مدينة طرسوس[1]، وعندئذ توجّه إلى هؤلاء الذين كانوا يرافقونه، قائلاً لهم: **اذهبوا وفتّشوا لنا عن مكان يؤوينا**: في أثناء ذلك سأذهب لرؤية الشهداء الذين يواجهون جلاديهم، هذا أوّل شيء أرغب في رؤيته، ذهب على وجه السرعة إلى المكان الذي تنفّذ فيه أحكام الإعدام ورأى الشهداء الأبرار، كان أحدهم معلّقًا من قدميه فوق نار متأجّجة، وكان آخر ممدّدًا على أربع قطع من الخشب يخضع لتعذيب بطيء وثالث تمزّق جسده مخالب من حديد، ورابع قطعت يداه وآخرهم معلّق في الهواء وقد شدّت حول رقبته قطع خشبيّة ليموت اختناقًا، وإذ تأمّل بونيفاس مليًّا هذه العذابات المختلفة وقد بدا أنّ منفذها جلاد لا يحمل ذرّة شفقة في قلبه، استنهض ما فيه من شجاعة وأحسّ بمحبّته للمسيح تكبر في صدره فهتف **ما أعظمه إله القديسين الشهداء** ثم ركض ليرتمي على أقدامهم ويقبّل قيودهم قائلا لهم: **تشجّعوا يا شهداء يسوع المسيح**، فما كان من القاضي سمبليسين الذي لمح بونيفاس إلا أنّ أمره بالاقتراب من منصّته وسأله من يكون فقال له: **أنا مسيحي وبونيفاس اسمي** عندئذ أمر القاضي الغاضب بأن يعلّق ويسلخ جلده حتى تنكشف عظامه ثم تغرز قطع قصب حادّة تحت أظافر يده، رفع القديس الشهيد عينيه نحو السماء متحمّلاً آلامه بفرح، حينها أمر القاضي المتوحّش أن يسكب الرصاص الذائب في فمه لكنّ القديس هتف: **بنعمة ربّنا يسوع المستجابة ابن الله الحي**، ثم أمر سمبليسين بإحضار مرجل مليء بالقار الذي يغلي وقذف بونيفاس فيه ورأسه في المقدمة، لم يكن القديس ليتألّم فأمر القاضي بقطع رأسه وللحال اهتزّت

---

(1) طرسوس، مدينة تركيّة في كيليكيّة على نهر طرسوس، موطن القدّيس بولس.

الأرض اهتزازًا مرعبًا وأعجب الكثير من الكفّار بشجاعة بونيفاس فارتدّوا إلى المسيحيّة واشترى أصدقاؤه جثمانه فطيّبوه بكفن ثمين ثم وضعوه على محمل وعادوا إلى روما حيث ظهر ملاك الرب لآغلاييه وأخبرها بما حدث لبونيفاس، فذهبت لاستقبال الجسد المقدّس وأمرت بأن يبنى، إكرامًا له، قبر جدير به- أمّا آغلاييه فقد زهدت في هذه الدنيا وفي ملذّاتها، وبعد أن وزّعت كلّ ما تملك على الفقراء والأديرة وأعتقت عبيدها، أمضت حياتها في الصوم والصلاة ثم دفنت بدورها بالقرب من القديس بونيفاس المعذّب الذي قطع رأسه، خلال عظة الكاهن كنت أفكّر في ماكس لوبوريتش الجلاد الكرواتي، بهؤلاء الذين قطع رؤوسهم وسلخ جلودهم وأقعدهم على الأوتاد وأحرقهم لأنّهم كانوا كفّارًا، كم من المرّات سمع القدّاس على نيّة القديس بونيفاس الشهيد شفيع كاركاجنت تحت اسم فيشنت بيريز، هل كان ذاك الجامع الكبير للعيون البشريّة لا يزال يفكر في يازنوفاك أو في أنتي بافليتش عندما هشّم قاتله جمجمته بهراوة خشبيّة ومن ثم طعنه عشرين طعنة بسكين المطبخ ذات ليلة دافئة من نيسان، وسط العطر المدوّخ لأزهار أشجار البرتقال، أُفرغ كأس الجن على ذكر بونيفاس شهيد طرسوس الصغير في كيليكية، طرسوس مدينة القدّيس بولس والأرمن الذين قتلهم بدورهم الأتراك الكفّار على مرأى من القنصل دوتي ويلي الذي قُتل في الدردنيل، رأسي يدور، رأسي يدور، رأسي يدور أشعر بغثيان مفاجئ فأتشبّث بركيزة النّافذة، أحتاج للهواء، البارمان ينظر إليّ، الجن لم يسفر عن أيّة فائدة سأذهب لأمرّر الماء على وجهي، أترنّح على إيقاع تموّجات القطار وصولاً إلى المرحاض القريب جدًا، أغلق الباب ورائي وأرشّ نفسي بالماء كما يفعل الكاهن أثناء رتبة العماد، أجلس على الفولاذ النّظيف المريح للمرحاض،

أخطأت في شربي الكحول سيّما وأنّني لم أتناول طعامًا طيلة النهار، ما الذي أفعله في مراحيض القطار، أنا خائر القوى، سأعود للجلوس وأحاول النّوم قليلاً لكن قبل كلّ شيء سأشعل سيجارة وبئس القوانين المناهضة للسرطان، عمّا قريب فلورنسا، عمّا قريب فلورنسا وبعدها روما، يا للبطء رغم السرعة، جفاف التبغ يريحني، المراحيض الصغيرة سرعان ما تمتلئ بالدخان، كساحة كاركاجنت بعد الماسكليتا، عند الخروج من القدّاس المقام للقدّيس الشهيد بونيفاس، كانت جوقة بوّاقين تعزف ألحانًا محليّة بواسطة آلات نفخ قصيرة حادّة الصوت وصيّاحة بطريقة مرعبة لدرجة أنّها تثقب طبلة الأذن بكلّ تأكيد كالمفرقعات الناريّة، تبع المؤمنون الجوقة فيما كانت أغمار من المفرقعات الموزّعة في الساحة تنفجر في سماء المساء، يخيّل للناظر أنّه في نابولي عشيّة عيد رأس السنة، في نابولي أو باليرما، المدينتين اللتين تتماديان في المبارزة باستخدام الألعاب الناريّة، بالإضافة إلى برشلونة عشيّة عيد القدّيس يوحنا الصيفيّ، إنّه ثالوث المدن العاشقة للصخب، كانت كاركاجنت تقوم بواجباتها على أكمل وجه، العيد في أوج نشاطه، بعد ثلاث أو أربع كؤوس إضافية وعشاء سريع، أرادت ستيفاني الذّهاب للنّوم، تركتها تقود بمفردها إلى الفندق أمّا أنا فكانت لديّ مهمّة في الشقة رقم 25، جادة بلاسكو- إيبانييز عند الطرف الجنوبي من وسط المدينة، مصادفة جميلة، بلاسكو إيبانييز مؤلّف **فرسان الأبوكاليبس الأربعة** وMare Nostrum[1]، أيّ عنوان، كنت شبه أكيد أنّ الرجل الذي أبحث عنه قد يكون في منزله نظرًا لسنّه المتقدّمة، ربما كان نائمًا هذا فيما لو استطاع النّوم، على مسافة قريبة بعد

(1) أي **بحرنا**، ويقصد البحر المتوسّط.

اجتياز وسط المدينة لمحت حجيرة هاتف، طلبت رقمه وبعدما رنّ الهاتف أربع مرّات أجابني صوت رجل قائلاً «si» ؟ فأقفلت السمّاعة في الحال، وفقًا للخارطة، الجادة تقع على بعد مئة متر باتّجاه الجنوب، ليوبو رونياس لا ينتظرني، على أيّة حال اسمه الحالي بارناباس كوديتز، وهو مقيم في إسبانيا منذ 1947، أقام في مدريد أوّلاً، ثم بعد وفاة أنتي بافليتش بعشر سنوات، انتقل إلى كاركاجنت، لسنوات عدّة، أعلم الاستخبارات اليوغوسلافيّة بنشاطات لوبوريتش الجزّار وأعضاء الحزب الأوستاشي الآخرين الذين يحميهم فرانكو، سلّمهم جميعًا لقاء إفلاته من العقاب- ممّن كان ليوبو رونياس، رقيب يازنوفاك، يختبئ، حين كان في العشرين من عمره، كان المسؤول عن تنفيذ الأعمال الدنيئة والاغتيالات من قتل للنساء والأطفال بالسمّ والغاز والضرب بالهراوة، آنذاك كان دم الشباب يغلي في عروقه، لكنّ ليوبو المولود في عام 1922 سيموت على فراشه خلافًا لمن خانه معلّمه المخلص ماكس لوبوريتش الذي ساعد قاتله بالهرب إلى فرنسا وأشكُّ في أنّه طعن جسد صديقه مرّة أو مرّتين بالسكين، هكذا على سبيل المتعة، ومن بعدها، متوخّيًا الحذر، غادر كاركاجنت إلى بلنسية ثمّ عاد إلى كاركاجنت ليقيم فيها بعد عشرين سنة من حدوث الجريمة لأسباب أجهلها، قد تكون عاطفيّة، أو ماديّة، كان على مشارف الثمانين من عمره عندما توجّهتُ إلى جادة بلاسكو إيباينيز الكاتب الذي يهوى المبارزة، جميع أبناء القرية ذهبوا للاحتفال، الشوارع مقفرة، قاتمة، الجادة تحفّ بالمباني من جهة، ومن الجهة الأخرى ببعض الدارات المشرفة على البساتين عند ضفاف خوكار، الليل مدلهمّ تمامًا لا قمر ولا نجمة، لا يفترض بالنّجوم أن تلمع غالبًا في سماء يازنوفاك على نهر السافا حيث

كان المعتقلون يجتازونه على متن المعدّية التي توصلهم إلى غرادينا وهناك تتمّ غالبيّة عمليّات الإعدام، يروي أنّ ليوبو رونياس قتل بيديه في أحد الحقول أكثر من مئة شخص في سهرة واحدة بطعنات السكّين، يستحيل تصوّر هؤلاء المحكومين بالإعدام وهم يقفون منتظرين الموت بهدوء في ذلك الحقل، لا بدّ أنّ رونياس ركض خلفهم كما يركض المزارع خلف دجاجته ليلتقطها ويذبحها، ركض خلف النساء والأطفال والعجائز، وقد اخترع ليوبو رونياس طريقة تحول دون أن تصيب التشنّجات أصابعه، أوثق السلاح بقطعة من الجلد مباشرة إلى راحة يده وكأنّها قفّاز، وإذ ذاك لا يتوجّب على اليد إلا القيام بجهد بسيط لغرز النصل، فالحركة كلّها تستند إلى قوّة الذراع كلاعب التنس، ضربة مباشرة، ضربة مقلوبة، كم من البشر أهرق دماءهم في تلك السنوات الثلاث في يازنوفاك، أهلك من البشر أكثر مما ذبح أباه من البهائم في مسلخه، أكثر من كلّ حملان البوسنة في يوم من أيّام عيد الأضحى، كان النازيّون أنفسهم يرتاعون من الطرق التي يستعملها الأوستساشيّون، وكانوا يسعون إلى حماية جنودهم من ملامسة أجساد الضحايا وأخذوا يستخدمون التكنولوجيا في القتل مذ لطّخ دمّ أحد اليهود هيملر نفسه في حفرة بالقرب من ريغا، في يازنوفاك، لم تكن هناك قاعدة متّبعة في القتل أو تقنيّة أو تنظيم، بل تحدّد ساعة الموت تلبية لرغبة القاتل الذي يختار وسيلة القتل التي يريدها : الأسلحة الناريّة، أو الأسلحة البيضاء، لا سيّما الهراوات، يجتاز المعتقلون الواحد تلو الآخر بابًا مزدوجًا يتلقّون خلفه ضربة قاضية من البيزر على مؤخّر الرأس، وإلى التالي، إلى التالي، يتناوب الجلادون عند كلّ ثلاثين أو أربعين ضحيّة، إنّها صناعة حرفيّة، صناعة حرفيّة أو لنقل أشبه بمصنع يعود إلى القرن الثامن عشر – أقرع على

الشقّة رقم 25، الدارة بيضاء ولها رواق مفرد أمام مدخلها وواجهة وحديقة صغيرة حيث تتبوّأ المكان نخلة صغيرة، لم يشعل أي نور، أقرع من جديد، إنّها الساعة العاشرة والنصف، واليوم عيد، أضيء الرواق، فرقع الأنترفون، نعم؟ النعم نفسها التي سمعتها عبر الهاتف، فأتعمّد الردّ بألفاظ مهذّبة: *Dobar večer gospon runjas kako ste*[1]، يسود الصمت طويلاً، هل غيّر رأيه، أتخيّل العجوز مرتديًا بذلة وهو متردّد، تئزّ البوّابة فجأة فأدفعها، هناك رجل يقف عكس الضوء تحت الرواق على الأدراج، أقترب، أمامي ليوبو رونياس بقامته القصيرة، البالغة مترًا وستين سنتمترًا، المكتنزة بفعل السنين، شعره أبيض وجهه مجعّد، أنفه بارز، أذناه طويلتان، نظرته مرتابة لا بل متوعّدة تتناقض مع صوته النحيف الذي قال لي: انتظرت مجيئك في وقت أبكر، كنت نائمًا، كما تعلم، لم أجب بكلمة، أشار لي بالدخول، أتبادل الحديث لبضع دقائق مع ليوبومير رونياس المأمور البسيط، القاتل القصير القامة، سيموت في كاركاجنت، دون أن يتكلّف أحد مشقّة البحث عنه، سألني عن أخبار جدّي فأخبرته أنّ فرانيو ماركوفيتش توفّي عام 1982 في باريس فقال: آه، نرحل جميعًا، أبناء هذا الوطن يموتون الواحد تلو الآخر، وداعًا يا أوّل دولة لكرواتيا المستقلّة، وداعًا دولة كرواتيا المستقلّة القاتمة المتوحّشة قاتلة الصرب الفاحشة، وداعًا، ومع السلامة أيّها السينيور المزيّف كوديتز، بدا حزينًا بعض الشيء، الصالون الذي استقبلني فيه إسبانيّ الطابع بامتياز، مليء بالتحف وحافل بالألوان، لوحة العذراء مع الطفل على أحد الجدران، أيقونة من الفضّة على الصوان الذي يرقى إلى الستينيّات - هنا تخال أنّ برناباس

---

(1) أي: عمت مساء يا سيّد رونياس.

كوديتز متقاعد ألماني، أسأله لماذا عاد إلى كاركاجنت ليعيش فيها، فأجابني بهزّة من كتفيه، بدا عصبيًّا، مستعجلاً للإنتهاء - نهض ببطء، اقترب من الصوان، فتح درجًا وأخذ منه حزمة مربّعة مغلّفة بورق صرّ، ناولني إيّاها، في أعلاها اسمي مكتوب بخط جميل بالحبر الأزرق، على الطريقة القديمة *Mirkovic Francis*، أخذت الرزمة، شكرته، بقي لوبيو واقفًا لكي يفهمني أنّ المقابلة انتهت، وداعًا، وداعًا، **أيّها السيّد** لم يمدّ لي يده، ولا أنا، نظراته فارغة، اصطحبني حتى درج المدخل، انتظر أن أجتاز البوابة لكي يغلق الباب من جديد، ها أنا في الشارع أسير متأبّطًا الحزمة، الألعاب الناريّة تضيء الليل من جديد، وحزم الشرارات يتبعها انفجار أصمّ، الصواريخ المحدثة صفيرًا تتجاوز السطوح، في الرزمة يوجد مئة صورة فوتوغرافيّة اتّخذت في يازنوفاك وعقّب عليها، ورسائل، ولائحة طويلة من الأرقام، إحصاء الموتى، دون أسماء ولا أصول، فقط التسجيل اليومي للوفيّات من 1941 إلى 1945، على مدى ألف وخمسمائة سطر من الحسابات، جميع الذين أعدموا بالرّصاص والسمّ والغاز والضرب بالمطرقة، جميع الذين بُقروا وغرّقوا وذبحوا وأحرقوا، جميعهم كافة بالعدد والتاريخ، في كلّ المعتقلات الثانويّة في يازنوفاك حول نهر السافا، وسط طيور اللقالق وأسماك السبّوط- في كاركاجنت القريبة من بلنسية، العيد في أوجه، استولت فرقة موسيقيّة على المكان، من وقت لآخر تطلق الصواريخ والمفرقعات، لا يزال الوقت مبكرًا، العجزة والأطفال يرقصون على أنغام paso doble قديمة، يرقصون اثنين اثنين، أقف لأراقبهم هنيهة، الكوبلات أنيقون، الرجال ينفخون صدورهم ويتمايلون بأكتافهم بشكل خفيف، والنساء المحترفات يستسلمن للرجال لكي يقودوهن من أوّل الحلبة إلى

آخرها، أمّا الرّاقصون الذين تقدّموا في العمر كثيرًا أو لا يزالون في مقتبله فقد اتكأوا إلى الطاولات أو جلسوا على الكراسي التي تطوى، ربّما غفا ليوبو رونياس المعروف ببارناباس كوديتز، أفكّر في يازنوفاك، أفكّر في ماكس لوبوريتش، في دينكو ساكيتش التي قضت كرواتيا الجديدة بأن يسجن عشرين سنة وهو في الثامنة والسبعين ربيعًا، بعد أن سلّمته سلطات الأرجنتين، كان دينكو قائد معسكر يازنوفاك بمعيّة صهره ماكس لوبوريتش: رقصا على ضفاف السافا، رقصا في هذه القرية المنسيّة من إسبانيا، أشدّ على الرزمة، سأذهب، رقصة «الباسو دوبليه» انتهت، مفرقعات أو أسهم ناريّة تضيء السماء، أزهار زرقاء وأزهار حمراء تحدثها انفجارات العيد احتفالاً بموتى يازنوفاك، أصعد لأندسّ بالقرب من ستيفاني، مستمعًا إلى دمدمة الموسيقى، في الظلام، تمتزج بفرقعة الألعاب الناريّة وبتنفّس المرأة الممدّدة على السرير، النائمة رغم كلّ شيء، النائمة فيما يشقّ عليّ، ولا أعرف السبب، أن أقنع نفسي بأنّها لا تزال على قيد الحياة، بالرغم من التنفس المنتظم الذي تدلّ عليه حركة صدرها، فيما الفرقة الموسيقيّة تعزف أغنية *A mi manera* وهي نسخة إسبانيّة من *My Way*– في صباح اليوم التالي، بعد نوم حافل بالقالق المحلّقة فوق المقابر الجماعيّة المنتشرة حول المستنقعات، وبعد تناول الإفطار السريع وسط البقايا التي خلّفها الاحتفال، مررنا على الموقف لنأخذ سيّارة السيات ثم زرنا المدفن في كاركاجنت لرؤية قبر لوبوريتش–بيريز، قبره جميل ومعتنى به، لم تصدّق ستيفاني ما رأته عيناها، قالت لي يبدو أنّ أبناء المنطقة يحترمونه فأجبتها أنّ هذا صحيح، كان أولاده يذهبون إلى مدرسة الناحية دون أن يتمّ رشقهم بالحجارة، وداعًا يا ماكس الجزّار، تابعنا طريقنا إلى كزاتيفا

ولم نكن نعرف أن برناباس كوديتز سيلقى حتفه بعد أيّام قليلة بانفجار في الشرايين، وداعًا وداعًا يا ليوبو الرقيب الدمويّ، وثائقك محفوظة في الحقيبة، مع كافة الصور بالتفصيل والأرقام، ورسائل زغرب الإداريّة، وداعًا- على مسافة عشرين كيلومترًا تتوزّع مدينة كزاتيفا الصغيرة بين السهل والجبل وأشجار النخيل وبساتين البرتقال، كانت أزقّة الوسط ظريفة والقصور ترقى إلى عصر النهضة وتذكّر بالأسر الكبيرة للمدينة وخاصة آل بورجيا[1] الذين بلغوا عتبة الجبروت والمجد في روما: كان القصر الذي ولد فيه البابا اسكندر السادس بورجيا قاتمًا وباذخًا على غرار حبريّة مالكه، أولاده الكثر وشغفه بالجماع وفضائحه وسياسته كلّ ذلك يجعله محبّبًا كفاية، امتعضت ستيفاني الألزاسيّة بشدّة لقلّة الاحترام التي يظهرها هذا الجدّ الأعظم للمؤسّسة البابويّة، *o mores o tempora* يا لتلك الأيّام، يا لتلك العادات، أمّا بابوات اليوم فيصرّون على الاحتشام والتزهّد والنظافة وشخصيّتهم باهتة، أما بابوات الماضي فكانت تفوح منهم رائحة الفجور والمؤامرات، كان أفراد أسرة بورجيا يتكلّمون اللغة البلنسيّة فيما بينهم حتّى في قلب روما، ما جعلهم أبطالاً تاريخيّين في خدمة القضايا المحليّة، بالرغم من العطر الكبريتيّ الخفيف الذي يفوح من حكايتهم الأسطوريّة، كانت كزاتيفا ظريفة إذًا وأكلنا فيها أطيابًا لذيذة، نوعًا من البايلا المطبوخة في الفرن

---

(1) أسرة إيطاليّة إسبانيّة الأصل لعبت دورًا خطيرًا في تاريخ البابويّة، منها البابا إسكندر السابع وولده قيصر 1475- 1507 وهو سياسي محترف اشتهر بمكره وبطشه واتّخذه مكيافيلي مثالاً في كتابه الأمير، ولوكريشيا بورجيا التي عاشت حياة مضطربة، اشتهرت بجمالها وجمعت حولها في فيرّارا الأدباء والفنّانين، خصّها هوغو بمأساة خياليّة.

والممزوجة مع النبيذ الأحمر المصنوع في ضواحي أليكانت، كان في هذا المشروب شيء قروسطيّ وكبريتيّ أيضًا، كانت حزمة يازنوفاك لا تزال مغلّفة بورق الصرّ، وأنساني الأكل الطيّب والزنا الأموات والجلادين - أربعة أيّام من العطلة، بلنسية كاركاجنت كزاتيفا دينيا بلنسية، كانت ستيفاني سعيدة، ولديها تلك القدرة التي تُحسد عليها وهي نسيان باريس وبولفار مورتييه ما أن يوصد باب الطائرة فتمحو بضربة واحدة تقاريرها وخلاصاتها كموظّفة سريّة شابة رفيعة المستوى، شعرت أنّها تزداد جمالاً، بنظّارتيها الشمسيّتين اللتين تستعملهما لترفع شعرها الداكن، كانت هادئة، حضورها شديد الرّسوخ في العالم، متسلّحة بيروست وسيلين وقناعاتها التي تدعمها ثقافة واسعة، فجأة أشعر أنّني أتحسّر على فراقها وأنا جالس على كرسيّ في القطار وسيجارتي في يدي، أشتاق إليها أحيانًا، من الأفضل عدم التفكير بها، عدم التفكير بنهاية علاقتنا الكارثيّة، أين هي يا ترى الآن، في مركزها بموسكو ذاك الذي كانت تحلم به، إذا التقيتها في الطريق فلن أوجّه إليها الكلام ولا هي أيضًا، سنتجاهل بعضنا كما فعلنا عند نهاية علاقتنا في أروقة البولفار، لم يكن يفترض بنا أن نلتقي، كنت مهيّأ لمواجهة قدر آخر، كنت محكومًا مع وقف التنفيذ، لم تكن ستيفاني إلا وهمًا، *trois jeunes tambours s'en revenaient de guerre, trois jeunes tambours s'en revenaient de guerre, et ri et ran ranpataplan, s'en revenaient de gueeeerre*، في رأسي لحن هذه الأغنية الآن، الحقيبة ثقيلة فعلا وشراب الجن لا يمكنه أن يفعل شيئًا - أغسل وجهي من جديد بالماء، زجاج المراحيض سميك، لا أشعر إلا بضغط الأنفاق التي لا تحصى على طبلتي أذنيّ، بين بولونيا وفلورنسا التي لا يفترض بها أن تكون بعيدة الآن، هل نحن الآن في توسكانا، الساعة السابعة

وخمس عشرة دقيقة، لا تزال هنالك نصف ساعة للوصول إلى فلورنسا ثم ثلاثمئة كيلومتر للوصول إلى روما ومواجهة الحياة الجديدة، هذا إذا لم أنزل من القطار، إذا لم أغتنم الفرصة من توقّف لم يكن في الحسبان فأسعى للإفلات من قبضة القدر، لكنّ الاختيار قد تمّ منذ زمن بعيد، سأسلّم الحقيبة، سأذهب حتى النهاية، في خريف 1990، بدأت السفر من محطّة ليون، كنت أجتاز إيطاليا للمرّة الأولى، قلقًا بعض الشيء، مستقويًا بمعارفي العسكريّة، مستعدًّا لأضع سيفي في خدمة بلادي، الآن سيعود سيفي إلى غمده، وداعًا يا فرنسيس ميركوفيتش، جزّار البوسنة، وداعًا وداعًا يا أندريا الضاري، استرح بسلام، في قطار زغرب كنّا نغنّي *trois jeunes tambours s'en revenaient de guerre* ونحن نشرب، الآن أشرب وحدي *et ri et ran ranpataplan*، الآن هذه الليلة أنا وحدي محتبس في هذه الحجرة، وعليّ أن أجد الشجاعة لأغادرها، والقوّة، أحيانًا في الحرب كنّا نخاف من الخروج، ذات ليلة على الجبهة في البوسنة، اقتضى الأمر أن يتطوّع شخصان لمراقبة خطوط العدو الأماميّة، والوصول إلى أقرب نقطة ممكنة لمعرفة أين يتموضع التشيتنيك، تطوّع أندي في الحال للذهاب واختارني لمرافقته، نظريًّا كنت أرفع مرتبة منه لكن ليس للأمر أهميّة، وافقت، تجهّزنا بالأسلحة والمؤن والذخيرة، أذكر أنّ رباط حذائي العسكري انقطع لأني حزمت شرائطي بقوّة، الأمر الذي أضحك أندريا بالطبع لكن بدا لي ذلك فألاً سيّئًا، ربما لن ترافقنا أثينا هذه المرة، ربّما أشاحت ابنة زوس بنظرها عنّا، انطلقنا في الليل الأشدّ ادلهمامًا نحو الساعة الثانية، بدأنا ننحدر باتّجاه أسفل التلّة بين الأشجار ونحن ننزلق في التربة الرطبة، كنت مرتاعًا، أبسبب الظلمة أم الشريط المنقطع، لا أعرف، اصطكّت بندقيّتي بأزرار سترتي وتوجّست شرًّا من هذه

الضجّة، كنت متيقّنًا بأنّها ستكون السبب في افتضاح أمرنا، انزلق أندريا منبطحًا على ظهره وبدأ يكثر من السباب بصوت خفيض، حريّ بنا العودة، فكّرت، حريّ بنا العودة في الحال قبل حصول الكارثة الحقيقيّة التي بدت وشيكة الحدوث، قال أندريا بصوت أندريا منخفض، اللعنة، لا يستطيع الواحد أن يهتدي إلى شيء في هذه الظلمة الدامسة كحلقة دبر زنجيّ، لم يضحكني قوله لكنّه كان على حقّ، وكلّما نزلنا ازداد الانحدار وعورة، سيتوجّب علينا التشبّث بجذوع الأشجار لمعاودة الصعود، لا بدّ أنّ الصرب كانوا في أسفل المنحدر بالذات تريّثنا قليلاً وأصغينا، لا نسمع شيئًا ما خلا نعيق بومة في البعيد، ربّما الإلهة لم تكن لتتخلّى عنّا في النهاية، فاحت من الليل رائحة التراب والعشب والرطوبة الباردة والهدوء النائي عن فرقعة الحرب، كان أندريا ينظر إليّ وكأنّه يريد القول هل نعاود الصعود؟ الوادي غارق في الظلمة ما من عدوّ في هذه النّواحي هذا أكيد فقط يسمع حفيف أوراق غير منتظم وكأنّها خطى متردّدة في الأسفل، أمسكت بكتف أندريا، واضعًا اصبعي على فمي، أحدهم يقترب، صمتت البومة فجأة، أحدهم يحاول صعود التلّة وهو يلهث من جرّاء الجهد الذي يبذله، ابتسم أندريا راضيًا، لم يمش في الوعر عبثًا، عاودني الخوف، لعلّها ليلة مشؤومة، اجتزنا الكيلومترات من التلال وها نحن نصادف فرقة من التشيتنيك، وجهًا لوجه، كم عددهم يا ترى، حاولت أن أرهف السمع ولم أسمع إلا ضجّة واحدة، ضجّة شخص واحد يلهث ويكسر الأغصان في طريقه، هذا ما يفترض أن تشعر به الأيائل والظباء لدى اقتراب الصيّاد، تتكسّر الأغصان وأشعر بانقباض في صدري، أشار إليّ أندريا بالانتقال إلى اليمين لكي نحبط مساعي هذا البليد الذي يحدث صخبًا في مسعاه، ربما كان مدنيًّا لكن ماذا يأتي مدنيّ ليفعل

هنا منتصف هذا الليل على خطوط الجّبهة، ربما كان واحدًا منّا تاه ويحاول الصعود نحو خطوطنا، ابتعد أندي الشجاع محاذرًا ألا يحدث أيّة ضجّة ممكنة، وانحرفت صوب اليمين، سيجد المجهول نفسه محاصرًا بيننا نحن الاثنين قي غضون ثوان معدودة كنت أسمعه بوضوح الآن، طريدة ضخمة تتقدّم بصعوبة نحو أندريا اختبأت خلف شجرة، كان فمي جافًا، حبست أنفاسي، تجاوزني التشيتنيكي فأمسكته من ساقيه وتهاوى في الوحل فقفز أندريا وعصب فمه بيده لكي يمنعه من الصراخ، جرّدته من سلاحه وأصغيت، ما خلا التنفّس اللاهث المجنون للصربيّ كانت التلّة صامتة، وضع أندريا خنجره تحت عنق الجندي المرتعد خوفًا وأجلسه قبالتي، كان في الأربعين من عمره وعيناه جاحظتان، همست: **إذا صرخت فسنذبحك للحال مفهوم؟** فهزّ رأسه، أرجع أندريا يده عن فمه وظلّ شاهرًا خنجره، سألته **ماذا تفعل هنا؟** فقال متأتئًا **أرسلوني لأستكشف موقع العدوّ**، كان من الذعر بحيث شقّ عليه الكلام، فاحت من لهاثه رائحة البصل، سألته **أين هم رفاقك؟** فأجاب يائسًا **أنا وحدي**، **أيّها الكاذب هل تهزأ بنا أم ماذا؟** غرز أندريا سكّينه بشكل أعمق في تفاحة آدم النافرة في عنقه فأصبح شاحبًا، **أقسم لكما، أقسم أنّني وحدي كليًّا، توجّب عليّ معاينة الخطوط فتهت**، صدّقته لأنّ الجبهة انتقلت البارحة بعد الهجوم الذي حصل، كانوا يريدون أن يعرفوا أين انسحبنا تمامًا مثلما أردنا أن نعرف أين تمركزوا، طرحت عليه السؤال فقال **في الأسفل، في الجهة الأخرى من النّهر** ، جواب منطقيّ وحقيقيّ دون شكّ، سنصعد برفقة صيدنا، هذه السمكة ذات العينين الجاحظتين، هذا الصربيّ الذي انطلق للتجسّس علينا في الليل بمفرده، سألني أندريا بصوت خفيض **هل نذهب؟** وعندما نهضت لاحظت أنّ الصربيّ الذي أمسكنا به كانت لديه جربنديّة

حتى خاصرته، كيس من القماش، رزتها فحملق الجنديّ بعينين مذعورتين، فتحتها فوجدتها مليئة بمحفظات النقود المبقّعة بالدمّ وسلاسل الذهب وسلاسل الساعات وخواتم الزواج، كان نهّاب جثث إذًا، يسري في الليل ليجرّد الموتى الذين لم يتسنّ الوقت لدفنهم خلال النهار من كلّ ما يحملون، ولا زالوا مبعثرين في المنطقة المحظورة، ربّما كان جاسوسًا لكنّه عقاب ولا شكّ ذو نظرات مجنونة، سمعت البومة في البعيد، حاول الصربيّ أن يغافلنا ويهرب، سقط أندريا المسعور أرضًا وراح يشتم، ضغطت على زناد سلاحي على سبيل الارتكاس ومزّق دويّ رصاصتين الليل مصحوبًا بأنين موجع، اقتربت من الجنديّ كان يتلوّى في الوحل المتجلّد، أخذت جرابه وبندقيّته وقطع أندريا الغاضب له عنقه بضربة من سكّينه ثمّ مسحها بسترة الميت، **تعال لنصعد من جديد،** وصعدنا من جديد بمشقّة، كان أندريا يتأفّف ويشتم التشيتنيك، أصغيت إلى نعيق البومة، لا بدّ أنّها تحمل روح المتوفّى إلى هاديس، *trois jeunes tambours s'en revenaient de guerre* وثالثهم ينام في الأعلى كطفل، حتّى أنّه لم يستيقظ عندما خلدنا للنّوم بعدما عهدنا بغنيمتنا المشؤومة إلى أحد الضبّاط ومعها أسلاب الحرب وأوراق الموتى ومجوهراتهم، الموتى الذين لم يأت أحد لإجلائهم - قبل بضعة أشهر من ذهاب أندريا بدوره إلى الجنّهمات، لقي أندريا مصرعه وهو يتغوّط خلف غابة صغيرة على يدّ فرقة مسلمة ظهرت في المكان بصورة مفاجئة، توفي أندريا كما عاش بسخرية، سقط في غائطه كما سقط روبير والسر في الثلج مصابًا بثلاث رصاصات في الصدر قذفته إلى الخلف فجمد متمرّغًا بغائطه الذي كان ينزل ساخنًا من مؤخّرته، بنطاله منحسر إلى ركبتيه وسلاحه في يده، أنا واثق من أنّه كان يمزح بمفرده قائلاً

Za dom spremni، وهو يدفع غائطه إلى الخارج، أندي أشتاق إليك في أوّل الصبيحة في الضباب وأشتاق إلى طعم المعركة البرونزي، قلت له بصوت خافت لن تذهب للتغوّط الآن افعلها هنا إذا شئت *nećeš valjda sad da kenjaš*، فضحكْتَ لهذا الكلام كثيرًا أيّها الكرواتي الغبيّ العنيد المكابر، سبق لك وتقيّأت عليّ ذات ليلة شتائيّة، كان بإمكاني تحمّل غائطك كنت لأفضّله على اختفائك، أندريا أشعر بالغثيان إلى حدّ الإغماء، أضغط على الزرّ البلاستيكي الأسود فينبجس الماء على طول جوانب الفولاذ في مرحاض القطار العصريّ جدًّا، الماء كالشلال كجدول صغير يجرف معه كلّ شيء دافعًا ببولي عبر الطريق على عوارض المقطورة التي تجري بسرعة مئة وخمسين كيلومترًا في الساعة مدنّسًا توسكانا الأبديّة بلذّة هائلة

الفصل الثاني عشر

أعود إلى مقعدي، إلى قفصي المتحرّك وعيناي مغمضتان، ليس هناك من عمل يمكن القيام به كنت مرهقًا في حالة يرثى لها وكأنّني نصف سكران، عبثًا أفرغت مبولتي، عبثًا أحاول إقناع مورفيه[1] بحملي بعيدًا عن هذا القطار لبعض الوقت، واستعادة أندريا في حلم بطوليّ، أو ستيفاني في حلم إيروتيكيّ، أو حتّى رؤية كابوس مستوحى من آلاف الموتى في الحقيبة المحتوية على صور الرعب، أعيد فتح عينيّ من جديد، الكوبل المهتمّ بالكلمات المتقاطعة هادىء جدًّا، مستكين للغاية، المرأة تستند إلى كتف رفيقها، فيما هو يقرأ، عليّ أن أحذو حذوه، آخذ كتابي من جديد وأستعيد انتصار والفلسطينيّين الطوباويّين، أستذكر المرحلة التي كنت فيها طفلاً أنا وأختي حيث كنّا نمضي الوقت، خلال الرحلات الطويلة في السيارة، نلهو بأن نتكهّن بمصدر السيارات التي نلتقي بها وبوجهتها، تُرى من أين يأتي الرجل والمرأة اللذان يهويان حلّ الكلمات المتقاطعة الجالسان في الجهّة الأخرى من الرواق، وأين يذهبان، الأمر سهل جدًّا في القطار، أعرف أنّهما انطلقا من ميلانو ويتوجّهان إلى فلورنسا أو روما، لكن

(1) مورفيه، إله الأحلام في الميثولوجيا الإغريقيّة، إبن إله الليل وإلهة النّوم.

لأيّ هدف، أراهن أنّه أستاذ في تعليم شيء ما، أستاذ كمنجة ربّما، لديه رأس عازف على آلة الكمنجة ويذكّرني بأحد أصدقاء أمّي الذي كان يشاركها في عزف موسيقى الغرف، وأراهن أنّ مرافقته كانت تلميذته، أنا متأكّد من ذلك، لكن لديها بالأحرى هيئة عازفة قيثار أو مزمار، ترتدي سروالاً من الخمل المضلّع وقميصًا مزدانًا بالأزهار، شعرها طويل وغير مسرّح كما يفترض أن يكون شعر عازفة بيانو أو آلتو، مهنتي كجاسوس جعلت مني مراقبًا ممتازًا - غالبًا، ما كنت أستغرق في جادة مورتيبيه في مقرّي السرّي المظلم، مقرّ المعلومات الإستراتيجيّة أو المبتذلة، فأسهو عن المكان حيث أنا متواجد، تصبح إذ ذاك المهنة روتينيّة، فيها التحقيقات، والمقارنات، والفيشات، والخلاصات، والتقارير، والمراسلون، والمخبرون السريّون، والعملاء، والأصدقاء، والأعداء، والمصادر، والمناورات، والتكنولوجيا، كلّ ذلك يمتزج بسيرورة الأشياء الطبيعيّة اليوميّة، تصبح المهنة أشبه بمهنة موظّف الأحوال الشخصيّة عندما يدوّن باللامبالاة نفسها في السجل الضخم للأحوال المدنيّة الولادات والوفيّات والزيجات وحالات الطلاق والتبنّي والملاحظات الهامشيّة: شغف البدايات سرعان ما انمحى، كان ليبيان رجل المحار وداء الثعلبة على صواب، كان يقول لي وهو يحكّ جلده، **سوف ترى سوف يخفّ حماسك** كما تخفّ نوبة حكاك انتابتك، أفترض أنّ الفضول ولذّة التعلّم يزولان مع الوقت - في السنتين الأوليين من التحاقي بالوظيفة كنت مقتنعًا أنّ توظيفي كان خطأ وأنّ الإدارة سرعان ما تلاحظ الخطأ الذي ارتكبته، وأنّ ماضيّ وماضي عائلتي كانا يجرّدانني من أهليّتي كجاسوس في خدمة الجمهوريّة، وأنّ المسؤول في دائرة التحقيق التمهيدي التابع للأمن أساء القيام بعمله، على الرّغم

من الأشهر الثلاثة التي أجريت فيها التحرّيات الشتّى، وفصلت نتيجة المسابقة عن التوظيف، كنت أتساءل كيف استطاع المسؤولون في المكتب أن يوافقوا على إدخال عضو مشكوك في أمره على الصّعيد السياسي والعسكري، متعاطف مع الميول الفاشيّة والولاء للخارج، كان هذا أيضًا سرًّا إضافيًّا من أسرار معبد إيزيس حيث توجد ثكنتنا وحيث يلتقي المسارّون وحدهم، الكهنة، وأنصاف الآلهة، وعرّافو الظلّ، كم كنت ساذجًا - لا شكّ أنّ آلهة البولفار كتبوا لي هذا المصير، لا يجهلون أيّ شيء عنّي، على العكس، عندما يحين الأوان، سوف يستغلّون هذه السيّئات أو هذه الحسنات لصالحهم، مع الوقت تآلفت مع تلك العادة التي تفرضها طبيعة الوظيفة، نسيت أنّني كنت بيدقًا مثلي مثل الآخرين، في خدمة الآلهة المتخاصمة زوس وهيرا وأبولون وبالاس أثينا، بيدقًا مستخدمًا لإنجاز خطّة قاتمة كالغيوم المتكدّسة فوق الأولمب المنيع، تلك طريقة في أن أعزّي نفسي، أستطيع القول أيضًا إنّه جرى خداعي واستغلالي والتلاعب بي واستخدامي، لا شيء أكثر، وهذه الحقيبة نفسها المليئة بالوثائق المسروقة والتحقيقات التي لا تنتهي، سوف تكون تحت تصرّفهم، لا شكّ أنّهم خطّطوا للحصول على المعلومات التي تحتوي عليها، وحين يحتاجون إلى أيّة معلومة في داخلها فإنّهم سيحصلون عليها بأسهل الوسائل، لا يمكن النجاة بجلدنا، من المحتمل أنّه بالرغم من جميع الإحتياطات التي اتّخذتها سيكتشفون بسرعة هويّة إيفان دوروا ويضيفونه إلى ملفّي، لا أحد يعلم، قد يحتاجون بين لحظة وأخرى إلى فرنسيس الطيّب، إلى معلوماته، وسكّينه، وسذاجته، وربّما ذات يوم، بعد أن تكون ستيفاني قد تدرّجت في رتبتها إلى أعلى الهرم في جهاز الاستخبارات، ستسعى إلى الانتقام، سترضى عنها الآلهة وعندئذ ليس عليها إلا أن تطلب

منهم رأسي، وعندئذ يظهر المسخ البحريّ على شاطىء إيطالي خاص، في بور- هرقل على الأرجنتاريو على سبيل المثال سوف يدسّون لي مادّة مجهولة في صحن السباغيتي بصلصة الأصداف وسأفارق الحياة بعد ساعة غرقًا من شدّة البرودة في البحر المتوسّط، القبر الأزرق، في المكان نفسه حيث سقط كارافاجيو الخبير في قطع الرؤوس بلا حراك: ميتة كاملة لا عيب فيها وإيطاليّة خالصة (**سائح إيطالي توفي مخمورًا نتيجة سكتة قلبيّة بعد تناوله وجبة طعام، حينما كان يسير بخطى حثيثة إلى الخمسين، إيفان دوروا الذي كان في عطلة في قمّة جبل أرجنتاريو، يلتحق بلائحة المتهوّرين البائسين الذين لا ينتظرون مرور ثلاث ساعات على تناولهم الغداء ليسبحوا**)، هكذا ستدرج الجريدة اليوميّة المحليّة الخبر متوسّطًا خبرين عن المجتمع الراقي، ووفاتي لن تهزّ الكون بل خلافًا لذلك، سيجدون لي مكانًا صغيرًا على الجزيرة البيضاء عند مصبّ نهر الدانوب لكيّ يواروا جثّتي في التراب، هذا إذا لم تكن قد التهمتها أسماك الشبق وثعابين البحر، إلى جانب أندريا المروّض الكبير للخيول الأصيلة، وكفى! - أرغب في فتح الحقيبة لكي أطمئن نفسي، وثيقة ضمان على الحياة، كما يقال في أفلام الجاسوسيّة، ضمان مدى الحياة سوف أسدّده لكرادلة وفرنسيسكين محمومين، عملاء لدى المؤرشف الأكبر، أنهض، الحقيبة الصغيرة موثقة خفية إلى الحاجز الفولاذي لصندوق الأمتعة، لا جلد لي على إخراج المفتاح، بإمكاني أن آخذ كتاب رافائيل كحلة وأستعيد انتصار ومغامراتها اللبنانيّة، في القاهرة أثناء حضوري الإجتماع غير الرسمي للمتاجرين الشرفاء، كان نصف المشاركين قادمين من لبنان، وأنا نفسي كنت أصل من بيروت حيث صادفت سكرتير أغنى واحد فيهم، رفيق الحريري السمح القلب الذي يعشق طيور السمانى

المشويّة ولحم الحمل المدقوق النيء، الذي طمأننا بأنّه شريك معنا وهذه الشراكة تشمل الجانب المالي لقاء أعمالنا، بمثابة هبة لآلهة **المنطقة**، لترأف به اللبنانيّون الذين تواجدوا في القاهرة آنذاك ماتوا في غالبيّتهم باكرًا وقبل الأوان، إيلي حبيقة، جزّار شاتيلا، انفجرت به سيارته في 24 كانون الثاني 2002، مايك نصّار تاجر الأسلحة الكبير توفي في 7 آذار من السنة نفسها، وهكذا دواليك، كان غازي كنعان الغول العزيم يستقبل كلّ هؤلاء القتلى العتيدين في منزله على العشاء، في 22 كانون الثاني دُعي إيلي حبيقة إلى عند السوري ذي الملامح القاسية، فماذا قال له، لم يتحدّثا بالطبع عن الفلسطينيّين الذين قتلوا في مخيّمات عام 1982 على مرأى من الجيش الإسرائيلي، ولا عن الإسلاميّين الذين تحوّلوا إلى رماد على يد رجال السلطة في دمشق في السنة نفسها، ربّما تحدّثا عن الدعوى التي أقامتها بلجيكا بحقّ آريال شارون متّهمة إياه بارتكاب جريمة بحقّ الإنسانيّة، والتي استدعي إليها حبيقة بصفته شاهدًا، ربّما ابتسما لتلك الفكاهة التي أطلقها البلجيك بحقّ شارون، كان كلّ هذا بعيد الاحتمال تمامًا لكن من يدري - أراد السوريّون خصوصًا ألا يخسروا كلّ شيء، إثر عاصفة ما بعد 11 أيلول، وما أعقبها من اجتياح العراق، إضافة إلى التهديد الجديد الذي وجّهه بوش الساذج المتحمّس إلى دول الشرق الأوسط، كانت دمشق خائفة، مسكين حبيقة، الجميع كانت لديهم مصلحة في قتله، الفلسطينيّون والإسرائيليّون واللبنانيّون، ربّما من أجل هذا دعاه غازي كنعان إلى العشاء، داعبه مرّة أخيرة وكأنّه كلب عجوز مريض قبل أن يطلق عليه رصاصة الرحمة، يعرف أنّه سوف يضحّي بحبيقة قبل أن تتاح له فرصة الكلام أكثر ممّا ينبغي بسبب الضغوط التي ستمارس عليه من كلّ الأطراف، وكفى، هذا ما ندعوه في الروايات

التضحية ببيدق، أي في اللغة الجاسوسيّة إجلاء الوضع، (**سوف يتمّ إجلاء الوضع**)، هذه عبارة تعني احتماليًّا أنّ أحدهم سيختفي، في الوضوح الكامل الذي يستتبع انفجار سيّارة مفخّخة، حبيقة القائد اليقظ في قوّات الكتائب الخاصّة خلال الحرب الأهليّة، كانت لديه في صندوق سيّارته زجاجتان من الهواء المضغوط وقناع ومسباحان، كان يهوى الغطس تحت البحر، لسوء حظّه، وذات صباح وهو نازل من الحازميّة باتّجاه بيروت، انفجرت سيّارة مفخّخة قديمة على طريقه وانفجرت معها زجاجتا الغطس هما أيضًا وبقرتا المقعد الخلفي حيث كان إيلي حبيقة جالسًا فاخترقت جسده شظايا الفولاذ ونوابض الكنبة، وداعًا أيها الجزّار اللطيف الدبلوماسي جدًّا، لم يتسنّ له الوقت للتفكير بشيء قبل أن يغطّي الحجاب الأسود عينيه، وداعًا، لم ير ثانيةً القنابل المضيئة التي كان يرميها الجيش الإسرائيلي في أزقّة شاتيلا، في تلك الليالي من أيلول 1982، ثلاث ليال وثلاثة نهارات من الذبح بالسكاكين وإطلاق الرصاص من الرشّاشات لقتل الفلسطينيّين، فكم قتلوا منهم، لا يزال عدد القتلى مجهولا لحدّ الآن، ربّما كان يتراوح بين سبعمائة وثلاثة آلاف قتيل فلسطيني، حسب ما تقول المصادر، كانت الجثث تدفن سرًّا بواسطة البلدوزرات، طلب الجيش الإسرائيلي من جنود حبيقة إجلاء المخيّم من الإرهابيّين المتواجدين فيه، إجلاء المخيّم من الإرهابيّين الذين سيولدون، من الإرهابيّين الصاعدين، من الإرهابيّين المتقاعدين، ومن المنجبات المحتملات للإرهابيّين، هذا ما يتوجّب على اللبنانيّين حملة السيوف الطويلة أن يفهموه، جنود حزب الكتائب هؤلاء، الحزب الذي أنشأه بيار الجميّل الرياضي، المعجب بالنظام الفاشي والهتلري الذي اكتشفه أثناء الألعاب الأولمبيّة في برلين عام

1936، وسوف يستعير اسم حزبه من إسبانيا، تناغم متوسطي من جديد، بيروت وبرشلونة تتلاقيان كصورة طبق الأصل على محور روما برلين، من المؤكّد أنّ بيار الجميّل ذا الشعر المدهون كان يتخيّل لبلاده قدرًا إسبانيًّا، إنتصارًا للوطنيّين في أعقاب حرب أهليّة تعيسة ولكنّها ضروريّة، أرغب في القراءة من جديد عن انتصار والمقاتلين لكنّي أشعر بالنعاس من جديد ولا أستطيع متابعة القراءة، أسوّي من جلستي بشكل مريح أكثر، الساقان ممدودتان على المقعد المواجه، أكاد أخلع حذائي، وبعد كلّ حساب لِمَ لا ينتزع إيفان دوروا حذاءه هو أيضًا، في إحدى حافلات الدرجة الأولى، بالنسبة لي كانت التربية التي تلقّيتها صارمة جدًّا لدرجة أنّني أتساءل عمّا إذا كانت جواربي نظيفة وغير مثقوبة وأمتنع عن خلعه جرّاء شكّي، ماذا لو استيقظت عازفة الناي أو القيثار في الجانب الآخر من الرواق واكتشفت أنّ أبهام قدمي بارز من الجورب القصير المثقوب، سيكون الذّل كبيرًا، الحذاء الملمّع جيّدًا يخفي في داخله بؤس صاحبه، كما يخفي بنطالي سليبًا باهت اللون لكثرة الغسيل ومترهّل الحزام- عالم المظاهرمصنوع على هذا النحو، من يستطيع ادّعاء معرفة قريبه، كنت متفاجئًا جدًّا من أنّني وجدت صورة طفلة في حقيبة أندي، موضوعة بعناية بين صفحات الكتاب المقدّس الصغير الذي لم يكن يفتحه إطلاقًا، لأنّه كما يقول، يعرفه عن ظهر قلب، صورة فتاة صغيرة في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها، جديلتا شعرها بارزتان، وللحال شرعنا أنا وفلاهو نهزأ به، خطيبتك لا بأس بها، ورحنا نتقاذف الصورة وكأنّها كرة ولم يستطع أندريا الإمساك بها، (**هيّا يا شباب يكفي، أعيدا لي الصورة**) وازددنا هزءًا منه وأخذنا نطري على الحسنات البديهيّة لفتوّة الفتاة الموجودة في الصورة، عذريّتها الواضحة، جسدها المشدود،

أي جميع الكلمات البذيئة الذكوريّة التي خطرت ببالنا، وانفجر أندريا غاضبًا زاعقًا بكلّ الغضب المسعور الذي يقدر عليه، واضعًا يدًا على خنجره، لو كان مسلّحًا لدرزنا بالرّصاص في الحال، فلاهو الشهم ناوله في الحال الصورة وكأنّه تلقى أمرًا إلهيًّا، وعندئذ رأينا دمعتين تنحدران على خدّي أندي المسعور، داعب وجه الصبيّة وضمّها إلى قلبه ومن ثمّ وضعها بعناية في جيبه هذه المرّة وعندما رفع رأسه ابتسم، ابتسم وهو يقول هذه أختي يا جماعة المعتوهين، شعرنا بالصدمة والخجل، خجلنا لأنّنا أجبرنا أندريا على البكاء واكتشفنا ضعفه، خجلنا وكأننا نكتشف فيه عاهة فظيعة، خجلنا كما لو أننا اكتشفنا، رغمًا عنّا، أنّ عضوه صغير جدًّا أو أنّ لديه خصية واحدة، كان المحارب يملك مشاعر وقادرًا على البكاء، لم يكن حنان أندي قابلاً للفهم من ناحيتنا سيّما وأنّه لم يتحدّث قطّ عن هذه الأخت الصغرى بدافع الخوف، لأنّه هو نفسه كان خجلاً من عاطفته كما كنت خجلاً أنا نفسي من جوربي المثقوب وثيابي الداخليّة التي تشبه ثياب شريد ومن حياتي كمخبر أو شرطيّ ومن خوفي لأنّني كنت جبانًا وتخلّيت عن ستيفاني، وماريان، وأمّي، أشعر بهذا الثقل الذي ترميني به قلّة حيائي اللامتناهية، قلة حياء فرنسيس الجبان الذي يحاول اليوم أن يكفّر عن ذنوبه من خلال حقيبته واسم مستعار، في روما مدينة التّسامح الكبير والتّساهلات، أو بالأحرى في ضواحي براتو، فنحن تقريبًا في فلورنسا، مدينة براتو مسقط رأس كورتزيو مالابارت القلق - مالابارت الصحافي الفاشي سابقًا، المتحرّر من الوهم، مالك أحد أجمل المنازل في العالم في كابري، دفن في مسقط رأسه على بعد خطوتين من هنا، بصفته توسكانيًّا صالحًا وليس بالقرب من دارته في الجزيرة النابوليتيّة البديعة المتوازية الأسطح والدرج

الهائل الممتد أمامها بين البحر والصخور، حيث الله وحده يعرف كيف استطاع غودار أن يصوّر فيلمه **الاحتقار** - كانت بريجيت باردو تستحمّ عارية في الخليج عند أسفل الدرجات وفريتز لانغ يدور من حولها حائرًا وميشال بيكولي يدخن، وأتخيّل جورج دولورو على السطح، المطلّ كالشرفة على المنظر الرائع، منصرفًا إلى العزف على الفيولونسيل في هذا المنزل المحتشم جدًا، يعيش الثنائي بيكولي وباردو تمزّق علاقتهما في عزّ تصوير **أوليس**، فيلم فريتز لانغ داخل الفيلم، وعندما يلمح المحارب اللبق إيثاق البعيدة من على سفينته المجوّفة، إنّها دارة كورتزيو مالابارت في كابري، الضائعة وسط الأمواج وكأنّها زورق، كان كورتزيو مالابارت يدعى في الواقع كورث سوكرت، والده كان ألمانيًا، تجنّد كورث الشاب في سنّ السادسة عشرة وشارك في الحرب العالميّة الأولى، لدى عودته من الحرب، شغف بـ«الثورة الإجتماعيّة» التي كانت تروّج لها فرق العمل، هؤلاء المليشياويّون الأساسيّون الذين كانوا يعذّبون رجالات اليسار بتجريعهم زيت الخروع حتّى تفرغ أحشاؤهم من محتوياتها: أصبح مالابارت أحد أوائل المنظّرين للفاشيّة قبل أن يخيّب موسوليني أمله منذ 1928، مالابارت المتحرّر من الوهم أصبح صحافيًا بارزًا، وعمل بصفته مراسلاً خاصًا في صحيفة *Corriere della sera* لدى قوّات المحور، في كرواتيا، وفي بولونيا ثمّ على الجبهة الروسيّة، في عام 1943، حاور أنتي بافليتش الكرواتي، ويروي في بداية روايته *Kaputt* أنّ الفوهر السلافي ذا الأذنين الضخمتين كان رجلاً مهذّبًا ودودًا بالأحرى، محتشمًا للغاية، كاثوليكيًا ورعًا، وكانت لديه في مكتبه سلّة مليئة بالمحار من دون أصداف، ظنّها مالابارت محارًا من دلماتيا، لكن اللعنة على المحار، أجابه بافليتش، إنّها هديّة قدّمها له الأوستاشي،

أربعون ليبرة من العيون البشريّة، لزجة داخل خلطها، شبه مسحوقة الواحدة فوق الأخرى، مئة عين صربيّة مهداة إلى رئيس الوطن الظافر، يسرد مالابارت هذه القصّة في إحدى الروايات، هل هي صحيحة، وما أدراني، في جميع الأحوال هي صحيحة للعديد من الصربيّين ولعدد لا يستهان به من الغربيّين، يبدو أن مالابارت أنكرها على فراش موته، وهذا يبدو لي بعيد الإحتمال، على أيّة حال لماذا نحرّض على سمعة الديكتاتور بعد موته!؟ مئة ضحيّة بم يمكن أن تضير سمعته مثل هذه التّهمة ؟ وهذه العيون المفقوءة يمكن أن تكون آذانًا أو أنوفًا أو خصًى أو وثائق ميلاد فماذا ستزيد أو تنقّص ؟! الأمر سواء، البورتريه الذي رسمه مالابارت هو ولا شكّ واقعي بما فيه الكفاية، بافليتش الرجل المتكتّم البسّام الودود المثقّف كان يترأّس عصابة من المجرمين، سواء أعجب هذا البعض أم لم يعجبهم، لقد أمر باعتقال أعداء الشعب الكرواتي وحكم عليهم بالموت أبشع ميتة، لم يكن بالضرورة معاديًا للساميّة ولا معاديًا للصّرب في العمق، كان بالضبط برغماتيًّا، تلك البراغماتيّة السيلينيّة[1] التي ميّزت الثلاثينيّات والأربعينيّات من القرن الماضي وتقضي بأن تستدعي كلّ مشكلة حلًّا، وأن يجد كلّ سؤال جوابًا، لكلّ معضّلة شيطانها، فاليهود والصرب والشيوعيّون والفاشيّون والماسونيّون والمخرّبون كلّهم كانوا يفتّشون عن حلّ لمشكلتهم بطريقة حاسمة بمعونة هذا أو ذاك، وكان التابعون لهم يسعون خصوصًا للإثراء، لقد سعى غلوبوتسنيك نازيّ تريستا، وكذلك ليوبو رونياس المنفيّ البلنسيّ إلى ملء جيوبهما من الغنائم التي أمكنهما أن يسلباها من الموتى، لم يكونا عقائديّين، فقط نهّابان ظريفان خبيران في

(1) نسبة إلى لوي فردينان سيلين الروائي المعروف وكان مناصرًا للنازيّة.

سلب الجثث من مستوى رفيع، سمّما بالغاز وقتلا بالسلاح ما يزيد على مليون رجل وامرأة، والعيون التي تحدّث عنها مالابارت ليست إلا النظرة الدّبقة لكلّ هؤلاء المفقودين الذين تعرّضت أجسادهم للتشويه وجثثهم للنهب، كورتزيو مالابارت المتقلّب الملتبس الذي انتقل من الفاشيّة إلى الكلبيّة فالمقاومة فالشيوعيّة ومن ثمّ إلى حضن الكنيسة الكاثوليكيّة الرسوليّة الرومانيّة الدافىء في أحد قبور براتو المدينة التوسكانيّة الجميلة التي يعبرها القطار سريعًا، أهديت روايته ***Kaputt*** إلى ستيفاني، كانت تكشيرتها تقول الكثير عن رأيها بهذا النوع من الأدباء، كيف أجرؤ أنا الفاشيّ الجديد عديم الثقافة على إهدائها كتبًا، لم يكن لديّ حظّ في أن أكون مقبولاً في حلقة الثقافة التي تنتمي إليها، ستيفاني التي كانت مولعة بي مع ذلك لم تكن تتحمّل ما كنته، شخصًا بدأ القراءة متأخّرًا، لأنّه ضجر، يائس، شغف، وربّما لأنّها كانت غيّورة وتنظر بتعجرف إلى قراءاتي، كانت تطمح لأن تجعلني أنضوي تحت لوائها، كان عليّ أن أدرس، وأجري امتحانًا لكي أترقّى، وكانت لا تكفّ عن طمأنتي **نجحْتَ في العلوم** السياسيّة سيكون بإمكانك إذًا النجاح في الإمتحان الحصريّ للموظّفين الذي هو امتحان شكليّ، فكّرت عندئذ خفية أنّه يجب أن أصالح بروست وسيلين وأنّه عليّ دفعة واحدة أن أشعر بالنشوة الجنسيّة وأنا أغمس الكراوسان في القهوة وأن أصبح طبيبًا، أفضّل ليبيان ودرّاجته ومحاراته، صحيح أنّ وظيفتي على صعيد الأجر كانت ثانويّة لكنّي كنت في وضع جيّد، كنت على وشك أن أكرّس نفسي للشرب، والحزن، ومذكّراتي، وأشباحي، بالطبع لم أكن أنتمي إلى عالم المفكّرين الكبار مثلها، وبالطبع لم يكن لديّ هذا الشعور اللذيذ بكوني أراقب الكوكب، أو قطعة منه على الأقلّ، راسمًا خططًا لإمكانيّات التطوّر

المنظورة، وأخيرًا لم يكن بإمكاني أن أحظى بكلّ الأبّهة التي يمنحها استشراف المستقبل واستباق الأمور في عالم من الناسخين، وهذا الوهم بالإمساك بالقرار، كان لديّ ما يكفي من التجربة لأعرف أنّ هناك دومًا سلطة تعلو أخرى، وجنرالاً في الجيش يعلو جنرال الفصيلة، أو العكس، لم أعد أعرف، لكنّ ستيفاني، بصفتها امرأة مضطّلعة بمسؤوليّات كثيرة وسط عالم ذكوري بشكل يفوق العادة، لم يكن باستطاعتها أن تفهم أنني أتخلّى عن كلّ شيء قبل أن أرتقي سلالم مركز المخابرات، هي التي، منذ سنّ السابعة والعشرين تنتقل بين ديوان وزير الدفاع والمدراء والمسؤولين في فروع الإليزية أو وزارة الداخليّة، لا أعرف بالضبط المهمّة التي تتولاها - كانت ستيفاني تشعر أنّها فقيرة، وكلّما اكتشفت العالم الأعلى مرتبة، بدت لها مداخيلها ومواردها متواضعة، فيما أنا، جرّاء العلاوات المختلفة والمتنوّعة التي كنت أتقاضاها، كان لديّ الإنطباع دومًا بأنني غنيّ، فأنا مستأجر لشقّة من غرفتين تحت السطح، حجمها لا بأس بها، ولديّ ثلاثة قمصان ورزمة من الصور ومسدّس زاستافا طراز 1970 من دون قادح لكيّ لا أقع في تجربة استخدامه، لم أكن أحرم نفسي من شيء، كانت تمضي وقتها وهي تسألني لكن كيف تتدبّر أمرك؟ كيف تتدبّر أمرك لتسدّ حاجاتك على الصعيد الماديّ؟ لم تكن لديّ أدنى فكرة، بالنسبة لستيفاني المال شيء يدخّر ويكدّس ويخزّن ويودع في المصرف لأجل غير مسمّى، لأيّ هدف، الله أعلم، كانت متملّكة منذ ذلك الحين شقّتها وتسدّد عنها كلّ شهر مبلغًا كبيرًا للمصرف وتجد في الوقت نفسه وسيلة لتقتصد - كنّا عاشقين لا يفترقان كمثل أعمى أورشليم والكسيح، ترى بدلاً منّي وترشدني في الظلام وأنا أحملها أو العكس، كلّ منّا يجد ما ينقصه لدى الآخر، الجانب المفقود وهذا الانجذاب

للنقصان كان قويًّا مثل المادّة المضادة المنذورة للدمار والانفجار والصمت الكبير، علاقتنا أشبه برواية عاطفيّة حقيقيّة، يبدو أنّ الحبّ هو أحد ثوابت الأدب العالمي - ومهما بدا الأمر غريبًا فإنّ هذه العبارة بالذات اقتبستها من ليبيان عاشق الحلازين والدرّاجات، الرجل القادر على إرسال إحتياطيّ من المشبوهين إلى غوانتانامو وعلى التهام دزّينتين من المحار، حدّثني ذات مرّة عن الحبّ في مقصورته الواقعة في الضواحي (ربّما تخيّلتها مقصورة في الضواحي فيما كان يسكن فعلاً شقّة فخمة فسيحة الأرجاء في رصيف فولتير) لكن لم يكن يقصد نفسه أو يقصدني أو يقصد السكرتيرة، بل مسلسل **البؤساء**، كان يتابع بانتظام وبمتعة مسلسلاً مقتبسًا عن الرواية على شاشة التلفزيون، ويعقّب في كلّ صباح على سكنات الشخصيّات وحركاتهم وكأنّ الأمر يتعلّق بالنسبة له بتشويق فعلي، كان ليبيان يجهل بصدق نهاية البؤساء ويقول فرنسيس، فرنسيس البارحة ماريوس قبّل كوزيت، أو شيئًا من هذا القبيل وعندئذ كنت أجيبه، **آه إنّه الحبّ يا سيّد ليبيان** وعندئذ بادرني بالجملة التالية **الحبّ أحد ثوابت الأدب العالميّ يا فرنسيس**، ما أسكتني عن الكلام، عليّ أن أعترف، لم تخطر لي الفكرة من قبل، وليبيان ليس مخطئًا البتّة، رافائيل كحلة يتحدّث فعلاً عن الحبّ، بين بيروت وطنجة، في كتابه الأنيق، قصّة عشق فلسطيني بين المحاربين ذوي الأحذية الضخمة الثقيلة، ماذا صار بحال انتصار النبيلة، أين كنت وصلت، قرّنت طرف الصفحة، هنا:

الفصل الثالث عشر

الآن، توفّي مروان، جسده يسودّ تحت شمس بيروت قرب المطار، على مسافة أقلّ من مئة كيلومتر عن مكان ولادته.

أحمد، وجود أحمد بالقرب من مروان يثير في نفس انتصار الاضطراب. أحمد القاسي القلب، أحمد الجبان: ماذا كانا يفعلان سويّة؟ منذ الحادثة باتت تجمعهما قضيّة مشتركة وحقد بارد، إلا أنّها حين رأت أحمد للمرّة الأولى أحسّت بارتعاشة غريبة في داخلها. كان ذلك منذ سنة على خطّ الجبهة فيما كان بعض المقاتلين عائدين من الجنوب. كان أحمد محمولاً على الأكتاف تقريبًا. كان جميلاً مكلّلاً بالمجد. تسلّلت فرقة من الفدائيّين إلى المنطقة الأمنيّة، وواجهت وحدة من الجيش الإسرائيلي مدمّرةً إحدى آلياتها. مروان نفسه أعجب بشجاعتهم. شدّت انتصار على يدّ أحمد وهنّأته. الرجال يتغيّرون، الأسلحة تغيّرهم، الأسلحة والوهم الذي تحدثه في نفوسهم، والسلطة الزائفة التي تمنحها حيازة السلاح وما يستتبعها من تضخيم لقدراتنا.

ما فائدة السلاح الملقى على ركبتيها كمولود جديد؟ ماذا ستنال بفضله، ثلاث زيتونات وأربعة حجار، أم كيلو برتقال من يافا؟ ربّما الانتقام الذي يشفي الغليل ويمنح العزاء.

الانتقام للرّجل الذي أحبّته، ثمّ تستنفد الهزيمة وتغرق المدينة في البحر وتختفي.

* * *

- مرحبًا يا شباب.

- أهلاً يا أحمد.

أجابه لاعبو الورق.

أحمد يلفّ ذراعه بمنديل، يبتسم، لم ير انتصار، يهنّئه حبيب على خروجه من المستشفى، وبحركة من رأسه، يلفت انتباهه إلى المرأة الجالسة أرضًا.

تشعر بغصّة في حلقها.

يقترب أحمد منها. تنهض. يشخص إلى عينيها بحزن.

- انتصار.

تظهر على وجهه علامات الأسى وهيئة المحزونين.

- انتصار، لا يمكن القيام بأيّ عمل.

تشعر بالدموع تنهمر من عينيها لكنّها تسعى لأن تضبط أعصابها فهي مقاتلة، والمقاتلون يجب ألا تظهر علامات الأسى على وجوههم.

- ذهبنا في جولة استطلاع، إلى الجهّة الأماميّة بالضبط. كانت إحدى دبّاباتهم مختبئة خلف الجدار ومحرّكها مطفأ، كان الفجر قد طلع لتوّه، درزونا بالرشّاش فسقط مروان وأصابتني شظيّة. أحدثت في أنحاء من جسدي خدوشًا طفيفة والحمد الله، هو كان كان في مرمى التصويب هل تفهمين؟ من المستحيل انتشال جثّته من هناك.

بقيت باردة كالرّخام.

- والآن؟ والآن؟ هل تعتقد أنّه من الممكن سحب الجثّة؟

- لا أعرف، لا أعرف. نقلوا الدبّابة في الحال ولا شكّ، لكن.

- هذه الليلة؟

- تريدين   تريدين رؤيته؟

- كيف السبيل إلى ذلك؟

- ربّما كان بإمكاننا مشاهدته من هناك. حبيب، هل تعتقد أنّني أستطيع أن أصعد وانتصار إلى السطح؟ الهدوء يخيّم الآن، أليس كذلك؟

افترّ حبيب عن ابتسامة مألومة وقال: نعم، إذا شئتما لكن كونا حذرين. إذا شاهدوكما فسيعتبرونكما قنّاصة ويقصفوننا بكلّ تأكيد. احذرا من انعكاسات الأسلحة والمناظير. حسنًا؟

أحسّت بألم في معدتها. هل بسبب الجوع أم السعي لرؤية الجثّة في شمس بعد الظهر، تساءلت عمّا إذا كان حبيب يعلم أنّه يمكن رؤية مروان من سطح المبنى، محتمل، إنّها الهزيمة. لم يعودوا يذهبون لإجلاء الجثث، لم يعودوا يريدون رؤيتها. وضع أحمد منظارًا حول عنقه، تركته يصعد قبلها لأنّها تعلم أنّه سوف يمعن في تأمّل ردفيها في بنطال القتال عند كلّ مناسبة. ويستغلّ الفرصة للنظر إليها شرزًا. الأمر الذي كان يغضب مروان، أحمد لا يستطيع أن يشيح نظره عن مؤخّرتها. الصعود معقّد، للوصول إلى الطابق الأوّل يجب الخروج من المبنى والدخول إليه مجدّدًا عبر فجوة أحدثها صاروخ لجهّة قفص الدرج، الدرج الذي لم يعد موجودًا وتراكمت مكانه تلّة

من الأنقاض والحطام وأسند إليها سلّم مخلّع. يصعد أحمد فتتسلّق السلّم بدورها. يمدّ لها يده لكي يساعدها فتتصرّف كما لو أنّها لم تره، ومن ثمّ تستوي بقفزة على سفرة الدرج فهي امرأة رياضيّة، وللوصول إلى الطابق الثاني لا بدّ من القفز فوق الدرجات الخمس أو الست الأولى المدمّرة، عليها رفع ذراعيها. ومرّة أخرى يقترح عليها أحمد مساعدتها. لا تريد أن يلمسها. تقفز جاعلة حوضها على مستوى الدرجة فهي تملك لياقة بدنيّة. أخذت تتعرّق في بذلتها العسكريّة لكنها لا ترغب في خلعها والبقاء في التيشيرت، مع أنّها تحت التيشيرت ترتدي درعًا عفيفًا، حمّالة نهديها سميكة وكأنّها صدار، تكتفي بفتح زرّين من السترة. سفرات الدرج الوسطى سهلة البلوغ لكنّ السفرتين الأخيرتين مدمّرتان حتى ثلاثة أرباعهما، السقف متداعٍ في قسم كبير منه ويجب تسلّق كتل الأسمنت المنحنية ومحاذرة قضبان الحديد البارزة منها. وطأة الشمس لا ترحم. والغبار والجهد والحرارة المرتفعة تشعرها بعطش رهيب. حلقها جافّ تماما. لا تتوصّل إلى التلفّظ بحرف واحد. يزحفان سالكين ممرًّا على السطيحة المزدحمة بالأنقاض والرّصاصات الفارغة. الشمس تجعلهما ملتصقين بالإسمنت. من حولها بيروت تتفتّت ، إلى اليمين البحر الزئبقيّ وأرض المطار البور، إلى اليسار تلمح المدينة الرياضيّة ومخيّم شاتيلا. في الأمام أزقة مدمّرة متلاصقة، مقسومة إلى أربعة بشارعين كبيرين غطّتهما السيارات المحترقة والنفايات والبقع القاتمة وكأنّها برك زيت، إنّه الشارع المرصوف بالحجارة التي ذوّبتها القنابل الفوسفوريّة. هذا ما تبقّى من المدينة. الآثار المتداعية، الأنقاض، غبار النجوم. وفي الوسط جثمان مروان.

اقترب أحمد إلى أقرب مسافة ممكنة من زاوية السطح

وأخرج منظاره من غمده. تفحّص ساحة المعركة لجهة الجنوب. اقتربت انتصار منه حتّى كادت تلامسه بالرغم من نفورها منه. تجمّد أحمد. همس في أذنها: انظري هناك المواقع الاسرائيليّة. دباباتهم مختبئة في هذه الأزقّة من هذه الناحية. عند زاوية الشارع الرئيسي بإمكانك رؤية مروان.

ارتجفت. رغبت فجأة في التبوّل. لا تعرف ما إذا كان عليها أخذ المنظار الذي يناولها إيّاه أحمد. الشمس باتت خلفها، هما عكس النور، لا يمكن للإسرائيليّين أن يتنبّهوا لوجودهما. تنظر. تغشى عيناها الدموع أو ربّما قطرات العرق. لا ترى شيئًا وتمسحها بكمّ سترتها. الصورة غير واضحة، مشوّشة، سريعة، جدار من الاسمنت، مصباح شارع ملتوٍ. تصوّب المنظار. تخاف من اللحظة التي ستظهر فيها الجثّة قريبة جدًّا في العدسة على أحد الأرصفة. تستطلع بعينيها الشارع الذي أشار إليه أحمد. تستشفّه. تتجاوزه. ترجع إلى الوراء. يزداد طعم المرارة في فمها. تشعر بالغثيان. إنّه مروان. تظهر فقط ذراعاه الممدودتان ووجهه المستدير إلى الجهة الأخرى وشعره وظهره المسودّ. ظهره مسودّ. بقعة قاتمة كبيرة على سترته. الذباب يحوم فوقه. إنه هو فعلاً، ميت فعلاً. لا تبكي. تأخذ المنظار من جديد وتنظر إليه مرّة أخرى، ثمَّ، في ذهنها، تتفحّص الطريق لتعاين كيفيّة الوصول إليه. عبر هذا الشارع بالذات، ثم إلى اليمين، ثم إلى الشمال خطًّا مستقيمًا، وعندها ستصل بالضبط إلى الزاوية التي سقط فيها. ترسم في ذاكرتها صورة الطريق بالعين المجرّدة، ثلاثمئة متر تقريبًا. المصباح الملتوي كأنّه شجرة تشير إلى الطريق. ثلاثمئة متر ليست بشيئ. يمسح أحمد عدسة المنظار بعناية بخرقة وسخة. تتراجع انتصار وتعود إلى ملجأ السطح زحفًا وأحمد يتبعها. ينظر إلى ساقيها

وردفيها يلتويان. فخذ تبتعد عن الأخرى، السروال الملطّخ بالعرق. لا يشغل بال انتصار إلّا مروان. إنّها الساعة الرابعة وها قد مرّت اثنتا عشرة ساعة على مقتله، تفتّش في ذكرياتها عن حالة الجثّة بعد مضي اثنتي عشرة ساعة عليها متروكة في الشمس. ذباب على الدم المتخثّر، على الفم إذا كان مفتوحًا، على العينين إذا كانتا مفتوحتين. جثّته المتصلبة لم تبدأ بعد في التراخي. وفوق ذلك، يفترض بظلّ الحائط أن يحميه قليلاً. تفيض الدموع من عينيها. ترغب فجأة في أن تصرخ مروان، مروان، مروان، تواصل نزول الأدراج بأقصى سرعة ممكنة، تخدش معصمها بحديد الإسمنت وتكاد تلوي كاحلها وهي تقفز بين الأنقاض. يتبعها أحمد بمشقّة، بصمت. حين وصلت إلى الأسفل عادت لترتمي قرب لاعبي الورق وتتهاوى في إحدى الزوايا. تشعر بالحرّ. تشعر بالعطش. ترتجف من شدّة الألم. مروان كلمة الهزيمة الأخيرة. مروان جثّة المدينة التي تسقط.

* * *

منذ عدّة أيام، في غرفة الشقّة المصادرة التي كان يسكنها في الحمراء، كان مروان لا يزال يقول: في عام 1975، كادت الأماني أن تتحقّق، كان اليسار اللبناني إلى جانبنا بطريقة لا شبهة فيها، وسوريا نفسها، وكنّا نعتقد، أنَّ الخونة الوحيدين هم الأردنيّون والمصريّون ربّما. كان احتلال الضفّة الغربيّة لا يزال حديث العهد لكن ليس بشكل محتّم، ذلك أن حرب تشرين أظهرت أنّ إسرائيل ليست الدولة التي لا تُقهر، وأخذ العالم يقيم وزنًا للقضيّة الفلسطينيّة، كانت بيروت جميلة، تضجّ بالمفكّرين الماركسيّين والشعراء، وبالأوروبيّين اليساريّين الذين كانوا يرتدون الكوفيّة ويسكرون في حانات

الحمراء، آنذاك انطلقت العمليات الفدائيّة المظفّرة في الجنوب في وقت توفّرت فيه الأموال والأسلحة السوفياتيّة ورجال المقاومة المدرّبون على استخدام الأسلحة. هل تتصوّرين أنّه كان بإمكاننا ربّما تحرير البلاد؟ وفقًا لمقاييسنا كان انتشار الآلاف من جنودنا يبدو لنا أمرًا عظيمًا. وكان الأمر كذلك. وكانوا كذلك بالنسبة لسكّان المخيّمات واللبنانيّين المؤيّدين لنا. وكانت الصراعات الداخليّة والخصومات بين الفصائل في حدّها الأدنى. بتنا نشعر أننا أقوى من أيّ وقت مضى. انظري اليوم. نحن محاصرون، مخدوعون ومدينتنا الأخيرة تحوّلت إلى أنقاض. اللبنانيّون يقتلوننا، العالم العربي يريد اقتلاعنا وكأنّنا دمّلة، يريد رمينا في البحر لا نعرف إلى أين. إذا رحلنا الآن فلن نعود أبدًا، انتصار صدّقيني. إذا سقطت بيروت ستكون فلسطين حديقة اسرائيليّة ونحن في أفضل الأحوال، حيوانات داخل زرائبهم، يجب القتال. من هنا، يمكن رؤية مدينة الجليل، الإحساس بها. إنّها هنا. شعبنا هنا. أفضّل الموت في بيروت بدلاً من التعفّن ببطء على صخرة في المتوسّط.

مروان يتعفّن الآن عند أحد المفترقات. مروان لم يتزوّجها. وانتصار لم تضطر لسؤاله عن السبب. قال لها: هل تريدين أن أنجب أولادًا يعيشون في مخيّمات بائسة عرضة لقذائف الكتائب؟ كانت ترى الأمل في الأطفال. تحلم بإنجاب مقاتلين. أمّا بالنسبة له فالأمل هو القتال، والكفاح المسلّح. الهزيمة جعلت مروان يلتحم بأرض بيروت ويسقط قتيلاً. تحبّ شهامة مروان وسخاءه. حاربا سويّة لسنين وبفضله أصبحت مقاتلة. الجميع يعرفها ويحترمها. تضع رأسها بين يديها وتبكي. يأتيها حبيب بزجاجة ماء، دون أن ينبس بكلمة. تشرب، بذلة

القتال مبلّلة بالعرق والدموع ولن ترى مروان ثانية. يجب أن تراه من جديد. البارحة ذهب بعد الظهر إلى المركز. كان القصف قد هدأ، قبّلها بعذوبة على شفتيها ورغبت في ضمّه إلى صدرها بشدّة والتشبّث به حتى تروي غلّتها منه. داعبته. ضحك. قبّلها مرّة أخرى ورحل.

تنهض انتصار فيما أحمد وحبيب والآخرون يلعبون بالورق وهم يتحدّثون عن المفاوضات الجارية. إشاعات كثيرة عن وجهات نظر محتملة. أين سيكون مقرّهم الجديد في أيّ مكان سيلعبون بالورق وإلى متى؟ تتساءل انتصار فجأة عمّا إذا كانت لديها رغبة في الرحيل معهم: دون مروان. إلى وجهة مجهولة. ولأي هدف ستقاتل بعدئذ؟ سيكون هناك متّسع من الوقت للإجابة على هذا التساؤل. الآن تشجّعي. عليك إقناعهم بالذهاب لإجلاء الجثّة.

اقتربت من جماعة لاعبي الورق. أحمد يشخص إليها. لا تعرف ما إذا كان في نظراته تعاطف أم شبق. أم كلاهما معًا. قالت:

- س. سأذهب للإتيان به.

تنّهد حبيب. حملق أحمد بعينيه والآخرون تركوا لعب الورق.

- انتصار، انتظري. لا يمكنك الذهاب إلى هناك بمفردك. سوف نذهب هذه الليلة.

بدا حبيب مقتنعًا بمرافقتها. لم يحاول أن يرفض أو يذكّر بمخاطر الرحلة حتى.

فجأة حلّقت طائرة على علوّ منخفض ومزّقت بدخانها زرقة السماء ثم حلّقت أخرى. نهض اللاعبون.

قال أحمد:

- ها هم يعاودون الهجوم.

على مسافة أكثر من أربعمئة متر في الثانية يجتازون فلسطين ولبنان في وقت قليل. بضع دقائق وتكون الأجهزة الإسرائيليّة قد انطلقت من قواعدها في النقب أو في تلّ أبيب. لتحلّق في سماء لبنان. انفجرت قنبلة أولى، خلفهم في البعيد. الفوسفور يحترق عند احتكاكه بالهواء لمدّة ساعات والجراح التي يحدثها مرعبة، وتهلك صاحبها على الفور.

إنّهم قريبون جدًّا من الخطوط الإسرائيليّة، أقرب من أن يجازفوا بأيّ شيء كان، تتذكّر القصف الأوّل في بداية الاجتياح، عشرات الضحايا يحترقون. مستشفى غزّة، الكثير من الاطفال المحترقين بشكل مرعب. لم يكن الأطباء يصدّقون ما يرونه - الفوسفور، كيف السبيل إلى معالجة حروقه. كانوا يرجعون إلى الكتب ليهتدوا إلى سبل معالجتها. إنّهم يحتاجون إلى سولفات النحاس وليست تلك المادّة متوفّرة لديهم. عندئذٍ لم تعد لديهم من وسيلة سوى مراقبة الأيدي أو الأقدام تذوب حتى تختفي. ثم إنّ المستشفى قصف وتحوّلت بعض أجزائه إلى رماد. ثم حصلت معركة خلدة. ثم معركة المطار، ثم توقّف إطلاق النار، ليبدأ الحصار، مع استمرار بعض المعارك القليلة، والآن توفّي مروان.

لكنّ هذا لا يمنع الإسرائيليّين من رشق المدينة المتهاوية ببعض القنابل من وقت لآخر. إنّها كالشمعة ترتعش في مهبّ الريح. من المزرعة إلى الحمراء مرورًا بالروشة، بيروت الغربيّة مخيّم لاجئين هائل، مستشفى ميداني ضخم. هؤلاء الذين هربوا من الجنوب اختلطوا بنازحي الفاكهاني، وشاتيلا، وبرج البراجنة، والأوزاعي الذين تحوّلت منازلهم إلى أنقاض. لم

يعد هناك لا ماء ولا كهرباء ولا وقود لمولّدات الكهرباء. لم يعد هناك أدوية ولا مؤن. الاستراحة الوحيدة هي في الليل عندما تتزامن انتعاشة الهواء النسبيّة الآتية من البحر مع توقّف القصف وتظلّ حتى ساعات الصباح الأولى. في الغرفة الموجودة في تلك الشقّة في الحمراء، في الأيّام الأخيرة، كان هذا هو الوقت الذي يمارسان فيه الحبّ، بصمت، لكي لا يزعجا أحدًا، والنافذة مفتوحة لتدخل منها نسمات الهواء العليل. أربعة أيّام؟ أربعة أيّام هادئة خلال المفاوضات بين عرفات والأميركيّين. استراحة، مجرّد وقت ميت قبل السقوط المحتّم.

قال أحمد:

- ها هم يعاودون القصف.

أحدثت القنبلة الثانية دويًّا قريبًا، سمعوا أزيز الطائرة الحادّ التي تحاول الإفلات من طلقات المدافع المضادة. تتساءل عن قدرة سائقي الطائرات على تدمير أهدافهم بدقّة من علوّ مرتفع. لا بدَّ أنّهم يرون حتى حدود دمشق، ما وراء الجبال. يبدو أنّه عندما اختطفت ليلى خالد طائرة ال **TWA**، أجبرت سائقها على الطيران فوق حيفا، لكي ترى الجليل من هذا العلوّ. مروان أخبرها ذلك. لن يرى فلسطين مطلقًا، هل لا زالت فلسطين موجودة، على أيّة حال لا تعتقد أنّه يوجد في فلسطين مدينة بجمال بيروت، شتاءً، عندما نلمح الثلج على صنين من الكورنيش. حيفا مدينة غارقة في البحر كبيروت في الروشة أو الرملة البيضاء. مدينة فيها منارةٌ، وتلالٌ، وفنادقٌ، ومحالٌ، ومقاهٍ ومطاعم وصيّادو أسماك، وعشّاق على الشاطئ، وحانات ليلية، ومواخير، وجامعات، وسياسيّون وصحافيّون لا يُحصى عديدهم وموتى ضاقت بهم القبور. ماذا

ستفعل بجثمان مروان، سوف تنزع عنه ثيابه. سوف تغسله بنفسها. سوف تدفنه. ولو لم يكن الدين يحظّر ذلك لكانت جهّزت له محرقة كبيرة وأحرقت جثّته عند الشاطئ، مثل منارة. سوف تنظر إلى مروان يتناثر دخانًا في سماء الصيف ويعبر أجواء فلسطين مع الطائرات الاسرائيليّة المغيرة. لكن لا، سوف تدفنه في الأراضي اللبنانيّة. في قبر مرتجل ومؤقّت مليء بجثث الفلسطينيّين. لمن تنتمي الأرض في جميع الأحوال؟ للفلاحين والموتى.

- قنبلة أخرى، قال أحمد.

هذه المرّة أحدثت انفجارًا هائلاً. ارتجّ المبنى وغطّاهم الغبار. صوت القنبلة والاهتزازات الناتجة عنها رمت انتصار على الأرض. أذناها تصفران. تنهض نافضة الغبار عنها. بحذر، خرج مقاتلان من الخلف ليعاينا مكان سقوط القذيفة.

لم يتابعون القصف وهم على يقين أنّهم انتصروا ؟ ما الذي لم يدمّروه بعد؟ اعتراها غضب مسعور، غضب عاجز، كما في كلّ مرّة. ما الذي يمكن فعله إزاء الطائرات؟ الصواريخ القليلة سام 7 وسام 8 التي يملكونها، لم تعد تُستخدم وقلّة قليلة منهم يعرفون استخدامها بشكل صحيح. مروان. هذه الليلة سيذهبون للبحث عن جثّة مروان، ستدفنه وستبكي منتظرة أن ينهار كلّ شيء.

* * *

هجّرتها الحرب عدّة مرّات منذ 1975. من منزل والديها حتى هذه الغرفة في الحمراء. سبع سنوات. في الخريف الأوّل للنزاع، يوم بلغت العشرين، حصلت مجزرة. قنّاصون وانفجارات ومجازر بالفؤوس وإعدام بالرّصاص ونهب وقصف، ثم أصبحت تلك الممارسات مألوفة. تذكّرت

المظاهرات والإضرابات والجامعات المقفلة احتجاجًا ومجازر الكرنتينا، وحصار تلّ الزعتر، إنّه شكل من أشكال الرتابة الجنائزيّة حتى صباح آب 1978، منذ أربع سنوات تقريبًا، اليوم بيومه، حتى توفّي والداها. كلاهما. دمّر الاعتداء مركز منظّمة التحرير الفلسطينيّة تمامًا. وأوقع مئة وخمسين قتيلاً. ارتمت على الحضيض من شدّة الحزن. وفي الأشهر التالية انطفأت فيها كلّ رغبة في الحياة. كانت تمشي مثل شبح لا وزن لها على الأرض. الشقّة فارغة. الزجاج ملصق بالشرائط المتصالبة كي لا تتناثر شظاياه عند سقوط القذائف. العتمة دائمة. ومواعيد الحيض لا تتغيّر، الجسد الذي لا يتوقّف عن النزف. ليست هناك رغبة، لا شيء ينبض فيها. كانت تعوم مثل بيروت على هوى الاتّفاقات الدوليّة. فقدان مروان اليوم ليس أشدّ صعوبة. ليس أقلّ صعوبة. كلّ شيء يعود إلى نقطة البداية، سقوط المدينة في كل مرّة، المدينة التي بدأت تذوب تحت نيران القنابل وتسيل على مهل إلى البحر، العدوّ تحت الأسوار في كلّ مكان. التفكير غير مجدٍ، ليحصل ما يحصل. ستذهب للإتيان بجثّة مروان، لكي تغسل جسده وتدفنه. وفيما بعد، وفيما بعد، ووفقًا للقرارات التي يتّخذها الأميركيّون والإسرائيليّون والروس وغيرهم من الآلهة البعيدين سيفعلون بها ما يشاؤون.

انتظار الليل طويل. تتذكر انتصار انتهاء الصوم في رمضان، في الربيع أو في الصيف، لم يكن ينتهي. عندما كانت صغيرة كانت تفطر سرًّا عندما تشعر بعطش كبير عند نهاية بعد الظهر، فتذهب للشرب في المراحيض، ثم تخجل من فعلتها وتطلب المغفرة من الله. وتمرّ فترة الانتظار وهي تساعد في تحضير أطباق الإفطار والحلويات التي لا عديد لها. كان ذلك

عذابًا حقيقيًّا. بالطبع ارتابت والدتها في أنّها تغشّ، لكنّها لم تقلْ شيئًا. وظلّت تبتسم طيلة الوقت، لكن كيف كان باستطاعة أمّها الصيام، ويداها دومًا منهمكتان بتحضير الطعام وأنواع الحساء والفطائر والحلوى وأنواع العصير - يصل أبوها قبل دقائق قليلة من موعد الآذان وانتهاء الصوم. تصطبغ سماء بيروت بلونورديّ وزعفرانيّ، وانتصار جالسة أمام الطاولة، والصحون موزّعة، كانت تشعر أنّها إحدى المشاركات في مباراة للركض عند خطّ الانطلاق. لم يكن لرمضان علاقة بالدين، كان انتصارًا على الذات وتقليدًا. انتصار لفلسطين تقريبًا. انتصار يربطك بعالم، عالم الطفولة وقمر الدين البرتقالي المستورد من سوريا وعصير تمر الدين الهنديّ، والقرفة، والهال، والليل المخيّم بعذوبة على شعب بأكمله يلتهم الأكل، قبل أن يغنيّ، أو يضحك أو يشاهد أفلامًا مصرية، أفلامًا قديمة للعيد وفيها سامية جمال تأخذ بلبّ فريد الأطرش. كانت انتصار تحاول دومًا أن ترقص مثلها وهي تتمايل بوركيها المتيبّستين، أو تحرّك صدرها الذي لم ينبت بعد. ثمّ يخلدون إلى النّوم في وقت متأخّر ويستيقظون مع صرخات الفجر وابتداء نهار صيام جديد. الآن تنتظر الوقت المناسب للذهاب والإتيان بجثّة مروان. عاود حبيب والآخرون اللعب بالورق وهم يدخّنون. من وقت لآخر يذهب أحد المقاتلين لإلقاء نظرة في الخارج، في جولة تقصٍّ سريعة. مبدئيًّا لن يلجأ الإسرائيليّون إلى تصعيد عمليّاتهم ما دامت المفاوضات جارية لكن لا أحد يدري. انتصروا في معركة بيروت. لا أحد يستطيع الحؤول دون سقوط المدينة. انتصار معجبة بمعنويات الجنود. بالنسبة لهم هذه الهزيمة مجرّد مرحلة. سبق لهم وتجاوزوا الكارثة وحرب 1967 وأيلول الأسود وسوف يستمرّون في الصمود رغم سقوط المدينة. القضيّة

ستستمرّ وسيبدأون من الصفر في مكان ما، أينما كان، إلى أن يحصلوا على قطعة أرض يقيمون فيها. على وطن لا يكون فقط اسمًا مكتوبًا على صفحة الغمام. أمّا هي فلا. إذا سقطت المدينة فستسقط معها. سوف تسقط مع بيروت ومروان. تتخيّل جسدها هي تحت الشمس في أحد الأزقّة، تخترقه سكاكين الموارنة أو حراب الإسرائيليّين، وسط كومة من الجثث.

مهما بدا الغسق طويلاً، فالليل لن يلبث أن يحلّ. حبيب وجنوده يتناولون الحلاوة مع قليل من الخبز. يقدّم لها أحمد بعضًا منها فترفض بحركة من رأسها. البارحة كان مروان ذاته يقترح عليها ذلك. المقاتلون هم أنفسهم يقومون بالضبط بالأعمال نفسها التي قاموا بها البارحة. يدخّنون ويلعبون الورق ويأكلون الحلاوة أو السردين. توفّي مروان عبثًا. لا شيء تغيّر في العالم، لا شيء إطلاقًا، أحدهم يلعب الورق مكانه، أحدهم يأكل مكانه، أحدهم يقدّم الحلاوة لانتصار مكانه، المدينة ستسقط والمقاتلون يتركونها ومروان سوف يمكث هنا. تغفو انتصار قليلاً، ذراعاها متصالبتان وذقنها ملاصق لصدرها.

أيقظها حبيب وهو يلمس كتفها برفق.

- هيّئي نفسك، سنذهب.

تنهض، تحرّك ساقيها المنمّلتين، تفرغ قنينة الماء وتنفرد في غرفة الحمّام الخارجة عن الاستعمال، المليئة بآثار الغائط تخرج منها في الحال وهي على وشك التقيّؤ.

لا يزال الطقس حارًّا. تنزع سترتها لبرهة، تيشيرتها الكاكيّة مبلّلة. تنسحب قليلاً إلى العتمة وتنزع صدريّتها. بئس الخفر! إمّا الخجل أو الركض بحريّة. ترمي في إحدى الزوايا المظلمة لباسها الداخلي الذي ينضح عرقًا. وكما في كلّ مرّة قبل القيام بإحدى العمليّات يبدأ قلبها في الخفقان بسرعة أكبر.

فمها جافّ وفكّها متشنّج بطريقة غريبة. تركّز تفكيرها، تراقب سلاحها، الذخائر، القنابل، تتأكّد من شرائط حذائها المشدودة، من بكلة زنّارها. إنّها مستعدّة. حبيب والآخرون يتناوبون على تدخين سيجارة أخيرة محشوّة بحشيشة الكيف وشرب زجاجة ماء. سيخرج أحمد وحبيب وانتصار وسيلازم الثلاثة الباقون المكان في حال حصل أيّ طارئ. تموضع أحدهم على الكرسي خلف الرشّاش ليتمكّن من تغطية انسحابهم في حال حدوث سوء. والثاني يحضّر قذائف الأر. بي. جي والثالث ينهي سيجارة الحشيشة ناظرًا إلى السقف.

لم يكن حبيب بحاجة لأن يشرح الخطّة أو أن يوضح وجهة السير. إنّهم مدرّبون، متمرّسون في القتال، ثمّة ضوء قمر خفيف، يجب السير بمحاذاة الجدران. يعرف ثلاثتهم أنّ الإسرائيليّين لن يهاجموهم إلا إذا شعروا أنّهم مهدّدون، إلا إذا اعتقدوا أنّ فرقة كومندوس تسعى إلى التسلّل بين خطوطهم. نظريًا، مع أنّ مروان قتل، هناك وقف إطلاق نار ساري المفعول. داروا حول المبنى لكي يصلوا إلى الشارع الرئيسي من الجهة الأخرى والسير بمحاذاة الرصيف الجنوبي. مرّوا على أمتار قليلة من الكوّة المفتوحة في الجدار حيث جعلوها نقطة ارتكاز لفوّهات رشّاشاتهم، ثم استداروا يمينًا في أحد الأزقّة التي تقود باتّجاه الخطوط الإسرائيليّة، تشعر انتصار بضغط غريب في أذنيها. تسمع صوت تنفّسها. اجتازوا مئة متر. وتبقّى لهم أكثر من مئتي متر. توغّلوا بسرعة. وبصمت مطبق. ثم توقّفوا ليتفحّصوا الظلمة أمامهم. بعض الضجيج، في البعيد سيّارات متفرّقة. عليهم أن يحملوا مروان مسافة ثلاثمئة متر. قادهم أحمد إلى أحد الممرّات بين مبنيين واستقرّ في مكانه.

أفهمهم بالإشارة أنّ المفترق حيث المصباح الملتوي الذي سقط قربه مروان هو أمامهم بالضبط. لم يكن يفترض بها أن تأتي، هذا ما اكتشفته الآن، وكان حبيب وأحمد يعرفان ذلك. ويعرفان أيضًا أنّه من المستحيل جعلها تغيّر رأيها شعرت بنفسها ترتجف. الجثّة هناكَ، في الجانب الآخر من الشارع خلف هذا المبنى المتداعي. ألقت نظرة، رأت عمود المعدن محروقًا وملتويًا مثل شجرة طويلة الجذع. ها هما أحمد وحبيب يتحرّكان بالقرب من جثّة مروان. راقبت عمق الشارع الذي انطلقت منه الرّصاصات ومزّقت ظهر مروان. هناك، السواد كامل. والصمت. يعبر حبيب وأحمد إلى الجانب الآخر من الشارع وهما يحملان مروان ورأسه يتأرجح إلى الخلف، وعيناه تنظران إلى الأعلى وكأنّهما ترنوان إلى السماء. يسرعان كي يرجعا إليها، تعثّر حبيب وسقط إلى الأمام فتفلت الجثّة منه وتسقط بثقلها على الأرض. تشعر انتصار بالدموع تنهمر من عينيها إلى أسفل وجنتيها. إنّهم مكشوفون وسط الشارع، خافَت، سمعت إلى يسارها طلقة جافّة، فرقعة صغيرة وكأنّها فلّينة مصحوبة بصفير حادّ، وفجأة أضاء الليل بالأحمر، رأت في ملء الضوء الوجوه المرتعبة لحبيب وأحمد، والعنق المتدلّي لمروان أرضًا وفمه المفتوح ويديه المتشنّجتين، أفلت أحمد ساقي مروان وركض ليحمي نفسه، انحنى حبيب وأمسك بجسد مروان وأخذ يجذبه وحيدًا نحو الزقاق، سَمعت صرخات بالعبريّة، يصل أحمد قربها لاهث الأنفاس ويلتفت زاعقًا: لكن ماذا يفعل هذا الغبيّ؟ اركض يا حبيب اركض، اتركه واركض، حبيب لا يترك مروان، بل يجذبه بأكبر سرعة ممكنة، أكثر من عشرين مترًا، أكثر من عشرة أمتار، تندفع انتصار لمساعدته في اللحظة التي ينطلق فيها رشق إسرائيليّ خفيف ويخترق الرصاص أحد الجدران. إلى يمينهم، بلوب

بلوب بلوب بلوب، رشقات من العيار الثقيل تخدش الاسمنت في الليل المدلهمّ، سقطت القنبلة المضيئة على أحد المباني، شدّت انتصار على يدي مروان دون أن تفكّر، كانتا قاسيتين وباردتين، تحوّلت يداه إلى أشلاء، رفعته عن الأرض وحملته مع حبيب، إنّه ثقيل. الشارع يغرق من جديد في العتمة لا بأس. إنهم محميّون، قلوبهم تفطر أسى ولوعة. عينا انتصار غارقتان في الدمع والعرق، تتداعى لصق الحائط لكي تستعيد أنفاسها. على مسافة أربعين سنتمترًا منها وجه مروان. تستشفّ في الظلمة نظرته الشاخصة، فمه المفتوح، خطّ الدم على الذقن والخدّين، لباس الميدان المرتفع حتى عنقه من جرّاء سحبه على أرض الرصيف. وقد سوّده الدم هو أيضًا. يهمس حبيب: هيّا، بسرعة.

يستعيد أحمد ذراعي الجثة وحبيب القدمين، سقطت منه فردة حذاء مثبتة بشكل سيّء وسط الشارع، قدمه البيضاء بلون الحليب تلتمع في الليل.

تبعتهما وهي تراقب الخطوط الخلفيّة. لم تعد هناك ضجّة. لا شيء، الاسرائيليّون تحاشوا أن يقتلوهم، هذا أكيد لم يريدوا استهدافهم. من المستحيل عدم إصابتهم في وسط الشارع وهم مكشوفون، كان يفترض بالرصاص أن يمزّق أجسادهم. لقد أفسحوا لهم المجال لينقلوا الجثّة. وتدريجًا، أثناء المشي استعادت انتصار هدوءها. كان أحمد وحبيب يشقيان جرّاء حملهما، توقّفا بانتظام ليقوما باستراحة. شعرت بنفسها خاوية. اختفت الدموع. طريق العودة أقصر دومًا. وصلوا دون عراقيل إلى المركز، حيّاهم المقاتلون الثلاثة. كانوا قد رأوا الصاروخ المضيء وسمعوا رشق الرصاص.

وضع حبيب وأحمد الجثّة في إحدى الزوايا وغطّياها

بغطاء وسخ كان ملقًى هناك. تحاشى أحمد نظرة حبيب. أُبلغ أبو ناصر وشخصان آخران عبر اللاسلكي بما حصل، نسيت انتصار اسمي الشخصين اللذين كانا برفقته. وصلوا. رفع أبو ناصر الغطاء لكي يرى الجثّة. يستغرق في التأمّل ويعيد وضع الكفن وعيناه مغرورقتان بالدموع.

- كان مروان الأفضل بيننا، والأشجع.

شعرت من جديد بالدموع تتساقط من عينيها. مروان بعيد جدًّا.انفتح جرح أحمد وكبرت بقعة الدم على تيشيرته.

أخذ أبو ناصر انتصار بحنان من ذراعها.

- ماذا تنوين أن تفعلي يا انتصار؟ لدينا سيّارتنا. سأصطحبك حيثما تشائين.

أشعل حبيب والآخرون سيجارة حشيش وعادوا إلى اللعب بالورق. حبيب المقاتل الذي لا يُقهر والشجاع والصادق. ينتظر. لم ينوّه بحادثة الرشاش وجبن أحمد. إنّه شهم. تقترب انتصار من الجماعة الصغيرة وتمدّ يدها لحبيب.

- شكرًا. إلى اللقاء.

- لا شكر على واجب. كان مروان صديقًا. اعتني بنفسك.

الساعة تقارب الواحدة صباحًا. تشعر انتصار بأنّها مرهقة. لا تتوصّل للتفكير حتى. توفي مروان، جسده لا يزال هنا. بدّل أبو ناصر الغطاء الوسخ بغشاية من البلاستيك الأخضر الداكن وجدها في السيّارة. ترغب انتصار في أن تكون وحدها. وحدها مع مروان. تسأل أبو ناصر ما إذا كان يستطيع أن يقلّها إلى شقّتها في شارع الحمراء.

– ومروان؟ هل تريدين   هل تريدين أن نتركه في المستشفى؟

– لا ، عندي، في شقّتنا ، غدًا صباحًا ندفنه.

– هل أنت.   واثقة؟

– نعم، أبو ناصر.

– حسنًا القرار عائد لك. غدًا صباحًا أعود في السيّارة. يفترض بالنّهار أن يكون هادئًا. أو إذا شئت، نستطيع الاهتمام بالجثة الآن.

– لا ، غدًا صباحًا. شكرًا أبو ناصر.

– هيّا، هيّا نذهب.

المقاتلون الذين يواكبون أبو ناصر وضعوا مروان بعناية في مؤخّرة سيّارة الجيب ثم صعد أحمد إليها. أجلس أبو ناصر انتصار في المقعد الأمامي. هو يهوى القيادة. ومع أنّه ضابط أعلى فهو يقود دومًا سيّارته، ويقلع بسرعة. يقود بسرعة ولا يتوقّف يجب توخّي الحذر حتى لو كان الوقت ليلاً. أبو ناصر إحدى الحلقات المهمّة في القيادة العسكريّة لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة. لا أحد يعرف متى يوقّتون اغتياله. يواكبه حارسان يحملان السلاح في أيديهما.

قطعوا الحواجز دون صعوبة تذكر. الجميع يعرفون أبو ناصر، بمن فيهم الميليشياويّون اللبنانيّون في حركة المرابطين أو في الحزب التقدمي الاشتراكي أو في حزب الشعب. في الليل، وفيما خطر الاعتداءات الاسرائيليّة مستبعد بعض الشيء، بدت بيروت وكأنّها استعادت شيئًا من حيويّتها المعهودة. الأضواء المرتعشة التي ترسلها مصابيح الغاز تلوح في بعض المحال النادرة المفتوحة. وبدا المقاتلون في الشارع

أشبه بالاختلاجات الأخيرة لحيوان محتضر. لدى وصوله إلى الحمراء توقّف الجيب أمام المبنى القاتم حيث تسكن انتصار. أوقف أبو ناصر محرّك السيّارة.

– في مؤخّرة السيّارة صندوق مليء بزجاجات المياه. خذيه معك. غدًا صباحًا سأكون هنا.

فتجيبه بصوت يشوبه الارتعاش:

– شكرًا أبو ناصر، جزيل الشكر.

نزل المقاتلون من الجيب، إلا أحمد. حيّاها بحركة من رأسه ويده مشدودة إلى جرحه. أخذت صندوق الماء. تبعها الحارسان حاملين الكيس الأخضر الثقيل.

حين وصلت إلى الطابق الذي تقيم فيه، فتحت الباب. الشقّة الصغيرة غارقة في الظلمة.

ألقى الحارسان الجثمان أرضًا. أضاءت الشمعة في مدخل الشقّة ثم شكرتهما. جلست بالقرب من اللهب الأصفر وأخذت تلقائيًا تبكي.كانت منهكة. رائحة الجثمان الغريبة ملأت الغرفة تدريجيًا. هكذا بدا لها. ذهبت إلى الغرفة لتضيء مصباح الغاز.

مروان بطل. شهيد القضيّة. جندي شجاع. يحترمه أبو ناصر وأبو جهاد أيضًا والآخرون. كان يرفض الهزيمة. وأراد القتال حتى اللحظة الأخيرة. وتوفي مقتولاً برصاص رشّاش في ظهره خلال جولة تفقّد تحضيرًا لإحدى العمليّات. أراد مواصلة القتال وتعزيز صمود المدينة وعدم تركها تسقط بين أيدي الأعداء. والآن في وسط الليل، في الصمت كلّ ذلك يبدو سخيفًا. حتى هي كلّ ما فعلته بدا لها سخيفًا. المعارك التي خاضتها، العمليّات في الجنوب، المعارك ضدّ الكتائب،

الرجال الذين قتلتهم، كلّ ذلك بدا بعيدًا، غير مجدٍ، بلا طائل
انتبهت إلى أنّها نسيت سلاحها في المركز على الجبهة. هذه
إشارة تخاذل أخرى، لم يكن هذا ليحصل قطّ خلال العامين
الأخيرين. لم يعد لمروان سلاح ولا هي أيضًا. المدينة معلّقة
في الهواء. بعد سبع سنوات من المواجهات. الدموع والغضب
والحزن استقرّ كلّه في عينيها. نزعت سترتها. في خزائنها كلّ
شيء كاكي اللون، أخضر داكن، مموّه. وجدت قميص نوم
رماديّة. ستعنى بالجثّة. وضعت مصباحًا في غرفة الحمّام
الصغيرة. ليس هناك حوض استحمام، هناك فقط بالوعة وسط
الأرض المبلّلة والمنحدرة قليلاً. جلبت صندوق زجاجات
الماء. أبو ناصر يتنبّه لهذه الأشياء، فمن دون هذه الهديّة لم
يكن بإمكانها غسل جسده. سوف تضعه على السرير في شرشف
أبيض وتسهر عليه حتى تصل السيّارة غدًا. ثم سيأتون
لاصطحابها ويدفنونه. في مكان ما. إذا تركنا الإسرائيليّون
بسلام. استجمعت شجاعتها وجذبت الكيس حتى غرفة
الحمّام. جذبت الكيس البلاستيكي ثم كشفت عن لباس
الميدان الملطّخ بالدم، والوجه المشوّه، اللحية الداكنة.
ارتجفت وسالت الدموع من عينيها. جثت بالقرب من مروان.
إنّه فعلاً هو، فجأة. تراه كما عرفته على الرغم من المسافة التي
خلقتها وفاته. عاد إلى جسده. يشقّ عليها أن تنزع السترة
والتيشيرت. ذراعاه متيبّستان، قصّت ثيابه بالمقص. في جذعه
ثلاثة جروح سوداء في مكان خروج الرّصاصات. جروح كبيرة،
واضحة، قاتلة. الرّصاصات المعدّة لاختراق المصفّحات
والجدران. لا شك أنّ الرّصاصات اخترقت الجسد دون إبطاء.
رائحة اللحم المتعفّن، رائحة الموت. قصّت سرواله، انتزعت
فردة الحذاء الوحيدة. جمعت جميع الألبسة الملطّخة بالدم،
شعرت بالغثيان، ثم رمتها في المجلى في المطبخ وسكبت

فوقها القليل من كحول المصباح وأضرمت فيها النار. لن يلفت تصاعد الدخان انتباه أحد في بيروت المحاصرة. شعرت بغثيان خفيف. تأكّدت من أنّ لا شيء يحترق بالقرب من المجلى وأغلقت الباب.

مروان عارٍ أمامها على بلاط الحمام. عيناه مغمضتان ووجهه قاسٍ جرّاء تشنّج الفكّين. داهمه الموت، فاجأته قذائف 12,7 التي تخترق الصدر والقلب والرئتين وتحطّم الأضلاع. أخذت اسفنجة وسكبت محتوى زجاجة الماء على مروان لم تعد انتصار ترتجف، لم تعد تبكي. داعبته بنعومة ماحية شيئًا فشيئًا آثار الدمّ المتجمّد على الجذع، حول الفم، على الأنف والبطن، برفق. مروان المحارب. المرّة الأولى التي قاتلا فيها سويّة على طول خط التماس، كانت قد أنجزت بالكاد فترة تدريبها. لم تكن خائفة. كانت واثقة من نفسها وواثقة من أنّ مروان سيرشدها. كان مروان مقاتلاً شجاعًا من هؤلاء الضبّاط الذين يثيرون الاحترام في النفس، لا مجال للمقارنة بين المقاتلين الفلسطينيّين وجنود الميليشيات اللبنانيّة الهواة والفوضويّين. ما ان سكنت المدفعيّة حتى حضّروا للفاشيّين فخًّا محكّمًا وحاصروهم ضمن كمّاشة أطبقت على عدد كبير منهم. تتذكّر تمامًا الهجوم النهائي، وطعم النحاس في فمها، والضجّة، والرّكض بين المباني، ترى من جديد الطلقات الأولى التي صوبّتها على هدف بشريّ متحرّك ودهشتها حين رأته يسقط، تتذكر هيجان المعركة المتأجّج، الغرائزيّ المتوحّش الذي يرتوي في وقت متأخّر من الليل بين ذراعي مروان. لذّة الانتصار. انتصار هي المرأة الوحيدة التي دمّرت إحدى آليات العدوّ والجنود الذين فيها بصاروخ مضاد للدبّابات. نظرت طويلاً إلى الجثث المسودّة وهي تحترق وسط

لهيب عربة النقل المنقلبة، وشعور من الرضى يملؤها ممزوج بالانبهار والقرف. تعرف أن قضيّتها عادلة. ليست هي من شنَّ الحرب. بل الصهاينة. ثم اللبنانيّون حلفاء الاسرائيليّين. ثم من جديد الاسرائيليّون. والآن الهزيمة. الأحذية الثقيلة لم تعد تتقدّم. مروان لم يعد يركض سريعًا ما يكفي لكي يتجنّب الرصاص. الشهداء متروكون في إحدى زوايا الرصيف. الأجساد مغسولة في غرف الحمام في الشّقق. المدينة تسقط. والمنفى في النهاية.

الفصل الرابع عشر

يا لسموّ بؤسهم هؤلاء الفلسطينيّين ذوو الأحذية الثقيلة، ما هذه القصّة، أتساءل عمّا إذا كانت صحيحة، انتصار تغسل جسد مروان، هذا حزين جدًّا، كلّ هذا حزين جدًّا، كنت أودّ لو أنّه كان بإمكاني أن أغسل جسد أندريا وأمرّر عليه الاسفنجة لمرّة أخيرة، الأحداث تتقاطع، ملابس مروان تحترق في المجلى في بيروت تمامًا كما احترق لباسي العسكري داخل الحمّام في البندقيّة، تلك مصادفة أخرى، مسكينة انتصار، بالرّغم من صيحات النّصر التي أطلقها البعض، فإنّ صيف 1982 لم يكن صيفًا بهجًا، أتساءل عمّا إذا كان رافائيل كحلة، كاتب القصّة، موجودًا في بيروت، في هذه اللحظة بالذّات، هذا محتمل، ولا شكّ، كم يبلغ من العمر يا ترى، أربعًا وخمسين عامًا حسب ما تشير إليه الصفحة الرابعة من الغلاف، نعم هذا ممكن، كان عمره أقلّ من ثلاثين عاما آنذاك، ربما كان في عمر مروان، في أيلول 1982، كانت الظروف قاسية جدًّا على الفلسطينيّين، فلجؤوا إلى طنجة ثم إلى تونس، وتبعثر كلّ هؤلاء المقاتلين في أنحاء المنطقة - رافائيل كحلة الذي لا أعرف عنه شيئًا ربّما غادر لبنان في الوقت نفسه عندما غادرت انتصار، ربّما ذهب إلى منفى طنجة أو تانجيس الفينيقيّة حيث سيلتقي بجان جينيه ومعه سيتحدّث من جديد عن الفلسطينيّين:

في أيلول 1982 مرّ جان جينيه ببيروت لبضعة أيّام برفقة ليلى شهيد المسؤولة السياسيّة عن القضيّة الفلسطينيّة والممثّلة الناشطة لمنظّمة التحرير في باريس، كان تقرير حافل بالمعلومات قد أعدّ بشأنها في مركزنا، لا أعرف كيف أرسلت الآلهة العابثة جان جينيه إلى شاتيلا يوم الأحد في 21 أيلول، أوّل أيّام الخريف، غداة المجزرة، جان جينيه حفّار القبور السماوي يداعب الجثث المنفوخة والزرقاء اللون من كثرة الذباب الذي تجمّع فوقها في الأزقّة الضيّقة لمعتقل الموت، ويجول في الأرجاء مشيّعًا بنظراته الموتى المكدّسة أجسادهم في المقبرة الجماعيّة، يكتشف الصمت والهدوء، رائحة الجثث الطالعة من البحر، ربما كان هنا يكمن معنى قصّة رافائيل كحلة، جسد مروان المتروك عند مفترق أحد الطرق، بعيد المنال، انتصار تغسل من جديد جسد مروان كما يغسل جينيه جسد العجائز والأطفال القتلى في شاتيلا، على مرأى من الجنود الإسرائيليّين الذين تبرعوا بالجرّافات لإزالة آثار الجرائم الفظيعة التي ارتكبوها - أندي، عزيزي، لم أستطع الذهاب لإحضار جثّتك، لم أستطع، سمعنا رشق الرصاص، رأيناك هناك ممدّدًا وسط غائطك، وبدأت المعركة، دوّت الرصاصات حولنا، الرصاصات نفسها التي اخترقت صدرك، لم يتسنّ لي الوقت لأبكي، لم يتسنّ لي الوقت لألمس جسدك للمرّة الأخيرة، بعد أن رأيتك بعشر ثوان اندفعت نحوك كنت ممدّدًا في التراب الرطب لكنّي اضطررت إلى الزحف لأنجو بجلدي وأهرب تاركًا إيّاك هناك لأنّنا كنّا شبه محاصرين، ومحتشدين في زاوية أرض ضيّقة، وعددنا قليل بالنسبة إلى فريق المجاهدين الذين طوّقونا، المرّة الأخيرة التي رأيتك فيها كانت عيناك محملقتين في سماء البوسنة والابتسامة المتشنّجة على وجهك، لم يكن لدي حظّ انتصار الفلسطينيّة، هربت

بجبن، ربّما لأنّني لم أكن أحبّك ما يكفي، ربّما لأنّ حياتي بالذات تهمّني أكثر من حياتك، ربّما لأنّ الحياة ليست كما في الكتب، كنت حيوانًا زاحفًا يرتعب من مشهد الدم، غالبًا ما فكّرت أنّه يمكنني أن أموت لكن ليس أنت، ظننّا أنّك خالد كآريس نفسه، خفت، فجأة لذت بالفرار مثل حشرة تسعى لتجنّب أن يسحقها الحذاء، هربنا جميعنا متخلّين عنك هناك في الريف المختلج حياة في الربيع، لكن لا تقلق، انتقمت لك، انتقمت لك مرّتين لأنّ فرنسيس الجبان في طريقه للامّحاء، سأصبح إيفان دوروا، وأدين لك بهذه الحياة الجديدة، أندريا، الأمر انتهى، رحلت، سوف نلتقي على الجزيرة البيضاء، عند مصبّ الدانوب، عندما تحين الساعة وداعًا مروان، وداعًا أندريا، بئس هذا الفراق، أنا أبكي الآن، هذه القصّة تجعلني أبكي فجأة، لم أكن أتوقّع ذلك، إنّها المأساة نفسها، أفرك عيني وأدير رأسي ناحية الزجاج كي لا يراني أحد، لست في حالة جيّدة، أنا منهك دون شكّ ولا أستطيع تمالك دموعي، أمر مضحك، لم يكن ينقصني إلا ذلك، سيكون منظري مثيرًا للسخرية وأنا أبكي على هذا النّحو أشبه بمريم المجدلية على مسافة كيلومترات من فلورنسا، لا بدّ أن هذا مفعول الجن، نالت مني ألبيون الغدّارة[1]، لكن ليس هذا السبب إنّها قصة انتصار تهزّني رغمًا عنّي، هنالك الكثير من الأشياء والنقاط المشتركة بيني وبينها، حريّ بي أن أترك الكتاب جانبًا الآن، حتى عندما كنت في البندقيّة، في اليمبس، في قعر الهور، لم أكن أبكي إلا قليلاً، وها أنذا بعد مرور عشر

---

(1) ألبيون Albion هو الاسم اللاتيني لبريطانيا العظمى «ابنة البحار» وألبيون مشتقّة من ألبوس Albus أي أبيض وهذا لبياض صخورها، وألبيون الغدّارة تعبير تحقيريّ يستعمله الفرنسيّون ليلمّحوا إلى انكلترا.

سنوات تقريبًا، تنسكب دموعي وكأنّني فتاة يافعة، إنّه ثقل السنوات، ثقل الحقيبة، ثقل كلّ هذه الأجساد التي تحاصرني من اليمين واليسار، المحفوظة، المحنّطة في الصور مع القوائم اللامتناهية لحيواتها وميتاتها، سأدفنها الآن، أدفن الحقيبة ومعها كلّ ما تحتويه ووداعًا، سأذهب لموافاة كارافاجيو في أحد المرافىء الجميلة عند سفح جبل صغير، وألتهم المعكرونة الشريطيّة حتى ينتفخ كرشي ويبدأ بالكركرة، وأحفظ **الكوميديا الإلهيّة**، عن ظهر قلب، وأكتب مذكّراتي وقصائد مثل إدواردو تشي روسا، المحارب العالمي، بعد لقائي به في العراق بالضبط رأيته على التلفزيون صدفة، في أحد البرامج الوثائقيّة البريطانيّة التي أجبرتني ستيفاني على مشاهدته، كانت تريد أن تعرف، كانت ستيفاني تريد أن تعرف ماذا رأيت في الحرب وماذا فعلت، بالنسبة لها، كانت هاتان السنتان من حياتي لبّ المشكلة وجوهر السرّ وأرادت أن تشفيني منهما، كانت مقتنعة بضرورة أن أتكلّم عنهما، أن أفرغ نفسي من ذكرياتي، وأن أعترف، أن تسمعني وعندئذ سيكون وضعي أفضل، بالطّبع، كنت أعرف أنّها ليست مستعدّة لسماعي فألوذ بالصّمت، لكنّها تعود إلى الموضوع وتحاول بكل ما أوتيت من قوّة لتحملني على الكلام مخترعة شتّى الذرائع اليوم، **قرأتُ مذكّرة هامّة جدًّا عن عودة سلافونيا الشرقيّة إلى كرواتيا**، كانت تطرح الأسئلة المعبّرة عن مقاصدها بشكل لا تتقن إخفاءه، فأجيبها: ماذا؟ تنظر قائلة بإصرار: **بماذا تشبّه الأمر هناك؟** وهكذا دواليك، فأغتاظ ولا أدرك أنّ أسئلتها لها في الواقع ما يبرّرها، ومن ثم كانت جميلة جدًّا وكنت مرتاحًا معها لذا تحلّيت بالصّبر، في ذلك الحين كنّا، مراعاة لتوجيهات مركز الاستخبارات، نعيش بشكل متخفّ، وبطبيعة الحال، كان الجميع على علم بعلاقتنا، وليبيان الرئيس

الأبويّ يغمزني بعينه ليفهمني أنّه يعرف، هو الذي كان في العادة متحفّظًا جدًّا واحترافيًّا للغاية- أجفّف دموعي، لا بأس، لم أعد أبكي، شكرًا سيد ليبيان، باتت الأمور على ما يرام، لا شيء مثل وجهك الضارب إلى الحمرة لكي يحمل العزاء إلى قلبي، في الجهة الأولى من صف المقاعد لا تزال عازفة المزمار نائمة، يظهر أنّ زوجها لم ينتبه لشيء، ينظر عبر النافذة محاولاً إدراك حقيقة ما تحجبه ظلمات الرّيف، عمّا قريب نصل إلى فلورنسا، ومن ثمّ لن يتوقّف القطار، ستجري الأمور بسرعة الآن، ما هي إلا ساعتان تقريبًا وأكون حسبما أرغب في بلازا الغارقة وسط حشد السيّاح عندما أفكّر أنّه كان بإمكاني أن أتواجد هناك منذ الساعة العاشرة صباحًا لو أنّني لم أتأخّر على موعد الطائرة أشعر بالمرارة، لا شكّ أنّ الآلهة دبّرت ذلك، والقدر هزىء بي لكي يعاقبني فيبقيني اثنتي عشرة ساعة في القطار، هذا الصباح، لم يكد القطار السريع ينطلق حتى نمت ولم ألبث أن استيقظت في جبال الألب، وسط الثلج ومسلات الجليد عند مشارف ميجيف، استيقظت تحت تأثير الأنفيتامين ولا شكّ، أشعر أنّ الليل ما زال مستمرًّا منذ ثمان وأربعين ساعة، منذ أيّام، لا بل منذ سنوات فهل سأرى الفجر، هل سأرى الفجر، هل سيرى إيفان دوروا المجنون الفجر غدًا صباحًا لدى خروجه من غرفة الفندق، سيزور بصفته مسافرًا أو سائحًا بريئًا الفوروم أو كنيسة القدّيس بطرس، روما مدينة الأوتوقراطيّين والقتلة والواعظين، آمل أن يطلع النهار غدًا، آمل أن يطلع الفجر على انتصار، الفجر بأنامله الورديّة سيغلّف بيروت وطنجة والاسكندريّة وسالونيك الواحدة تلو الأخرى ويخرجهنّ من الظّلام، أثناء الحرب التي خضناها، لم يكن هناك نساء إلا فيما ندر، بعضهن باردات ومتوحّشات وبعضهن الآخر حنونات عطوفات، أتين بوصفهن ممرضات

وطاهيات، وكنّ خصوصًا أرامل وأمّهات وأخوات وضحايا، الأخريات كنّ استثناء، كانت النساء مجرّد صور في محفظات الجيب على مثال أخت أندريا الباسل، أو ماريان التي كنت أحمل أنا أيضًا صورتها، كما يفعل جميع الجنود منذ وجدت الصور المرسومة - لم أنظر إلى الصورة قطّ، لم أسحب من جيبي قطّ هذه الصورة المأخوذة لماريان في تركيا على شاطىء البحر، كانت تتعفّن على مهل هي وبطاقة اعتمادي بين ثنايا الجلد المبيّض جراء العرق، في البداية كتبت لها الرسائل، وكتبنا جميعًا رسائل ما عدا أندريا لأن والديه كانا على مقربة من الجبهة، بخلاف مارسيل ماريشال وجنود 1914، لم أكن أعرف ماذا أخبر عائلتي، ربما كنت خجلاً أو خائفًا من ترويع عائلتي، أروي لهم أخبارًا تافهة عن العدوّ الجبّار وشجاعة فرقتنا، عن النصر وأقول لهم إنّني بصحّة جيّدة وإنّني لا أقوم بمخاطرات لا جدوى منها، وإنّ لديّ أصدقاء طيّبين يسهرون عليّ، وهذا كلّ شيء، وبالطبع، أخذت الرسائل تتباعد تدريجيًا، واستبدلت ببعض المخابرات الهاتفيّة السريعة المجراة مجانًا عبر المركز الخاص بالعمليّات العسكرية، وأصبحت بدورها هي أيضًا تزداد ندرة، وبالطبع اعتاد أهلي وماريان على فكرة أنّني بخير وأنّه لن يحدث لي أمر خطير سيّما وأنني لم أكن ازوّدهم بأخباري، لا الجيّدة ولا السيّئة، لكنّي عرفت فيما بعد أنّ أمي كانت قلقة كثيرًا بشأني وأنّها تذهب كلّ صباح إلى الكنيسة عند الساعة السابعة وترفع صلواتها عن نيّتي مشعلة عددًا لا يستهان به من الشموع، ربما كانت صلواتها التي أنقذتني على أيّة حال، حماني كلّ هذا الدخان وهذه الشموع المذابة لأجلي في الدائرة الخامسة عشرة في باريس، يشقّ عليّ أن أتخيّل أختي في الجبهة تحذو حذو انتصار، من يدري، ربّما لو سنحت لها الفرصة لكانت محاربة استثنائية، ثم أنّها قادرة، بعد كلّ حساب على إظهار مواهب نادرة

في الشر، فهي حازمة الإرادة ومتعصّبة وطنيًا - أمّا ماريان فكانت تكتب لي غالبًا، وتقصّ عليّ بالتفاصيل أيّامها كطالبة باريسيّة وتزوّدني بالأخبار عن الأحداث الثقافيّة والسياسيّة الراهنة، وتقول لي إنّها مشتاقة إليّ، دخلت في جلد الخطيبة الوفيّة، كان بإمكانها أن تكون أرملة بديعة، أكثر من ستيفاني، ستيفاني ليست من النوع الذي ينتظر، كانت تدرك موجبات العمل وتقدّر قيمة الوقت وتتعامل بواقعيّة مع ظروف الحياة المستجدّة، وهي بهذا المعنى أقلّ مسيحيّة من ماريان البورجوازيّة، كانت ستيفاني تريد أن تعرف عن الحرب، كانت فضوليّة، رأت الصورة التي تربّعنا فيها أنا وأندريا وفلاهو في البذلة العسكريّة، أصبح هاجسها أن تفهم ما حدث لي وتحملني على «فقء الدملة»على حد قولها وتبديد التروما التي كانت تتخيّل أنّني مصاب بها، لهذا السبب حثّتني على مشاهدة برنامج وثائقي على القنال 4 ويظهر فيه القائد إدواردو روسّا، ذات مساء حطّت ستيفاني رحالها عندي فجأة لتناول العشاء وقالت لي، على فكرة، سجّلتُ لك هذه الحلقة البارحة، بإمكاننا مشاهدتها سويًا فالأمر يهمّك ربّما، كانت تكذب بالتأكيد لأنّ الفيلم يرقى إلى 1994، أن تكون قناة تلفزيونيّة عرضته البارحة فهذا أمر بعيد الاحتمال، لا بدّ أنّها لم تترك وسيلة إلا لجأت إليها لكي تجد صورًا تظهر المحاربين الأجانب في كرواتيا، كانت تتخيّل أنّني حاربت في عداد إحدى الفرق الدوليّة، وهذا كان ممكنًا جدًّا حصوله، كنت رائق المزاج وقلت لها لمَ لا إذا كان ذلك يسرّك، ففي النّهاية يجب خوض هذه التجربة ذات يوم، عدت لتوّي من تريستا وكنت مسرورًا، أمطرت طيلة فترة إقامتي هناك منتقّلاً بين غلوبوتسنيك وشتانغل[1]، بين بقايا عمليّة رينهارت المبعثرة في

---

(1) غلوبوتسنيك وشتانغل، من القادة النازيّين، راجع الهوامش السابقة.

الأدرياتيك، كنت سعيدًا للقائي بستيفاني، تناولنا العشاء، ولم يكن يفترض بي أن أدعها تقنعني بمشاهدة هذا الفيلم عن موت المصوّر البريطاني بول جنكز الذي لقي مصرعه إثر إصابته برصاصة في رقبته من جهة أوسييك وفي ظروف غامضة، كان بول يعمل مصوّرًا بشكل أساسيّ لصحيفة *Guardian*، فيما كانت رفيقته ساندرا بالسلس Sandra Balsells تعمل آنذاك في مجلّة *Times* في لندن، علمًا أنّها عملت هي أيضًا على تغطية أحداث الحرب، في عام 1994 سافرت من جديد إلى كرواتيا برفقة فريق تلفزيوني في محاولة منها لتقصّي الحقيقة بشأن مقتل بول جنكز، الرجل الذي كانت تحبّه، يبدو هذا القول سهلاً في الظاهر، عادت لتزور المكان الذي قضى فيه نحبه على الجبهة حيث عملا سويّة عام 1991، حملقت ستيفاني بعينيها شاخصة إلى المناظر المسطّحة الحزينة المكسوّة بالثلج، وإلى السّهل السلافوني الشاسع، اكتشفت لونيْ الحرب الرمادي والكاكي وكأنّها تراهما للمرّة الأولى، لأنّها تراهما في حضوري، كان يجدر بي أن أعرف أن هذا سينتهي بشكل سيّء، أن أفهم هذا من الطريقة التي أمسكت بها ذراعي، من الطريقة التي بدأت أشعر فيها بالبرد أمام شاشة التلفزيون، استمعت لما يقوله الجنود الكرواتيّون في أعقاب التعليقات الإنكليزيّة، أشخاص تهيّأ لي أنّني لمحت وجوههم الشاحبة عند كلّ نقطة تفتيش، ورأيت أيضًا غلاية من الألمنيوم التي سوّدها الدخان، قد تكون غلاية فلاهو، وشارعًا من أوسييك، وبذلات غير متجانسة، وطرقات مسطّحة ومستقيمة، وحقولاً موحلة، ومزارع مدمّرة، سئمت رائحة الجليد والبنزين والكاوتشوك المحترق، ظهرت ساندرا بالسلس بوجهها المتجهّم في مؤخّرة السيارة، قالت كلمات قليلة، ووضعت باقات من الزّهر في الحفرة التي سقط فيها بول جنكز، بالقرب من سكك الحديد على مسافة كيلومتر من قرية تنيسكي

أنتونوفاك الفقيرة التي يحتلّها الصرب، كان الصحافيّون يرتابون بأنّ الرصاصة التي اخترقت جمجمته من الخلف لم تكن آتية من هذه الناحية بل من مسافة أقلّ بعدًا لجهة اليمين، من مركز القيادة العامة للفرقة الدوليّة بقيادة الزعيم الوطني إدواردو روسّا، عندما سمعت اسمه، فتحت عينيّ وحملقت بهما، ظهر على الشاشة كما هو، ربّما سمن بعض الشيء، روسا المبتسم بوجهه المستدير وعينيه القاتمتين وحسّ الدعابة الذي يتّسم به، لا شكّ أنّه ينفي أن يكون أحد جنوده قد قتل بول جنكز، هذا مستحيل، لا بدّ أن من قتله هو أحد القنّاصة الصرب في أنتونوفاك وأنّ الصحافي الآخر الذي وجد مخنوقًا صادف لسوء حظّه كشّافًا من التشتنيك، ماذا بإمكانه أن يقول غير ذلك، كانت ساندرا بالسالس تراقب كلّ هؤلاء الجنود الذين قتلوا ربّما الرجل الذي تحبّه، نظرت ستيفاني إلى ساندرا بالسلس ثمّ نظرت إليّ، بدا عليها وكأنّها تسألني وأنت، ما رأيك؟ من تظنّ أنّه قتل بول جنكز؟ عندئذ شخصت بنظري إلى الشاشة، في كانون الثاني 1994، وفيما عاد الصحافيّون إلى كرواتيا، كان وقف إطلاق النار مستمرًّا دومًا على هذا القسم من الجبهة، استطاعوا إقناع جنود قوّات الأمم المتّحدة، الذين كنّا نلقّبهم ببائعي البوظة، بمساعدتهم على الدّخول إلى القطاع الذي يحتلّه الصرب، أرادوا رؤية المنازل الأربعة المدمّرة في تنيسكي أنتونوفاك، الصرب لطفاء ومتعاونون، وافقوا على ارتقائهم المكان الأكثر ارتفاعًا، مركز تصويب يقع في أعالي البيت الأخير في القرية، لا بل إنّ جنديًّا قدّم لهم بندقيّة قناص أم. 76 لا تزال جديدة ومزوّدة بمنظار تقريب فعّال جدًّا لكي يستطيع الصحافيّون أن يروا بأمّ أعينهم مسرح الجريمة، وهنا أمسكت ساندرا بالسلس بالسلاح، أسندت يدها إلى زاوية عقب البندقيّة ووضعت عينها في الهدّاف، وفي واقية الشمس السوداء للمنظار، نظرت شمالاً إلى الحفرة التي سقط

فيها بول، تُرى بماذا فكّرت في هذه اللحظة، بماذا، ربّما هي في الموقع الصحيح للقنّاص الذي قتل بول، تحت السقف نفسه، وتتأبّط بندقيّة مماثلة، ها هي تراقب الموقع الكرواتي الموجود على مسافة ثمانمئة متر من هناك بالتفاصيل وبوضوح كليّ في المنظار لدرجة أنّ باستطاعتها أن تمدّ ذراعها لتلمسه، لم يعد هناك جثّة في الحفرة، تشاهد باقة الأزهار الصفراء التي وضعتها هناك، هل تتخيّل جثّة بول، هل تبكيه مثل انتصار الفلسطينيّة، لا أعتقد، تبقى صامتة، شعرها الطويل الذهبي يداعب خشب السلاح المصقول، أتاحت لها أثينا الفاسقة رؤية ما لم يره أحد، الجانب المظلم، يد الموت نفسها، عينه المسندة إلى المنظار، نَفَسه بالذات، تترك ساندرا البندقيّة فيأخذها الجندي الصربي من جديد، هل يعرف من هي، بالطبع لا، يعاودون نزول الأدراج ويستقلّون سيّارتهم بعد أن شكروا الصرب على استضافتهم، جلست ساندرا على مقعد سيارتها الخلفيّ، لم تعد تعرف من قتل بول، هل كانوا مرتزقة روسا أم التشتنيك أم الإلهة نفسها، تجد نفسها في مهبّ الشك، وستيفاني منفعلة إلى حدّ الدمع، آخذ جرعة من الخمر، التحقيق يتواصل، جون سويني يسأل فرنكي المساعد الغاليّ لإدواردو روسا في الفرقة العالميّة، لم يكن بالشخص السيّء وهو جنديّ شجاع، ذكّرني بفلاهو، بأسنانه غير المنتظمة، أتساءل عمّا إذا كان بإمكاننا تصفية صحافيّ عندما تدعو الحاجة، نعم بالتأكيد، على أيّة حال المصوّرون هم من الجواسيس الذين يُباعون لمن يقدّم السعر الأفضل، طفيليّون يعيشون من الحرب دون أن يصنعوها، كلّ هؤلاء المصوّرين الذين يعملون لحسابهم الخاص كانوا مثلنا شبابًا وعديمي الخبرة في بداية الحرب، ومثلنا كانوا يرتجفون خوفًا تحت قذائف الدبّابات اليوغوسلافيّة، كانوا في أكثريّتهم يجرون تغطية الحرب للمرّة الأولى ويعاينون مخاطرها، ومثلنا كانوا يرون الجثث للمرّة

الأولى في حياتهم ومثلنا كانوا يتباهون ببطولاتهم أمام أصدقائهم، ويتبادلون قصصًا مضخّمة ومبالغًا فيها ويزايدون فيما بينهم على من رأى فظاعات أكثر وتعرّض للموت أكثر فأكثر، لا أنظر إلى الشاشة، أغرق في ذكرياتي، أدركت أن مقتل بول جنكز سيظل سرًّا خفيًّا، وأننا لن نتوصّل إلى معرفة حقيقة مصرعه، تابعت احتساء كأسي تاركًا ستيفاني لقرفها من المرتزقة والجنود وحبّات البرد المتساقطة فوق سلافونيا في نهاية الشريط، بقيت لوهلة صامتة وتردّدت في أن تطرح عليّ أسئلة، لا تعرف كيف تبدأ وفجأة تبادر إلى ذهنها سؤال فقالت هكذا إذًا قتلت أناسًا؟ فذهلْتُ، هذه المثقّفة الذكيّة غير قادرة على التسليم بأنّها هي أيضًا يمسّها العنف بطريقة غير مباشرة وقد دنّستها حقارة أفعالي، سها عن بال الموظّفة المسؤولة عن إعداد الخيارات الاستراتيجيّة للجيش الفرنسي ما يوجد في المنقلب الآخر من عملها، فقلت لها وقد شعرت بغضب بهيم يتصاعد في داخلي **لا، أمضيت بضعة أشهر أجني فيها الفطر وأنا أغنّي أغنيات بذيئة**، ماذا تريد أن تعرف بالضبط، **قلْ لي... كم؟ كم قتلت؟** ذكّرني سؤالها بأسئلة المراهقين فيما بينهم: كم ضاجعت؟ أجبتها **لا أعرف**، ستيفاني عنيدة، نظرتها قاضية، وتصرّ على سؤالها: **قتلت الكثير؟** فأجبتها بصدق: **لا أعرف، من المستحيل معرفة ذلك**، تجهل تمامًا عمّ أتكلّم ويخيّل إليها أنّني أحمل على كاهلي آلاف الجثث، دفعة واحدة، تتخيّل أنّني فرانز شتانغل أو أوديلو غلوبوتسنيك، تغرورق عيناها بدموع الغضب، تشعر أنّها مخدوعة، تكتشف أنّ عشيقها مجرم أو قاتل، أجرع كأسي دفعة واحدة وأتناول كأسًا جديدة، **أنت قاتل مدمن على الكحول**، قالت بين شهقتين ثمّ أخذت تضحك، تضحك وتبكي في آن ثمّ هدأت، جفّفت دموعها ثمّ قالت: **هكذا إذًا، هكذا إذًا**، تماسكت من جديد وتوضّحت الأشياء في ذهنها، إنّها براغماتيّة،

فضوليّة، تريد أن تعرف، وتريد أن تفهم، وتريد أن تضع نفسها مكاني وتصرّ على موقفها، **وكيف يشعر المرء عندما يقتل أحدًا؟** قالت ذلك بصوت خافت متردّد، شبه متوسّل، عندئذ انفجرت، فكرت في لوري ومرجيري في صقلية، قلت لها سأريك حقيقة شعوره، نهضت وأمسكت بالمسدس اليوغوسلافي 7,65 الموجود في الخزانة فانذهلت ستيفاني فقدّمت لها المسدس وكأنّني مشعوذ محترف وأريتها الرصاصات في مخزن الخرطوش، خرطشت المسدّس ونزعت عن الزناد إشارة الأمان وقلت لها، كما ترين هناك رصاصة في المخزن، فارتعبت، ثم اقتربت منها وقلت لها هل تريدين أن تعرفي شعور المرء عندما يقتل أحدهم؟ عندئذ أمسكتها من معصمها بقوّة ووضعت المسدس في يدها، لم تظهر أيّة ردّة فعل، أدخلت اصبعي واصبعها في حامية الزناد، بدا عليها الارتباك وقد انهارت من الخوف والذهول ووضعْتُ أستون المسدّس في فمي، صرخت ستيفاني لا لا لا وراحت تتخبّط، ضغطت على سبابتها فشدّت رغمًا عنها على الزناد وهي تزعق على سبيل الإرتكاس، وجّهت الي لكمة خاطفة على فكّي من قبضة يدها اليسرى فأحدث المسدّس ضجة «كليك» وهذا كلّ شيء، فسقط بكلّ ثقله على الأرضيّة، وتهاوت ستيفاني أيضًا، ثم انتابتها حازوقة فراحت تشهق، لكأنّها ستتقيّأ، تجمّعت أرضًا على نفسها وشعرها يحجب وجهها ثم رحلْتُ تاركًا إيّاها ممدّدة إلى جانب مسدس الزاستافا الأسود دون قادح، ونزلت الأدراج مهرولاً في الشارع مهرولاً على الجسر فوق مدفن مونمارتر وواصلت هرولتي حتى ساحة كليشي دون أن الحظ حتى أنّها تمطر، وصلت مبلّلاً إلى إحدى الحانات وأنا أشعر بألم حارق في فكّي، طلبت شراب كلفدوس وتجرّعته دفعة واحدة، واستعدت روعي – وها أنا

أستعيد روعي الآن وسط السكارى، فيما صندوق جوك[1] يعزف أغنية *My way* يغنّيها كلود فرنسوا، ما الذي دهاني لكي أتعرّق كالأبله، ها قد أتى دوري لكي أذهب إلى هناك بدموعي الغزيرة الدبقة وأقف أمام طاولة الشرب وسط جوقة السكارى الذين يغنون معًا *comme d'habitude*، أشعر بالذنب يجتاحني أنا أيضًا، على مسافة ألف وخمسمائة كيلومتر وأشهر، لا يمكن التذرّع دومًا بالكحول، أيّ إله خبيث همس لي بهذه الفكرة، هذه المهزلة السوداويّة المتوحّشة، كانت ستيفاني مقتنعة أنّ جمجمتي سوف تطير وتتناثر شظايا ملتصقةً بالسقف، ساندرا بالسلس تعاين المكان من منظار البندقيّة، انتصار منصرفة إلى غسل جسد مروان، مالكولم لوري يضع يديه حول عنق زوجته، أيّة رحلة هذه، القطار يبطىء مسيره، وصلنا إلى إحدى ضواحي فلورنسا السامية المقام، عاصمة الجمال والسياحة - من المتاحف، ومن بينها متحف الأوفيس، تنبعث دومًا رائحة جنائزيّة، لوحات وتماثيل جامدة في الزمان والمكان معلّقة إلى مسمار أو موضوعة على الأرض، لوحات وتماثيل مشوّهة كلوحات قطع الرأس لدى كارافاجيو أو الكائنات البشريّة المصبّرة، في متحف القاهرة، حظّر عبد الناصر على حشود السيّاح رؤية مومياءات الفراعنة، هؤلاء الرجال الناحلين المتيبّسين بفعل الزمن وأحشائهم المحفوظة بعناية كبيرة في أوانٍ من الألبسطر، منذ مراهقته وعبد الناصر يجد أن مجيء الأجانب لإرضاء فضولهم أمام البقايا المحنّطة لآباء مصر المجيدين شيء ينال من كرامتهم، كان يقول، تخيّلوا أن تبادر عصبة من علماء الآثار العرب إلى

---

(1) آلة باسم مخترعها وهي بشكل صندوق توضع في المحلات العامّة وتحتوي على أسطوانات يختار الناس منها ما يشاؤون عند إنزال قطعة نقد في ثقب خاص.

نبش جثث ملوك فرنسا من قبورها في كاتدرائيّة سان-ديني وتعرض النعوش والعظام الحميمة أمام أعين الجميع، يبدو لي أنّ الحكومة الفرنسية ستعترض على الأمر، هذا محتمل، ثم إنّ رأس لويس السادس عشر قد عرض أمام المشاهدين فعلاً في ساحة الكونكورد لكن منذ ذلك الحين لم يره أحد مجدّدًا، وضعت المومياءات المصريّة في غرفة كبيرة مقفلة وحُظّر على الزائرين الدّخول إليها، لم يظهر المصريون رهافة مماثلة إزاء عشرات الحيوانات المغلّفة بالأقمطة منذ ثلاثة آلاف سنة، من طيور إيبيس وأبناء آوى وهررة وسنونوات وأفاع وحيّات كوبرا وعجول وثيران ونسور وقردة ضخمة وأسماك فرخ واسماك سلّور، إنّها حديقة حيوانات كاملة محفوظة داخل شرائط الكتان والصمغ يضيق بها متحف القاهرة، مهيبة ومغبرة مثل عجوز إنكليزيّة، إنّه متحف تاريخ طبيعي، قديمًا، في هذا النّوع من المؤسّسات، لم يكونوا يتردّدون عن عرض الناس المصبّرين، قرأت لا أعرف أين عن مدينة صغيرة في إسبانيا على شاطىء البحر، كانت لا تزال تملك من فترة قصيرة محاربًا من الأدغال يرقى إلى مئة وخمسين عامًا، موضوعًا في قفص من زجاج وفي يده رمح وعدّة، بشرته المجصّصة كانت مطلية من جديد بأسود أبنوسي ما جعله يستحقّ لقب النيغرو أي الزنجي، كان متربّعًا وسط القفص بين جنينين بشريّين عائمين في الفورمول، برفقة بقرة برأسين وخروف بخمس قوائم، جرى شراء رجل الأدغال في باريس من شركة Verreaux fils لتصبير الحيوانات التي تزوّد نصف متاحف أوروبا بالعيّنات والأصناف على اختلافها، نبش النيغرو من قبره بطريقة سريّة غداة نقل رفاته إلى بوتسوانا[1] ثم أُرسل إلى باريس عن طريق الباخرة برفقة هياكل عديدة من المدفن نفسه، بعد أن نزعت أحشاؤه ونقع

(1) بوتسوانا دولة في جنوب أفريقيا.

جلده في الملح ودهن جسده بمرهم خاص وصبّر في فرنسا، أثار في الحال اهتمام بيطري فأدخله ضمن مجموعته لا أعرف أين بالقرب من برشلونة على ضفّة المتوسط، فأثار الزنجيّ اللطيف مع رمحه ومئزره المرتجل إعجاب أجيال من التلامذة القشتاليّين، لأنّ طوله كان يبلغ مئة وثلاثين سنتيمترًا، تقريبًا مثلهم، وأتخيّل الأطفال يلعبون لعبة صيد الأسود في الملعب بعد أن رأوه، خلال ما يقارب المئة عام، ثم نفّض عنه الغبار وأعيد ترميمه وطليه وتمَّ تناسي الزنجي في زاوية أحد المتاحف الريفيّة إلى أن اتَّخذ القرار ذات يوم بإعادته إلى مثواه على سبيل الحشمة، تطلّب الأمر حملة عالميّة لكي يوافق متحف التاريخ الطبيعي المقصود أن ينفصل عن نخبة مجموعته، لكنّ رجل الأدغال سلك في نهاية الأمر طريق العودة عبر الطائرة، ونظّمت حكومة بتسوانا جنازة وطنيّة لهذا المحارب المجهول الذي عادت جثّته لتستقرّ في أرض أجداده - في فلورنسا النبيلة، ليس هنالك بالطبع زنوج مصبّرون في غاليري الأوفيس، ولا مومياءات لحيوانات أو ناس، هناك فقط تماثيل لآلهة وآلهات وقدّيسين، إنّه الفنّ في أبهى حلله، من التماثيل النصفيّة المدهشة التكوين إلى الشعور الذهبيّة في رسوم بوتيتشيللي، إنه أحد المتاحف التي تشهد أكبر عدد ممكن من الزائرين في إيطاليا، حيث يتربّع الدرع الذي رسمه كارافاجيو وعليه الوجه الدامي لغورغونا فوق درع مستديرة، رأس ميدوزا مقطوع وعيناها مجنونتان والأفاعي لا تزال تتحرك في رأسها، هل كانت ستيفاني ذات الثقافة الواسعة تحبّ كارافاجيو المهووس بالرؤوس المقطوعة والدم، ربّما، لقد تملّكه دومًا فضول لا يرتوي عن الموت، هذه الرغبة في رؤية موته بالذات عبر موت الآخرين، في أن يكتشف سرّ اللحظة القصوى وكأنّ كارافاجيو يرى نفسه في وجه غورغونا المألوم بعنقها المقطوع، وستيفاني التي يتملّكها الفضول لمعرفة مآثري الحربيّة،

وشجاعتي أو جبني، ستيفاني الممدّدة على الأرض المنهارة من الخوف والبكاء إلى جانب مسدسي الـ7,65 المعطّل المتروك على مقربة منها، هل نالت الجواب على سؤالها، هل كان ذلك حقًّا ما طلبته منّي، أنا غامض تجاه نفسي، يؤرجحني القدر مثل حافلات القطار في هذا النفق حيث تلتمع بقع رطبة على إسمنت فلورنسا المسوّد الديماسي

الفصل الخامس عشر

الفرامل، البخار، الصرخات الحادّة، الألم الغامض في الأذنين، الضوء المبهر، القطار يتوقّف في سانتا ماريا نوفيلا في المحطّة الفلورنسيّة، لوحة الاعلانات زرقاء والأحرف بيضاء، أنهض، أتمطّى، على الرصيف، المسافرون في شغل شاغل، نساء ورجالاً، رجالاً ونساء، لا بد أنّ الطقس بارد هنا أيضًا والجميع متدثّرون في المعاطف الثقيلة، بعض النساء ارتدين فرو الأنغورا، والوشق الأزرق، والشنشيلا الأصليّة أو الاصطناعيّة، في البندقيّة كان هناك الكثير من بائعي الفراء نظرًا للعدد الوفير من النساء المسنّات اللواتي تحتويهن المدينة الأكثر جليديّة في المتوسّط، التي تداعبها الريح السيبيريّة التي تهب من السهل البانوني المتجلد كالقسطنطينيّة، وهذا أقلّ ما يقال، تفيض المخازن ذات الواجهات بمعاطف البيزون وفرو الثعلب الذهبي، ثمّة محال تحتوي برّادات هائلة للمحافظة على كلّ هذا الفراء صيفًا، لنأمل خيرًا لمصلحة بائعي الفراء بأن تكون سخونة الكوكب استهلالا لعصر جليدي، عندئذ سيتجلّد نهر الرون شتاء بفعل انقلاب مجرى غولف ستريم وسنقتني جميعًا قبعات «الشبكا»[1] من الاستراخان على

---

(1) شبكا chapka قبعة روسيّة الأصل أو اسكندنافيّة تقليديّة كتلك التي كان يرتديها بريجنيف، تغطي العنق والأذنين والجبين.

الرأس، ويصبح بالإمكان الذّهاب تزحلقًا على الجليد حتى آجاكسيو وتزلّجًا في مركبة الجليد إلى بلنسية ومايوركا، سيجتاح المغاربة إسبانيا على الأحصنة وستموت القرود على صخرة جبل طارق من البرد في نهاية المطاف، القرود بهائم قذرة، لصّة عدائيّة، فيها الكثير من طبع البشر لدرجة أنّها لا تتردّد في عض اليد التي أطعمتها، صيّاحة وشبقة واستعرائيّة ومستمنية، ربما ستتأقلم مع الظروف المناخيّة الجديدة وستظهر القرديّات، القردة الكبيرة ذات الوبر الأبيض الطويل ستعلن ظهورها على قطع الجليد الجديدة الطافية في المحيط، وسنصطادها لأجل جلدها، ستكون هذه لذّة حقيقيّة، لذّة حقيقيّة من ملذّات نهاية العالم وسيركض آخر رجل خلف آخر قرد على قطعة جليد منساقة على غير هدى وسط الأطلسي ووداعًا وداعًا وداعًا أيّتها القردة العليا، أسلاف الانسان، على الرصيف النساء في معاطف الفرو ينظرن إلى أزواجهن يحملون الأمتعة، الرجل والمرأة بجانبي لم يتحرّكا، هما ذاهبان إذًا إلى روما، أربعة ركّاب يدخلون إلى حافلتنا، امرأة في الستين من عمرها تجلس قبالتي على الكنبة التي أخلاها في بولونيا قارىء البرونتو، لا ترتدي معطفًا من البيزون بل من الصوف وقد طوته لتضعه فوق المقعد، وجهها عريض قليلاً لكنّه متناسق، شعرها غزاه الشيب تقريبًا، عيناها قاتمتان، تتقلّد عقدًا من اللؤلؤ فوق مدرعة حمراء، يبدو عليها أنّها من الطبقة المتوسّطة العليا، كما يقول علماء الإحصاء أو معاهد التقصّي، تفتّش في محفظتها وتتناول منها كتابًا، لم ترمقني بنظرة واحدة، القطار سينطلق عمّا قريب، وسيتبع طريقًا طويلة منحدرًا دون توقّف حتى محطة ترميني، أذكر مشهدًا من فيلم **أصدقائي الأعزاء** للمخرج مونيشيللي من تمثيل توغنازي، وفيليب نواريه على هذا الرّصيف بالذات، يمارس الأصدقاء الخمسة الذين

تجمعهم صداقة رجوليّة خالصة لعبة تجعلهم يلتوون من كثرة الضحك، ينتظرون أن يهمّ القطار بالإنطلاق لكي يوجّهوا صفعات قويّة للمسافرين المتّكئين إلى النوافذ، وخصوصًا للمسافرات، وهذه اللعبة تضحكهم ضحكًا جنونيًا لدرجة أنّ إحدى شخصيّات الفيلم تتلفّظ بهذه الجملة **نحن على أحسن ما يرام هكذا أيّها الأصحاب، نحن على أحسن ما يرام، أمر مؤسف ألا نكون لوطيّين**، حين كنّا سوية أنا وفلاهو وأندي كان بإمكاننا أن نتوصّل للاستنتاج نفسه، كنّا في أفضل حال معًا في أوسييك وخلال الرحلة إلى ترييستا، وموستار، وفيتاز، كنّا في أفضل حال، الحرب رياضة مثلها مثل الرياضات الأخرى وعلينا في النهاية أن نختار معسكرًا، أن نكون ضحيّة أو جلادًا، ليس هنالك من خيار آخر، إمّا في هذه الجهة من البندقيّة أو تلك، ليس لدينا الخيار في النّهاية إطلاقًا، وكما محطّة سانتا لوتشيا في البندقيّة ومحطة ترميني في روما، سانتا ماريا نوفيلا طريق مسدودة، ينطلق القطار من جديد وها أنا الآن أدير وجهي في اتّجاه الطريق بعد أن غيّرت من جلستي، روما أمامي ومشاهد فلورنسا تتوالى، فلورنسا النبيلة المليئة بالقبب حيث تمّ تعذيب سافونارولا[1] بلذّة، لذّة التعذيب على أنواعه، الرميُ من علٍ، أو الإغراق في الماء، أو السلخ، كان الراهب السياسي مثقّفًا جدًا، سافونارولا كان متشدّدًا حرّم العهر والكتب الجنس والملذّات والشرب ولعب الميسر، ما سبّب ضجرًا كبيرًا للبابا ألكسندر السادس بورجيا الفاسق الآتي من كزاتيفا الذي أنجب ذريّة لا عديد لها، آه ما كان أجمل

---

(1) سافونارولا: (1452-1498) متديّن وسياسي إيطالي كان زعيم فلورنسا إلى أن حكم عليه اسكندر بورجيا بالإعدام متّهمًا إيّاه بالهرطقة عام 1489، ذهب ضحيّة عظاته.

ذلك الزمان، أمّا اليوم فالبابا البولوني المرتجف والخالد الذي لا يهزم أنهى عظته في ساحة إسبانيا، أشكّ في أن لديه أولادًا، أشكّ في ذلك، جاراي الموسيقيّان، هاويا الكلمات المتقاطعة يتحدّثان هما أيضًا عن فلورنسا، أسمعهما يقولان فيرينزي، فيرينزي إحدى الكلمات الايطاليّة القليلة التي أعرفها، إبّان وحدتي في البندقيّة لم أطّلع على الكثير من لغة دانتي ذي الأنف المعقوف، الباحث في شؤون الآخرة، أنا وغسّان كنّا نتكلّم باللغة الفرنسيّة، ومع ماريان بالطّبع، خلال تَوهاناتي الطويلة المتوحّدة كمحارب محبط لم أكن أتحدّث مع أحد إلا في حال أردت أن أطلب وفقًا لمزاجي في تلك اللحظة «ظلًّا أحمر» ombra rossa أو «ظلًّا أبيض» ombra bianca، هكذا كان البندقيّون يسمّون كأس النبيذ التي تُشرب ابتداء من الساعة الخامسة، أجهل لماذا يستعملون هذه العبارة الشعريّة، فيقال «تظلّل»، مقابل «تشمّس» أفترض آنذاك كنت أُبالغ في الركون إلى الظل والوحدة، بعد أن أحرقت بذلاتي العسكرية وحاولت أن أنسى أندي وكرواتيا والبوسنة والجثث والجراح ورائحة الموت، كنت في ساس[1] غير مجدٍ بين عالمين، في مدينة دون مدينة، دون سيّارات، دون ضجّة، مجزّعة بالمياه القاتمة يجوبها السيّاح ويتآكلها تاريخ عظمتها، البندقيّة جمهوريّة الأسد ذات المراكز التجاريّة الألف المنتشرة في المورة وقبرص ورودس، كان الشرق المتوسّطي بندقيًّا، وكانت السفن الشراعيّة والغليونيّات التابعة للدوجات[2] تهيمن على البحار – عندما زرت الأرسينال مع غسان ورويت له معركة ليبانت قبالة أحواض المرافىء الضخمة وهياكل السفن التي ترمّم، أدركت

---

(1) حجرة محكمة الإقفال تفصل بين عالمين مختلفين.

(2) دوج: قاض أوّل في جمهوريتي جنوى والبندقيّة.

العظمة اللامتناهية للبندقيّة صاحبة السموّ، الأسد الحجري المسروق من رودس يحرس بهناءة بوّابة أكبر ترسانة في المتوسّط، السلام عليك يا مرقس الإنجيليّ *pax tibi Marce evangelista meus*، هذا ما قاله ملاك للقدّيس مرقس فيما كان نائمًا وسط مركب على الهور قبل اجتيازه المتوسّط ووفاته بالقرب من الاسكندريّة في مكان يدعى بوكولي، أي منزل راعي البقر، حيث بنى كنيسته، الوثنيّون الغاضبون حملوه على الشهادة دون إبطاء، أوثقوا القديس ذا اللحية البيضاء، أوثقوه إلى مؤخّرة عربة وجرّوه على الأرصفة الوعرة إلى أن فارق الحياة وهم يغنّون له **لنعد هذا العجل إلى حظيرته**، في بيروت، خلال الحرب الأهليّة كان المقاتلون معجبين بشكل خاص بهذا النّوع من التعذيب، كان العديد من الأسرى يوثقون إلى الجيبات التي تجوب بهم المدينة بأقصى سرعة، ويقضون نحبهم ممزّقين، مشوّهين، محروقين بالإسفلت، مخنوقين، مخلّعي الأطراف مثل مرقس الإنجيليّ في الإسكندريّة، وإيزادورا دانكن مثيرة الفضائح في نيس، في عام 828 سرق البندقيّون رفات مرقس من المصريّين لكي يقدّموا له الراحة الأبديّة في مدينتهم، في هذه البازيليكة البيزنطيّة ذات القبب الخمس والصحن المطعّم بالذهب، الكنيسة الوحيدة في العالم حيث يمكننا أن نهتف *et cum spiritu tuo* ومع روحك أيضًا، وأقدامنا في الماء، القدّيس مرقس الذي لا يُغرق المنطقة وفيرة الأمطار، غالبًا ما يُغرِق، زوس المدن تحت وابل أمطاره المرعبة، بيروت، الإسكندريّة، البندقيّة، فلورنسا، بلنسية، جميعها تغرق في الأمطار بطريقة منتظمة، حتى أنّني ذات مرّة في ليبيا سيّدة الصحارى في سيرين اللامعة، شهدْتُ عاصفة مريعة، صبّ السّخط الإلهيّ جام غضبه على الآثار وبعض السيّاح الذين تجرّأوا على المجيء إلى بلاد القذّافي المجنون

بامتياز، أرسلوني لكي أفاوض بشأن الحصول على معلومات فائقة الأهميّة عن نشاطات الإسلاميّين العرب، وكانت المخابرات الليبيّة لا تضاهى في هذا المجال، والقذّافي يبيع كل مخزونه من المعلومات لقاء قبول انضمامه إلى مجموعة الأمم المتّحدة مقدّمًا كلّ ما يعرفه عن الناشطين الذين دعمهم بشكل أو بآخر، جميع من كان في عالم الظلّ، البريطانيّون والإيطاليّون والإسبان، يبتهجون للمعلومات التي يمدّهم بها الليبيّون، كان ليبيان، الجرب والمولع بأكل الحلازين، يفرك هو أيضًا بيديه حماسًا ويقول لي: ستكون مهمّة جيدة، اذهب إلى ليبيا أنت تحبّ السفر ستكون رحلة متّسمة بالأهمّيّة ولا شكّ، بالطبع لم يكن يؤمن بكلمة واحدة ممّا قاله، في بلاد لا يوجد فيها سباق درّاجات واحد جدير بهذا الاسم وحيث عليك أن تتناول مآكل مقزّزة مشبعة بالفلفل، فوافقت على الذهاب إلى هناك وأنا أمنّي النفس بزيارة سيرين والجبل الأخضر، بلد عمر المختار الذي وقف في وجه الإيطاليّين وتصدّى لهم قبل أن ينتهي مشنوقًا عام 1931، كان الشيخ ذو اللحية البيضاء يحارب جنود روما الجديدة بيدين عاريتين، في هذه البقعة من الصحراء التي استولت عليها إيطاليا من العثمانيّين عام 1911- كان رودولفو غراتسياني المكلّف بتنظيم العمليّات القمعيّة يحذو حذو البريطانيّين في إفريقيا الجنوبيّة والإسبان في كوبا، أفرغ ليبيا الشماليّة الشرقيّة من سكّانها، ورحّل عشرين أو ثلاثين ألف ليبيّ إلى المعتقلات مشيًا على الأقدام عبر الصحراء دون مؤونة، عازمًا على إخضاعهم، **كمن يفرغ البحر من الماء ليصطاد الأسماك** وما من ماء، لم يكن ماو تسي تونغ قد نظّم العصابات الثوريّة آنذاك، وبالطريقة نفسها «حشد» الفرنسيّون بعد خمسين سنة المسلمين المدنيّين في الجزائر داخل الأسلاك الشائكة لكي يستطيعوا مراقبتهم، أينما ذهبت

تجد دومًا معتقلات، معتقلات أيضًا وأيضًا، معتقلات إسبانيّة للريفيّين المغاربة، معتقلات إيطاليّة لليبيّين، معتقلات تركيّة للأرمن، معتقلات فرنسيّة للجزائريّين، معتقلات بريطانيّة لليونانيّين، معتقلات كرواتيّة للصرب، معتقلات ألمانيّة للإيطاليّين، معتقلات فرنسيّة للإسبان، الأمر أشبه بالعدّيّات أو بالأغاني العسكريّة المكرّرة التي تغنّى أثناء المسير، *tiens, voilà du boudin, pour les Arméniens les Grecs et les Lybiens, pour les Belges, pour les Belges y en a plus, etc.* إنها تحفة من تحف الأغاني الحربيّة، في كرواتيا، كنّا نغنّي على لحن أغنية *Lili Marleen* كلمات لا أعرف من جاء بها *Iznaj da cekam te* : واعلمي أنّني أنتظرك، لا بل إن أندي ألّف نسخة على ذوقه يتكلّم فيها عن تقطيع خصيات الصرب والدفاع عن الوطن، ليلي المسكينة لا بدّ أنها لا تزال تنتظر أمام باب الثكنة - في ليبيا، أجرى جنود رومل استفتاءً شعبيًّا على هذه الأغنية التي كتبها هانز ليب خلال الحرب العالميّة الأولى، كان جنود *Afrikakorps*[1] في مقاطعة القيروان في ليبيا يهوون لحن المرأة المنتظرة قبالة الثكنة أمام الباب الكبير، تحت الفانوس، كتبوا مئات الرسائل طالبين فيها من الإذاعة أن تبثّ لهم الأغنية مرارًا وتكرارًا، الغريب في الأمر أنّ المحطّة الألمانيّة التي كانت تبثّ إلى أفريقيا الشماليّة كانت موجودة في بلغراد، وكانت في كلّ يوم عند الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والخمسين بالضبط تبثّ أغنية ليلي مارلين *wie einst Lili Marleen, wie einst Lili Marleen* وكان الجنود الذين ينضحون عرقًا يبكون آخر قطرات ماء في أجسادهم في مكان

---

(1) أو فيلق أفريقيا وهو فيلق ألماني أوجد بصورة خاصّة لدعم القوّات الإيطاليّة في شمال أفريقيا عام 1941.

ما بين طبرق وبنغازي أمام أجهزة الراديو، روмل نفسه كان يبكي، ويبرق إلى بلغراد طالبًا أيضًا وأيضًا أن تُبثّ أغنية ليلي، دون توقّف، كان البريطانيّون يغنّونها بالألمانيّة إلى أن صدرت الأغنية بالنسخة الإنكليزيّة وراحت تبثّها إذاعة ال بي. بي. سي. عدّة مرّات في اليوم، وكان تيتو والأنصار يصفّرون لحنها في البوسنة، وأيضًا يونانيّو الجيش الشعبي لتحرير اليونان في غورغوبوتاموس، والإيطاليّون الذين نجوا من معركة العلمين كانوا يتنهّدون قائلين *Con te Lili Marleen*، وحتى نحن، بعد خمس وأربعين سنة، كنا نغنّيها على ضفة الدرافا *i znaj da čekam te*، واعلمي أنني في انتظارك، سيكون مستحيلاً عليّ أن أنتزع من رأسي هذا اللحن الآن، سيرافقني إلى روما بصوت أندي وكلماته الماجنة، وفي ليبيا في سيرين عندما كنت أزور الآثار الإغريقيّة على مسافة عشرة كيلومترات من البحر، كنت أصفّر لحن ليلي مارلين وأفكّر بجنود رومل ومونتغمري، قبل أن تنفجر العاصفة وتكاد أن تغرقني تحت وابل أمطارها وسط معبد زوس الهائل، وجدت ملجأ تحت سقف تخشيبة للمشروبات الغازيّة والتذكارات يديرها لبناني لطيف فينيقي تائه في ليبيا التي، حسب قوله، تسئمه صراحة، وأضاف قائلاً في فرنسيّة لا شائبة فيها أنّ هناك بعض السياح لحسن الحظ، شربت زجاجة كوكا كولا من صنع محلي، وكانت قرقعة المطر فوق المطيلة تمنعنا من مواصلة الحديث، والهواء ينضح برائحة الغبار الرطب والملح، لمعت البروق بشدّة محاولة الإطاحة بأشجار السرو والأعمدة الإغريقية، وتحوّل الموقع كلّه إلى بركة وحل بفعل الأمطار، أرعدت السماء وبرقت الصواعق بضوء بنفسجيّ انهمرت منه سهام ثخينة من المطر راحت تنبو عن الأرض وكأنّها رصاص غزير تمنع على الساعي اللجوء إلى أيّ مكان، كان اللبناني يضحك بعصبية ويتكلّم زاعقًا بصوت

عال، تهيمن عليه قرقعة العاصفة، محاولاً قدر الإمكان أن يحمي متجره المرتجل، شعرت بالأمان داخل مرقبه مع أنّني كنت مبلّلاً حتى الخصر، وأخيرًا، أشفق زوس علينا، وأرجع الصاعقة إلى علبته، وانفرجت السماء فجأة ملتمعة بنور أبيض عميم، حيّيت فينيقيّ صيدون التائه بين علب البيبسي والأعمدة الدوريّة وسلكت طريق بنغازي من جديد - في السيّارة المستأجرة، كان سعر القطع ومستوى المعيشة يسمحان لك بشراء جميع المحلات في سيّارات التاكسي العموميّة فتنجو بذلك من الاختناق وتجمّد الدّم في العروق، لم يكن ليبيان مسرورًا كثيرًا من فكرة ذهابي إلى ليبيا وتجوالي كسائح حتى لو كان يعشق فيلم **تاكسي إلى طبرق**[1]، ومنه اقتبس إحدى العبارات التي يردّدها دومًا على مسامعي: **الحيوان المتنقّل يذهب أبعد من المثقّف الجالس في مكانه**، هذا ما قاله لي عندما حدّثته عن سيرين، **هل تذكر فنتورا في فيلم تاكسي إلى طبرق**؟ فأجبته بالطبع أذكر لينو فنتورا وشارل أزنافور لكن من جهتي أفضّل فنتورا في فيلم **جيش الأشباح**، وهذا جعله يضحك ويحكّ تلقائيًّا فروة رأسه وهو متجهّم الوجه، **جيش الأشباح**، آه، تذكّرت، إنّه فيلم جيّد، الأمر السيء الأساسي الذي لفتني في ليبيا هو الجفاف، ليبيا بلد جافّ جافّ جافّ حتى العظم، ليس هنالك نقطة كحول واحدة من مصر حتى تونس، فقط شاي وقهوة وهكتوليترات من المشروبات الغازيّة،

---

(1) تاكسي إلى طبرق: فيلم فرنسي- إيطالي أخرجه **de la Patellière** عام 1960، يتحدّث عن فرقة كومندوس فرنسيّة من أربعة رجال تاهوا في صحراء ليبيا خلال مهمّة، ودمّرت سيارتهم في غارة جويّة فاستولوا على مركبة ألمانيّة وأسروا ضابطها. فيلم يستلهم قصّة واقعيّة ويستعرض عبثيّة المواقف خلال الحرب.

ما من زجاجة بيرة واحدة، لا قطرة نبيذ، لا شيء، عدا الأشياء المهرّبة في طرابلس، طرابلس الإيطاليّة العاصمة المشؤومة للجمهوريّة الشعبيّة الهائلة وقائدها الدكتاتور المراوغ الذي يموت حكّام العالم حسدًا منه بسبب حرسه الشخصي المؤلّف من الأمازونات، النساء المقاتلات، المفتولات العضلات المدجّجات بالأسلحة المحاربات الحقيقيّات كرمى لمرشد الثورة، المتغّني بالوحدة الإفريقيّة، والكاتب، والشاعر، والحامي الأكبر لشعبه، منشئ «النهر الكبير الاصطناعي» الذي يجرّ المياه المستحجرة من الصحراء إلى الشاطىء للري، النفط الأزرق بعد الذهب الأسود، حقّق مفجّر ثورة الفاتح من سبتمبر حلمه بأن يسود على بلد آخر، أخضر كالإسلام، أفريقيا الخضراء، منح القذّافي ليبيا النهر الدائم الذي كانت تفتقده لكي تنافس مصر، الآن يستنبتون الخسّ في طرابلس الغرب، الخسّ والبندورة، لا شكّ أنّ العاصفة التي هبّت بوجودي كانت نعمة غير مسبوقة لأن جميع المراقبين يقولون إنّ السماء في ليبيا لا تمطر أبدًا، وإنّ التغيّر المناخيّ لن يحسّن الأوضاع، لكن بالعودة إلى ثلاثة آلاف سنة تقريبًا إلى الوراء كانت الصحراء مزهرة وإن كان يصعب تخيّل هذا، كانت هناك غزلان وقرود وأحصنة بريّة وأشجار أوكاليبتوس ويباب وأشجار جاكا، كلّ ذلك حرقته وطأة الحر دفعة واحدة، كل شيء تحمّص ولم يتبقّ إلا رسوم جداريّة رسمها سكّان تلك الحقبة وهياكل مدفونة تحت أطنان من الرمل الصواني، يروي أنّه في عام 1944 تحوّل بدو الشرق الليبيّ إلى أثريّي حرب، كانوا يفكّكون الدبّابات المحترقة والمدافع المهجورة ويأخذون صناديق الذخيرة الفارغة والأغراض المنسيّة في المعاقل المسلّحة، كان تجّار بنغازي يبيعون أطنانًا من الأغطية المثقوبة، والمطرات المبقورة،

ومدارج الأسلاك الشائكة، وعلبة موسيقى حتّى مصقولة وعلى غطائها وجه امرأة مرسوم باللّلك، أخبرني الحانوتيّ العجوز قرب السوق قصّة العلبة التي يبلغ حجمها أربعة سنتيمترات على اثنين، صُنعت بالقرب من فيينّا وقدّمت هديّة إلى أحد الجنود المأذونين، وقد وجدها النّهابون مع جثّته المدفونة تحت خندق رملي منهار، وفي حوزته رسائل وصورتان وساعة مكسورة، وأشياء خاصة لم يعرف البدو ماذا يفعلون بها لكنّهم باعوها بسعر جيّد في المدينة، بالإضافة إلى ستة ألغام مضادة للدبّابات قذفتها الرمال على مسافة خطوتين من الجثّة، ألغام ضخمة جميلة صفراء مستديرة وجديدة تمامًا وثقيلة جدًّا، البائع الذي استحصل على كلّ هذا لم يكن يعرف بمَ يمكن أن تُفيد ألغام مضادة للدبّابات في أوقات السّلم، ولكنه وإذ وعى خطورتها وضعها في إحدى الزوايا خلف دكّانه حيث لن يكون بمقدور أحد أن يمسّها عن طريق الخطأ ونسي أمرها، نسيها بحيث أنّها لم تنفجر إلا في تشرين الثاني 1977 إبّان الثورة الشعبيّة عندما أرادت اللجنة الثوريّة أن تضع يدها على الثروات المخفيّة للمتعاون مع الأمبرياليّة، لم يكن المسؤول عن كومندوس المساواة قد رأى من قبل لغمًا ألمانيًّا، خيّل إليه أنّه اكتشف ذهبًا أو معادن ثمينة بهذه الصفرة وبهذا الثقل مخبّأة بهذا الحرص في كيس في آخر المستودع، كانت ألغام *Tellerminen 35* مجهّزة، لم ينتبه أحد لذلك، جاب البدو الصحراء لثلاثة أيّام مع هذا الحمل الذي يمكن أن ينفجر في أيّة لحظة، ووضعه التاجر في بنغازي بكلّ حكمة من دون أن يتلقّى المئة وخمسين كيلوًا من الضغط الضروريّ لانفجاره، وكانت الحميّة الإشتراكيّة ستوفّر الألغام لولا أنّ زعيم الفرقة، وهو طمّاع فضولي، لم يمسك شاكوشًا كان موجودًا هناك بالصدفة لكي يفتح غطاء هذه العلب الجميلة الذهبيّة: وعندئذ

طيّرت الثلاثون كيلوًا من ال .T.N.T التي تحتويها ليس فقط الثوريّ المتحمّس بل الدكّان حيث كان موجودًا أشلاء في الفضاء، وبعدما هدأ الغبار، بقي غرض وحيد سليمًا بين الأنقاض والرّدم وهو علبة الموسيقى الصغيرة المفتوحة التي راحت تعزف لحن *Lili Marleen* وسط الألغام وكأنّ شيئًا لم يكن، لكأنّ الجنديّ المقتول منذ ثلاثين سنة كان يغنّي أنشودة الانتقام، أهدته زوجته هذا البورتريه المميّز في علبة موسيقى لكي يفكّر بها عندما يستمع إلى أغنيته المفضّلة، وسط الصحراء، كانت تنتظره مثل ليلي في فيينّا لكنّه لم يعد أبدًا، واعتبر في عداد المفقودين في الرمال الليبيّة، لقد انقطعت أخباره، أحيانًا كانت تظنّ أنّه لا يزال حيًّا، وأحيانًا أنّه توفي، هل كانت تفكّر في علبة الموسيقى المزدانة برسمها المصقولة والموصى عليها بشكل خاصّ من أحد حوانيت كارتنر ستراس، هل سمعت، في حلم أخير، انفجار الألغام في بنغازي في 12 تشرين الثاني 1977، في اليوم نفسه لوفاتها في مستشفى فرانز جوزيف وقد بلغت الثانية والستين من العمر عندما صدح اللحن الصغير المعدنيّ على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر من هناك، في ليبيا *wie einst Lili Marleen, wie einst Lili Marleen* كانت النفحة الأخيرة من رامي قنابل نمساوي متحلّل في التراب منذ وقت طويل - أهديت علبة الموسيقى إلى ستيفاني لدى عودتي، رويت لها هذه الحادثة التي رواها لي البائع، أخذت الغرض الصغير المصنوع من خشب الأكاجو بأطراف أصابعها وكأنّ الأمر يتعلّق بجزء من جثّة ومن ثمّ دفنته في إحدى الخزائن كما دفنت ألغام *Tellerminen35* خلف الدكان بالقرب من سوق الجريد، وهي آخر أثر من الخمسين ألف ألمانيّ الذين قتلوا في المعارك في أفريقيا، هل لا تزال العلبة موجودة في الخزانة الباريسيّة، لا تزال ليلي تنتظر في

مكان ما *wie einst Lili Marleen*، سأنزل من القطار في محطة ترميني وأنا أصفر مثل الجنود الأميركيّين في 1944، هذه الأغنية لا تزال أفضل بكثير من أغنية *tiens voilà du boudin*، أفضل بكثير، هل هذا اللحن هو الذي فتن ميلان أستراي الأعور خلال زيارته للمجنّدين الفرنسيين في سيدي بلعباس، ميلان أستراي المعاق رمز المظاهر العسكريّة في نظام فرنكو، ومؤسّس إذاعة إسبانيا، أصبح بشكل ما وزير الإعلام، أشبه بغوبلز عسكري شغوف بمحاربي الساموراي في البوشيدو وبشرف المحارب تحت جميع أشكاله، ميلان أستراي ابن أحد الموظّفين المديرين للسجن خوسيه ميلان أستراي، أمضى طفولته بين المجرمين والجانحين، التحق كتلميذ في سلاح البحريّة بعمر السادسة عشرة، وأرسل في سن الثامنة عشرة بصفته ملازمًا إلى المعارك الإسبانيّة الأخيرة لما وراء البحار، إلى الفيليبين أوّلاً حيث استبسل في الدّفاع عن الحصون الصغيرة الضائعة وسط الغابات، وأظهر حتى النهاية شجاعة جسديّة خارجة عن المألوف وبرودة أعصاب شبيهة ببرودة أعصاب أندريا، راعي المحاربين الكبير، عاد مزيّنًا بالأوسمة ومتحمّسًا للدّخول إلى مدرسة الحرب، ثم أرسل من جديد إلى المستعمرات، إلى الغرب هذه المرّة، وهناك فقد ذراعه وعينه أثناء اشتباكين حصلا في حرب الرّيف مع محاربي عبد الكريم الخطابي - في ربيع 1951، بلغ ميلان أستراي الواحدة والسبعين من عمره، وحينئذ الجنرال العجوز الشغوف بقطع رؤوس البربر كرّس نفسه للثقافة والمسرح والزرزولا[1] والشعر، على غرار شقيقته بيلار وهي كاتبة شهيرة للمسرحيّات الهزليّة والشعبيّة في مدريد خلال السنوات العشر الأولى من

---

(1) Zarzuela دراما غنائيّة تتميّز بتناوب الكلام والغناء.

القرن الماضي، في عمر الواحدة والسبعين ميلان المتوحش يدير معهدًا غامضًا للجنود الأبطال الذين تشوّهوا خلال الحرب، كان يتشوّق لأن تؤخذ له الصور، وإحدى هواياته الأساسيّة كانت تقوم على أن يجوب محال التصوير باللباس المدنيّ والعسكري، مع أولاد إخوته وابنته، متقلّدًا الأوسمة أو دونها، كان يحلو له أن يصوّر جسده المشوّه ووجهه الذي يثير القلق في النفس سيّما أنّ جزءًا من خده الأيسر قد تقلّص بعد أن اقتلعته الشظيّة التي حرمته أيضًا من عينه، هناك صور له والعصبة على عينه على غرار القراصنة، أو مع نظّارة أحاديّة قاتمة، كمّه الأيمن متدلٍّ فارغ، ربّما كان ميلان أستراي الخالد يهوى التصوير لكي يكبح انحطاط جسده، لكي يوثّقه من أجل الأبديّة فتحفظ ذكراه جنرالاً يقظًا وشهمًا، ميلان أستراي يظنّ نفسه متحلّيا بنبل روحي كبير في هذه الصور الجامدة، فارسًا، رجلاً نبيلاً مستقيمًا وباسلاً خدم بلاده بشرف، وهكذا واصل مشاركته في نشاطات إذاعة إسبانيا الوطنيّة بمساعدة الجنود الذين واظب جيش فرنكو على تزويده بهم، كان يعشق الحفلات الموسيقيّة، وفي ذاك السبت من14 نيسان 1951 في مدريد، ارتدى بذلته الكاملة وذهب للاستماع إلى فتاة معجزة في الثانية عشرة من عمرها تعزف باخ وسكارلاتي، ميلان أستراي يفضّل الأوبيريت على غرار شقيقته، لكن ما همّ، فالحفلة الموسيقيّة التي ستقام بعد هذا الظهر الربيعيّ مثيرة للاهتمام ومنظّمة على شرف معاقي الحرب الوطنيّة المجيدة، فرنكو لن يتمكّن من المجيء لأنّه منشغل، وستمثّله كارمن بولو زوجته ذات الوركين العريضين برفقة ابنتها كارمنسيتا وزوجها اللذين أتيا للاحتفال بأوّل سنة زواج لهما، وشخصيّات ومدعوّين كبار، بعضهم جاؤوا من الأرجنتين للتباحث مع فرنكو الدوتشي الإسباني آخر ممثّل للفاشيّة العالميّة: وبفعل

مصادفة حيث التاريخ وحده يعرف كيف تتقاطع الظروف لخلقها، كان أنتي بافيليتش في مدريد مصحوبًا برئيس قيادة أركانه ماكس لوبوريتش[1] الذي كان في القاعة أيضًا، ميلان أستراي المؤسّس المجيد لفرقة المجنّدين لا يعرفهم، يعرف فقط أنّ عازفة البيانو كرواتيّة وتدعى ماريا ميركوفيتش وهي برفقة والدها وهو رجل متميّز وكاثوليكي متديّن وقد وصلا البارحة وهما لا يكفّان عن ترداد المدائح عن جمال مدريد والكنائس والبذخ التاريخي الذي اتّسم به عهد فيليب الثاني الحذر، صافح ميلان أستراي هذه العازفة العبقريّة للبيانو، الخجولة لكن ذات النظرة الحازمة التي تجوب أوروبا المدمّرة مسلّحة بفوجات باخ، ومعزوفات سكارلاتي بشكل استثنائي كتحيّة لمدريد، الفتاة اليافعة ووالدها ذهبا بالطبع إلى شارع لوغانيتوس خلف «الغران فيا» حيث أقام المؤلّف الذي كان أصله من نابولي، دومينيكو سكارلاتي أستاذ الموسيقى المطنب للملكة، الماهر في العزف على البيان القيثاري، تمرّنت أمّي لأجل المناسبة على سوناتتين صعبتين يجب أن تعزفا بسرعة قصوى، غالبًا ما حدّثتني عن هذه الحفلة، لا يزال لديها الصور موضوعة في كوادر من فضّة مزيّنة بشعار إسبانيا، وأيضًا بطاقة الدعوة وشريطها المخملي الأحمر، لا تزال أمّي تتذكّر والاحمرار يعلو وجهها أنّها أغفلت نغمًا إضافيًّا في السلم الموسيقي السابع من سوناتة سكارلاتي، كنت أريد أن

---

(1) ماكس لوبوريتش 1969-1914، ولد في البوسنة والهرسك وتوفّي في كاركاجنت، أوستاشي أدار معسكر اعتقال يازنوفاك، حتّى النازيون وصفوه في تقاريرهم بأنّه «ساديّ مطلق» و«مريض عقلي»، وقال بفخر: قتلنا هنا في يازنوفاك أكثر مما قتلت السلطنة العثمانيّة بأكملها إبّان احتلالها لأوروبا.

أعزف بسرعة قصوى، لقد جاء هؤلاء الناس إلى هنا ليستمعوا إليّ وأنا أعزف بسرعة، أغفلْتُ تكرار لحنين سريعين فتداعت السوناتة تحت أصابعي وانزلقت من إيقاعٍ إلى إيقاع كمن تبعثر على السلم، كان هذا رهيبًا - في الصفّ الأوّل كارمن فرنكو بملامحها القاسية، وميلان أستراي الأعور وبافليتش جامع العيون والآذان الصربيّة الأكبر، ولوبورويتش سفّاح يازنوفاك، أي جمهور مستمع! بعد ستّ سنوات فقط من الحرب، كان بافليتش ولوبوريتش لا يزالان على علاقة جيّدة، ويحدوهما الأمل الخفيّ لاستعادة كرواتيا الضائعة من جديد، جاء البوغلافنيك[1] الكرواتي من الأرجنتين إلى مدريد لكي يتفاوض مع فرنكو ويحثّه على تقديم المساعدة له، لم يستقبله الكوديو[2] وعهد بالقضيّة إلى معاون له، فنصحه هذا الأخير بالبقاء في بونس آيريس والتواري عن الأنظار، كانت حكومة بيرون تستقبله بالترحاب - خاطر بافليتش بذهابه إلى مدريد، لكنّه سيعود إليها بعد بضع سنوات وستحميه مرّة أخرى إسبانيا المتمسّكة بكاثوليكيّتها، لم تكن أمّي قد تجاوزت الثانية عشرة من عمرها حين قدّمت في14 نيسان1951 الحفلة على شرف يتامى كارمن دو فرانكو ومشوّهي ميلان أستراي، أفكّر بأن الجنرال ألقى الخوف، ولا شكّ، في نفس طفلة في هذا العمر، بُثّت الحفلة مباشرة على الهواء عبر إذاعة إسبانيا الوطنيّة، وبالطبع لم تنوّه الصحافة بوجود الضيوف الكرواتيّين الرفيعي المستوى، أتساءل هل كان جدّي مسرورًا برؤيتهم مجدّدًا هؤلاء الأوستاشيّين الناشطين، ربّما كان يفضّل نسيانهم، الواقع أن أمّي سمح لها بالتقاط صورة إلى جانب

---

(1) بوغلافنيك: فوهرر بالكرواتيّة.

(2) كوديو: زعيم إسباني، لقب فرنكو.

بافليتش المتهوّر المغرور إلى حدّ الوله، ومع ميلان أستراي أسد الريف المغربي العجوز بيديه المرتجفتين وقلبه المريض وجسده المتداعي، ومع كارمن دو فرانكو الصارمة المتظاهرة بالتقوى، وكلّ ذلك على إيقاع فوجات باخ البهجة وصوت البيانو الذي كان يحلّ مكان لحن أغنية المسير العسكريّة *soy un novio de la muerte* **أنا خطيب الموت، أنا الرجل الذي وسمه مخلب القدر وارتبط بالوثاق المتين لصحبة المنيّة المخلصة،** أيّة أغنية هذه، كلّ ذلك على أنغام إسبانيّة تخالها طالعة من سباق ثيران، حيوانات صحبة الموت، المقتولين بطريقة فنيّة على يد المصارعين اللابسين ثيابًا من ضوء، أمّي بعمر الثانية عشرة تعزف أمام هؤلاء الفرسان الذين تداعوا بفعل العمر، هؤلاء الفرسان ذوي الوجوه الحزينة الموسومة بالحرب والموت، على جميع أشكاله، الموت الذي يحملونه في أجسادهم بالذات كالجنرال أستراي، أو في أجساد الآخرين مثل لوبوريتش، أنا أيضًا خطيب المورا التي لا ترحم حليفة هاديس في قطاري الذي يزأر نحو العدم، أرتدي القناع الجنائزي لإيفان دوروا المجنون، ذاهبًا نحو روما ونهاية العالم وسط التلال التوسكانيّة غير المرئية في صحبة مسافرين أشباح وذكريات المجازر في حقيبتي، أنا ابن أمّي المسلّحة خلال هذا الحفل الإسباني بالمحاربين الحاضرين، تستمدّ طاقتها من هؤلاء الجنود الأبيّين لتنقلها إلى ابنها تاريخًا متوحّشًا لا ينثني، تركةً من القدر أحملها على الكتفين، فكلّ شيء متّصل بسواه، صمت الجمهور، وأنامل أمّي تبدأ بعزف الطباق **contrepoint** رقم 11 من **فن الفوجة** ré la sol, fa mi ré, do ré mi بسرعة كبيرة لكي تُسمع الأصوات الأربعة التي تتجاوب، لكي تطلق لأصابعها العنان أيضًا، تبقى أمام ماريا ميركوفيتش منجبتي أقلّ من عشر دقائق لتنهي فوجتها، بما تميّزت به من براعة واتّزان

وصلابة منذ ذلك الوقت، ضابطة مجلّة للإيقاع، بحيث أنّها رغم سنّها اليافعة توصّلت لأن تعزف كما لو أنّها تملك أربع أيد، التّتمة ستوقظ الجمهور، البريلود والفوجة على *ré mineur* للجزء الأول من كتاب باخ[1] *Clavier bien tempéré*، ميلان أستراي يحملق بعينه الوحيدة لكي يتابع حركة سلاميّات هذه الطفلة الفائقة الموهبة، الرقيقة جدًّا على مقعدها من المخمل الأحمر، في ضوء الربيع، عندما تفوح من مدريد رائحة الزهور والقمح النابت في كاستيلا، ماريا الطريّة العود والحازمة مع ذلك، جالت أنحاء فرنسا كلّها وهولندا وإنكلترا بعمر الثانية عشرة وهي تعزف باخ وسوناتات سكارلاتي، مرتدية فستانها الكريمي اللون، وأوروبا كلّها صفّقت لها، تلقّت من الورود آنذاك أكثر ممّا تلقّت في حياتها كلّها، كانت تعرف أمام من تعزف في 14 نيسان ذاك من 1951، وتريد أن تتجلّى، كارمن بولو دو فرنكو الصارمة أهدتها ميداليّة العذراء عربون شكرها، وأختي لا تزال ترتديها حتى اليوم - تلقّت أختي الإلهام المقدّس من زوجة الديكتاتور، وأنا من النظرات الحارسة لميلان أستراي ولوبوريتش، أستاذاي في النبالة العسكرية، واستمدّيت من توحّش بافليتش البارد، الرجل المسرّح شعره بعناية، وعيي الوطنيّ، هاكم الجنيّات الأوائل اللواتي انحنين فوق مهدي، والصور الأولى لقصّتي، من جهة هناك جدّاي لأبي اللذان شهدا اغتيال الملك ألكسندر في شارع كانوبيير، ومن جهة أخرى أمّي تعزف باخ وسكارلاتي لبافيلتش الذي دبّر الاعتداء

---

(1) كتاب ألّفه باخ بين 1722 و1744 ونشر عام 1799 من جزءين وكلّ جزء يحتوي على 24 بريلود وفوجة من السلالم الأربعة والعشرين- الكبيرة والصغرى- وقد أصبح أساسًا لجميع أنواع الموسيقى العالميّة.

على الملك، تلك هي أحابيل القدر، *wie einst Lili Marleen*، أشعر بوحدة موحشة في هذا القطار، الآن لم يتبقّ لي إلّا الإنحدار باتّجاه روما، لأيّ هدف، ما الهدف من ذهابي إلى روما، الانتقام من القدر البربريّ أو إيجاد قبر دافىء، أبدأ باستشفاف حصّتي من القدر، هل كانت أمي تعرف أيّ إله سيعزف على آلة مصيرها وأيّ معركة ستخوض عندما قامت بهذا الإجلال الوجيز للديكتاتور الكرواتي ولميلان أستراي في مدريد - ربّما كانت ترى نفسها عازفة منفردة كبيرة، لكنّ معجزة التفوّق بالنسبة لسنّها تبدّدت بالرّغم من جهود أستاذتها في المعهد الموسيقيّ إيفون لوفيبور Yvonne Lefébure التي هي نفسها عازفة بارعة منذ سن العاشرة، وما لبثت أن كشفت عن أنّها عازفة بيانو عاديّة فشغفها بالآلة أضعفته المراهقة ووطأة التقاليد الثقيلة والعائلة، أصبح الشغف واهيًا مجرّد شعلة صغيرة صقلتها الممارسة والتدريب: كانت العشرات من فتيات العائلات الراقيات الموهوبات نسبيًّا يأتين إليها ليتدرّبن على الاشتراك في مسابقة معهد الموسيقى الأعلى، لماذا اقترنت برجل قلّما كان يقدّر الموسيقى، لا أعرف لماذا أنا نفسي لم أستطع تقبّل ثقافة أمّي الموسيقيّة، كنت شديد الحساسيّة تجاه باخ وسكارلاتي والآخرين، مع أنّني أعرف هذه المؤلّفات عن ظهر قلب، الفن ينفّرني وأجدني غير حسّاس إزاء الجمال على حدّ قول ستيفاني السمراء التي كانت معجبة بأمّي أيّما إعجاب، كانت تقول لي إنّني محظوظ لكوني ابن فنانة من هذا المستوى، كيف يعقل ألّا أتعلّم البيانو، لا أعرف لماذا لم أتعلّمه، ربّما ببساطة لأنّني لم أكن موهوبًا، كنت موهوبًا أكثر في الرياضيّات ومبرمجًا لأصير مقاتلاً، هذا لا يعني شيئًا على أيّة حال، كان أخيل ذو القدمين الرشيقتين يعزف القيثارة ويتلو الأشعار تحت خيمته - أختي

ليدا حصلت على نصيبها من علم البيانو، وبقيت لسنوات عدّة متشبّثة بأمي كما القملة بخصيتي أندريا، أنا كنت الجمهور، وكان عليّ تحمل الحفلات الموسيقيّة الخاصة بالعائلة أيّام الآحاد بعد الظهر، بعد تناول الغداء، كانت أمّي تدعونا **قائلة تعالوا جميعًا، تعالوا، ليدا ستعزف لنا شيئًا ما**، وتروح أختي تختال في مشيتها كالحمامة المزهوّة بنفسها، ثم تضع مؤخرتها العريضة على المقعد، ويجلس جميع الحاضرين مصطفّين على الكراسي قبالة الآلة حيث جلست متباهية تعزف سوناتينة كليمنتي، لم أعد أعرف أيّ رقم، إلخ.، وكان أبي الرواقيّ يصفّق لها بحرارة: برافو عزيزتي برافو، لقد أجدت العزف وأمّي الأستاذة حتى العظم كانت تعقّب على كلامه قائلة، نعم، هذا جيّد، **لكن** «التامبو»، لكن «الكريشندو» لكن هذا لكن ذاك، وكل يوم أحد كنّا ننتظر كلمة **لكن** التي تعقّب بها والدتي على التّصفيق، كنت أخجل بدلاً من أختي، عندما أفكّر، أخجل من أن تستعرض نفسها على هذا النحو، ربّما كان خجلاً ممزوجًا بالحسد، ما الذي لديّ لأعرضه في النهاية ما الذي أملكه ويستحق التصفيق من قبل عائلتي، دخلت ليدا في القالب الذي أعدّ لها، فتاة شابّة مكتملة، ناعمة ومجتهدة، ثم غدت امرأة مضجرة لحدّ قاتل ووجدت لنفسها زوجًا تافهًا لحدّ الغثيان، وستنجب أولادًا سذّجًا تمامًا، وسوف يؤول بهم الأمر للعمل في المصارف أو شركات التأمين، ها إنّ العازفة ماريا ميركوفيتش تدهش ميلان أستراي في مدريد في 14 نيسان 1951 دون أن تعرف من كان هذا الجنرال الجامد ذو المظهر المريب، والآن على مسافة مئات الكيلومترات يفكّر فرنسيس الجبان في والدته وفي هذا المعاق الشهير داخل قطار يتقدّم نحو العدم في الليل الإيطاليّ، وحيدًا كنجمة في مساء غائم، في أيّ قالب غامض تقولبت أنا وأيّ أستاذ سيخرج من العتمة

ليقول لي **كان هذا جيّدًا جدًّا لكن...**، ربّما ليبيان بين محارتين أو سباقي درّاجات، أو موريس بارديش نفسه الفاشيّ العجوز سيقول لي: **أحسنت صنيعًا ولكن.** أو ربّما عزرا باوند مدوّن الأخبار في إذاعة إيطاليا الموسولينيّة سوف ينبثق من الظلمات لكي يهمس في أذني *it was perfect but...* أو تيهومير بلاسكيتش كولونيل فيتاز سيترك عزلته البوسنيّة ليناديني قائلاً *vrlo zanimljivo, ali se...*، وماريان ستمسك بأطفالها الخمسة وسينتظرونني جميعًا على أحد أرصفة المحطّة لكي يرفسوني في خصيتيّ وهم يقولون لي، **بإمكانه أن يفعل أفضل**، وستيفاني المتألّمة أشدّ الألم ستنظر إليّ كملاك يعلن نهاية العالم وسأفهم من نظرتها أنّه كان بإمكاني أن أكون أفضل، وسأدرك أنّني لم أكن على المستوى المطلوب، الناس يفقدون اعتبارهم، أيّتها الأشباح كوني متفهّمة، إنّها نهاية الأزمنة، لقد تعب فرنسيس، وهو يرزح تحت وطأة حمله، هل تدركون ما أقوله أنتم الذين كلّكم مسيحيّون متديّنون وتؤمنون بالملتحي وبصليبه الثقيل، خذوا بعين الاعتبار شقاء فرنسيس حامل الحقيبة الغارق في كنبته داخل مقصورته من الدرجة الأولى، الذي سحقته الكحول والتعب وحبوب الأنفيتامين، وسحقه الموتى والأحياء ولم يتوصّل حتّى الآن إلى إيقاف دماغه عن العمل، وأفكاره عن الشّرود، المنظر الأسود المتماثل أمام ناظريه والأطياف تنهش قدميه، لقد طلع القمر، اخترقنا الغيوم، الكوكب وسط النافذة يضيء أرجاء إيطاليا الوسطى، في مكان ما لجهة سان جيوفاني فالدارنو، مار يوحنا على الأرنو، مدينة المعمدان المقطوع الرأس، بين فلورنسا وأرتيزو، في غضون ساعتين سأكون في روما، لقد أنجزت الجزء الأكبر من مهمّتي، أتناول من جديد الكتاب الموضوع على الطاولة الصغيرة، رافائيل كحلة ولد في لبنان عام 1940،

كما تقول الصفحة الأخيرة من الغلاف ويعيش اليوم بين طنجة وبيروت، صيغة غريبة، بين طنجة وبيروت هناك سيتة، وهران، الجزائر، تونس، طرابلس، بنغازي، الإسكندريّة، بور سعيد، يافا، عكّا، صور، صيدا، أو بالأحرى بلنسية، برشلونة، مارسيليا، جنوب البندقيّة، دوبروفينك، دورّيسن أتينا، سالونيك، القسطنطينيّة، أنطاليا، اللاذقيّة، أو أيضًا بالما، كاغلياري، سيراكوز، هيراكليوت، لارنكا، هذا إذا أخذنا الجزر بعين الاعتبار، طنجة حارسة ثغر **المنطقة** الأسفل، رافائيل كحلة كاتب لبناني يقيم إذًا جزئيًّا في مركز التجارة الأكثر تغربنًا لأجداده الفينيقيّين، طنجة القرطاجيّة التي هي اليوم مدينة مغراء وبيضاء، عاصمة الهجرة السرّية والسياحة والتهريب، بمرفئها الذي يعجّ بالأفارقة الآملين برحيل محتمل إلى إسبانيا القريبة جدًّا، أتخيّل رافائيل كحلة مقيمًا في المدينة العتيقة، في أحد هذه البيوت التقليديّة ذات الباحة التي تتوسّطه والتي سطوحها شرفات تطلّ على الخليج، أحد هذه البيوت التي أقام فيها وليم بوروز في أواخر 1953، كان آتيًا من روما بعدما جاء من أميركا الجنوبية حيث كان يبحث عن نبتة الياجي التي يتناولها الراؤون والوسطاء الروحيّون، كان آتيًا من مكسيكو حيث صرع زوجته جوان برصاصة في رأسها، كان آتيًا من نيويورك حيث وقع في غرام آلن غينسبرغ الذي طرده، كانت روما تضجره حتى الموت، فيها الكثير من التماثيل، والقليل من المراهقين المُرْد، والقليل من المخدّرات والحريّة، **روما الزاحفة إلى موتها جرّاء مرض في العين**، كما كتب، بوروز الخبير في معرفة آثار المحرّكات العقاقيريّة النفسيّة سيعيش بعد كيرواك وكاسيدي وغينسبرغ وابنه بالذات بيلي بيروز الكحولي، وسيعمّر رغم المورفين والهرويين وال LSD والفطريّات وسيموت في سن متأخّرة بعمر الثالثة والثمانين– في

طنجة أقام في نزل هو بمثابة ماخور للأوروبيّين اللوطيين، وكان مرتاحًا في وكر الجراذين هذا، الحشيش رخيص وأيضًا الفتيان اللوطيّون من أهل الريف المغربي الذين تدفعهم الحاجة والعوز إلى أذرع الغربيّين أيضًا، كتب وليم بوروز روايتي *Interzone*، **والوليمة العارية** خلال أربع سنوات أمضاها في تعاطي الماريجوانا والمسكّنات والكحول ومضاجعة المتعهّرين الذكور، يعشق المدينة المنعزلة عن محيطها حيث يتمّ التساهل في تطبيق القوانين العامّة فتصبح كأنّها عش الجواسيس وتجّار الأسلحة والمخدّرات، بوّابة **المنطقة** تلهمه، أصبح وليم كاتبًا لأنّه قتل زوجته وهو سكران في أحد بارات مكسيكو عندما كان يلعب على غرار غيوم تل[1] مع كأس وضعها على رأس زوجته فاخترقت الرّصاصة عن طريق الخطأ صفحة جبينها، هذا المشهد يسكنه، البقعة الحمراء، الرأس الذي يتراجع إلى الخلف، الدم المنبجس من الجمجمة المفتوحة والحياة التي تنسلّ منها، لوري السكير أوشك أيضًا أن يخنق زوجته عدّة مرّات - ترى لماذا أصبح رافائيل كحلة اللبناني كاتبًا، ربّما كان السبب العنف نفسه أيضًا، أتخيّله مقاتلاً خلال حرب بيروت، من يدري، ربّما صرع صديقه عن طريق الخطأ أو أجهز على مدنيّين بوحشيّة، ربّما صرع مثل إدواردو روسا المتطوّع الهنغاري في كرواتيا، قاتل الصرب العظيم، الصحافيين الاثنين اللذين اتّخذهما كجاسوسين قبل أن يخوض غمار كتابة سيرته الذاتيّة، بوروز الرائي رأى من جديد زوجته الميتة، في طنجة، يحدّثها عن الليل، يفكّر بها حتى

(1) غيّوم تل Guillaume Tell: بطل وطنيّ سويسريّ، يمثّل جزءًا من حكايات استقلال سويسرا، أصاب بسهم التفّاحة الموجودة فوق رأس ابنه.

عندما يلحس الفتيان العرب جراح روحه، يفكّر في جوان الميتة وبنفسه خصوصًا في المدينة غير الموجودة الإكزوتيكيّة التائهة في مكان ما بين الأطلسي والبحر الأسود، في مقهى فرنسا، في مقهى «طنجيس» حيث الخدمة سريعة والأصناف طازجة كما تشير اللافتة، بورروز يحوم بين عالمين مثل صقر فوق صحراء سونورا، في طنجة البيضاء التي لطّخها الزمن وسط طرطقات مجرّ آلته الكاتبة وتنهّدات المجامعين المأجورين في الغرف المجاورة - بين عالمين في مدينة تائهة ضائعة في التاريخ، لم أكن أكتب، كنت أشرب وأمشي وأقرأ وأنا أحمل على كاهلي جرائم القتل كما يفعل بورروز، كنت أقرأ قصصًا بين الأشباح التي تلائمني جدًّا، اخترت البندقيّة لأنّنا لم نستطع الذّهاب إليها أنا وفلاهو وأندريا، كانت بعيدة جدًّا ومكلفة، توقّفت رحلتنا الأدرياتيكيّة في تريستا الهابسبورغيّة، تركت زغرب وصعدت في باص إلى البندقيّة وبردعتي معي من القماش الكاكي وأقمت في أحد فنادق كاناريجيو، أذكر منذ زمن طويل لم أكن قد أخرجت بطاقة اعتمادي، كانت ملتصقة بمحفظة جيبي وعليها بقع صغيرة خضراء على قفاها فأخذتها موظّفة الاستقبال منّي باشمئزاز، تولّد لدي انطباع بأنّ رائحة الحرب النتنة كانت تفوح منها، ومنّي أيضًا ولا شكّ، رائحة الحرب وشحم البندقيّة والرطوبة والتبغ والمخلاة الخضراء، كان شعري قصيرًا جدًّا وكانت عيناي جاحظتين ومحمرّتين، خطر على بالي أن أتوقّف ليومين في البندقيّة وأستقلّ الطائرة عبر مطار ماركو بولو ليلاً إلى باريس لكي ألتقي بماريان ذات النهدين الأبيضين، لكنّ شيئًا ما حلّ بي فلم أجد القوّة لذلك وأنا محاصر هكذا بين عالمين، كنت أجوب المدينة ليلاً مدينة الصمت الكبير والضباب والطاعون، عثرت على شقّة الغيتو بالصدفة وأنا أمرّ من أمام

دائرة عقاريّة في سان بولو، غادرت الفندق واشتريت بطاقة هاتف واتّصلت بماريان ذات مساء متجلّد من حجرة قريبة جدًّا، وتحدّثت إلى ماريان، لم أكن أتحدّث إليها بل أنظر إلى المراكب والقوارب الراسية في القنال الصغير على بعد مترين من الهاتف العمومي، قلت في نفسي سأبقى هنا لفترة قصيرة بعد، على ما أظنّ، أجابت سآتي إذا شئت، لم لا كنت راغبًا في أن تأتي وكان صوتها يدفئني، عدت لكي أتدثّر في سجّادتي العجميّة وأشخص إلى السقف- ما الذي أنقذني من الغرق في البندقيّة، لا أعرف، ماريان ربّما، أو غسّان، أو أنا نفسي، أو شبح أندريا الذي يخالطني، غضبه المسعور، لو كان لديّ ذرّة من الإرادة أو الثقافة لكنت أصبحت كاتبًا ربّما مثل بورروز في طنجه لكنّني كنت غير قادر، غير قادر على أيّ شيء كان، ماريان هي التي خابرت والديّ لتقول لهما إنّني بخير وإنّني أمضي فترة نقاهة في البندقيّة، كنت أمضي فترة نقاهة وأشرب وأدفع ثمن ما أشربه من رواتبي العسكريّة الهزيلة المتراكمة ومدّخراتي الباريسيّة، وألتهم حبوب الأنفيتامين الأخيرة التي في حوزتي، لم أكن أملك المخدّرات الباعثة على الإبداع، كانت فقط لتمدّني بالقدرة على السير ليلاً لساعات وساعات، والنوم قليلاً وكأنّني لا زلت على الجبهة، تساعدني على البقاء مستيقظًا لكن لأجل لا شيء هذه المرّة، لكي أرتجف عندما ينبثق مجهول من الضباب، كنت أبحث عن مكامن ليليّة تحسّبًا للأشباح، سكران ومخدّرًا أمشي بمحاذاة المباني بخطى صامتة وفي يدي بندقيّة وهميّة، ألقي نظرة خاطفة على مفارق الطرقات قبل أن أجتازها راكضًا منحنيًا وكأنّ قنّاصًا مجهولاً يراقبني ليرميني أيضًا برصاصة من إحدى نوافذ فندق بالاتزو غواردي، أستعيد أنفاسي وظهري ملاصق للحائط ثمّ أرمي قنبلة وهميّة في الزاوية غير المرئيّة من الشارع، يخفق قلبي بسرعة مئة

وأربع وثمانين خفقة في الدقيقة، أخوض غمار المعركة المحتدمة وسط صمت الهور المدمدم، أنصب كمينًا قاتلاً للفابوريتو رقم واحد، القارب الوحيد الذي يصعد القنال ليلاً، أنتظره وأنا أحمل قاذفة قنابل مضادة للدبّابات في آخر طريق مسدودة بالقرب من متحف دلا أكاديميّا، سكران هاذيًا أسدّد على القناديل الصغيرة المتراقصة فوق الماء القاتمة وأصوّب نحوها متخيّلاً أنّ السهم الناريّ الذي يحدث صفيرًا سيصيب مركبًا صغيرًا فينفجر ويحدث وهجًا ينير واجهات القصور والكنائس، أتخيّل الانفجار والوهج الذي أحدثه والأنوار التي سطعت تجعلني أغلق عينيّ، لقد أصبت الهدف، أصبته، لقد أغرقت سفينة الأعداء، سفينة السيّاح الأميركيّين الذين غاصوا في الظلمة والتحقوا بالجراذين في الأسفل، يا لفرحتي، أشعل سيجارة وأعود لأجوب الأزقّة مواصلاً لعبة الجندي وهذا لساعات في الليالي أهجس بذكرياتي، من السهل أن تعيش كوابيسك في عتمة البندقيّة، في الوحدة، لأنّ لا شيء حيًّا من حولك، ما خلا أطياف الضباب الميتة وصرخات أبواق الضباب، لدى وصولها قالت لي ماريان أشعر أنّك عائد من مكان بعيد جدًّا، نعم أنا عائد من مكان بعيد، كنت غير قادر على مضاجعتها، لا زلت أستشعر على جلدي احتكاك أجساد العاهرات والمسلمات المغتصبات والجثث، لم أعد بعد إلى ذاتي، كنت في «الباردو»[1]، غرفة انتظار الأرواح الهائمة، وشيئًا فشيئًا، كلّما شربت مع غسّان، وجدت لي موقعًا فيزيائيًّا في عالم الليل وصرت كائنًا جديدًا، شعرت أنّني أقف على الأرض مجدّدًا وأمشي قليلاً على ماء الهور، استعدت أخيرًا

---

(1) باردو: في البوذية حالات الوعي والادراك التي تتوالى من الموت إلى الانبعاث.

هذا النّوع من الوهم، وكلّما فكّرت في استرداد جسد جديد كلّما رغبت في تجريبه على جسد ماريان التي كانت تعاني إرهاقًا فكريًّا وجسديًّا كبيرًا إذ كانت منصرفة إلى تحضير شهادة الأستاذيّة فتنهض باكرًا وتعمل طيلة النهار ثمّ تذهب للرّكض ثلاثين دقيقة كلّ يوم بعد الظهر في الساعة السادسة تمامًا على أرصفة زاتيري، لم تعد راغبة في ممارسة الحبّ، وأنا كنت أعود إلى الحياة وعضوي الشبحيّ عاود انتصابه مثل سروة في مدفن، كنت أفرغ ماريان من رغبتها، ومن حيويّتها، ومن مالها أيضًا، أمتصّها وأنهكها وأنا أجذبها إلى القاع معي، وعندما أخرج مساءً لنزهتي الليليّة كي أروّح بها عن أرقي بانتظار لقاء غسان، كانت تطلب منّي أن أبقى في رفقتها في صمت الغيتو الرطيب، كنت أبقى في داخلها وأهمس لها موافقًا، لم لا، بنبرة فاسقة، وأحيانًا كانت يائسة من الوحدة لدرجة أنّها كانت تستسلم لي فتفرج ساقيها وعضوها جافّ تمامًا، كنت أؤلمها وأنا أزفر فوق كتفها دون أن تأتي بحركة، خاضعة، مغمضة عينيها، وكان القذف يغرقنا على الفور في الحزن، شعرت بالخجل لكوني أرغمتها وهي، كانت تدرك أنّني سأتركها وحيدة في جميع الأحوال بعد أن أروي غلّتي، وعندئذ، لكي أتفادى الشعور بالعار وأتحاشى نظرتها أرحل خفية فيما هي تتظاهر بأنّها نائمة، وأنزل الأدراج بعد أن أفرغت خصيتيّ جيّدًا، أشدّ قلنسوني السوداء فوق جمجمتي، وإذ أشعر بالبرد ينتابني أهرول دومًا لأتدفّأ في الاتّجاه نفسه نحو «رصيف النسيان»، إلى حانات آلدو، وموفّق السوري، أو حانة Paradis-Perdu، كنت أجتاز الساحة الكبيرة للغيتو المقفر، كان كلّ شيء في البندقيّة يقفل في ساعة مبكرة وهذا بموجب قانون يقضي بالحدّ من إحداث ضجّة في المدينة- الشبح، الحواضر التي على فراش النزاع تبدأ بتنظيم احتضارها بتقديم

ساعة إغلاق المحال المسبّبة للضياع، إلى درجة تحويلها إلى صالونات شاي مع رخصة خاصّة لتبقى مفتوحة حتّى منتصف الليل، يحلم عمدة البندقيّة المنتخبون بجدارة من نساء عجوزات يرتدين الفرو ويخلدن للنوم في ساعة تقديم المازات بإسكات آخر أصوات الحياة في المدينة الأكثر صمتًا في العالم: السيّاح يخلدون للنوم باكرًا، السيّاح الذين تعبت أرجلهم من الدوران في المدينة يعودون بسرعة إلى الفندق لكي يستنفدوا آخر ما تبقّى من قوّتهم في المضاجعة ومن ثمّ يغرقون في نوم عميق يهدهدهم الإصطفاق الناعم للقنال الفسيح على الأوتاد والجسور الصغيرة لكي لا يقال إنّهم لم يتناكحوا في عاصمة الغندول والرومنطيقية، غافلين عن أنّ الرومنطيقيّة كانت مرض الموت، طاعون الشعور الأسود والجنون، ينسون أنّه عندما يقال *it is so romantic* فهذا يعني في الواقع **مسقم إلى حدّ مميت**، ماريان استشعرت ذلك، من ناحيتها، حتى لو لم تكن مسلولة كسيّدة الكاميليا، كانت تخضع لهجومات المحارب القديم العنيف السكّير الذي يختصر في شخصه جميع الكليشيهات الذكوريّة المطلقة، واليوم في هذا القطار الذي فرغ من ثلاثة أرباع راكبيه، أشعر بإلاخفاق بعنف لا يغتفر، كما حصل مع ستيفاني بعد عشر سنوات من ذلك - أغمضْ عينيك يا فرنسيس، أكفكف دمعة غضب لا يمكن نسيانها حتّى في النوم، ربّما كان بوروز في مثل هذه الحالة في طنجة، خارج طوره، محاربًا البهيمة السوداء للذكرى والعار، البومة ذات القوائم العنكبوتّية الملتصقة في زاوية الذاكرة، وعلى غرار ماريان، تلتصق ستيفاني السمراء ذات الشعر الطويل الخبيرة في جيوسياسة المنطقة بسقف منزلي مثل حشرة، أشياء كثيرة حصلت لي، أشياء كثيرة، ووزنها ثقيل جدًّا حتى أنّ قطارًا بحدّ ذاته لن يستطيع نقل هذه الذكريات إلى

روما لفرط ما هي ثقيلة، أثقل من كلّ الجلّادين والضحايا في الحقيبة فوق مقعدي، هذه المجموعة من الأشباح التي بدأت مع هرمان جيربنز، عجوز القاهرة، هرمان جيربنز ذي الشاربين الحزينين المسجون في القناطر في القاهرة، كان قدره غريبًا، هرب من البوليس الهولندي لكي ينتهي مسجونًا في مصر، يجب أن يكون المرء أشبه بالقدّيس كريستوف ليستطيع تحمّل كل هذا، الصور الثلاث والأربعين لجيربنز والصفحات التي يورد فيها تعليقاته في يوميّاته، جيربنز المغتصب، والمؤرشف، والمخرج الكبير لبورنوغرافيا المعتقلات، في البداية لم أكن أعرف الهدف من تجميع هذه المعلومات والأسماء والصور يمنة ويسرة، في الفيشات الهائلة لمركز الاستخبارات أوّلاً ومن ثمّ أبعد فأبعد، لأيّ سبب قمت بهذه الأشياء، ليس رغبة في المعرفة ولا بدافع الحاجة إلى الفهم بل لبلوغ مرتبة في خضمّ هذا العالم المفكّك، كان بوروز في طنجة يصارع عنفه بالذات من خلال الإدمان على المسكّنات والكحول وحشيشة الكيف، كما عاقر مالكولم لوري الخمرة، طنجة مدينة الجنوح، والوهم الكبير، والتهريب، الضائعة لوحدها على الشفة السميكة السفلى للمنطقة، وليم بوروز الأميركي، هل كان يشتاق إلى ضفاف الميسيسيبي، إلى نيويورك التي في منتهى التنظيم، إلى نخلات بالم بيتش، إنّه في مكان آخر، تلك الليلة من تشرين الأول 1955، لا ينام ولا يكتب ولا يقرأ بل هو جالس على كرسي من خشب وعيناه غارقتان في الظلمة، في الخارج أو في الداخل، يدخّن سيجارة محشوّة بمعجون الماريجوانا، والنافذة مفتوحة، لا يزال الطقس جيّدًا رغم حلول الخريف، وليم في الواحدة والأربعين من عمره، في سنّ النضج خلفه الجدار المتّسخ قليلاً يستمع إلى أحدهم يتأوّه، يتأوّه لثانيتين لثلاث، يتوقّف ثم يبدأ من جديد، على

إيقاع بطيء، هانئ، رجل يتأوّه وفمه مغلق، ينفث بورروز دخان سيجارته، يصيخ بسمعه كلّه لدرجة أنه يشعر أنّه تحوّل إلى وطواط يطير في الغرفة المجاورة، أذناه مصغيتان مفتوحتان على مداهما، يسمع صرير الأسنان المشدودة للرجل المتأوّه، يشعر بورروز أنّ أسفل خصيتيه ينقبض بقوة وكلّما أصاخ السمع انتفخ عضوه، يا للسعادة، يفكّ أزرار بنطاله ليتيح لعضوه التفتّح في الهواء الطلق وسط النفثات الرماديّة، ينفث على إحليله ناظرًا إلى عين عضوه الوحيدة وهي تتجرّع الماريجوانا أشبه بالشفة الصغيرة لفم سمكة الشبوط، تنفتّح وتدخن بدورها وتزداد ضخامة، يراقب عضوه يتصلّب على إيقاع تأوّهات الرجل في الغرفة المجاورة، يشعر بالفضول، بالاهتمام، بالانبهار لمرأى الشرايين الزرقاء تخدّد عضوه بالذات، يلقي بورروز السيجارة جانبًا للحظة لكي يأخذ كيس البلاستيك الموضوع على الطاولة، الظلام من حوله، يمكنه التركيز على الأنين المتتالي يزداد سرعة وقوّة في الغرفة المجاورة فيما يتعدّى اصطكاك كيس البلاستيك الملتصق بفمه ومنخريه، يشعر بضيق في التنفّس، كلّما شهق أحسّ بصعوبة متزايدة في إيصال الهواء إلى رئتيه، رأسه مغطى بالكيس تمامًا، يده تنقبض على العضو الملتهب بين ساقيه، يبدأ بالتأوّه بدوره، وكلّما تأوّه ضاق نفسه باطّراد وكلّما أحسّ بضيق التنفس هزّ عضوه المفرط في الطول وأخذت أذناه في الدمدمة، يشعر بالحرّ الشديد، يرى كلّ شيء أمامه متوهّجًا، يشعر بأجساد ناعمة وقويّة في آن تضغط على جسده، بورروز غارق بكلّيته في جسده وخارجه أيضًا، تحوّل الوطواط إلى خنفساء طائرة، ينتعظ جسده بقوّة متزايدة ويلهث بعنف ويسيل ريقه على جوانب الكيس، يرى نفسه برفقة جوان الخنثاويّة، جوان الخنثى الميتة تمسك به فتغرز اصبعين في بلعومه وآخرين في

إسته، يشعر بالألم، تنقبض تفاحة بلعومه، يختنق، يسحق عضوه مثل سمكة فينبجس المني وينقذف وينفجر بوروز ينفجر على شفير أن يفقد وعيه، نسغه يتطاير في المساء ودبق جسده يحوّم لوهلة وكأنّه الانتعاظ، لا يستطيع الصراخ، لا يستطيع الصراخ، سيختنق، طبلتا أذنيه تطنّان، يتخبّط بذراعيه وساقيه غارقًا في منيه المنساب على فخذيه فينتزع الكيس من رأسه، ويشهق ويشهق ويشهق ينتشي مرّة أخرى وهو يفتح عينيه والغرفة المبهمة تترنّح من حوله في صمت طنجة الصاخبة، يسقط على الكرسي متهالكًا، يعبّ بوروز الهواء - يعبّ الهواء، يعبّه، عميقًا، نجا القلب، يشعر بارتياح تام، رخوًا، مرتخيًا يراقب مبتسمًا قطرة محبحبة خيطًا أبيض يتدلّى من سبابته، ينظر إليه طويلاً ثم يلحس اصبعه بهيئة فضوليّة، يشعل سيجارة حشيشة من جديد، يحرق الدخان أغشيته المتقرّحة، يرتخي تمامًا، كيس البلاستيك على الأرض الآن، يشعر بوروز بألياف الأسل في الكرسي تؤلم مؤخرته، يشعر بالعطش، يجرع ما تبقى من بيرته حتى آخر قطرة جرعة واحدة، هل خطرت على ذهنه قصيدة، هل خطرت له فلذة من كتابه ***Interzone***، هل خطر له شيء آخر غير النّوم، الحرّ سيوقظه، طلع النهار وذراعاه مطويّتان على الطاولة، متداعيًا وسخًا وسيجارة الحشيشة المطفأة لا تزال في يده، منسحقًا تحت وطأة اللذّة والموت في الانعكاسات المزرقّة لخليج طنجة حارس المتوسّط، في صباح اليوم التالي بوروز لا يزال وليم بوروز، مرتجف البدن، مكسّر الأوصال، أخذ دشًّا وجيزًا في غرفة الحمّام المشتركة ونزل ليتوه وسط الحشود المتحرّكة، أين سيذهب لشرب القهوة، أتخيّله في كافيه بابا، لا أعرف إذا كان لا يزال موجودًا آنذاك، لكأنّ مقهى البابا في طنجة موجود منذ الأزل هناك، منذ أيّام الفينيقيين التجّار الذين لا همّ لهم

سوى الربح، أجداد غسان والكاتب رافائيل كحلة، طاولات وكراسٍ وملصقات قديمة على الجدار، خدّام لطيفون وشخصيّات طنجة الأسطوريّة جالسة أمام الطاولات كلّها، بوروز، بول بولز الرجل الأزرق، جان جينيه، تينسي وليامز، محمّد شكري البائس المعدم، في مقهى البابا اليوم ملصق لفريق كرة القدم البرشلوني برشا الذي يعشقه المغاربة وأجهل السبب، يتعاطفون مع هذا الفريق القشتالي الذي لا يملك نصف ألقاب غريمه المدريديّ، ربّما كانت ألوان لباسه الأزرق والأحمر تذكّرهم بقصّة مجيدة، هل كان جان جينيه يهوى كرة القدم، لا أعرف، لكنّه كان بكل تأكيد يحبّ الرياضيّين البهيّي الطلعة وهم يركضون في سراويلهم القصيرة على العشب الأخضر الداكن، وصل جان جنيه إلى برشلونة قبل ثلاثين سنة من قدومه إلى طنجة المريبة، برشلونة مدينة سوداء، مرفأ تتصاعد منه رائحة المقالي والشحّاذين، تجد آثار الدم المتجمّد على سكاكين الجيب ذات المقابض القديمة الموجودة في سوق الأغراض المستعملة، في الأزقّة المنحصرة بين المرفأ وجادة باراليل وقع جان جينيه في غرام أحد الصربيّين الذين تفوح منهم رائحة دهن الشعر والقذارة، جينيه يهتاج عند رؤية المجرمين، جينيه يهتاج عند رؤية المجرمين كما ينتصب آخرون لدى رؤية الجنود، جينيه ينتصب لأجل صربيّ فارّ من فرقة المجنّدين الأجانب، صربيّ أكتع وسارق وقوّاد يهين جينيه وجينيه يهينه بدوره، صربيّ حارب في الحرب العالميّة الأولى ونجا من الهزيمة والموت، وهام على الطرقات إلى أن تجنّد في جيش ميلان أستراي عاشق الموت لكي ينتهي هو نفسه معاقًا مثل الجنرال عاشق الرؤوس المقطوعة، ثم متسوّلاً وسارقًا ومتاجرًا بالأفيون وعشيق جان جينيه الملهم مضاجع الذكور، كانت ستيفاني تبحث دون جدوى عن آثار هذه الحقبة

المجيدة حين كان الأديب يضاجع البحّارة لقاء بعض البيزيتات، دون أن يخطر على بالها، بالطبع، أن شرطها بالذات كسائحة يشكّل دليلاً دامغًا على تحوّل المدينة عن الفترة التي عاشها جينيه قبل الحرب الأهليّة، المال والأجانب يفترضان زوال الأحياء المشبوهة عن سائر أنحاء المدينة، وبدا لي من الجبن بمكان أن تبحث ستيفاني بحنين عن الأماكن التي كان يجري فيها احتقار الفقراء والعواهر واللصوص فيما هي تنزل في فندق شبه مترف مخصّص للطبقات الأوروبية المتوسّطة، وفيما لا تحتمل النسخة المعاصرة لرعاع المدينة في فترة ما قبل الحرب، كان المغاربة ينتظرون طيلة النهار وظهورهم لصق الجدران شيئًا ما لن يحدث، وكانت العاهرات السوداوات الضخمات يتخاصمن مع العاهرات القاصرات الهزيلات الآتيات من الشرق، والجميع محاصرون، يرغمهم الشرطيّون بضربات سريعة من هراواتهم على الانكفاء إلى الشوارع الضيّقة لكنّهم يعودون باستمرار بعدما يعتقلون عنوة لمرّتين فيطلب منهم رجال الشرطة بألّا يتجمّعوا في أماكن محتشدة بالمارّة، وتصدر إليهم الأوامر بأن يكونوا أكثر تكتّمًا أو أن يختفوا بسحر ساحر، ويطردون معظم الأحيان من الشوارع دون مراعاة، كانت برشلونة تسعى إلى اقتلاع الدّعارة من الشارع لكي تجعلها حكرًا على المواخير البرّاقة العصريّة المزوّدة برشّاش ماء في كل غرفة وشهادة صحيّة - كانت ستيفاني تستمتع بتخويف نفسها مقترحة عليّ أن أصطحبها إلى ماخور ظريف حيث يمكننا أن نضاجع امرأة جميلة نظيفة، كانت الفكرة تثيرها كثيرًا، أذكر ذات مساء في الفندق بعد أن شربت قليلاً أسرّت إليَّ بالفانتاسم الذي يراودها في أذني، وبالطبع أعطيتها جوابي، شرحت لها عن عادات بيوت الدعارة، إذ شعرت برغبتها تتنامى، كنت أعرف أنّ ستيفاني

فتاة حسنة الأخلاق، محدودة بحكم طبقتها الاجتماعيّة وتربيتها وأنّها لن تذهب أبدًا إلى مكان مماثل، لكن ما همّ كنّا في عطلة، بعيدًا عن بولفار مورتييه حيث تحاك المؤامرات الدوليّة، بعيدًا عن الملفّات وعن كلّ شيء جديّ، لم أكن أخرج من **المنطقة** إلا لمعالجة بعض الأمور المهمّة الطارئة، إلى بيت فرنسيسك بويكس المصوّر في معسكر ماوتهاوزن، معسكر بوتا[1]، مبنى الشرطة شارع لاييتانا حيث كان الفرنكيّون يعذّبون كلّ من يقع تحت أيديهم، السجن النموذجي شارع إنتنشا الذي كان والد ميلان أستراي يديره، عليّ أن أفكّر بكل ذلك وأنا أضاجع ستيفاني، ستيفاني عاشقة بروست صباحًا وسيلين مساءً، أشعر بالعطش فجأة، بإمكاني العودة إلى البار واحتساء شيء ما ربّما كأس ماء غازيّة فقط لكي أرطّب حلقي الجافّ بفعل الجن والتبغ، في الخارج الظلمة حالكة بالرّغم من القمر، التلال تتموّج بسرعة كبيرة، هذا الطريق السريع لا يمرّ بأيّة مدينة، لم يعد هنالك إلا الريف بيننا وبين روما، أراقب مقاييس جسد عازفة المزمار النائمة على كتف رفيقها، أستطيع تمييز ثيابها الداخلية تحت كنزتها، كانت ستيفاني تهوى كثيرًا قمصان الجيرسي من الكشمير الرمادي ذات القبّة على شكل V، تلبسها على الجلد مباشرة فوق صدريّتها السوداء، لم تكن النساء يثرن أبدًا اهتمام جينيه، حسب ظنّي، لكن ليس الأمر مماثلاً لبوروز الذي أنجب ولدًا من جوان قبل أن يقتلها عندما كان يلهو معها، من بين جميع أبطال طنجة أمثال بول بولز أو جان جينيه أو تينيسي وليامز، بوروز هو الوحيد الذي عاشر أيضًا النساء، في ذاك الصباح من

---

(1) معسكر بوتا: المعسكر الذي اغتالت فيه قوّات فرانكو المعارضين منذ 1939 وحتى بعد انتهاء الحرب الأهليّة عام 1952.

تشرين الأوّل 1955، بعد أوّل تجربة له مع الهيبوكزيفيليا[1] تجربة الاختناق العذب، ذهب وليم بورروز لاحتساء قهوته بهدوء في مقهى البابا أو في مقهى طنجيس، طنجة تعيش آخر سنة استقلال لها تحت رعاية الجماعة الدوليّة، كما كانوا يقولون، في عام 1956 دخل سلطان المغرب بمعطفه ذي القلنسوة وحماره الصغير إلى المدينة، لم يعد يتبقّى للإسبان إلّا سبتة ومليلة، وللفرنسيّين إلّا العيون لكي يبكوا، مع أنّ المغرب لا تدخل في نطاق منطقتي إلا أنّني ذهبت إليها في مهمّة ذات مرّة، في مسألة تتعلّق بالتعاون الدوليّ المضاد للإرهاب، بالطبع، كان المغاربة متقدّمين جدًّا في الموضوع وقد بدأوا منذ الستينيّات يعتقلون في الصحراء الإسلاميّين واليساريّين والديموقراطيّين، ويضعونهم في سجون جافّة جدًّا في القنيطرة وفي تزمامرت ثم في أوتيتة، وهو سجن للمحكومين بالأشغال الشاقة، ليست حاله بأحسن من حال السجون الأكثر شهرة منه: الوسائل المغربيّة كانت بسيطة إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار فعاليّتها، كان الأمر يتعلّق باعتقال أكبر عدد ممكن من الأشخاص البؤساء والعاطلين عن العمل والخاملين على اختلاف أنواعهم، سواء كانوا متديّنين أم لا، لأنّهم تردّدوا إلى الشارع نفسه، والمدرسة نفسها لأحد قادة المعارضة الأمر الذي لم يكن يزيد من شعبيّة السلطة السائدة لكنّه يملأ عن جدارة سجون المملكة - كانت الاستخبارات المغربيّة تضمر لنا العداوة لا سيّما وأنّ علاقتنا السابقة ببن بركة تشكّل إدانة صريحة لنا، في كل مرّة يُخرج قاضٍ فرنسي إنابة قضائيّة أو يقوم شرطي قديم بتحقيق في القضيّة، ينزعجون ويضعون

---

(1) Hypoxyphilie: تجربة تعتمد الاختناق للحدّ من تدفّق الأوكسيجين إلى الدماغ وهذا للزيادة من أحاسيس النشوة الجنسية.

العصي في الدواليب، وندرك إذ ذاك بشكل غامض، أنّه ليس في مستطاعنا فعل الكثير، وبعد كلّ حساب، كلّ ما كان يجدر بهم أن يفعلوه هو ألا يعتقلوا ابن بركة ذاك[1]، لكي يذوّبوه في الأسيد أو في عمق أعماق الصحراء، كان الأمر مخاطرة كبيرة، والبرهان على ذلك أنّه لا يزال حتى اليوم يدور الكلام عن قضيّته، ومرّة أخرى اغتنمت فرصة توكيلي بمهمّة هناك لكي أطّلع على أحوال البلاد قليلاً، كازابلانكا وطنجة في القطار السريع، قطار لائق تمامًا على أيّة حال، حتى لو لم يكن تصميمه شبيهًا بالقطار الإيطالي السريع Pininfarina الحالي، في طنجة فتّشت عن النزل - الماخور حيث كان يقيم بوروز المتخاطر الرائي، وحاولت قراءة **الوليمة العارية** دون أن أفلح إلا فيما خلا بعض الصفحات بالصدفة، لم يكن تيينسي وليامز يلهمني ولا بولز محتسي الشاي، قبر جينيه كان في لاراش بعيدًا جدًّا من هنا، جلست في.مقهى البابا ومعي جريدة لكي أظهر بمظهر الرجل المهيب، ثمّ انحدرت إلى نزل فوينتيس، في الساحة الصغيرة للمدينة القديمة، ما دمت سائحًا فلأكن كذلك بشكل كامل، كنت أكسب وقتًا، كنت أكسب وقتًا قبل العودة إلى باريس وموافاة ستيفاني وبولفاري القاتم حيث كنت أغرق في الأوراق وتعقيبات ليبيان ملك الدرّاجات، كان على وشك أن يبلغ سنّ التقاعد وكان في الفترة الفاصلة بين حياته العمليّة والاتّجاه نحو الإقامة في

(1) المهدي بن بركة ولد في الرباط عام 1920 واختفى في 29 تشرين الأول 1965 في فونتني لوفيكونت شمالي فرنسا، أكبر معارض اشتراكي للملك حسن الثاني وزعيم حركة العالم الثالث والحركة الإفريقيّة، تعتبر قضيّته رمز الحقبة المظلمة في حكم حسن الثاني وتسبّبت بتجميد العلاقات بين فرنسا والمغرب.

النورماندي، واحتاط للأمر هو نفسه: آه يا فرنسيس لم أعد داريًا تمامًا لما أفعله، لم يعد لي طاقة على العمل، هل تفهم؟ كان يمضي الساعات شاردًا قبل أن يعاوده الشعور بالذنب فيروح يهرول في جميع الاتّجاهات باحثًا بيأس عن شيء ما يفعله، شيء ما يجعله يشعر بأنّه عاد إلى ممارسة حياته الطبيعيّة، وأنّ وجوده ضروري، فيهدر بالتالي كامل طاقته وحيويّته كالذبابة التي تنشط من غير فائدة، هو الذي كان مثابرًا جدًّا عادة لم يعد يعرف كيف يعبر ما يعترض سبيله من حواجز، هذا الشغوف بالدرّاجات كان يدوّس في الفراغ، ويحاول أن يتخطّى الجميع في المنحدرات الخفيفة، فرنسيس **عليك** بالذّهاب إلى المغرب، أعرف تمامًا لبيان رجل الثعلبة التي لا تشفى، تظاهرت بعدم السماع، الذّهاب إلى أين، لماذا، لديّ الكثير من الأعمال الآن، عندئذٍ رأيته في حالة راقصة[1]، فرنسيس تولّيت مهمة في الحال، الأمر حيويّ، يمكنك أن تحصل بطريقة غير مباشرة على الاسم الذي ينقصك في الملفّ Z، حاول أن تقنعهم بمقايضة الملفّ Y، انتبه، اقرأ استشفاف المستقبل[2]، الجانب الإقتصادي يجعلنا نندفع بحيويّة كلّ يوم، فرنسيس، مركز الاستخبارات يتخبّط، والأمور لا تسير على ما يرام، اذهب إلى هناك، على الأقل سيكون لديهم الأنطباع بأنّنا مهتمّون، فرنسيس أظهر لهم أنّنا نستطيع أن نفعل لهم أكثر من هؤلاء، مجانين التكنولوجيا،

(1) حالة راكب الدرّاجة عندما يضغط على الدوّاسة وهو واقف عليها يميل حينًا الى اليمين وحينًا إلى الشمال.

(2) أو استقباليّة: علم يدرس الأسباب العجيبة الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي تدفع تطوّر العالم العربي والتنبؤ بالأوضاع التي يمكن أن تنجم عن تأثير هذه الأوضاع.

وهنا كان ليبيان مخطئًا، فمن خلال مصادفة بحتة قمنا بإعداد مذكّرة رائعة عن طرق التواصل ل Q عبر الانترنت لم يكن ليبيان يفهم شيئًا في المعلوماتيّة وكان فخورًا بذلك، من هذه المذكّرة، كمّية المعلومات التي ينبغي معالجتها تجعل متخصّصي الأنترنت عديمي التأثّر، إلا إذا أرسل أحد المجانين رسالة إلكترونيّة على طريقة بريل لكي يسأل عن أخبار صحّة بن لادن: في زمن الأنترنت كانت دوائر المخبرين قد بلغت أوجّ مجدها وليبيان، على وشك الانطلاق إلى التقاعد، واستعادة درّاجته الصغيرة، كان الرجل المدرّب في زمن الحرب الباردة يستعيد حيويّته، أحيانًا يزعق وهو يحكّ جلده قائلا فرنسيس، فرنسيس، لم تتقدّم في قضيّة K، وفرنسيس كان يلهث، فرنسيس يمضي ساعات وهو يقارن بين مذكّرات مجتزأة صادرة عن مراكز غير محترمة بغية التقدّم في قضية K، وهو يحلم بكرواتيا، والبوسنة، وتنفيذ المهمّات الموكلة إليه، وصخب القذائف، فرنسيس يفكّر بأصدقائه الموتى، بمؤخّرة ستيفاني، بآلاف المؤخّرات المتمايلة في سليبات مستفزّة، وجميعها مخفيّة خلف سراويل الفانيلا الرماديّة التي هي الخبز اليومي للموظّفين، وبما إنّ اختصاصنا هو جمع المعلومات كان هذا يجعلنا نتكهّن ونحدس بسترينغات هذه الموظّفة أو تلك، ويلقّم شهواتنا يومًا بعد يوم لهذه الملابس الداخلية، الإداريّة والسريّة - في طنجة، لم يكن من مكان للسراويل الداخليّة، بل على العكس، كنت منذهلاً من غياب النساء، اللواتي استبدلن بالأفارقة والصحراويّين وجميعهم يأملون بعبور سريع نحو أوروبا وأمجادها، بدت المدينة ملأى بالناس المطاردين، المنتظرين وأعينهم مخفضة، كانت القصبة كلّها تؤوي أناسًا متخفّين وخائفين وعابرين سمينين، بلد بأكمله في الانتظار، طنجة المدينة الأسكلة حيث الاتجار بالناس يحلّ

مكان تهريب المخدّرات والأسلحة والنفوذ، كلّ هؤلاء الأشخاص البائسين في اليمبس عليهم أن يستمرّوا على قيد الحياة وهم ينتظرون عبورهم إلى إسبانيا، نزل فوينتيس يشبه عشرات النزل الأخرى، كان الموظّفون، وهم لطفاء بالأحرى، يحترمون السائح الغربي، أنا كانت تغويني فكرة الإبحار إلى ألجايرس[1] مع حمولة من المسافرين السرّيّين، وأن أصبح أنا نفسي سريًّا وأختفي، وأنسى فرنسيس المحارب السابق والجاسوس من الدرجة الدنيا، وستيفاني الباحثة في الشؤون الاستراتيجيّة العظيمة، وليبيان سائق الدرّاجات، وكلّ الباقي، كان عليَّ، كان عليَّ القيام بذلك، وإذا أمعنت التفكير في أموري جيّدًا لوجدت أنّني كنت على وشك تغيير نمط حياتي ثلاث مرّات، مرّة في البندقيّة في مياه القنال القاتمة، ومرّة في طنجة في أحد الفنادق الرخيصة، ومرّة ثالثة اليوم، وهذه مهمّة منجزة، لا بأس، أصبح اسمي إيفان دوروا المجنون، وفي كلّ مرّة يظهر لي ملاك، في كلّ مرّة يحصل تدخّل إلهي، أو تحصل معجزة، كما يقول البعض، لكي أجد نفسي من جديد على الطرق التي تقودني إلى روما، في طنجة كنت أتسكّع في أزقّة المدينة القديمة أو على شاطىء البحر، بين الأطلسي والمتوسّط، مسكونًا ببورّوز والمخدّرات، والموت، تطاردني ستيفاني، وعلاقتنا تزداد كلّ يوم صعوبة، والحقيبة تزداد ثقلاً وقد خيّل إليّ أنّها تستطيع أن تغرقني وأنا مبحر في القارب وسط مضيق جبل طارق: في طنجيس الفينيقيّة، ظهر لي قدّيس في شخص أحد سكّان الرّيف، عجوز شعره كثيف رمادي وأجعد وشارباه أبيضان تقريبًا، كان يحتسي

---

(1) أو الجزيرة الخضراء إحدى بلديّات مقاطعة قادس تقع في منطقة الأندلس جنوب إسبانيا.

كؤوس البيرة في مقهى مزدحم بالزبائن، وصاخب وفيما كنت أستهلك وقتي وأنا أتصفّح **الوليمة العارية** دون أن أفهم كلمة واحدة منها جالسًا على الطاولة المجاورة، بادرني بالكلام فسألني **هل أنت فرنسي**؟ وبعد أن أجبته بنعم وأنا شارد الذّهن عقّب على كلامي قائلاً وهو يبتسم ابتسامة عريضة: **لا أحبّ الفرنسيّين**، وعلى الفور وجدته محبّبًا إلى القلب وقلت له **ولا أنا أيضًا**، ولا أنا أيضًا لا أحبّ الفرنسيّين بشكل خاصّ دون غيرهم، ولا أحد على أيّة حال هكذا بشكل أوليّ، كان العجوز يُدعى محمد شكري، وهو كاتب أشهر من نار على علم في طنجة ويجوبها من أعلاها إلى أسفلها منذ أربعين عامًا، كان يعرف جميع الحانات وجميع العاهرات ذوات الأحشاء المتقيّحة وجميع الأجانب المنجذبين إلى هذه الأصقاع الإكزوتيكيّة الرهيفة المريبة، والمشؤومة أيضًا، عاشر بولز وجينيه، كان مثيرًا للشفقة بخرجه البلاستيكي الذي يبدو معه أقرب إلى متشرّد حيث يضع أعماله الكاملة ويبيعها إلى السيّاح، كان يدرك أنّه أسطورة حيّة، وجزء من المدينة متآكل مثلها بالسرطان، كان شكري يقول لي **لديَّ ثلاثة سرطانات مختلفة ومستقلّة، هل تصدّق ذلك أم لا** بالإمكان تسميتها كالمسامير التي صُلب إليها المسيح، إنّها الفقر والعنف والفساد، كان مصابًا بسرطانات طنجة الثلاثة، محمد العجوز سَميّ النبي، كان على وشك الموت، اشتريت روايتيه «الخبز الحافي» و«زمن الأخطاء» التي بدا لي عنواناها ملائمين بامتياز، سألني شكري عن سبب مجيئي إلى طنجة، هل كان لأجل الحشيش أم الصبيان أم الحنين، وشقّ علي بماذا أجيبه، ماذا كان بإمكاني أن اقول له، جئت لأنّ بورروز قتل زوجته، أو شيئًا من هذا القبيل، تلك حجّة واهية، هل هل أقول جئت لأنّ بورروز كان سيموت مختنقًا وهو يستمني وكيسه البلاستيك

يغطّي وجهه، أم أنّني جئت لأنّني أسعى للشفاء من سرطاني بالذات، وانتهى بي الأمر لأن أهمس له **جئت لكي أبحر على متن باتيرا متّجهة إلى الأندلس**، ابتسم، آه، **أنت صحافي، هناك الكثيرون ممّن يقومون بهذه الرحلة، إنّه الموضوع الأكثر درجة الآن**، أردت أن أقول له إنّني لست صحافيًا بل جاسوس، طلب منّي شكري المحتضر أن أقدّم له كأس بيرة فطلبت كأسين، **ليس الأمر خطيرًا، جريدتك ستدفع الثمن**، كان يبتسم دومًا بسخرية لاذعة، وكلّ خمس دقائق يأتي أحدهم لمصافحته، هو الذي لشدّة جوعه التهم قلب أمّه إبّان المجاعة التي انتشرت في الأربعينيّات في جمهورية الرّيف، وتاه في المدينة الكبيرة قبيل الاستقلال، وطارد جان جينيه وسعى إلى كسب ودّه بدافع المصلحة، كما فعل جان جينيه نفسه مع آخرين قبل عشرين سنة، شكري الذي أفسد بؤس عائلته وغباؤها القذر شبابه كان يعوّض عن ذلك بأن يصبح كاتبًا موهوبًا على غرار جينيه وولیامس وبولز الذين لم يكونوا يطمحون إلى أفضل من ذلك، كان شكري يرتقي صوب الضوء متسلّقًا على ظهر هؤلاء العجزة المشاهير الذين لم يكن يخفي كرهه لهم أو على الأقلّ تحفّظاته، غضب القدّيس جينيه منه عندما علم بصدور كتاب ***Jean Genet à Tanger***، واليوم، محمد شكري رجل الضغينة المتآكل بالسرطان كان يحتسي آخر كؤوسه من البيرة وهو يحدّثني عن فتن 1952، كانت الدوائر الدوليّة أو الدول الاستعماريّة العالميّة تقمع بعنف التظاهرات المنادية بالاستقلال، كان محمد في السابعة عشرة من عمره، في ساحة السوق الكبيرة، ركّز الجيش رشّاشًا وأخذ يطلق النّار على الحشود، قال لي شكري إنّه شاهد للمرّة الأولى أوّل جثّة تقتل برصاصة، كان قد صادف من قبل أناسًا ماتوا من الجوع والمرض والطعن بالخنجر لكنّه لم يصادف قطّ شخصًا مقتولاً

بسلاح ناري من العيار الثقيل، أثارت فيه قوّة الرّصاصة اضطرابًا كبيرًا، لا سيّما الطريقة التي يقتل فيها الناس أثناء طيرانهم فتُبقر أجسادهم ويموتون قبل أن يلمسوا الأرض ليغدوا أجسادًا هامدة لا عنف يصدر عنها، الوجه لصق الأرض والدم يسيل ببطء ملوّثًا ثيابهم، وهذا المشهد يتعارض مع ذعر الحشد الهارب في جميع الاتّجاهات على إيقاع طلقات الرشّاش، فكّرت ببوروز مطلقًا رصاصة عن قرب على رأس امرأته، في لوري وهو يخنق مرجوري، في سرفنتس المهان ثلاث مرّات، في برشلونة وليبانت والجزائر، ربّما أصبح محمد شكري كاتبًا في هذه اللّحظة بالذات، عندما كان والده يضرب والدته الخاضعة له على سبيل العادة أكثر منه على سبيل الرغبة، عندما كان مضطرًّا للسرقة ليأكل، وأخيرًا عندما هرول لكي يختبئ في القصبة هاربًا من طلقات الرصاص، مهانًا من السلطات الثلاث، العائليّة والاقتصاديّة والسياسيّة، كنت أنظر إلى محمّد الرماديّ في هذه الحانة من طنجة بالقرب من الملصق الذي صفّره الدخان وحيث يظهر فريق برشلونة لكرة القدم، محمد شكري بمظهره الشبيه بالمتشرّدين السماويّين، المدّعي والمتواضع في آن، المشارف على النهاية، ربّما كان منذ ذلك الحين أعمى بالنسبة للعالم الذي يحيط به، ملتفتًا إلى ذاته وشجونه ومآسيه وأقنعته دون أن يخرج منها أبدًا، سيكون دومًا طفل الرّيف المضروب والشاحب والضامر، سيكون دومًا المراهق الهارب من رصاص الفرنسيين والإسبان، أفكّر لم يكن ليجدي إبحاري في مُرفئة[1] باتّجاه أوروبا متخفّيًا لأنّني مهما فعلت لن أكون إلا نفسي، فرنسيس ابن أهله، ابن الكرواتيّة والفرنسي، عازفة البيانو والمهندس،

---

(1) مُرفئة: قارب كبير يُستعمل عادة لنقل المسافرين من السفن إلى المرفأ.

كما يقال أخيل ابن بيليه، أجاكس ابن تيلامون، أنتيلوك ابن نستور، سنذهب جميعًا لنرقد في لوسيه الجزيرة البيضاء[1] عند مصبّ الدانوب، جميع الأبناء المغمورين، أبناء قدر الآباء، الذين قد نسمّيهم الجوع أو الشجاعة أو الالم، لن نصير خالدين مثل ديوميد ابن تيديه المتحوّل إلى طاووس، سنموت جميعًا ونلقى حتفنا ونجد مثوى جميلاً، محمّد شكري البائس، البخيل والكريم في آن يرقد في التراب، وبوروز الهدّاف الرفيع المستوى ولوري السكير يرقدان أيضًا في التراب، حتى البابا سيلقى حتفه باستمرار، وأنا بعده، ربّما كان من الأجدى التخلّي عن المعركة والاستسلام للموت والهزيمة، التسليم بالهزيمة واستقلال المراكب السوداء وتبنّي النّظرة الساخرة إلى الحياة مثل سرفنتس، لكن إلى أين، فات الأوان، كان بإمكاني النّزول في فلورنسا، لم يعد هناك محطّات توقّف قبل الوجهة النهائيّة، يجدر الذهاب حتى النهاية، يجب الانحدار حتى روما ومواجهة المعركة، المعركة ضد الطرواديّين المروّضين العظام للخيول الأصيلة، ضدّ نفسي وذكرياتي وأمواتي الذين ينظرون إليّ عابسين

---

(1) لوسيه Leucé: في الميتولوجيا الإغريقيّة، لوسيه هي حوريّة أحبّها هاديس وأرادت أن تحتجب عن الإله فحوّلها إلى شجرة حور فضية. كذلك لوسيه أو الجزيرة البيضاء هي مداخل من المداخل إلى مملكة الأموات متماثل عادة مع جزيرة لوسيه الواقعة عند مصبّ الدانوب.

الفصل السادس عشر

يضغط أحد الأنفاق على طبلتي أذنيّ، سأعود إلى الكافيتريا المتنقّلة، هذا أفضل شيء أفعله، أترك كتاب رافائيل كحلة على طاولتي الصغيرة وأتوجّه إلى أنطونيو البارمان، تمايل القطار يجعلني أتأرجح وسط العربة وكنت على وشك السقوط على راهبة فبدا عليها الاستياء، لا بدَّ أنّها استقلّت القطار في فلورنسا، لم ألحظها من قبل، يجب أن يكون هنالك دومًا راهبة في قطار إيطالي، راهبة، وكشّافة، وموسيقيّون، وبوهيميّون، وقارئ برونتو، وجاسوس، وشقراء جميلة، ومهاجر متخفٌّ، هاكم جميع الشخصيّات الضروريّة لمسرحيّة أو فيلم الرّحلة في القطار، أو بالأحرى للوحة لكارافاجيو، في البار هنالك الكثير من الناس الآن، أخذ المسافرون يشعرون بالجوع والعطش، الساعة تقارب الثامنة، عرفني أنطونيو على الفور فقال لي بسخرية: تريد جن؟ لا، لا أريد جن بل بيرة، الفقاعات الغازيّة ستريحني، إنّها روح قدس التخمّر، الواجهات الزجاجيّة الكبيرة في كلّ مكان التلال والكروم، البيرة منعشة، ملصق القنينة جميل، أزرق وأبيض وعليه رسمة شراع كبير يحمل اسمًا ظريفًا *Sans Souci*، هذا فأل خير - في سالونيك البيزنطيّة، كان هناك مركب مشابه راسٍ خارج المرفأ، لجهة ساحة أرسطو، مركب من ثلاث صوارٍ بديع

هيكله ملوّن بالخطوط السوداء والبيضاء، أنيق، غير مرتفع عن صفحة الماء، لم يكن اسمه *Sans Souci* بل *Amérigo Vespucci*، الباخرة التي تضمّ المدرسة البحريّة الإيطاليّة، في عام 1997، كانت سالونيك العاصمة الثقافيّة لأوروبا، وكان يجب الاحتفال عن جدارة بهذا الحدث الاستثنائي، مررت من هناك صدفة وأنا عائد من عطلتي اليونانيّة كجاسوس حديث العهد، وداعًا يا جزّاري الجزائر وأهلاً بالأوزو[1] وسفود اللحم، كنت قد أخذت معي رواية **المدن التائهة** لتسيركاس التي تتحدّث عن كلّ شيء إلا عن اليونان، عن أورشليم والإسكندريّة والقاهرة، استحصلت على هذه الرواية بصفتي سائحًا مميّزًا يريد الاطّلاع على الأدب المحليّ، كما كانت ستفعل ماريان التي التهمت روايات يشار كمال[2] بالقرب من ضفاف طروادة المحروسة، وأضعت وقتي سدى، كانت الجزر اليونانيّة مخيّبة للأمل، عمّ كنت أبحث فيها، لا أعرف، دوديكانيسا لم تكن إلا زحمة سيّارات منقولة في معدّيات صدئة، وجزرًا تكنّسها الريح، جرداء، كان البحر هائجًا بشكل مخيف وشديد الزرقة وأفواج أو قوافل السيّاح الآتين من أوروبا كلّها تدور من خليج لخليج، ومن شاطئ لشاطئ، ومن حانة لحانة، وبالطبع، لم تكن الوحدة إلا وهمًا خالصًا نظرًا لضيق المكان وعدد الفرنسيّين الذين يتردّدون إلى هذه الضواحي - في بطمس عند أسفل مغارة القدّيس يوحنا الإنجيلي، كانت جميع المنازل التقليديّة في أغلب الأحيان مطليّة حديثًا لدرجة أنّ الطلاء الأبيض لم يجفّ بعد، كان

(1) أوزو: شراب يوناني كحوليّ بالآنيسون.

(2) يشار كمال: روائي وصحافي تركي من أصل كرديّ ولد في تركيا عام 1923 روايته **محمد النحيل** أطلقته إلى الشهرة عام 1955.

الحجّاج والمؤمنون الورعون ينضمّون إلى السيّاح الآتين للغطس تحت البحر وممارسة الرياضة على اللوحة الشراعيّة في جزيرة ذات جمال فتّان، جبليّة وصخريّة، جافّة، مكتملة لو أنّها كانت خالية، لكنّ الأمر لم يكن كذلك بل خلافه تمامًا، كانت الحشود تدوس على قدميك، نهارًا تفرغ السفن الزائرين مثل حمولة أكياس من القمح، فتجتاح آلاف من الحبوب المستديرة الشوارع، في صخب كبير، والأصوات الصمّاء تتصادم وأضواء الكاميرات تفرقع بالرغم من نور الصيف المبهر، وبعد ساعة أو ساعتين على أكثر تقدير، يرتدّ المد البشريّ الغفير إلى المركب الذي لا يلبث أن تعقبه حمولة أخرى، وهكذا دواليك من التاسعة صباحًا حتى السابعة مساءً، من المستحيل أن تتخيل أنّ هنالك هذا القدر من المراكب المخصّصة للرحلات البحريّة في بحر إيجه، لا يمكن إحصاؤها، وفقط عندما يحلّ الظلام، عندما تحلّ النجوم مكان الناس وتنثر فوق البحر أنوارها التي لا تحصى، نستطيع، إذا أجهدنا خيالنا، وسط ضجّة اصطفاق الأمواج على الصخور، وفي ظلّ الجبل الأسود أن نتخيّل الحضور الهاذي للقدّيس المتغنّي بنهاية العالم، نسر بطمس الذي رحّله الرومان إلى هذه الأرض القاحلة، آتيًا من أفسس الذهبيّة، أتخيّله ليلاً، مسكونًا بالبرد ورؤى آخر الأزمنة، عيناه محملقتان في العدم البحريّ المنبسط، وكلّه يقين أنّ هذا الكهف سيكون مأواه الأخير، المسكون بصراخ البهائم وصهيل الأحصنة وتنهّدات المحتضرين والأجساد المقطوعة الرؤوس والمرضى المصابين بتقيّحات مرعبة والملائكة المصروعين والشياطين الفاسقة، وفي الأشعة الشاحبة لمملكة السموات التي يعكسها القمر الأليف فوق البحر، سيعيش يوحنا الإنجيليّ متجاوزًا تجربة الجزيرة، وسيرسله

قيصر نبيل إلى أفسس، وسيموت حتف أنفه بعد حفر بنفسه حفرة في المذبح الدائري لكنيسته الأولى وتمدّد فيها - في بطمس، في النزل الريفيّ جدًّا حيث أقمت، انتابتني كوابيس أعطاني فيها مجهول علبًا أسطوانيّة كتلك الكراتين التي توضع فيها القبّعات وأمرني بأن أحملها معي إلى باريس عن طريق التهريب، كان وزنها ثقيلاً وآل بي الأمر إلى فتح إحداها، كانت تحتوي رأسًا بشريًّا متيبّسًا وممّرغًا بالوحل وعيناه جاحظتان خارج محجريهما، كان رأس أحد رهبان تبحرين، استيقظت مذعورًا، مستحيل التخلّص من صور الجزائر المشؤومة، عندئذٍ ذهبت للغطس في الماء المتجلّدة في أسفل الصّخور وبقيت حتى الفجر متدثّرًا بمنشفة فوق صخرة ملساء، حتى حوّل الفجر منزل بوسيدون ذي الذيل الأزرق مشعشعًا، عندئذٍ كنت أصعد الطريق إلى القرية لكي أشرب القهوة واحتسي بريوشة ثقيلة محشوة بالزيتون أو قطعة حلوى باللوز، مراقبًا نزول الغزاة الأوائل للنهار، ومن ثم تعبت من الكوابيس، لم يجترح الانجيلي أيّة معجزة لأجلي، وأبحرت بدوري في معدّية باتّجاه رودس جزيرة تمثال الفرسان العملاق والمساجد المنسيّة، التي كانت عثمانيّة في بداية القرن السادس عشر حتى 1912 عندما قرّر الإيطاليّون الاستئثار ببقايا السلطنة العثمانيّة المحتضرة، فاحتلّوا جزءًا من صحراء أفريقيا الشماليّة وسبحة من الجزر في إيجه من بينها رودس التي كانت اللؤلؤة الجبليّة ذات الانحدارات الوعرة، كانت مناظرها شبيهة بمناظر طروادة، غابات الصنوبر ترتفع فوق البحر ممتدّة صعدًا، وهناك عشرون قرية مبعثرة حول الجزيرة على شكل الدموع المتساقطة على الخدّ، تتآكل ساحلها الفنادق والمجمّعات البحريّة - تركت بسرعة سيّارتي والتجأت إلى المدينة القديمة للمقاطعة، في الأزقّة خلف الجدران السميكة لفرسان القدس،

في الظلّ، في جوديريا، الحي اليهودي القديم، في بناء قروسطي يدعى Cava-d'Oro: تنبعث من الحي اليهودي رائحة الغياب، لم يتبقّ إلا حفنة من اليهود في رودس، على مسافة عشرة أميال من شواطئ تركيا، لم يتبقّ إلا القليل من جالية كان عددها يتجاوز الألفي نسمة، كان المؤمنون الوحيدون في كنيس كحل - شالوم سيّاحًا إسرائيليّين، وفي باحة الفندق الداخليّة الجميلة، أثناء الإفطار، سمعْتُهم يتحدّثون بالعبرية فيما يهود رودس يتكلّمون اللادينو وهي اللغة اليهوديّة - الإسبانيّة، ذكرى باقية من مملكة إسبانيا التي طردتهم، كانت الجزيرة بالنسبة لهم ملجأ، لعدّة قرون قبل أن يقعوا تحت مطرقة الأوروبيّين من جديد ويطردوا ليستقرّوا في غيوم أوشفيتز، ومن كلّ اليهود المرحّلين في منتصف عام 1944، فقط مئة منهم عادوا وذهبوا للإقامة في مكان آخر، في روما، أو فرنسا، أو الولايات المتّحدة الأميركيّة، تاركين جزيرتهم موطنهم الأصلي التي خيّم عليها الغياب والعدم، في المتحف اليهودي في رودس لاحظت إصرار النازيّين على استئجار ثلاث طوفيّات صدئة لكي تنقل يهود ديدوكانيسيا إلى هايداري معسكر الترانزيت بالقرب من أثينا ثم ترغمهم على اجتياز البلقان في القطار عبر سالونيك وسكوبيه وبلغراد لكي يلتحقوا بالقاطرات ذات الطنابر التي لا تحصى والتي تقود اليهود الهنغاريّين إلى الموت، كان الموظّفون الألمان يقومون بواجباتهم، كاملة على الرغم من قصف الحلفاء وهجمات المقاومين، وحركات الفرق التي ينبغي ترحيلها من الشرق، والدعم والزخائر التي يجب نقلها إلى الجبهة، كانوا يجدون مع ذلك الوسيلة، فيما الجيش الأحمر أصبح في بولونيا، لتنظيم القوافل المتّجهة من آسيا الصغرى في غاليسيا وإرسالهم إلى الموت بضعة آلاف من اليهود هم من الخضوع بحيث كانوا

يجهلون كلّ شيء عن معاداة الساميّة والغيتوات وعمليّات الإبادة الجارية، بعيدًا، بعيدًا جدًّا، إلى جزيرة أسوارها تزيدها مهابة ومنعة، كانوا يعتقدون أنّ ذكرى فرسان القدس وسليمان القانوني تحميهم، كانت رودس كثيرة الشبه بالشرق الأوسط أو بقبرص أكثر مما تشبه بطمس، فالمساجد، والنوافير، والكنائس اللاتينيّة ترقى إلى أيّام الصليبيين، وأيضًا قصر «المعلّم الكبير» المهيب الذي كان يذكّر بطريقة غامضة بقلاع الصليبيّين في سوريا وفلسطين - أشياء كثيرة ميتة أعادتني مرغمًا إلى فترة الحنين، توقفّت الكوابيس، وحلّ مكانها الأرق الذي كنت أعالجه بجرعات كبيرة من الأوزو الخالص، بحيث أغرق في سواد لا أحلام فيه وأشخر بشكل صاخب تسبّب لي بتأنيب غير لطيف البتّة من جيراني الإسرائيليّين على الرّغم من الجدران القروسطيّة التي تفصلنا، يهود رودس هم الأكثر بعدًا، على حدّ علمي، على نسيج عنكبوت أوشفيتز، وهم الوحيدون بالإضافة إلى يهود كورفو الذين بدأوا رحلتهم الأخيرة في المراكب، الوحدة التي بدت لي لذيذة في البداية أخذت تثقل عليّ، كانت تفوح من الحي اليهودي في رودس رائحة الغياب والترحيل وزيت السّمرة، أعدت وضع السيّارة من جديد على المعدّية المتّجهة إلى بيريه، قلت في نفسي إنّ هذه العطلة أخذت تضجرني للغاية حتى لو كنت أجد فرسان أورشليم[1] ظريفين، هؤلاء الذين أصبحوا الأسياد المقبلين

---

(1) أو فرسان مالطة: بدأ ظهور فرسان أورشليم كهيئة خيريّة أسّسها بعض التجّار الإيطاليّين لإسعاف المرضى من زوّار القدس عام 1113 في مستشفى القدّيس يوحنا قرب كنيسة القيامة وقد أطلق عليهم اسم فرسان المستشفى أو الهوسبيتاليّين. صارت الهيئة في عهد الصليبيين منظّمة عسكرية عام 1137. تحصّن أعضاؤها في قبرص 1291. فتحوا =

لمالطة العربيّة ومستخدِمي كارافاجيو، رغبت في الذهاب إلى مدينة كبيرة، إلى عاصمة تضج بالحركة والحيويّة، وليس فقط بسيّاح متبطّلين مثلي يدورون حول أشباح الصليبيّين واليهود الموتى: الحانة في القطار مزدحمة بالأميركيّين، المتّجهين إلى روما، فريق من السيّاح تجمعهم صحبة على ما يبدو، في الستّين من العمر تقريبًا، النساء شقراوات والرجال طويلو القامة، وقد أعادوا ترميم أسنانهم، أناس يبدو عليهم رغد العيش، أمسكت بيرتي *Sans Souci* واستمعت إليهم يعلّقون على إقامتهم في فندق فلورنسا، لم يكن سيّئًا، حسب قولهم، بالنسبة للمعايير الأوروبيّة *for European standards*، أجهل ما إذا كانت هذه الملاحظة ذات مدلول سلبي أم إيجابي، ربّما سنلتقي من جديد في فندق بلازا، الأقرب إلى الطراز الأميركي، الأكثر انحطاطًا بين فنادق روما الضخمة، لماذا لم يقع اختيار إيفان دوروا بالأحرى على فندق منيرفا أمام فيل برنيني، الفيل ذي الخرطوم الضخم، أو الفندق الكبير في بيازا ريبيبلوكا، الفندق الذي أقام فيه ألفونس الثالث عشر ملك إسبانيا، جامع الأخفاف، القريب جدًّا من المحطّة، أو على فندق آخر من آلاف الفنادق الفخمة في روما، وكلّ واحد منها لا يزال يرتاده زائروه الشهيرون وجثته وأشباحه، سيكون إيفان دوروا شبحًا بين الأشباح، البيرة الأخيرة التي يشربها فرنسيس سرفين ابن هاديس يجب أن يكون اسمها *Sans Souci* وأن يكون شعارها مركبًا - بعد يومين من التعرّق في أثينا المغبرة والمقفرة، وبعد أن اختليت للتأمّل في معبد زوس، وأكرمت

= رودس عام 1311 ومنها سمّوا بفرسان رودس ثمّ حطّوا في مالطة فسمّوا فرسان مالطة وحكموها حتى حملة نابوليون. أصبح لقبهم اليوم شرفًا دون صفة عسكريّة.

الإلهة ذات العينين الخضراوين وجمالها الذي لا مثيل له، أجل تعرّقت كثيرًا وكلّلني الغبار بحيث رحت أحلم بالشمال الكبير والبرد الصقيعي، فكّرت من جديد بليبيان واحتقاره لكلّ ما يوجد جنوبي كليمون - فيران، كان على حق، كانت أحشاء أثينا مبقورة لكثرة الأشغال فيها، سيّما وأنّهم كانوا يبنون فيها شبكة مترو، لكنّ الآلهة لم تكن سعيدة بأن تُحفر أقبيتها على هذا الشكل فانتقمت لنفسها بأن قذفت إلى الهاوية بأكشاك الصحف والمواقف تحت الأرض والأجانب الشاردين، كان هيفايستس الأعرج وبوسييدون مزلزل الأرض يضعان العراقيل في طريق المهندسين المستعجلين، هذا من دون أن نأخذ في الحسبان علماء الآثار المبهرجين المسؤولين عن التحف القديمة والذين كانوا يتمنون إجراء التحاليل على كلّ حصاة تخرجها الحفّارات، ما جعل سكان أثينا يعتقدون أنّ المترو لن يكون جاهزًا قبل نهاية الأزمنة، كان الهلينيّون شعبًا فخورًا لكنّه يملك حسّ السخرية، في آب كانوا كلّهم في عطلة بالطبع ولم يكن يدور حول ساحة أومونيا إلا الألبانيّون المغمورون والمسافرون المفلسون، وسط غبار نهاية العالم وصخب الحفّارات، وتحت النظرة الأموميّة للإلهة في أعلى الأكروبول، رحت أفكّر في ألبرت سبير، المعماري الذي كان يعمل في إمرة الفوهرر، سبير مخترع نظريّة الآثار الجميلة، مصمّم المباني المعدّة لتكون آثارًا جميلة بعد ألف عام، أنقاضًا مهيبة كتلك التي خلّفها الإغريق والرومان والتي كانت ألمانيا خالية منها للأسف، لم يكن أدولف العنيد يتراجع أمام شيء لأجل خير شعبه، وهكذا صمّم له سبير معابد دوريّة ذات أحجام غير مسبوقة ومن شأنها أن تشكّل فوروم بديعًا لو تآكلها الزمان، أو بارثيونًا مهيبًا وسط نورمبرغ وبرلين، كان سبير مهندسًا غريبًا، مصمّم آثار المستقبل، وبانيًا كبيرًا لمصانع

السلاح - في محكمة نورمبرغ تعرّف إليه فرنسيسك بويكس شكليًّا، دلّ عليه بالاصبع فقد رآه في الصور لدى زيارته إلى ماوتهاوزن برفقة كالتنبرونز، رئيس جهاز أمن الرايخ، على سلالم كسّارة الموت، تُرى ماذا يفكّر سبير الفنّان في تلك اللحظة وهو في قفص الاتّهام واصبع مصوّر شيوعي - إسبانيّ يشير إليه، هو الذي كان ينفي معرفته بأيّ شيء ورؤيته لأيّ شيء وسماعه بأيّ شيء، صديق الفوهرر الجالس بين الأنقاض بعد أن سرَّعت القنابل الأميركيّة عمل الزمن، في أثينا، بنى العبيد الأكروبول، وعبيد آخرون كانوا سيبنون صروح الرايخ، والكثيرون منهم سيموتون ولا شكّ، لكن سبق للكثيرين أن ماتوا وهم يشيّدون الأهرامات ولا أحد يفكّر اليوم في هدمها، ولا في لعن مهندسها، هاك ما كان يفكّر به سبير القصير السمين على مقعده بين عضو في الشرطة النازيّة وضابط في الجيش الألماني، خرج من سجن سباندو في عام 1966، وأتخيّله لاحقًا بعد عدّة أشهر، في عمر الواحدة والستين يجوب مدن اليونان برفقة ابنه ألبيرت سبير جونيور، وكان يخطّط آنذاك التصميم المدني في طرابلس الغرب في ليبيا، ثمّ بنى وشيّد منشآت وصولاً إلى إيران والمملكة العربيّة السعوديّة، هل يتذكّر السنيور ألبرت سبير درج ماوتهاوزن عندما ارتقى أدراج الأكروبول، وهل يتذكّر الإسباني الشاب الذي أشار إليه بالبنان في نورمبرغ، هذا بعيد الإحتمال - في عام 1947، مرّ فرنسيسك بويكس هو أيضًا باليونان في بداية الحرب الأهليّة ليجري تحقيقًا لجريدتي ***Regards*** و*L'Humanité*، وصوّر زاخارياديس أمين عام الحزب الشيوعي وأمضى بعض الوقت في الجبال مع المقاومين في الجيش اليوناني الديموقراطي، قبل أن يعود إلى باريس ويموت هناك، في هذه الأثناء ذهب أيضًا إلى الجزائر، حيث أنشأ ابن

سبير نفسه لاحقًا ضاحية سكنيّة ولم يكن يعلم أنّها ستكون مساكن الإرهابيّين في الجماعة الإسلاميّة المسلّحة، ومن ثم سيتابع بويكس دورة فرنسا التي كان مفتونًا بها، لم أرَ صوره في اليونان لكنّي أفترض أنّه كان يعرف كيف يتكلّم مع المناضلين الشيوعيّين، فبعد كلّ حساب كان هو أيضًا منهم: انطلقت إلى الشمال بدل أن أستقلّ القطار من جديد إلى إيغومينيستا، كان لا يزال لديّ متّسع من الوقت، عندئذٍ صعدت من جديد إلى تساليا على أمل أن يكون الطقس أكثر برودة، كنت أتعرّق بشدّة في السيارة مع أنني شرّعت كلّ النوافذ، في البوسنة عام 1993، كان هناك لواء من المتطوّعين اليونانيّين الذين جاؤوا يحاربون إلى جانب الصربيّين، حفنة من الناس المتزمّتين كثيرًا الذين شوهدوا خصوصًا حول سارايبفو، لم ألتقِ بأيّ واحد منهم لحسن الحظ، فالمجاهدون العرب والمساعدون الروس كانوا متواجدين بأعداد كافية، هل كان المتطوّعون اليونان في التنّورة والقبقاب مع الشرّابات على غرار سامر وتامر، هناك التضامن الأرثوذكسي الكبير من جهة، والأخوّة المسلمة والتفاهم الكاثوليكي من جهة أخرى، في بار القطار، الأميركيّون يتحدّثون بصوت عالٍ ويضحكون، إنّهم مغتبطون، يبدون وكأنّهم لعبوا طيلة حياتهم بالغولف في سياتل، إنّهم بيض جدًّا ويشربون المياه الغازية والكيانتي، ربّما كان أهلهم جنودًا في الضواحي برفقة خيّالي القوم والقنّاصة الجزائريّين في الحملة العسكريّة الفرنسيّة، في حزيران 1944، حول جزيرة ترزيمينا بين مونتبولشيانو وبيروز، بعد الانتصار في معركة كاسينو، هذا الانتصار الشهير الذي احتفل به المغاربة والجزائريّون وهم ينهبون ويقتلون ويسلبون ويغتصبون كلّ ما يقع تحت أيديهم ومن ضمنه المواشي بحسب الشكاوى التي قدّمت للمفوضيّة الحليفة، كان الرتباء من الجنود هم أيضًا

لصوصًا بامتياز، وقد تمتّعوا بشهرة واسعة منذ لحظة الإنزال، كان ضبّاطهم يغضّون النظر أو يفضّلون الوقوف على حياد أمام ما يحدث، وبعد كلّ حساب إنّها الحرب، وفي صقلية لم تكن الأشياء سهلة، اختبأ المدنيّون في الجبل، ويُروى أنّ بعض الجنود الذين أساؤوا التصرّف قد وُجدوا مقطّعين إلى أجزاء على يد أب أو زوج مهان، في ضواحي نابولي أثار جنود المستعمرات الفرنسيّة موجة من الشكاوى متّصلة بأعمال السرقة والاغتصاب والجريمة، وهذا دون ذكر الممارسات الشاذّة المختلفة التي تحدّثت عنها عاهرات نابولي، لكن ما همّ فالفرق المغربية الجبليّة والرماة الجزائريون كانوا جنودًا أشدّاء وقد أثبتوا ذلك مرارًا، وسيثبتونه مرة أخرى أيضًا في كاسينو، لم يكن لبطولتهم من نظير إلا توحّشهم الرائع، كانوا يتسلّقون المنحدرات المحصبة تحت نيران الجنود الألمان المنسجيين إلى الأعالي، ويموتون ميتة الشجعان، أُرسلوا إلى الحرب مع بغالهم وحميرهم، وعندما يتمّ لهم النصر بعد سقوط العديد من الضحايا في صفوفهم وتعرّضهم للضرب بالفؤوس وتقطيعهم وبعدما تصيّرهم القذائف والحجارة أشلاء، كان من تبقّى منهم على قيد الحياة يتفرّقون في الأرياف لكي يأخذوا حصّتهم من الغنيمة، من فتيات جميلات سمراوات لوّحتهن الشمس أثناء ممارستهن عملهنّ في الحقل، ويصادروا خرافًا وماعزًا يصنعون منها محارق فتتصاعد رائحة الشواء مثيرة شهيّة الآلهة فيسيل لعابها، وكان جنود المستعمرات يأخذون كل شيء على بغالهم، حتى الأفرشة، وإذا أظهر صاحب المزرعة مقاومة وامتنع عن تسليم زوجته وابنته ووالدته وأخته وغنماته وساعة حائطه، كانوا يذبحونه بطيبة خاطر، أليسوا المنتصرين ويحقّ لهم بالتالي توزيع غنائم الحرب، كان بإمكانهم أن يأخذوا آخر حجر لو شاؤوا، وبما أنّهم كرام النفس كانوا عمومًا ينالون

مأربهم من النساء ميدانيًّا ولا يصطحبونهنّ إلا فيما ندر، ليسوا أسوأ من القنابل التي دكّت دير القديس بنوا في كاسينو دون أن يكون هناك ألمانيّ واحد في الداخل، أطنان من المتفجّرات ألقيت عبثًا من قاذفات القنابل B17، ملائكة الدمار تلك، الملائكة نفسها التي محت المدن الألمانيّة عن الخارطة، أصبح الدير البنديكتي الأوّل حطامًا، ما غضب البابا بيوس الثاني عشر الذي كان يعرف أن يقيس كلّ شيء بقياسه، مزارعات نهُبن وجرّدن من ثيابهن عنوةً أمر ليس ذا بال بالنسبة لمبنى من هذه القيمة، كان يوازن بين خسارة المدنيّين الإيطاليّين وجدران دير القديس بنوا البستاني الناسك، سقطت روما فهرول بيوس الثاني عشر ليرتمي بين ذراعي محرّريه بقلق بالغ: ***mit brennender Sorge***، كان البابا يحسن التحدّث بالألمانيّة أكثر من الإنكليزيّة بعدما أمضى عشر سنوات في بافاريا، كان بيوس الثاني عشر الحاذق قد نجح في إبقاء الفاتيكان صامدًا إزاء العواصف التي هبّت من كلّ جانب، إزاء موسوليني، ثم إزاء الرايخ بجبن هائل وشجاعة كبرى بحسب ما يُروى، ربّما لم يكن البابا بيوس الثاني عشر ذلك الجبان ولا ذلك الشجاع إذ كان يخشى الشيوعيّين أكثر من الجميع، وقّع مع موسوليني معاهدة لاتران[1] وهنّأ الجنرال فرانكو لأنّه أعاد إسبانيا إلى الكنيسة، وتجرّأ على تأنيب الفوهرر جرّاء تهجّمه على الكاثوليكيّة وطلب من المؤمنين البولونيّين المعذبين أن يصبروا قليلاً، وخبّأ بعض اليهود في حدائقه، فضّل البابا أن يخفض لبعض الوقت تاجه على مستوى العينين لكي لا يعمى تمامًا لأنّه كان بإمكانه أن يرى أكثر، سيكون

---

(1) معاهدة لاتران: اتفاقيّة بين الكرسي الرسولي والحكومة الإيطاليّة 1929، استعاد فيها البابا حقوقه الزمنيّة داخل دولة الفاتيكان.

هناك دومًا متّسع من الوقت لمسامحة الجلّادين وتطويب الشهداء، وكانت اللائحة طويلة، كانت اللائحة طويلة بشكل مرعب، على صورة الأميركيّين الذين دفنوا الجثث بالرفّاشات إبّان تحرير المعتقلات، داشو، وبرغن -بلسن، وماوتهاوزن، مئات من النساء والرجال دفنوا تحت الأرض وسبقهم الملايين الذين ماتوا حرقًا أو تبخّروا، من بينهم الستّون ألف يهودي الذين فقدوا من سالونيك عندما وصلت إليها، لا شكّ أنّ أحدًا لم يكن قادرًا على التعرّف إلى المدينة في عام 1945، نصف سكّانها اختفوا تقريبًا، وجدت فندقًا قرب البحر على بعد خطوتين من ساحة أرسطو ومن البرج الأبيض، في المدينة الجديدة التي تذكّر فعلاً بالإسكندريّة في مصر، كانت المباني المبيّضة والأنيقة تحترق في شمس المساء النازلة من جبل هورتياتيس لكي تعيد بعضًا من النداوة إلى الجادات التي ألهبتها حرارة الشمس، كانوا يتنزّهون على جبهة البحر وأفواههم مفتوحة مثل أسماك مختنقة، ثم تصاعدت العذوبة شيئًا فشيئًا من الخليج المتلألئ، وبدأت عدّة سفينة *Amerigo Vespucci* تخشخش على وقع النسيم الحارّ، مال ضوء النهار وراح يعكس ظلالاً مزرقّة في الكؤوس على الأرصفة والساحات، من المنطقيّ أن تذكّر سالونيك بالإسكندريّة التي بناها الإسكندر الكبير فاتح آسيا، ذاك الذي أفاد من دروس أرسطو على مسافة غير بعيدة من هنا، قبل أن يغزو بجيوشه الغاضبة المسعورة أقاصي العالم، شعرت للتو أنّني مرتاح في سالونيك، الفصل الأخير من **المدن التائهة** يجري فيها ويتحدّث عمّن استمرّ على قيد الحياة بعد الملحمة الشيوعيّة، ومن خلال مصادفة غريبة أدركت أنّ هناك نقاط تشابه بين الكتاب وأحداث حياتي، كان الأبطال يشربون خمر مقدونية في إحدى الحانات في أعلى الأسوار، وهم يستذكرون

موتاهم، مهرقين الخمر، مانوس الجميل الذي قتلته قنبلة وأوثقت جثّته إلى ذنب بغل وجرجر فوق الصخور، باندليس وتاناسيس اللذين رُميا بالرصاص، والنساء الهزيلات المصابات بالروماتيزم يعنين بتكريمهم وتخليد ذكراهم، هل كان السبب الريح الآتية من الشمال، من البلقان القريبة جدًّا، من الصرب ربّما، هل كان السبب رواية تسيركاس أم خمر مقدونيا، لكن ما أن أنهيت آخر صفحة حتى رحت أرتجف وكأنّني على شفير الانهيار، أين ذهبوا، أين هم أندريا السلافوني وفلاهو الدلماتي، الضائعين في غياهب الموت أو في الجبال، **غنّي أيتها الإلهة أسماءهم الخالدة**، أسماء هؤلاء الذين تركوني، الذين تركتهم، للمرّة الأولى أحسستني سجين تلك المنطقة الغامضة الفاصلة بين عالمين، المتحرّكة الزرقاء، حيث كانت تتعالى مرثاة تنشدها جوقة قديمة، وكلّ شيء يدور من حولي لأنّني كنت شبحًا مسجونًا في مملكة الأموات وقد حُكم عليّ بأن أهيم دون أن أتوصّل أبدًا إلى أن أنطبع في صورة أو أنعكس في مرآة لكي أزيل السّحر عنّي، لكن كيف، كيف بإمكاني أن انتزع نفسي من هذه الصدفة الفارغة التي كانت جسدي، كنت أجوب سالونيك من الأعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى، وأرى الأيقونات والقدّيسين والكنائس والأسوار وحصن الأبراج السبعة نفسه في أعلى الأكروبول، قسطنطين الفيلسوف أو سيريل رسول السلاف انطلق من سالونيك في رحلة طويلة انتهت في روما، بالإمكان رؤية قبره تحت مجاز[1] بازيليكة سان كليمنتي، تحت منحدرات لاتران، ربما حين أصل إلى روما، سأذهب للتمدّد أنا أيضًا تحت الأرض الرّطبة، في أحد الأقبية، في سرداب

---

(1) مِعْبَر يؤدي إلى صحن الكنيسة.

الأموات، وسأدع إيفان دوروا الطيّب الذّكر يرحل، ليمشي إلى قدره، تاركًا إيّاي للتحلّل، أوشك أن أنهي زجاجة البيرة واسمها *Sans Souci*، التي رسمت عليها سفينة شامخة، لا يبدو على سيّاح العالم الجديد أنّهم مستعجلون للرجوع إلى قاطرتهم، ولا أنا أيضًا، فوق مقعدي توجد الحقيبة الصغيرة المعلّقة إلى حاملة الأمتعة، ماذا تحتوي حقًّا، لماذا أردت أن أوثّق **المنطقة** منذ هرمان جيربنز سكّير القاهرة، كلّ هذه الصور، هذه الأسماء، حتى اسمي، حتى الصورة الرهيبة في البوسنة، مرورًا بذكريات يازنوفاك والحشود المقتولة في ماوتهاوزن، والوثائق المتعلّقة بغلوبوتسنيك وشتانغيل في تريستا وصور التعذيب الخاصّة بأبي، والبرقيّات العثمانيّة المشفّرة الموجّهة إلى طلعت باشا، والقوائم الإسبانيّة بالمقابر الجماعيّة في بلنسية، وقتلى شاتيلا وضحكات ألوييس برونر[1] الخرفة في دمشق، فليرقدوا بسلام، لأرقد بسلام، مادام كلّ شيء سينتهي عمّا قريب، لتقترب نهاية العالم، لتحلّ سخونة الكوكب أو تجلّده، لتأتِ الصحراء أو ليأت الطوفان، سأعهد بسفينتي الخاصّة لأسياد الماوراء، ووداعًا، المجنون على رصيف محطّة ميلانو كان على حق، مصافحة أخيرة قبل نهاية العالم، اتّصال أخير، تبادل أخير للمعطيات ووداعًا

---

(1) مجرم حرب نازي ولد عام 1912 في النمسا وأحد الأطراف الرئيسيّة في «الحل النهائي»، عُيّن مستشارًا للحكومة في سوريا عام 1945. وقد لقّن السوريّين أساليب التعذيب في السجون.

الفصل السابع عشر

محتبسًا في القاطرة وأذناي مسدودتان جرّاء اجتياز الأنفاق وضغط الهواء الغريب الذي تحدثه، ليس الخطّ المباشر فلورنسا - روما إلا نفقًا طويلاً تتخلّله بعض الممرّات تحت السماء المكشوفة، تنسى أنّ الهواء مادة إلا إذا نقص أو تصلّب لصق طبلتي الأذن، عبثًا يعتاد المرء على ذلك، تهزّك الانفجارات دومًا كشجرة قديمة، ترتجف، تنقبض رغمًا عنك وذراعاك على طول جسدك، ذقنك يصطكّ إلى حدّ العضّ، لسانك وأصابعك تهتزّ لتصبح رنّانات من لحم ودم، تلتوي وأنت تسمع الشظايا تصفر، ثم يعود الهواء مع الصمت، الصمت الذي يزداد رعبًا لأنّك تتساءل دومًا متى ستصل القذيفة التالية، أين ستسقط، هل ستصيب هدفها وتبعثرك في الهواء كأنّك تلعة تراب أو كأنّك الأوراق التي رأيتها تتطاير للتو إبّان انفجار القذائف السابقة، تنتظر، ومع ذلك يفاجئك إطلاق الرصاص دومًا، إنّه البرق المتوثّب نفسه، انحباس الجوّ نفسه، القرقعة فائقة الوصف التي يتخلّلها دويّ معدنيّ، هذه الطلقة بالذات لم تسقط بعيدًا، يجب أن تكون سكران أو مخدّرًا أو الاثنين معًا لكي تتصدّى طويلاً لهذا التوتّر، هذا العجز الذي يعطيك الشعور بأنّك قشّة هزيلة أو خلد تحت ضربات معول أحد البستانيّين الإلهيّين: الوحيد الذي لم يكن يبدو عليه أنّه

يتأثّر كان أندريا، لم نكن نراه يرتجف، لم يكن ينثني إلى قسمين إلّا عند الضرورة القصوى، يظلّ هادئًا ذلك الهدوء التامّ إزاء العاصفة، منتظرًا عبور الكارثة لكي يبادر إلى الهجوم، الخوذة مرفوعة عالية على الجبين على سبيل التحدّي حتى ليخال الناظر إليه أنّه يظنّ أنّه محميّ من زوس سيّد البرق، محصّنًا بدرعه الراعدة، لم يكن أندي الشجاع متشدّقًا، كانت شجاعته نابعة من براءة كاملة، القذائف بالنسبة له ضجّة وأجزاء معدنيّة، دويّها أقوى قليلاً من فرقعة التدريب، هذا كلّ شيء، لا يهمّه أن يستشرف الكارثة التي يمكن لهذه المتفجّرات أن تحدثها على جسده، ولا حتى بطريقة غير واعية، ومع ذلك فقد رأى من المعارك الكثير، رأى أشخاصًا اخترقت أجسادهم كلّها شظايا القنابل المتفجّرة ولا يزال الدخان متصاعدًا منها، وبترت أعضاؤهم أو بقرت بطونهم أو أصيبوا بخدوش طفيفة، لكنّه كان من الإيمان بقدره بحيث كان واثقًا كلّ الثقة أنّ لا شيء يستطيع أن يصيبه، لا شيء - عند انتهاء القصف ينصرف إلى تجهيز سلاحه وذخائره بهدوء وهو على أتمّ الاستعداد لمواجهة الدبّابات والدفاع عن معقلنا أو خندقنا بشجاعة الأسد، فيما كانت نهاية القصف تعني لنا أنا وفلاهو والسرجنت ميليه بداية خوف جديد، مختلف، لكنّه بالحدّة نفسها: الخوف من الهجوم، سواء الهجوم الذي نتصدّى له أو نشنّه، وفي موقعنا الخالي من الرّجال والعتاد، كان من الصعب اتّخاذ القرار، وهذا أكثر ما يلقي الرّعب في النفس، هل يفترض بنا انتظار الدبّابات أم الذهاب لملاقاتها، كنّا نشنّ هجومًا مضادًا لكي نحرّر فوكوفار، وكان علينا أن نقاتل كالأسود لكي نستعيد بادئ الأمر قرية ماريتشي على طريق فوكوفار، وهذه أوّل معركة تكتسب أهمّيّة كبرى بالنسبة لي، وكذلك بالنسبة لأندريا - الذي يعوّض عن قلّة خبرته بشجاعة خارقة ويواجه القذائف ببسالة

وصبر فيما كنت سأجنّ، وأشعر بجفاف في فمي وصمم في أذنيّ حين أتذكّر أنّه يجب عليّ الذهاب عمّا قريب إلى هناك، الذّهاب ومواجهة الجيش اليوغوسلافي في مواقعه والقفز على مصفّحاته من خلال فرق كومندوس صغيرة مسلّحة ببعض الأربيجات ومواجهة رشّاشاتهم ومدافعهم الهاون وأسلحتهم، كنّا مستعدّين، حزمنا أشرطة الأحذية جيّدًا مثل انتصار الفلسطينيّة الشجاعة، مستعدّين لدحر الصرب المروّضين العظام للخيول الأصيلة حتى أسوار بلغراد، كنت أرتجف تحت قصف المدافع سيّما وأنّ الفيلق الثالث للمدفعيّة اليوغوسلافيّة أمطرنا بمعدّل قذيفة في كلّ عشرين أو ثلاثين ثانية، بزغ الفجر على الحقول المنبسطة تمامًا قبالتنا، خضنا في الوحول في حقول الذرة المتعفّنة ثم انبطحنا في هذا السهل البنيّ تحت السماء الرماديّة التي لا تزال دافئة في بداية ذاك الخريف، لم يكن قطّ اليوم المناسب للاستشهاد، البتّة، في البعيد، على خطّ مستقيم أمامنا في الجهة الأخرى من الطريق، بدأت المعركة، تفاجأ جيش يوغوسلافيا الشعبي وأخذ بالتراجع، توجّب علينا التقدم لكي نقطع عليهم طريق الانسحاب ونسمح لجناحنا بالاستيلاء على مارينشي ومن ثم مواصلة الزحف أو التقدّم حتى فوكوفار، نظرت إلى الشارة المشطرجة المخاطة على عجل على كتف أندي لكي أستمدّ الشجاعة، على الأقلّ كنّا نعرف السبب الذي نقاتل لأجله، لأجل بلاد، لأجل مدينة محاصرة، لأجل الحريّة، وهذا غريب جدًّا، أن أفكّر اليوم أنّني ساهمت في تحرير بلاد فإنّ هذا لم يعد يعني لي شيئًا، سيّما وأنّ هذه البلاد باتت تبعد أكثر فأكثر في ذاكرتي وتصير ضبابيّة، بلاد لا أذهب إليها أبدًا تقريبًا، لكن ماذا دهاني بإمكاني أن أستقرّ فيها على أحد السواحل أو في إحدى الجزر، كأن أستأجر منزلاً صغيرًا في هفار أو تروجير وأنتظر نهاية العالم بهدوء، وعندئذٍ سيأتي

موتاي ليعضعضوا لي قدميّ في الليل، وسأنام بشكل سيّء، هناك الكثير من الأشباح في هذه الضواحي، أريد مكانًا جديدًا دون ذكريات ودون أنقاض تحت القدمين، سماء عذراء تعبرها طائرة، فلذة من أثير حيث يبقى كل شيء معلّقًا، أعلى، أعلى من مسارات القذائف التي كانت تنفجر حولنا في هذه الحفرة التي لم نكن نريد الخروج منها، إلا أندريا الذي كان يهمر نافد الصبر كحصان متوحّش، وسلاحه في يده، بكامل عتاده، بكامل زينته، الشيطان نفسه سيهجم، الشيطان أو جيش الملائكة، هذا وقف، وانطلقنا بأمر من الرقيب ميليه، انطلقنا إلى الأمام، إلى الأمام وأصبح الدماغ أبيض فجأة مثل راية المستسلم، عاريًا، فارغًا، مخليًا المكان للجسد المدفوع خارج حماه، ورفسة معاون الضابط في المؤخّرة، هيّا، كان أندريا الباسل يتلألأ في الفجر ذي الأنامل الرماديّة، حاملاً الصاروخ على كتفه، رغبنا في الزعيق والرعد والصراخ لكن توجّب بقاؤنا صامتين، والركض بسرعة للارتماء في الوحل في المكان الذي ظننا أنّنا قادرون فيه على التصدّي لمسار الدبّابة الهجوميّة T55 التي كانت تتقدّم عند الأفق مثل ضفدعة في حقل من الذرة، مثل قطار، دبّابة تبعتها أخرى، ثم ثلاث، أربع، خمس دبّابات اقتربت والأرض تهتزّ بخفّة، سننال منهم، سننال منهم، لم يكونوا يتوقّعون أن يجدونا هنا، جعلنا الأمل في عصبيّة محمومة، لقد وقعوا في الفخ، أساعد أندي في تجهيز صاروخه ثم أنهض بسرعة لأراقب حركة المصفحات، لا تزال هناك عشر ثوان، ينتفض أندريا الشجاع ويصوَّب بهدوء، ويرمي سهمه الناري **انتبهوا خصوصًا لا تبقوا واقفين لمعاينة نتيجة القذيفة** لا تنسوا العودة إلى التراب الرطب إلى الحشرات وأنوفكم ملتصقة بالطين، رشق من رشّاش 12,7 يقطع أصلات الذرة من حولنا، زحفنا إلى اليمين بأقصى سرعة ممكنة،

بأقصى سرعة ممكنة، وعندئذٍ غدا كلّ شيء وكأنّه لعبة، كلّ شيء وكأنّه لعبة، نسمع قذائف الأر. بي. جي.، وزعيق المحرّكات والطلقات غير المنتظمة للمصفّحات، فنلقّم من جديد سلاحنا، نلقّمه من جديد، نلقي نظرة، ثلاث دبابات تحترق والدبّابة التي استهدفناها بقيت ثابتة في مكانها، أندي أصابها فعلا زنجيرها في الهواء وتضرّرت فتحة برجها، انفتح بابها القلّاب وحاول الصربيّون الخروج من الآليّة التي حكم عليها بالإعدام، سأنجز على هذا الحصان الجريح، أرفع جهاز التصويب، أرى وصلة فتحة البرج من وسط مرمى التصويب وأطلق، هذه المرّة راقبنا سير الآلة، خطّ النار المستقيم، أحد راكبي الدبّابة نصفه في الخارج يرى السهم يتّجه صوبه فيجمد أفكّر هيّا تحرّك تحرّك بعد ثانيتين يصطدم الصاروخ بأسفل المصفّحة وينفجر، أشلاء من اللحم والثياب العسكريّة تخترق اللهب الأصفر الخالص وتقذف خرقة طويلة حمراء وسوداء مثل ذنب الديك في نور الصّيف، ينظر إليّ أندي مصعوقًا، ويهمس اللعنة أصبنا الهدف، لا أجد الوقت لأجيبه، انفجرت قذيفة على مسافة أمتار منّا، علينا الانطلاق من جديد، مكشوفين بين أصلات الذرة، نحو الحفرة لكي ننتقل إلى اليسار، عدّلت الدبّابات اتّجاهها لكي تتهيّأ للمواجهة، وها هي تتوالى، وتتقاطر خلفها أيضًا، عشرات الدبّابات العالقة في فخّ الحقول، محاولة الفرار من ميدان المعركة كفرقة من البغال أو قطيع من الثيران، مصطدمة بحواجز غير مرئيّة، بأفخاخ وبطاريّات مضادة للدبّابات، تعرف أنها لا تستطيع القيام بنصف انعطافة، يجب أن تعبر، عندئذٍ تتقدّم رغم كلّ شيء بين هياكل سابقاتها، هذا هو النّصر الوحيد الذي لا أزال أذكره، النّصر الوحيد وسط سلسلة لامتناهية من الهزائم، استعدنا مارينشي، وغدت الطريق إلى فوكوفار مفتوحة، من يدري ماذا كان حصل

لو أنّ تودجمان لم يوقف فورًا الهجوم، لم نفهم ما الذي حصل، لم نفهم أيّ شيء، ولا فهم أحد شيئًا، إنّه نصرنا الأوّل ومع ذلك كان غير مجدٍ، لم يفدنا الخوف والموت بشيء، كانت الآلهة تحمي الصرب، وطروادة ستصمد طويلاً قبل سقوطها، هكذا قرّر زوس، عبثًا كنا نلوّح بأسلحتنا عند أبواب طروادة، كنّا كمن يشهر مكنسة ليدكّ جدارًا، ربحنا معركة ومع ذلك كان هكتور في اليوم بعد التالي يرفسنا من جديد ويدحرجنا حتى عمق حفرتنا، بالقرب من سفننا، سيدوم احتضار فوكوفار شهرًا إضافيًّا، احتضار جافّ ضارٍ، مدينة بأكملها أصبحت قبرًا، وكرًا للجزّارين، قفصًا سوف ينفتح بابه ما أن يتكلّف الجنرال بانيتش عناء اقتحامه فعلاً، في 14 تشرين الأول، استعيدت مارينشي وقطعت الطريق من جديد، وحوصرت المدينة شهرًا جهنّميًا آخر سقط فيه بضعة آلاف من الضحايا، اليوم، يؤكّد الستراتيجيّون والمؤرّخون أنّ التضحية بفوكوفار أتاحت كسبًا للوقت لا يستهان به، ضروريًّا لتشكيل الجيش الكرواتي وتهيئته، هذا ممكن، أمّا نحن فكنّا ننفّذ خصوصًا أمر زوس المطاع، كان أندريا يتذمّر مثل طفل ويرفس المعلّبات الفارغة، يفضّل التواجد في المدينة المحاصرة بدلاً من تواجده على مسافة خمسة عشر كيلومترًا منها وسط المزارع والدساكر المدمّرة، مطاردًا الخنزير، أمّا أنا فانتابتني كوابيسي الأولى، أسمع القذائف طيلة الليل وأرى إلى ما لا نهاية الجنديّ الصربي ينفجر في أعلى فتحة برجه في الدبّابة T55، أراه بوضوح كامل بحيث أستطيع رسم وجهه الجامد، المرتاع أمام القذيفة المتّجهة صوبه لتقذفه إلى الموت، كلّ هذه الصور تتمازج في الحاضر، صور المرتاعين المقطوعي الرأس المحترقين الممزّقة أجسادهم بالرصاص المنهوشين بأنياب الكلاب والثعالب المبتورين المشلّعين الهادئين المعذّبين المشنوقين المختنقين

بالغاز أمواتي أموات الآخرين، والصور والذكريات والرؤوس دون أجساد والأذرع دون أجساد والأعين المفقوءة، كلّهم ملامحهم متشابهة إنّهم يختصرون بشريّة بأكملها، أيقونة الوجه نفسه، الشعور بالضغط نفسه على طبلتي أذنيّ، النفق الطويل نفسه الخانق، قطار لا متناهٍ، مسيرة طويلة في كنيسة لا أحد، وأندريا الإلهي في الوسط، غاضب تحت أسوار إيليون المحروسة، مقتولاً على يد ملتحٍ فوجيء بجنديّ مقرفص عند انعطافة إحدى الغابات، إنّه فجرٌ آخر يطلع، فجر من زعفران، ورديّ أو من قطران، الأمر مشابه، ليلة أمس شربنا كثيرًا، نهضت معتكر المزاج، وهو أيضًا، لم يكن أندي يجد سكّينه، ولا حربته كان رأسه يؤلمه، أخذ يدور في مكانه باحثًا عنه، باحثًا في جميع أغراضه، عندئذٍ أعطيته سكّيني فقط ليتوقّف عن التأفّف، واليوم، لم يعد لذيّاك الفجر أهميّة، ولا لتلك الحركات وسط الضباب المنتشر، كنت لأقتل جميع سكّان الأرض انتقامًا لأندريا وأستعيد جثّته المفقودة، المنهوبة، المشوّهة، كنت لأدفنه أو أحرقه أو أعيده إلى ذويه، أخذ العالم يتشقّق والفجوة اتّسعت في مدينة البندقيّة، وازدادت اتساعًا في سنوات الظلّ التي أمضيتها في البولفار، واليوم أمامي نفق، نفق يفضي إلى روما، فكِّر بشيء آخر يا فرنسيس، فكّر بإيفان المجنون، فكّر بالعالم الجديد، بهؤلاء الستينيّين اللطفاء الذين هم في عطلة، والذين يحتسون الكيانتي وهم يضحكون، فكّر بالمناظر التي لا حدّ لها، بالبحيرات، بالدببة، بالغابات اللامتناهية الموجودة في أصقاعهم، وهِمْ في ليل توسكانة الهائل الذي تخترقه السكك الحديديّة كما يخترق رمح درعًا، بنظرة، كما نتأمّل لوحة بسكينة، رأس ميدوزا في متحف الأوفيس

الفصل الثامن عشر

في روما 1598، أشرف ميكال أنجلو ميريزي المسمّى كارافاجيو على عمليّة أول قطع رأس: أمر بقطع رأس حصان عجوز على يد أحد اللصوص المفتولي العضلات اصطحبه من أمام أحد المواخير الكثيرة المحيطة بمسلّة أغسطس، في محترفه راقب بانتباه عضلات القاتل العاري تبرز تحت ثقل السيف، وانحناءة الكتف عندما ينهال السيف على عنق الحيوان، وهو يراقب المنخرين اللذين يتصاعد منهما البخار المحموم، والبهيمة المصعوقة بالمرض تحت حكم الإعدام، لم يكن لكارافاجيو بالطبع الوقت ليرسم، ويتملّى من الانعكاس على النّصل عندما يخترق الرقبة، وانبجاس الدم الأسود المستقيم الذي يلطّخ فخذ المحارب ويصبح قرمزيًا، تنثني قائمتا الحصان، يعود المرتزق المتوحّش ليرفع من جديد النّصل ويضرب في مكان أعلى فاتحًا جرحًا في رأس الحصان الذي توقّف عن الحراك، لقد بلغت ضربات الرجال فقرات رقبة الحصان، وصبغ الدم الأحمر اللزج جسد الجلاد حتّى خصره، ثمّ انحنى إلى الأمام لكي ينهي عمله، كارافاجيو ينظر إليه ممسكًا بعرف الحصان ويقصّ اللحم الأخير المعلّق بالرأس ثم يشهر بدون مشقّة باليد اليسرى الرأس الثقيل والدم يقطر منه والعينان جامدتان، فيشعر كارافاجيو بالغثيان، يصبّ

خادماه دلاء الماء على الجلّاد المرتعش، يخيّل إلى الناظر أنّه يرى قلبه يدقّ في صدره الأمرد، يبدأ كارافاجيو برسم العضلات والسيوف والنوافير الدامية فيما القاتل المأجور يغتسل، قبل أن يدفع له ميريزي اللواطيّ ثمن القيام بعمل آخر مختلف تمامًا، طقس مذموم آنذاكَ أكثر من قتل حصان مريض بكثير، روما مدينة قاتمة محفوفة بالمخاطر وحافلة بالأسلحة القاطعة والعاهرات المشوّهات والقتلى المحترفين والأزقّة المعتمة، كارافاجيو يعشق هذه المدينة، بعد هروبه منها لن يكفّ عن مسعاه بالرجوع إليها، حتى لو كان لنابولي سحرها، وإغواؤها، حتى لو كان هناك يستطيع العثور على عشّاق ورؤوس للقطع حتى في مالطة المتعفّفة، ستبقى روما دومًا ورعاع روما وبذخ روما هي التي ستجذب كارافاجيو المضحّي بالذبائح، وعاشق أجساد الليل وقطع الرؤوس، روما التي تتقدّم بخطى واسعة في ليل توسكانة، غدًا ربّما سيتوقّف الأميركيّون الذين يقدّم لهم أنطونيو البارمان كيانتي من جديد في سان - لوي - دي - فرانس على طريق ساحة نافون، لكي يروا اللوحات الثلاث في كنيسة كونتاريللي، دعوة القديس متّى، الإلهام الذي نزل عليه، واستشهاده، وهي من بين الأعمال الأكثر شهرة لكارافاجيو، وفي اللوحة الأخيرة يظهر سيف الرجل العاري بالقرب من القدّيس على الأرض، وجمال الملاك، وعلى مسافة أمتار من هناك في المصلّى الأوّل يسارًا، توجد اللوحات التذكاريّة للجنود الفرنسيّين الذين قضوا في روما، ضبّاط فرنسا الحرّة قادة التوانسة والجزائريّين والسنغاليّين وسكّان الأنتيل الذين لا أحد يهتمّ بهم، أشخاص بائسون منسيّون، جنود الطابور وخيّالة القوم الذين لم يتورّع جنرالات الحلفاء عن التضحية بهم - تمّ سحبهم من جبهة إيطاليا في تموز 1944 بعد أن خلّفوا عشرة آلاف قتيل ومفقود

على أرض المعركة، ليشاركوا في الإنزال على بروفانس[1] ومن ثمّ اجتازوا فرنسا كلّها إلى أن عبروا الرين في نيسان عام 1945، يخيّل إليّ أنّني أرى قوافل بغالهم عبر النافذة، في إيطاليا شكّل الخوف من «الاجتياح المغربيّ» ذعرًا حقيقيًّا لا ينسجم مع الوقائع، ومع بضع مئات من الجبايات غير القانونيّة، ألا يفترض بهؤلاء الجنود أن يتغذّوا ويجلبوا لأنفسهم القليل من العزاء ويغنموا حصّة قليلة من الحرب التي كان الألم وحده حصّة المشاركين فيها، كان للضبّاط الفرنسيّين القدرة على قتل جنودهم عند أقلّ حماقة يرتكبونها، دون أن يخضعوهم لأيّ شكل من أشكال المحاكمة ما عدا مذكّرة مرسلة إلى مقرّ القيادة العامّة، هناك مئة جندي رُموا بالرصاص لسبب أو لآخر بين آلاف الجنود الذين انضمّوا إلى الحملة العسكريّة الفرنسيّة على الشرق، والذين لن يروا الأطلسي ولا الرّيف ولا قسنطينة ولا القبيلي، أمّا الذين نجوا من الحرب فسيوظّفون خبراتهم العسكريّة في خدمة جبهة التحرير الوطنيّة بعد ذلك بعدّة سنوات، وبعضهم سيخضعون للتعذيب ويُقتلون دون تبليغ رسمي أو يسقطون في الكمائن قبالة الضباط الكولونياليّين بعد أن آزروهم وحملوهم إلى النّصر أو إلى لوحة تذكاريّة، لوحة صغيرة من الرخام، على مسافة أمتار قليلة من لوحة القدّيس متّى التي رسمها كارافاجيو، لوحة تذكاريّة تختصر آلاف الأسماء للجنود المجهولين الذين دفنوا في المقابر الفرنسيّة المبعثرة على أرجاء الأرض الإيطاليّة، بين نابولي وبحيرة ترازيمينا: في سالونيك، بعد أن انتهيت من قراءة **المدن التائهة** بين حانتين وزجاجة من نبيذ مقدونية،

---

(1) بدأ هذا الإنزال في 15 آب 1944 عندما شنّت القوات الحليفة المعركة في جنوب شرقي فرنسا المحتلّ من الألمان.

اشتريت دليلاً سياحيًّا بالصدفة من كشك جرائد، وعلى أساسه ذهبت لرؤية مقبرة زيتنليك، مقبرة ريف البلقان حيث يوجد تسعة آلاف قبر فرنسي وعظام ثمانية آلاف صربي سقطوا بين 1915 - 1917 منسيّين على جانبي حافة جادة واسعة وسط المدينة، هؤلاء الذين نجوا من معركة الدردنيل وقاموا بإنزال عام 1915 لدعم الصربيّين المهزومين، في المدفن يوجد مربّع للجنود البريطانيّين القتلى مصان بشكل جيّد، وحديقة روسيّة، ونصب إيطالي، ومقبرة صربيّة ضخمة وزاوية لمسلمي الجزائر، والفرنسيّين الإسرائيليّين، وبوذيّي الهند الصينيّة والمدغشقريّين والسنغاليّين والعالم بأجمعه أتى إلى هنا لكي يُقتل على يد البلغاريّين المتوحّشين وحلفائهم النمساويّين، والجميع يرقد الآن بين أشجار السرو على جادة لاغاندا على مسافة كيلومتر من البحر، في شمس آب، عاودت التفكير برحلتي إلى الدردنيل قبل ستّ سنوات، قبل ذلك بمئات الصفحات، ها أنا صدفة وحدي أرى الفصل التالي، أسماء هؤلاء الذين كانوا لا يزالون أحياء حين اكتشفنا المناظر المعذّبة لشبه الجزيرة، وحصون كيليتباهير، ورأس هيلس، الآن أستطيع تتبّع مسارهم، تسعة آلاف إضافيّين قضوا حتفهم على مسافة أبعد قليلاً، في هذه الأثناء، خضت حربي أنا بالذات، توقّفت في البندقيّة، رحلت ماريان، صرت موظّف الظلّ وها أنا أجدني وحيدًا صدفة في سالونيك أمام كلّ هذه القبور التي يمكن القول إنّني أنتمي إليها كما أنتمي إلى المنزل الذي ولد فيه أتاتورك، وأنا أصعد نحو أزقّة المدينة العليا، منزل عثماني مرمّم، لونه ورديّ ضارب إلى الأمغر، كنت زرت متحف مصطفى كمال في الدردنيل، كانت طريقه معكوسة، إلى الشرق، إلى أنطاليا المجيدة، حين ولد عام 1881 كانت سالونيك تعدّ المدينة الثانية في السلطنة العثمانيّة وكان نصف

سكانها من اليهود السفرديم ونصفهم الآخر من الأتراك واليونانيّين والسلافيّين والأوروبيّين، سالونيك **عش الجواسيس** للمخرج باسيت، هذا الفيلم الذي أمتعني في طفولتي، لماذا في 1912 بعد حرب البلقان، واصل مصطفى كمال مهمّته العسكرية إلى أن ألقى في البحر البريطانيّين والفرنسيين في معركة غاليبولي، ثم يونانيّي آسيا الوسطى في 1923، أمّا اليهود فأكملوا مسيرتهم حتى أدركهم الألمان عام 1941، ولم يتبقّ منهم في منتصف 1943 إلا حفنة من الأفراد موزّعين في الجبال مع المقاومة - كان معسكر الترانزيت في سالونيك موجودًا إلى جانب المحطّة، وبدأ ترحيل القطارات منذ آذار 1943 إلى تريبلينكا وسوبيبور وبيركينو، وفي آب خمسون ألف نسمة كانوا رُحلوا، وما يقارب الأربعين ألفًا أعدموا بالغاز، علمت بذلك في المتحف اليهودي، لقد دمّر ألويس برونر المسعور المتخصّص في القتل جالية سالونيك قبل جاليتي أثينا ورودس، وفد برونر إلى اليونان في شباط 1943، حتّى ذلك الحين كانت الإجراءات المناهضة لليهود محصورة في تحظير ركوب الدرّجات والاستماع إلى الراديوهات، أمسك برونر بزمام الأمور، أمسك الثور من قرنيه، وأنشأ شرطة يهوديّة من الأشقياء لكي تعينه في مهمّته، وبعد ستّة أشهر لم يتبقّ رسميًّا يهودي واحد في سالونيك، وآخر المرحّلين ومن بينهم الرابين الكبير زفي كوريتز، وضعوا في قطار انطلق باتّجاه أحد معسكرات برغن - بلسن، لم يُتّخذ القرار بإبادته، شعر الإلمان بأنّهم يدينون له بشيء ما كما يدينون للثلاثمئة ألف يهودي من الجنسيّة الإسبانيّة الذين طالب بهم قنصل فرنكو، الإسبان الذين درجوا على اتّخاذ قرارات مفاجئة أصرّوا على استعادة يهوديّيهم، وانطلقت قافلة إذًا إلى برغن - بلسن، ومن هناك نقلوا إلى الجنوب وسلك السفرديم طريق العودة نحو أراضي

إيزابيلا القشتاليّة التي تركوها منذ أربعمائة سنة، عبر فرنسا الفيشيّة، هل تلاقوا في محطّة ناربون أو في محطّة بوردو، هل تلاقى الذاهبون إلى الموت والناجون منه، لا أعرف، حين وصلوا إلى إسبانيا، حُشروا في مبانٍ عسكريّة في برشلونة: في كانون الثاني 1944 وجد ساكنو سواحل إيجه هؤلاء أنفسهم في الجهة الأخرى للمتوسّط، بعد أسابيع من الترحال في القطار والتوقّف في معسكرات الترانزيت، وبعد أن كابدوا عناء الصفقات على أنواعها والحرمان والأمراض، من مقدونية إلى ساكس ومن ساكس إلى فرنسا ومن فرنسا إلى كاتالونيا ليُرسلوا من هناك إلى المغرب الإسبانيّة لأنّهم لم يكن مرغوبًا بهم على أرض الوطن، وراحوا يبحثون هذه المرّة بأنفسهم عن منفى جديد، انطلق بعضهم إلى فلسطين، وفي النهاية كان حظّهم أكبر من الرابين الكبير زفي كوريتز الذي توفي جرّاء التيفوئيد مباشرةً بعد تحرير المعتقلات، زفي كوريتز الأشخنازي الناطق باللغة الألمانيّة، فهم جيّدًا أوامر ألويس برونر ونفّذها بحذافيرها، كان يظنّ أنه يحسن صنيعًا بفعله ذلك، ربّما كان خائفًا من ممارسات الألمان العنيفة، ربّما كان يجهل ما الذي ينتظر مواطنيه في ضواحي كراكوفيا، لن نعرف شيئًا عن حقيقة الأمر- لدى خروجي من متحف الحضور اليهودي بدأت وحدتي تثقل عليّ أكثر فأكثر، شعرت بالحرّ والعطش، لا يزال بعد الظهر الصيفي طويلاً لذا سأذهب لتناول الطعام والشراب في مطعم مكيّف، رحت أستعرض في ذاكرتي رحلات أبناء إسرائيل البحريّة، محاولاً أن أتخيّل سالونيك تتكلّم اللغة اليهوديّة - الإسبانيّة، والفرنسيّة، والتركيّة بين حمّام ومسجد وكنيستين بيزنطيّتين، تلك السنة اختيرت مدينة سالونيك العاصمة الثقافيّة لأوروبا، وهذه مكافأة حزينة للناجين القلائل من أورشليم البلقان القديمة، على غرار ليون سالتييل الذي

استطعت الحصول على مذكّراته في المتحف، ليون سالتييل يهودي شيوعيّ التحق، منذ الاجراءات الأولى التي اتّخذتها الشرطة النازيّة عام 1943 من تجميع ووسم، بجيش التحرير الشعبي اليوناني، والأنصار اليونانيّين في الجبال، حيث شارك في بعض الأعمال البطوليّة، حتى اندلعت الحرب الأهليّة بين فصائل المقاومة، في بداية 1944، ترك ليون سالتييل عندئذٍ رجال المقاومة ليعود بطريقة سرّية في صحبة رفيقة من إيونينّا تدعى أغاتا التي كان متيّمًا بها، أيقن أنّ عائلته كلّها رُحّلت وأنّ المتعاونين يبيعون أملاك اليهود بأبخس الأسعار، اختبأ مع المناضلة المغرمة لدى أحد الأصدقاء وهو ستافروس، ولكن وُشي به وأوقف وعُذّب وأرسل إلى ماوتهاوزن ووصل إليها، بعد رحلة بحريّة فظيعة، برفقة مقاومين من يوغوسلافيا ومقاوم آخر من اليونان وهو مانوس هادجيفاسيليس من مقدونية، وقد اجتاز هو أيضًا البلقان سيرًا على الأقدام والبندقيّة في يده قبل أن يتمّ اعتقاله في سلوفينيا، انتحر مانوس منذ وصوله إلى المعسكر، ارتمى على الأسلاك الشائكة وأجهز عليه الحرّاس في الشرطة النازيّة، ليون سالتييل يتكلّم لغات عدّة، صادق الشيوعيّين الإسبان الذين نظّموا المقاومة داخل المعتقل، هل التقى بفرنسيسك بويكس المصوّر، هذا محتمل، كان ليون سالتييل مريضًا زمن التحرير، بقي لشهرين في مستوصف أميركي، بين الحياة والموت، وتماثل لِلشفاء في حزيران 1945، على مسافة ثلاثة آلاف كيلومتر من بلاده، علم أنّه حصلت الحرب الأهليّة في اليونان وأنّهم تقاتلوا في أثينا، وأنّ الشيوعيّين يقفون في وجه البريطانيّين وأنصار الحكم الملكيّ، يريد ليون رؤية أغاتا وسالونيك من جديد، استحصل على جواز سفر من الصليب الأحمر وشرع في رحلة طويلة مشيًا على القدمين عبر النمسا وهنغاريا، وصل حتى بلغراد

حيث اعتقل لأسباب يجهلها، وانتهى به الأمر إلى إخلاء سبيله وإرساله إلى إيطاليا عن طريق زغرب مع احتياطيّي أسرى الحرب، وبعد أسبوعين في مدينة البندقيّة أمضاها في الحجر الصحيّ في معسكر ترنزيت شديد الرطوبة أرسل في القطار إلى أنكون، وفي أنكون التقى بيونانيّين وجدوا له مكانًا في سفينة شحن رست أخيرًا في مرفأ باتراس في أوّل كانون الأول 1945، يوم ميلاده الثلاثين، ليون سالتييل في اليونان، ذهب إلى أثينا بسهولة ومن هناك إلى سالونيك، شعر بالخوف ممّا ينتظره، في هذه الأثناء نبتت لحيته وطال شعره، والملابس الفقيرة التي قدّمها له الصليب الأحمر باتت أسمالاً، وحذاؤه أيضًا صار باليًا، لحيته متوحّشة وعيناه غائرتان، ذهب إلى وسط المدينة وصعد جادة إغناتيا، عائدًا من حيث انطلق، إلى مقهى ستافروس، مكان اعتقاله، سيحتسي قهوته دون سكّر هادئًا ناظرًا إلى السيّارات القليلة قديمة العهد العائدة إلى ما بعد الحرب وهي تعبر، انعطف شمالاً، في شارع القدّيسة صوفيا حتى وصل إلى حدود المدينة العليا، الساعة تقارب السادسة مساءً، في حوزته بعض الدراخمات كان قد أعطاه إيّاها إخوة في الدين في أثينا، اقترحوا عليه أيضًا أن يبلغ أحدًا بوصوله عبر الهاتف، رفض، إنّه على بعد مئة متر من مقهى ستافروس، ليون سالتييل يتردّد في الدّخول، ماذا لو نزل الشارع مجدّدًا ومرّ بالمبنى الذي كانت تسكنه والدته، وبدكّان صهره حتى لو كان يعرف أنّه لم يعد شيء ولا أحد موجودًا وأنّهم جميعًا توفوا، يعرف ذلك أفضل من أيّ كان لأنّه شاهد بأمّ عينه أكوام الجثث والإعدامات الخاطفة وشمَّ رائحة اللحم المحترق، عندما كان الهواء المتجلّد يجعل الدانوب مرتعشًا، بإمكانه الذّهاب إلى الكنيس، فالجالية لا بدَّ أنّها أعدّت شيئًا لهؤلاء العائدين، لم يكن الوحيد الذي عاد، بإمكانه الذهاب

أيضًا إلى مقرّات الحزب، لا يعرف إذا كان فعلاً راغبًا في ذلك، راغبًا في الكلام والسرد والشرح، كان هنالك بعض اليونانيّين معه في ماوتهاوزن، عشرة وليس بينهم يهوديّ، وجميعهم قضوا نحبهم، أحدهم شنق نفسه بالحزام الذي يحزم به سرواله، يا إلهي، يا إلهي، لم يكن ليون متديّنًا قط، آخر رفاقه توفّي بنزلة صدريّة بعد التحرير، وآخرون وصلوا بعد إجلاء أوشفيتز، وبعضهم كانوا من سالونيك نفسها لكنّهم كانوا رحلوا عندما خرج ليون من المستوصف، كان الأميركيّون يجهلون كيفيّة إعادته إلى اليونان من جديد، سار على طول الدانوب حتى فيينّا، كان الجنود ينظرون إليه كما لو أنه ميت - حي، والآن، في زاوية الشارع، على مسافة مئة متر من المقهى يتردّد خجلاً، ستافروس رفيق جيّد، هل أغار عليه الإلمان أيضًا، يتقدّم ليون سالتييل إلى رصيف المقهى، يلقي نظرة إلى الداخل، يتريّث هنيهة ثم يدخل مبتهجًا إلى طاولة الشراب، ستافروس هنا، لم يتغيّر، وقف أمامه دون أن يقول شيئًا، نظر إليه ستافروس نظرة شاردة دون أن يتعرّف عليه، منزعجًا يذهب ليون للجلوس إلى إحدى الطاولات، ينتظر، ليس لديه ما يقوله، ثم يقول لستافروس: قهوة من دون سكّر لو سمحت، الرجل منهمك خلف طاولة الشراب فيعيد ليون الجملة باتّجاه المطبخ، فنجان دون سكّر، ليون حائر، يهمّ بأن يصرخ قائلاً لستافروس هذا أنا لكنّه يتردّد، يبقى صامتًا، تخرج امرأة من المطبخ حاملة صينيّة ألمنيوم صغيرة في يدها، إنّها أغاتا، يخفض ليون رأسه، تضع القهوة وكوب الماء بقوّة على الطاولة، يشخص ليون إلى القشدة البنيّة في الفنجان الصغير، رأى الخاتم في يدها اليمنى، يعاود التفكير فجأة في آريس أندريانو الذي شنق نفسه في الحمّام بحزامه، يرى من جديد عنقه المتضخّم والملتوي، عينيه الزائغتين إلى أعلى وفمه

المفتوح، ينتظر بلهفة أن يستقرّ الثفل في قعر الفنجان، يعرف الآن أنّه لا أغاتا ولا ستافروس لن يتعرّفا إليه لأنّه شبح، لأنّه بات في عداد الأموات بالنسبة لهم، يدرك فجأة لماذا وكيف اعتقل، يشرب ليون سالتييل قهوته المرّة، ثم قليلاً من الماء ويرمي قطعة نقديّة في صينيّة الفضة فتحدث رنينًا ويرحل- أفعل مثله، في منتصف مذكّرات سالتييل أدفع حسابي وأخرج، قرأت لمدة ساعتين كاملتين بالإنكليزيّة، الأمر الذي لم يحدث لي مذ كنت في المعهد الجليل للعلوم السياسيّة، تقدّم الوقت بعد الظهر فصعدت إلى المدينة القديمة متعرّقًا، أحتاج للهواء، أحتاج لرؤية البحر من علٍ غدًا سأرحل، لا أعرف لماذا اعترتني فجأة رغبة في أن أستقلّ سيّارتي وأذهب إلى الشمال وأعود إلى باريس برًّا، مارًّا في بلغاريا وصربيا، على أيّة حال لديّ جواز مرور فرنسي، نحن في آب، هناك سيّاح، سأعبر الأبواب الحديديّة[1] وأتبع مجرى الدانوب حتى بودابست وأرى الضفّة الأخرى، ترى ماذا يشبه النهر في فويفودين، على الضفّة الأخرى، في عام 1997، كانت الحرب قد مضى على انتهائها سنتان، وبدأت المنطقة هناك تستعيد أنفاسها، أيّة فكرة غريبة خطرت لي، فكرة الذهاب للارتماء في شدق الذئب التشيتينكي ذي الشوارب، دون إذن، لم يكن يفترض بي الذهاب إلى بلاد مماثلة، نظريًا كان عليّ أن أطلب إذنًا خاصًّا فيما يتعلّق بكل التنقّلات في الخارج، وهذه مصيبة الجاسوس، لكن لا بأس، لم أكن أتبيّن فعلاً ماذا بإمكانه أن يحدث لي ما عدا أن تتعطّل بي السيّارة، لم أكن رأيت قط لا بلغراد البيضاء ولا نوفي ساد النمساويّة، ربّما كانت

---

(1) للإشارة إلى مضيق في الدانوب وهو جزء من الحدود بين صربيا والجنوب الغربي لرومانيا.

الأرواح الصربيّة المدفونة في مقبرة سالونيك الحربيّة قد ألهمتني هذه الفكرة في مسعى منها للانتقام من أجدادي النمساويّين الهنغاريين الذين أرسلوهم إلى المقبرة، كانت تريد اجتذابي إلى أحد الأفخاخ لكي تغرقني في الدانوب، في تشرين الأول 1915 ساند الأمبراطور غليوم الثاني[1] النمساويّين في المعركة، في 9 تشرين الأول احتلّت بلغراد، وتراجع الصربيّون على جميع الجبهات، لا سيّما أن فردينان الأول[2] ملك بلغاريا الذي وُعد بمقدونيا وكوسوفو، طعن صربيا الأبيّة في الظهر، فرض على الجيش الصربي الانسحاب ودمّر، أما فلوله المتبقّية المبعثرة فانضمّت إلى جبهة الحلفاء في سالونيك حيث قاتلت حتى 1917، ما يقارب الثلاثمئة ألف جندي صربي لاقوا حتفهم خلال الحرب العالميّة الأولى وببسالة، كما يقال، فيما كان النمساويّون يعيثون إحراقًا وتقتيلاً في بلادهم المحتلّة - التقرير الذي قدّمه رودولف أرشيبالد ريس[3] عام 1915 والذي استخدمته وسائل الإعلام لعقود عاد إلى ذاكرتي، هؤلاء الناس الذين بقرت بطونهم، والمدنيّون الذين اقتلعت عيونهم، والفروج التي فتحت بالحراب ويرشح منها نسغ عشرات الجنود، والأنوف

---

(1) غليوم الثاني (1859 - 1941) ملك بروسيا وامبراطور ألمانيا الأخير 1888 - 1918. أبعد بسمارك وحكم بنفسه. حالف تركيا والنمسا ودخل الحرب العالميّة الأولى. تنازل عن العرش بعد هزيمة 1918.

(2) فردينان الأوّل ملك بلغاريا (1861 - 1948)، أعلن استقلال بلغاريا عن الدولة العثمانيّة عام 1908، لعب دورًا بارزًا في إنشاء العصبة البلقانيّة عام 1912، في عهده خاضت بلغاريا الحرب البلقانيّة الأولى والثانية ودخلت الحرب العالميّة الأولى إلى جانب ألمانيا.

(3) رودولف أرشيبالد ريس (1857 - 1929) رائد ومؤسّس الشرطة العلميّة وأستاذ في جامعة لوزان، عالم أخلاق ورسّام وشاعر.

المجذومة، والآذان المصلومة، وكلّ الوقائع موصوفة ببرودة المتخصّص في الشرطة العلميّة: أن يستخدم التقرير هذا المعسكر أو ذاك فهذا لا ينقص من صدقيّة الشهادة، المثبتة بقوّة الانتقام، وحقد ذلك الذي يؤمن بالانتقام، الحقد الذي سيتطهّر منه بعد عشرات من السنوات لاحقًا بمحاربته أعداءه، بدافع الخوف، الخوف المتوارث، الخوف من الخرافة التي تحثّه أيضًا على الانقضاض على الآخر والسكين في يده، تمامًا كما كانت تدفعنا القصص عن الفظاعات التي ارتكبها الصرب والخوف الناتج عنها إلى تقطيع جثثهم إربًا، مرتعبين ولا شكّ من أن يكون لهؤلاء المحاربين القدرة على الانبعاث من جديد، وكانت الحلقات المتتالية للمجازر الصربيّة - الكرواتيّة تبرّر دومًا القصّة السابقة، والجميع على حقّ، لأن كل واحد على غرار النمساويين في صربيا، يمكنه أن يبرّر موقفه مستشهدًا بجريمة فظيعة ارتكبها المعسكر الآخر، الآخر فينا، يجب محو وجوده الانساني، انتزاع وجهه، منعه من الانجاب بقطع خصيتيه، إذلاله باغتصاب نسائه، إبادة ذريّته بقطع الصدور وشعر العانة، والعودة إلى الصفر، إلغاء الخوف والألم، التاريخ قصة حيوانات متوحّشة، كتاب شخوصه ذئاب يظهرون في كلّ صفحة من صفحاته، «تشيدو» سيذبحك يا بنيّ، وسيفعل ذلك ولا شكّ، كما أنت ستفعل بكلّ تأكيد، على حدّ اعتقاده، سبق لك وأحرقت أبناءه الذين أخذوا في العويل والصراخ في الحفرة الملتهبة، تاريخنا الجماعي صنعته قصّة الألم الفردي، وموقع الأموات والجثث، ليست كرواتيا التي تنزف بل هم الكرواتيّون، وطننا حيث قبورنا، أمّا قاتلونا، القاتلون في الجهة الأخرى من المرآة فينتظرون أن تحين الساعة الملائمة للانتقام، وسيأتون، سيأتون لأنّه سبق لهم أن أتوا، لأنّه سبق لنا أن ذهبنا لنستأصل آذانهم، ونضع أوتادنا في

أحشاء نسائهم ونقتلع أعينهم، وعندئذٍ ستأتي موجة متدفّقة من العميان يزعقون ويصرخون داعين للانتقام، وسيأتون للدفاع عن قبورهم وعظام موتاهم بكلّ تأكيد، تمامًا كما أنّ الجزر الذي انحسر سيعود للارتفاع على إيقاع حركات القمر، أرغب في استقلال سيّارتي واجتياز أرض أعدائي، أرغب في إرسال كأس من خمر الإجاص إلى زيمون وأنا أنظر إلى نهر السافا يرفد الدانوب ويجعله أضخم، أرغب في رؤية ما إذا كانت الفتيات جميلات، والاستماع إلى ألحان التوربو - فولك[1] تغنّيها زوجة أركان النمر[2] المكتنزة، وأشتري لنفسي تيشيرتًا رسم عليها رأس مليوسيفيتش أو ملاديتش، وألهو قليلاً، أرغب في أن أضحكَ لدى التفكير أنّه لبضع سنوات خلت كان بإمكان الخادم أن يصرعني دون أن يرفّ له جفن في ضواحي أوسييك، وأنّ كلّ ذلك انتهى الآن، إنّه دور الكوسوفيين للانتقام، ثم سيأتي دور الألبان للانتقام، ويلتهمون الأرثوذكس على الإفطار، نحن جميعًا مرتبطون واحدنا بالآخر بصلات لا تنفصم عراها يجمعنا الدم البطوليّ، وتحرّكنا دسائس آلهتنا الغيارى، انتهى كلّ هذا الآن، بعد عدّة سنوات من المطهر أمضيتها في مكتب وسط الملفّات أنا في آخر قطار قبل نهاية العالم، قبل انبثاق النور الباهر والتجدّد، عندئذٍ ستنتشر فوق تلال توسكانا الحُمُر الوحشيّة، الحُمُر الوحشيّة والغزلان، والأسود التي ستلتهم من وقت لآخر سائحًا تائهًا، عندئذٍ سنشرب خمرًا نروجيًّا فاخرًا، عندئذٍ سينظر إيفان دوروا في السبعين من عمره إلى القرود تلهو على

---

(1) موسيقى بلقانيّة الأصل انتشرت منذ 1991.

(2) زليكو رازناتوفيتش الملقّب بأركان النمر: قائد ومؤسّس حرس المتطوّعين الصربيّين.

منحدرات أرجنتاريو المزروعة بالأوكاليبتوس وشجر الخبز، الأميركيّون في القطار ينتظرون بفارغ الصبر الوصول إلى روما وأنا أيضًا، مضى وقت طويل على وجودي في القطار، إحدى الأميركيّات تشبه بغرابة المرأة التي التقيتها البارحة مساءً في حانة **La Pomponette**، لا بدَّ أنها تفكّر أنّني شخص بائس، أشعر أنّني دبق تمامًا وكأنّني أخرج الآن من عندها، من مقصورتها القائمة في شارع مركاديه، الرجال أنذال، يرغبون في أن يقاتلوا ويصطادوا ويضاجعوا ويشربوا ويغنّوا من وقت لآخر ويلعبوا كرة القدم، إنّهم ضعفاء حيال أهوائهم، أودّ لو ينتهي كلّ هذا كما في فيلم **الأزمنة الحديثة**، عندما يمسك شارلي شابلن بذراع حبيبته ويمشي في طريقه، لم أعرف كيف أمسك ستيفاني من ذراعها، عندما صعدت من جديد إلى شقّتي بعد ساعتين وأنا متعتع من السكر ومتعرّق بعد حادثة المسدّس، لم أجدها هناك، كان المسدّس لا يزال أيضًا في المكان نفسه، ستيفاني رحلت، أمسكتُ قلمًا وورقة وكتبت لها رسالة اعتذار شارحًا لها فيها أنّني كنت أعرف أنّ السلاح معطّل وأنّ ما فعلته مزحة سيّئة ومن ثم أنهيت الرسالة وأنا أبكي على مصيري كمحارب قديم لكي أستثير شفقتها، فالحرب كانت لا تزال حاضرة جدًّا بالنسبة لي وأضفت تفاهات أخرى من هذا القبيل، رسالة مستعطفة جدًّا متملّقة مستدرّة للعواطف بهدف مسامحتي، فالحبّ يجعلك تقوم بأمور دنيئة، فكّرت، كنت سكران لكنّي لم أكن أعمى، وضعت الرسالة في ظرف وأدخلتها في علبة الرسائل وأنا في طريقي إلى عملي، وفعلت رسالتي فعلها، تدبّرت أمري لكي لا ألتقي بستيفاني في جادة مورتييه قبل أن تقرأها، وفي اليوم التالي، دعمت موقفي فأرسلت أزهارًا إلى شقّتها في الساعة الثامنة، فيما كنت متأكّدًا أنّها في منزلها، وفي الساعة الثامنة

والنصف تمامًا، لا أعرف ما إذا كان الأمر مردّه إلى الأثر المهدّىء للورود أم إلى بلسم اعتذاراتي، تلقّيت مخابرة، كانت هي، تسألني عمّا إذا كنت راغبًا في الذهاب سويّة إلى تناول العشاء، وكأنّ شيئًا لم يكن، فقلت موافق، بإمكاننا التلاقي عند منتصف الطريق، نحو شارع **la République** مثلاً، اختارت مطعمًا أنيقًا على قنال سان مارتان، وعندما رأيتها عند ضفّة الماء ضممتها بشدّة بين ذراعيّ، واعتذرت منها هامسًا في أذنها، طلبت منّي ألا أعيد الكرّة، اتفقنا؟، بالطبع، عدني أيضًا بأن ترمي هذا السلاح في سلّة النفايات، قلت، بالطبع، بالطبع، ولم أقصد حرفًا ممّا قلته فلقد احتفظت به طويلاً مسدّس زاستافا الصغير، وفي آخر الأمر أهديته منذ بضعة أشهر إلى ليبيان بمناسبة إحالته على التقاعد وزوّدته بقادح جديد اشتريته عبر الأنترنت وهذا أسرّه كثيرًا - لا أنا ولا ستيفاني شعرنا بأنّ هذه الحادثة فتحت ثغرة في علاقتنا أو أخلت مكانًا للعنف، لم أكن أدرك أنّ المدّ يرتفع وأنّه سيدركنا، وأنّه كلّما ملأت الحقيبة أسماءً وصورًا وسعيت لأن أتحاشى ذكريات كرواتيا والبوسنة منكبًّا على مسائل المنطقة، اتّسع الشق، أمّا ستيفاني الخبيرة الاستراتيجيّة الشهيرة التي تمضي نهاراتها برفقة الجنرالات ومدراء الوزارة فكانت غافلة عن كلّ شيء، أو ربّما كانت مثل مريان، مستسلمة لغواية الجانب القاتم، هاوية طعم المخاطر، فالمحاربون يلتمعون بنور أسود على غرار آريس نفسه، كان أندي المتوحّش جذّابًا هو أيضًا، بهيمة جميلة رغم بشاعته، أحد هؤلاء الشياطين الملائكيّين الذين كانوا ليروقوا كثيرًا لجان جينيه الشاذّ عاشق المقاتلين الفلسطينيّين، كان بإمكان أندي أن يفعل كلّ شيء لكي يكسب مودّة فتاة مثل انتصار الفلسطينيّة، أنا واثق، أتساءل ما إذا رافائيل كحلة الكاتب مقاتلاً هو أيضًا، أو ما إذا كان عاشر

هؤلاء الفلسطينيّين، نروي جميعًا القصّة نفسها في العمق، قصّة العنف والرغبة كما فعل ليون سالتييل اليهوديّ اليوناني في مذكّراته، ليون المطعون في الظهر يجوب سالونيك المقفرة، عائلته وأصدقاؤه ماتوا في المعسكرات، ورفاقه مختبئون في كهوف الجبال في مقدونيا وإيبير، وسيواصلون معركتهم بمعونة الجماعات المسلّحة ضد الملكيّة الفاشيّة، أغاتا تزوّجت بستافروس، إنّهما اللذان وشيا به إلى الألمان، كلّ يوم في ماوتهاوزن كان يفكّر في أغاتا قبل النوم ويتشبّث بذكراها كما يتشبّث بشجرة لكي لا يطير من مدخنة فرن المحرقة، يفكّر بعيني أغاتا، بيدي أغاتا، واليوم في سالونيك شبه المنسيّة، هذه الشجرة الصلبة جدًّا لم تعد إلا جوجؤًا تآكله البحر، سالتييل يدور في مكانه منذ عدّة أيام قبل أن يعقد العزم على العودة إلى شقّة عائلته بعد أن صادرها أحد الأقرباء الناجين الذي وعده بألا يكشف أمره لأحد، احتبس ليون نفسه في شقّته لثمانية أيّام، ثمانية أيّام وهو يشرب ويدخّن في الظلام يطارده شبح مانوس هادجيفاسيليس وهو يلقى مصرعه في الحال على الأسلاك المكهربة، وأيضًا آريس أندريانو بعنقه المفتول وفمه المفتوح، والخاتم في أصبع آغاتا، لم يتبقّ له شيء ولا أحد، يقرّر سالتييل أن ينهي المسألة وقد أرهقه الألم وأرهقته الكحول، يصنع حبلاً قصيرًا من أحد الشراشف ويعقد طرفًا منه حول عنقه، ثم يفتّش عن مكان عالٍ يستطيع أن يعلّق إليه الطرف الآخر، أيّ شيء قسطلاً أو عارضة، فلا يجد، لم يعثر على أيّ شيء في ارتفاع الغرفة بإمكانه تحمّل وزنه، عندئذٍ صعد يائسًا إلى حافة النافذة والشرشف لا يزال معقودًا حول عنقه وأراد الارتماء في الفراغ، الوقت متأخّر، الليل جميل، ريح منعشة داعبت ساقيه العاريتين، البحر قريب جدًّا، الشرشف الذي أراد أن يشنق به نفسه صار منديلاً ناعمًا،

النسيم البحري يجذب ليون ويخرجه من الضباب، وزوس مجمّع الغمائم لمح خيبته وأراد مؤاساته، اختفى الألم الأسود وامتزج بالرذاذ، بغبار القمر والنجوم فوق خليج سالونيك، ليون يتشبّث برافعة النافذة، كان واقفًا على علوّ أربع طبقات عن الأرض، أوشك أن يشنق نفسه ويرتمي في الفراغ، وما الداعي، ولأجل من، لم يعد هناك أحد، يعود إلى الداخل ويتهاوى على السرير وينام نوم الأموات والحبل لا يزال حول عنقه - في صباح اليوم التالي يقصّ ليون لحيته دون أن يحلقها، لقد حلم بقدره، رآه بوضوح، يرتدي قميصًا جميلاً وسترة جميلة، بئس الأمر، حتى لو كانت هذه الملابس واسعة جدًّا عليه الآن، بئس الأمر، انشغل طيلة النهار وانهمك حتى ساعة متأخّرة من المساء، لم يرتجف عندما واجه اللحظات الأصعب، كانت آغاتا تصرخ متوسّلة إليه وتنورتها تكشف عن إحدى ساقيها، أنجز ليون سالتييل واجبه بشكل منهجي وكأنّه ينصاع لأحكام العدالة أو ينفّذ أوامرها، ومن ثم وافى الشيوعيّين في الجبل، في عام 1948 أوقف ورُحّل إلى جزيرة ماكرونيوس، لأسباب سياسيّة، لا علاقة لها بتعذيب آغاتا تحت عيني ستافروس المحملقتين الموثق إلى كرسيّه والمكموم الفم ولا بحزام الجلد حول العنق الرقيق للمرأة الشابّة، ولا بالرصاصة التي ما لبثت أن اخترقت رقبة ستافروس الخائن لكي يسرّع فترة احتضاره: سالتييل يعود من ترحيله الثاني عام 1953، ودومًا بحسب مذكّراته، يترك اليونان مرّة أخرى عام 1967، إبّان فترة دكتاتورية الكولونيلات، ولن يعود إلا في عام 1978 ليموت في سالونيك، لم يعد ليموت بين أهله لأنّ أهله من يهود وشيوعيّين، وآغاتا وستافروس، توفّوا منذ وقت طويل - أتساءل لماذا وشت آغاتا بليون سالتييل، بدافع الحبّ ولا شكّ، الحبّ في أزمنة مفصليّة، أتخيّل أنّهما، هي

وستافروس، أعدّا خطّة لكي يتخلّصا من المزعج، أعدّت الخطّة مع ستافروس المخبر، أو ربّما لم يكن لديها علاقة بكلّ ما حدث، لم يفصح سالتييل عن سبب تعذيبه لها، هل على سبيل الانتقام الخالص أم ليعرف، ليعرف ما إذا كانت سلّمته فعلاً للألمان سيّما وأنّه فريسة شهيّة للغستابو، فهو يهودي وشيوعي، ولا يفصح أيضًا سالتييل عن كيفيّة فراره من قبضة الجلّادين في ساحة سجن الأبراج السبعة، في أعلى المدينة، هل أدلى بمعلومات وأنقذ بها حياته مقابل نقله إلى أحد معسكرات الاعتقال، واضعًا منذ ذلك الحين قدمًا في المنطقة الرماديّة، منطقتنا، منطقة الظلال والمتلاعبين، سالونيك لؤلؤة بحر إيجه ذكّرتني بالإسكندريّة، في المدينة السفلى كانت تنتشر الفروع الرئيسيّة للمصارف الكبيرة ومؤسّسات التأمين ووسائل النقل في بداية العصر، بالإضافة إلى «بورصة القطن»، و«مصرف مصر»، وكما في الحاضرة المصريّة، كذلك كانت ساحة أرسطو في سالونيك تشبه قليلاً ساحة سعد زغلول أمام فندق سيسيل، حيث كان يحجّ السيّاح البريطانيّون، أمّا الذين يعتريهم الحنين للأيّام الغابرة فكانوا يتدافعون حول حانة الفندق سسيسيل حاملين كتاب لورنس دوريل في أيديهم، باحثين بأعينهم عن جوستين أو ميليسا ومتغافلين عن رؤية الإصلاحات والإنشاءات التي ظهرت نتيجة الحداثة والعصرنة، كإنشاء «مركز الأعمال» وتزيينه بنباتات بلاستيكيّة، وهذا كيتش بديهيّ يعتمده أحد الفنادق العالميّة المترفة، فيما كانوا يبحثون عن الجلد الأحمر لما قبل الحرب وعن دخان السجائر الهافانيّة، وعن اليونانيّين والإيطاليّين ويهود الإسكندريّة الذين أبعدتهم حرب عبد الناصر إلى المنفى تدريجيًا، إلى الشمال، الإسكندريّة اليوم حاضرة مصريّة هائلة أكثر زحمة سكانيّة من باريس، تخيّم عليها أجواء التديّن

والبؤس، لكنّها تزهو بمكتبة جميلة أنشأتها الحكومة الطامحة إلى استعادة أمجاد مصر الفرعونيّة، إحدى المكتبات الأكثر خواء على الكوكب رمز نظام مبارك المعاند، أشبه بصدفة جميلة رماديّة من رخام أسوان - لا حياة تنشأ من الموت ولا شيء ينبعث من جديد بعد تدميره، لا الرجال الذين اختفوا، ولا المكتبات المحترقة، ولا المنارات المدفونة، ولا الأصناف المنقرضة، رغم وجود المتاحف والتذكارات والتماثيل والكتب والخطب والإرادات الطيّبة، من الإسكندريّة لم يتبقَّ إلا ذكرى غامضة، ظلّ يحوم على الإسكندريّة، شبح مألوم تنتابه الرّعشات، هذا أفضل ولا شكّ، هذا أفضل، يجب على الشعوب أن تعرف كيف تجد طريقها إلى النسيان، يجب ترك الرجال والحيوانات والأشياء ترحل، عندما كنت برفقة ماريان التقينا بشابّ وشابّة بريطانيّين، ينتميان إلى طبقة راقية وكانا يجوبان المدينة مستقلّين عربة خيل، لم يكونا راغبين في ركوب سيّارة تاكسي، ومستعدّين لدفع مئات المرابطيّ[1] لكي يتربّعا على مؤخّرة عربة تجرّها الأحصنة الهزيلة ويقودها مصريّ يرتدي عمامة، كانت الفتاة ترتدي بنطال الفروسيّة بلون الكريم وسترة ضيّقة وهو يرتدي سترة ذات أكمام قصيرة وقبّعة عريضة الجوانب موديل «آنزاك 1915»، واللمسة الملوّنة الوحيدة وسط فجور الألوان الرمليّة هذه وجوه البريطانيّيْن التي لوّحتها الشمس وكانت أشبه بحبتي بندورة ناضجتين تحت قبعتيهما القديمتين، هو كان قرأ دليل الإسكندريّة الذي كتبه E.M. Forster إ.م. فورستر في عام 1920، وهي رواية **جريمة على النيل**، كانا تجاوزا سنّ العشرين بقليل ويبدو عليهما أنّهما عاشقان، وبالطبع كانا

(1) مرابطي: عملة إسبانيّة قديمة تساوي ميلمًا.

ينزلان في فندق سيسيل، اكتشفنا هذين النموذجين في محل حلوى قديم قرب الساحة الكبيرة، وكان الأمر وكأنّنا عثرنا على حيوانين من البتراندون[1] على مستديرة الشانزيليزيه، أو دلفينين من نهر يانغتسي في السين، كانت ماريان مسرورة للتحدّث إليهما، مع أنّها كانت غيورة بعض الشيء من الأمتعة الجلديّة والفنادق الفخمة، كانت إنكليزيّتهما في غاية الدلع والتأنّق، وكلّما نطقا بحرف برزت معه تفّاحة بلعومهما، كانا مرتاحين على وضعهما، غارقين في كنبات محل الحلوى الهائل، يرتشفان الشاي المحفوظ في مغلّفات صغيرة مقفلة، كانت ثقافتهما موثّقة ويعرفان الشاعر كافافي عن ظهر قلب ويتقنان اللغة اليونانيّة، كانا أشبه بظاهرة فريدة، لم أكن غيورًا من الشاب بشكل خاصّ فالبريطانيّة الصهباء ناحلة إلى حدّ بروز عظامها، نهداها مسطّحان شتّان بينهما وبين نهدي مريان العارمين المشرئبّين تحت قميصها الأبيض حتى لتكاد أزراره تغادر عرواتها، ماريان الصادقة العفويّة كانت على بعد آلاف الأميال من تلك الانكليزيّة المتصنّعة، أمّا المصريّون فلا يبدو عليهم أنّهم يلاحظون شيئًا غير اعتيادي، كانوا مسرورين لأنّ الكوبل الشاب يمطرهم بالعلاوات والبقشيش وفقًا للتقاليد الكولونياليّة الرفيعة - صديقها يدعى جيمس وهو اسكوتلندي من هواة رياضة الرغبي المتحمّسين والنحت اليوناني، اقترحا علينا اصطحابنا في نزهة داخل عربتهما، إلى المنتزه، لزيارة القصر والحدائق، كانت لديّ رغبة في القول سنرى إذا كان في الإمكان تفادي المسخرة، لكنّي امتنعت عن قول ذلك، فبعد كلّ حساب كان الأمر ظريفًا وفي صباح اليوم التالي أتينا على الموعد، ارتدت ماريان على الطريقة الريفيّة، قميصًا من

(1) حيوان منقرض من الزواحف المجنّحة.

المربّعات الحمراء وفولارًا صغيرًا متناسبًا معها، واحتشدنا في الحنطور بالرّغم من استياء السائق الذي كان يرتدي عمامة ويتمنّى لو أنّنا نتوزّع على عربتين، لكنّ جيمس أقنعه أخيرًا بأنّه سيدفع له لقاء الحمولة المضاغفة الناتجة عن الوزن ليرات ذهبية، وانطلقنا وسط التاكسيات والباصات المزدحمة والغازات المنبعثة من الإشبمانات في زحمة السير والأسواق وأبواق السيّارات وأجراس الترامواي على وقع قوائم الفرس وهي تضرب الزفت بحوافرها فتحدث بمشيتها البطيئة أنغامًا رتيبة، كنّا نهتزّ جرّاء النوابض المتعبة وآذاننا تنثقب بسبب الأزيز المتواصل لمحاور العجلات المشحّمة بشكل سيّء وصيحات السائق الذي كان يضرب بالسوط جواده المخصّص للحفلات ضربات مسعورة، كان ملفتًا رؤية الروث المتساقط من مؤخّرة البهيمة يتكدّس على الطريق عند كل توقّف، لم ننطلق من أجل الفوز بالصلكيّة المذهّبة، على الرغم من معاملة العربجي الفظّة لفرسه، كان وصولنا إلى المنتزه يستلزم أن نجتاز ستّة أو سبعة أميال، ممّا جعل مهمّة الحصان شاقّة، وكبّده المزيد من الضرب بالسوط والكرباج، تربّع صديقانا البريطانيّان مستقيمين في غاية الاستقامة بالرغم من تأرجحات العربة، متمتّعين بالنظر إلى مشهد المنبسط البحري، فخورين وسعيدين، بحيث أنّني رحت أتساءل عمّا إذا كنّا نرى المنظر نفسه، كنت أرى بؤس الجواد البجير المتعرّق وهو يحتمل قسوة العربي ولؤمه، وفقر مصر، وجحيم زحمة السير، والانزعاج في العربة المتأرجحة، ونفثات الغاز المنبعثة من الباصات، والأولاد المتوسّلين ذوي الوجوه السوداء من كثرة القذارة وهم يركضون إثرنا وكان السائق يطردهم كما يُطرد الذباب ملوّحًا لهم بسوطه، ربّما كانت تراود مضيفينا رؤى كيلوباترا، ودوريل، وفوستر، وكافافي، ربّما كانا منبهرين

بمنارة الإسكندريّة، بدا على ماريان الانزعاج هي أيضًا، كانت السيّارات تتجاوزنا وهي تطلق أبواقها بغضب، وبعد ثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى المنتزه، هل لا يزال البريطانيّان راضيين عن عربتهما، كنت ملتهب الحافر وردفاي مدبوغتان بقدر الحصان الباسل، أمّا القصر المنشود فكان وسط الحدائق البديعة المزروعة بأشجار المانغا والفلفل والجهنّميّات والدفلى، قصر يخيّل للناظر أنّه مبنيّ بحجارة من الليغو الحمراء والبيضاء، بناء من أكثر المباني غرابة، على الطراز النمساوي العثماني الكتشيّ، كرمى لفاروق الذي أجبره الضبّاط الأحرار الجنرال نجيب وعبد الناصر الإسكندريّ ذي الحاجبين الكثّين على التنحّي عن عرشه، انتهى عهد الأمراء والأميرات والقصور الفخمة، ووافى أوان المخطّطات الحربيّة والخطب الزاعقة للثورة السائرة على إيقاع زغردات أم كلثوم الممتلئة الخدين وتنهّداتها، بما إنّه لم يكن هناك ما يستوجب الرؤية عدا الحدائق ذهبنا لنتناول عصير المانغا على شرفة أحد الفنادق الذي يكشف عن ذوق مصمّميه من المهندسين العاملين تحت إشراف حركة إنماء السياحة وهو قائم على ضفّة النيل مثل برج أسود من عشرين طابقًا، كان لدى صديقينا الباردي الطبع زيارة يقترحانها علينا وهي أكثر غرابة، زيارة المنزل الذي ولد فيه رودولف هس ربّان الطائرة صديق هتلر ونائب فوهرر الرايخ، أنتجت الإسكندريّة مجموعة كبيرة من شعراء ومحاربين وجواسيس ومغنين ونازيّين رفيعي المستوى، بالنسبة لجيمس كان الأمر يتعلّق بزيارة شبه عائليّة *Hess fell in my uncle's garden* كان يقول إنّ هس سقط في حديقة عمّه، في تشرين الثاني 1941 قاد رودولف هس طائرة *Messerschmitt* معدّة للمناسبة، وطار بها حتى اسكوتلندا على مرأى من الدفاعات الساحليّة الإنكليزيّة ومن دون أن يجعلها ترتاب بأمره

بعد أن نفد منه الوقود فقفز من المظلّة لكي يحطّ في حديقة اسكوتلندي نبيل ذُهل للظهور المفاجئ لوريث هتلر وسط أزهار الأرطنسية، لا يزال السبب الكامن وراء زيارة رودولف هس غير معروف حتى الآن، ربّما كان يسعى لإقامة صلح مع بريطانيا العظمى قبل اجتياح الاتّحاد السوفياتي، وربّما من دون أوامر الفوهرر، أمر تشرشل على الفور بسجنه في برج لندن، ثم حُكم عليه بالسجن مدى الحياة في 1946 في نورمبرغ، كان الطيّار المضطرب عقليًا رفيق ألبرت سبير باني المعابد الألمانية في سجن سباندو، هس المجنون فاقد الذاكرة الموسوس المكتئب سيظلّ على فراش الاحتضار حتى 1987، حزينًا ووحيدًا، نزيلاً أخيرًا في السجن الذي هُدم بعد موته، طيلة النهار كان يرسم باحات إغريقيّة معمّدة ومناظر المنارة المندثرة، كان مهووسًا بالمدينة التي غادرها منذ ثمانين سنة، إنّها نور المتوسّط آخر شعلة في عينيه الفارغتين، كان غير قادر على تذكّر محاكمته في ألمانيا لكنّه تذكّر كلّ شيء عن مربيّته الإيطاليّة وتحدّث عنها بحنان، وعن حديقته ومدرسته والفتيات الشابّات ذوات الثياب البيضاء وحفلات الاستقبال التي كانت تجري في ساحة القناصلة ودروس السباحة في حمامات شاطبي وفيلا والده الرائعة في حي سانتو ستيفانو، على بعد خطوتين من البحر، أربع عشرة سنة من الطفولة في الإسكندريّة وأكثر من أربعين سنة في السجن، كان لديه متّسع من الوقت للتفكير، وكلّ الوقت ليتذكّر، هل كان يفكّر في أنطونيو وكيلوباترا عندما انتحر وهو شيخ طاعن في السنّ في عمر الثالثة والتسعين، ذات يوم حارّ من آب نجح هس في الانفراد بنفسه داخل كوخ في سجن سباندو وفي حوزته كابل كهربائي بطول متر ونصف استطاع اختلاسه ولفّه حول عنقه وأخذ يشدّ بقوّة متزايدة بعد أن وصل طرفه برتاج إحدى النوافذ، كان أكثر

براعة من ليون سالتييل وأكثر حزمًا أيضًا، خنق هس نفسه لكي يتخلّص من هذه الحياة التي طالت كثيرًا، ومن قدره كسجين انفرادي، هس محارب دون معارك، دون أمجاد ما عدا الغارة الجوّية التي قام بها وعمره الطويل الاستثنائي، رحل الرجل الذي لا فائدة منه من الإسكندريّة عام 1910، مجرم الحرب الذي لم يخض الحرب، توفي في سيارة الإسعاف حيث تفانى المسعفون في إنعاشه، إنّه آخر نازيّ حيّ، آخر ممثّل للجنس المنقرض، أصيب جيمس الاسكوتلندي الغريب الأطوار بالخيبة وكان لخيبته ما يبرّرها، وجد بدلا من دارة عائلة هس على شاطئ البحر مبنى رماديًا شبيهًا بمئات المباني الأخرى قبالة الكورنيش، لا بل بالأحرى قبالة الطريق الرئيسيّة، لم يعد هنالك حديقة غضّة ولا منزل فخم، انمحى أثر القدر الذي واجهه هس، محته مصر العصريّة بكلّ برودة، عندئذٍ صعدنا في العربة المرتجّة، من جديد بين التاكسيّات الصفراء التي تطلق أبواقها لكي تعود إلى وسط المدينة، أخذ الحصان يعرج ورفض بإصرار العدو، ظلّ مسمّرًا في مكانه ما أثار غضب الحوذيّ المسعور الذي راح يزعق، ووقف لكي يشتم الحيوان المعاند بكل قواه صابًا جام غضبه عليه ضاربًا بقوّة وعنف بسوطه فجعل الذباب يتطاير مع قطرات العرق، كانت المطيّة العجوز تصهل من ألم الجروح في حوافرها، والحادي منصرف إلى الإجهاز عليها، تعثّرت البهيمة من وقت لآخر على الزفت، داخل العربة، لم يكن الجو ملائمًا لإظهار المتعة التي شعرنا بها خلال الرحلة، أقلع البريطانيّان عن النّظر إلى البحر اللامع وحصرا اهتمامهما بالحصان المحتضر الذي كان يتحمّل مرغمًا غضب الحوذيّ الجنوني المعتمر عمامة، أخذت ماريان تصرّ على أسنانها وتطلق صرخة خافتة ما أن ينهال السوط بعنف على الحيوان، أربعة أوروبيين شبّان متعقّلين

تسبّبوا بتعذيب حيوان لطّخه الزبد، ذي منخرين متّسعين، ومع ذلك فإنّ أحدًا منّا لم ينزل من بوّابة العربة التي نجحت في إيصالنا أخيرًا إلى فندق سيسيل، سوّى جيمس قبعته على رأسه ودفع المبلغ المتوجّب للحوذيّ الذي طالب بعلاوة للفرس البليد فأسمعه الاسكوتلندي كلامًا لاذعًا بما معناه حرفيًا: اذهب وافعل ما تشاء، هذا إذا كنت فهمت جيّدًا ما قاله، وأوشك أن يمسك بنفسه السوط وينهال بالضرب المبرّح على العربجي المصريّ ويكون بذلك قد أنزل به عقابًا يذكّر بأيّام الاستعمار، البريطانيّون في منتهى الحساسيّة تجاه مواضيع الخيول، ومع ذلك كان هو المسؤول عن عذاب الحصان الهزيل، افترقنا على ودّ ووفاق وتواعدنا على التلاقي مجدّدًا، وفي كل مرّة أعود فيها إلى الإسكندريّة، أفكّر من جديد بالكوبل الذي تجاوزه الزمن، ورودولف هس، والعربة، وأنا أتناول الغداء مع الجنرالات المصريّين الذين يهوون الويسكي واصطياد كبار الإرهابيّين، كانوا يدلّونني بفخر على ورشة إعمار المكتبة الجديدة، عسى أن يكون مصير تلك المكتبة مختلفًا عن سابقتها المحترقة، وأن يمهلها الزمن قليلاً قبل أن ينتهي بها الأمر مغمورة بالماء جرّاء ارتفاع أمواج المتوسّط بعد ذوبان جليد القطب، حينئذٍ سيتحوّل رصيفها الجميل المرصوف بالغرانيت الرمادي إلى شاطئ أملس لذيذ تلهو فوقه حيوانات الفقمة اللامتناهية متزحلقة على بطنها وهي تنهم لشدّة استمتاعها

الفصل التاسع عشر

كلّ شيء يغدو أصعب في سن الرشد، الشعور بأنّك شخص بائس، اقتراب الشيخوخة، تراكم الأخطاء، الجسد الذي يترك لنا بقعًا بيضاء فوق الصدعين، العروق تنفر، العضو يضؤل، الأذنان تطولان، والمرض بالمرصاد، الثعلبة والفطر اللذان أصيب بهما ليبيان، أو سرطان أبي الذي صعقه أبولون دون أن يتمكّن مبضع ماشاوون[1] من أن يفعل له شيئًا، فالسهم غرز جيّدًا، عميقًا جدًّا في الجسد، وبالرغم من عمليّات جراحيّة متكرّرة، عاد المرض وامتدّ، بدأ والدي يذوب، يذوب ثم يجفّ، طالت قامته أكثر فأكثر وبدا ممغوطًا، كان وجهه الهائل والشاحب يغور ويتجوّف، جرد اللحم من ذراعيه، وأصبح الرجل المحتشم جدًّا صموتًا بشكل تامّ، راحت أمي تتكلم بدلاً منه، كانت تقول **والدك يقول هذا ويقول ذاك**، بحضوره، كانت هي دلفيّته[2] تفسّر إشاراته: **أبوك مسرور لرؤيتك**، قالت لي أثناء زيارتي له: **إنّه مشتاق إليك**، وكان الجسد الأبوي صامتًا في الكنبة، حين أقترب منه لأسأله عن أحواله تبادر هي

---

(1) ماشاوون: في الميثولوجيا الإغريقيّة، ماشاوون ابن أسكليبيوس إله الطب، وهو نفسه طبيب جرّاح، واسمه مشتق من **makhairo** أي سكين.

(2) دلفيّة: عرّافة تجترح المعجزات باسم أبولون في معبد دلف.

إلى الإجابة بدلاً منه: **اليوم حالته جيّدة**، وشيئًا فشيئًا فقد الجميع عادة التوجّه إليه مباشرة، كنّا نستشير عرّافته، وكان أبي يبقى لساعات طوال جالسًا يقرأ القدّيس أغسطينوس أو الأناجيل، وهذا غريب، غريب التفكير في أنّ رجل علم، مهندسًا متخصّصًا في أكثر الأشياء اللامرئيّة في المادّة، أن يكون قد وجد مكانًا لله في قلب تموّجاته، كان يجري حسابه مع العالم الآخر دون شكّ، ويحضّر جواز سفره إلى هاديس ملتهم المحاربين الكبير، ومع ذلك كنّا جميعًا مقتنعين بأنه سيشفى، سيشفى أو سيعاني من مرضه المزمن لسنوات عدّة، لكنّ آلهات القدر قرّرن له مصيرًا آخر، وزوس نفسه لم يكن يستطيع فعل شيء، عندئذ كنت أعود إلى المنزل بعد زيارة والديّ وأمرّ بالحانة في الأسفل لأحتسي بضع كؤوس من الخمر قبل الصعود إلى شقّتي لآخذ أنا أيضًا كتابًا، أيّ كتاب كان لتزجية الوقت أو أقرأ وثائق عن **المنطقة**، أو ما تزوّدني به أمينة المكتبة في ساحة آبيس، من روايات سهلة ومسلّية، وكتب أدبيّة، وأبحاث، لم أكن أرفض أيّ نوع من القراءات، منذ أن رحلت ستيفاني وأنا أداعب، بدلاً من جلدها، آلاف الصفحات في وحدتي، ما يجعل المرء مجنونًا، مثل رودلف هس في سجنه اللامتناهي، كان أبي يدنو من أجَله وأمي تزداد عافية وصمودًا وتعزف مقطوعات موسيقيّة في غاية الصعوبة لمدّة أربع ساعات كلّ يوم، وبعصبيّة تعزف شوبان، ليزت، سكريابين، كوستا كوفيتش، لا شيء يعصاها، كان البولفار يزداد غموضًا وقتامة أكثر من أي وقت مضى، سيف الماريشال مورتييه يصدأ الآن في ظل إدارة جان كلود كوسران الدبلوماسيّ الاختصاصي في قضايا **المنطقة**، من أورشليم إلى أنقرة مرورًا بدمشق، كان ودودًا ومثقّفًا وذكيًّا، لكنّ خبراء القبلانيّة وأخيلة الظلّ لم يكونوا يقدّرون مواهبه البتّة، كل ذلك

كان يفوق إمكانيّاتي، من مكتبي لم أكن أرى إلا ليبيان ينتقل من اجتماع إلى اجتماع، منتظرًا أن يحين أوان تقاعده، وأشهد ما يجري من إصلاحات وتغيّرات في الخطط العضويّة على صعيد تنظيم الإدارة، أي كلّ ما يصنع في النهاية سحر منظّمة متنامية ومقفلة على ذاتها حيث لا أحد يعرف بالضبط كيف تعمل، ولا حتّى نحن، كانت التقارير والبطاقات والمهام والبيانات الإستثنائيّة أو الأسبوعيّة تصل مع ذلك بضربة ساحر إلى المرسلين إليها، وأشاهد ما يدور من دسائس ومناورات شتّى للنيل من كوسران وفريقه المعاون إلى حين طردهما لصالح أنصار شيراك الذين لا يهزمون، انطلق كوسران من جديد إلى القاهرة بصفته سفيرًا، ولا بدّ أنّه لا يزال هناك، على ضفّة النيل، على بعد خطوتين من حديقة الحيوانات، منصرفًا من مكتبه الكبير الملمّع إلى مراقبة القردة تقفز فيما هو يوقّع شارد الذهن وثائق لا أهميّة لها فوق مرفقة ورق بديعة من الجلد الأخضر - أجرع حتى الثمالة زجاجة البيرة *Sans Souci* على نخبه، إنّها حقًّا جميلة هذه الزجاجة بمركبها الأبيض على خلفيّة زرقاء، لا بدّ أنّنا اقتربنا من أورفيتيو، المنظر يتهادى بعذوبة تحت ضوء القمر، الكيانتي أدخل السرور إلى قلب الأميركيّين فعَلت ضحكاتهم وازدادت صخبًا، البيرة *Sans Souci* مصنوعة في مصانع موريتي في أودينا كما تقول اللافتة، أودينا عاصمة الفريول مدينة جميلة في فينيسيا حيث لجأ فرانز شتانغل عند نهاية الحرب، وقد أوكلت إليه مهمّة محاربة الأنصار بعد أن دمّرت معتقلات بلزيك وسوبيبور وتريبلينكا، أقفلت بسبب غياب الزبائن بعدما أنجزت المهمّة: أباد غلوبوتسنيك وكرستيان فيرث وشتانغل والعصبة السعيدة لعمليّة رينهارت مليوني يهوديّ في بولونيا بغاز الإشبمانات وفقًا للخطّة التي اتّبعها فيرث في بلزيك فقد أرسل كلّ تقنيي الموت

والدمار هؤلاء في مطلع عام 1944 لتنفيذ عمليّات ساحل الأدرياتيك *operationszone adriatisches küstenland* التي كانت عاصمتها تريستا الهابسبورغيّة، كانت المنطقة خطرة ولا يمكن ضبطها، وفلول المقاتلين تحتلّ أجزاء كاملة منها وتنفّذ عمليات أودت بحياة الكثير من الألمان، كتلك التي ذهب ضحيّتها كريستيان فيرث في أيار 1944، أو ربّما أرسل كلّ هؤلاء المسؤولين إلى هناك لهذا السبب بالذات تسهيلاً لقتلهم فيختفي بذلك الشهود الحقيقيّون على ما حدث في معسكرات بولونيا، شهود المقابر الجماعيّة حيث كانت ترقد الجثث شبه المحترقة لمئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال المختنقين، وُلد غلوبوتسنيك الذي لقّبه هيملر بغلوبوس في تريستا التي كانت لا تزال إبّان ولادته نمساويّة، كان غلوبوتسينك الخنزير مكروهًا من كلّ هؤلاء الذين يملكون ذرّة عقل في رؤوسهم، كان كاذبًا سارقًا مستعدًّا لفعل المستحيل لأجل زيادة ثروته الشخصيّة التي جمعها من جرّاء اقتطاع جزء من الممتلكات اليهوديّة الآيلة إلى برلين، فالمجزرة كانت تدرّ الملايين والملايين من الماركات الألمانيّة، كان غلوبوس الساخر يفكّر أنّه بذلك يجمع المفيد إلى الممتع ويؤيّده في ذلك فيرث المدّعي، وحده شتانغل لم يكن شرّيرًا بحيث يملأ جيوبه، كان شرطيًّا نمساويًّا عاديًّا دون طموح وألفى نفسه مضطّرًا إلى تنفيذ مهام بغيضة بطريقة آليّة، راح يسرف في الشراب منذ مشاركته في تريبلينكا، كان اليهود بالنسبة إليه وقودًا، أو بضاعة مشحونة يجب معالجتها، كان ينفر من الذهاب بنفسه لرؤية الجثث الخارجة من غرف الغاز، ويكره سرًّا فيرث الحيوان المشورب، أمّا شتانغل فيقدّر الأشياء الجميلة، في تريبلينكا نظّم فرقة كومندوس من البستانيّين ليزرعوا في أنحاء المعسكر نباتات للزينة، وأنشأ بنفسه حديقة

حيوانات صغيرة وفيها سلاحف وقرد وببغاء صفراء وبيضاء، وهناك كان يمضي ساعات وسط هذا المشهد الاستوائي الحارّ، فيما كانت الجثث، على بعد خمسمائة متر، في معسكر الموت، تُشوى طيلة النهار في تريبلينكا، يرتدي شتانغل سترة جميلة ناصعة البياض، إنها درعه العذريّ، يا للزمن الجميل، لكنّه في أودينا بدأ يخاف، لا سيّما بعد الاعتداء على فيرث على طريق فيوم، وراح يقضي معظم وقته منزويًا في مكتبه لا يخرج إلا عندما يضطّر إلى ذلك، لا سيّما حين يذهب إلى تريستا، كان وحيدًا حتى لو صدف أن شرب أو لعب الورق برفقة آرثر والتر، وفرنز فاغنر، اللذين نفّذ برفقتهما كلّ سلسلة الإبادات منذ إخضاع المرضى العقليّين للموت الرحيم في ألمانيا وحتى ضفاف الأدرياتيك حيث كلّ شيء كان يسير بشكل سيّء كان عدد المقاومون السلوفينيّون والكرواتيّون والإيطاليّون يساوي على الأقل عدد الفرق التي شاءت الهزيمة على الجبهة الشرقيّة وتقدّم الحلفاء على جبهة إيطاليا أن يبقياها لهم، كانت النهاية قريبة، متى بالضبط أدرك شتانغل أنّهم خسروا الحرب، ربّما في حزيران 1944، وربّما قبل ذلك، عند وصوله عُيّن شتانغل بداية في تريستا نفسها مسؤولاً عن إدارة معسكر الشرطة للترانزيت الذي سمّي ريزيبرا دي سان سابا، المنشأ في معمل قديم لتصنيع الأرزّ، حيث كان يُعتقل الأنصار المعتقلون واليهود الذين ألقي القبض عليهم تمهيدًا لترحيلهم إلى أوشفيتز وماوتهاوزن وداشو وبوشنفالد حسبما تقتضي الظروف، وسرعان ما اشتهر المعسكر نظرًا لتوافد قوافل المعتقلين الذين نقلهم غلوبوتسنيك إليه، في عام 1944، طلب فيرث من إيروين لامبرت وهو تقنيّ مختصّ في الغاز وحرق الجثث أن يبني فرنًا للتخلّص من جثث خمسة آلاف قتيل صرعوا ميدانيًّا تحت ضربات الهراوة في أغلب

الأحيان، وكان الجلّادون الأوكرانيّون الذين اصطحبهم متخصّصو الدمار معهم يرمون بهم ليلاً في البحر القريب، في تريستا البيضاء، مرفأ النمسا وإيطاليا وسلوفينيا وكرواتيا، كنّا أنا وفلاهو وأندي ننتقل من حانة إلى أخرى، لم نر شيئًا من المدينة لا شيء سوى الحانات ومن ثمّ الحانات والهواء المتجلّد والمطر والسمك المقليّ وجبهة البحر الطويلة والخليج المزبد الذي تحفّ به التلال والمنارة والفتيات القليلات في معاطفهنّ الرماديّة يهرولن ليحتمين في حانات فارغة، أقمنا بالقرب من المحطّة في نزل يديره سلوفينيّون، كان فلاهو حردًا ولا يفهم ماذا نفعل في هذه المدينة فيما كان بإمكاننا الذهاب خليّي البال إلى منزله في سبليت والقيام باحتفال مجنون، لا تبرّر السياحة كلّ شيء، وفوق ذلك كانت إيطاليا باهظة الثمن، لكن هذا يحوّلنا قليلاً عن زغرب، عن حاناتها الليليّة المقفرة وبارات العاهرات المليئة بالجنود ورجال العصابات والجوّ الحزين التعس لعاصمة بلادنا التي هي في حالة حرب، في تريستا نسيت لوهلة المعارك والأصدقاء والموتى، كان الأمر بالنسبة لأندي سواء، شريطة أن يكون هناك ما يشربه، كنّا نلهم السباغيتي المطبوخة بثمار البحر والمرويّة بالنبيذ الأبيض قبل الذهاب إلى هذه الحانات الليليّة التعسة هي أيضًا بالطبع لكنّها بدت لنا غاية في البهجة لأنّنا كنّا الجنود الوحيدين وسط طلّاب تريستا وطالباتها، لم يكونوا قادرين على تخيّل المكان الذي أتينا منه بالرغم من رائحتنا وشعورنا القصيرة، *trois jeunes tambours s'en revenaient de guerre, trois jeunes tambours*، أذكر أنّني رقصت لبضع دقائق مع شابّة إيطاليّة في العشرين من عمرها، كانت تبتسم لي دون توقّف، ورقصنا جنبًا إلى جنب دون أن نتبادل كلمة، شعرها الطويل ربطته إلى فوق وملامحها ظريفة، فكّرت إذا رغبت بي فلن أذهب إلى

الهرسك ولا ولا إلى البوسنة بل سأبقى في ترييستا، إذا رغبت بي، أتت أفروديت لمساعدتي، كانت ترقص وقبضتاها مرفوعتان حتى مستوى جبينها، ورأسها محنيّ إلى الأمام، ترتدي ثوبًا أكمامه طويلة من القطن الأسود يزيد من إشراق بشرتها وخصلاتها الشقراء، على قبّة فستانها المقوّرة يلمع مشبك على شكل وردة حمراء صغيرة من السيراميك، أحيانًا كانت ترفع عينيها وتنظر إليّ مبتسمة، والموسيقى تعزف أغنية رائجة لبيرل جام أو لفريق نيرفانا لم أعد أذكر، رافقت الفتاة الكلمات همسًا وهي تميل بوركيها يمينًا وشمالاً وقدماها تتحرّكان على إيقاع النغم، انتهت الأغنية، ابتسمت لي مرّة أخيرة ثم ابتعدت بهدوء، بخطوات مدروسة، أمسكني أندي من ذراعي ليجتذبني إلى البار، تردّدت، نظرت إلى الفتاة وهي تختفي بين الحشد، ثمّ ذهبت لتناول الفودكا مع أندريا وفلاهو، هما أيضًا كانا يبتسمان وأخذنا نربّت كلّ واحد منا على كتف الآخر، ثمّ بحثت عن الفتاة فلم أجدها، اختفت، وسط صخب الحانة الليليّة التي لم تلبث أن أقفلت أبوابها، لم أفهم، ليس بوسعي أن أفهم المنحى الذي يتّخذه القدر أحيانًا، ذهبت إلى البوسنة وجدّدت تطوّعي لأشهر عدّة في الحرب، ربّما كان بإمكان الفتاة المجهولة إنقاذي، من يدري، عندما خرجنا ذهبنا نبحث عن عاهرات لأعزّي نفسي، على حدّ قول فلاهو، ربّما كان بإمكان تلك الفتاة إنقاذنا نحن الثلاثة، لم يكن في إيطاليا مواخير بل حانات مشبوهة حيث تدور بعض الألبانيّات الدحداحات الحزينات، تخلّيت عن مسعاي، فلاهو بطلنا لا شيء يحدّ من شهوته سيّما وأنّه شفي من زكامه، اختفى مع إحداهن خلف أحد الدكاكين، تابعنا الشرب، الشرب دائمًا وأبدًا وكأنّ العالم أصبح سائلاً، العالم بأكمله، وانطلقنا من جديد إلى الهرسك - قبل أربعين سنة كان أعضاء

عمليّة رينهارت الذين أرسلوا إلى إيطاليا *Einstaz R* يشربون قدر ما يستطيعون في ترييستا، كان فيرث وشتانغل وفاغنر ومن لفّ لفّهم يفرطون في الشرب دون توقّف منتظرين الموت أو الهزيمة، أمّا الأوكرانيّون المرهقون فينسون أنفسهم بانكبابهم على ضرب المعتقلين بالسوط وتعذيبهم، بعد أن يتحجّم عددهم بالانتقال بين أودينا وفيوم وترييستا، نادرًا ما كان رفاق المجزرة يتلاقون، وعندما يتلاقون، لا يتكلّمون عن بولونيا ولا عن تريبلينكا أو عن سوبيبور، في غضون ذلك، مرّ شتانغل من جديد بمنزله في النمسا لزيارة زوجته وأولاده فقد اشتاق إليهم، كان ينتظر نافد الصبر انتهاء الحرب والعيش من جديد بين أفراد أسرته مرتاح البال، أتساءل ما إذا كان لديه الحدس بأنّ ضحايا تريبلينكا وسوبيبور سيمنعونه من العودة إلى منزله، بالطبع لا، فكلّ هؤلاء الأشخاص الضائعون على ضفاف الأدرياتيك كانوا ولا بدّ يحلمون بنصر احتمالي للرايخ، أو يتوهّمون أنّهم أخفوا بكل عناية جرائمهم، التي لم تكن جرائم أصلاً، بالنسبة لشتانغل لم تكن تلك بجرائم لأنّ الرايخ ألغى انتماء هذه الأجساد إلى الجنس البشري، كانوا مجرّد حطب، حطب يجب إيقاده، كانوا بمثابة خطأ ارتكبته الطبيعة ويجب تصحيحه، من الجنس الذي يتكاثر نسله بسرعة ويجب استئصاله حتى لو كانت رائحة جثثهم مقيتة للغاية، من المستحيل معرفة مدى حقارة نفوس هؤلاء الضحايا المتوسّلين المتقاطرين من الحافلات النجسة، وبعد كلّ حساب لم يكن الموت الرّحيم بمونوكسيد الكربون مؤلمًا وقد تمّت معالجتهم وفق الأصول، غلوبوتسنيك عالج بولونيا كمن ينقضّ على حقل من البطاطا المتآكلة بالخنفساء أو المصابة بالعفونة الفطريّة، أنجز فيرث وشتانغل واجبهما بلذّة وحماس تقريبًا، وكان ثقيلاً هذا الحمل، ثقيلة هذه المسؤولية سيّما وأنه استلزم الأمر أن

تنبش القبور الجماعية من جديد حيث بدت الجثث مائعة كالموج بفعل الغازات المنبعثة من التحلّل والسوائل النتنة، أيّ حمل هذا، انتزاع كلّ هذه الأجساد المضغوطة المتحلّلة التي تنهشها الديدان ثم تحرق على مصبّعات مصنوعة من سكك الحديد، فيرث المبتكر أعاد تأهيل آلة تطحن الجصّ لكي يتخلّص من العظام التي لم تكن تحترق، قال فيرث، وكان صاحب نكتة، إنّها الأرض الأخصب في بولونيا: بعد رحيلهم وتدمير المعسكر، أنشأ النازيّون، في محاولة لإبعاد الفضوليّين، مزرعة صغيرة أسكنوا فيها رجلاً أوكرانيًّا وزوجته، كانت الأرض خصبة بحيث أنبتت شمندرًا وملفوفًا بأحجام عملاقة، والقمح أيضًا نبت على مدّ النظر، والخبز الذي كانت المرأة تعجنه لزوجها لم يكن محتاجًا إلى الخميرة، وأشجار الدردار والتنّوب ارتفعت من تلقاء ذاتها بزمن قياسي، تسرّب نسغ القتلى إلى جذوعها النابتة وأوراقها وإبرها، ناهضًا ببقايا رفاتهم وذكراهم نحو السماء، ليس هناك ما يمكن رؤيته في تريبلينكا ولا في سوبيبور، ما خلا الأشجار الهائلة الملتوية تحت الثلج في الصمت، كلّ ما يمكن سماعه، حفيف الأغصان، حركتها، فرقعة الخطوات على الأرض ولا شيء أكثر، أو مرور غزالة أو ثعلب أو عصفور، ليس هناك إلّا برد السهل القارس، ونهر بوغ الذي يسيل، «ترمينوس» الغياب، ولا شيء أكثر - في تريبستا تابع فريق التدخل المؤهّل جيّدًا نشاطه وعمليّاته العسكريّة في وجه المقاومين السلاف واليهود والمنافقين، بدأ غلوبوس يحوّل الكنيس الكبير الذي عيث فيه خرابًا عام 1944 إلى مخزن تودع فيه ممتلكات اليهود المنهوبة، وغارة إثر غارة أرسلت الجالية الصغيرة في تريبستا إلى أوشفيتز أو إلى داشو بعد أن مرّت بمعسكر سان سابا، وداعًا يا تريبستا بوّابة أورشليم، انطلقت سفن شركة لويدز لتقلّ

المهاجرين الأوائل إلى فلسطين، ترييستا لم يتلاق فيها أشخيناز الشمال وسفرديم الجنوب، وداعًا، عبثًا شقي منفّذو عمليّة رينهارت وتعبوا، عبثًا شربوا الكحول الخالصة فإنّهم ظلّوا على إتقانهم لمهنتهم، أحصوا وجمّعوا وأخفوا جرائمهم ورحّلوا وأبادوا إلى أن بلغوا، في بداية عام 1944، ذروة الإتقان في منهج عملهم، فمن كان يعرف أفضل من فيرت أو شتانغل ماذا ينتظر اليهود في نهاية الرحلة، هناك شيء من ترييستا، وكورفو، وأثينا، وسالونيك، ورودس في أرض بولونيا، في رمادها المزرّق، روى لي رولف اللطيف عن كل ذلك في ترييستا، رولف النمساوي - الإيطالي لم يكن لا يهوديًا ولا سلافيًا، رولف كافرياني فون إيبان قريب هابسبورغ - لورين وأمراء ثورن أند تاكسيس مخترعي البريد، ولد في ترييستا خلال الحرب، رجل قصير له شاربان آخر أبناء عائلة دوقيّة كانت تملك نصف بوهيميا وغاليسيا فيما مضى، كان رولف يعرف لماذا جئت لرؤيته وزوّرني المدينة، تغيّرت ترييستا كثيرًا مذ تركتها في 1992، لا أذكر أنّه كان هنالك هذا القدر من الشوارع المخصّصة للمشاة، ولا كانت المباني بهذا البياض، ولا الناس بهذه الأناقة، رحت أتساءل ما إذا كنت سألتقي بفتاة الحانة الليليّة، تلك التي تركتني أرحل إلى البوسنة، كما تركتني ستيفاني أرحل إلى ترييستا وتركتني أملأ الحقيبة وقذفتني على غير علم منها إلى روما ونهاية العالم، ضرب لي رولف كافرياني موعدًا في أحد المقاهي الجميلة المزيّنة بالفسيفساء والنواتىء الخشبيّة على مسافة خطوتين من الكنيس، رولف يملك شركة مقاصّة مصرفيّة عالميّة تبيّض أموال آلاف الشركات غير الشرعيّة عن طريق جنّات ضرائبيّة وإكزوتيكيّة في آن، كان يملك قصرًا في ضواحي سالزبورغ وقُصيرًا ريفيًا في كارينثيا، ودارة بديعة معلّقة في أعالي ترييستا

نادرًا ما يأتي إليها، يداخله حنين لزمن حين كانت الإمبراطوريّة الهابسبورغيّة تهيمن على المنطقة، عندما كان جويس الأستاذ المدمن في برليتز سكول يتردّد على المواخير والحانات في المدينة القديمة ويضحّي بكبده مقابل ذلك: في تموز 1914، بعد أيّام قليلة على الاعتداء الذي قام به غافريلو برينسيب مسلول سارايفو، وقف جويس على الرصيف الكبير في ترييستا وسط الحشد، كان أحد مراكب البحريّة النمساويّة يقترب من الشاطىء وأجراس الحزن تقرع حدادًا، أتت المدينة بأكملها إلى هنا لتشاهد نعشي فرنسوا فرديناند وزوجته الجميلة صوفي ملفوفين بعلم يحمل صورة التاج المزدوج ليتمّ نقل جثتيهما إلى المحطّة حيث أقلّتهما حافلة خاصّة إلى قبرهما في قصر أرتستيتن، هل أدرك جويس وزوجته الشابّة آنذاك أنّ هاتين الجثّتين الإمبراطوريّتين وطلقات المسدّس الصربي تؤذنان بنهاية المدينة التي عرفاها، وأنّه عمّا قريب ستندلع الحرب العالميّة الأولى وترسلهما إلى الشمال، إلى سويسرا المضجرة واضعة حدًّا لإقامة دامت عشر سنوات في مرفأ الهابسبورغ، عندما عاد الرجل النحيل ذو القبّعة والعينين الكليلتين لم يجد المدينة كما عرفها، كان الطابع الإيطالي طاغيًا عليها وباتت منقطعة عن السلافيّين والنمساويين، وشلّت الحركة في مرفئها الهائل وبات فارغًا، ينافس فراغ البندقيّة صاحبة السموّ المحتجبة خلف الضباب، وداعًا ترييستا، فقفل جويس عائدًا إلى باريس - في تموز 1914، على الرصيف الكبير أمسكته زوجته نورا من ذراعه وقد أثّرت في نفسها رؤية النعشين الملكيّين قالت: *how sad, they say she was beautiful*، لم يجب جويس، قلّما كان مهتمًّا بجمال صوفي، قلّما كان مهتمًّا بالأشياء كلّها على أيّة حال، ولم يحلّ المساء إلاّ ونسيَ كلّ شيء في إحدى خمّارات ترييستا المتساهلة وثمل

على إيقاع أبواق الضباب المشؤومة للمركب الجنائزي الذي أنذرت صفّارته برحيله بالذات، إذ كانت إحدى التبعات غير المتوقّعة للرصاصة التي أطلقها غافريلو برينسيب المسلول من مسدّسه والاغتيال الذي حصل في سارايِيفو هي إرسال جويس إلى باريس، جويس الذي قال لحظة صدور روايته *Finnegan's Wake* إنّه في الليل لا يعود شيء واضحًا، جويس الأستاذ العاقل جدًّا في النهار يتحوّل في الليل إلى شبه سكّير متغامضًا غافلاً عن نفسه، مهووسًا بالمال، بإله لم يكن يريده، بشهوات لا يمكن الإفصاح عنها، لكلّ الفتيات الشابّات اللواتي يشبهن ابنته، الهشّة والمصابة بالذهان، مثل إيفان دوروا المجنون، رغب جويس في كتابة شيء عن الظلّ، ستمائة صفحة يروي فيها حلم الأحلام كلّها، اللغات كلّها، الإنزلاقات كلّها، النصوص كلّها، الأشباح كلّها، الرغبات كلّها، وأصبح الكتاب حيًّا متحرّكًا لامعًا مثل نجمة لا يخبو نورها حتّى بعد الموت بوقت طويل، وهذه المادّة تتحلّل بين يديّ القارىء غبارًا غامضًا، لأنّ جويس لم يكن يجرؤ أن يبوح لنفسه برغباته السريّة، بالعنف الذي كان يسكنه وغرامه بابنته بالذات، كان مضطرًّا إلى الاختباء خلف الكتابة، يا للرجل المسكين ذو المعدة المثقوبة والعينين العليلتين، كان جويس سعيدًا في تريِيستا، في مواخير المدينة القديمة وحاناتها المندثرة، اليوم غدا إيرلندي البرّ الأوروبي قيمة سياحيّة، كالقيم السياحيّة الأخرى: مثل إيتالو سفيفو أو أمبرتو سابا، لقد شيّدت لهم أنصاب في الشوارع التي ارتادوها، أنصاب تنبض حياة بحيث يرغب الناظر إليها أن يخلع قبّعته إحترامًا، كان رولف كابرياني يخلع قبّعته لجويس وسفيفو وسابا ما أن يلتقي بهم، وقد حوّلتهم يد ميدوزا غورغونيا المقطوعة الرأس إلى تماثيل جامدة، عند منعطف أحد الأزّقة أو بين مخزنين أو

أمام المكتبة البلديّة وأجهل ما إذا كانت هذه التماثيل البرونزيّة على القياس المطلوب لكنّها تصل جميعها حتى كتفيك رغم قبعاتها، ما دفع رودلف للقول وهو يضحك إنّه لكي تكون شهيرًا في تريستا عليك أن تكون قصير القامة، وإنّ سكّان اليوم لا يحتملون العظمة، عظمتهم السابقة والغريبة، فيعملون على تصغير أحجام الرجالات الكبار لهدف لا يفصحون عنه، وهو أن يتجاوزوهم ببضعة سنتمترات، كما يفعل المعقّد من قصر قامته فيلبس بطانة كعب ليزيد من طوله، كان لكافرياني فون إيبان عقدته هو أيضًا، وهي أكثر مأساويّة بكثير، لم يستطع قط حمل لقب الدوقيّة، وهذا كان يملؤه حسرة، لأنّ هذه الدوقيّة لن تختفي فقط باختفائه ولكنّه لم يكن يجرؤ على التمتّع بها في حياته، الأمر الذي جعله يستحقّ حنق أجداده في العالم الآخر ويشعره بعار كبير على هذه البسيطة، وُلد رولف كافرياني في دارته الكبيرة في أويشينا في أعالي تريستا، على بعد خطوتين من طريق فيينّا القديمة، في عام 1941، توفّي والده بعد ولادته بوقت قصير، إبّان الهزيمة انتقلت به والدته وكان لا يزال صغير السنّ إلى النمسا المقدّسة، بالضبط قبل الهزيمة، قبل أن يحتلّ أنصار تيتو المنطقة بفترة قصيرة وينتقموا بوحشيّة من الجنود والمدنيّين القلائل الذين كانوا يصادفونهم في طريقهم، ثمّ عادت العائلة فيما بعد بعدّة سنوات، كانت أمّي، على حدّ قول رولف، امرأة عقلانيّة جدًّا، كانت ثريّة وهذا الثراء سمح لها بتحدّي الحدود الجديدة لأوروبا كما فعلت عام 1918، كانت تمضي، على غرار جدّي وجدّتي قبلها، ستّة أشهر من السنة في تريستا خلال الربيع والخريف، والصيف في كارينثيا ذات الطقس المنعش، والشتاء في المسرح وأوبرا فيينّا، بالنسبة لأمّي لم يكن مفهوم الأمّة أو الحزب الحاكم يعني لها شيئًا على الإطلاق، حسبما يروي،

وقد ربطتها علاقات ممتازة بالجميع، بالملكيّة الإيطاليّة والفاشيّين والنازيّين، ومع ذلك الله يعلم مدى كرههم لطبقة النبلاء، هذا لا يعني أنّ تلك السيّدة الكبيرة لم تشعر بالخوف، وخصوصًا عند سقوط موسوليني والفوضى التي أحدثها ذلك في خريف 1943، عندما بدأ الشيوعيّون يقتلون بلا هوادة الفاشيّين ويرمونهم في البواليع الصخريّة التي لا قرار لها إلى أن تدخّل الرايخ، لجأت إلى النمسا الحصينة، وحتّى عندما باتت الهزيمة أمرًا واقعًا في نيسان 1945، قطعت على وجه السرعة إقامتها الربيعيّة لكي تعود إلى صقيع كارينثيا - كانت علاقتها بسلطات الاحتلال وديّة، راقبتهم وهم يدفنون موتاهم في المقبرة العسكريّة القريبة من منزلها ويساورها القرف الشديد إزاء الأذرع المرفوعة والعلم النازيّ، بدافع الهمّ الجماليّ الخالص، لم يكن هناك امرأة تستخفّ بالإيديولوجيا مثل أمّي، على حد قول رولف، كانت تستقبل كبار ضباط الفيرماخت[1] على العشاء، الكولونيل كالترفايغ ذي الإسم الغريب، وهوهنستتر اليقظ قائد المدرّعات، وبعض المسؤولين في الشرطة العسكريّة النازيّة لا سيّما روزنز وغلوبوتسنيك التريستي، وهذا الأخير كان gauleiter[2]، وروزنر قائدًا أعلى للعمليّات العسكريّة في سلوفينيا، ويأتي أحيانًا لزيارتها من ليوبليانا، لم تكن أمّي تبدي إعجابها بهم بشكل خاص، وإنّما تنظر إلى الأمر بمثابة واجب اجتماعي، وخلال الأوقات القليلة التي تمضيها في ترييستا وعلى مدار السنة استقبلت القليل من الشخصيّات، وهذا كان طبيعيًّا، كانت تجهل

---

(1) الفيرماخت: الجيش الألماني.

(2) gauleiter: لقب يُعطى لزعيم أو مسؤول رئيسيّ لمنطقة سياسيّة تحت السيطرة النازيّة.

الفظاعات المرتكبة في سلوفينيا أو في بولونيا، أليس كذلك؟ كلّ ما في الأمر هو أنّ غلوبوتسنيك اقترح على والدتي أن تساعدها زمرة من العمّال في إعادة بناء سور دارتها فوافقت، هل كان بإمكانها أن ترفض، ربّما، لكن أنّى لها أن تعرف أنّ غلوبوس المنحرف سوف يرسل إليها كومندوس من الأنصار على شفير أن ينفّذ بهم حكم الإعدام، ومواكبين بفرقة مدجّجة بالسلاح، كان هؤلاء الأنصار من المساجين الذين أخلي سبيلهم من معتقلات ريزييرا دي سان سابا لكي يرسلوا للقيام بدور البنّائين، لا تزال جذوعهم المقرّحة تحمل آثار التعذيب الذي خضعوا له، أسكنَتْهم في القبو الجميل المعقود وكان يتمّ إقفاله ببوّابة حديديّة ضخمة فيما أقامت الفرقة المواكبة في الكنائف مع الخدم، كان ذلك في شباط 1945، تخيّلوا، كلّ شيء ضاع بالنسبة للجمهورية الثالثة، باتت المسألة مسألة أسابيع، كانت أمّي في تريستا لأنّ الجيش الأحمر اقترب من فيينّا، وكان الحائط بحاجة إلى ترميم إذ أنّ جزءًا كاملاً منه تداعى، وأخذ السلوفينيّون والكرواتيّون المساكين يجدّون في العمل ويشرف عليهم عن كثب خفراء السجناء، أنهى المساجين أعمالهم بسرعة، أذكر كنت في الرابعة من عمري ويخيّل إليّ أنني أرى من جديد هؤلاء المحكومين بالأشغال الشاقّة في حديقتنا، كنت منبهرًا بالأسلحة وبذلات الحراس العسكرية، وهذا طبيعي كما تعرف، انتهت أعمال الترميم في مطلع آذار، وكانت الأخبار التي تفدنا سيّئة، اجتاز الحلفاء لتوّهم الرين في ألمانيا واقتربوا من إيطاليا، بدأ فصل النزاع، تأثّرت أمّي بالأحداث وقرّرت أن تنظّم عشاء أخيرًا، عشاء وداع دعت إليه روزنر وغلوبوس وكالترفايغ وآخرين أجهل أسماءهم، وأيضًا بعض النّسوة من المجتمع النمساوي الراقي والتريستي، كان الجميع يعلمون أنّ المعركة خاسرة وأنّه

سيتوجّب عليهم اللجوء إلى مسافة قريبة من كلاغنفورت لتجنّب الأنصار واليوغوسلافيّين الذين كانوا يقتلون كلّ من يصادفونه في طريقهم، ومع ذلك بدت السهرة ممتعة ورغب الجميع في نسيان الحرب، نسيان النهاية الوشيكة للرايخ والرسائل المسعورة من برلين التي تقضي بممارسة سياسة الأرض المحروقة، فُتحت صناديق الشمبانيا الأخيرة في جوّ من الغبطة، ولم يتوقّف الغراموفون عن بثّ الموسيقى، ارتدت النساء أجمل فساتينهنّ، وانبعثت من كلّ ذلك رائحة النهاية، نهاية عالم، بعد أن جاوزت الساعة الثانية عشرة بقليل، كان المدعوّون قد سكروا وراحوا يغنون *Lili Marleen* بصوت عالٍ دون أن يهتمّوا لا باللياقات ولا بالنساء الحاضرات، لا بدّ أنّ أمّي كانت مصدومة بعض الشيء على ما أظنّ، أو ربما لا كانت منتشية بعض الشيء هي أيضًا، فبعد كلّ حساب أبي توفي منذ ما يقارب الثلاث سنوات، ويحقّ لها أن تتسلّى قليلاً، كانت الأزمنة قاتمة ولا بأس بقليل من البهجة - أتخيّل أم رولف النبيلة ثملة، عيناها تبرقان وفستانها منحسر قليلاً يكشف عن جواربها السوداء، داعبتها من بعيد النظرات الشبقة لغلوبوس السمين، أتخيّل الخوف، الخوف من الهزيمة والعقاب في أعين النازيّين، كان مقرّرًا أن يدوم الرايخ ألف سنة، لكنّ الأكيد أنّه سيتحوّل إلى أنقاض جميلة إلاّ أنّ الفترة الزمنيّة التي سيستغرقها هذا التحوّل ستكون قصيرة أقصر بكثير ممّا توقّع ألبرت سبير، خرجنا من المقهى الأنيق لنتنزّه قليلاً، اعتمل الحنين إلى الماضي في نفس رولف فون إيبان، واصطحبني إلى الحي المشجّر فوق المحطّة حيث كان غلوبوتسينك يملك دارته المصادرة من شخص يدعى أنجيلو آرا رقم 34 في شارع رومانيا، منزل جميل على طراز Art déco وقد جعله غلوبوس البارع يتّصل من خلال ممرّ أرضي بمباني

المحكمة حيث تتواجد مكاتبه، ذكّرتني الدارة بمنزله في لوبلين في بولونيا الكامن في موقع أستراتيجي مماثل بالقرب من مراكز الشرطة العسكريّة النازية ومقرّ سلطات الاحتلال ومبنى القيادة العامة لعمليّة راينهارت، دارة مؤلّفة من طابقين كدارته في ترييستا، كانت لوبلين الحمراء مرصوفة بشكل جميل، وفيها شارع للتسوّق يؤدّي إلى الباب الرئيسي للمدينة القديمة التي قسمها النازيون إلى قسمين لكي ينشئوا فيها الغيتو، كان سلوك الأزقّة المعتمة حذرًا خلال الليل، في الأسفل يوجد القصر، وهو ثكنة ضخمة صارمة زرتها في الشتاء، شتاء حقيقي لا يسعه أن يحسد بشيء شتاء 1943 من حيث برودة الطقس، لم يتغيّر الشيء الكثير في وسط لوبلين التجاري، نزلت في الفندق الكبير الذي تحوّل خلال الحرب إلى مساكن للجالية الألمانيّة *Deutsches Haus* مع قاعة يتناول فيها الضبّاط طعامهم، شتانغل نام فيه وزوجته عندما أتت من النمسا لتزوره، كان قد أصبح فندقًا هائلاً وقاعة شيوعيّة الطراز، السجّاد رمادي والخزائن من الفورمايكا، وكان هناك باران رائعان أحدهما يشرف على الساحة وفيه بيانو داخل القاعة التي يبلغ علوّها عشرة أمتار، والآخر كان أكثر ظرافة وحميميّة، وهو المكتبة القديمة لمساكن *Deutsches Haus*، عند الصباح، سلكت طريق شتانغل، طريق سوبيبور بالقرب من الحدود الأوكرانيّة، بضعة كيلومترات من الغابات البديعة، تحت الثلج، غابات مسطّحة لا تلّة فيها، ملساء ويمكنك الانزلاق منها حتى موسكو دون أن تفطن للأمر، لا جبل قبل الأورال، فقط أشجار السندر، أشجار سندر حتى يملّ ناظرك منها، أشجار سندر وبعض أشجار التنّوب، لم يكن هناك الا القليل من السيّارات، ثمّة مشاة خصوصًا يسيرون على حافة الطريق سعيًا لبلوغ المحطّة الأقرب حيث يتوقّف الباص عند مشارف القرية

ومن ثم لا شيء آخر يرى، الغابة فقط، صادفت خطوط سكة الحديد التي كانت تشير لي أنّني في الاتّجاه الصحيح، أطلقت الهواء الساخن داخل السيارة إلى أعلى درجة، ليس هنالك الا الصمت يقطعه صوت المحرّك، صوت محرّك الدبّابة الروسيّة التي أحضرها شتانغل وباور من لفوف، كان الديزل المشوّش يقذف غازات سوداء في الغرفة الصغيرة من الآجر، في آخر الرواق المكشوف المحفوف بالأسيجة الكثيفة المصنوعة من أشجار الأغصان الملاصقة للأسلاك الشائكة، كان اليهود العراة يركضون حفاة وتغرق أقدامهم في الثلج المتراكم، لم يكن الأمر يستحقّ جلدهم لأنّ البرد يجلدهم بما فيه الكفاية، للبرد والثلج فعاليّة قصوى، هنالك صرخاتهم، الباب الذي يُغلق خلفهم، الصمت الذي يرين، وصوت المحرّك، في الخطّ المستقيم اللامتناهي لمحت فجأة امرأة شابة ترتدي معطفًا أسود على حافة الطريق، وحيدة في الفرجة بين الأشجار، لا بدّ أنّني أحلم، لكنّها موجودة فعلاً وأراها في مرآة السيّارة، ماذا تفعل هنا جامدة هكذا على حافة الطريق مرتدية معطفًا ومتقلّدة حقيبة يد صغيرة سوداء على بعد آلاف الأميال عن كلّ أرض مأهولة، أهمّ بأن أقوم بنصف استدارة لكنّي أتردّد، ربّما كانت تنتظر الباص بالقرب من الأشجار الرازحة تحت الثلج، لا شيء هنا، لا قرية، ولا مزرعة، ولا مسكن، فقط امرأة وسط البرد الثلجي واليهود الأموات، ترى هل تنتظرني أنا، هل هي روح تقمّصت من جديد، شبح، فأل غريب، لم أهمّ بحركة، في الجو رهبة الصمت والخوف، لم أفعل شيئًا كالكثيرين الآخرين، لم أحرّك سيارتي لأستدير، ثمّة لافتة تشير إلى محطة سوبيبور إلى اليمين، طريق كساها الثلج في غابة كثيفة، في غير مكان بدأت عجلاتي تتزحلق، من حين لآخر، في وقت داهمتني فيه أفواج الضباب، أقترب إذًا من

محطّة القطار الأخيرة، من الطريق الضيّقة، من منزل شتانغل حيث كان يشرب الفودكا مع أصدقاء يكرههم، أقترب من المحطّة، من المعسكر الكبير والصغير في آن حيث تمّت، بفضل قوّة الآلات الألمانيّة وفعاليّتها، معالجة مئات الآلاف من الجثث، أطنان من اللحم البشري بين أشجار السندر، هاك ما حصل، المحطّة الأخيرة تقترب، إنّها نهاية الطريق وليس هناك شيء، المتحف كوخ أخضر وهو مقفل شتاءً، أوقف السيّارة إلى جانب كومة ثلج، خلفي موظّفو سكك الحديد، يرحّلون قطارًا مليئًا بجذوع الصنوبر المقشور، لا شيء تغيّر، يضحكون لأنّ الثلج غمرني تمامًا، عند حدود نصب تذكاري لا يزوره أحد، في ما مضى كانوا يضحكون لأنّ مجهولين كانوا يأتون ليلقوا حتفهم في هذه الأصقاع التي لا تنفع الا لصيد الظباء وقطع الأخشاب وتراكم الثلج، لكن ليس ليركض الناس عراة نحو محرّك دبّابة أداره ألماني صلق، يضحك البولونيّون من الكارثة، فهم معتادون على الكوارث، يعملون هنا منذ أجيال، أتيت لأزور المكان، نزلت من السيّارة لكنّي أعرف أنّ الأشجار لن تتكلّم، غصت في البياض حتى كاحلي وسرت متقدّمًا في الغابة، ثمّة ممرّ واسع يفضي إلى فرجة حيث توجد قبّة كبيرة للصمت، إنّه «ترمينوس» الشرق، إلى هنا تقضي الطرقات المنطلقة من سالونيك، ومن وستربوك، وتيرنوبول، وتيريزينشتات، وباريس، ومدن وقرى كثيرة أخرى، ما من آثار إلا تلك التي تخلّفها العصافير والغزلان في الثلج، ليس هناك إلا ما يفوق تخيّله إضافة إلى الجذوع المرتفعة، الهواء يصفر بعذوبة، السماء غائمة، أدور لبعض الوقت في الفرجة دون أن أسعى لأعرف بالضبط أين توجد المباني والحفر والجثث، دماغي أبيض مثل قطعة غسيل، مثل جلد عذراء، دفعت السيارة ونجحت في القيام بنصف استدارة منطلقًا من جديد إلى

لوبلين، لم تعد المرأة تنتظر وسط الغابة المقفرة، لدى رجوعي إلى الفندق الكبير كنت متجلّدًا وكأنّني في ثلاجة، جلست على الأريكة الجلديّة العريضة في البار الهائل وأنا أتساءل ماذا كان يشرب شتانغل البستاني عندما كان هنا برفقة زوجته، ادلهمّ ظلام الليل، في الخارج، العربات تتزحلق على الثلج الذائب الذي أصبح موحلاً، كنت بعيدًا، بعيدًا جدًّا عن كلّ ذلك، طلبت شايًا وأنا غارق في وحدة هائلة ومتجلّدة، دخل أعمى ترافقه سيّدة عجوز أجلسته أمام بيانو قديم بعض الشيء أسود اللون متوسّط الحجم، تلفّظ ببعض الكلمات ثم أخذ يعزف لحنًا راقصًا لشوبان، الآلة مدوزنة بشكل سيّء، وتصدح كقرقعة قدر، أنهيت فنجان الشاي بهدوء، وقرّرت أن أواجه البرد والثلج وأذهب لأشتري زجاجة فودكا من أقرب مخزن وأواجه الليل البولوني الطويل، بدأ الأعمى يعزف أغنية *my way* على إيقاع حزين، كانت هناك لافتة صغيرة بالقرب من سلة من السوحر كتب عليها بالإنكليزيّة: ***for the blind and crippled*** لأجل العميان والمعاقين، أودعت فيها كلّ القطع النقديّة من الفئات الصغيرة - في تريستا، ليس هنالك عازف بيانو في المطعم الفخم حيث اجتذبني رولف المصرفي، حدّثني عن غلوبوتسنيك الفظ، لم أجرؤ على سؤاله ما إذا كان رجل هيملر عشيق والدته، بالطبع لا، لا يفترض بغلوبوس الفظّ أن يغوي امرأة من الطبقة النبيلة النمساويّة، ثمّ أخبرنا رولف كافرياني فون إيبان النوستالجي المزاج عن حسابات زبائنه السريّة منذ سنوات وعن الشركات وعصابات المافيا على أنواعها، وتغطية النشاطات المشبوهة، بدافع خدمة البشر أو ما شابه، أشكّ بأنّه يتصرّف بالطريقة نفسها مع العديد من مراكز الإستخبارات الأوروبيّة الأمر الذي يفسّر ازدهار أعماله وأنّ القانون لا يطالها، رولف ابن الدوقة التي كانت تعاشر

الأوباش من قادة عمليّة الأدرياتيك وهي تحتسي الشمبانيا في مطلع 1945 ذاك، من خطرت له الفكرة أوّلاً، كالترفيغ، أم روزنر، أم الخنزير غلوبوتسنيك، لا أحد يعرف، أو ربّما كانت السيّدة الدوقة، والدة رولف المتخابث، ربّما طرحت السؤال نفسه الذي طرحته ستيفاني عليّ، السؤال الكبير الذي لا جواب عليه فيما راح الجنود في البذلات السوداء يروون مآثر بطولاتهم: ما معنى أن يُقتل انسان؟ ربّما أجاب غلوبوس ممازحًا فقال طيّب يا سيدتي سوف ترين، أستميحك المعذرة، وجميع المدعوين الذين تعتعهم السكر استحسنوا الفكرة، نريد معاينة الأمر، بأمّ العين، سوّت النساء من جديد حاملات صدورهن وسوّين من أثوابهن المدعوكة وتوجّهن إلى القبو حيث تكدّس السلوفينيّون العشرة خلف قضبان الحديد المهيبة، نظر المساجين إلى النساء الفاتنات ينزلن الأدراج باتّجاههم ولم يفهموا ماذا يحصل، توقّف الموكب عند أسفل الدرج، على مسافة متر من البوّابة فنهض المساجين، أخرج روزنر مسدسه p 38 وكذلك فعل كالترفايغ فالتصق الأنصار المرتعبون بالجدران وكأنّهم حشرات، قال روزنر من يريد أن يجرّب أوّلاً؟ فأجابت سيّدة تعتعها السكر أنا! انا! أمسكها روزنر من خصرها ووضع السلاح في يدها وهو يلامس جسدها قليلاً، اقتربا من القضبان، وجّه روزنر ذراعها، رأت ظلًّا في الزاوية اليمنى فأطلقت رصاصة باتّجاهه أحدثت صدى تحت القنطرة الجميلة، زعق السلوفينيّ المصاب من الألم وتداعى أرضًا فراح الحضور يهتف: عافاك! عافاك! مرّة أخرى بعد! وأفرغ أعضاء الشرطة النازية المسدّسات الأربعة على المساجين المساكين كما أفرغت منذ قليل زجاجات الشمبانيا، أراد الجميع أن يجرّب عمليّة القتل، واهتزّت الطلقات المدويّة في الهواء المثقل برائحة البارود، لطّخ الدم الجدران المبيّضة

بالكلس وارتعشت النساء خوفًا ولذّة، وقد أفقن من سكرتهن مؤقّتًا بفعل الأدرينالين، كان المحتضرون يتلوّون على جثث رفاقهم، وأخذت آذان المدعوّين تصفر في الصمت الكبير الذي يلي المجازر دومًا: صعدوا جميعًا من جديد دون أن ينبسوا بكلمة، وأصدر غلوبوس العقلانيّ أوامره بأن تجلى الجثث وتحرق في الريزييرا حيث لن يعود بإمكان الضحايا الخروج أبدًا، اعترى وجوه النساء شحوب، وهوهنستتر شحب وجهه أيضًا، حتى أنّ غلوبوتسنيك شعر ببعض الاكتئاب فهتف: كونياك! كونياك! وأحضر له كبير الخدم في الحال زجاجة الغرابًا وهو يرتعش، استأذنت والدة رولف وسألت الحضور المعذرة، لم تكن تشعر أنّها في حال جيّدة، ذهبت إلى جناحها في القصر ولاذت بغرفة ابنها، وراحت تغطّ في نوم عميق، وقد فاح عطرها العذب الذي لا يمكن بلوغه، بالطبع، إيبان الصغير لا يذكر شيئًا عن تلك الليلة، كان ينام بخشوع في سريره، لكنّ يوميّات والدته واضحة في هذه النقطة، تشي بما حصل، مع أنّ الدوقة قلّلت بالتأكيد من حجم الدّور الذي لعبته وظلّت عاجزة عن الاعتراف بما حصل في ذلك المساء، حتى لنفسها، حتى في مذكّراتها الحميمة، دوّنت، وكأنّها تكتب على شاهدة قبر، أنّها سدّت القسم من القبو الذي حصلت فيه المجازر، على حدّ قولها، كي لا ترى المكان أبدًا، وأضاف رولف هناك مؤخّرًا على لوحة من النحاس حفر عليها هنا مات عشرة أبطال سلوفينيّين مقتولين بأيدي النازيّين، لوحة تذكاريّة في بيته بالذات، مكان للذكرى لا يستطيع رؤيته سواه، عندما ينزل إلى القبو ليحمل زجاجة خمر فاخرة لمدعوّيه: عندما خرجنا من المطعم، كان النهار قد بدأ بالأفول، واصطبغ البحر بألوان رماديّة، في منتهى الرقّة والنعومة، رولف يحنّ إلى الماضي، سيأمر هو أيضًا بأن

يحضر له كأس كونياك أو غرابا مثلما فعل غلوبوس، وهو يسعى إلى إنجاز عمله بسرعة، قال: الوثائق في صندوق سيارتي، مشينا إلى الموقف، تقدّم رولف مقوّس الظهر قليلاً، شعرت بأنّه يهمّ بقول شيء لي لكنّه تردّد، رفع قبّة معطفه التويد ليحتمي من الهواء المتجلّد، سيّارته «دايملر» خضراء غامقة وعليها لوحة التسجيل في ليشتنشتاين، حتى صندوق السيارة تفوح منه رائحة الجلد والترف، أمسك رولف محفظة أنيقة وأعطاني إياها قائلاً إنّ هذا لا قيمة له، تعرف هذا لا قيمة له كمثل جثّة أو اسم فوق قبر، مسكين رولف، سرق منه النازيّون لقبه، وأخذ منه التاريخ لقبه، فانتقم بإعطائي هذه الوثائق، تقارير غلوبوتسنيك إلى هيملر بين 1942 و1945، وكلّ الإجراءات التي أتُّخذت أثناء عمليّة راينهارت في بولونيا وإيطاليا، ها قد أزاح عن ظهره عبئًا ثقيلاً، بدا وكأنّه مرتاح لكونه ساهم في ملء الحقيبة، ضغط على يدي، شكرته على الغداء، فابتسم لي وصعد في سيّارته، يجهل رولف بأنّني أعرف معضلته، أعرف أن القدر اللعين أراد أن يولد دوقًا لأوشفيتز آند زاتور، لقب قديم أميريّ يرقى إلى القرن الحادي عشر، هذا اسمه، اسم أجداده الذي هتكه النازيّون وأجبروه على إبقاء علامة نسبه في الظلّ إلى الأبد، رولف الذي إقطاعته متّصلة بأكبر مصنع للموت وجد حتى اليوم، يحمل أكثر من أيٍّ كان ثقل التاريخ، أتساءل ما إذا كان يجب البكاء لأجله أم الضحك منه، من هجسه الدائم بأصالة نسبه، ومن والدته صاحبة الصداقات المشبوهة، غربت الشمس، أعاود صعود جبهة البحر ببطء، مليونا قتيل ليسوا في الواقع بهذا الثقل الذي نتصوّره، إنّهم مجرّد أسماء، أرقام، أوراق، البشر هم أكبر تقنيّين في أخذ الملاحظات والاختصار منذ طروادة المحروسة وشاعرها الملتحي وشليمان الأثري مكتشف المحاربين

الكبير، سأصل إلى روما عمّا قريب، وأعيد بسرعة ما لقيصر، وأعيد ما للأبديّة، وأقبض جزاء خيانتي، وماذا بعد، ألتقي بشاسكا المرأة الوحيدة رسّامة الأيقونات في عالمها المغلق، ساشا العمياء ذات العينين الكبيرتين الفاتحتين وشقّتها في ترانستيفير، لا أعرف ما إذا كنت راغبًا في رؤيتها، ليست لديها القدرة على بلوغي، على شفائي ولا الإرادة أيضًا، أشعر أنّني سأدمّرها كما فعلت بماريان وأعذّبها كما فعلت بستيفاني، من سيخرجني من نفسي، من مثل انتصار الفلسطينية سيأتي ويبحث عن جثة فرنسيس التي سقطت على خطّ المواجهة، من سيذهب لينظر إلى قاتلي في عينيه، ويراقب شبحي في البعيد عبر منظار القاتل، ساشكا حلم جليديّ، إحدى هذه المرايا التي لا تعود علينا بالنفع لأنّها تحبسنا دومًا داخل صورتنا، داخل قبرنا العتيد، ماذا سأفعل عندما سيصل هذا القطار إلى المحطّة، عندما ستنفث فرامله دخانها باتّجاه رصيف «ترميني»، التقيت ساشكا صدفة لا تعرفني لا أعرفها ليس أكثر ممّا أعرف أخاها المتطوّع إلى جانب الصربيّين المتوحّشين، أضع جبيني لصق جبينها منتظرين أن يلهمنا الملاك، بالرغم من الإشارات التي يضعها الآلهة على طريقنا، الآلهة الذين لا تُعرف رسومهم، أورشليم الضائعة في التاريخ، ناثان الناجي من الموت المنشغل باتّخاذ القرار الفصل السريع بشأن حيوات الفلسطينيّين، الرصاصات والقذائف المتبادلة في سلوفينيا، وروما، روما التي تفضي إليها كلّ الطرقات قبل أن تضيع في الليل، ماذا عليّ فعله، جميعنا تستهوينا العودة إلى الوراء، العودة إلى حيث عشنا، كما أراد كارافاجيو رسّام الرؤوس المقطوعة العودة إلى روما دومًا، بالرغم من ترف مالطة وجمال نابولي المتعفّن، لم يهنأ لكارافاجيو عيش كان يرغب في المدينة الأبديّة، في أحيائها السّفلى واللّصوص حول مسلّة

أغسطس والعشّاق العابرين والقمار والشجارات والحياة السخيفة، أمّا أنا فأين أعود، أإلى موستار المحروقة بالقذائف، أم إلى البندقيّة بين غسّان الجميل وعزرا باوند المعتوه، إلى تريستا إلى الدارة الملعونة لهرتزوغ فون أوشفيتز، إلى بيروت بالقرب من الفلسطينيّين الشرسين أم إلى الجزائر البيضاء ألحس دم الشهداء أو جراح الأبرياء المحروقين الذين عذبهم أبي، إلى طنجة بين بوروز القاتل الهاذي وجان جينيه الشاذ المتألّق وشكري الجائع الأبدي أم إلى تاورمينا لكي أسكر مع لوري، أم إلى برشلونة أو بلنسية، إلى مرسيليا إلى عند جدّتي عاشقة الرؤوس المتوّجة، أم إلى سبليت عند فلاهو المعاق، إلى الإسكندريّة النائمة، إلى سالونيك مدينة الأشباح أو إلى الجزيرة البيضاء، مدفن الأبطال، ماذا سيفعل إيفان دوروا المجنون، أين سيذهب، أنظر إلى الأميركيّين والأميركيّات يتسلّون ويتكلّمون بصوت عالٍ في غرفة طعام القطار، لا يزال الريف قاتمًا في الخارج، وأنطونيو البارمان يتحضّر لكي يغلق عربته المتنقّلة، سنصل عمّا قريب، سنصل عمّا قريب، وماذا بعد، ماذا ستفعل يا إيفان، أين ستذهب، أين، وفي حوزتك ثلاثون فضيّة، لتجد شجرة رحبة وحبلاً قليل الخشونة لعنقك المرهف، لتوافي ساشكا التي لا تطال وعطرها المكوّن من التربنتين، تربنتين كيو أو قبرص، الدم الكثيف المستخرج من شجرة الفستق، لترتمي مرّة أخرى في النهر وتبحث عن سلاح تضعه في فمك أو زجاجة إضافيّة، وأخيرًا لا شيء يفوق الوصف يا عزيزي إيفان، أنت الذي كانت الآمال العريضة تعقد عليك في مملكة الخفاء، الآن تستطيع أن تستعيد الضوء، والظلام حالك في الخارج، نحن في 8 كانون الأوّل والشتاء على الأبواب، ستمطر مدرارًا في روما، وسيجرف التيبر المسعور معه آلاف

الأكياس من البلاستيك وأطنانًا من النفايات المختلفة التي ستزيّن أشجار الميلاد لحظة انخفاض منسوب النهر، كان جيمس جويس الغريب يكره روما وسكّانها، أتخيّله مع نورا يلتهمان بيتزا مائعة وفاترة خلف ساحة نافونا، وهو يشتم، لدى جويس قبر جميل في زوريخ بالقرب من إلياس كانيتي، خطرت لي فكرة، ما رأيك إيفان بقبر جميل في زوريخ على بعد خطوتين من حديقة الحيوانات، مكان محايد للاستفادة من باليه القرود وزئير الأسود، ممدّدًا بسكينة ويداك تحت رأسك - أكثر من ساعة قبل الوصول إلى روما، يقول الأميركيّون، هل هذا خبر سار أم سيّء، لا أعرف، القطار يمضي بأقصى سرعة الآن، نتأرجح يمينًا وشمالاً على هوى الأنفاق، أجلس من جديد، أمامنا ساعة من الوقت، هذا وقت طويل، طويل وقصير في آن، قبالتي السيّدة التي صعدت في فلورنسا لا ترمقني بنظرة إنّها مستغرقة في قراءة كتابها، سأستعيد كتابي، أريد أن أعرف ماذا صار بحال انتصار، بإمكانها إنقاذي ربّما، كانت تغسل جسد مروان في ليل بيروت الحارّ والآن:

الفصل العشرون

والآن، الهزيمة، الأحذية الثقيلة التي لم تعد تتقدّم، لم يعد مروان يركض بسرعة كافية ليتجنّب الرصاص، الشهداء متروكون على زاوية من الرصيف. الجثث المغسولة في حمّامات الشقق، المدينة التي تسقط، وفي نهاية المطاف المنفى. تداعب انتصار مروان بإسفنجتها، للمرّة الأخيرة. لم تشعر قطّ بقربها منه كما شعرت لدى هذا الاتّصال الأخير. ومع ذلك فهناك ظلّ الوحدة المخيّم، الحيوات التي دمّرها الإسرائيليّون، بيروت التي دمّرها الإسرائيليّون، أحيانًا ينقلب السلاح ضدّك، وينتهي بك الأمر دومًا إلى غسل الجثث، لقد وعدها مروان بأن يكون قربها إلى الأبد. كاذب. تواصل دعك جذعه، أدركت انتصار لماذا انطلق في رحلة محفوفة بالمخاطر مع أحمد الجبان، كان يريد أن يعرف، كان الشك يتآكله، ربّما مات بسببها، أراد أن يعرف، كان أحمد الجبان يشتهيها، منذ سنة، عندما عاد أحمد منتصرًا من عمليّة في الجنوب، وعندما تغيّب مروان بدوره لكي يتوجّه إلى مدينة صور، انبهرت قليلاً باهتمام أحمد بها، راح يتغزّل بها بتكتّم، ويهتمّ لأبسط الأمور المتّصلة بها. يسهر عليها بغياب مروان، كما كان يقول. مروان مات، جسده يلتمع في انعكاسات الماء على صدره. لم تخنه قطّ. اعلم يا مروان أنّني لم أخنك قطّ. لم يكن باستطاعتها أن

تخبره بذلك، كان مستحيلاً إخباره. لو عرف مروان بالأمر لأمسك سلاحه وقتل أحمد. الآن هو الذي قُتل، ومات مع الشكوك التي ساورته.

ترتجف يد انتصار، عيناها ترتعشان، إنّها ذكرى العار الحارقة التي تجعلها تبكي. حاولت أن تتذكّر الصلاة المناسبة لتتلوها على روح مروان. باسم الله الرحمن الرحيم، وماذا أيضًا؟ رأت من جديد أحمد في ذلك المساء. أحمد الجبان الذي جعلها تشرب البيرة على الكورنيش في بداية الصيف، عندما تكون بيروت في أبهى حلة. كانا يثرثران، الحرب تبتعد تدريجيًّا. مروان يبتعد تدريجيًّا. لمَ لا تعترف بذلك، تحت تأثير الكحول والليل الساكن. هيّا نتناول شيئًا من الطعام، قال أحمد. اصطحبها وهو يتذرّع برؤية أصدقاء لن يأتوا أبدًا، وفيما هما يخرجان من المطعم، كانت انتصار ثملة قليلاً فهي لا تشرب الخمر إلا نادرًا. اصطحبها أحمد من جديد إلى منزلها، هل كانت تستشعر الفخّ، هل كانت تعرف في لاوعيها ماذا كان سيحصل والذي يجعلها اليوم تبكي من شدّة غيظها، لماذا، لماذا، نعرف ماذا يختبىء في داخلنا وما نحن قادرون عليه، ألصقها أحمد إلى الجدار في مدخل المبنى حيث تسكن، وقبّلها طويلاً، كانت مندهشة، وتعاظمت دهشتها بحيث استسلمت، ولعلّها كانت راغبة في الأمر، لم تعد انتصار المحاربة الحازمة، تلاشى الحزم فيها، دمّرت الكحول إرادتها والثّقة التي كانت توليها لأحمد، إنّها صورة مروان التي أيقظتها، الاختلاف بإحساس القبلة، الشفتان الأقلّ نعومة والأقلّ طعمًا والأكثر عنفًا، انتفضت، انتفضت وأبعدت بعنف الرجل الواقف أمامها ثمّ صعدت الأدراج أربعًا أربعًا وأقفلت الباب خلفها وهي تشعر بالعار، كانت خجلة من رغبتها في

أحمد الجبان، من رغبتها الجسديّة الحميمة التي يستحيل إخفاؤها على نفسها خصوصًا في غرفة النوم المقفرة هذه.

* * *

للهزيمة بشائرها، الصدوع تنذر بالتداعى والانهيار، والتشقّقات الطفيفة تنبىء بالكارثة، يتراخى العزم والأمل يتلاشي. تنظر انتصار إلى دموعها تنهمر على صدر الميت. سرعان ما تحوّلت رغبتها إلى كره. كانت تكره أحمد. لدى عودته، حدس مروان بشيء ما، كان كرهها باديًا للعيان. لم تبح بشيء. لم تقل كلمة، وعدها مروان بأن يظلّ إلى جانبها. ثم توقّفت الحرب وذهب إلى الجبهة وكانت الكارثة. أمسكت انتصار بيد مروان المتشنّجة وكأنّها لا تزال حيّة. الآن عرفت. تداعب الأصابع الميتة. حزنها طاغٍ بحيث اجتاح كلّ شيء، غالبًا ما كان مروان يحدّثها عن أمّه، أمّه التي هي فيض من العاطفة والسخاء والطهر والكمال، هي التي أحبّت زوجها بشغف، ووقفت دومًا إلى جانبه، واعتنت به عندما كان جريحًا وأطعمته عندما كان جائعًا، كانت تدلّع أطفالها، وتطرّز وتخيط الأثواب لهم. وتسعى ألّا تفكّر بفلسطين وألا تفكر بالعودة. بلدها عائلتها، ولا شيء إلّا هذا. أمّا مروان فكان مثل «أبو ناصر»، سيحارب إلى النهاية، كما يقول ويموت واقفًا، مثل شجرة، لن يسمح للإسرائيليّين بامتهان كرامته. الآن، كان ممدّدًا هناك مستسلمًا للمسات انتصار الأخيرة قبل أن يوافي جذور الأشجار التي حطّمتها القنابل. ثمّة من يقرع بعنف على باب المدخل ويخرجها من حلمها الجنائزيّ. لا شك أنّه أحد الجيران أخافه الدخان المنبعث من المطبخ. وضعت الإسفنجة جانبًا، وتركت على مضض جثّة مروان. أمسكت المصباح، يجب طمأنة الجيران قبل أن يتخيّلوا أنّ المبنى سيشتعل. أمّا

الجثث فهناك منها الكثير في المدينة، بحيث إنّ العثور على إحداها لن يفاجىء أحدًا. لكنّ ألسنة اللّهب تبعث على القلق. تفتح الباب نصف فتحة، فتطرحها ضربة كتف عنيفة على مصراع الباب أرضًا، فتسقط شبه صريعة. لمحت أحمد في فرجة الباب. حاولت استعادة روعها، دموع الألم تحرق عينيها، وأنفها مرضوض، أعاد أحمد إغلاق الباب.

- أتيت لأعيد لك هذا. ورماها بقطعة نسيج بيضاء على وجهها لم تعرف ما هي في الحال.

- لقد تركتها عمدًا أليس كذلك؟

حمّالة النهدين التي تركتها في زاوية المركز، نظر أحمد إلى ساقيها وسروالها الداخلي تحت قميص النوم المنحسرة.

- أنت الآن لي، رحل مروان.

لكلّ شيء أوان استحقاق. ولكلّ شيء ثمن. ليت مروان يستطيع أن يُبعث حيًّا. يا إلهي اجعل مروان ينهض من جديد واجعل أحمد يختفي. شعرت بنفسها مرهقة، منهزمة، متألّمة، ارتمت أرضًا. لا تملك القوّة لتدافع عن نفسها. لن تقاوم. وجه أحمد الحقيقي يتراقص في الضوء البرتقالي. انحنى فوقها، أمسكها من شعرها وجذبها بعنف إلى داخل الشقّة فانزلقت على البلاط، وجثت على ركبتيها، زعقت من الدهشة والألم ثمّ توقّفت عن الصراخ، رماها على السرير غير المرتّب فدفنت وجهها في الوسادة. سلاحها بقي على الجبهة، وقوّتها وإرادتها بقيتا هناك. أرادت أن تختفي. سمعت صوت ارتطام سروال أحمد وحزامه على الأرض بالقرب من سريرها. لا تريد أن تنظر إليه، لا تريد أن تراه. تصلّبت عندما امتدّت يده المرتجفة إلى ساقيها في محاولة لتعريتها. حاولت مقاومته بطريقة لا شعوريّة، فأمسكها أحمد من شعرها وسحقها واضعًا ركبته في

خاصرتها، أحمد يتكلّم لكنّها لا تسمعه. لا تريد أن تسمعه تحسّ باحتكاك رطب، بصق أحمد على فخذيها المغلقتين، لا تريد أن تسمعه، لا تريد أن تحسّ به، لا تريد أن تحسّ بهاتين الاصبعين الخرقاوين اللتين تلجان عضوها ولا تريد أن تتأوّه حتّى. مروان من فضلك، مروان ساعدني. سحقها أحمد وتمدّد فوقها وأنفاسه على عنقها لا تسمعه لا يفلح في إقناعها بفرج ساقيها، يعنّفها، يهزّها يحاول قلبها، لكنّها تشبّثت بحافة السرير لا تريد أن تراه، لا تريد أن تراه، يضربها يطلق الرصاص على إحدى ساقيها، تُقاوم، يبصق أيضًا ويضربها من جديد ويرزح بكلّ ثقله فوقها ولا يفلح في مسعاه، يغتاظ، تتألّم وتمعن في الألم وفجأةً تسمع صوتًا مرعبًا يدوّي في أذنيها، دويًّا هائلاً، قريبًا جدًّا، يبعث على الصمم متبوعًا بسائل حارّ يتدفّق فوق كتفها اليسرى، وفي شعرها وعلى خدّها، رائحة بارود، رائحة دم، تدفع أحمد المتلاشي فوقها وتسقط من حافّة السرير وتتدحرج على الأرض، تزحف في العتمة حتّى غرفة الحمّام، تلمس جسد مروان البارد، تتمدّد قربه فاقدة الوعي.

* * *

أيقظها أبو ناصر برفق في نهار بيروت الطالع. بهرها الضوء الشاحب. أبو ناصر يساندها، ويساعدها على الوقوف ويمرّر ماء باردة على وجهها، تشرب، ترى نفسها في المرآة ملطّخة بالدمّ المسودّ. ومروان يلتفّ بكفن أبيض. حملها أبو ناصر تقريبًا حتى الغرفة. أحمد ممدّد على السرير وقد فقد نصف رأسه. الحائط ملطّخ بالدمّ وأشلاء اللحم. أبو ناصر يدمع. بذلته الجميلة ملطّخة بالدمّ. لاحظت أنّه لبسَ ثياب الحداد وكأنّه في مأتم ولده بالذات. ساعدها أبو ناصر في إرتداء مبذل. حمل جنديّان جثّة مروان على محمل.

- سأوصلك إلى المنزل يا انتصار، انتهى كلّ شيء.

يمسكها برفق من ذراعها. تسمعه يصدر التعليمات للمحاربين الذين يرافقونه، ارموا هذا النذل في أوّل حفرة تجدونها. اصطحبَ أبو ناصر انتصار إلى منزله في الروشة سيذهب وحيدًا ليدفن ابنه. وسيوارى مروان الثرى إلى الأبد.

لن تكون انتصار هنا لكي تسمع صخب المدينة يتلاشى خلفها. سينفتح المنفى مثل هاوية فوق البحر الفارغ، ظلًّا هائلاً تغوص فيه الأسلحة غير المجدية والدبّابات المهجورة، ولمسات الأموات والأحياء، بعيدًا عن العدو والمعركة التي كانت تعطي الوجود معناها الهش والباعث على الدوار، ثم أتت الهزيمة لتبدّده وترسلها إلى تسكّع يسكنه القلق، وتشرّد حيث القدمان، وهما أوّل ما يستشعر الهزيمة، تحتكّان برخاوة الأرض وكأنّهما تخافان من الآن فصاعدًا من خدشها ولن تطبعا عليها آثارهما.

واظب أبو ناصر على إصراره الحنون ونجح أخيرًا في جعلها تتخلّى عن رشاش مروان الثقيل عيار 9 ملم الذي كانت تشدّ عليه بكل قوّتها وكأنّه جزء منها.

الفصل الحادي والعشرون

أيّة قصّة محزنة، مسكينة انتصار، وضع مروان سلاحه في يدها وشبحه أيضًا، هناك قصص حب أقوى من الموت، ووعود، لا سيّما في الكتب، في الكتب وفي المسرحيّات، سينتشر الفلسطينيّون على ضفاف البحر المتوسّط، في تونس، والجزائر، وسوريا، وسيحاول عرفات الرماديّ العودة إلى لبنان، إلى طرابلس عام 1984 مع مقاتليه، لكن السوريّين سيقذفونه إلى البحر برفسة على مؤخّرته، كمن يرفس كلبًا عجوزًا، مسكينة انتصار، وأحمد مسكين ذهب ضحيّة شهوته وعنفه، ضحيّة تسبّب بضحايا آخرين، كما فعلنا نحن في البوسنة، كما فعل الآخيّون ذوو لفافات الساق الجميلة، هؤلاء الذين دمّروا طروادة وقتلوا الأطفال واقتادوا النساء أسيرات، أنا لم أنقذ أحدًا، لا حين تركت مسدّسي أرضًا ولا حين بُعثت من بين الأموات، ولا أحد، لا أندي ولا فلاهو، ولا أحد أنقذني، لا مريان ولا ستيفاني ولا ساشكا الشقراء، أتساءل ما إذا كان رافائيل كحلة يشبهني، لماذا يكتب قصصًا مرعبة، هل حاول أن يخنق زوجته على غرار لوري، هل قتلها مثل بورروز، هل حرّض على الحقد والجريمة مثل برازيياك أو باوند، تُرى هل هو ضحيّة مثل شكري البائس، أم رجل هزم ثلاث مرّات مثل سرفنتس - من سيغسل جسدي حين أموت، ما أحزن هذه

القصّة، ما أحزنها، مدينة تسقط، تتداعى، مدينة تتحطّم مثل الزجاج بين أيدي هؤلاء الذين يظنّون أنّهم يدافعون عنها، برشلونة في 1939، وبيروت في 1982، والجزائر في 1992، وساراييفو في 1993، ومدن أخرى كثيرة، مدن أخرى كثيرة مع أرتال المقاتلين المنذورين للموت أو للمنفى، على غرار انتصار، الوحيدة مع أبي ناصر، انتصار البريئة التي تظنّ أنّها دفعت ثمن غلطة لم ترتكبها، بقيت لي قصّتان لأقرأهما في كتاب رافائيل كحلة هذا، قصّتان أخريان عن الحرب، أحيانًا نقع على كتب تشبهنا، تفتح جراحًا عميقة في صدورنا من الذقن حتى السرّة، وتطرحنا أرضًا، كنت أودّ لو أملك شهامة مروان، هل لا يزال هذا ممكنًا، لنفكّر يا إيفان ماذا سنفعل في روما سوى أن ننصرف إلى شرب الخمر حتى النشوة ونأخذ حمّامًا ونشتري بذلة جديدة قاتمة وفاخرة، كيف بالإمكان أن أصبح مروان، غدًا صباحًا حين أحصل على المال وأدفن موتى الحقيبة في أرشيفات الفاتيكان، ماذا سأفعل بالقطعة الذهبيّة التي أعطاني إياها شارون[1] المعبّر، كيف أستخدم أوبول[2] الموت الموضوع على كل عين من أعين جثثي، كان كوكتو يقول عن عزرا باوند المجنون العجوز إنّه «المجذّف على نهر الأموات»، ها إنّي أجد نفسي في موقعه تقريبًا، عزرا باوند يرقد هانئًا في قبر جميل في مدفن البندقيّة البحري في سان ميكيليه الجزيرة الصغيرة الضبابيّة في عرض «فوندامنتي نووفي» حيث دفن الكثير من المشاهير، قبر معشوشب وضعت عليه شاهدة ضريح صغيرة

---

(1) شارون: في الميثولوجيا الإغريقيّة، شارون هو الذي يعبّر الموتى نهر الأشيرون وهو نهر الجهنّمات، ويرفض هؤلاء الذين لا يملكون الأوبول أو المبلغ المتوجّب الموضوع بين أسنانهم أو على أعينهم.

(2) أوبول: وحدة وزن ونقد في اليونان القديمة.

في ظلّ أشجار السرو لأجل الواعظ الفاشستي في راديو روما المهووس بمال اليهود، حتى الجنون، بالطبع، حين كنت في البندقيّة، لم أكن أعرف شيئًا عن ديوان أناشيده السحريّة Cantos، ولا عن نبؤة أبولون المكوّنة من مئة وعشرة فصول، أناشيده المستغلقة على الفهم، والغامضة، والغريبة، تغطّي أحداث القرن الماضي بعشر لغات وثمانمئة صفحة وتنتهي في روما بهذين البيتين:

le chapeau melon de saint Pierre/ you in the dinghy (piccioletta) astern there

لو كان ديوان Cantos معي، لاستخدمته الآن لأقرأ مستقبلي عبر الصفحة التي تطلع لي صدفة وأرى إلى أين ستؤدّي بي، ألإلى الجسمانيّة أم إلى كيوتو أم بيزا أم أورليان الجديدة أو إلى مدينة لندن أو باريس، لا، ليس باريس، عزرا باوند النبي دون إله كان يلقي بحماس خطبًا مناهضة للساميّة وشتائم للولايات المتّحدة، وطنه، عبر الإذاعة الفاشيّة، أتساءل ما رأي الأميركيّين الموجودين في الحانة المتنقّلة في القطار في عزرا باوند، ربّما سبق لهم وزاروا مدفن سان ميكيليه، فالبندقيّة المذهلة هي المدينة الوحيدة في العالم التي يذهب فيها العشّاق والأزواج الذين يقضون شهر العسل إلى المدافن، البندقيّة تأكل روحك كما تأكل العفونة جدران القبو، كانت ستيفاني أهدتني مختارات لعزرا باوند، مع كلمة إهداء صغيرة رقيقة إلى فاشيستيّ المفضّل، مع ذكر التاريخ، أخبرتها عن أهوائي أيام شبابي للأذرع المرفوعة والجماجم الحليقة والصداقات السيّئة، وعن ثقل الوراثة، وما أدراني أيضًا، وعن إجلالي الشديد لبرازيياك الشهيد الذي لم أقرأ له سطرًا واحدًا، عدا قصائده في السجن، وبعض النصوص عن السينما في مدرستنا الباريسيّة الطراز، كان إيفان الفاشي الحقيقي، العقائدي العنيف، يرتدي

الرانجر وسترة البومبرز أي كل البذلة الخاصة بالصبية الزعران التي ميّزت نهاية القرن، كان متحدّرًا من عائلة نازيّين تاريخيّين مقتنعين بعقيدتهم أيّما اقتناع، يمقتون الشعبويّة المقيتة للجبهة الوطنية، كان إيفان يكره الكنيسة الكاثوليكيّة ويعتقد أنّه يجب إخضاعها، ويكره كرهًا شديدًا كلّ مُختلف عنه كاليهود الشيوعيّين والعرب والبريطانيين والشاذّين والصفر العجّاجين والرأسماليّين المتزمّتين والسياسيّين الفاسدين، إنّها قائمة لا تنتهي من الأحقاد والأشياء التي يأنف منها، قائمة تحفّزها قراءته للنشرات البارانوية الهاذية المزدانة بالصلبان المعقوفة والصلبان المنفرجة الأطراف والورود المصلّبة وكلّ الصلبان الممكنة والمتخيّلة ما عدا الصليب اللوريني، وفؤوس الحرب وحزم السنابل والرماح المتصالبة والسيوف المشهورة والخوذات القاتمة، المطبوعة على ورق سيّء أو على الصحف المحترمة للزمن الجميل الغابر، واضطرّ إيفان إلى حفظها بأوراق واقية لتجنيبها التلف لفرط ما عالجها بيديه، كان لدى إيفان شغف حقيقي، متأجّج ومعدٍ، استسلمت لغضبه الرائع، لا شك أنّه كانت لديّ استعداداتي، بالرغم من الحماقة التي ارتكبها جدّي بانضمامه إلى المقاومة، كان أبي يقلق من صداقاتي الجديدة وتسيّسي، وقمصاني السوداء، فتجيبه أمي بأنّه يجب التسامح مع الفتيان، إيفان هو الذي اصطحبني لألتقي بيارديش العجوز، كانت الرحلة بمثابة حجّ، رحلة مساريّة قصيرة إلى أراضي المعلّم، الساحر على أيّة حال، قدّم لنا الشاي ومحاضرة تتّصف ببعض الأهميّة عن التعاون مع النازيّين والمناورات اليهوديّة والأهمّية التي ترتديها رواية *La Chartreuse de Parme*[1]، أذكر أن شفة العجوز العليا كانت

---

(1) رواية للكاتب الفرنسي ستندال.

ترتعش، تلك عادة لا يستطيع التحكّم بها، وربّما كانت التعبير الجسدي عن الضغينة، ومن وقت لآخر، التمع خيط من المخاط سائلا من منخريه ليسقط على مبذله ولم يكن يبدو أنّ ذلك يزعجه إطلاقًا، وجدني موريس بارديش الطويل القامة لطيفًا، سألني بماذا أنوي أن أتخصّص فأجبته: «بالعلوم السياسيّة» فابتسم، لا أعرف إذا كانت ابتسامته تنمّ عن احتقار وهزء بهذه المادّة النبيلة أم عن تشجيع لاختياري، ثمّ قدّم لنا هدايا صغيرة، قدّم لإيفان رسالة هجاء يندّد فيها بـ«مهزلة» محاكم نورمبرغ، وقدّم لي «تاريخ حرب إسبانيا» وقد أعيد طبعه، وأرفقه بإهداء: «إلى فرنسيس مع تمنّياتي لك بالأفضل لمستقبلك» بخطّ مرتعش قليلاً، ثمّ عقّبَ صهر برازيياك القشتالي قائلاً: هذا الكتاب واسع الإنتشار، يعاد طبعه في إسبانيا دومًا، رأينا وعرفنا في الحال أهميّة هذه الحرب بكلّيتها، كان بارديش وبرازيياك مثل لوريل وهاردي لا يفترقان، ذهبا مرّات عدّة إلى شبه الجزيرة الإيبيريّة بين 1936 و1939 لكي يشهدا على الفوضى الديمقراطيّة هناك وأهميّة فرنكو المنقذ، كانا يريان فيها صورة أوروبا السائرة إلى الأمام بفضل جيوش موسوليني وطائرات هتلر، والقضاء على الشيوعيّين بقوّة النظام والحقّ، وقد أثبتا أنّ المجازر المنسوبة إلى القوميّين هي من اختراع البروباغندا الجمهوريّة، وأنّ الدمويّين الحقيقيّين هم الحمر الملتهمون الكبار لرجال الإكليروس، كما دافعا أيضًا عن عظمة الجنرال ياغوي، المخطّط المرهف، وعن جيش المجنّدين بقيادة ميلان أستراي والإيطاليّين ذوي الأرياش الجميلة السوداء، وباشرا بمعركة أرقام سيتابعها بارديش وحده بعد إعدام برازيياك، وفيها أنّ جميع الجثث أكذوبة لفّقتها البروباغندا الشيوعيّة واليهوديّة، وأنّ جميع الموتى يخدمون مصالح الاتّحاد السوفياتي وإسرائيل، إذًا ليس لهم وجود أو

أنّهم أقلّ بكثير مما يقال، بارديش هو بطل التدوينات الثأريّة المنقوشة على شواهد القبور، لم يمت الناس بهذا القدر في باداجوز، ولم يموتوا بالقدر الذي يتمّ التحدّث عنه في أوشفيتز، هذه كلّها أكاذيب ملّفقة لحجب جرائم الجمهوريّين والمقاومة، أمّا المجرمون الحقيقيّون فهم هنا، هؤلاء الذين كانوا يتلذّذون باغتصاب الراهبات قبل أن يقتلوهنّ، هؤلاء الذين كانوا يعذّبون البورجوازيّين في سجون مدريد وبرشلونة، اليوم يبدو لي عمى بصيرته بديهيًّا للغاية إذ لم يكن يوجّه أفكاره إلا الحقد، حقد ضارٍ وأخرس على هؤلاء الذين انتزعوا منه الرجل الذي يحبّه، برازيياك الشهيد، حقد شديد على اليهود، حقد أعمى بحيث لم يستطع الاقتناع بإبادتهم، تطارده الأشباح الإسرائيليّة حتّى القبر، بارديش العجوز، المجنون والمقتنع بالمؤامرة العالميّة ضد الخير والحقّ، كان رفيقي إيفان يؤمن إيمانًا لا يتزعزع بهذه الطروحات الغابرة التي تصوّر جماعة اليهود العالميّة على أنّها العدو الذي يجب دحره، وبالرغم من كلّ الجهود التي بذلها، كان يشقّ عليّ الإقتناع بمدى الخطر الذي يمثّله بالنسبة للأمّة بعض الفلاسفة أو الصحافيّين أو علماء التحليل النفسي، كنت معاديًا تافهًا للساميّة، عنصريًّا سيّئًا، كان إيفان يقول لي إنّ موقفي على هذا الفتور لأنّني لم أعاشر، حسب رأيه، يهودًا أو عربًا عن قرب، لو أنّك تتعرّف إليهم لكرهتهم تلقائيًّا، ووثقت به حتى لو كانت كتب التاريخ التي دوّنت أحداث القرن العشرين الغالية على قلبي، تثبت لي العكس تمامًا، وهذا مردّه أيضًا، في رأي إيفان، إلى أنّ كتب التاريخ كلّها كتبها اليهود، ما كان يعلّل بالطبع تدنّي علاماته الفظيع واهتمامه القليل بهذه المادّة، كان السيّد موسيمبيس أستاذ التاريخ في السنة الأخيرة من مرحلة التعليم الثانوي، لانديّ من منطقة داكس وتميّز بلهجته القويّة الحازمة التي يتّسم بها أهل جنوب غرب فرنسا، لا يتبادر إلى

ذهن من يسمعه إطلاقًا بأنّه ساميّ متستّر، كانت السهولة الفاسكونيّة التي يبديها في الكلام تجعل منه خطيبًا متفوّهًا حين يسرد المعارك ويتحدّث في الدبلوماسيّة والدسائس السياسيّة، لا شكّ أنّ الفضل في نجاحي لاحقًا يعود له، نجاحي العجيب في الامتحان الرائع في شارع سان- غيّوم، كان إيفان يحترمني لأصولي الأوستاشيّة خصوصًا وصور عائلتي الحافلة بالبذلات القاتمة، المراهقة تهوى الصور، الصور والصداقات التي تدوم مدى الحياة، حتى الموت، والعهود السريّة والأذرع المرفوعة على أحد المذابح الوطنيّة، كان جنون إيفان يعلن عن نفسه أحيانًا ولكن على فترات قليلة حسبما أذكر، أحيانًا يركّز تفكيره على موضوع ويدور في الحلقة نفسها مثلما تدور أسطوانة معطلّة على الغراموفون، ويمضي أيّامًا وأيّامًا محتبسًا في غرفته يقرأ من جديد المقطع الصغير نفسه وهو لا يني يقول: هذا هو، هذا هو، هذا هو، إلى ما لا نهاية، قد يكون مقطعًا من خطبة اقتصاديّة لهتلر يتحدّث فيها عن النقود والتضخّم على سبيل المثال، مثل هذه المقاطع يمكن أن تتسبّب له بأزمة فلا يعود يخرج من الحلقة ويصير غير قادر حتى على جرجرة قدميه حتى المرحاض فيبوّل في قناني بلاستيكية قارئًا تكرارًا النصّ قائلاً، هذا هو، هذا هو، هذا هو، وكأنّه اكتشف الكأس المقدّسة[1]، كان يكتب سيرة جماعة أخوة المسيح، سعيًا لإبراز أهميّتهم في الصراع الخفي ضد الشيوعيّة، مرجعًا أصول كافة الجمعيّات السريّة المدافعة عن الغرب إلى الأولاد المنسيّين لمريم العذراء الذين بقوا في الظلّ، مع أنّه نُوّه بهم في الإنجيل وتعمّدوا أيضًا على يد يوحنا المعمدان الذي قطع رأسه، ولا أعرف ماذا

(1) الكأس المقدّسة هي الكأس التي استخدمها المسيح في العشاء السريّ والتي جمع فيها يوسف الرامي لاحقًا دم المسيح، ويُقال إنّ لها قدرة عجائبيّة.

أيضًا، قلق والداه بشأنّه ورغبا في أن يذهب إلى الطبيب للمعالجة، لكنّ هذا كان مستحيلاً بالطبع لأنّ الطبّ النفسيّ وعلم النفس برمّته كانا في أيدي اليهود الساعين إلى إفساده وتعطيل عمل دماغه، وهكذا دواليك حتى فجر نهار آخر كسواه، في الربيع، قبيل تقدمّه لامتحانات البكالوريا، وقع نظره وهو في طريقه إلى الليسيه، على رجال يعلّقون ملصقات تروّج لأحد الأحزاب لم أعد أذكر أيّها بالضبط ولا لأيّة انتخابات، رجال في الأربعين من أعمارهم مسالمون بالأحرى، يزيّنون لوحة للبلديّة معدّة لهذا الغرض، أجهل السبب لكنّ إيفان تولاه غضب شديد فاعتدى عليهم بوحشيّة وغضب مسعور بواسطة جنزير درّاجته الهوائيّة الذي يحمله دومًا في جيب قميصه الرياضي الأسود والبرتقاليّ، فما كان منه إلا أن ضرب وجه أحدهم وانقضّ على الآخر مثل قردح[1] مقتلعًا له أذنه بأسنانه، وموجّهًا رفسات متواصلة من ركبتيه إلى عضوه، كان ممسوسًا، مسعورًا مستشرسًا، لم يُبدِ الرجل الثالث أية ردّة فعل تجاه الاعتداء المفاجىء وعنفه المحموم ولا تجاه صرخات الألم التي أطلقها رفيقاه أو زعيق إيفان لكنّه هوى بالفرشاة التي كان يغرّي بها الملصق على إيفان موجّهًا ضربة صائبة قويّة إلى رقبته استوجب علاجها بضع قطب حتى يلتئم الجرح، وحتى اليوم أيضًا لا يستطيع أحد أن يقول ما إذا كان لتهشيم الجمجمة دور في تفعيل جنونه أو ما إذا كان جنونه متفاقمًا في الأصل، لكنّ إيفان انتقل من الطوارىء إلى مستشفى الأمراض النفسيّة، ومن ثمّ إلى مأوى المعتوهين الذين لا يمكن ضبطهم، إيفان المنفصم، المصاب بالبارانويا، الإغمائي التخشبي والعنيف الذي لا أمل في شفائه بالرغم من أطنان

(1) قردح: نوع من السعادين الإفريقيّة من فصيلة كلبيّات الرأس.

الأدوية وجلسات الكهرباء والعلاجات على اختلافها التي اقترحها الأطباء لعلاجه، كان إيفان غارقًا في السواد، إذا تكلّم فلكي يتلو مقطعًا من *Mein Kampf*[1] أو شتائم مناهضة للسامية **اليهود يسعون إلى اغتيالي**، خلال الدقائق القليلة التي يعود إليه فيها قبس من وعيه على مدى الأسبوع، إيفان إمّا مرتعب إلى أقصى حد، وإمّا في منتهى العنف، على هوى العلاج الذي لم يفلح في خلق حالة استقرار لديه، كان ضائعًا في يمبوس الضغينة والرعب - بالنسبة لي، شكّلت الحادثة صدمة رهيبة، لقد سقط إيفان في المعركة، صرعته ضربة هراوة «انتخابيّة» على جمجمته، ذهبت إلى المستشفى في الحال لزيارته، تحدّثت طويلاً إلى والديه، ووقفت على حقيقة الأمر، كان مصابًا بصدع حقيقي، جنون فعلي مسعور حريّ بآريس، الأمر الذي جعلني أبكي حزنًا، فكّرت، سأنتقم لك، سأنتقم لك، سأنتقم لإيفان ذي العينين الجاحظتين واللسان المتدلّ، إيفان الشاحب المشلول في كنبته والزاعق حتى الموت: رأيت أمّه تبكي بهدوء وهي تخاف الاقتراب منه، تخشى الاقتراب من ابنها بالذات الذي كان دماغه المعطّل ينضح بالعنف والحقد والألم، الآن أنتقم لك يا عزيزي وأهبك حياة جديدة، لقد خرجت من المصحّ قليلاً، على الأقلّ خرج اسمك، حتى لو كان وجهي على جواز سفرك، فرنسيس تسلّل إلى جسد إيفان الرهيب غير المجدي ليبعثه من جديد، أُدخل إيفان إلى المصح وتقدّمت أنا لنيل شهادة البكالوريا، ثم التحقت بأحد الصفوف التحضيريّة الخاصّة وكدت أموت سأمًا حيث راحوا يلّقنونني أشياء دقيقة عن تحليل النصوص ومعلومات في الثقافة العامّة، شعرت بملل مميت ورغبت بشدّة في العنف والانتقام، ما دفعني

(1) كتاب ألّفه هتلر ويروي سيرة حياته.

للذهاب إلى الجيش والسير في الأراضي الوعرة لمدّة ستة عشر شهرًا، كان إيفان يحبّ هذا كثيرًا، الأغاني الذكوريّة، والمآثر الليليّة والمناورات والتدرّب على الأسلحة والخطط الحربيّة والتوجيه العسكري، وبعدئذٍ سافرت إلى مصر وحيدًا لكي أحتفل بنهاية خدمتي العسكريّة، وهناك التقيت بماريان المتحشّمة - كانت القصص التي أرويها بصفتي نازيًا جديدًا تضحك ستيفاني كثيرًا، خصوصًا فصل إيفان المسكين الذي صرعته فرشاة الملصقات، إلا أنّها رثت لحالي بعض الشيء لكوني أضعت كلّ هذا الوقت، حسب قولها، تقصد هذا الوقت في التعصّب العقائدي، قبل أن أعود ديمقراطيًّا متعقّلاً، كنت أجيبها بأنّها «شبه عودة»، لم أعد إلى هذا التعقّل إلا «نصف عودة»، لم أقترع بحياتي، ولا عزرا باوند أيضًا على حدّ علمي، لا أعرف شيئًا بهذا الشأن، كان الشاعر ذو العقل المشوّش، يكتب هو أيضًا قصائد ملحميّة- سياسيّة يمجّد فيها النظام الاقتصادي الفاشي ويندّد بالربا والمرابين، من منزله في ضواحي جنوى، كان الشاعر الأميركيّ يقول إنّ زعماء بلاده ذوي الآذان الطويلة يستحقّون أسوأ من الشنق، وحين حُكم عليه بتهمة الخيانة العظمى منذ عام 1943، أجاب عزرا باوند أنّه لم يكن يفهم كيف أنّ مجرد التحدّث بصوت عالٍ في الميكروفون يمكنه أن يشكّل خيانة عظمى، على أيّة حال، سيدفع الثمن غاليًا وسيسجن عام 1945 في قفص مربع ضلعه ثلاثة أمتار، داخل معسكر حربيّ في بيزا، قفص مزوّد بالقضبان وسطحه من الصفيح على ارتفاع مترين من الأرض، حيث نام باوند على الاسمنت وكشّاف المراقبة مسلّط بشكل متواصل فوقه، في رطوبة الصيف التوسكانّي الحار، منفيًّا في هذا الجحر الذي يُعتبر صورة مصغّرة لمعتقل غوانتانامو، ولم يكن يُسمح له بالخروج، ووضع تحت المراقبة ليل نهار، مهانًا،

هزيلاً إلى أن آل الأمر به إلى الانهيار ونُقل في حالة طارئة إلى عيادة التمريض - خلال محاكمته، أوشك أن يحكم عليه بالإعدام لولا أنّ القضاة لم يرتأوا بأنّه مجنون فعلاً وأنّ حالته الذهنيّة ليست من صلاحيّة القضاء بل الطب النفسي، باوند صديق جويس وإليوت وجميع الفنّانين والشعراء والموسيقيّين في باريس وغيرها أُعلن عدوًّا للشعب ومختّلاً بشكل رسميّ، وحين أعيد لاحقًا إلى الحياة المدنيّة، سارع إلى العودة إلى إيطاليا، وما كاد ينزل من الباخرة حتى استقبل الصحافيّين الآتين لملاقاته بالتحيّة الفاشيّة، لدرجة أنّ المراسلين والصحافيّين شعروا لبرهة بأنّهم هم من كانوا يعودون من بلاد بعيدة، وبأنّ باوند الملتحي الناحل، لم يغادر أبدًا بل لازم دومًا بلدًا شبحيًا، رفع ذراعه عاليًا على إيقاع فرقعة النّعال الحربيّة والأحذية الحديديّة، لم يغادر قط البلاد الداخليّة حيث لا يوجد إلا الذات، حيث لا أعداء ولا يهود غشّاشين، ولا مال ولا شذوذ ولا ألم أو كذب، مسكين عزرا باوند، عبثًا شرح آلاف الصور الكتابيّة الغامضة، والصينيّة، كان يعيش سجين ذاته، برفقة الأنصاب والتماثيل النصفيّة التي تمثّله، عاش بعد إليوت وجيمس وييتس، وجويس، وهمنغواي، ووليامز كارلوس وليامز، وكوكتو ليلقى حتفه أخيرًا في البندقيّة وهو بعمر السابعة والثمانين، في البندقيّة الرطوبة مميتة، أنا أيضًا أوشكت أن أذهب صريع الجمال المتعفّن لمدينة القضاة، ماذا يتوجَّب عليّ أن أفعل الآن، نترك أشياء كثيرة على حافة الطريق، قناعات وأصدقاء ونساء وأشياء غالية خلنا أنّنا سنحتفظ بها طيلة حياتنا، وخواتم وسلاسل ذهبيّة ووشومًا نسأم منها، وجراحًا تندمل، اعتاد فلاهو على وضعه الجديد، لم يعد يشتم القدر بل تقبّله بالرّغم من الألم الموهوم الذي ينتابه من وقت لآخر، حسبما قال لي، في البوسنة كنّا نتقدّم الهجوم الصربي الكبير لشتاء

1993، ونركض كما لم نركض في حياتنا ملتفتين من وقت لآخر كيما نطلق رصاصة أو نقذف صاروخًا، لا شيء أكثر فعاليّة من ذلك، نركض، ننظر إلى القرى تشتعل خلفنا ونقول لأنفسنا أنّنا سننحدر حتى البحر أو إلى نهر نريتفا لا محالة إذا استمرّ الأمر على هذا النحو، ثم هدأت الجبهة بسحر ساحر، وجدنا أنفسنا في الخنادق نحفر تحصينات على عجلة ونزرع ألغامًا أو نحاول الدفاع عن موقع استراتيجي، كانت طائرات الهيليكوبتر التابعة للأمم المتحدة تدور من حولنا وأغوتنا فكرة إسقاط واحدة منها لكنّ ذلك محظّر، كان باستطاعتنا فقط أن نصوّب على المصفّحات، فيسمعون في الداخل دنغ دنغ دنغ، ويشعرون أنّهم غير مرحّب بهم، وفيما بعد يعودون إلى سبليت ويقولون: لقد أطلقوا النار علينا، أطلقوا النار علينا، ما يضفي عليهم هالة من المجد والأبّهة وهم يتناولون كأسًا من الجعة، فيما كانت خصياتنا تتجلّد في الوحل، لو لم يدخل إيفان دوروا إلى مستشفى الأمراض العقليّة لتجنّد معي ربّما، كان هناك الكثير من الفرنسيّين في صفوف قوّات الدفاع الكرواتيّة حتى حُلّت، بعد الاعتداء على زغرب واغتيال كرلييفيك في البوسنة، ربّما كان ايفان سيأنف القذارة والبرد والتشوّش الإيديولوجي، لكن فيما يخصّني كان لديَّ بالرغم من كلّ شيء الانطباع بأنّني وجدت قضيّتي، كرواتيا والكرواتيّين، الله والوطن والحريّة، الحريّة الحقيقيّة، الحريّة الجميلة، هادية الشعب في لوحة دو لاكروا، تلك التي لم تظهر قط أمام الدبّابات الصربيّة، ونهداها طليقان: لم نر شيئًا من هذا أمام الدبّابات اليوغسلافيّة، لم نر إلا لاجئات معدمات مذعورات متألّمات دامعات ولم يحملن قط راية في أيديهن ولا بندقيّة، لم نرَ قط وجهًا يستدير إلى اليمين ولا جذعًا بهذه الصلابة يثير فيك الرغبة في التهامه، كلّ هذا يصلح للرسّامين والسينمائيّين، أمّا نحن فاتّخذت الأمور

لدينا منحى آخر، نحن المحاربين المساكين المرتجفين بردًا الذين يقاتلون من أجل قطعة أرض ومزرعة ووادٍ وقرية محترقة وعائلاتنا ورفاقنا الأموات وسط عاصفة عاتية، وفي مهب زوبعة من الرعب وألسنة النيران المشرّعة، من تلك الزوابع التي يثيرها هيفايستس الأعرج، وكان نهر السكاماندر يجرف جيفًا وأجسادًا مشوّهة وحطام منازل ودساكر محجّمة، ما رأيناه في سلافونيا كان يمتدّ ويتوسّع ويحدث دويًّا إلى ما لا نهاية ليصير مبارزة في الابتزازات والممارسات الفظيعة يخضع لها هذا الفريق أو ذاك، سواء كان صربيًّا أو كرواتيًّا أو مسلمًا، ووفقًا لكلّ التدابير البربريّة الممكنة، الروس واليونانيّون إلى جانب الصرب، العرب والأتراك إلى جانب المسلمين، والأوروبيّون والكاثوليك إلى جانب الكرواتيّين حماة أسوار الغرب، وكلّ هؤلاء الناس كانوا يكرهون بعضهم البعض، قال لي أندي سوف ترى، ستكره الصرب والمسلمين بين لحظة وأخرى، كنت متفاجئًا، أن أكره الصربيّين أمر مفهوم، ومع ذلك كان أندي على حق، اعتمل في صدري حقد جارف على المسلمين دسّته لي إيريس، ربّة الشقاق التي لا تكلّ، وظلّ يعتمل لوقت طويل قبل أن يهدأ- لم أذهب قطّ إلى صربيا- بالرغم من تردّدي في الذهاب إليها عندما كنت في سالونيك مدينة الغائبين، انطلقت من جديد باتّجاه الغرب، كما دائمًا، باتّجاه الغرب المضيء، إلى إيغومنيتسا، وضعت السيّارة على معديّة باتّجاه كورفو البريطانيّة، كورفو المرحلة الأخيرة قبل إيثاق، لم يخطر ببالي انّني سألتقي فيها بالآف الصربيّين، كنت أجهل بالطبع حيل أتروبوس[1] التي لا ترحم والتي جعلت مصائر كثيرة

(1) أتروبوس: الإلهة الأشرس بين إلهات البارك الثلاث اللواتي يشرفن على قدر الإنسان ويتحكّمن بمصيره من الولادة حتى الموت.

تتلاقى في هذه الجزيرة الصغيرة، مصائر يحرّكها الحقد والحرب، من الصعوبة بمكان إدراك الحقد اذا لم نعشه أو إذا نسينا حرقة العنف والغضب التي تجعلك ترفع ذراعك على العدو، على زوجته أو ابنه راغبًا في الانتقام ومتمنيًا لهم الألم والعذاب بدورهم، فتدمّر بيوتهم وتنبش قبور أمواتهم تحت القذائف، تقذف منيّك في فروج نسائهم وتغرز حرابك في أعينهم وأنت تكيل لهم الشتائم والرفسات، ذلك أنّني أنا نفسي بكيت عندما رأيت في حفرة جثّة صبيّ صغير مقطوع الرأس وهو لا يزال يشدّ إلى صدره لعبته، أو جدّة مبقورة البطن وقد غُرز صليب في أحشائها، أو رفيقًا معذّبًا مسمول العينين محمّصًا بالبنزين متقلّصًا كجرادة محروقة ومحجرا عينيه الفارغان الأبيضان يلتمعان قليلاً وسط كتلة الجثّة المحروقة، هذه الصور لا تزال تثير تأثّري وانفعالي وتجعلني أشدّ قبضتي من هول هذه الجرائم، حتى بعد مرور عشر سنوات، كصورة جثّة أندي حين لمحته راقدًا في برازه الساخن وسط المنظر الخلّاب لوادٍ بوسنيّ، ليس هنالك ما يمكن فعله، لم تفقد هذه الصورة من قوّة تأثيرها عليّ، كيف السبيل إلى التبرّؤ، كيف، أين أتخلى عنها ولمن أعهد بها، لا ينوء فلاهو المشوّه تحت هذا الحمل، إنّه مبتهج في السلم ومرح وهادىء، ترك حمله في البوسنة، إبّان هجوم مضادٍ عبثي أردنا الخروج من خنادقنا الموحلة، انحدرنا التلّة مثل شياطين ماكرة، وبدأت قذائف الهاون تتساقط فوقنا، أنزلت خوذتي إلى مستوى عينيَّ، كان فلاهو إلى يميني بالضبط وأندي الغضوب أمامي ينحدر مستقيمًا، أندي صاحب القدمين السريعتين، صرخت لكي أبعث في نفسي الشجاعة، كان علينا بلوغ حدود الغابة والصمود في وجه القذائف التي اقتلعت أمواجًا من التراب اللدن المعشوشب الممزوج بالمعدن، أخذت أذناي تصفران وانقطعت أنفاسي، ركضت دون أن

يتسنى لي الوقت لكي أتنفّس وكأنّ رئتي توقّفتا، محرّكًا فقط بالأدرينالين كما تحرّك البطاريّة رجلاً آليًا، بلغ أندريا الأشجار الأولى واختفى خلفها، وكنت على وشك موافاته، كنت سأوافيه تقريبًا عندما قذفني انفجار رهيب فاصطدمت بجدار هواء ساخن، أنفاس طالعة من جوف تنين، تلقّيت ضربة قاصمة في خوذتي التي قرعت مثل جرس، شعرت بالدوار وسقطت أرضًا، لم أشعر بالألم، ران صمت مطبق لم أسمع فيه إلا تنفّسي، وجهي ملطّخ بالتراب، جلست متربّعًا وسط الطنين، رأيت فلاهو على بعد خطوات ممدّدًا على بطنه، أيقظني من سهوي انفجار آخر، وسمعت من جديد، سمعت من جديد انفجار قذائف ورشقات الرّصاص، نهضت وسارعت منحنيًا حتى نصفي إلى فلاهو، اصطدمت قدمي بشكل لا إرادي بساعد يتصاعد منها الدخان، يد مقطوعة، لمحتها بطريقة آليّة، وأنا لا أزال تحت الصدمة، اقتربت من الدلماتي الممدّد أرضًا وكوعه مقطوع بشظيّة هائلة، ناديته ***Vlaho kako si kako si vlaho*** لا جواب، عيناه مغمضتان، قلبه يخفق بسرعة فائقة، بسرعة فائقة وكانت خفقاته ضعيفة في آن، أمسك الذراع النازفة لأكبح النزيف بين أصابعي، وصل رفيقان آخران إلى نجدتنا، وضعا مضغطة مرتجلة لوقف النزيف وجرّاه إلى تحت الأشجار، كان ينزف أيضًا من جانبه، الشظيّة حرقت السترة العسكريّة وفتحت جرحًا أسود في أسفل الضلوع، انتبهت إلى أنّني لا أزال أمسك بذراع فلاهو المقطوعة، أفلتها، وتولاني غثيان مفاجىء، وصل أندي برفقة ممرّض، نظرت إلى اليد الشاحبة المتشنّجة أرضًا، اليد الصديقة بعظمها الورديّ، اليد اليمنى، اليمنى أم اليسرى، ولم أعد أعرف، جلست أرضًا لا بل تداعيت أرضًا وأغمي عليّ وراحة فلاهو لصق جبيني وكأنّها تجفّف لمرّة أخيرة عرقي، عندما عدت إلى رشدي، كان أندي بجانبي، شاحبًا هو أيضًا،

قلت له ويده يده أرجع له يده وكأنّها لا تزال إلى جانبي، نظر إليَّ أندي متعجّبًا، يده، لم تعد هنا، سمعت صوت الرشقات أمامي، يجب الذهاب، حاربنا طيلة النهار ونحن نعتقد أنّ فلاهو مات، كنّا مذهولين مأخوذين بالقتال بحيث غفلنا عن التفكير، قال لي أندي أنّ الممرّضين دثّروا فلاهو بغطاء ويده بكيس من البلاستيك، ونقلوا كلّ شيء إلى مركز للإغاثة، أو ربّما إلى هاديس ملتهم المحاربين، فهنا ماشاوون تنقصه الوسائل اذ كان من المستحيل تقريبًا إجلاء الجرحى، شعرتني مفرغًا، خاويًا ومفرغًا وتعبًا وحزينًا، لا وقت للصراخ، ولا للانتقام ولا للنحيب ولا للدموع في تلك اللحظة، فقط البندقيّة التي تزن أثقل مما هي عادةً، كان فلاهو يهوى كثيرًا أن يلامس الفتيات بيديه الاثنتين، حاضنًا كلّ ردف بيد، كنت آمل خفية بقدرة الأطباء على رأب يده التي بترت تمامًا بالمعدن، لا بدّ أنّ رأبها سيكون سهلاً، يضعون جصًّا جيّدًا ويقطّبونها كما يجب ونراه غدًا أو بعد غد مليئًا بالحيويّة وشبقًا كالعادة، كان فلاهو في العشرين من عمره، وفي العشرين يحتاج إلى حياته وذراعيه الاثنتين لكي يقود بأقصى سرعته ولو بشكل سيّء، ويقلّم كرومه، لحسن الحظ كان هجومنا المضاد وجيزًا، دحرنا الصرب وصعدنا التلّة من جديد متكبّدين الخسارة على نحو نموذجي وتمركزنا على إحدى تلال القرى المدمّرة، كانت فرقتنا في مؤخّرة المقاتلين، ما أن تمركزنا حتى تركنا رفاقنا وذهبنا نسأل عن أخبار فلاهو، فعرفنا أنّه تجاوز مرحلة الخطر، ما حمل إلينا العزاء، وقال لنا طبيب متعجرف إنّه تمَّ إجلاؤه، وحينئذٍ سأله أندي بصوت طفل ساذج متحرّق لمعرفة الجواب، السؤال الذي كدت أنطق به، و. ساعده، هل رأبوا له ساعده؟ فأجاب الطبيب قبل أن ينفجر ضاحكًا ***Moraće se naučiti tući lijevom*** عليه أن يتعلّم الاستمناء باليد اليسرى،

بقينا مدهوشين منذهلين إزاء الطب الجبّار الذي بدّد آمالنا وقذف بها إلى سلّة المهملات حيث يرقد ساعد فلاهو، وأصابعه، أصابع السائق والهدّاف ومعالج الحراب ومداعب النساء ستتحلّل قبله، غريب التفكير بهذا، كأسنان الحليب المخبّأة في مكان ما في أحد الأدراج مع حلى جدّته، ذراعه غرست في أرض البوسنة شجرة دون ثمار، هل يجب أن توضع فوقها لوحة ضريحيّة، ها هنا ترقد ذراع فلاهو لوزوفيتش، ساعده اليمنى، وباقي جسده سيرقد في مكان آخر، كما كان المتاجرون بالذخائر القروسطيّون ينشرون الجثث في كلّ مكان من بيزنطية إلى برشلونة، عظام وفيرة، لجميع الكنائس والأديرة المسيحيّة، ظنبوب[1] هنا، وعظم فخذ هناك، عظيمات للفقراء وجماجم للأغنياء، وفلذة من جسد قدّيس غير موجود أصلاً للفلاحين الورعين الخائفين من عذاب الجحيم، يخرجون قطعة من الميت للاحتفالات، يجولون بالعظمة في مذخرها المذهّب من مكان لآخر، لكي تبعد الطاعون والجدري والحروب والكوارث، وكلّ ذلك يعتمد على تجوال قطعة من جثّة، الرأس الجبّار للقدّيس متى أو لوقا أو يوحنا المعمدان، كان علينا الاحتفاظ بذراع فلاهو لوزوفيتش المجهول، فلاهو المبتسم، فلاهو الذي تقبّل قدره، ومعها آثام الحرب والانتقام، ولم يسجن نفسه في حلقة الانتقام، كان لا يزال في مستشفى موستار عندما أعلمته بموت أندي، غمرت الدموع فجأة وجهه المستدير، أوشكت أن أقول له لا تقلق، انتقمت له، لكنّه لم يكن ليفهمني، ولم يكن هذا ليعزّيه، فهو الحليم كان حزينًا، حزينًا إلى حدّ لا يُقاس لرحيل صديقه، دون حقد، دون غضب، ضممته بين ذراعيّ، سنلتقي عمّا قريب، كنت أكذب، البارحة ذهبت إلى المركز

(1) ظنبوب: عظم الساق الأكبر.

العام في مجلس الدفاع الكرواتي في فيتاز لأعلمهم بانسحابي، وبأنّ الكيل طفح بي، وهنا أمام فلاهو، ونصب عينيه الملتمعتين بالدموع، لم أملك الشجاعة لأقول له ذلك، إلا أنّه بعد يومين أو ثلاثة عاد إلى دياره في سبليت، كان بإمكاني انتظاره، لكن القوّة فارقتني، أودعت طاقتي في الانتقام، في الغضب والاجتياز الخطر لخطوط المحاربين المسلمين من خلال الطريق الوحيدة (أو بالأحرى الممرّ الوحيد) التي كنا لا نزال نسيطر عليها، أنهكت هذه الحرب العبثيّة قواي حيث كان المتحالفون ضد الصرب يقتتلون فيما بينهم على مسافة خمسين كيلومترًا من الشرق، حوصرت مراكزنا من كلّ جانب، وأندي دون ضريح، جثّته وضعت في شاحنة للموتى حتّى تتمّ مقايضتها لاحقًا، لم أعد أحتمل، لم أعد أحتمل، كان هناك ميليشياويّون وقطّاع طرق متنكّرون في ثياب جنود، شعرتني خاويًا، لا أصدقاء لي، لم يعد لديَّ شيء أكترث به ولا رغبة أسعى وراءها، كانت راسخة في رأسي صورة أندي ممدّدًا، بنطاله منحسر حتى ركبته، وكذلك صورة ذراع فلاهو الحيّة- الميتة في العشب، خلتني أراها تحفر الأرض مثل سلطعون وتسعى للاختباء، ودّعت فلاهو ومددت يدي لأصافحه ناحية اليد المبتورة على سبيل العادة فأمسكني فلاهو الحليم بأصابع يده اليسرى، وابتسم لي ابتسامة أخيرة ورحلت إلى الشمال، ربّما كان بإمكاني أنا أيضًا أن أقطع يدي المجرمة، لو حصل ذلك لما كنت ربّما في هذا القطار بعد عشر سنوات، في طريقي إلى روما الكاثوليكيّة، مخزن العظام الكبير، لم أستطع أن أقبّل يد ماريان الممدودة ولا يد ستيفاني، لم تقترح ساشكا عليَّ شيئًا، وهي الضائعة بين ألوانها ووجوه القدّيسين المكلّلين بالنور الذين ترسمهم طيلة النهار، ما أنا عليه لا يهمّها، ماضيّ لا تحفل به، حياتي لا تأبه لها فهي تسكن صورها، صور المسيح المتجلّي،

وصور العذراء المصلّية والقديس جرجس والقدّيس مخائيل رئيس الملائكة والقدّيسين قزما ودميان، هذه الصور التي تبيعها بثمن مرتفع جدًّا للمؤمنين الورعين الذين يجهلون أنّ النساء لا يمكنهنّ أن يرسمن الأيقونات فالملاك المتحشّم لا يهمس لهنّ بالإلهام السماوي، لم يكن يجمعنا أنا وساشكا أيّ شيء مشترك، لا لغة ولا شغف ولا تاريخ، إنّها بعيدة جدًّا، لن أسارع للذّهاب إليها في نهاية المطاف، سأنتظر، وأنتظر وأرى، ربّما نجحت في الانفصال، في الانفصال عن الحقيبة، عن ذراع فلاهو وجثّة أندي، وساشكا، وكلّ الباقي، في البندقيّة خلتني توصّلت لذلك، في البندقيّة ملكة الضباب، كل شيء أوشك أن ينتهي في إحدى القنوات، كما أوشك ليون سالتييل اليهودي في سالونيك أن يشنق نفسه أو يرمي بها من النافذة إلى أن وجد السلام أخيرًا في الانتقام، وكما وضع غلوبوتسنيك الجلّاد حدًّا لحياته فمضغ حبّة من الزرنيخ عندما قبض عليه الحلفاء، أو رودولف هس الذي لم يكن يموت إلى أن نجح في شنق نفسه بواسطة كابل كهربائي، أو مثلما ارتمى مانوس هادجيفاسيليس على الأسلاك الشائكة المكهربة في ماوتهاوزن، وكما فجّر الإسلاميّون أنفسهم في أورشليم ورأوا المدينة من علٍ وأجفانهم تومض وسط السماء، لكنّ أحدًا ما انتشلني وكتبت لي حياة جديدة أضعتها في المنطقة، والآن الثالثة ثابتة كما يُقال، ما الذي ينتظرني قبل نهاية العالم، ما الذي ينتظرني، يد الصديق بترت في البوسنة، وإيفان دوروا المجنون بعيد منذ سنوات، وساشكا التي لا تُطال تسكن عالم الصور المذهّب، ووالدي لم يخرج قط عن صمته- أتخيّله وحيدًا برفقة صراخ أشباحه بالذات، هو ابن المقاوم كان يعذّب الجزائريّين بطريقة لا تقلّ حميّة عن تعذيب الغستابو لأبيه، تعلّم بشكل كامل درس التعذيب من خلال التغريق في الماء والتعذيب بالدولاب،

لأجل خير الجماعة، إذا لم يتكلّم هؤلاء الجزائريّون الأوغاد انفجرت قنابل ومات فرنسيّون، ليمت هؤلاء الجزائريّون، كم قُتل منهم، خمسمائة ألف، مليون، لن نعرف أبدًا عدد الذين سقطوا في المعارك، وماتوا تحت التعذيب وماتوا في السجون، وقضوا برصاصة في رأسهم، ولقوا مصرعهم بين أسلاك معسكرات الحشد الشائكة، الحقيبة ملأى بهم، ملأى بالأسماء والشهادات والتقارير السريّة والمذكّرات الصادرة عن الجنرالات النادمين منهم والفخورين بما فعلوه وصوّروه، مئات من الصور، تُرى ما الذي يدفع كلّ هؤلاء الجنود إلى توثيق الرعب، لماذا كانت مراكز الاستقصاء التابعة للسلطة العسكريّة تحمّل نفسها عناء تصوير جزائريّين مصعوقين بالكهرباء، جزائريّين نصف غرقى، جزائريّين موسعين ضربًا، ربّما فعلوا ذلك لتحسين تقنياتهم، أو لإعلام المسؤولين الباريسيّين القلقين بنشاطاتهم، كما ترون، هنا البطالة ممنوعة، يجب العمل والكدح والنشاط، هل كانوا يستشفّون الكارثة، نفي منهم مليون نسمة أُعيدوا إلى أوطانهم عام 1962، مليون لاجيء من الفرنسيّين والإسبان والإيطاليّين واليهود والغجر والمالطيّين والألمان اجتازوا المتوسّط لكي يتبعثروا من أليكانت إلى باسيتا، إنّه أكبر نزوح يجري مذ طُرد المغاربة من أربعمائة سنة، أفرغت عنّابه ووهران من نصف ساكنيهما، والجزائر من ثلثهم، الهجر والأسى والتنكيل وذكرى الموتى، كل ذلك أغرق بلدًا في الجحيم، وتحوّل كوادر الجبهة الوطنية للتحرير بدورهم إلى جلّادين ومعذّبين ماهرين، ضائعين في **المنطقة** التي كنت أحصي فيها الضربات وجرائم الذبح وقطع الرؤوس والمجازر والقنابل، يهدهدني وقع الأسماء الإكزوتيكي لأعضاء الجماعة الإسلاميّة المسلّحة والجيش الإسلامي للإنقاذ، إنّه الجيل الصاعد في مواجهة قدامى حرب

الاستقلال الذين حارب بعضهم في فيالق القوم على المنحدرات الإيطاليّة، العالم يدور، وها إنّ أحفاد أحفاد أحفاد مهاجري مينوركا الذين أرسلوا ليستعمروا الجزائر عام 1830 عادوا إلى كويتاديللا مدينة الأحصنة والقدّيس يوحنا الإنجيلي بعد مئة وثلاثين سنة لاحقًا بعد أن طردهم المحاربون الشجعان في جبهة التحرير الوطنيّة والجلادون الفرنسيّون، جمعٌ من الجلّادين يتسبّبون بكتل سوداء من الضحايا، كلّ هذه الدوائر المرسومة على درع مذهّب، الأمهات هنّ اللواتي يزوّدن الأسلحة، تيتيس المُحبّة تؤاسي ابنها أخيل وهي تمدّه بالوسائل لينتقم ترسًا وسيفًا ودرعًا مُبهرًا حيث العالم كلّه ينعكس، كما منحتني ماريا ميركوفيتش منجبتي الوطن والتاريخ والوراثة وماكس لوبورتيش وميلان أستراي الصقر الأعور، لا تبكِ يا أخيل، جفّف دموعك واذهب للانتقام، تصالح مع أغاممنون الأتريديّ النادم واصرع هكتور بغضبك، الانتقام، الانتقام، أشعر بالانتقام يزأر في هذا القطار الذي ينحدر التلال مسرعًا، جارتي البريئة لا تزال عيناها متشبّثتين بكتابها، تجهل من يجلس قبالتها، لا تستطيع أن تتخيّل أنّ قدرها التقى بقدري، وأنَّ اللآلىء البيضاء في عقدها ستصبح لاحقًا في حوزتي، وحقيبتها، وكنزتها الصوف، وسأرقص على جثّتها في ضوء القمر التوسكاني والبرونز اللامع في يدي، مستعدًّا لتدمير روما بجدرانها الواسعة، روما التي أحتلّها الحلفاء المنتصرون، روما المنهوبة والمحروقة على يد جنود شارلكان الهابسبورغي ابن خوانا المجنونة، روما التي فتحها النورمانديّون المقدامون وقسموها إلى قسمين، والقوط الغربيون المتوحّشون، والغاليّون ذوو الرماح القصيرة، روما ابنة إيناس ذي الرمح السريع، روما ابنة إيليون المدمرّة، الانتقام الانتقام، الانتقام لباتروكل ابن مينيتيوس، لانتيلوك ابن نستور، الانتقام والتدمير وإهراق الخمر

وإشعال المحارق لكيما يتصاعد منها الدخان اكرامًا لأندريا السلافوني متوسّلًا إليَّ في الحلم لكي أعثر على جثّته وأحرقها، الانتقام للذراع المفقودة، ذراع فلاهو الحليم التي تخصب الأرض، الانتقام للجميع، إنّه السيف الذي حمّاه الدم الخاثر، لقد دنت الساعة وأشعر بالقطار يهتزّ، أكاد أصل، أكاد أصل تقريبًا إلى آخر الرحلة، وسط هذا المنظر الأسود أعين الهياكل العظميّة تدور وتطقطق، هي الشرارات الملوّنة للعالم الداخلي، هدّىء من روعك يا فرنسيس، حاول أن تشهق بانتظام تاركًا للأفكار التي تقودك إلى الانتقام بأن تعوم ببطء، اترك رسول النوم يحضن كلّ نبوءاته، في القرون الوسطى كانوا يخافون النوم لئلا تأتي السقوبات[1] اللواتي يمنحن اللذّة، لذة خفيّة ومشبوهة، كان الرجال المربوعو القامة والمرتعبون من العالم يستيقظون متعرّقين وبهم انتصاب لعين لا يعرفون كيف يخفونه عن نسائهم المذعورات، أراهن أنّ الملكة ماب[2] ستزورك، ماب الرسولة مع موكبها من الحباحب السحريّة التي لا يزيد حجمها عن حجم حجر عتيق، تُرى ماذا ستقول لي الجنيّة الصغيرة لممالك الليل، لا شيء، البارحة مساء، كنت متعتعًا من السكر مستسلمًا للمداعبات الجافّة في مقصورة الناطور الغارقة في الظلام، ملتصقًا بجسد المرأة العجوز البشعة ذات اللسان المر، بعد أن قذفت دون لذّة وشعرت بالعار، عدت إلى منزلي مذهولاً تمامًا وحزينًا ثم تلاشيت على سريري دون شراشف في الشقّة الفارغة، آخر ليلة باريسيّة، أعادتني الملكة ماب إلى ساشكا، إلى الستوديو الصغير الذي

---

(1) السقوبات م. سقوبة وهي شيطانة يُزعم أنّها تُضاجع الرجال في نومهم.

(2) الملكة ماب: جنيّة تهبط على يانث العذراء من السماء وهي نائمة وتصعد بها إلى النجوم ثم تطلب منها أن تتأمّل من هذا المنظور ماضي الأرض وحاضرها ومستقبلها.

تملكه، في ترانستيفير، إلى يديها الشاحبتين الملطّختين بالطلاء المذهّب، وهي منصرفة إلى رسم صورة ورعة للقديسين سيفير وسفيران وفيكتوران وكاربوفور، السمر البهيّي الطلعة، قالت لي إنّهم كانوا نحّاتين ماهرين أراد الامبراطور ديوقليتيانس استخدامهم في قصره في سبليت لكي ينحتوا له نصبًا وثنيًّا يمثّل جوبيتر المتصلّب أو فينوس الغاوية، عاهد الفنانون الأربعة المسيح على إيمانهم ورفضوا أن ينحتوا للقيصر الوثني، الأمر الذي أغضبه كثيرًا فحكم عليهم بأن يجلدوا حتى الموت، وانقضّ الجلّاد على أجسادهم بالسوط لأيّام طوال، دون نتيجة تذكر، فالرجال الأربعة صمدوا أمام ضربات السياط على جلودهم وكرات المعدن، كانت آثارها تُمحى بقدر ما يخضعون للتعذيب، لم تؤثّر المعجزة البتّة بديوقليتيانس ولم ينفعل بل سجنهم في أربعة نعوش من الرصاص رُميت في البحر الأدرياتيكي حيث لا تزال راقدة بين قناديل البحر المزرقّة وحطام السفن الشراعيّة الفينيسيّة، بُعث النحّاتون الأتقياء تحت ريشة ساشكا راسمة الأيقونات، أمامها كتاب مرفق بصور تستلهم منه ولوحة من خشب الزيزفون منحوتة بالمحفر ومطليّة بالغراء الأبيض، وهالات القدّيسين الأربعة مزيّنة بورق الذهب، الفرشاة الصغيرة من وبر السمّور ملأت بها خلفية اللوحة باللون الأمغر البنيّ ثم الملابس بالبياض الفضي والأحمر القرمزي وأزرق الكوبلت، وراحت الصورة السحريّة تتشكّل ببطء ودقّة، إنّه لأمر رائع، رائع مراقبة ساشكا وهي تعمل بين العذراء وابنها والقدّيسين يوحنا فم الذهب وسمعان العمودي المدوّخ والتنانين الحمر وديمتري السالونيكي المخترق بالحراب وثيودور إمبراطور بيزنطية، ويوحنا السلّمي[1] في أعلى

---

(1) يوحنا السلّمي أو السينائي أو العلّامة لثقافته الواسعة. ولد في فلسطين عام 525. وقد دعي بالسلّمي نسبة إلى كتابه سلّم السماء أو درجات الفضائل.

سلّمه، ويعقوب المقطّع إلى أجزاء، إنّه حشد من الشهداء والألوان والوجوه المتشابهة، وهكذا استعاد النحّاتون الأربعة الدلماتيّون الصغار حياة مذهبّة في ظلّ استشهادهم البديع، قبل أن يوافوا المنبسط البحريّ، لم تكن ساشكا الهادئة تنفعل حيال كلّ هؤلاء القتلى، كانت في حماية لوقا الإنجيلي، شفيع الرسّامين والأطبّاء، كان مرآها عذبًا جدًّا وهي ترسم يحدوها جدّ لا متناه، عندما التقيت بها، في الليل، خلتها الملاك نفسه ظهر لي تحيط به هالته الذهبيّة، في ليل روما المشبوه، عند رصيف أحد المقاهي فيما كنت راجعًا من زيارة طويلة للقنصليّة البابويّة، في كامبو دو فيوري، بالقرب منّي أضاءت ساشكا الساحة وجميع الذين كانوا في البار اتّجهوا بأنظارهم نحوها، في هذا المقهى، يقدّمون لك الفستق مع المقبّلات كاملاً في قشرته الليفيّة، راح جميع الزبائن، أشبه بقرود في حديقة الحيوانات، يرمون قشور الفستق التي لا تؤكل بتشنّج على الأرض، اكتسى الرصيف ببقايا القشور التي تحدث صريرًا تحت الأقدام، جلست قبالة تمثال جيوردانو برونو(1)، ورحت أتخيّل ما حدث في شباط 1600، جاء الفاسقون القذرون في الضواحي ليتحقّقوا ما إذا كان الكافر الذي ترك نهبًا لألسنة النار سيصرخ بالرغم من الكمامة على فمه، جميعهم هرعوا لسماع فرقعة اللحم وإنعاش مناخيرهم بالدخان المتصاعد من اللحم البشري، أحرق جيوردانو في المكان نفسه الذي يزدرد فيه السيّاح الفستق، كان برونو سيّافًا وساحرًا واختصاصيًا في علم

---

(1) جيوردانو برونو (1548- 1600)، فيلسوف إيطالي حكم عليه بالموت بتهمة الهرطقة، درس علم الكون الفيزيائي معتبرًا أنّ الكون لا نهائي وأنّ الأرض ليست مركز الكون. أنكر إذًا قبل غاليليه المعتقد الدينيّ القائل بمركزية الأرض فاعتبر اكتشافه هرطقة واستحقّ عليها الحكم بالإعدام حرقًا.

الكونيّات ومؤمنًا بالإخفائيّة وشاعرًا وأيضًا رحالة كبيرًا زار نصف أوروبا قبل أن يخونه البنادقة ويسلّموه للسلطة البابويّة، هذه السلطة نفسها التي عبّرت عن أسفها مؤخّرًا لحرقه قالت: نحن اليوم نأسف لتعذيب فيلسوف أوثق عاريًا إلى عمود معدني فوق محرقة من الأحطاب المجموعة على قاعدة مستديرة، جيوردانو برونو الميت بسبب حماقة بابويّة قبالة الحانة حيث كنت أقشّر الفستق ولا أستطيع إشاحة بصري عن المرأة الشابة الفائقة الجمال المتوهّجة الحضور الجالسة أمام الطاولة المجاورة، برفقة رجل كان يلتهمها بنظراته ولا يبدو عليها أنّها تدرك مدى اشتهائه لها ولا مدى اكتراثه بها، أو أنّها تحفل بجسد برونو المتفحّم، كانت عيناها من الصفاء بحيث أنّ الشيطان لا ينعكس فيهما، كانتا صافيتين جدًّا، سمعتها تلثغ بحرف الراء لثغة محبّبة إلى الأذن، تتكلّم الإيطاليّة ببطء، وأناقة بنبرة خفيفة، كنت أكيدًا أنّها سلافيّة، وودت من كلّ قلبي أن تكون كراوتيّة أو سلوفينيّة أو حتى صربيّة لأنّه يمكنني والحالة هذه أن تكون لي سطوة عليها من خلال اللغة - بالطبع كان يجب أن تكون روسيّة، روسيا أمّ الأرثوذكسية والدبّابات وبنادق الهجوم، هذا كلّ ما أعرفه عنها، بإمكاني أن أخبرها بالتفاصيل عن النماذج التي تعمل روسيا العظمى وفقها في المنطقة والتغيّرات التي عمدت إليها والمعايير المتّخذة والنشاطات السريّة التي تقوم بها، وأحدّثها طويلاً عن علاقات الروس الملتبسة ببعض الدول العربيّة وأكلّمها عن انحناءة ماسورة الملقّم في الكلاشينكوف وهذه فلتة شوط عبقريّة، لكنّنا لم نتحدث عن هذا، تحدّثنا عن أورشليم العذبة وعن حملاتي الاستكشافيّة كعالم حشرات في الصحراء الليبيّة أو شمال المغرب، بسرعة ودون أن أسهب، ساشكا ليست فضوليّة، تعيش في عالم الصور، ولا تنتظر شيئًا ولا أحدًا، وخاصة لا

تنتظر كلمات - سألتها لماذا غادرت سان بطرسبرغ فقالت لي إنّها لم تترك سان بطرسبرغ بل تركت لينينغراد لأنّ لينينغراد اختفت، وإنّها وصلت إلى أورشليم بالصدفة، برفقة احتياطيّ من اليهود المزيّفين الذين يفتّشون عن أرض تستقبلهم، لم تكن لديها أيّة خلفيّة إيديولوجيّة، لم يكن لديها أيّ حنين، وتقول الوقائع ببساطة، وحين سألتها إذا كانت راغبة في العودة إلى روسيا، أجابتني ببساطة أنّ روسيا التي تعرفها لم تعد موجودة، وأنّ المدينة التي أمضت فيها طفولتها اختفت، وأنّ الناس والشوارع تغيّرت كلّها ثم أضافت على الفور أنّ ما حصل في روسيا جيّد، ما قد يُسمّى لدى الآخرين اللامبالاة المطلقة يرتدي لديها طابع التخلّي والهروب للعيش في مكان آخر، حياتها في حركاتها، حركات ريشتها، في معصمها، في عينيها المستغرقتين في قدّيس تريد أن ترسم صورته، في وجه تريد قولبته، أو مشلح ثوب، ولم تكن تدّعي بأنها تخلق أو تخترع رسومًا جديدة، لا، بل تكرّر إلى ما لا نهاية ما خلّفه لها التراث الفنّي، وتشعر بالرضى والبهجة لكونها قادرة على كسب رزقها من هذا العمل الخاصّ، وفي نظري كانت تعيش على نحو مماثل، ساشكا البعيدة، إذا كنت معها فنِعْمَ النصيب وإن لم أكن فبئس المصير، هي لا تسعى لأن تنعتني بأيّ شيء، هل كانت تراني، فقط ترى ما أدلّها عليه، أي لا شيء أو قليلاً، شعرتني أعزل إزاء بساطتها والوضعيّات التي تتّخذها الشبيهة بالتماثيل، كيف بإمكانها أن تعرف إذا كنت لا أخبرها، فهي لا تملك الأمومة الكليّة لماريان السخيّة ولا الفضول النهم لستيفاني الحازمة، ساشكا مرآة أختبيء منها ووجهي محجوب كي لا أنعكس في وجوه الجلّادين القاسية الذين يرمون القدّيسين في المياه الغالية ويجلدونهم حتى الموت، ثم يغرقونهم في البحر الأدرياتيكي على غرار القدّيسين الأربعة المكلّلين بالنور في

سبليت - في عام 1915، رُميت مئات الجثث في أعماق البحر دون نعوش من الصربيّين الشجعان جنوب كورفو وهي آخر محطّة قبل إيثاق، كان البريطانيّون يرغبون في احتلال الجزر لا سيّما في البحر المتوسّط، مينوركا ومالطة وكورفو وقبرص وقعت تحت سيطرتهم، وكانت سفنهم ذات الجوانب المنتفخة سيّدة البحر الأبيض، عندما اقتربت من كورفو آتيًا من إيغومينيتسا بعد أن اجتزت إيبير بمنحدراتها القاسية، كان البريطانيّون يشربون كؤوس البيرة العملاقة في ظلّ المظلات المزدانة بالإعلانات على شواطىء فياسي، اللعنة على نوزيكا[1] التي تغسل ثيابها على الضفّة، كان في انتظاري شرطيّ يوناني عريض الشاربين، أمرني بأن أقود سيّارتي بأقصى سرعة وهو ينهال بضربات قويّة من هراوته على سطح السيّارة المنهكة **Quickly car quickly** وكأنّه يضرب بالسوط على ظهر حصان، وعلى الرغم من البريطانيّين المتورّدي البشرة والفرنسيّين المدعّين والألمانيّين المرتابين والإيطاليّين الصاخبين، كانت الجزيرة جميلة، والمدينة الضيّقة تشبه البندقيّة أكثر منها أثينا، الحمد لله، مع أنّني كنت تعبًا من العطلة وأهجس في نومي برؤوس الرهبان المقطوعة والإنجيليّين الرؤيويّين، كانت كورفو المنحصرة بين القلاع المهيبة الفينيسيّة مصدر راحة، وكان التجوال فيها متعة وكذلك احتساء الشراب وتأمّل البحر يلحس بمياهه جراح الأسوار، حاول العثمانيّون احتلال الجزيرة عدّة مرّات ولم يفلحوا، فياسي، آخر أسوار الغرب صمدت وكانت الكتابات الجدارية تذكّر بحصار 1716، عندما أعلن الأتراك ظهورهم للمرّة الأخيرة في بالايو فروريو، وكما حدث في مالطة من قبل، صمد المدافعون

(1) نوزيكا، ابنة أكينوس ملك فياسي، هي التي استضافت أوليس في ملحمة الأوديسة وحمته بعد نجاته من غرق محتّم.

ذوو واقيات الصدر اللمّاعة عن المدينة في وجه المدافع ومحاولات التقويض والهجومات المتتالية التي قام بها الشرقيّون المتوحّشون، وضمّت صفوف القراصنة حشدًا من الكرواتيّين والدلماتيّين الذين دافعوا عن الحاضرة، أتخيّل أحد أجدادي وقد رمته في البحر قذيفة بعد أن تضرّع لله بأن يكون ماهرًا في القتال ويرسل الكثير من جنود الإنكشاريّة إلى هاديس: أوشك الأتراك أن يبنوا مسجدًا في كورفو، كما فعلوا في رودس وبلغراد وموستار، لكنّ آريس لم يشأ ذلك، المسجد هو المبنى الوحيد الذي تفتقر إليه المدينة القديمة، ما من طرواديين عند الأبواب البرونزية، في قصر ألسينوس الرمادي، عندما كنت أتجوّل صدفة في الشوارع الملوّنة وقعت عيناي على مبنى مزيّن بلافتة كُتب عليها: ***Srpska Kuca*** البيت الصربي، متحف مكرّس لذكرى انسحاب جيش بطرس الأول عام 1915، لقد مرّ الجنود الذين دفنوا في المقبرة الجماعيّة في سالونيك بكورفو، ومن ثم أرسلوا إلى جبهة البلقان عبر البحر، كذلك انتهى الفرنسيّون والبريطانيّون الناجون من معركة الدردنيل في قبر في تساليا، الناجون البواسل من الانسحاب العسكري الأفظع منذ عبور نهر بيريزينا[1]، سقطوا لاحقًا في وجه البلغار، كانت زيارة المتحف مؤثّرة، عشرات من الصور عن تلك الحقبة تروي الفرار الجريء للجيش الصربي الذي هزمه القيصر وحليفه النمساوي، عبر جبال مونتنيغرو حتى الساحل الألباني حيث أبحر بهم الفرنسيّون، كان انسحابًا مع

---

(1) نهر بيريزينا: بيريزينا رافد من نهر دنيبر في بيلاروسيا اجتازته الجيوش النابوليونيّة، وكان اجتيازًا شاقًّا جدًّا إلى حدّ أنّه لغاية اليوم حين يجرى الكلام عن كارثة، يذكر الانسحاب المرعب لجيوش نابوليون الذين هزمهم الشتاء الروسي عبر البيريزينا.

النساء والأطفال مشيًا على الأقدام في الثلج، شوهدت صفوف طويلة من الناس الذين لا يملكون طعامًا تقريبًا وتوجّب عليهم اجتياز أربعمائة كيلومتر في برد الشتاء القارس حاملين ملكهم على كرسي من القش، كان بلدٌ بأكمله متّجهًا إلى البحر، مئة وخمسون ألفًا ماتوا في جبال كوسوفو وعند مشارف بودغوريكا، ضحايا البرد والجوع والرصاص الألماني، ولدى وصولهم ماتوا أيضًا من سوء التغذية والإرهاق والإقامة في معسكرات مرتجلة على جزيرة فيبو الصغيرة المكسوّة بالغابات أمام منفذ المرفأ، دون خيم، دون عناية طبيّة تقريبًا، لم يكن هناك ما يمكن فعله لدفع خطر الموت عنهم، سقطوا كالذباب بنسبة 300 نسمة كلّ يوم، أصيب الفرنسيّون والبريطانيّون بالذهول أمام هؤلاء الذين نجوا من أفظع رحلة ليموتوا بالآلاف لدى وصولهم إلى الوجهة المحدّدة، لم تكن تساندهم أرض الوطن، كانوا على أرض غريبة فوق جزيرة على البحر الأيوني، ولم يكن هناك من مكان لدفن هؤلاء الناس، الآلاف من الناس، عندئذٍ، أخذت السفينة - المستشفى *François d'Assise* للإحسان، تنقل طنابر من الجثث لترميها على مسافة بضعة أميال في البحر، هؤلاء الصربيّون من بلغراد الذين لم يروا بحرًا من قبل إلا نهر الدانوب، يرقدون اليوم مدفونين في غمار اليمّ، في أحشاء آلاف الأسماك والطحالب البحريّة، في القبر الأزرق الهائل، حيث تنزل تيتيس لتبعث من جديد ذكراهم وذكرى أولادهم الذين قضوا معهم- أمّا الناجون الذين عادوا وانخرطوا في الأعمال القتاليّة بعد أن أعاد الحلفاء تنظيمهم بعناية، أبحروا في المراكب من الجهة الأخرى للبلقان حيث واصلوا القتال ببسالة، وهكذا فإنّ بطرس الأوّل الشجاع، رغم تجاوزه سنّ السبعين، استطاع الاستمرار رغم الإهانة والمرض والهزيمة والمنفى في كورفو، وأن يتوّج ملكًا على

الصربيّين والكرواتيّين والسلوفينيّين، إنّه ملكي أيضًا، كنت أنظر إليه، عجوزًا ومريضًا، محمّلاً على أكتاف جنوده في الثلج، محاطًا بكاهن أورثوذكسي وطبيب في حال استدعى الأمر ذلك، كنت فخورًا بأن يكون ملكي بمعنى ما، الوحيد على أيّة حال، ابنه ألكسندر سوف يُغتال في مرسيليا على مرأى من جدي على يد القتلة المأجورين التابعين لبافيليتش الغيور على وطنه، في نهاية الحرب حفلت كورفو بالمقابر الصربيّة المتفرّقة، غدت الجزيرة كلّها قبرًا، أعار اليونانيّون الكرام أرضهم للموتى ومسرحهم للبرلمان، هؤلاء اليونانيّون سيذهبون بدورهم ليقاتلوا في ضواحي سارايفو المحروسة وجرى تبادل المقابر، هنا المقابر الصربيّة الجماعيّة، وهناك الأضرحة الهيلينيّة اكتملت الدائرة الكبيرة التي تحيق بدرع أخيل واسترسل الآلهة المعاندون في دعابتهم المشؤومة، لدى خروجي من البيت الصربي Srpska Kuca، شعرت بكآبة مبهمة، وبالبرد بالرّغم من حرّ آب، ذهبت للجلوس على أحد الأرصفة، وسرَّحت نظري ورحت أتامّل القبر الأزرق، مستعيدًا ذكرى بطرس الأوّل كاراجورجيفيتش الذي حارب أعداءً كثرًا، حارب البروسيّين الأفظاظ من خلال انضمامه للجيش الفرنسي عام 1870، والأتراك المتوحشّين في البوسنة عام 1875، والنمساويّين ذوي الخوذ المسرودة جيّدًا عام 1914 إلى أن أُجبر العاهل العجوز المونتينغري وهو منهك على الرحيل عن بلاده مشيًا على القدمين، دون أن يتخلّى مع ذلك عن وطنه وعن تحرير صقالبة الجنوب، وكنت متأكّدًا أنّه كان قادرًا على إلحاق الهزيمة بنا في سلافونيا والبوسنة، ذاك المتخرّج من مدرسة سان- سير الحربيّة، العجوز ذو القنزعة البيضاء الذي اجتاز اللوار سباحة لكي يفلت من جنود بسمارك، وجد بطرس الأوّل نفسه منفيًّا في الجزيرة حيث كان القيصر غليوم يمضي عطلاته

في ظلّ قصر بديع يدعى أخيليون مزدان بحدائق غيّاصة مزروعة بأشجار السرو والغار والنخيل، وحيث تمثال أخيل المحتضر يتأمّل مياه المتوسّط المبهرة متوسّلاً إلى تيتس أمّه، المكان مكرّس تمامًا لابن بيليه الغضوب، لدائرة الانتقام الأبديّة بنت الأمبراطورة سيسي النمساويّة ملكة المجر القصر بالقرب من المحارب الجريح، وكانت تحبّ أن تقيم فيه بضعة أشهر في السنة قبل أن تُقتل بدورها على ضفّة بحيرة جنيف بضربة خنجر في صميم قلبها وجّهها إليها نمساويّ إيطالي فوضويّ يدعى لويجي لوتشيني، هل كان القيصر غليوم الثاني يفكّر بها وهو يغمس قدميه في البحر الأزرق، أم يفكّر بالأخرى بيلييد الذي هزمه القدر، لا بل بالقاتل الإيطالي الذي رأى رأسه محفوظًا في الفورمول في فندق المتروبول في جنيف، الفندق الوحيد في العالم الذي يتباهى بغنيمة بشريّة عائدة للوتشيني الذي شنق نفسه بحزامه في زنزانته ثم قطع تيميّ سويسري رأسه بعد موته، كانت كورفو حافلة بالموتى المشاهير أو المجهولين منذ ان انتقم بوسيدون من البحّارة الذين أعادوا أوليس إلى إيثاق فجمّدهم حجرًا، كنت أدور في مكاني بين الجثث، من حانة لحانة، من متحف لمتحف، المصابون بالطاعون في جزيرة لازاريتو الصغيرة استبدلوا بالمقاومين اليونانيّين والشيوعيّين الذين أُعدموا رميًا بالرصاص خلال الحرب الأهليّة، والألفي يهوديّ الذين اعتقلوا في القلعة الفينيسيّة القديمة ثم رُحّلوا إلى أوشفيتز، بدا البحر وكأنّ لا قرار له، يطوي في غماره جثثًا كثيرة، حتى جثّة إيزادورا دانكن التي أمضت ستّة أشهر في كورفو عام 1913 لتنسى أحزانها جرّاء موت طفليها غرقًا في نهر السين، الراقصة الأميركيّة ذات القدمين الحافيتين كانت تطاردها أثينا الغيورة من جمالها، أخذ طيف قامتها الطويلة يرقص عاريًا في ليل الصّيف، رحت أتخيّل حركة جذعها،

ووركيها الملتحفين بقماش شفّاف بين أخيلة حدائق أخيل، بين الإمبراطورة سيسي والقيصر غليوم الثاني وبطرس الأوّل الصربيّ، الآن أرى سيرغي إيسينين الجميل يرقص إلى جانب إيزادورا في ظلام زجاج القطار، إيسينين الذي شنق نفسه بعمر الثلاثين في غرفته في فندق إنكلترا في سان بطرسبرغ بعد أن كتب قصيدة وداعيّة بدمه بالذات، ساشكا تشبهه، لديها الوجه المستدير نفسه، العينان الفاتحتان جدًّا، الوجه الطفولي الذي لا يشيخ ويزيده الشعر الأشقر طفولة، كانت إيزادورا دانكن لا تعرف من الروسيّة إلا ثلاث كلمات وإيسينين لا يعرف أيّة لغة أجنبيّة، لم يكونا يتكلّمان، بل يرقصان ويشربان، وخاصة سيرغي، تروي إيزادورا في سيرتها الذاتيّة أنّ الشاعر كان من الشغف بحيث يستطيع أن يمضي أسبوعًا كاملاً دون أن يصحو من سكرته، شغوفًا جدًّا لدرجة أنّه تزوّج بالراقصة التي تكبره بثمانية عشر عامًا، شغوفًا جدًّا لدرجة أنّه تخلّى عنها ليعود إلى روسيا ويغرق في الاكتئاب، في كورفو، في عزّ الصيف، يصعب تخيّل ليل بتروغراد الطويل في كانون الأول، والحبل والقسطل في غرفة الفندق المحترم، أو الأفكار الأخيرة لإيسينين قبل أن يشنق نفسه، ربّما ساعده على إنجاز المهمّة في تعليق نفسه إلى القسطل ثلاثة من محاربي أعداء الثورة وقد سهّل عليهم ذلك السلبية التي يغرق فيها بسبب سكره المتواصل، توفي سيرغي إيسينين في الشمس الغائبة وظهور أولى صفائح الجليد المتشبّثة بضفاف نهر نيفا، تطلّ غرفته في الفندق على واجهة كاتدرائيّة القدّيس إسحاق، هل كان بإمكانه أن يلمح من النافذة نعش الجنرال كوتوزوف جلّاد نابوليون بين أيقونتين مذهبّتين، بالطبع لا، كانت الثورة قد أقفلت أبواب الكنائس وراحت تحوّلها إلى مستودعات، محظرّة الناس من الدخول إليها، ذلك أنّ البلاشفة كانوا متطيّرين بحيث يخشون التأثير

المؤذي لشكل المبنى نفسه على الورع الماركسي إذا ما حوّلوها إلى مسارح أو قاعات للاجتماعات كما اقترح عليهم ذلك في البداية براغماتيّون مرتابون تمّت تصفيتهم عن بكرة أبيهم خفيةً على غرار إيسينين، إيسينين عاشق الأم روسيا، مقبرة جيش نابوليون حيث يرقد ثلاثمئة ألف جندي من جنود نابوليون الناقمين الذين حصدهم الجليد أو المدافع عام 1812، كان الخيّالة يأكلون أحصنتهم الميتة جوعًا، والفلاحون البيلاروسيّون يأكلون الخيّالة الموتى بردًا، وكان نابوليون سيّد كورفو لعشر سنوات يحلم بشمس أوسترليتز ونصر لودي وهو يجتاز الجسر فوق بريزينا الذي شيّده على عجلة بناة الجسور العباقرة أجداد البحّارة الفرنسيين الذين نقلوا الناجين من الجيش الصربي عبر البحر الأيونيّ، ومن بينهم الجندي الصربي الذي وقع جان جنيه في غرامه في برشلونه، ستيلتيانو الجبان ذو اليد المقطوعة - في كورفو، بالقرب من قصر أخيل، كان يتلاقى البندقيّون والعثمّانيون والفرنسيّون والنمساويّون والألمان والصرب وحتى راقصة أميركيّة عاشقة شاعر روسي، ماتت إيزادورا دانكن بعد فترة قصيرة من موت إيسينين القدّيس الكحوليّ، وبالطريقة نفسها، الشال مشدود على عنقها وعظمات رقبتها محطّمة على ضفّة المتوسّط، وقد ربطت جثّتها بمؤخّرة سيّارة كما حصل مع القنّاصة في بيروت، جعلت الإلهة الغيورة من جمالها وشاحها المتعدّد الألوان يعلق بالدولاب الخلفيّ من السيارة السائرة بسرعة على الكورنيش في نيس، كان الوقت مساءً، هبّ نسيم أيلول العذب من صوب البحر فتدثّرت الراقصة بوشاحها الطويل لتحمي عنقها الهشّ ونهديها الرقيقين، فاصطفق الوشاح في الهواء مثل راية قاتلة، زاد السائق من سرعة سيّارته فعلق الوشاح في الجازع للحال واجتذب إيزادورا خارج السيارة، على الطريق المعبّدة ورأسها

ملاصق لكاوتشوك الدولاب الخشن، وقبل أن يتسنّى للسائق إيقاف سيّارته، كانت الراقصة لاقت حتفها جالسة وقد استند ظهرها إلى قضبان دولاب سيارة الأميلكار الزرقاء، عيناها محملقتان في البحر المتوسّط، ورأسها مثبت إلى السيارة المكشوفة ولسانها متدلٍّ خارج فمها، على غرار القدّيس مرقس الإنجيلي الذي جرّ على الأرصفة موثقًا إلى عربة بالقرب من الإسكندريّة، القدّيس مرقس يرافقه الأسد على الأيقونات التي ترسمها ساشكا الملاك الأشقر الشبيهة بإيسينين: هي ترسم الشهداء وأنا أجمع الجثث والأجساد المنثورة في الثلج، والأذرع الساقطة أرضًا، والعظام الراقدة في أعماق المهاوي البحريّة، كورفو آخر محطّة قبل إيثاق تبدو وكأنّها إحدى محطّات انعطافة القدر، مسكن آلهات الموار اللواتي لا يرحمن، شربت كأس أوزو في حديقة قصر سيسي الإمبراطورة المطعونة بخنجر وأنا أراقب أخيل يقتل الطرواديّين، فكرّت للمرّة الأخيرة بالصربيّين المرتعدين وفي ستيليتانو الجبان الأكتع وإيزادورا التي ضربها الانتقام الإلهي بعد طفليها وزوجها، وانطلقت من جديد إلى الشمال- الشمال أي إلى ظلّ مورتييه الماريشال، عدت للعمل في المكتب بعد أيّام قليلة، مورتييه قاتل الإسبان الكبير والجرمانيّين والصقالبة كان عنوانًا جديرًا بألغازنا وخفايانا، عند وصولي التقيت ليبيان فاستقبلني قائلاً، إذًا يا فرنسيس هل أنت مستعدّ لمواصلة العمل؟ تفاجأ بأنّني لم أكتسب سمرة بعد إقامتي في الجزر، لم أخبره شيئًا عن عطلتي ما خلا أسماء الأمكنة الإكزوتيكيّة، ماذا لديّ لأقوله على أيّة حال، هل أحدّثه عن اليونانيّين الموتى واليهود الموتى والإنجيليّين والصربيّين الموتى، كان لدى الجماعة الإسلاميّة المسلّحة أمير جديد، غيّرت الجماعة تكتيكها، أو بالأحرى تخلّت عن كلّ استراتيجيّة لتبقي على تكتيك العنق المقطوع، في

الليل احتضنت لي الملكة ماب الجنيّة الصغيرة أحلامًا بلون الأثير، جبالاً جافّة سفوحها غائصة في البحر، وأميرات مثل نوزيكا، لكي تعزّيني دون شك وتمحو عنّي سواد النهار والطقوس والأضحية المقدّمة للماريشال مورتييه، ومترو «بورت - دي- ليلا»، وتغيير القطار في بلفيل، ورائحة فستق العبيد والعرق والمترو الباريسي والنزول في بيغال أو بلانش أو بلاس -دو - كليشي، حسب المزاج، ثم التوقّف لاحتساء كؤوس صغيرة في الدائرة الثامنة عشرة، والتعقيب على نوع آخر من الأحداث الراهنة، المرتبطة عمومًا بالرياضة والفرق الرياضيّة التي لا تسير أحوالها ابدًا على ما يرام، والنتائج التي هي مخيّبة دومًا، والربح أو الخسارة في جولة 421، وهذا الإحساس المدهش لذلك الذي يعود من عطلته فيلقى عائلته وأصدقاءه ومنزله في المكان ذاته، مكان يجد فيه ما يشربه وفوق ذلك يمكنه أن يدوس برجله على سجائره المرميّة أرضًا دون أن يوجّه له أحد أيّ تنبيه، ويجد نفسه يلاعب كلاب صاحب الحانة وكأنّها أقارب بعيدة عنه ويحاول التعبير عن مشاعره نحوها، الجميع سعداء بالتلاقي، والجميع يحتفون بهذا الملاذ الذكوري الذي لم تجتاحه النساء أو رجال الدرك، ولا يخضع لقواعد الصحّة العامّة، وبعد أن تسكر، تصعد إلى بيتك، تترك الزنك تحت مرفقك لأجل الزنك فوق رأسك، وتفتح جميع النوافذ لكي تخرج حرارة باريس في مطلع أيلول، تجلس على الكنبة، تمسك رواية بوليسية متنشّقًا رائحة الإسفلت الفاترة التي تجتاح القاعة مع هبوط الليل- لم تكن ستيفاني تهوى طقوسي ولا الحانة ولا الروايات البوليسيّة، ما أن يختفي شغف الأوقات الأولى حتى تتحوّل سمات الطبع اللطيفة هذه إلى عيوب لا تُحتمل، وشيئًا فشيئًا، يصبح الصدع هوّة عميقة من الملامات والكيد تستوجب ملأها بجفصين الكذب والرياء، وشهرًا بعد

شهر، وصيفًا بعد صيف، كنت أغوص في مسائل المنطقة وأملأ حقيبتي بالجثث يمينًا وشمالاً بحسب أسفاري إلى دمشق أو إسرائيل أو القاهرة أو تريستا أو بلنسية، وكنت أنفصل عن ستيفاني بطريقة أكيدة، وتحوّل شعوري بالذنب بعد التظاهر بالانتحار إلى عدائيّة ملجومة، كان كلّ شيء يزداد سوءًا ويتدهوّر وسط المنبسط البحريّ مثل كفن ينسلّ خيطًا فخيطًا، سينتهي هذا على نحو سيء، أحيانًا كنا نفكّر، وكلّ واحد منّا في شقّته في أحد أطراف مدينة باريس أنّ كلّ ذلك سينتهي بشكل سيّء، وذات يوم بعد أن نزلت من الأنترسيتي الآتي من فرانكفورت في «محطّة الشرق»، وكنت منهكًا إثر ليلة أرقت فيها في قطار براغ بصحبة ثرثار مهووس بالقطارات، عدت إلى البلاد وفي حوزتي وثائق جديدة أضيفها إلى حقيبة التعاسة هذه، قدر الشيطان، شعرتني منحرف المزاج، مضطربًا، مشوّش الذهن، وصلت إلى منزلي في بداية بعد الظهر وتردّدت في الذهاب فورًا إلى المكتب، لأتحقّق من تفاصيل ثانويّة وأسجّل حضوري، كان هذا إهمالاً منّي، توجّب عليّ الذهاب إلى المكتب بدل أن آخذ حمّامًا وأبقى في كنبتي شاخصًا بنظري كالأبله، اتّصلت بي هاتفيًا حوالي الساعة الخامسة، سمعت صوتها في الهاتف الداخليّ، كنت متفاجئًا لأنّها لا تأتي أبدًا إلى بيتي، أبدًا تقريبًا، وتعلمني دومًا مسبقًا بمجيئها، كانت تعرف أنّه يفترض بي أن أعود من براغ بعد الظهر، خرجت قبل وقت قليل من انتهاء دوامها في البولفار مهرولة إليّ، سمعتها تصعد على الدرج، شعرت بالقلق بعض الشيء، ما سبب مجيئها؟ هل كان هذا أحد دلائل الحب التي نسدّ بها ثغرات العلاقة، إنّها مفاجأة، دخلت مبتسمة وقبّلتني بحنان وهي تقول بالضبط مفاجأة، دخلت! سألتني عن رحلتي وهل كانت ممتعة، نظرت إلى الفوضى والثياب المبعثرة والصور والكتب

والأوراق التي تكسو الأرض وضحكت قلْ لي ما زلت ثابتًا على فوضاك هذه، كانت في أحسن حالاتها، بدت جميلة جدًّا وشعرها المنسدل على كتفيها يتشرّب الضوء، اتّجهت إلى المطبخ لتضع شيئًا ما في البرّاد، كان عليَّ أن أحزر، لكن لم تكن لديّ رغبة، كنت متعبًا ومسرورًا لرؤيتها، ولكنّي متفاجىء ومتعب، قلت متردّدًا هل نسيت عيد ميلادك هل هذا هو الأمر؟ فابتسمت ابتسامة مصطنعة قليلاً وقالت: «يا لك من غبي»، بدت حائرة وفتّشت عن مكان تجلس فيه، واختارت البقاء واقفة، استشعرت بشيء رغمًا عنّي، لم أنبس بكلمة، راحت تثرثر، ناولتها النجمة الصغيرة الشفّافة المصنوعة من كريستال بوهيميا التي اشتريتها لأجلها، النجمة التي نحتها عبيد تيريزينشتات، الملفوفة بورقة الحرير الأحمر، قلت لها خذي، هذه لك، فأجابت، آه، هذا لطف منك، شكرًا، شكرًا، كانت متوتّرة جدًّا عندما مزّقت الورقة فوقعت النجمة، وهذا أغاظني، دون سبب، التقطت النجمة اللامعة وقلت لها «هاي انتبهي!» كانت النجمة لا تزال في يدي عندما همست لي ستيفاني: «أنتظر مولودًا» وارتمت في الكنبة ناظرة إليَّ نظرات حادّة، لم أجب بشيء، ولم أكن واثقًا من أنّني فهمتُ، الجملة التي تستعمل عادة هي «أنا حامل، أنا حامل» وليس «أنتظر مولودًا»، ناولتها نجمة الكريستال الصغيرة، «كدت تكسرينها»، صارت عيناها غائمتين قليلاً وقالت: هذا هو رأيك في الموضوع؟ كان كلّ واحد منا على ضفّة مختلفة من النهر مطلقًا باتّجاه الآخر إشارات غير مفهومة فأجبتها: وأنت؟ لم أشعر بشيء تجاه هذا الخبر، لا شيء، كلمتان لا تمتّان إلى الواقع بصلة، أشحت برأسي فقالت: «أنا حقًّا بلهاء»، لا يصمت المرء أبدًا حين يتوجّب عليه ذلك، فتمتمْتُ، لكن لا، لكن لا، نهضَتْ وهمست: أعرف أنّه لم يكن يتوجّب عليّ المجيء فكرّرت لكن

لا ، لكن لا ، فاغتاظت وقالت صارخة: هل أبقى أم أرحل؟ لا يصمت الإنسان أبدًا عندما يستوجب الأمر ذلك، فتنهّدت قائلاً: كما تريدين، فارتجفت وخرجت شبه راكضة، وتركتني وحيدًا ونجمة براغ لا تزال بين أصابعي - لم أسارع للحاق بها على الدرج ولم أصرخ بها عودي، بقيت جالسًا في الكنبة مراجعًا في خيالي حصّتي من القدر، مستحيل أن أتخيّل ماذا تمثّل بالنسبة لي كلمات ستيفاني، مستحيل أن أرى ماذا في بطنها، أذكر أنّنا مارسنا الحب آخر مرّة قبل أربعة أيّام ولم يكن هذا الجماع هو الذي تسبّب بالحمل، كان جماعًا آخر، ضائعًا في خضم جماعات الأسابيع السابقة، ربما حين أمضينا عطلة نهاية الأسبوع في استانبول، لا أدري، ستيفاني تعرف متى حصل ذلك، ثمّ ما الذي تجدر معرفته، كانت هنا أمامي، أن يكون لديّ طفل، ألا أصطفي خيار أخيل العاقر بل خيار هكتور، هكتور يتحدّث إلى زوجته أندروماك عند أسوار طروادة، هكتور حامي المدينة، توسّلت إليه زوجته بحنان ألا يذهب إلى الحرب، ألا يرحل ويترك إيليون بأسوارها الهائلة، بالرغم من جبن أخيه باريس الجميل الملعون، فأسكت بحركة من يده شكواها، قال لها: «دعي الرجال يعنون بالحرب» وأنت اعتني بالأطفال، لي السيف القاطع، أعرف أنني سأموت وطروادة ستسقط، هكذا هو القدر إذًا، سيكون لديّ طفل، وستكون هناك لعبة متحرّكة برّاقة في غرفة ملوّنة، هل سيكون ذكرًا أم أنثى، وستسقط طروادة، سيكون هناك أستياناكس في مكان ما وسيشبهني، سيحمل عبء أبيه فوق كتفيه كما حملت عبء أبي، خارج المدينة المحترقة، رأيتني حاملاً أبي فوق ظهري ورأيته حاملاً أباه فوق ظهره، رأيت هرمًا من الآباء عاليًا كسلّم القديس يوحنا السلمّي متداخلين الواحد في الآخر، ضاحكين كالأبالسة لرؤيتهم أبناءهم يحنون ظهورهم تحت

حملهم، عندئذٍ نهضت وذهبت إلى المطبخ، هجمت على زجاجة الشمبانيا في البرّاد، هذا ما وضعته ستيفاني، زجاجة شمبانيا، وتملّكتني الفرحة، فرحة عارمة صمدت أمام شمبانيا *Veuve Clicquot* والفرحة استمرّت بالرّغم من كلّ المشروب، جلست في كنبتي وحاولت أن أفهم ماذا يحصل لي، شربت وحدي، نسيت براغ والقطارات ومهووسها التشيكي والحقيبة والأمن الخارجي وفكّرت فقط بالخشيخشات والنساء المتعرّقات المتسخّات وبأفخاذهن الملطّخة بالدم، وقد آزرتني الكحول في ذلك، ورأيتني أمسح قطرة عرق على جبين ستيفاني وهي في ذروة مخاضها، ثم رأيتني أقمّط قردًا وبرًا، أسمر كالليل، رجلاً صغيرًا، وأوثق رباط العلاقة بين الانسان الأوّل وذريّته، وبسرعة شعرت بنشوة السكر، حان الوقت للذهاب للنوم لأدع رسول النوم يحمل لي الأخبار، سحقت سهوًا نجمة الكريستال، بالقرب من الكنبة، سحقتها بكعب حذائي دون انتباه، سمعت «كراك» وتحطّم الزجاج إلى ملايين القطع اللامعة، كنت سكران، كنت سكران جلست أرضًا، نظرت إلى دموعي تعاقبني وترسل شرارات من نور وهي تتساقط على بقايا النجمة المحطّمة - الآلهة يتقاتلون، الآلهة يتقاتلون فيما بينهم، ويستعيدون ما أعطوه، إنّه طفل، يده الصغيرة تخرجني من الماء، يده الصغيرة تخرجني من الظلمات، في اليوم التالي، ذهبت ستيفاني إلى عيادة طبيب نسائي في «ليلا» على مسافة خطوتين من بولفارنا، استخدمت كل ما لديها من خطب مقنعة وبطاقات مهنيّة وحظيت على الفور بموعد مع عالم النفس وطبيب البنج، ستيفاني الحازمة، عند نهاية بعد الظهر أدخلوا نوعًا من الشفّاط بين ساقيها، لم تعلمني بقرارها، اتّصلت بها لمدّة أربع وعشرين سنة دون نتيجة، كنت مضطربًا، قلقًا، سعيدًا، تابعت الاتّصال بها، خشيت أن أكون

قد جرحتها وجعلتها تجفل مثل حيوان متوحّش، المتوحّش هو أنا، كان أبي على حق، كان بريام على حق، لا يمكن إنجاب طفل من رجل همجي، خيار أخيل لم يكن بخيار، آلهات المورا قرّرن بدلاً منه، ستيفاني قرّرت بدلاً منّي، بئس الأمر، من كان سيعرف ماذا سيصير بحال هذا الطفل أو هذه الطفلة، ربّما سيصير ابنًا أو ابنة لعمّال الخفاء، لم أفهم، لم أفهم السبب، في اليوم بعد التالي توصّلت للكلام معها لمدّة خمس دقائق في أحد مقاهي «ساحة الجمهوريّة»، كانت شاحبة، منهارة، قالت لي أنت وحش أعرف كلّ شيء عنك، أنت وحش ولا أريد رؤيتك أبدًا بعد اليوم، كيف أمكنها أن تغيّر رأيها بهذه السرعة، منذ يومين، جاءت لزيارتي في البيت حاملة قنينة شامبانيا في يدها، والآن صرت مسخًا، ربّما كانت تأمل بأن أتغيّر، بأن أتبدّل، أملت بذلك حتى النهاية، ربّما تخيّلت أنّها قادرة على العيش مع المسخ، لم أقل شيئًا، نظرت إليّ بحزن كبير، رحلت، كنت أبًا لمدّة ثمانٍ وأربعين ساعة، أبًا وحشًا ملتهمًا لأطفاله، كانت الساعة السابعة والنصف، أوصيت على كأس من شراب، كأس صغيرة حدادًا على اليدين الصغيرتين لذلك الذي لن يكون لي، ثم كأس أخرى للبربريّ المتوحّش، ثم كأس ثالثة لأبي، ورابعة للفانين، لمصير الفانين البائسين، وخامسة للآلهة الذين يتصارعون في أعلى الأولمب، وسادسة للانتقام، الانتقام الذي سيأتي يومًا عذبًا وداميًا، عندما أقفلت الحانةُ كنت فعلاً ثملاً لدرجة أنّ الخادم أمسكني من قبّة سترتي لكي يمنعني من السقوط قبل بلوغي الرصيف الرماديّ البارد والرطب

الفصل الثاني والعشرون

ساشكا رسّامة الروح مثل القديس لوقا، ساشكا البعيدة، ملاك أورشليم الأشقر لا تنتمي إلى هذا العالم، أخبرني ناثان ستراسبرغ العميل في الموساد أنّ المرء في أورشليم يجد دومًا طاقة روحانيّة، نفحة سماويّة سواء كان يهوديًّا أم مسيحيًّا أم مسلمًا، مستمدّة من هذه الصور المذهّبة والبخور وذكريات هذا القلب المطعون بسهام الديانات الربّانيّة التي لا تني تصيبها، انتصار المقاتلة الفلسطينيّة، لا بدّ أنّها في فلسطين اليوم إذا كانت لا تزال على قيد الحياة، بالقرب من قبر عرفات الشاحب، أب الأمّة الفلسطينيّة الذي تُغفر له كلّ ذنوبه، حتى ملايين الدولارات التي في حوزته، حتى زوجته وهفواته السياسيّة والعسكريّة التي لا تُحصى، لأنّه كان الأب الذي توفّي بطريقة غامضة في ظروف تكاد تكون سوفياتيّة لسريتها وريائها، دفعه أولاده على الأدراج لأنّ الأزمنة تغيّرت، الأبناء يرغبون في تسلّم السلطة بدورهم، السلطة والمال، المال خصوصًا، عرفات أبو عمار الذي أرسله ورع ضبّاطه إلى هاديس، وأيضًا التاريخ المتوحّش، كان ناثان سعيدًا وحزينًا في آن لخسارته هذا العدو، سعيدًا لأنّ الزمن نجح في القضاء على من أخطأه الموت غالبًا، وحزينًا أيضًا، حزينًا لأنّ عرفات، في نهاية المطاف، خبروه بما يكفي، على حدّ قوله،

لقد سجنوه، كمن يسجن القرد في حديقة الحيوانات، واليوم سيكون كلّ شيء صّعب وأعنف، تلال النفايات في غزة تشتعل، والدواليب والصواريخ، غزة عمق أعماق **المنطقة**، المكان الوحيد في المتوسّط الذي لا تجد فيه سائحًا واحدًا على الشواطىء الهائلة المكسوّة بالأسلاك الشائكة الصدئة والقناني البلاستيكيّة والحزن والتعاسة، غزّة المستحيلة تتابع طريقها نحو نهاية العالم في الحقد وصرخات الانتقام وقد تخلّى عنها الجميع، والتسليات الوحيدة التي تصلها هي الصواريخ القليلة التي يرميها طيّارون شاردون من وقت لآخر من السماء الزرقاء على سيّارة أو مدخل جامع أو بيت أو شارع في رفح أو خان يونس أو غزّة، في غزّة كلّ شيء مكتظّ لدرجة يستحيل معها تصويب الأهداف، يقول ناتان متنهّدًا أنّ الضحايا المدنيّين في غزّة يشكّلون لبّ المشكلة بالنسبة للجيش الإسرائيلي الذي تطارده أشباح الأطفال الموتى، بالرغم من دبّاباته الحديثة الكامدة وطائراته وفرق جيشه النخبويّة، ماذا تريدنا أن نفعل، يجب الدفاع عن النفس مهما بلغت التضحيات، يجب الانتقام ومحاسبة أعدائنا، تلك هي الحال، غزّة أرض محفوظة هائلة من دون كحول حيث مليون فلسطينيّ ونصف مليون ينتظرون، ينتظرون عملاً، وحكومة، وبلادًا، عاصمة الحزن هذه المنساقة على غير هدى، قفار جرداء سائبة، الأرض الوحيدة البائرة في المتوسّط، جُحر من دون مالك حيث الشعب يتغذّى من فتحة في الجدار- رأيت في باريس خلال معرض اجتذبتني إليه ستيفاني تجهيزًا لأحد الفنّانين يدعى هوغو أورلانديني، وهو نسخة طبق الأصل لأحد زنزانات الاعتقال في غوانتانامو بقياس طبيعي، عبارة عن مربّع محاط بالقضبان وفرشة صغيرة ومرحاض على الطريقة التركيّة من الفولاذ اللامع وبيجاما

برتقاليّة فوسفوريّة مطويّة بعناية على الفراش وخفّ وكيس جميل من القماش الأسود للرأس، هاكم إذًا أين ينتهي الأشخاص الذين يُسلّمون إلى وكالة الاستخبارات الأميركيّة، كانت الولايات المتّحدة الأميركيّة تنتقم من كلّ هؤلاء الذين وقعوا في قبضتها ببطء وبطريقة علميّة، كانت طائرات الشارتر التي تقلّ المشبوهين تقلع من مصر واليونان وإسرائيل وإسبانيا وباكستان وفرنسا وإنكلترا لكي يملأوا أحواض الأسماك المعدنيّة هذه في المنطقة الخارجة على القانون في شرق كوبا، جزيرة الأمل الشيوعي والروم والصلصة، أسرى الحرب دون حرب، دون محام، دون أسماء، إسلاميّون مشبوهون يُجبرون على الاعتراف بأيّ شيء كان من خلال تعذيبهم بتغطيسهم في الماء وجعلهم يتعفّنون تحت الشمس وحرمانهم من النوم والطعام، أمّا الموظّفون الذين ينهالون عليهم بالضرب فيتسلّون كثيرًا بهذه الحشرات البرتقاليّة الناحلة، كان قفص هوغو أورلانديني يصدح بالموسيقى، هذه الموسيقى التي يتوجّب على مهاني غوانتانامو أن يتحمّلوها طيلة الليل في خلوتهم، إنّه العلاج من خلال الموسيقى، أغنية أبديّة تنطلق من ثقب المراحيض اللامع، صوت من وراء القبر يرتّل لهم بطريقة رتيبة متكرّرة أغنية ***My Way***، كان يفترض بسيناترا أن يدخل إلى أمعائهم من خلال إستهم المعذّب ويهديهم «من الداخل» إلى الذوق السليم والثقافة الغربيّة، كانت نسخة هوغو أورلانديني تسحر الزوّار الذين راحوا جميعهم يجرّبون صلابة الجدران، جميعهم، وستيفاني أيضًا، أخذوا يعالجون الباب الضيّق لكي يتحقّقوا إذا كان مفتوحًا أم مقفلاً ويلعبون بالقفل، ثمّة متسكّع يتابع المسألة باهتمام بالغ، لم يستطع أن يقاوم الإغراء فسرق البيجاما والخفّ، أتخيّله خاضعًا لسيطرة زوجته، مرتديًا في آخر الليل البيجاما البرتقاليّة وواضعًا قماشًا أسود على رأسه،

وسيناترا في آخر الغرفة يغنّي على البيكاب، وزوجته البورجوازيّة المهتاجة تدخل له جميع الأشياء غير اللائقة في مؤخّرته - *men, men, men* كان ليقول جيمس جويس، كان عزرا باوند المشوّش العقل يواجه في معسكر الاعتقال في بيزا قصفًا من النور والضجّة ليل نهار، لا تتركه مكبّرات الصوت في سلام لحظة واحدة، من المغرب حتى الفجر، كانت أصوات الأخوات أندروز تخترق دماغ الشاعر بأغنيتهنّ *Drinking rum and Coca-Cola/ Go down point koomanah/ both mother and daughter/ Working for the Yankee dollar*، وانهارت صحّته العقليّة، حاول اللجوء بخياله إلى رابالو الجنويّة، إلى بيته الجميل قبالة البحر، قبالة المتوسّط الهادىء والمطمئن، في المكان الذي خطرت فيه لينتشه الديونيسيّ فكرة زرادشت، متخيّلاً نسورًا وأسودًا في الغيوم فوق المنبسط البحري، قبل أيّام قليلة من موته، مشى باوند مرّة أخيرة إلى بورانو وتورشلو، تنزّه في احتضار الهور الفينيسيّ، بالقرب من أبراج الأجراس المنحنية وقوارب الصيّادين، مفكّرًا بكمان أولغا رودج الوفيّة، وكونشرتو فيفالدي المنسوخة بعناية لسنوات، باوند الصامت نسي إيطاليا الفاشيّة، كان يبحث عن الغفران والراحة، وداعًا للانتقام، رأى الضوء، الضوء الصغير في النشيد *To confess CXVI wrong without losing rightness: charity have. I had sometimes, I cannot make it flow thru* وكان على صواب في خطئه، باوند يتقدّم نحو الفراغ الكبير، *A Little light, like a rushlight* يرى خيطًا من نور، شرارة خاطفة *To lead back to splendour* تقوده إلى البهاء، في مياه الهور الراكدة حيث كان بإمكانه أن يغطس لو أنّ أولغا لم تصرّ كثيرًا على الإمساك بيده لحظة الموت - من سيمسك بيدي أنا، ساشكا أصابعها

مزدحمة بالشهداء، ستيفاني كانت على حق، أنا مجرّد مسخ، مسخ أنانيّ ووحيد، كان عليهم أن يحتبسوني في قفص الفنان هوغو أورلانديني ويحكموا عليَّ بسماع *My Way* إلى الأبد، أو *Lili Marleen* و*Trois jeunes tambours*، تغنّيها فرقة المشاة- في سوريا حُكم على ألويس برونر جزّار يهود النمسا واليونان وفرنسا وسلوفاكيا بعقاب مماثل حين أرغموه على احتمال مقامات الألحان العربيّة التي يكرهها، محتبسًا في منزله الصغير على طريق بلودان، بالقرب من دمشق خاضعًا لرقابة مشدّدة رفيعة الشأن من مختلف الأنظمة المتعاقبة على سوريا، زوّدني ناثان ستراسبرغ بعنوانه بكلّ لطف وقال لي، إذا تسنّت لك الفرصة، أطلق رصاصة على رقبته من قبلي فهذه الفرصة لن تسنح لي، برونر طيّرت صوابه أغاني فيروز الحزينة، والآذان، والألحان الصارخة لموسيقى البوب الشرقيّة، كان الحقد يتآكله، صار سجين هؤلاء الذين أنقذوه من عقوبة الإعدام، وكما فعل فرانز شتانغل قبله، وصل برونر إلى سوريا بجواز سفر مزوّر عام 1954، كان يشعر أنّه في أمان في دمشق في حماية أعداء أعدائه انطلاقًا من مبدأ «عدوّ عدوّي صديقي»، والوقت يمرّ، الوقت يمرّ، وألويس الفائق الحيويّة يشعر أنّ الانعزال يثقل عليه وأنّه لا يحبّ سوريا، لكن ليس هناك ما يمكن فعله، الهجرة إلى أميركا الجنوبيّة محفوفة بالمخاطر، والحكومات السوريّة أدركت الأهميّة المحتملة لأسيرها، فهي تحتجز سجينًا يمكن استخدامه في تفاوض مستقبليّ مع إسرائيل، وفي عام 1970، زاد انقلاب حافظ الأسد من صعوبة شروط إقامته قليلاً فوُضع في الإقامة الجبريّة، وأرغم على التغيير باستمرار من عنوانه لكي يتجنب انتقام الموساد الذي أرسل اليه مرّات عدّة رسائل مفخّخة، فبتر الانفجار أحد اصابع يده وأطفأ أحد عينيه، لاذ برونر بالحقد،

الحقد على اليهود الذين ساورته الرغبة في قتلهم من جديد، الحقد على العرب الذين يؤونه، وخصوصًا الحقد على موسيقاهم التي لا تُحتمل وطعامهم المقزّز، كان ألويس برونر يلتصق ليل نهار بالتلفزيون الألماني وبرفقته كلبه، وكان يضجر، أجرى بعض المقابلات مع الصحافة النمساوية وطلب فيها من الألمان أن يشكروه لأنّه خلّص فيينا من اليهود المزعجين، أراد برونو المجنون أن يتكلّم أكثر لكنّ السوريّين منعوه، ونفوا رسميًّا وجوده على أرضهم، وكان ناثان ستراسبرغ مخطئًا، حين وصلت إلى دمشق لأرى ألويس المسؤول عن ترحيل ليون سالتييل اليهوديّ من سالونيك، كان مدفونًا تحت التراب، مات في عام 1996 في عمر الرابعة والثمانين، خرفًا قليلاً ربّما في منزله في التلال الجرداء غرب العاصمة السوريّة، لا أحد يعلم سبب وفاة برونر، كان التلفزيون لا يزال مضاء، اكتشفت جثّته بعد خمسة عشر يومًا، وكان كلبه الدوبرمان قد أكل نصفها بعد أن بقي طويلاً دون طعام، ووري برونر الثرى بطريقة سريّة في ضريح مجهول- السوري الذي أصله من حمص والذي باعني نسخًا من الصور التي التقطتها الشرطة كان يجد أن انتهاءه متحلّلاً ومأكولاً من كلبه بالذات أمر يدعو للرثاء، وفوق ذلك كان مرتديًا مبذله، ووحيدًا، وفي بلد غريب، وهذا يزيد الأمر أسى، سألته ماذا صار بحال الكلب، فظهر على وجهه استياء مطلق وقال لا أعرف، أفترض أنّهم قتلوه على الفور، كانت الضحيّة الأخيرة لألويس كلبًا أسود حاد الأسنان مرغمًا على التهام ربلتي ساقي سيّده الناحلتين لكي يستمرّ على قيد الحياة لبضعة أيّام أكثر، برونر الأعور وذو الأصابع المبتورة والحاقد كان متشبّثًا بالحياة حتى النهاية والغضب المسعور يتآكل كلّ جسده، سرَّ ناثان كثيرًا بالصور وبالمعلومات التي زوّدته بها، قدّم لي زجاجة

شمبانيا في فندق كينغ دايفيد، فيما كانت عازفة بيانو روسيّة جميلة تعزف أغنية *My Way* على بيانو شتاينواي لمّاع - لم يكن هناك أحد ليمسك بيد برونر لحظة الموت، لا أحد ما عدا مذيعة ألمانيّة تطلّ من إحدى قنوات ميونيخ التي تبثّ عبر الأقمار الاصطناعيّة، الآلهة تخلّوا عنه، لم يعد السوريّون يعرفون ماذا يفعلون بهذا الضيف المزعج، الوقت يمرّ، روما صارت قريبة، أكاد أن أسأل عازف الكمان الذي يشبه همنغواي أن يعزف لي لحنًا قصيرًا كما عزفت أولغا لباوند من وقت لآخر آلام المسيح بحسب القديس متى، *Erbarme Dich, Mein Gott*، أشفق عليَّ أبتي، أو لحنًا آخر حزينًا، وستبدأ رفيقته بغناء كلمات الإنجيلي متّى الذي مات بضربة سيف في ظهره في أثيوبيا حين كان يصلّي وذراعاه مرفوعتان إلى السماء قبالة المذبح، متّى الذي رسمته ساشكا منحنيًا على مكتبه أو أمام ميزان الجابي، متّى الذي يرسمه كارافاجيو، عاشق قطع الرأس، منصرفًا إلى إحصاء نقوده، هاأنذا أقترب من روما التي نورها لا ينطفىء، ماذا سأفعل، عزيزي إيفان ماذا ستفعل في روما، هل سنجوب الكنائس بحثًا عن توبة بعيدة الاحتمال في صور الشهداء، أم نسكر ونركض في إثر العاهرات في شارع سالاريا، على مسافة خطوتين من سراديب الأموات، الحقيبة الموثقة سرًّا لا تزال فوق مقعدي، فماذا تحوي في الحقيقة، ماذ وضعت فيها، كلّ هؤلاء الموتى، كلّ هذه المصائر المتقابلة، العالم بأسره، جنينًا في مرطبان من الفورمول، هنا أصل المأساة، مأساة الانتقام، *Erbarme Dich, Mein Gott* أيّتها الأم ابكي ابنك الميت، أيتها الأم ابكي ابنك الذي رحل، وفيها أهلي وأجدادي وبلداني وضحاياي، الصور القذرة لهارمان جيربنز بورنوغرافيّ المعتقلات، الوجوه المذعورة للمقاومات الهولنديّات

اللواتي كنّ يتوضّعن له في وستربوك، وهناك غبار القاهرة الأسود، نور الإسكندريّة الذي لا ينسى، كل شيء يلتئم، كل شيء يلتئم فيما القطار يخرج من النفق مندفعًا بسرعة في تلك الضواحي، الآن يسير بعذوبة، خطوة خطوة، وصلت تقريبًا، القطار يسير فوق الجثث وكأنّه السكاماندر مزمجرًا، المرأة الأنيقة أمامي أخرجت من حقيبتها جريدة *Corriere della sera*، ورجل الأعمال الإيطاليّ الشاب حفيد أغنيلي أمضى الليلة على ما يبدو برفقة عدد من هؤلاء الطامحين إلى تغيير جنسهم في تناول الكوكايين الممزوج بالأفيون، الشاب الشجاع، بات خارج الخطر، حسب جريدة المساء، لا بدّ أن تورينو مبتهجة، أغنيلي الجدّ التاريخي مدير الفيات قاد دبّابة من الماركة نفسها في أفريقيا الشماليّة عام 1942، يا لسخرية القدر، كان قادرًا على أن يختبر بنفسه قدرة المركبة التي اخترعها، هل كان يغنّي *Lili Marleen* وهو يقود مثل فلاهو *I znaj da čekam te*، أنا متعب، متعب جدًّا، إذا أغمضت عينيّ الآن فسأستيقظ في روما هذا أكيد، الوجهة الأخيرة، سوف آخذ الصندوق الصغير وحقيبتي دون أن أنسى كتاب رافائيل كحلة وجثّة مروان وألم انتصار، سأنتظر سيّارة تاكسي في محطّة ترميني، وهناك سأذهب مشيًا على القدمين عبر شارع نازيونالي المقفر حيث مخازن ربطات العنق التي لا تُحصى مقفلة مثل أجفاني، *Trois jeunes tambours s'en revenaient de guerre, trois jeunes tambours* كنت أغني هذه الأغنية لشقيقتي، لكي تنام، كنت أحبّ أن أغنّي لها أغنية عندما كانت صغيرة، ولم أكن أكبر منها بكثير، لكن كان لديَّ الانطباع بأنّني كنت عملاقًا بالمقارنة معها، كانت ليدا تمتصّ اصبعها في سريرها الصغير وكنت أداعب خدّها عبر القضبان وأغنّي لها: *Fille du roi, donne moi donc ton Cœur, fille du roi*

et ri et ran, ranpataplan كلّ هذا بات بعيدًا جدًّا، غاية في البعد، ليدا في الضباب لا تُطال ولا تُفهم، ليدا البورجوازيّة الكاثوليكيّة أتقاسم معها الجينات والملامات الصامتة، عائلتي بعيدة جدًّا الآن، أمّي الأرملة المحزونة، وأبي في النعش ملتهم الأجساد في إيفري، سأحتفظ منه بذكرى القطارات الكهربائيّة وصور التعذيب في الصمت، شخصيّة عظيمة، أشبه بنابوليون في جزيرة القديسة هيلانة مسمّمًا بذاكرته نفسها، مطاردًا بمئات الآلاف من أنفس الجنود الناقمين الذين أرسلهم إلى هاديس، **إذا لم تكن عاقلاً فسيأتي العجوز بوني ليأخذك**، هكذا كانوا يقولون لأطفال الإنكليز لكي يخيفوهم، وكانت أمّي تستخدم التكتيك نفسه، «انتبه، سأخبر أباك بكلّ شيء»، وكان التهديد بفضح أمرنا كافيًا لكي نستسلم لأوامرهنّ كافة، لماذا لم يكن أبي لا عنيفًا ولا مستبدًّا بل فقط صامتًا، لا أذكر أنّه رفع يده عليّ مرّة أو هدّدني، ولا مرّة رفع صوته أو نطق بحرف أعلى نبرة من الآخر: الأمهات يجذبننا إليهنّ قدر ما يستطعن، نخال أننا نشبههنّ، نعتقد أنّنا نملك كمالهن ومهارتهنّ وجمالهنّ وطيبتهنّ، وندرك أنّ هذا كذب، أنّنا رجال، وصورة عن الوالد الصموت، نسخة طبق الأصل، تمثال متحرّك، عندئذٍ نجهل الوجهة التي نرسل إليها، إلى أين نذهب، متتبّعين آثارًا غير مرئيّة، لماذا نبتعد بهذا الشكل القاطع عن الأم والأخت، ثمّة مغناطيس يشدّنا نحو العالم النتن للصرخات في الليل، أخبرني غسّان أن والده كان يحتبسه في خزانة ضيّقة جدًّا حيث الظلام فيها دامس، والمكان أضيق من أن يجلس واقفًا، يشلّه الخوف ولا يجرؤ على أن يدقّ الباب، ويروح يبكي بصمت إلى أن يأتي أحدهم لإنقاذه بعد ساعة أو ساعتين، كان يخاف من هذا العقاب لدرجة أنّه أصبح مطيعًا تمام الطاعة وخاضعًا، وبالرغم من كلّ هذه الطاعة، كان

يُرسل من وقت لآخر إلى القفص الضيّق لكي يتعلّم الحياة ويتعلّم الظلم والرغبة في الانتقام، لكي يكون مسكونًا بحقد أصم، يستمدّ منه الطاقة في عالم الألم هذا، كان غسّان يخبرني ذلك وهو يضحك، وحين أصبح قادرًا على حمل السلاح، تجنّد في الميليشيا الأقرب، أراد أن يكون أبوه فخورًا به ومذعورًا من جبروت السلاح، وأن يدرك أنّه جاء دوره الآن لإرساله إلى الخزانة بحركةٍ من أستون بندقيّته، لكن الأبناء نادرًا ما ينتقمون من آبائهم، يعبّر الانتقام عن نفسه في مكان آخر، يتوجّه ضدّ المجهولين والأعداء والخونة والأسرى اليساريّين والمسلمين، كان غسّان يتذكّر بشكل خاص رائحة الأماكن المغلقة، رائحة الديتول ومستحضرات النظافة والخِرق رائحة مستودع العقاقير وحجرة محنّط الأموات أو مصبّر الحيوانات، كان يتذكّرها في الحال حين يكون في الظلام، حسب قوله، في الظلام الكامل يستعيد غسّان المحارب تلقائيًّا رائحة الخزانة - كانت مدينة البندقيّة غارقة في غياهب أخرويّة، وكنّا نعوم فيها وكأنّنا في غيبوبة طويلة، ظلام لا ينتهي، قبل أن توجّه ماريان الرفسة إلى خصيتيّ، كدت أغرق هناك، ذات ليلة ظلماء، لا قمر فيها، ليلة أشبه بظلمة الخزانة التي توضع فيها المكانس، وبالقبر، سكران كما يمكن لتشتنيك أن يسكر ولحيته تعجّ بالقمل، سكران كما لم أكن من قبل، ماذا دهاني، بدل أن أجتاز الطريق ناحية الغيتو عندما خرجت من الحانة، ذهبت في الجهة المعاكسة إلى الشمال، وصلت إلى ساحة المغربييْن أمام النحت الناتئ للجمل الصغير، وأنا أتعثّر في مشيتي، قفزت ملاصقًا الجدران والبندقيّة في يدي وقبّعتي على رأسي، انحنيت إلى الأمام كما أفعل في الحرب وتقدّمت، حتى بلغت الرصيف ولمحت الواجهة العالية المصنوعة من الآجرّ لكنيسة مادونا دلوتور، ماذا أفعل هنا،

أقيم في الجهة الأخرى، وفجأة أتاني إلهام، جئت لكي أموت، جئت أمام هذه الكنيسة لكي أنهي حياتي، إنّه منتصف الليل، أيّة حماقة، قمت بنصف انعطافة، بماذا فكّرت فعلاً، سها عن بالي اجتياز الجسر، سها عن بالي اجتياز الجسر وسقطت في القناة، صمت مطبق في غمار الماء، حرّكت ذراعيَّ وساقيّ بشكل بائس، انتفخت ملابسي وكأنّها فخّ، وامتلأ حذائي ماء وثقل، طعم الماء في فمي أختنق، قدماي في الوحل الأسود، سأموت، آه هذا ما أردته، إيه، هذا ينجح فعلاً، ستموت، أتنشّق الهواء عند السطح فأتجمّد، رئتاي صغيرتان، ذراعاي تخونانني، كلّ شيء يثقل وسوف يجرفني السكاماندر، كلّ شيء ثقيل، أشعر بالنعاس طفح بي الكيل، سأغرق في لجّة النّهر لأبلغ أعماقه، أذكر تمامًا أنّني استسلمت للسواد وتوقّفت عن التخبّط، ما الذي حصل بعدئذٍ، نزل القديس كريستوفر عن الواجهة، عملاق بلاد الكلدان الطيّب الذي يحمل طفل المسيح على كتفه، أتى لنجدتي، مدّ إليّ يده الهائلة واجتذبني من الماء وأنا شبه فاقد الوعي، لم أعد أعرف شيئًا، استفقت مبلّلاً جالسًا عند باب الكنيسة، حذائي موحل وفمي مليء بالملح وقلنسوتي لا تزال مشدودة إلى جمجمتي، سمعت أجراسًا تقرع في رأسي وعيناي تحرقانني، وقد أُصبت بنزلة صدريّة وهي الزاد الوحيد للحياة الجديدة

الفصل الثالث والعشرون

مياه القنال متجلّدة، كنت محمومًا حين وصلت إلى منزلي، أرتجف كما لم أرتجف في حياتي، كان النهار قد طلع، تناولت حبتي أسبيرين وأخذت حمّامًا ساخنًا جدًّا، وذهبت أرتجف ملتصقًا بماريان وأنا أتساءل من الذي انتشلني من الماء، كانت تفوح من ثيابي رائحة شباك الصيد القديمة، سألتني ماريان ما إذا كنت قد سقطت في القنال دون أن تصدّق ما تقوله، لم أقل شيئًا، خافت عندما رأت سحنتي، هالتها رؤيتي، وهالها إرهاقي وذعري، كانت الحال التي حلّت بي النقطة التي جعلت كيل مخاوفها يطفح، لن أخبرها أنني كنت أمارس السباحة مع الجراذين في مجاري مياه البندقيّة صاحبة السموّ، في منتصف الليل، أشفقت عليها ولم أكشف لها عن حقيقة ما حصل معي، أصابني سعال لمدة خمسة عشر يومًا، فاجأتني رغبتي في الموت، وفي التوقّف عن الصراع، كان هذا إذًا سهلاً، يكفي أن تتوقّف عن التدويس وأن تترك نفسك تنزلق إلى الأعماق، كما نسلّم حياتنا إلى سائق القطار، دخلنا إلى الأنفاق مجدّدًا، وصلنا إلى **Sette Bagni** هذا ما تقوله لوحة الإرشاد، «محطة الحمّامات السبعة»، أيّة مصادفة غريبة، نحن على بعد كيلومترات من روما، اقتربت كثيرًا، خفت ألا أصل، أخشى ألا تقدر ساشكا فعل شيء من أجلي، تأخّر الوقت

جدًّا، إنّها بعيدة، بعيدة بين القدّيسين، في بياض الغراء الذي يُطلى به خشب الأيقونات، تظنّ أنّ فرنسيس سرفين عالم حشرات محترم لن يسيء لفراشة، وسيتوجّب عليّ أن أواجه العالم وحدي، متحرّرًا من حمل الموتى الذين يثقلون عليّ، عزيزي إيفان لديّ انطباع جديّ بأنّنا أخفقنا في كلّ شيء ونحن نواصل الشرب على هذا النّحو، ونلطم أفخاذنا ويثأر بعضنا من بعضنا الآخر لمدّة قرون، الآلهة هزئوا بنا ونالوا منّا، والآن سنموت وحدنا دون أيّ أمل في الانبعاث، في القدس، كانت كنيسة القيامة غارقة في البخور، والجلجلة والقبر يبرقان وسط نزاعات الكهنة ووفرة اللغات الليتورجيّة، نحت المؤمنون الجبل والصخر بصبر لكي يبنوا كنيستهم حول القبر، كتب يوحنا نسر بطمس أنّ يوسف الرامي، تلميذ المسيح، طلب سرًّا الإذن من بيلاطوس أن يسمح له بإنزال جثّة المسيح عن الصليب، فوافق بيلاطوس وكان متفاجئًا من أنّ الناصريّ مات أصلاً، جاء يوسف الرامي إذًا وأنزل الجسد الثقيل برفقة نيقوديموس الذي جلب مزيجًا من المرّ والألوّة، مقدار عشرون ليبرة ثم حملا المسيح الناحل ولفّا جروحه بالضمادات وطيّبا جسده، وفق الطريقة التي يدفن بها اليهود موتاهم، وفي المكان الذي صلب فيه المسيح، كانت هنالك حديقة، وفي الحديقة قبر جديد لم يوضع فيه أحد من قبل، وهناك وضعا المسيح المكفّن في قبر صخري مطيّبًا، وبذلك نجّي جسده من الفساد بالأصماغ الطيّبة الرائحة مثل ساربيدون الشجاع ابن زوس المغسول في السكاماندر والممسوح بالرحيق، ليس بمقدور الآباء فعل شيء لينقذوا أبناءهم، لا الله الواحد ولا زوس الرعّاد، لكن بالإمكان حجب الفساد والعفن والذباب عن الجسد كما ملأت تيتس منخري باتروكل الإلهيّ بأري الزهر ليحمي جسده من حجافل الديدان، يسوع ابن الله

الذي حمله النّوم والموت بعيدًا عن الفانين، الموضوع في الأكفان في قبر صخريّ، القبر الذي يعتبره ناثان إحدى ثروات إسرائيل ومركزًا جاذبًا للسيّاح بين المساجد اللامعة وجدار الهيكل وباب دمشق، أورشليم تراكم التاريخ والموتى وأشكال الدمار والإعمار من جديد، منذ الصليبيّين أكلة لحوم البشر والفرسان الهوسبيتاليّين ذوي القمصان الجميلة وصلاح الدين وأحصنته الصغيرة، وجميعهم قتلة كبار للكفّار، أورشليم المثلّثة القداسة، مثل منارة في عمق المتوسّط بانتظار عودة المسيح ويوم القيامة الذي تتّفق عليها الديانات الثلاث، لكنّ المسألة هي في معرفة متى وكيف ومن سيترّأس يوم الدينونة عندئذٍ سيعودون جميعًا متّى من أثيوبيا، ومرقس من الإسكندريّة، ولوقا من إنطاكية، ويوحنا من أفسس، جميعهم سيعودون، القدّيسون والمجانين، والملائكة وقارعو الأجراس والجثث الممزّقة بالسيوف القصيرة، والسهام الحادّة والرماح، سينهضون يفوح منهم عطر التوابل، وبلال الحبشي مؤذّن الإسلام سوف يؤذّن، وعمر الحكيم وعلي بسيفه ذي الفقار، جميعهم سينهضون وسط البلبلة الجميلة، الأنبياء الصارمون، وابراهيم المضحّي، وهاجر الجميلة المهانة، واسماعيل الذي تحدّثت عنه النبوءات، واسحق الأعمى ويعقوب المصارع، وعيسو عاشق العدس، والآلهة سوف يقتاتون من لحوم الأكباش والأغنام التي سيقدّمها لهم كلّ هذا الحشد الجميل، على قمّة الهيكل الموعود ثلاث مرات، هناك حيث تجنّح نحو السماوات رؤوس الاستشهاديّين الفلسطينيّين مثل سدادات شمبانيا إلهيّة، إبّان الاحتفال بنهاية الأزمنة، الألعاب الناريّة الأخيرة، المجسّدة مقدّمًا بانفجارات الحرب، وهذا كلّه ليس إلا مرحلة انتظار قبل أن يقرّر الكون بأن يعود صغيرًا ويتوق إلى العدم، كلّ هذه الذكريات الحارقة في أورشليم التقينا بحشد

من الملهمين، المسيحيانيّين، المتعصّبين للإله فائق الوصف أو للمسيح أو لله المفارق، حاملين في أيديهم أجراسًا، مرتدين أثوابًا من المسوح ومرسلين لحاهم الطويلة، مستعدّين لوعظك وهم يحدّدون لك يوم الدينونة، في المقرّ الأخير بعد الموت، لكنّ أورشليم هي أيضًا وطن الحقد على الآخر والضغينة والوهم الصوفي، حيث ناثان ابن الناجين من لودز ينظر إلى كلّ هذا الحشد بمتعة، إنّه الفولكلور، كان يقول لي، تعرف أنّه فولكلور أورشليم، مثل التزلّج في ميجيف، لدينا هنا الديانات، وأورشليم تجمع وارداتها من هذه العقائد منذ آلاف السنين وهذا لن يتغيّر بين ليلة وضحاها، كان قبر المصلوب يبدو صغيرًا جدًّا في النهاية وسط فجور الإيمان هذا، جلبت لأمّي الزيت المقدّس المبارك لا أعرف على يد أيّ من البطاركة، وأيضًا أيقونة صغيرة وصورًا عن كنيسة القيامة، أخذت القارورة الزجاجيّة ترشح في حقيبتي، وعلى جواربي فأصبحت قادرة على شفاء العديد من المرضى بالطاعون أو ردّ أكثر الملحدين انحرافًا إلى الدين القويم لفرط ما كان الطيب المتصاعد منها قويًّا، هذا لم يضحك إطلاقًا ماريا ميركوفيتش الصارمة، قالت لي، ذات يوم ستدفع الثمن جزاء كفرك، أنت الذي حظيت بفرصة زيارة القدس، واعتراني خوف شديد، خوف طفولي من أن تكون على حق، وأن أنتهي مصعوقًا بغضب الجبّار قبل أن أقف على جلاء الأمر، فانسكاب القليل من الزيت، ولو كان مقدّسًا، على القطن لم يكن اسوأ شيء فعلته، هناك ما هو أسوأ بكثير، هل كلّ شيء فعلناه سندفع ثمنه يومًا، ربّما، كان ناثان ستراسبرغ يحدّثني عن أهله الذين نجوا من لودز مدينة اليهود والذين يقيمون اليوم على ضفّة البحر الأزرق، كان والده مقاتلاً بارزًا في المقاومة ووالدته من الإثنيّة الألمانيّة في المدينة ذات الثقافات الثلاث

التي أعطاها النازيّون اسمًا جديدًا لينزمان شتاد، وهو اسم جنرال غامض تألّق في حرب 1914، كانت لودز مدينة الآجرّ الأحمر، حيث تنشط الصناعة، وكان اليهود يمثّلون أكثر من نصف السكّان، وكانت أم ناثان ألمانيّة وعائلتها من أصل بروسي مقيمة هناك منذ ثمانينيّات القرن التاسع عشر لحظة ذروة ازدهار صناعة النسيج، وهي مناضلة شيوعيّة وداعية إلى مساواة المرأة بالرجل، ومنذ ذلك الحين ارتدّت إلى اليهوديّة وتعيش في فلسطين، أرض الآلهة، في لودز كانوا يتكلّمون اللغة اليديّة والألمانيّة والبولونيّة، منذ ربيع 1941، منذ إنشاء الغيتو، وكان مئة وستّون ألف نسمة من اليهود في أمرة الملك حاييم رومكوفسكي الملتبس، أرسلت أولى قوافل المرحّلين غير المنتجين إلى شلمنو ليلقوا حتفهم في شاحنات الغاز- كذلك في بلغراد استخدموا في السنة نفسها شاحنات صغيرة مجهزّة بشكل خاص لكي يتخلّصوا من يهود فارثلاند، وكان السائقون المنتمون إلى القوّات الألمانيّة الخاصّة ينزّهون الجثث العارية في الرّيف لينقلوها إلى المقابر الجماعيّة المحفورة وسط الغابات، الانتقام، الانتقام، هذا ما هتف به والد ناثان ستراسبرغ بعد 1942، وقد فرّ بأعجوبة من السجن بفضل زوجته الألمانيّة ليلتحق بصفوف المقاومة البولونيّة ويناضل ضد النازيّين في الغابات لجهة لوبلين، ولم يكن يعرف أن مئات الآلاف من أبناء ديانته أبيدوا على مسافة قريبة من سوبيبور ومادياننيك، وأنّ جميع أطفال لودز ماتوا سوية خنقًا بالغاز، آلاف الصبية الناحلون الباكون عهد بهم رومكوفسكي المأسويّ إلى الألمان، كان يقول: «**أعطوني أولادكم، يلزمني عشرون ألف طفل أعمارهم تقلّ عن العاشرة**»، هكذا كان يصرخ في مكبّرات الصوت «**أضحّي بالأطراف لأنقذ بقيّة الجسد**»، وجميع الأطفال لقوا مصرعهم، كان الغول

الألماني يعرف كيف يلوي ذراع المسؤولين اليهود والمقتنعين بأنّ العمل سوف ينقذهم، وأنّ الانتاج سوف ينقذهم، لم يفهموا، لم يفهموا أنَّ المسخ لم يكن عقلانيًّا وأنّ رأسه كان في دوائر أخرى، في الغيوم السوداء للدمار، وأنّ اليهود أُبيدوا، عاد ستراسبرغ الشجاع الذي أصيب بجراح أواخر 1943 إلى لودز عام 1945 ورأى هول الكارثة، يجب الانتقام، كان ناثان يجهل متى بالضبط التحق والده بمنتقمي فريق ناكام، بعدما وضع زوجته وأخته في مكان آمن، كان الليل طويلاً عام 1946، لم يكد الفجر يبزغ حين تمركز أعضاء اللواء اليهودي لفلسطين شمالي إيطاليا، عند حدود النمسا، واغتال بطريقة سريّة كلّ النازيين، والفاشيّين الذين وقعوا تحت أيديهم برصاصة في رقابهم، كان أبا كوفنر الشاعر المقاوم الذي ينظّم الهجرة السريّة إلى فلسطين يريد أكثر، يريد ستّة ملايين ألماني ميتًا، إنّه الانتقام، الحقيقي، مرفقًا بالخطط الأكثر جنونًا، أراد أن يسمّم شبكة مياه الريّ في نورمبرغ، أراد أن يقتل أسرى الحرب في معسكر لانغفاسر، إلى أن نجحوا أخيرًا بقتل بضع مئات من المساجين الألمان بالزرنيخ، من المستحيل معرفة عددهم بالضبط، سيّما وأنّ الأميركيّين المسؤولين عن هؤلاء المساجين قلّما كانوا على استعداد للاعتراف بالمجزرة، ثم اتّجهوا إلى فلسطين ليكرّسوا وقتهم لنيل الاستقلال لدولة اسرائيل عن طريق القتال، وهذه المرّة قاتلوا البريطانيّين - الانتقام عذب في حينه، كان غضبي مسعورًا بعد موت أندي، أحدثتُ كارثة، أحدثنا كارثة في القرى حول فيتاز، البيوت التي تحترق، والصراخ، والبؤس، وجماعة المدنيّين هذه قبالتي، لم يكن هناك محاربون مدرّبون يحسنون استخدام الأسلحة بل رجال في الأربعين من أعمارهم في ثياب العمل ذعروا من تلقّي ضربات بأسفل البنادق التي

انهالت عليهم، مساكنهم محترقة، كانوا مهانين دامعين وكنّا نرميهم بالرفوش لكي يحفروا خنادق وسط الألغام والقصف، فكّرت بأندي الميت السابح في غائطه الضائع المختطف قبل أن نتمكّن من القتال لكي نحتفظ بجثّته، فكرّت بفلاهو وذراعه المقطوعة والرقيب ميليه الذي صرعته رصاصة في منتصف جبينه يجب الانتقام، كان أحد المساجين يبتسم، الوغد كان يبتسم، وجدنا مضحكين، أضحكناه بغضبنا المسعور، لماذا كان يبتسم، لماذا، ليس لديه الحقّ بالابتسام، وجّهت له صفعة هائلة فضحك، كان وجهه متّسخًا، عيناه نصف مغمضّتين جرّاء الكدمات وظلّ يضحك وهو يمدّ لي لسانه الضخم الأسود، نظر إليه المساجين الآخرون مذعورين، لأنّ هذا المجنون سيجرّ عليهم الانتقام الإلهي، كان يسخر منّي، كان المنغوليّ يسخر منّي، يسخر مني ومن أندي ومن فلاهو وميليه ومن كلّ أمواتنا ومن أمواته حتى، أمدّتني أثينا بقوّة هائلة، جميع الآلهة وقفوا خلف ذراعي اليمنى عندما سحبت حربة أندي من غمدها، عثرنا عليها خلف فراشه، ساندني الآلهة كما ساندوا سايبت هافرنلي المدفعيّ التركي وقذيفته البالغ وزنها أربعماية ليبرة، كما ساندوا ديوميد ابن تيديه عندما جرح آريس نفسه، أطلقتُ صرخة حريّة بأندريا الغضوب وانهلت بالنصل الطويل على المسلم الضاحك، ومعي الجبروت الإلهي، الجبروت الذي يأتي من الأحشاء، من القدمين في الأرض، موجة من الغضب العاتي، حركة كاملة من اليمين إلى الشمال لا تتوقّف عند حدود الجسد، حركة تتواصل حتى السماء حيث تتصاعد صرخة غضب ومعها ينبجس دم الضحية مثل عمود أحمر فائق الوصف، انتفض جسده، انتصبت كتفاه، رأسه الضخم لا يزال يضحك أرضًا، عيناه تومضان قبل أن يتداعى جذعه، وكلّ هذا مصحوب بوشوشة الشهود الملطّخين بالدماء الذين لا

يصدّقون ما يرونه، لا تزال لديَّ القدرة على دحرجة الرأس المقزّز برفسة عنيفة، غير منذهل من قدرتي بالذات، خارجًا عن طوري، خارج العالم منذ ذلك الوقت في ديار هاديس جنّة المحاربين، لك أنت يا أندي أقدّم هذا الرأس الدامي الذي يتدحرج في المنحدر، هذه الرفسة في اللحم اللدن قبل أن أشهر سلاحي إلى السماء، ابتعد الجميع عن المجزرة، ابتعد الجميع عن المعجزة، أحد المساجين فقد وعيه وسقط في الدم الأسود لأبله القرية، للقدّيس الذي قطعت رأسه تمامًا بشكل رائع فيها كجداريّة قروسطيّة، الشهيد المقطوع الرأس يضطجع على الأرض البوسنيّة من دون أن يندفع أحد لتلقّف رأسه على صينيّة من ذهب، واضطلعنا بأمور أخرى، بحريق آخر، بأعمال اغتصاب ونهب ومجازر أخرى حتى الفجر، عند الفجر عدت إلى المعسكر مرهقًا بالرغم من المخدّرات وأصابعي منقبضة قليلاً بالرغم من الكحول، جلست على فراشي وانحنيت لكي أفكّ شرائط حذائي، فألفيتها دبقة من الدم، الشرائط واللسان أيضًا، أيّة قذارة، ايّة قذارة، شعرت بالغثيان، لا بأس تركتني الآلهة وحيدًا، وحيدًا مع الدم والافرازات، والفواق، والقرف، والتعب، والندم- لم أقطع رأس ميدوزا المرعبة مثل كارافاجيو، بل قطعت رأس فقير مجنون ساذج خفيف العقل، يطاردني لسانه الضخم المسودّ، وتطاردني عيناه المندهشتان وضحكته، مجنون محطّة ميلانو كانت له تقريبًا النظرة نفسها- مدّ لي يده فرفضت ان أصافحه، بئس ما صنعت *erbarme Dich, mein gott, Herz und Auge weint vor dir bitterlich* أشفق عليّ يا أبت وانظر إلى قلبي وعينيّ الباكيتين بكاء مرًّا، أفكّر في ليون سالتييل من سالونيك، هو انتقم أيضًا، عذّب حتى الموت الرجل الذي خانه وخنق زوجته التي يحبها وهو يبكي، وترك جثّتيهما ثم ذهب إلى حانة تغصّ

بالزبائن ليستمع إلى روزا أشكنازي تغني **To Kanarini**، طلب ليون سالتييل الأوزو على أنغام موسيقى الـ**Rebetika**[1] والكمان والقيثارة والصوت المثير لروزا الجريئة بنبرتها الإستنبوليّة، لم يعد هناك يونانيّون في إزمير ولا في استنبول تقريبًا، أغاتا توفّيت، كانت عيناها المحملقتان تغيبان بعذوبة في مقهى ستافروس بالقرب من جثّة عشيقها، وداعًا، زبائن الكاباريه يظنّون لغبائهم أنّ ليون يبكي بسبب الموسيقى ***bitterlich*** بكاء مرًّا، رأس المجنون المسلم يتحلّل في ذاكرتي، بالقرب من رأس يوحنّا المعمدان ورأس الرهبان السبعة في تبحرين ***erbarme Dich mein gott, hot erbarme dich*** لأنّ الموت واليأس ينتشران من حولي مثلما تشظّى دماغ أحمد على أحد جدران بيروت، من الذي انتشلني من القنال في ليل البندقيّة، ولماذا، وما جدوى ذلك، لكي أذهب إلى خدمة قوى الخفاء أملأ هذه الحقيبة التي تزداد ثقلاً، القطار يسرع، القطار يجب أن يصل إلى وجهته مثل أحصنة أخيل، مثل أحصنة أخيل، القطار يهمس لي، مصيري في أذني تاتاكتاتوم، تاتاكتاتوم، القطار ينبئني بأنّ الكرما[2] الخاصّة بي تنزف دماءً غزيرة وستعيدني توًا إلى الخنفساء، إلى الخنفساء توًّا دون أن أمرّ بمرحلة القرد

---

(1) «ريبيتيكا»: موسيقى شعبيّة يونانيّة ظهرت في عشرينيات القرن الفائت وروزا أشكنازي من أبرز نجوم الغناء فيها.

(2) الكرما أو القدر عقيدة أساسيّة في الديانات الهنديّة تقول بأنّ كلّ عمل أو تصرّف يصدر عن الإنسان هو مقدّر له.

الفصل الرابع والعشرون

عندما صرخت بي ستيفاني قائلة أنت وحش، كان عليَّ أن أحدس ذلك، كانت تعرف كلّ شيء، بالطبع، كانت تعرف، منذ متى، لا أعرف، منذ البداية ربّما، أرادت أن أقول لها الحقيقة أن أعترف أن أبوح لها وأنا أبكي على كتفها، أرادت أن أستدرّ تعاطفها، أن أبوح لها بخطاياي المميتة، أرادت أن تغفر لي، كانت تعتقد أنّ لديها القدرة على الغفران، لكن استوجب الأمر الاعتراف، أصبح الحمل ثقيلاً جدًّا، أتصوّر أنّ الفضول هو الذي دفعها لتعرف، بعد حادثة الفيلم الوثائقي الإنكليزي دون شك، بعد العنف الذي شاهدته في ذلك المساء، طلبت من أحد أصدقائها المتبوّئين مركزًا عاليًا ملفّي الشخصي، لا بدّ أنّها أعربت عن قلقها وأفصحت عن انفعالها وناورت، ستيفاني لا تتخيّل أنّها قادرة على أن يمسّها الظل الذي تتلاعب به هي نفسها وأن يلوّثها هاديس حيث يعيش جواسيس الطابق السفليّ، أتخيّل سحنتها، ودموعها، وحزنها، هل هي مستعدّة لتقبّل الحقيقة الإداريّة، التقارير الباردة الموضوعة على الطاولة المحروسة جيّدًا من الآلهة، كانت ستيفاني تشبهني كثيرًا، عندما قرأت الاستنتاجات الموجودة في التحقيق عن فرنسيس سرفين ميركوفيتش، رأت نفسها، رأت نفسها في خضمّ هذه الحياة، وشعرت أنّها غيورة

ومرتعبة ومشمئزّة، قال لها رسول النوم أشياء كثيرة، أظنّ أنّها بذلت جهودًا وهي تنتظر، تنتظر أن أروي لها، أن أعترف لها بما لا يقال، ولم تجرؤ على أن تحدّثني في الأمر، كانت خائفة في الوقت نفسه من أن تجعل المسخ يعلن عن نفسه، كانت تنظر دون أن ترى، تعلم دون أن تعرف، وأنا نفسي كنت أبله بشكل خاص لأنّي لم أحزر، لأنّي لم أفهم بأنّ مصيري له وزنه، وبأنّ الظلّ التهمني ولن يكون سهلاً عليّ النجاة، هذا في حال استطعنا النجاة منه، في استانبول السامية، أمضينا بضعة أيّام على البوسفور، بين عالمين، رحلة الحظ الأخير، بين عالمين، لا بل بين ثلاثة عوالم، كانت العاصمة العثمانيّة مركز المتوسّط لوقت طويل، البوسفور أكثر اتّساعًا من الدانوب بقليل، والمدينة التي تقسمها مجاري المياه تعوم فوق الدردنيل المحروس، فوق طروادة الشهيرة، على ثغور البحر الأسود الذي يغمر سيباستبول والقوقاز، من طنجة إلى استانبول، كانت هنالك أمتار مكعّبة من الجثث، من الجثث والأنقاض والمصائر، في استانبول، اشتهرت روزا أشكنازي اليهوديّة كثيرًا في الثلاثينيّات، ولدت روزا حوالي عام 1900، كانت تدعى في الحقيقة سارة، وتتكلّم اليهوديّة -الإسبانيّة والتركيّة واليونانيّة، كان والدها يعتمر طربوشًا ويمتلك مستودعًا في سكوتاري، لم تكن ستيفاني تهتمّ بحياة الديفا الكبيرة روزا أشكنازي، ديفا الـ Rebetika، أغاني الحانات والحشيش والأفيون والكحول والحبّ والوحدة واليأس، لم تكن تحفل بأنّ القسطنطينيّة روما جديدة، بدت معذّبة، سريعة العطب ولحظات الحزن الأسود تتداخل لديها مع لحظات الحنان السخي، كان حبّا يائسًا تقريبًا لشخصي، فكّرت بروزا إشنكازي المستفزّة، بليون سالتييل وبهذه الأغنية حيث روزا تتحدّث عن لذّة أن تكون لديك نارجيلة في الفم، الإثارة

المزدوجة التي يحدثها ذلك، إثارة المخدّر وإثارة الحب، كانت ستيفاني تفضّل صور المسيح المتجلّي في مجده والكنائس البيزنطيّة ومساجد سينان على الحانات التركيّة «المايهان» المليئة بالدخان، بدت يائسة لأنّني كنت أشير دومًا للموسيقيّين بأن يأتوا إلى طاولتنا ويعزفوا لنا، وعلى الفور كان وجهها يتجهّم وتشخص إلى كأس العرق الذي تتناوله، لم أكن أفهم تجهمّها بالطبع، أخذ الكمنجاتي وجوقته يعزفون اللحن «**عندما تذهب إلى أوسكودار**» أو أغنية أخرى لم أكن أفهم منها كلمة ومع ذلك كانت تسحرني، فتشتكي ستيفاني: «لا أتحمّل هذا المواء»، بالطبع ليس هذا العازف باغانيني، إنّه تركيّ ضخم أصلع ومشورب لكنّ قائمة الألحان الموسيقيّة والمكان يناسبانه تمامًا، لكنّها راحت تقول لي كيف بإمكانك أن تتحمّل هذه الموسيقى؟ أو بالأحرى أتساءل ماذا ستفكّر والدتك لو رأتك؟ لكن ما دخل ماريا ميركوفيتش في كلّ ذلك، لم أفهم أين تريد أن تصل، لم أجب بشيء، ثم عدنا مشيًا على الأقدام، من بيوغلو إلى الفندق الذي نزلنا فيه أمام القدّيسة صوفيا، التفّت حولي مثل أفعى لكي تتّقي البرد ونحن نجتاز القرن الذهبي، كان الجسر العائم يهتزّ قليلاً تحت أقدامنا ويزيد اهتزازه من مفعول العرق الذي شربناه، رحت أتخيّل المراكب التركيّة ملاصقة للسلسلة غير المتوازية التي تقفل المنفذ إلى مرفأ بيزنطية، والقنابل اليونانيّة التي يقذفها اليونانيّون المذعورون من الأعالي، والليل المخدّد بألسنة اللهيب، كانت ليلة صافية مضيئة، وفي فجر أيار 1453، توجّهت السفن لتتحضّر للهجوم الأخير على أسوار المدينة، في هذه الساعة، أتى الإنكشارية ليفتحوا ثغرة بالقرب من باب بلاشرن السريّ، بدأ الهجوم منذ منتصف الليل، أمسِ رفع الإمبراطور قسطنطين والنبلاء والكهنة صلواتهم طويلاً للقدّيسة

صوفيا، وابتهلوا للربّ بأن يشفق على روما الثانية، صلّوا للرب وأمّه القديسة: *Axion estin os alethos*[1] وجميعهم مرتعبون ومصمّمون على مواجهة المصير الأسود والدمار والموت أو العبوديّة، توفّي قسطنطين الأخير في حوالي التاسعة من اليوم التالي، خلع ثوبه القرمزي ونزل من الأسوار ليقاتل في الشارع، في مدينته، أدرك أنّه خسر كلّ شيء، لم يسعَ إلى الهرب بل ارتمى في المعركة ليموت حاملاً على كتفيه وزر أجداده منذ قسطنطين الكبير، منذ أغسطس، منذ الآخيّين الجبابرة والطرواديّين المهزومين، يدفعه بريام ليتمثّل بمن سبقه، اخترق رمح تركيّ خاصرة قسطنطين ثم رمي بسهم، ثم طعن بسيف وغطّى حجاب الموت عينيه، لا يعرف أنّ أبولون يحمل جثّته بعيدًا عن وطيس المعركة لكي يغسله في مياه أوروبا العذبة ويعهد به إلى الجزيرة البيضاء، في اللحظة التي دخل العثمانيون إلى كنيسة القديسة صوفيا المهيبة، وسط دموع العائلات التي التجأت إلى هناك، أنظر برفقة ستيفاني إلى البازيليكة المضاءة من نافذة غرفتنا، ثمّة ناقلة نفط تعبر البوسفور، آتية من البحر الأسود لتجتاز بحر مرمرة وتجوب الدردنيل المتوحّش وتعبر في عرض كيليتياهير الحصينة منحدرة إلى الجنوب سائرة بمحاذاة طروادة متجاوزة المورة ومقلعة إلى الغرب تمامًا على المنبسط البحري الأملس مثل شاهدة ضريح، وفي غضون ثلاثة أيام ستكون قبالة مسينا، المضيق الأوسع بقليل من البوسفور، هذا إذا كانت ذاهبة إلى مرسيليا أو برشلونة، وإلا فسوف تجول سواحل بلدان البربر حتى طنجة وجبل طارق حيث ستوجّه إليها قرود الصخرة التحيّة الأخيرة ومن ثم تضيع في الأطلسي عند تخوم العالم- كانت ستيفاني تلتصق بي، أتنشّق عطر شعرها وعيناي سارحتان في

---

(1) هذه العبارة في اليونانيّة تعني: «هو مستحقّ حتى اللامتناهي».

أضواء المسجد الأزرق والتماعات كبلات مراسي السفينة، في أذني لا تزال Kamance[1] الحانات، شعرت بتخدر خفيف بفعل تأثير العرق، والحضور الدافىء لامرأة قربي، أحيانًا هناك لحظات معلّقة، بين لحظتين، في الهواء، في الأبديّة، رقصة الكتف فيها لصق الكتف، حركة يد، ثلم يشقّه مركب، البشريّة تسعى إثر السعادة، ثم يتهاوى كلّ شيء، من جديد، كلّ شيء يسقط مجدّدًا، تعود ستيفاني متوحّشة، متجهمّة، أعرف السبب، كانت ترى في القبب والعطور والنارجيلات والكمنجات جانبًا بربريًّا، جانبي البربريّ، تتخيّل رفاهيّة الشرق المقاتلة والمتوحّشة، تتخيّل الخوازيق، وقطع الرؤوس، كانت تخاف منّي عندما أنادي عازفي الكمان، تخاف ممّا أخفيه في داخلي عنها، من ذاك الآخر الذي لا ينضب، فتسلّم أمرها إلى والدتي حارسة النظام، الغربي، إلى لوي فردينان سيلين الجبان الكبير مهاجم الغيريّة، كانت تستشفّ مثل مستشرقة رومنطيقيّة الآثار المؤذية للمخدّرات والوحشيّة العنيفة، وفكّرت بقصيدة كافافي الميت- الحي، الموظّف في الاسكندرية: «السقوط عند المساء»، غالبًا ما تسقط المدن، غالبًا ما يدور العالم، هل هناك من مكان للأحزان، هل من مكان للتحسّر على ديونيسوس عندما لا نعود سكارى- الأتراك جعلوا من استانبول المدينة الأولى في المتوسّط، جعلوها منارة، ومعجزة جمال وثقافة، كانت ستيفاني حزينة لأنها ترى فيّ المحارب القاتل، تحبسني داخل عنفي ولا تغفر لي، أعرف ما الذي قرأته، ليبيان أجرد مطعم وبلر، كان لديه أيضًا هديّة لي، انطلق إلى تقاعده مسرورًا، ليبيان القلق ولكن المسرور لكونه قادرًا على تكريس وقته للدرّاجة والمحار وأحاديث المقاهي، نظر إليّ بلطف بعد أن شكرني على مسدس

---

(1) Kamance: آلة موسيقيّة تشبه القيثارة والرباب في آن.

زاستافا 7,65، الهديّة أثرّت فيه بشكل خاص، قال لي، فرنسيس جئتك بهذه الصفحات اقرأها، أنه امر مفيد، خذ علمًا بها، كان الأمر يتعلّق بملفيّ الشخصي، بالتحقيق التمهيدي، مذكّراتي المختلفة والمهمّات المسندة إليّ وأيام العطلات التي طالبت بها وأيّام التغيّب وأهلي وصداقاتي السياسيّة في مراهقتي وأوضاع خدمتي العسكريّة وحياتي، بما فيها النشاطات الكرواتيّة، والبوسنيّة، وكلمات مثل **جرائم حرب وابتزاز، وتعذيب** ، وأسماء رؤسائي آنذاك، والأقسام المتعلّقة بملفّ محكمة الجزاء الدوليّة على وادي نهر لاتسفا التي كانت تخصّني، هذه المذكّرات ترقى إلى ما بعد دخولي بوقت طويل إلى الوظيفة، إنّ قوى الظل لا تخطىء «**في الملاحقة**»، في البروفيل السيكولوجي، تمّ التعريف بي مؤخّرًا بصفتي أميل إلى **إدمان الكحول والاكتئاب والتنحّي عن مسؤولياتي** ومع ذلك اعتُرف لي بالوفاء والوطنيّة والنزاهة، وعدم استعدادي للتخلّي عن الأمانة الموكلة إليّ، وعدم اهتمامي بالمال، والهواية الوحيدة المعروفة لي هي شغفي بالتاريخ، كان هذا مثار سخرية، التحقيق الأخير يعود إلى السنة الفائتة، من أوصى به، كنت أعرف بالطبع أيّة شيفرة سأجد في أسفل الصفحة، وما الحجّة التي استطاعت التذرّع بها «**من أجل تعيين محتمل**» تظاهرت بأنّها تريد توظيفي، المحتالة، لكي تطلّع على أكبر قدر ممكن من شأني، كان الالتماس موقّعًا منها ويحمل رقم المكتب، قامت بذلك صراحة، صراحة، لأنها لم تعد تحتمل وتريد أن تعرف، هل استطاعت تحمّل النتيجة، في استانبول، كان الشغف لديها مشوبًا بالقرف، في باريس اكتشفت أنّها حبلى، كانت هذه الفرصة الأخيرة، ووداعًا، وداعًا يا فرنسيس الرهيب، أخذت علمًا بالأمر، كما كان يقول ليبيان، أيقنت أنّ نتائج التحقيق لم تكن تشير إلى إيفان دوروا المجنون الضائع في فترة مراهقتي،

اغتصبْتُ هوّيته بسهولة صفيت شقّتي، ووداعًا، ها أنذا في قطار يقترب من روما، يقترب من نهاية العالم، من ساشكا الذهبيّة التي لا تهتمّ للحقيقة ولا تنفعل لما يحدث في الخارج، تعيش في انفصال، وتعيش مطمئنّة البال مع رسوم الأيقونات المقدّسة، شهيّة ولا تطال، جسد ساحر لحضور دون روح، وهم إضافيّ، لم تذهب ساشكا قطّ إلى البوسفور *Nikogda ja ne byl na Bosfore, Ty menya ne sprashivaj o nem*، لم أذهب في حياتي إلى البوسفور، لا تسألني عنه، عيناها من الزرقة بحيث لا تحتاجان لذلك، لديها التيبر والكنائس وذكرى البحر الأبيض، في موسكو، في مكان ما، تزاول ستيفاني عملها، هل تفكّر في إيسينين وفي مدينة الألف جرس وجرس والألف وثلاثة أبراج، وداعًا، لديّ حقيبة ملأى بالموتى واسم مستعار وبضعة كيلومترات أمامي، ووداعًا، إنّه الهدوء بعد الانتقام، السلام عليك يا أندريا، حتى في أعمق أعماق هاديس سألتقي بك، كلّ شيء يهرب مثل المنازل الملوّنة للضواحي الرومانيّة التي تجعلها فوانيس كانون الأول الحزينة صفراء -، الأنوار الأخيرة التي رآها إيسينين قبل أن يشنق نفسه أو قبل أن يشنقوه، الكاتدرائية المضيئة مثل القديسة صوفيا قبالة غرفة الفندق، *ja v tvoix glazax uvidel more*، في عينيك رأيت البحر، ليس هناك ما يُرى في عيني ساشكا الباعثتين على اليأس كالبحر، مثل نار زرقاء تزداد توهّجًا *Polyxajuchee golubym ognem* أعرف أين أريد العودة الآن، بعيدًا من ليل روسيا البارد، أريد أن أعثر على يوم دافىء بين أغامي ومرسى مطروح، على مسافة كيلومترات من الإسكندريّة، على الشاطىء الهائل، إنّه المساء، بحر المتوسّط معدنيّ، السماء ورديّة، الرمل ناعم، أنظر إلى عرض البحر، فوسفور البحر النقي يجعل العيون تطرف في شعاع الشمس المنحرف أرى شكلين ينزلقان خارج الماء ويقفز أحدهما خلف الآخر ويلتمعان، إنّهما

حزمتا ألوان كألوان قوس قزح، يمّمتا شطر الشاطىء بقفزات صغيرة، إنّهما دلفينان، دلفينان يلعبان في البحر الدافىء على مسافة بضعة قلوس من الشاطىء، لم أرَ دلافين من قبل، أنهض، إنّهما قريبان جدًّا لدرجة أنّني أرى لمعان جسديهما من الأمام، يثبان أمامي، ما من أحد سواي، عندئذٍ أركض بالطبع، يبدوان حقيقيّين لي على مستوى الأمواج، تدمع عيناي، لم يسبق لي أن رأيت منظرًا مماثلاً، منظرًا غير معدّ ليراه أحد، كانا يقفزان ترحيبًا بي، فوق مياه شاطىء مقفر، كهديّة قدّمتها لي الصدفة أو تيتس السخيّة، قفزت في الماء فغمرني كفن من النداوة، كان الشكلان الفضيّان يتقاطعان وسط السماء الورديّة، ملأ طعم الملح فمي، سبحت برفق نحوهما، كان الجمال هو الذي يناديني، الجمال والهدوء والسعادة التي لا تشوبها شائبة حيال الانسجام الذي يكتنف العالم، سبحت نحو الدلفينين لكي لا أجفّلهما، أردت أن أتبعهما، أردت أن أتبعهما وكنت سأتبعهما حتى موطن بوسيدون بعرفه الأثيريّ، كان غروبًا جميلاً لأختفي فيه، مساءً جميلاً يحلو فيه الموت أو العيش إلى الأبد مقتفيًا الأثلام التي تشقّها الثدييات البحرية أمامي، شعرا باقترابي منهما وأدركا الاهتزازات التي أحدثها في الأمواج، لم أكن جديرًا بهما، لم أكن جديرًا بهما فابتعدا بقفزة، آخر التماع للشمس الغاربة، وعدت وحيدًا ومن جديد على الشاطىء اللامتناهي، سوف ننزل عمّا قريب يا إيفان لكن ليس إلى مملكة إله البحر، بل سننزل من القطار، بدأ الركّاب يتململون منذ الآن، ينظرون عبر الزجاج إلى روما تقترب، يرون أنوارًا في الظلمات، أعرف الآن يا إيفان حان الوقت لتنظيم الجنازة، وإشعال محرقة لأجل فرنسيس سيرفين ميركوفيتش الذي ستفتقده أمّه كثيرًا وأخته، كلّ شيء يغدو أصعب في مرحلة النضج، كلّ شيء وقعه يزداد نشازًا، ولكنّ الآلهة تمنحك أحيانًا لحظات من صفاء الذهن ملتمعة كشرارة، أوقاتًا تتأمّل فيها الكون

بأسره، وعجلة العوالم اللامتناهية، نرى أنفسنا من علُ لبضع دقائق في الحقيقة ومن ثم نعاود الرحيل، مدفوعين إلى التتمّة، إلى النهاية، مدفوعًا إلى المرأة التي تنتظرني هناك، تلك التي ستفتح لي الباب والتي أمامها أترنّح خجلاً وسكرًا، عيناي تطرفان ونفسي كريه والرأس مترنّح مثل شمس مقطوعة، تلك التي تنظر إليّ دون أن تراني، عميق الصدع الذي يفصلنا وعميق الجرح في صدري، تلك التي لا يبدو عليها أنّها تعرفني، لأنّ للحياة خفّة، خفّة الأجساد التي تتخبّط فيها، هذه المرأة تشكّ بي سيّما وأنّ رائحة الكحول تتصاعد من ثيابي، وأنا الذي قطعت البحر لأوافيها، واجتزت سهوًا المسافة التي تفصلني عن باريس، أنا الذي أخرجتني مضيفة في طيران الشرق الأوسط لبرهة من سكري وساعدتني على الصعود إلى الطائرة، أنا الذي يمكن لنقفة اصبع أن تقذفني خارج العالم، انا الذي لم أعد أشتهي شيئًا، ولا حتى النوم الذي أخشى الاستفاقة منه ولا حتى المرأة التي لا تنتظرني والتي أرغب رغبة شديدة في حضورها، قبل أن أستغرق في الشرب والطيران وأشعر بجسدي متصلّبًا من جديد، سكران حتى الموت أعهد بأمري إلى السموات مثل ملاك، نائمًا نوم القتيل، مشخّرًا على علّو ثلاثين ألف قدم، فوق الغيوم حيث الليل مضيء، دومًا، هناك حيث يمكن أن تتأمّل كوكبات النجوم الثابتة والمجرّات، عشية العيد الوطني في الرابع عشر من تموز، كنت أجتاز **المنطقة** في الطائرة، بعد أن غادرت السفارة مساء، وكدت أن أزحف تقريبًا لشدة ما كنت ثملاً، توجّب عليهم أن يقتادوني حتى المطار، توجّب عليهم أن يقتادوني حتى قاعة ركوب الطائرة، توجّب عليَّ النهوض لكي أسير حتى الطائرة، ونمت سكران ميتًا في المطار الدولي للجمهوريّة اللبنانية، أقول ذلك دون فخر، مع الاحساس بشيء من العار، توجّب عليّ النهوض لاحقًا عند الوصول إلى مطار

رواسي، لم أر شيئًا من جبال قبرص ولا من جبال إيطاليا ولا من المنبسط البحري، لم أرَ الا سائق تاكسي سخر منيّ وظنّ أنّني وافد من الصين على الأقلّ أو من طرف آخر من العالم، وكنت أصل فعلا من آخر العالم لكي تكون لديّ سحنة مماثلة، وكنت أصل من آخر العالم وكأنّني آت من الجحيم، الجحيم الذي في داخلي، هذا ما تفكّر به المرأة التي فتحت لي الباب والخيبة تبدو على وجهها: خائبة تنظر إليّ وكأنّني جريح أو مريض شقّ صدره، سكران أنشدت البارحة المارسييز وأنا أزعق بأعلى صوتي، فكّرت بذلك عندما رأيتها، غنّيت **ليتشبّع تراب أرضنا بدمائهم القذرة**، برليوز العبقري الذي فعل كلّ ما بوسعه لينقذ هذا النشيد العسكري، كان برليوز يحبّ «أوفيليا المسكينة»، كما أحببتك، تلك هي أفكار الرجال الذين لم يستيقظوا من سكرتهم عند الصباح، هكذا تكون احتفالات السفارة مليئة بالكحول والسكارى والوطنيّة الرخيصة، كانت الحدائق واسعة، جميلة، كان هنالك شمبانيا ونبيذ وشراب اليانسون، وبذلات، صرخ السفير: «لتحيَ فرنسا» وصدحت موسيقى برليوز ومعها كلمات روجيه دوليل، واستمعت إلى «هارولد في إيطاليا»، كنت أرى هارولد، «وروميو وجولييت» و«الغابة الرومانيّة الصغيرة حيث ذهب هكتور برليوز ليصوّب على طيور الزاغ بمسدّسه لكي يروّح عن سأمه من الأكاديميّة الفرنسيّة، أجتاز الآن محطة تيبورتينا، برليوز يصف عذابات الطروادييّن الفخورين، وتسكّعات إيناس، كان برليوز يائسًا من روما ويفضّل جبال آبروز واللصوص الموجودين فيها، يحبّ السير بضعة أيام على ظهر الحصان للوصول إلى هذه النواحي، لم أكن أعرف ماذا يجدر بي أن أقول إلى ستيفاني، كنت لا أزال سكران، كان باستطاعتي أن أحدّثها عن برليوز، وأوفيلياه، وطروادييه، اليوم ماذا أقول لها سأقول أحببتك أكثر من أيّ شيء آخر، لا تحقدي

عليّ، سأخبرها قصّة انتصار الفلسطينية التي أنقذها شبح مروان، كلّ هذا بات بعيدًا جدًّا، ستيفاني بعيدة جدًّا وبعيد جدًّا الطفل الذي لم نرزق به في اليمبوس، أستياناكس الذي رُمي به، من شاهق أسوار طروادة، وهكتور مات، هكتور مروّض الخيول الأصيلة مات، وها هي روما، ها هي روما، في الحدائق الجميلة في سفارة فرنسا في لبنان، كنت ضائعًا، ضائعًا بين العوالم، عائمًا في الفضاء دون أن أعرف، متّجهًا منذ ذلك الحين إلى روما، إلى الطائرة التي تخلّفت عنها، والوثائق والكاتالوغات والقوائم في حقيبتي والكرادلة، والعلمانيّين وأمناء السرّ في المديريّة البابويّة الذين ينتظرونني، لا أزال في الحالة نفسها عندما غادرت بيروت أو حين وصلت إلى باريس، أمام تلك التي فتحت لي الباب، سكران من الركوب في القطار، من الهليكوبترات التي اجتزتها، من الموتى المتكدّسين على الطرقات والدروب، من ذكريات الحرب، ومن تريستا، ومن باريس حيث فتحت لي ستيفاني، أوقظتها من نومها، لمحت نهديها تحت التيشرت، كانت ساقاها عاريتين كساقي ماريان في فندق الإسكندريّة، كسيقان الهولنديّات في صور هرمان جيربنز وسيقان الجثث في يازونوفاك وساقي أندريا الملطّختين بالخراء، والسيقان المنفرجة والمدنّسة لفتيات البوسنة وساقي انتصار اللتين يعنّفهما أحمد، ومئات السيقان العارية، وصلنا أصلاً إلى روما، إنّها الأمتار الأخيرة قبل ترميني، القطار يسير متمهّلاً على آلاف الجثث الموضوعة الواحدة تلو الأخرى على أخشاب العوارض، الأجساد أحطاب يوقد بها، هذا ما كان يقوله شتانغل في تريبلينكا، هذا ما كان يقوله أيضًا أبي في الجزائر، إنّها قرميّات المحارق الجنائزيّة التي تُصنَع منها الأيقونات، أن ترصف الذكريات كالجثث في حفرة لكي تحرقها، كمن يشوي فخذي عنزة فتتصاعد رائحتها ويسيل لعاب الآلهة، هكذا أسالت

استدارات ستيفاني لعابي عند الصباح الباكر في باريس، إنّها بداية القرن بداية الألفيّة، ويجب إعادة بناء كلّ شيء من جديد، والسير، السير في قطار، وأنت مرهق متشنّج مرتجف متيبّس والقطار يتمايل متنقّلاً من تحويلة إلى تحويلة، استنفذ الانتقام، الموتى تكدّسوا ورُصفوا كما يجب، كانت ساقا ستيفاني عاريتين في ذلك الصباح الباريسي، وجاء دوري للذهاب إلى بيتها بشكل مباغت، وأنا عائد من مهمّة سريعة أسندت لي في بيروت منذ بضعة أيّام قالت لي إنّني وحش وإنّها لم تعد تريد رؤيتي، فلأجرّب حظيّ، أتيت إليها إذًا في الصباح الباكر وعيناي تحرقانني من النعاس والكحول، كنت سكران وخطرًا، مثل لوري في تاورمينا، وجويس في ترييستا، نظرت إليّ، نظرت إليّ دون أن تقول شيئًا، الأمر لا يستحقّ هذا العناء، لم تتنهّد، فقط نظرت إليّ بصمت وفهمْتُ، فهمت أنّ الباب سوف يُغلق وأنّ ساقي ستيفاني سوف تختفيان خلفه، وداعًا القبر ينغلق، وداعًا لم أستطع قول شيء، ولا أن أسالها أيّ شيء، جاء دوري لأمدّ يدي وأستغيث، ها نحن نسير بمحاذاة القناة الرومانيّة، نخترق الأسوار ثم الطريق المسدود لمحطّة ترميني، المسافرون ينهضون مذعورين، مثل حيوانات أزعجت في نومها، ينهضون جميعًا في الوقت نفسه، ويأخذون أمتعتهم ويجمعون الكتب والجرائد، أخرج خفية المفتاح الصغير وأحرّر الصندوق الصغير، الحقيبة خفيفة جدًّا، وثقيلة جدًّا في آن، يسير القطار بمحاذاة الرصيف، يفتح أبوابه، بتمهّل، أمسك حقيبتي، ها أنا واقف في الرواق بين هؤلاء الذين رافقوني في الرحلة، سنفترق وكلّ سيسير نحو قدره، إيفان دوروا أيضًا، سأذهب سيرًا على القدمين حتى الفندق، الحياة جديّة، الحياة حيّة، الآن عرفت! وداعًا ساشكا العاقلة، بإمكاني تدّبر أموري وحدي، لم أعد بحاجة لهذه الحقيبة، لم أعد بحاجة إلى دنانير الفاتيكان، سأرمي كلّ شيء في الماء، تلك

الأحطاب المجموعة لأجل محرقة هكتور، في اليوم العاشر، في اليوم العاشر، سأذهب مشيًا على القدمين حتى نهر التيبر المحتّم، بالقرب من جسر سيكستس وأرمي بهؤلاء الموتى في مجرى النهر ليجرفهم إلى البحر، القبر الأزرق، فليذهبوا جميعًا، الأسماء والصور سيأكلها الملح ثم تتبخّر وتلتحق بالغيوم، ووداعًا، إيفان دوروا سيوافي السماء أيضًا، «العالم الجديد»، وداعًا روما الأبديّة، في الطائرة، في مطار فيوميتشينو سأنتظر النداء الأخير لرحلتي، سيكون هناك المسافرون وستقلع الطائرة إلى وجهتها، سأجلس هناك على المقعد المترف دون أن أتمكّن من الحراك أو الذهاب إلى أيّ مكان، لا أحد، أنتمي إلى عالم هو بين العالمين، عالم الأموات- الأحياء، وأخيرًا لم يعد لديّ وزن ولا صلات ولا وشائج، أنا في خيمتي[1] بالقرب من السفن المقعّرة، لقد تخلّيت عن كلّ شيء، أنا في عالم السجاجيد الرماديّة وشاشات التلفزيون وهذا سيدوم، كلّ شيء سيدوم، لم يعد هناك آلهة غاضبون لم يعد هنالك محاربون بالقرب منّي تستقرّ الطائرات، طيور النورس، أسكن في المنطقة حيث النساء متزيّنات ويرتدين لباسًا كحليًّا ومشمالاً جميلاً بلون السماء المنجّمة، لم يعد هنالك رغبة، ولا طيران، ولا شيء، أعوم طويلاً، زمن ميت حيث اسمي يتكرّر مجتاحًا الهواء، هذا هو النداء الأخير، النداء الأخير لجميع المسافرين لآخر رحلة، لن أتحرّك، انتهت الاسفار، والحروب، قربي الشخص ذو النظرة الصريحة يبتسم لي فأردّ له ابتسامته، منذ سنوات وهو لا يزال هنا معلّقًا، هو أيضًا موثق إلى مقعده منذ سنوات، إنّه هنا، منذ ما قبل اكتشاف الطيران، لديه وجه محبّب، إنّه دخيل، عملاق، عملاق

(1) في الإلياذة يجري الكلام كثيرًا عن خيمة أخيل حيث كان يختلي بنفسه حين يتولّاه الغضب الشديد ولا يعود يحفل بما يحيط به.

بلاد الكلدانيّين حتى لتخاله يحمل العالم على كتفيه، إنّه هنا منذ أقدم العصور، بين طائرتين، بين قطارين، ليجردّوني إذًا من اسمي الجديد، وهم ينادونني به في مكبّرات الصوت، أفكّر في ذارعي الطائر الفولاذي اللتين تنتظرانني، مئة وخمسون مرافقًا في اليمبوس أقلعوا قبلي، لكنّي أمتنع عن ذلك، أنا أخيل الذي هدأ روعه، الرجل الأوّل، الرجل الأخير، وجدت لنفسي خيمة، إنّها لي هذه السجّادة غير القابلة للاحتراق، وهذا المخمل الأحمر، إنّه اسمي الذي يهتفون به، وهذا هو مكاني، لن أنهض، جاري كاهن أبولون نصف إله، رأى الحرب هو أيضًا، رأى الحرب والشمس الباهرة للأعناق المقطوعة، ينتظر بهدوء نهاية العالم، لو أنّني أجرؤ، لو أنّني أجرؤ، لوقفت على كتفيه مثل طفل مضحك، سأطلب منه أن يجتاز بي أنهارًا، أنهارًا محظورة ومقفلة لا يمكن اختراقها، وأنهار سكاماندر أخرى سدودها من جثث، سأطلب منه أن يكون قطاري الأخير، طائرتي الأخيرة، سلاحي الأخير، شرارة العنف الأخيرة التي تخرج منّي، أستدير ناحيته لأطلب منه لأتوسّل إليه بأن يأخذني، ينظر إليّ بعطفٍ لا متناهٍ، ينظر إليّ ويقترح عليَّ فجأة سيجارة يقول لي: يا صاح هل تريد سيجارة أخيرة قبل نهاية العالم؟ سيجارة أخيرة قبل نهاية العالم.

شكر

هذا الكتاب مليء بكلّ هؤلاء الذين أسّروا لي بقصصهم، فلاهو س.، غسان د.، عماد الحدّاد، يوسف بزي، ساندرا بالسلس، سيلفان إستيبال، إيفور مارويفيتش، الكسندرا بتروفا، دايفيد بلومبرغ، باتريك درفيل، ألفييرو ليبي، هوغو أورلانديني، أحمد رياحي، إدواردو روسا، ياسمينا بلحاج، هانس ب.، مريام فروتيجر، مانوس ديمتريوس وجميع الآخرين، شهودًا وضحايا أو جلّادين، من برشلونه من بيروت، ودمشق، وزغرب، والجزائر وسارابيفو، وبلغراد، وروما، وترييستا، واستانبول. من جهة أخرى أنا مدين كثيرًا للصحافيّين والمؤرّخين والسينمائيّين والموثّقين الذين استخدمت عملهم خلال السنوات السابقة في المنطقة، وكذلك لهؤلاء الذين رافقوني في هذه الأسفار الطويلة، شكرًا جان رولان لكونك تكرّمت عليّ وسمحت لي بأن أعنون هذا الكتاب Zone كما خطّطت مسبقًا، وشكرًا برباره وبيار لوغران، وإلى الفريق بأكمله، إلى كلارو الذي بالإضافة إلى صداقته والمأوى والمسكن، قدّم لي الصفحتين اللتين عُثر عليهما في يوميّات فرنسيس بويكس.

أن تعترف بالخطأ من دون أن تخسر الصواب: كانت لي لحظاتي من المحبّة ولا أستطيع تركها تنساق لحالها

ثمة ضوء صغير أشبه بوميض

يرجعنا إلى البهاء.

عزرا باوند

حدود

المحتويات

في ليلة مفصليّة، استقلّ مسافر مُثقل بالأسرار القطار متّجهًا من ميلانو إلى روما وفي حوزته زاد ثمين عليه بيعه إلى موفد من الفاتيكان. وإذا سارت الأمور وفق ما يشتهي يستطيع فرنسيس سيرفين ميركوفيتش أن يغيّر مجرى حياته بعد أن عمل جاسوسًا لمدّة خمس عشرة سنة في منطقة المتوسّط (بدءًا بالجزائر ثم في الشرق الأدنى كلّه) تعقّب خلالها العاملين في الظل (من محرّضين وإرهابيّين وتجّار أسلحة ومخدّرات وجهات راعية ومخطّطين ومنفّذين ومجرمي حرب فارين)، لكنّه شارك هو أيضًا في المذبحة عندما رمته حرب البلقان في دورة العنف المروّعة.

وعلى مدى الرحلة يجول عابر الليل ذكريات العصور في صحبة الآلهة زوس وأثينا ذات العينين الزرقاوين وآريس المسعور. ينطلق القطار ويبدأ الراوي جملة هائلة أشبه بمناجاة لامتناهية مستكشفًا الزمان والمكان، ومستخرجًا مثل أثريّ فسيفساء الحروب المتوسطيّة حيث يتداخل الجناة والضحايا والأبطال والمجهولون والمرحّلون والمرتزقة والشهود والرسّامون والأدباء والإنجيليّون والشهداء. . . وهناك أيضا آلهات القدر اللواتي يتحكّمن بمصير سيرفين بالذات: انتصار المقاتلة الفلسطينيّة المتخيّلة ومريان الوادعة وستيفاني الحاذقة وساشكا الصامتة.

وهل من مشهد يختصر العنف الذي شهده قرن بأكمله أبلغ من قطار يقلّ ذخائر الموت أو جماعات البشر المساقين إلى حتفهم؟ بعد خمسين عامًا على صدور رواية ميشال بوتور *La Modification* التي تدور أحداثها داخل قطار، كذلك تقترح **زون** ماتياس إينار ملحمة جديدة مؤلّفة من أربعة وعشرين نشيدًا وكأنّها إلياذة معاصرة يحدوها نفس واحد تتردّد فيه جلبة العصور وأهوالها.

ولد ماتياس إينار في فرنسا عام 1972، باحث ومتخصّص في اللغتين العربيّة والفارسيّة صدرت له روايتين عن دار *Actes Sud*: *La Perfection du tir* (2003) (جائزة القارات الخمس عام 2004)، *Remonter l'Orénoque* (2005)، وكذلك *Bréviaire des artificiers* (2007) عن دار *Verticales*.

عن روايته *Zone*، نال جائزة قدموس خلال معرض الكتاب الفرنكوفوني في لبنان وجائزة «أنتر الفرنسيّة».

صورة الغلاف: © بيار ماركيه

ISBN 978-9953-17-047-3





